السور القرآنية في حركية السيرة النبوية ﷺ

ظروف نزولها وموضوعاتها - دراسة سياقية

يتناول البحث رصد التعددية المجتمعية وأسس التعامل مع الآخر أنموذجًا
واستنباط منظومة إدارة التنوع في المجتمع

تأليف الدكتور
أمير عبد الكريم سوبره

تقديم
فضيلة المحدث الدكتور
بسام عبد الكريم الحمزاوي

أصل هذا الكتاب أطروحة تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه

مؤسسة الرسالة ناشرون

السّور القرآنيّة في حركيّة السّيرة النّبويّة

ظروف نزولها وموضوعاتها - دراسة سياقيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مؤسسة الرسالة ناشرون
انتشار بألوان الطيف



هاتف: ٢٣٢١٢٧٥ ١١ (٩٦٣)
فاكس: ٢٣١١٨٣٨ ١١ (٩٦٣)
ص.ب : ٣٠٥٩٧

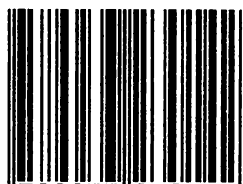
بيروت - لبنان
تلفاكس: ١٧٠٠٣٠٢ ١ (٩٦١)
١٧٠٠٣٠٤ ١ (٩٦١)
ص.ب : ١١٧٤٦٠

Resalah Publishers
Damascus - Syria
Tel:(963) 11 2321275
Fax:(963) 11 2311838
P.O.Box: 30597
Telefax: (961) 1 700 302
(961) 1 700 304
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

Http://www.resalah.com
E-mail: resalah@resalah.com
facebook.com/resalah2007
twitter.com/resalah1970
instagram.com/resalahpublishers.

ISBN 978-9933-23-014-2



①

السور القرآنية في حركية السيرة النبوية ﷺ

ظروف نزولها وموضوعاتها - دراسة سياقية

يتخلل البحث رصد التعددية المجتمعية وأسس التعامل مع الآخر أنموذجًا
واستنباط منظومة إدارة التنوع في المجتمع

تأليف الدكتور
أمير عبد الكريم سوبره

تقديم
فضيلة المحدث الدكتور
بسام عبد الكريم الحمزاوي

أصل هذا الكتاب أطروحة تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه

مؤسسة الرسالة ناشرون



إهداء وشكر

بصفة طالب علم بموضوعيَّة وفِكر ورؤية وروحيَّة

ومشروع وممارسة للتنوُّع...

أُهدي هذه الأطروحة كإحدى نتائج هذا الطَّلب:

♥ إلى الإمام محمد متولِّي الشعراوي

فعبره بدأ تذوُّقي لأنوار القرآن بالنموّ

♥ وإلى الشيخ عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني

♥ والدكتور محمد عابد الجابري

فمن بابهما تعرَّفتُ على أهمية السياق القرآني

ثمَّ ولَجتُ إلى موروثه في علوم القرآن

♥ وإلى الأستاذ وسيم المغربل

فمعه ركبت بحر السيرة بأمواجه

♥ وإلى أُسرتي الصغيرة وعائلتي الكبيرة

على صبرها وتفهُّمها طيلة تلك الرحلة

♥ وإلى نخب مجتمعاتنا وشبابها التي تتطلّع إلى كلّ إسهامٍ في فكر تجديديٍّ لمنهجيات تأصيلية دينية

فتستفيد منه النخب في آمالها،

ويتعزّز وعي شبابها في واقعهم تحصينًا وتنمية

ولا يفوتني التقدُّم بالشكر والتقدير أيضًا إلى

حضرة رئيس جامعة القدّيس يوسف

وعميد كلية العلوم الدينية،

ولجنة الإشراف والمناقَشة،

على ما فتحوا لي من مسارات

أسهَمَت في تطوير الأطروحة وتوجيه دفَّتها

سائلاً الله تعالى أن تكون تلك الأطروحة خالصة لوجهه الكريم

ونافعة لمجتمعاتنا العربية والإسلامية والإنسانية.



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث للجن والإنس المكلفين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن اتبعهم بهدى وإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد؛ فإنَّ موضوع التعددية في أطياف المجتمع الواحد يعد من الموضوعات المهمة في الحياة الإنسانية إذ إن ألوان وأطياف شرائح المجتمع الواحد لها آثار على أفراد ذلك المجتمع، من هاهنا كان لا بد من إدارة ذلك التعدد وتنظيمِه، والتعددية الاجتماعية ظاهرة واضحة في تاريخ المجتمع الإنساني، وقد ظهرت في وقت مبكر منه، فإن التمايزات على المستوى الثقافي والعرقي والديني... تفرض اختلافًا في المواقف المتعلقة بها. كما أنَّ التعددية مرآة لعالَم متنوع مختلف من قديم الزمان، فكيف نتعامل معها؟

لعل الناظر في أحداث التاريخ القديم والحديث يرى الناس أفرادًا وجماعات في بعض مسارات الحياة لا يحسنون التعامل مع التعددية، بل ربما يديرونها بشكل مغلوط غير سوي، فمن أغلاط وانحرافات التعامل مع التعددية:

١ ـ **التعصب المقيت**: ليست المشكلة أن أقنع بفكرة، ولا يَحرُم أن أتمذهب بمذهب، ولكن التعصب أن أرفض الآخر المعتبر، وقد دقق علماؤنا بأن فرقوا بين القطعيات والظنيات، فالأصل في الصواب أنه: خلاف الخطأ، وهما (الصواب/ الخطأ) يستعملان

في الظنيات، والحق والباطل يستعملان في القطعيات كالمعتقدات، ولذا قال علماؤنا ـ رحمهم الله تعالى ـ: إذا سئلنا في مذهبنا ومذهب من خالفنا في الفروع والظنيات، يجب علينا أن نجيب: بأن مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب من خالفنا خطأ يحتمل الصواب، وإذا سئلنا عن معتقدنا ومعتقد من خالفنا في القطعيات، يجب علينا أن نقول: الحق ما عليه نحن، والباطل ما عليه الطرف الآخر، وهذا في منتهى الإنصاف لأن ثبوت الأمر غالبًا يقال له: ظن أي نسبة ثبوته مثلاً (٨٥٪) وإذا قنعت بهذه النسبة فأنا ملزم بها لكن مخالفي معه احتمال صواب (١٥٪) فمذهبي صواب لأنه غلبة ظن ويعمل به لكنه محتمل للخطأ أي: (١٥٪)، ومذهب غيري خطأ لأن الراجح في وجود الخطأ (٨٥٪) لكنه محتمل للصواب الذي هو (١٥٪)، وهذا يفتح المجال للبحث العلمي، وعدم التعصب وتصويب الباحث لمذهبه عندما يظهر له الصواب، وهذا المبدأ جعلنا نجد الإمام الشافعي [ت: ٢٠٤هـ] ـ رحمه الله تعالى ـ يُعرف له مذهب قديم في العراق ومذهب جديد في مصر غير ما كان يفتي به لأن عينه ترنو إلى الصواب والتصويب، وهذا إمام عصره أبو الحسن الأشعري [ت: ٣٢٤هـ] ـ رحمه الله تعالى ـ ينتقل نقلة نوعية من فكر الاعتزال إلى منهج أهل السنة بموازنات بين الصواب والخطأ؛ أما إذا كان الاختلاف في أمر من القطعيات فلا أبالي بالمخالف وأجزم ببطلان ما عنده إذ كيف أقبل من يقول لي ـ والشمس في رابعة النهار ـ: الآن نحن في منتصف الليل؟!! ولعل من أمثلة التعصب المفسد ما كان من شأن جماعة من الحنابلة والأشاعرة في بغداد ودمشق وغيرهما من خصومات وفتن، وربما مال أمراء وحكام إلى طرف على حساب طرف فيُعتقل أناس ويُؤْذَوا تحت ستار الدين والتدين؟!!، والمعتزلة الذين تعصبوا لآرائهم ورأوا غيرهم في ضلال، ورأوا الحق كل الحق فيما قرروه والضلال كل الضلال فيما تقرر عند غيرهم لم يألوا جهدًا في حمل الخليفة العباسي على البطش

بألوان التعددية الدينية في المجتمع، وإرغام العلماء على التصريح باتباع مذهب الاعتزال حتى وصل الأمر إلى سجن وتعذيب الإمام الرباني أحمد بن حنبل [ت: ٢٤١هـ] ـ رحمه الله تعالى ـ تحت شعار وستار التدين؟!!

٢ ـ تمييع الحقائق، وادعاء أننا كلنا على صواب، أو لا ندري أين الصواب: فَتَحْتَ ستار التعددية صرنا نُقر الباطل، وتحت ستار التعددية نلغي الذات، وبمراعاة التعددية ننفي الثوابت، وقد كان هذا منهجًا لجماعات من الفلاسفة قديمًا، ولطالما حذَّر منه علماؤنا، بل نجد النجم النسفي [ت: ٥٣٧هـ] رحمه الله تعالى يفتتح عقائده بقوله:

«حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق؛ خلافًا للسوفسطائية».

ويتوالى الشرَّاح والمحشون كالتفتازاني [ت: ٧٩١هـ]، والخيالي [ت: ٨٦٠هـ]، والقاضي الكستلي [ت: ٩٠١هـ]، والشيخ رمضان [ت: ٩٧٩هـ] على إقرار ذلك مفصلين وموضحين:

بأن الحق هو الحكم المطابق للواقع، ويُطلق على الأقوال والعقائد والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابل الحق الباطل، ثم تعرضوا للسوفسطائية من الفلاسفة، وهم ينكرون الحقائق والمحسوسات، وهم ثلاثة فرق:

- **الأولى**: اللا أدرية: يشكون في كل شيء، فهو شاكٌ، وشاك في أنه شاك، فلو عرضت عليه أي حقيقة فهي غير قطعية بل صوابها لا يعدو ٥٠٪.

- **الثانية**: العنادية يزعمون أن لا حقيقة (ينكرون الحقيقة).

- **الثالثة**: العِندية يقولون: حقائق الأشياء تابعة للاعتقاد، فمذهب كل طائفة حق بالنظر إليهم، وليس في نفس الأمر شيء بحق، فالحقيقة بالنسبة إليك ما تعتقده، وإن كانت هي بالنسبة لغيرك باطل (ينكرون ثبوت الحقيقة).

وحوار هؤلاء في الحقائق صعب لأنهم لا يعترفون بمعلوم ليثبت به مجهول، فالصواب حوارهم في آلية التفكير، وتعجب اليوم من اتجاهات فكرية في الغرب تتبنى (لصالح من؟!!) ببعض جوانب الفكر مثل هذا الإنكار للثوابت، وقد كان المسلمون من أكثر الناس دقة في هذا المجال، ولذا تراهم يفرقون دائمًا بين القطعي والظني، بل يدققون على المدركات الذهنية الخمسة:

(علم/يقين)، ظن، شك، وهم، جهل (بسيط/مركب)

وبينون على ذلك الخلاف المعتبر من غير المعتبر، وينشدون:

وليس كل خلاف جاء معتبرًا إلّا خلاف له حظ من النّظر

٣ ـ استغلال الانتماء (ولا سيما الديني أو العرقي) لمصالح خاصة، أو مصلحة لجهة ما: إنَّ الانتماء والتعددية إذا لم يُدَر بأيد أمينة عاقلة فاهمة أوصل إلى كوارث في المجتمعات الإنسانية، ومكَّن المفسد أن يعزف على وتر الطائفية أو المذهبية أو العرقية... ليحرك بل يشعل خصومات ربما أوصلت لحروب طاحنة، وما تجييش أوربا تحت شعار الصليب التي استحلت به الدماء في الشرق عنا ببعيد؟

ومما ينبغي التنبيه عليه أن التعددية في حد ذاتها لا تعد ـ عندنا كمسلمين ـ مشكلة، ولكن إشكالها يرجع إلى أمرين:

الأول منهما: عندما تؤدي التعددية إلى آثار عدوانية تهدد أمن مجتماعتنا وتحرمها الاستقرار، وتوصل بها إلى الهاوية.

ثانيهما: عندما تضيع الحقائق تحت شعار التعددية، ويفقد المسلم هويته.

واليوم تتعدد التعاريف والضبط لمصطلح التعددية ـ ولا سيما في الغرب ـ فهي عند جماعة: «الاعتراف بحقوق الإنسان في المجتمع، وبكرامته وبرسالته مثلما تفترض الإقرار بواجباته ومسؤولياته»، وعليه تعتبر التعددية شرطًا لممارسة الديموقراطية؛ أمَّا عند آخرين فالتعددية: «تنظيم حياة المجتمع وفق قواعد عامة مشتركة تحترم وجود التنوع والاختلاف في اتجاهات السكان»، وفي بعض الموسوعات الغربية: «التعددية هي: الاستقلالية التي تحظى بها جماعات معينة في إطار المجتمع مثل الكنيسة، والنقابات المختلفة، والاتحادات العمالية، والأقليات العرقية. .»، ووصل الأمر في التعددية أن تعد نظامًا سياسيًا لا مجرد مفاهيم علمية فكرية، ونلتفت إلى عالمنا الإسلامي أو الإسلاميين في بلاد الغرب، فنجد كثيرًا من الجدل والحوار بل الخصومات أحيانًا في تقعيد ضوابط التعددية والتفاعل معها أو الإعراض عن معناها، وهل الإسلام يقر الحزبية الدينية، وأن التحزب الإسلامي يعني: مشاركة في الانتخابات لصيانة حقوق، وتداول سلطة، وبعد عن التسلط. . . ، ويخالف فريق آخر فيرى في الحزبية فُرقة، وحكم بغير ما أنزل الله، وتقليدًا للأنظمة الغربية فلا يصلح ذلك حلاً في النظام السياسي الإسلامي. . .

فكان لابد من تأصيل هذا الموضوع المهم باعتبار الشريعة الإسلامية ليساهم المسلم برفد الفكر العالمي بأحكام الشريعة الغرَّاء، وليكون على بينة من أمره في عيش واقعه.

وقد عرض عليَّ أخي الفاضل الشيخ الدكتور **أمير عبد الكريم سوبره البيروتي** أطروحته (منهج التعددية المجتمعية في الإسلام: من الرؤية إلى الإدارة)[1] التي نال بها

(١) وقد طبعت الأطروحة - وهي الكتاب الذي بين أيدينا ـ باسم: **السور القرآنية في حركية السيرة النبوية**، ظروف نزولها وموضوعاتها ـ دراسة سياقية.

درجة الدكتوراه لأكتب مقدمة لها قبل دفعها للطبع، ولعل ذلك لأني رافقته في بعض مراحل كتابتها وربما تحاورنا في بعض مباحثها، فأشكر له ثقته الغالية، وأقول:

لا شك أن هذا العمل من أخينا جهد طيب بذل من أجله نفيسَ وقته ومستطاعَ جهده، وهو **مدخل تأصيلي** في الموضوع **يحتاج إلى أبحاث أخرى تتم وتستدرك وتنقد**. . . ، وإن الباحث لبناني الجنسية يستشعر أهمية الموضوع من حال بلده متعدد الطوائف، ومن عاش حربًا طائفية دامية فحق له أن يؤصل لموضوع حساس أعني: (موضوع التعددية المجتمعية) باعتبار توجيهات الإسلام ومبادئه، وبما أنَّ مجتمعاتنا العربية تعد إجمالاً مجتمعات متدينة وهي مع ذلك لا تخلو من التنوع على المستوى العقدي والثقافي. . . فقد اكتفى الباحث في عرضه على أصلين كريمين: السياق القرآني باعتبار النزول، وأحداث السيرة النبوية العطرة.

قاصدًا الرجوع إلى المصدر الأول عند المسلمين وكيف كانت توجيهاته لموضوع التعددية والتعامل معها، وكيف عاش الجيل الأول مع نبيه الكريم وكيفية تعاطيه مع أطياف المجتمع من يهود ومشركين عبدة أوثان ومنافقين. . مع استنباطات متعلقة بإدارة النبي عليه الصلاة والسلام للتعدديات الدينية والقبلية. . . من حوله، ولذلك كان بحثه يدور على بابين:

- التعددية في العهد النبوي.
- إدارة النبي عليه الصلاة والسلام للتعددية.

وللوصول إلى المقصود كان على الباحث من وجهة نظره أن يعتمد على النص القرآني **باعتبار ترتيب نزوله**[1]، ويوازي ذلك شواهد السيرة النبوية، وأسباب ورود الحديث الشريف ليُفهم النص باعتبار ما أحاط به من أحداث ومن خوطب به من شرائح الناس، وقد راعى الباحث الوسطية ما استطاع بلا إفراط ولا تفريط بلا تشدد ولا تسيب يريد أن يفهم حقيقة التعايش مع الآخر، وكيف تدار التعددية باعتبار الشرع الحنيف لا باعتبار كلمة قالها فلان تحت ظرف استثنائي عاشه، ولا لفتوى أفتى بها فلان بناء على معطيات غير دقيقة وصلته لذلك رجع إلى القرآن الكريم والسيرة العطرة.

وأصل موضوع التعددية باعتباره العام يدور بين أمرين: تنازلات متبادلة، وتوازنات في المجتمع، ولما كان التنوع في الحياة الإنسانية متعددًا يشمل: التنوع الانتمائي (قبلي، أسري، وطني، عرقي)، والبيئي تؤثر فيه الموروثات الثقافية والعادات، والديني، والعلمي، والطبقي، إلى غير ذلك من الانتماءات في حياتنا الإنسانية وبما أن الباحث يريد مقصدًا معينًا فقد اكتفى بالتركيز على التعددية: العقدية والثقافية والسياسية والعرقية والطبقية، وما كان من غيرها فهو مذكور على سبيل العَرَض.

وقد استعرض الباحث السيرة النبوية وما يوازيها من خطاب القرآن الكريم، فتوصل إلى أنَّ قريشًا في العهد المكي تمثل رافضي التعديية المجتمعية خوفًا على مصالحها، كما أثبت أنَّ في الإسلام أصولاً في رؤية التعددية المجتمعية وسياسات

---

(١) أجد ـ والله تعالى أعلم ـ أن ترتيب القرآن الكريم على ترتيب نزوله يمكن لآيات وسور محدودة، ولا أرى ذلك يصلح لكل آيات القرآن الكريم ولا لجله وصعوبة ذلك فقد النص، وهذا الترتيب حقيقة تاريخية، والأصل أن لا يعمل به الاجتهاد.

إدارتها ـ ولعل بعض الجوانب تحتاج إلى ضوابط ترجيحية ـ، وقد أفاد في أطروحته ـ كما يقول ـ ارتباط التعددية وسياسات إدارتها في العهد النبوي بمشروع دعوي وقضية إيمانية قِيَمية إنسانية، ومع ثبات تلك الرؤية طيلة السيرة إلا أن آليات الإدارة هي التي بدأت تظهر تباعًا عند اختلاف معايير مراحل السيرة بتتابع أحداث القضية، فحققت السنن في تتابع الأحداث في العهد المكي تمييزًا لأصناف المجتمع بين طرف يُصر على قيمه وآخر يعتدي عليه، وكان التقدم والتطور الموصل إلى التمايز بسبب ممارسات المعتدي وثبات الطرف الأول، وشكلت في العهد المدني مبادرات متاحة وفق القيم لتغيير سياسات الاعتداء مع ما فيها من محاسبة، وأترك القارئ الكريم مع تفاصيل الكتاب ليقرأ فيه قراءة الفاهم الناقد، وعسى أن يكون هذا الجهد الطيب مبادرة نافعة لها ما بعدها، وصلى الله تعالى على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الخميس: ٢٨ جمادى الآخرة / ١٤٣٩هـ

١٥ / ٣ / ٢٠١٨م

وكتبه:

بسَّام عبد الكريم الحمزاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين ومَن تبعهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين.

١ ـ مسوِّغات اختيار البحث[١]:

➢ ينتمي هذا البحث إلى العلوم الشرعية بالتأصيل السياقي من القرآن والسيرة، كما ينتمي إلى موضوع التعددية المجتمعية رؤية وإدارة، وهو يُمثِّل بذلك نتيجةً لتفاعل مستمرٍّ لديَّ بين:

❑ دائرة ميولي العلمية كباحث في تدبُّر القرآن الكريم والسيرة النبوية (التي تُعتَبر بيانًا عمليًّا للقرآن وتُعبِّر عن تحرُّكٍ واقعيٍّ في تطبيق مقاصده).

❑ ودائرة تخصُّصي الأكاديمي في مقارنة الأديان والعلاقات بين الطوائف، والتي تتأسَّس على قاعدة الاعتراف بالتعدُّدية.

❑ ودائرة الحاجة المعاصرة التي قدَّرتُها لمجتمعاتنا العربية المستقرَّة نسبيًّا، التي رغم ما تكتنزه من «تراث عميق في الإدارة للتنوُّع الديني، إلا أنَّ هذه الإدارة تشكو من تراجع، فتعيش مجتمعات عربية مخاطر انفصام نسيجها المتنوِّع»[٢]، سواء برؤى فئات المجتمع

---

(١) سيتم في هذا العنوان الحديث عن الأسباب الواقعية المجتمعية لظهور الكتاب، على أن يتم إرجاء الجانب العلمي (تدبر القرآن والسيرة) إلى ص١٣ ـ ٤١ وص١٢٦ ـ ١٣٦ والجانب التخصصي (مقارنة الأديان) إلى ص٨٣ ـ ٩٢ وص١٠١ ـ ١١٢.

(٢) د. أنطوان مسرَّة، «مرصد التعددية الدينية في المجتمعات العربية وإدارتها الديمقراطية»، د. أنطوان مسرة وربيع قيس ود. طوني عطاالله، **مرصد التعددية الدينية في لبنان والمجتمعات العربية**، وقائع الندوة التي عُقدت في كلية العلوم الدينية الماستر في العلاقات الإسلامية والمسيحية في ٢٤ و٢٥ تشرين الأول ٢٠٠٩م، ص٣٣، بتصرُّف.

للتعامل مع التعدُّد من جهة، أو سياسات سلطات المجتمع في إدارتها لهذا التعدُّد من جهة أُخرى. خاصَّة إذا تبيَّن أنَّ بين هذه الفئات مَن يُعاني من الاختلاف بسبب تاريخ ذهنيَّات ومطلوب هويَّات متفاوت ـ إن لم يكن متعارضًا ـ بين مجموعة من المواطنين ومجموعة أُخرى من مواطني البلد ذاته. بل وتشهد مؤشِّرات عدَّة بوجود نيَّات مركَّزة تعمل بجهد وتصميم لتزكية هواجس طرف على آخر، فتُحدِث فتنًا تُضعف جميع الأطراف وتُسهِم في تفكيك نسيج المجتمع المتنوِّع.

❐ ودائرة الحاجة الرَّاهنة التي قدَّرتها للمجتمعات العربية غير المستقرَّة، والتي تُحاوِل بعض كوادرها بناء أنظمة (إدارة) جديدة لها في أجواء من التغييرات أدَّت إلى الدخول في منعطفات كبرى تتخلَّلها أحداث وصراعات دامية وممارسات للعنف[1] والاقتتال، سواء أكان منهجيًّا منظَّمًا أم رَدّ فعل فردي انفعالي مفاجئ. الأمر الذي يُؤثِّر بشكل كبير وخطير على الأمن الاجتماعي والاستقرار السياسي بسبب تمزيق عُرى النسيج الاجتماعي وانهيار مؤسسات المجتمع وانحدارها في مسيرتها الحضارية مدنيًّا وقيميًّا، علميًّا وأخلاقيًّا. ثمَّ كالعادة بعد كلِّ تغيير يدور النقاش السياسي حول الأحقيَّة في الحكم ومصادر الشرعية وآليَّاتها في النظام الجديد، لتعلو صيحات ـ من هنا وهناك ـ تُريد كلٌّ منها أن تأخذ البلاد ـ بحسب أيديولوجيَّتها وبرنامجها ـ إلى ما تراه يُحقِّق المصلحة لهذا المجتمع، ولو عارض هويَّة شريكه في المجتمع، أو انقسم عنه وصولاً إلى الاستقواء عليه، ممَّا يصبُّ في إعادة سيطرة الهواجس على كلِّ طرف، لتبدأ هواجس السيطرة بالبروز مجدَّدًا (من حكم النَّاس إلى التحكُّم بهم).

---

(١) أعني بالعنف: استخدام القوة للتأثير على الآخرين. وهو يتدرَّج من الإيذاء الفردي وصولاً إلى الإبادة الجماعية. وهذا المعنى للعنف يتعلَّق بالتعدِّي على الأبرياء، كما يُعتبر وسيلة خاطئة في التعامل مع المعتدين (خارج ساحات المعارك العسكرية). وإنَّ العنف في هذه الأحوال لا يُحدِث التغيير الحقيقي، والأصل عدم استعماله داخل المجتمع. أما العنف عند القتال في ساحات المعارك العسكرية فهوالدور الموجَّه إلى الخارج لردع المعتدين.

من هنا، واستجابة لتلك التحديات لدى فئات هذه المجتمعات وسلطاتها، في واقعها المستقرّ أو المضطرب، كان:

□ لا بدَّ من «إعادة الأخلاق إلى السياسة، والقيَم إلى إدارة الشأن العام، والقيام بمراجعة ذاتية جذرية لإزالة الغشاء الذي يحجب [كل طرف] عن [الانسجام في] المجتمع»[١] دون أن يمنع ذلك أن يحتفظ كلُّ طرف بخصوصيَّاته التي تُشكِّل هويَّته.

□ لا بدَّ من التمهيد لتشكيل هوية جامعة تنهض بواقعها، برؤية مشتركة وروحية متماسكة، تُحدَّد بناء عليها الاختيارات البنَّاءة في المجتمع دون هدم للآخر أو ظلمه. وهذه الهوية المشتركة للعيش معًا في مجتمعاتنا المتعدِّدة تُلزمنا أيضًا البحث عن حدود وأبعاد وضوابط التنازلات المتبادلة ومراعاة التوازنات في المجتمع، بلا خَوف أو شعور بغبنٍ أو سوء ظنٍّ بالآخر. بل بتحمُّل للمسؤولية، مع شجاعة بطرح المبادرات الإيجابية.

□ لا بدَّ من ترسيخ قِيَم ومبادئ متَّفق عليها، تحكم الحياة في المجتمع من كافَّة نواحيه ليحتكم النَّاس عند الاختلاف إلى قواعدها بشكل يُحقِّق إدارة التعددية التي لا تجعل لطرف استقواء على آخر.

□ لا بدَّ من وجود ضمانات تكفل حماية حقوق النَّاس، في أيّ عهد ومكان وزمان، ومهما كان موقف بعضهم من الأنظمة، لأنَّه لن يكفي مجرَّد الإعلان عن وجود هذه الحقوق.

□ لا بدَّ من مواكبة واقع النقاش السياسي وممارسات العنف برؤية فكرية تأصيلية، تُقدِّم إطارًا نظريًّا للمصالح والمفاسد، فتضبط خيارات التعامل مع الصراعات السياسية والعنفية في المجتمعات، دون تجاوز الحدود بأخطاء وخطايا، يجد لها أصحابها ـ والمتعاطفون معهم ـ التبريرات المسوِّغة للقيام بها بسند أيديولوجي أو براغماتي.

---

(١) الأب فادي ضو، «الطوائف في المجال العام: كيف نواجه الطائفية والجماعوية؟»، د. أنطوان مسرة وآخرون، **مرصد التعددية الدينية**، ص١٧١، بتصرُّف.

□ ولا بدَّ من كسر الحلقة التي تُعيد إنتاج هواجس السيطرة بمظاهر ولغة جديدة.

هذا، ولأنَّ **التنوُّع الإنساني الذي يؤثِّر في اختلاف الآراء في المجتمع** قد يكون:

□ **تنوُّعًا انتمائيًا**: انتسابًا قَبَليًّا/ عائليًا ـ أرضيًا/ وطنيًا ـ عرقيًا ـ اثنيًا. وقد يستتبع الاختلاف بسبب تاريخ أحقاد متوارث وعصبيات داخلية قد تتعارض مع المبادئ العامة والإنسانية.

□ **أو بيئيًا**: البيئة ومحيط التنشئة والموروث الثقافي والعادات والطباع الجِبِليَّة. وقد يستتبع الاختلاف لتأثيرها كعناصر في تشكيل الهوية[١].

□ أو مصدريًا ـ **دينيًا**: مصادر التلقّي. وقد تستتبع الاختلاف في تبنِّي المعتقدات والتشريعات.

□ **أو خُلُقيًا**: حالة النَّفس السلوكية بين التواضع / الكِبْر والزهد / الحِرص والرضا / الحَسد... وقد يستتبع الاختلاف حسب نِسبة السلامة / الأمراض منها.

□ **أو علميًا**: نسبة المعلومات المتوافرة وإدراك المصطلحات وأبعادها. وقد يستتبع اختلافًا في التقدير.

□ **أو تحليليًا**: تفاوت القدرات العقلية والخبرات الحياتية المُعينة على تحليل تلك المعلومات وفهم أبعادها لتقدير المصالح واعتبار المآل. وقد يستتبع ذلك التأثير في اتخاذ المواقف السياسية.

□ **أو طَبَقيًا**: اجتماعيًا ـ اقتصاديًا. وقد يستتبع الاختلافات بسبب نزاعات داخلية بين الطبقات.

□ إلى غير ذلك كالتنوُّع العمري (تفاوت الفئات العمرية)، والجنسي (في نسج العلاقة بين الرجل والمرأة، إضافة إلى أثر اختلاف ثقافتهما باختلاف طبيعة المجتمع).

---

(١) يُنظر مقدِّمة ابن خلدون في: ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، **تاريخ ابن خلدون**. ففيها عرض لتأثُّر البشر وأخلاقهم بالهواء وأحوال العمران.

فقد تَمَثَّل هدفي في استنباط منهج التعددية المجتمعية رؤية وإدارة، والتي سنختار منها الأقسام التالية: العَقَدية، والثقافية، والسياسية، والعرقية (ومعها القَبَلية بجامع الانتماء البشري)، والطبقية[١]. أما بقية مظاهر التنوُّع فستظهر في الأطروحة دون التركيز عليها.

وإنَّ المجتمعات العربية ـ سالفة الذكر ـ تشترك فيما بينها في أنَّها: مجتمعات متديِّنة عمومًا[٢]، يأخذ الدين فيها مكانته من حيِّزه الاجتماعي والحياتي ومن المجال العام، وهي أيضًا لا تخلو أبدًا من التنوُّع في كافة المستويات العَقَدية والثقافية والسياسية والعرقية والطبقية.

من هنا، لزم البحث في كيفية رؤية هذه التعددية وإدارتها ـ مع ما فيها من اختلافات وتفاوت في المصالح والأهداف ـ من خلال تأصيل سليم للتعددية المجتمعية من مرجعية الإسلام وموروثه العلمي والثقافي، الأمر الذي يُحقِّق مراعاة الخصوصيات الثقافية للمجتمعات التي تحمل هذه الرؤية وتُطبَّق فيها هذه الإدارة.

هذا، وإنَّ أيّ تأصيل من دين وموروثه، يحتاج من كلِّ باحث إيمانًا عميقًا وفَهمًا واعيًا

---

(١) يُراجع «مصطلحات عنوان الأطروحة ونقدها» من «دليل مصطلحات البحث» من «مدخل الدراسة» ص٨٣ ـ ٩١.

(٢) لم يكن الالتزام الديني أمرًا متفشِّيًا ظاهرًا. لكن، وبعد نكسة ١٩٦٧م، وحريق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩م (حيث برز التضامن الإسلامي بانطلاق منظمة مؤتمر العالم الإسلامي [التعاون الإسلامي اليوم] من إرادة ثماني عشرة (١٨) دولة إسلامية، ازداد عددها فيما بعد إلى أكثر من أربعين (٤٠) دولة، وما تلتها من أحداث وصولاً إلى الثورة الإسلامية في إيران ٧٨ ـ ١٩٧٩م، ثمَّ الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢م. كلُّها عوامل أدَّت إلى إشعال فتيل التديُّن لدى مجموعات من النَّاس، وإن اختلفت طوائفها. وهو ما سُمِّي بـ«الصحوة الإسلامية» التي هي عبارة عن: صحوة للمسلمين في واقعهم الحاضر. د.يوسف القرضاوي، **الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي**. وعبد الهادي بوطالب، **الصحوة الإسلامية**.

واستعدادًا للعودة إلى منابع الدين ودراسة سبيل المؤمنين من الجيل الأول في عَيشه ـ كحياة النبي ﷺ وآله وصحابته ﷺ عند التأصيل الإسلامي ـ والفهم بروحهم وعقولهم الكبيرة ونفوسهم المتسامحة، وطرح أمراض الفروع وطُفَيلِيَّاتها، في سبيل تجنُّب الاختلافات المخيفة التي جعلت الدين طرائقَ قِدَدًا. فيكون لكلِّ باحث الوعي النَّقدي لتحرير موروثه العلمي والثقافي من الهويات والأيديولوجيات ومبرِّرات السياسة وتراكمات التاريخ. وهذا المعيار مطلوب من جميع أبناء نسيج المجتمع المتنوِّع.

ولست أزعم أنَّ هذا هو ما نحتاجه حصرًا في مجتمعاتنا وأنَّه هو العلاج الحاسِم، بل هو مدخل هامٌّ في تأصيل فقه الدين الذي باختلاله يختلُّ فقه العيش. والحاجة مُلِحَّة في عالمنا العربي والإسلامي لأبحاث أُخرى، منها ما يُكمِّل هذا المسار باستنباط الأعراف المستقرَّة بعد العهد النبوي في التعددية المجتمعية رؤية وإدارة، ومنها ما يُكمِّل مسار فقه العيش بالاستفادة من تجارب المجتمعات التعددية في العصر الحديث في سياقات بنائها وآليات إدارتها.

وإنَّه بتأصيل فقه الدين ومآلاته في فقه العيش أسعى إلى تحقيق رسالة في الحياة استنبطتها بشكل محدَّد بعد تجربة بحث الماستر في العلاقات الإسلامية ـ المسيحية بعنوان: «العلاقات بين الطوائف اللبنانية من منظور التاريخ السياسي والواقع اليومي ـ قصة من جيلَي ما بعد الاستقلال وما بعد الطائف لعائلة لبنانية». وهذه الرسالة هي: **الالتزام بوضع فكر حواري عصري بأصالة الدِّين، يضمن نهضة العيش مع الآخر فهمًا وممارسة. بأن:**

أ. نصل إلى نهضة للإنسان تعكس قِيَمه ومبادئه الدينية بشكل سليم أمام الإنسان الآخر، وتسمح لقِيَم ومبادئ الآخر بأن تنعكس لديه تفهُّمًا ووعيًا (فقه الدين).

ب. نعود بفهمنا للدِّين إلى أصالته وروحانيَّته[1]، ليكون هو الأصل الذي تُبنى عليها

---

(١) فلا يُغني التديُّن الذي انتشر ثقافيًا لدى شريحة من النَّاس كترجيح مظاهر (عادة)، كما لا يكفي أن يتحوَّل إلى ترجيح مقاصد (فكر)، بل لا بدَّ أيضًا من الجمع الوجداني بين المظاهر والمقاصد (قلب).

العلاقة مع الآخر لرؤية التعددية وإدارتها بشكلهما السَّليم (فقه العيش). بدلاً من أن يكون الدِّين مستنَدًا ومُبَرِّرًا للفُرقة والاختلاف وفكّ الارتباط بين أبناء المجتمع المتعدِّد لأسباب لا تمتّ إلى روح الدين بصلة.

٢ ـ مرتكزات خطة البحث:

في سبيل خدمة هذه الرسالة بهدفها في هذه الأطروحة، قُمت بتقسيم الدِّراسة إلى مدخل وبابَين: مدخل الدراسة لعرض مسائل ذات صِلة بعنوان الأطروحة وفرضيَّتها وموضوعها، والباب الأول حول رؤية التعددية المجتمعية في العهد النبوي المكي، والباب الثاني حول إدارة التعددية المجتمعية في العهد النبوي المدني. وبذلك تكون سيرة النبي ﷺ هي عماد البحث عند التأصيل، وليست فقط النصوص العامة أو المطلَقة التي قد يختلف العلماء حول تأويلها.

وأقوم في هذَين البابَين بتقييد التأصيل من العهد النبوي (٦١٠ ـ ٦٣٢م / ٠١ من البعثة ـ ١١ من الهجرة)[١]، لأنَّه القدوة والمِثال[٢] في التعامل مع الأحداث والأشخاص والجماعات وفق مبادئ واضحة في إدارة الاختلاف. وتُعتبر مراحل السيرة النبوية[٣] عماد

(١) «كانت العرب في الجاهلية [قبل الإسلام] تؤرِّخ بالأحداث الجسام لإحصاء الأيام والأسابيع والشهور والسنين، وأشهر تلك الأحداث كان عام الفيل الذي وُلد فيه النبي ﷺ. ثمَّ جعل المسلمون زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مبتدأ التاريخ الإسلامي وقت الهجرة لما تحمله من معاني سامية. وأيام السنة الهجرية تقلُّ عن الميلادية بمعدَّل (١١) يومًا بسبب ارتباطها بالشهر القمري، الأمر الذي يؤدِّي إلى الفارق بين السنتَين». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص١١ ـ ٤٦ بتصرُّف. وأما عند الحديث عن المدة الزمنية ما بين بدء نزول الوحي على النبي ﷺ إلى هجرته، وهي (١٣) سنة، فيُشار إليها بالبعثة.

(٢) لقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

(٣) سيأتي تعريف مفصَّل للسيرة النبوية في «مصطلحات عنوان الأطروحة ونقدها» من «دليل مصطلحات البحث» من «مدخل الدراسة» ص٨٢.

البحث في هذا القسم، مع بعض التوسُّع فيها لإدراك بُعدِها الواقعي والبشري، كي لا يتمّ اعتبارها كاملة وحيًا لا طاقة على الاستنباط منها والقياس عليها للعمل وفقها أخذًا للعبرة واستلهامًا للحلول. وهنا أعرض فرضية وجود منظومة تقضي بأنَّ خيارات التعامل النبوي مع التعدُّدية تختلف بحسب اختلاف العوامل بين تلك المراحل التاريخية (كتشريع قتال المعتدين من المخالفين المقاتِلين بعد الهجرة إلى المدينة، أي: حرب بين تجمُّعَين/ كيانَين متمايزَين، وليس قبل الهجرة أيّ حرب أهلية في مكة). وقمت بحصر عشر مراحل متمايزة في السيرة النبوية سيأتي بيانها عند الحديث عن فرضيَّة البحث.

ويبرز ـ وفق توجيهات الوحي ـ الرؤية النبوية للتعدُّدية المجتمعية وسياسات إدارتها (من حيث التعامل مع الناس على مختلف انتماءاتهم وتوجُّهاتهم)، وقد تمَّ منهم تحديد: المسلم، والكافر، ومريض القلب، والكتابي، والمنافق، والمرتدّ، والمارق[١].

٣ ـ إشكالية البحث:

تكمن الإشكالية في أنَّ عموميَّات النصوص المنقولة والمتناثرة حول رؤية التعددية المجتمعية وسياسات إدارتها قد تُقابلها في التطبيق ـ المتأخِّر عن الجيل الأول ـ إسقاطات، فيظلُّ الاختلاف مطروحًا في النظر إلى تلك النصوص حسب خلفية الناظر إليها[٢]. فلا يتمّ الاجتماع على التأصيل السليم لمعرفة التعامل الصحيح مع أطياف المجتمع في الظروف المختلفة، فتتنازع النظريات وتفشل الكثير من رؤى التعددية المجتمعية وسياساتها، وينتج عن ذلك التورُّط في اتجاهات متطرِّفة بالإفراط أو التفريط.

كما «أنَّ عدم معرفة سعة دعوة الإسلام وعمقه وسِمة التدرُّج فيه حقَّ المعرفة، وعدم معرفة استراتيجيته في بناء الجسور مع مختلف طبقات المجتمع وأقسامه، والوقوع في فهم خاطئ في هذا الصدد، نتج عنه مظهر مختلف بل مضادّ ومخالِف تمامًا لروح هذا الدين

---

(١) سيأتي مزيد بيان في تعريفهم في «مصطلحات ذات صلة بموضوع الأطروحة» من «دليل مصطلحات البحث» من «مدخل الدراسة» ص١٠٥ ـ ١١٢.

(٢) كما تمَّ عرضه من أسباب اختلاف الآراء في المجتمع في «مسوِّغات اختيار البحث» ص١٠.

الذي يملك قوة جذب قوية تجذب الناس إليه. فسادَت العجلة ـ التي هي من سمات الضعف البشري ـ كلَّ شيء، وأُهمِلت قاعدة التدرُّج، والأهمّ من هذا أنَّه أُهمِل ترتيب الخطوات»[١] الحركية[٢].

ومعالجة هذه الإشكالية كما تظهر لي تبدأ بسؤال: هل توجد ـ في مرجعية الإسلام وموروثه العلمي والثقافي ـ أصول في رؤية التعددية المجتمعية وإدارتها، تختلف ترجيحات الاختيار من بينها حسب عوامل وظروف تاريخية يُمكن رصد معاييرها وتمييزها؟ وهل يُمكن بالتالي استنباطها وتصنيفها لتكون قابلة للقياس في الزمن الحاضر، لاختيار الأصل الأنسب حسب كل مرحلة، واستبعاد غيره؟

إنَّه بذلك يتمّ تصنيف الأصول وتكاملها، وضبط منهجية البحث فيها والنظر إليها، فلا تكون الاختلافات بين الآراء متباينة ومتناقضة، بل تُصبح اجتهادات تُصيب وتُخطئ حسب قُربها أو بُعدها عن أصول رؤية التعدُّدية المجتمعية وإدارتها. مع الإشارة إلى أنَّ هذه الأصول تتعلَّق بمهارات التخطيط الفكرية والعملية لإدارة الحياة وفق الوجود القائم، وبالبصيرة في سنن الحوادث ومجريات الأمور، دون الصِّدام مع قوانين الظواهر وفي ضوء ظروف العصر، حتى يعرف كلُّ فرد أو جماعة أو سلطة دورها وكيف تُتقن هذا الدور. وخلافًا للميادين الدينية الثابتة في العقيدة والتزكية وأصول الأحكام الشرعية، فإنَّ هذا هو الميدان المتغيِّر مع المراحل الزمنية ضمن الحقبة الواحدة (كما تعدَّدت المراحل في العهد النبوي)[٣].

---

(١) محمد فتح الله كولن، **أضواء قرآنية في سماء الوجدان**، ترجمة أورخان محمد علي، ص١٠٢.

(٢) الحركة « في لغة السياسة هي التيار العام الذي يدفع فئة معينة إلى تنظيم صفوفها بهدف القيام بعمل موحَّد لتحسين حالتها... وهي أكثر شمولاً وفي الوقت نفسه أقل تماسكًا وانضباطًا من الحزب». د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، **موسوعة السياسة، ٢: ٢٢٢**، بتصرُّف.

(٣) يُراجع للتفصيل: «محدَّدات معرفية ـ تحفُّظات وعوائق»، من «محدَّدات البحث» ص٦٨.

٤ ـ فرضية البحث:

➢ أفترض بأنَّ هذه الأصول موجودة، بل يُمكن أن تُشكِّل منظومة قِيَمية متكاملة في رؤية التعددية المجتمعية وسياسات إدارتها في الإسلام. لكنَّ هذه المنظومة تحتاج إلى جمع جزئيَّاتها بحسب كل مرحلة تاريخية. وفرضيَّتي العامة تُقسم قسمَين:

□ **الفرضية الأولى**: هي أنَّ تمييز هذه المراحل يكمن في دراسة السيرة النبوية بالاستناد إلى نصّ الوحي بترتيب نزول القرآن الكريم وورود السنة النبوية[١] في السيرة عبر[٢]:

أ. منطلَق فهمه ضمن إطار زمن النزول/ الورود وما يكتنفه من أحداث ومخاطَبين وفق معهودهم باعتماد الروايات المقبولة، مع تحرِّي المساوقة بين مسارَي التنزيل/ الورود في السيرة، فيُصبح النص مُعاصرًا لنفسه، مُعبِّرًا عن منطلَق الفهم (لأنَّ آفاق العطاء القرآني لا تُقيِّدها المرحلة التاريخية).

ب. التمييز بين «العام المطلق» و«العام المقيَّد»، أي: المقيَّد بخصوص زمن النزول ومناسبته ضمن مرحلة تاريخية محدَّدة (كحالة حرب لا تنسخ أحكام حالات السِّلم، ولا تُعمَّم كذلك). ويتمّ التزام الأول كخطاب مُعاصر لنا لتطبيقه، والتزام الثاني كخطاب يدور مع سببه[٣].

---

(١) السنة النبوية، هي في اللغة: الطريقة والسيرة، وفي اصطلاح المحدِّثين: «كل ما أُثِرَ عن الرسول ﷺ من قول أو فعل وتقرير أو صفة خِلقية أو خُلُقية، أو سيرة، سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها». د. محمد عجاج الخطيب، **أصول الحديث علومه ومصطلحاته**، ص ١٨ ـ ١٩، بتصرُّف.

(٢) وقد استفدت ـ كما سأُشير في تقويم المراجع والمصادر ـ من كتاب: د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم ـ التفسير الواضح حسب ترتيب النزول**. وقد تناول بعض هذه الأبعاد فيه: المصدر نفسه، ٣: ٣٦ ـ ٣٧، بتصرُّف.

(٣) ستتم معالجة هذا البند عند الحديث عن مصطلح «النسئ» في: «محدَّدات معرفية ـ تحفُّظات وعوائق»، من «محدَّدات البحث» ص٦٠ ـ ٦٩.

□ **والفرضية الثانية**: في تحديد مفاصل السيرة النبوية التي تفصل بين مراحلها مختلف العوامل والظروف، هي في اختيار عشر سور من القرآن الكريم، وردت فيها كلمة ﴿سَنَةٍ﴾[(١)] وتفريعاتها[(٢)]. وقد تبيَّن لي ذلك عند جمعها حسب الاجتهاد المعتمد على الروايات في ترجيح ترتيب نزولها.

٥ ـ منهجية البحث:

➢ لا يخلو أنَّ البحث بالتَّوصيف السَّابق مُتشعِّب إلى حدٍّ ما، ممَّا يستلزم اعتماد ثلاثة مناهج للعلوم الشرعية والإنسانية، أعرضها في النقاط الثلاث التالية:

أولاً: المنهج المختار في الدراسة لترتيب سور القرآن الكريم:

➢ بعد الدراسة للسور القرآنية والمطالعة للعديد من كتب السيرة وكتب التفسير، والتجربة المطوَّلة في تحقيق أزمنة أحداث السيرة وتحديد أمكنة آيات السورة بين اللوائح والروايات المقبولة، تبيَّنت لي المناهج التالية التي طبَّقتها في الأطروحة:

١ ـ المنهج المختار في تحديد أزمنة الأحداث في السيرة:

تُعتبر السيرة النبوية وعاء الأحداث التي نزلت العديد من السور لمعالجتها، فيجب لحظها في المنهج أيضًا.

وعند التعمُّق في مطالعة روايات السيرة النبوية، سواء في كتب المحدِّثين أو كتب السِّير، يتبيَّن وجود اختلافات بين الروايات في توثيق تفاصيل الأحداث، أو في تحديد أزمنتها. وقد توجد أيضًا اختلافات في رواية الحدث نفسه بين كتب المحدِّثين وكتب السِّيَر.

---

(١) سيأتي تعريف مفصَّل لكلمة «سنة» وتعلُّقاتها والسور التي وردت فيها في «مصطلحات ذات صلة بفرضية الأطروحة» من «دليل مصطلحات البحث» من «مدخل الدراسة» ص٩٢ ـ ٩٩.

(٢) مثل: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾، و﴿سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾، و﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾، و﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا﴾، و﴿سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

من هنا، كان لا بدَّ من اعتماد منهج يستوعب جميع الروايات مطالعة، ويتبنَّى تحقيق الروايات من حيث السند والمتن.

لذلك، التزمت بمراجعة الروايات الواردة في الحدث الواحد، ومراجعة الأقوال التي أوردها العلماء في دراسة تلك الأحداث والترجيح بين الروايات المقبولة لتحديد أزمنتها.

كذلك، قدَّمت تقسيمًا جديدًا للسيرة النبوية، يقسمها إلى عشر مراحل متمايزة عند تغيُّر حالة المخاطِب (ضعفًا، قوةً) أو تغيُّر المخاطَب نفسه (قريشًا، قبائل عربية، أهل يثرب) في كلٍّ منها. كما تتوافق مفاصلها مع عشر سور محدَّدة حسب ترتيب النزول كما سيأتي.

وبالاعتماد على منهج ترتيب نزول السور (كما سيتمّ بيانه)، يُمكن أن تُضاف إلى السيرة أحداث وردت إشاراتها في روايات مقبولة عند المفسِّرين ولم ترد محدَّدة في أزمنتها في روايات السيرة. الأمر الذي يُضيف إلى عرض السيرة تميُّزًا جديدًا عن نموذجها التقليدي.

٢ ـ لوائح ترتيب نزول سور القرآن:

إنَّ سور القرآن البالغة مئة وأربع عشرة سورة؛ منها ما هو مكي، ومنها ما هو مدني. وهناك اختلافات بين روايات ترتيب النزول وروايات تحديد المكي من المدني حول تحديد أيٍّ منها مكي (نزل قبل الهجرة) وأيٍّ منها مدني (نزل بعد الهجرة)، وحول ترتيب نزولها. وقد «روى ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه سأل أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه ـ (أحد كتَّاب الوحي) وكان من الراسخين في العلم ـ عمَّا نزل من القرآن بالمدينة، فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرها بمكة»[(١)]. وبتتبُّع الموضوع، يتبيَّن وجود ثمانية لوائح لترتيب النزول[(٢)] اعتمدت

---

(١) محمد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٢: ٣٧١. ونقلها عنه: السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، ١: ٣٨، بتصرُّف.

(٢) لم ينص النبي ﷺ على بيان المكي من المدني، «إنما هذا يرجع لحفظ الصحابة وتابعيهم، كما أنه لابد في العادة من معرفة مُعَظِّمي العالِم والخَطيب وأهل الحرص على حفظ كلامه ومعرفة =

منها أربعة مُسنَدة في الأطروحة، وباستثناء السور المختلف فيها ـ بين كونها مكية ومدنية ـ يتبيَّن عدم الاختلاف الكبير بين اللوائح في ترتيب ما هو مكي ومدني باتفاق. والغالب أنَّ هذا الاختلاف يرجع إلى ما ورد في السورة أو بعض آياتها من روايات، أو يرجع إلى الاختلاف الاصطلاحي بين المكي والمدني، أو إلى تقدير قُرب طابع السورة ممَّا يُميِّز السور المكية أو المدنية.

وأما بخصوص لوائح ترتيب النزول الأربع ـ والتي عرضتها كاملة في الملحق (١) في نهاية الأطروحة ـ فهي: رواية البيهقي ورواية لأبي عمرو الداني (وإسناداهما حسنَان)، ورواية ابن الضريس ورواية الزهري (وإسناداهما ضعيفَان)[١]. ورغم الحُسن في الإسنادَين الأوَّلَين، إلا أنَّ هناك بعض الاختلافات فيما بينها في الترتيب. وهذا يؤكِّد أهمية الاعتماد أيضًا على سياق السورة بالتوازي مع مسيرة السيرة النبوية لترجيح الترتيب بالإضافة إلى ما يُمكن من روايات أسباب النزول وأقوال الأئمة.

٣ ـ المكي والمدني من السور ولوائحها:

«إنَّ وصف السورة بأنَّها مكية أو مدنية، يكون تبعًا لما يغلب فيها، أو تبعًا لفاتحتها،

= كتبه ومصنَّفاته من أن يعرفوا ما صنَّفه أولاً وآخرًا، وحال القرآن في ذلك أمثل، والحرص عليه أشد، غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول ولا ورد عنه أنه قال: اعلموا أنَّ قدر ما نزل بمكة كذا وبالمدينة كذا وفصَّله لهم، ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر، وإنما لم يفعله ﷺ أنه لم يُؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ليعرف الحكم الذي تضمَّنهما فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ بعينه». الزركشي محمد بن نبي الله، **البرهان في علوم القرآن**، النوع التاسع: معرفة المكي والمدني، ١: ١٩١. و«لا سبيل إلى معرفة المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك». محمد الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ١: ١٩٦.

(١) عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم دراسة تأصيلية نقدية للسور والآيات من أول القرآن الكريم إلى نهاية سورة الإسراء**، ١: ٢٥٢ ـ ٢٨٤، بتصرُّف.

فقد ورد أنَّه إذا نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كُتِبَت مكية، ثمَّ يزيد الله فيها ما يشاء[١]. لذلك، لعلَّ الأنسب بالاصطلاح المشهور في معنى المكي والمدني أن يُقال: إذا نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كُتِبَت مكية، وإذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة كُتِبَت مدنية»[٢].

وبالتالي، فإنَّا لا نستطيع أن نجزم بأنَّ إحدى السور ـ كما هي معهودة في أيامنا ـ نزلت قبل سورة أُخرى ـ كما هي معهودة في أيامنا ـ، ولكن على الأقل: فاتحة السورة أو أغلبها هو ما نزل قبل فاتحة السورة الأُخرى أو أغلبها. وذلك لما يُعلم من وجود آيات تأخَّر نزولها عن فاتحة سورة ثمَّ أُلحِقَت بتوجيه من النبي ﷺ فيها[٣]، وآيات نُسخت تلاوتها وردت بعض فقراتها في الروايات أنَّها منسوخة[٤]، قبل أن يستقرَّ الترتيب الحالي «بإرشاد النبي ﷺ لوضع

---

(١) هذه رواية ابن عباس رضي الله عنهما التي عرضها ابن الضريس في صدر روايته للائحة ترتيب النزول. ابن الضريس، **فضائل القرآن وما أُنزل من القرآن بمكة وما أُنزل بالمدينة**، ص٣٣، ح: ١٧.

(٢) محمد الزرقاني، **مناهل العرفان**، ١: ١٩٩، بتصرُّف.

(٣) ويزيد النووي رحمه الله في اختلاف الترتيب بين الآيات في السورة نفسها فيقول: ترتيب آي السور في النزول لم يكن شرطًا، وقد كانت الآية تنزل فتوضع في مكان قبل التي نزلت قبلها، ثم تنزل الأخرى فتوضع قبلها، إلى أن استقرَّ الأمر في آخر عهده ﷺ على هذا الترتيب. ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ٨: ٧١٩، ح: ٤٦٧٠.

(٤) فمن الروايات مثلاً أنَّ أبا موسى الأشعري رضي الله عنه بعث إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاث مئة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه، ولايطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب مَن كان قبلكم، وإنَّا كنَّا نقرأ سورة كنَّا نشبِّهها في الطول والشدة ببراءة، فأُنسيتها، غير أني قد حفظت منها: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»، وكنَّا نقرأ سورة كنا نشبِّهها بإحدى المسبحات فأنسيتها، غير أني حفظت منها: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة﴾. مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، كتاب الزكاة، باب لو أنَّ لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا، ٢: ٧٢٦، ح: ١٠٥٠.

الآيات التي تأخَّر نزولها عن سورة في تلك السورة، وترتيب السور على الترتيب المتلقَّى منه ﷺ في العرض الأخير»[١].

وأما بخصوص لوائح تحديد المكي من المدني ـ والتي عرضتها كاملة في الملحق (٢) في نهاية الأطروحة ـ فهي خمس روايات: رواية لأبي عمرو الداني ورواية أبي عبيد (وإسناداهما صحيحان)، ورواية الحارث المحاسبي ورواية ابن الأنباري (وإسناداهما صحيحان مع وجود إرسال بسقوط اسم الصحابي مع وجود اسم التابعي)، ورواية أبي جعفر النحاس (وإسنادها ضعيف)[٢]. ورغم الصحة في الأسانيد، إلا أنَّ هناك بعض الاختلافات فيما بينها في تحديد المكي والمدني من السور. وهذا يؤكِّد ـ مرة أُخرى ـ أهمية الاعتماد أيضًا على سياق السورة بالتوازي مع مسيرة السيرة النبوية لترجيح مكية السورة أو مدنيَّتها، بالإضافة إلى ما يُمكن من روايات أسباب النزول وأقوال الأئمة.

٤ ـ المنهج المختار في تحديد مكان السورة من السيرة والترتيب المعتمد في الدراسة:

➢ اعتمدت في الدراسة الخطوات التالية لتحديد مكان كل سورة، أو مجموعة من آياتها، في مكانها من السيرة النبوية:

---

(١) «وقد صحَّ عن الرسول ﷺ أنَّه كان يعارض القرآن على جبريل عليه السلام مرة في كل سنة في شهر رمضان، وفي عام انتقاله إلى الرفيق الأعلى كانت المعارضة بينهما مرَّتَين في شهر رمضان منه. والمعارضة تكون بقراءة هذا مرة واستماع ذاك، ثمَّ قراءة ذاك واستماع هذا، تحقيقًا لمعنى المشاركة، فتكون القراءة بينهما في كل سنة مرَّتَين، وفي سنة وفاته ﷺ أربع مرَّات، فتفرَّس النبي ﷺ من تكرير المعارضة في السنة الأخيرة قُرب زمن لحوقه بالرفيق الأعلى، فجمع الصحابة رضي الله عنهم فعرض القرآن عليهم آخر عرضة». محمد زاهد الكوثري، «مصاحف الأمصار وعظيم عناية هذه الأمة بالقرآن الكريم في جميع الأدوار»، في: **مقالات الكوثري**، ص٢٦ ـ ٢٧ بتصرُّف.

(٢) عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٥٢ ـ ٢٨٤، بتصرُّف.

□ الاطلاع على مكان السورة في لوائح ترتيب النزول، وهي ثمانية لوائح، اعتمدت أربعة منها مُسنَدة (البيهقي وأبي عمرو الداني والحكم في إسناديهما حسن، وابن الضريس والزهري والحكم في إسناديهما ضعف)، واستأنست بأربعة أُخرى (ابن عبد الكافي، وابن عباس، ومقاتل، وابن النديم).

□ الاطلاع على مكان السورة من لوائح تحديد المكي من المدني من السور، وهي خمسة (أبو عمرو الداني وأبو عبيد والحكم في إسناديهما الصحة، والحارث المحاسبي وابن الأنباري والحكم في إسناديهما الصحة مع الإرسال، وأبو جعفر النحاس والحكم في إسناده الضعف).

□ مراجعة الأقوال التي جمعها القرطبي في ترجيح زمان نزول السور (كاملة أو أجزاء منها).

□ مراجعة الروايات الواردة في أسباب نزول آيات السورة، واعتماد المقبول منها. ومحاولة تأريخ تلك الروايات بالاعتماد على ما ورد فيها من أحداث، أو أشخاص (بتتبُّع تاريخ إسلامهم أو وفياتهم)، أو مجموعة ألفاظ مستخدمة أو معاني (متراكمة مع مجموعة من السور أو متناسبة مع مرحلة من السيرة).

□ فإذا لم يكن لديَّ أيّ مرجِّح خارجي من الروايات أو المعاني التي تستحضرها كتب التفسير وتتناسب مع روايات مرحلة من مراحل السيرة (العشرة كما تمَّ تحديدها)، فأُرجِّح مكان السورة بمؤشِّر مكانها في أغلبية لوائح ترتيب النزول، وهذا القدر ليس بكثير، وغالبه هو في العهد المكي، وقليل منه في العهد المدني لأنَّ السور فيه يظهر ترتيبها أكثر بشكل مباشر من خلال تواريخ الأحداث التي نزلت في شأنها.

➢ كذلك، في التعامل مع السور القرآنية من حيث عرضها، أقوم بالتالي:

□ في السور المكية، الأصل وحدة السورة إلا ما دلَّ الدليل على تأخير بعضها، وهي بعض السور: العلق، والمدثر، والقلم، والنجم، والأحقاف، والنحل، والرعد، والمزمل، والعنكبوت، والحج.

لذا ـ في غير هذه السور ـ تُعرض السورة كاملة في مكانها من ترتيب النزول (حسب اللوائح المعتمدة) بالاكتفاء بوجود روايات لبعض آياتها تتناول واقع نزولها.

□ في السور المدنية، تبيَّن أنَّ السور الكبرى (البقرة، آل عمران، النساء، الأحزاب، النور، التوبة) نزلت على مراحل قليلة أو كثيرة. فتمَّت مراجعة روايات نزول جميع الآيات الواردة، وتحديد الإطار الزمني، وتقسيمها إلى أقسام حسب سياق كل مجموعة نزلت في زمن مختلف عن غيرها. ثمَّ تتمّ المقارنة مع لوائح ترتيب النزول والترجيح بناء على الروايات المقبولة الواردة في النزول. ويتمّ شرح كل موضع منها في مكانه، ووضع هوامش على معاني الآيات للدلالة على تلك الروايات.

□ مجموعات السور السبع: تبيَّن لي ـ منذ المراحل الثلاث الأولى في العهد المكي ـ وجود مجموعات من السور متآلفة الموضوعات ومتقاربة النزول تتشكَّل كلٌّ منها من سبع سور[1]، وبدراسة هذا الموضوع واستكمال الملاحظات عليه، تبيَّن تمركز السور العشرة (مفاصل السيرة بكلمة ﴿سُنَّةُ﴾ وتفريعاتها) على أطراف بعض المجموعات دون وسطها.

□ فارتقت الملاحظة لتُصبح معيارًا في عرض السور من جهة، وتُسهِّل نسبة السورة التي يترجَّح تعديل مكانها (مثل تتمات المدثر والعلق والقلم، وسورتَي الرحمن والمزمل) إلى وضعها بين مجموعتَين بدل تعسُّف البحث عن سورتَين أو تساهل وضع الجميع بنهاية مرحلة ما من جهة أُخرى.

وقد أثمرت هذه المناهج الجدولَين القادمَين اللذَين يعرضان ما ترجَّح في ترتيب السور بين روايات ترتيب النزول بعد تتبُّع روايات السيرة وروايات نزول الآيات وتحقيق المقبول منها رواية والمتناسب موضوعه متنًا، مع الإشارة (بالحرف **المختلف**) إلى السور التي

---

(١) هناك «أسلوب قرآني مُلاحَظ من تتبُّع دروس التنزيل وفق ترتيب النزول في تجزئة العناصر الفكرية للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل ضمن عدد من السور غالبًا، وتأتي على مراحل في نجوم التنزيل». عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الطارق، ٣: ٢٦١، بتصرُّف.

خالَفت اتفاق تحديد مكانها بين روايات ترتيب النزول لوجود أدلة صارفة عن ذلك ومؤشِّرات مُلزمة لمحلِّها المبيَّن أدناه، والتنبيه (بالحرف **الداكن المسطر**) على السور التي وردت فيها كلمة ﴿سُنَّةُ﴾ وتفريعاتها باعتبارها مفاصل بين مراحل السيرة المختلفة، وهي خمس سور مكية، وخمس سور مدنية:

❑ **السور المكية:**

							٥٤.الأنعام			
							٥٥.الصافات			
						٤٤.مريم	٥٦.لقمان			
						٤٥.طه	٥٧.سبأ			
				٢٩.الرحمن		٤٦.الواقعة	٥٨.الزمر		١,٧٧.المزمل	
١,١.العلق	٨.الليل	١٥.التكاثر	١,٢٢.النجم	٣٠.القارعة	٣٧.القمر	٤٧.الشعراء	٥٩.**غافر**	٦٨.**الكهف**	٧٨.الملك	٨٥.**الإسراء**
١,٢.المدثر	٩.الفجر	١٦.الماعون	٢٣.عبس	٣١.القيامة	٣٨.ص	٤٨.النمل	٦٠.فصلت	١,٦٩.النحل	٧٩.الحاقة	٨٦.الروم
١,٣.القلم	١٠.الضحى	١٧.الكافرون	٢٤.القدر	٣٢.الهمزة	٣٩.الأعراف	٤٩.القصص	٦١.الشورى	٧٠.نوح	٨٠.المعارج	١,٨٧.العنكبوت
٤.الفاتحة	١١.الشرح	١٨.الفيل	٢٥.الشمس	٣٣.المرسلات	٤٠.الجن	٥٠.يونس	٦٢.الزخرف	٧١.إبراهيم	٨١.النبأ	٨٨.الإنسان
٥.المسد	١٢.العصر	١٩.الفلق	٢٦.البروج	٣٤.ق	٤١.يس	٥١.هود	٦٣.الدخان	٧٢.الأنبياء	٨٢.النازعات	
٦.التكوير	١٣.العاديات	٢٠.الناس	٢٧.التين	٣٥.البلد	٤٢.الفرقان	٥٢.يوسف	٦٤.الجاثية	٧٣.المؤمنون	٨٣.الانفطار	
٧.الأعلى	١٤.الكوثر	٢١.الإخلاص	٢٨.قريش	٣٦.الطارق	٤٣.**فاطر**	٥٣.**الحجر**	١,٦٥.الأحقاف	١,٧٤.الرعد	٨٤.الانشقاق	
			٢,٢.المدثر	٢,١.العلق	٢,٣.القلم		٦٦.الذاريات	٧٥.السجدة	٢,٧٧.المزمل	١,٨٩.الحج
							٦٧.الغاشية	٧٦.الطور		٢,٢٢.النجم
							٢,٦٥.الأحقاف			

□ السور المدنية :

	١، ٩٣ ـ ٢. آل عمران		
	١، ٩٤. النساء	١٠١. الزلزلة	١، ١٠٨ ـ ٢. الممتحنة
	٩٥. الطلاق	١٠٢. الحديد	١٠٩. المائدة
	٩٦. البينة	١٠٣. محمد	١١٠. التوبة
	٩٧. الحشر	١٠٤. المجادلة	١١١. الحجرات
٩٠. المطففين	٩٩. المنافقون	١٠٥. التغابن	١١٢. التحريم
١، ٩١. البقرة	١٠٠٠. النور	١٠٦. الصف	١١٣. الجمعة
٩٢. الأنفال	١، ٩٨ ـ ٤. الأحزاب	١٠٧. الفتح	١١٤. النصر
٢، ٨٩. الحج	٣، ٩١ ـ ٤. البقرة	٣، ٩٤. النساء	٦، ٩١ ـ ٧. البقرة
٢، ٩١. البقرة	٢، ٩٤. النساء	٥، ٩١. البقرة	٣، ٦٩. النحل
	٢، ٨٧. العنكبوت		٤، ٩٤ ـ ٥. النساء
	٢، ٦٩. النحل		٢، ٧٤. الرعد
			٢، ١١٠ ـ ٤. التوبة
			٣، ٩٣. آل عمران
			٥، ٩٨. الأحزاب

وقد عرضت الترتيب بهذا الشكل لحصر مجموع السور متآلفة المواضيع ضمن المراحل، وعدد كلٍّ منها سبعة بالمجمل كما تبيَّن بعد جمعها، فأصبح هذا الرقم مؤشِّرًا إضافيًا لصحَّة الترتيب.

(*) ترقيم السور في الجداول وفق ترتيب النزول، وما بعد الفاصلة باعتبار تعدد مواضع نزول آيات السورة.

ثانيًا: منهج الفهم للقرآن الكريم والحديث الشريف:

القسم الأول: منهج الفهم وقواعد التدبُّر في القرآن الكريم:

➢ تبيَّن ممَّا تمَّ عرضه في هذا المبحث أهمية اعتماد أسباب نزول القرآن الكريم لفهم آياته. وأُشير في هذا البند إلى جملة من قواعد التدبُّر في التعامل مع كتاب الله تعالى لاستلهامها عند تفسير الآيات في الأطروحة:

١. وحدة موضوع السورة القرآنية: «فالسورة متعانقة الآيات والجمل في الآية حول موضوع كلِّيّ، ووحدات معانٍ متماسكة تشبه حلقات مترابطات، مشمولات بحلقة أكبر منها وهي داخلة فيها ومتعلِّقة بها، وقد يكون الارتباط مباشرة بالحلقة الكبرى التي هي أساس الموضوع»(١). وإنَّ «جمع التفسيرات الجزئية في معنى كلِّي هو أولى بأن يكون منهج المتدبِّر لكتاب الله»(٢).

وهذه القاعدة تُزكِّي أن يتمّ عرض كل سورة كوحدة كاملة نزلت في مرحلتها من السيرة، طالما لم يظهر مُرجِّح لتأخير نزول مجموعات منها.

٢. التفكُّر فيما يُمكن أن يشتمل عليه النص من أوجه، وما يهدف إليه كل وجه منها، لإمكانية أن يقصد النص تعدُّد الأهداف باختلاف أصناف المُخاطَبين به(٣).

٣. الأخذ في الاعتبار بيئة نزول النص البشرية والزمانية والمكانية والنفسية والفكرية الفردية والاجتماعية، لأنَّها تُبصِّر بالمناخ الذي نزل فيه النص، فتهدي المتدبِّر إلى مفاهيم تكون أكثر دقّة وأقرب إلى دلالة النَّص من غيرها. وقد حقَّق بعض المؤمنين تفوُّقًا علميًا

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، ص٢٧ ـ ٢٨، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٩، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٥، بتصرُّف.

وخبرة في إدراك دلالات النص ومهارة في استنباط المعاني من النصوص ذات الأداء الدقيق منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهم[(١)].

٤ . «بيان القرآن بالقرآن لأنَّه أشرف أنواع التفسير وأحسن طرقه»[(٢)]، ويُستعان بذلك على «فهم لفظ من الألفاظ بالبحث عن نظائره في القرآن»[(٣)]، ثمَّ «تتبُّع التفسير المأثور لمعنى النص: وهو التفسير النبوي وما فهمه الصحابة والتابعون، علمًا أنَّه قد يكون بيانًا لبعض ما اشتمل عليه عموم النص، دون كونه كاملاً شاملاً لكلِّ ما يهدف إليه النص. مع تمييز المقبول من المردود»[(٤)].

٥ . «تتبُّع مراحل التنزيل»[(٥)] لبناء الفهم على أساس التدرُّج تلافيًا لخطأ الفهم. أما من جهة القرآن نفسه، فلأنَّ «المدني من السُّوَر ينبغي أن يكون مُنزَّلاً في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل، وإلّا لم يصحّ [أي: الفهم]، والدليل على ذلك أنَّ معنى الخطاب المدني في الغالب مبنيّ على المكي، كما أنَّ المتأخِّر من كلِّ واحد منهما مبنيٌّ على متقدِّمه، دلَّ على ذلك الاستقراء»[(٦)]. وأما من جهة السيرة النبوية، فلأنَّ «المتدبِّر لسورة [ما]، حين يضع ظروف هذه المدة الزمنية من تاريخ دعوة الرسول ﷺ [أمامه]، فلا بدَّ أن تتفتَّح أمامه أبواب الفهم الصحيح لآيات السورة، وإدراك دلالاتها، وإدراك ما ترمي إليه من أغراض، وإدراك المعنيين فيها، فيقاس أمثالهم عليهم»[(٧)].

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، ص٥٣ ـ ٥٧، بتصرُّف.

(٢) الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ١ : ٧، بتصرُّف. وابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، **مقدِّمة في أصول التفسير**، ص٨٤، بتصرُّف.

(٣) الشعراوي محمد متولي، **تفسير الشعراوي**، سورة النساء، الآية: ١١٩، ٥ : ٢٦٤٩، بتصرُّف.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص١٣٣، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، ص١٥١، بتصرُّف.

(٦) الشاطبي إبراهيم بن موسى، **الموافقات في أصول الشريعة**، ٤ : ٢٥٦.

(٧) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة يس، ٦ : ٢٧، بتصرُّف.

٦ . اعتبار سياق الخبر في فهم الآيات عند عدم وجود رواية مقبولة تصرف المعنى إلى غير ذلك. وقد رجَّح الطبري في تفسيره العديد من وجوه التأويلات في تحديد المخاطَب أو الموضوع المخاطَب حوله بناء على ذلك، فقال: «لأن يكون ما بينهما خبرًا عنهم، أولى من أن يكون خبرًا عن غيرهم»[(١)]. من هنا، كان لا بدَّ من «النظر إلى كل آية داخل السياق الذي وردت فيه وتجنُّب اقتطاعها منه والتعامل معها كنص مستقلّ بذاته. والسياق يتحدَّد بأمرَين: الآيات التي تُشكِّل كلاًّ واحدًا تندرج تحته الآية المراد تفسيرها (أي: التي قبلها والتي بعدها)، وظروف النـزول ومرتَبة السورة التي تقع فيها الآية المراد تفسيرها، على سلَّم ترتيب النـزول، ومناسبة نزول تلك الآية أو الآيات، وتبيُّن المخاطَب فيها. هذا فضلاً عن التقيُّد بمبدأ: القرآن يُفسِّر بعضه بعضًا. كلُّ ذلك حتى لا يبتعد التأويل بصاحبه عن معهود العرب، أعني: عن فضائهم الحضاري الثقافي»[(٢)]، «لأنَّ الله خاطب العرب بما يعرفون ولم يُخاطبهم بما لا يعرفون، فكان التعبير وفق معهودهم، وهذا معنى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧، الدخان: ٥٨]، واللسان يأتي بمعنى: اللغة، الرسالة، المتكلِّم عن القوم. . . »[(٣)]. «وهذا هو السلاح ضدّ الوضع (والإسرائيليات والموروث السابق على الإسلام)، سواء أكان بدافع الترغيب والترهيب، أو بدوافع مذهبية أو سياسية»[(٤)].

على أن يُشكِّل ذلك منطلقًا لفهم الآيات دون أن يُشكِّل احتكارًا لمعانيها، لأنَّه يتناقض مع خاتمية الرسالة إطلاق عدم جواز فهم شيء من القرآن الكريم خارج دائرة فهم عصر زمن الرسالة. بل، منهجنا هو مُنطلقٌ لفهم نصٍّ يتجدَّد فهمه والمخاطبة به في كلِّ عصرٍ وقرن[(٥)].

---

(١) الطبري، جامع البيان، سورة الأنفال، ١٣ : ٤٥٩، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم. الجزء الأول: في التعريف بالقرآن**، ص٨٩ ـ ٩٠، بتصرُّف.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٢: ١٤٣ ـ ١٤٦.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**، ص ٢٨، بتصرُّف.

(٥) د. طه جابر العلواني، «النسخ ليس تحريفًا»، في: **إسلامية المعرفة مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي**، السنة الثانية عشر، العدد ٤٦ ـ ٤٧، ص٢٦.

٧. «تكافؤ النصوص القرآنية ووجوب الجمع بينها في نسق فكري متكامل، وعدم اللجوء إلى الحكم بالنسخ إلا فيما ثبت نسخه بدليل صحيح صريح[١]»[٢]. مع استمرار التعامل مع النص المنسوخ عند دراسته وتفسيره ضمن سياقه وزمن نزوله كأنَّه لم يُنسخ بعد، لأنَّ نسخه لم يكن مُعلَنًا به وقت نزوله غالبًا.

٨. «عدم وجود اختلاف أو تناقض في القرآن، أو بين نصّ قطعي الدلالة أو تفسير قاطع له وبين الحقائق العلمية الثابتة بالوسائل الإنسانية»[٣].

٩. «النظر في ملائمة الأسلوب البياني في النص القرآني للهدف منه (عاطفيًا، عقليًا، قانونيًا، حواريًا، نقديًا، إلى غير ذلك)»[٤]. والبحث عن «الوجوه البلاغية والغرض الفكري من الصور البلاغية في النص»[٥].

١٠. الاهتمام «باقتضاءات النص ولوازمه وروابطه الفكرية و[تقدير] محاذيفه ومراعاة تضميناته»[٦].

١١. «تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن، واستبعاد احتمال التكرير لمجرَّد التأكيد ما أمكن: وذلك بالفهم أنَّ كلَّ نصٍّ آخر ـ في الموضوع نفسه ـ يحمل فكرة جديدة، عبر الانتباه إلى المعنى المُضاف الذي اشتمل عليه كلُّ نصٍّ منها ضمن سور القرآن المتعدِّدة، وضمن مناسبات، كلُّ مناسبة منها تستدعي التنبيه إلى جانب من

---

(١) يُراجع البند الخاص بالمحدَّدات المعرفية ضمن محدَّدات البحث، ففيها تحديد الوقائع التي ثبت فيها النسخ في هامش ص٥٩، الهامشان (٢) و(٣).

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص١٣٩ ـ ١٤١، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٥ ـ ٢٣٦، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٩٩، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، ص٥٠٣، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٣٩، بتصرُّف.

القصة القرآنية تتَّصل به»[١]. «فالقصة ـ وهي قصُّ أثر لأحداث تاريخية وقعت فعلاً ـ لا ترد مكرَّرة، بل ترد في آيات متعدِّدة [من سور مختلفة] لتُعطينا في مجموعها قصة متكاملة، في الوقت نفسه الذي تُحقِّق كل آية الحكمة المطلوبة في التوقيت الذي نزلت فيه، وهذا كلُّه من تثبيت الله لرسوله ﷺ والمؤمنين في المواقف المختلفة ولنفع حركة الحياة الإيمانية. ولكلِّ قصة عبرة، والعبرة في قَصص القرآن أنها تنقل لنا أحداثًا في التاريخ تتكرَّر على مرِّ الزمن، بشخصيات مجهلة (إلا قصة عيسى ابن مريم وأمِّه لأنها معجزة لن تتكرَّر) لأنَّ المقصود منها الحكمة لا الشخص»[٢].

١٢. الاهتمام بالأمثال في القرآن، باعتبارها من «طرق إيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه»[٣]، وهي «تعبير عن معاني عالم الملكوت بالتمثيل من عالم الشهادة»[٤].

١٣. «البحث عن المناسبة في السور التي وردت فيها أقسام، بين المُقسَم به والمُقسَم عليه، والغرض من القَسَم، والمُخاطَبون به، وأحوالهم المقتضية للقَسَم»[٥].

١٤. «لزوم فهم الآية وفق ترتيب نظمها، دون التقديم والتأخير لجملها أو كلماتها لتلافي صرف الذهن عن المعنى المراد أو تعطيل دلالة النص الناتجة عن هذا الترتيب في النظم»[٦].

١٥. «الربط بين الآيات وخواتيمها بالبحث عن المناسبة بين مضمونها والقضية الكلية

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٦٧ ـ ٧٠، بتصرُّف.

(٢) **تفسير الشعراوي**، سورة البقرة، الآية: ٣٠، ١ : ٢٣٥ ـ ٢٣٧، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن الجزائري، **القواعد الحسان المتعلِّقة بتفسير القرآن**، ص٤٨.

(٤) الغزالي محمد بن محمد، **جواهر القرآن**، ص٣١، بتصرُّف.

(٥) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٤٦٣ ـ ٤٦٤، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٠٧، بتصرُّف.

الواردة آخرها»[1]. مع «رعاية فواصل الآيات اهتمامًا بالنسق اللفظي، ورعاية المعنى الذي قد يقتضي الوصل بين الآيتَين»[2].

١٦. مراعاة المعنى الأغلب والأشهر والأفصح في تفسير القرآن بمقتضى اللغة[3]. ولا يجوز حمل ألفاظ القرآن على اصطلاح حادث[4]. وإنَّ المعنى الجامع لتفسير لفظة قرآنية هو المستخرَج من مادة الكلمة ذاتها لغويًا: «فهناك فرق بين تفسير اللفظ بلازم من لوازمه ـ وقد تتعدَّد اللوازم، وكلُّ معنى من هذه المعاني اللازمة قد يكون صحيحًا ـ وبين تفسيره بالمعنى الجامع، وهو الذي يكون من مادة الكلمة ذاتها»[5]. «والبحث في معاني الكلمات القرآنية بحثًا علميًا لغويًا يقتضي تحرِّي معنى الكلمة كما هي في دلالاتها الأصلية في كلام العرب بتتبُّع المعاجم، مع ما يُلائم سياق النص القرآني. مع مراجعة ما ورد حولها في التفسير المأثور وكلام المفسِّرين واستعمالات الكلمة المختلفة في القرآن الكريم. واعتماد دلالات الكلمة في عصر نزول القرآن لا ما تطوَّرت إليه الكلمة بعد ذلك في العصور الإسلامية أو ما اصطُلِح عليه في عصور متأخِّرة»[6]. «وإبعاد فكرة الترادف عن الكلمات القرآنية لتظهر المستويات النسبية للموضوع الواحد»[7]. أما إذا تردَّدت الكلمة القرآنية بين «دلالتَين أو أكثر، فالدلالة المعتمدة هي المطابقة للواقع ببراهين عقلية وبانسجام مع السياق وباتفاقها مع المفاهيم القرآنية والمفاهيم الإسلامية، فإذا تكافأت الدلالات، فالدلالة الأصلية اللغوية هي المرجّحة. وعند الحاجة إلى إخراج اللفظ عن أصل دلالته يُصار إلى

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٤٢٩، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٥٧، بتصرُّف.

(٣) د. خالد السبت، **قواعد التفسير جمعًا ودراسة**، ص٢١٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٠.

(٥) **تفسير الشعراوي**، سورة النساء، الآية: ٨٥، ٤: ٢٤٩٤، بتصرُّف.

(٦) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٣١٧ ـ ٣٢٣، بتصرُّف.

(٧) المصدر نفسه، ص٤٣٥، بتصرُّف.

أقرب المعاني اللصيقة بالمعنى الأصلي»[١]. مع إمكانية «استعمال الكلام في أكثر من معنًى معًا»[٢].

١٧. السَّلك بالقرآن العربي في الاستنباط والاستدلال مسلك العرب في تقرير المعاني[٣]. مع «ملاحظة قواعد اللغة العربية ومفاهيم الصيغ الصرفية، ولزوم البحث عن سِرّ مخالفة الإعراب لمقتضى الظاهر»[٤]. مع ما يقتضي من التفرقة بين الصيغ الاسمية والصيغ الفعلية المعبِّرة عن المخاطَب ذاته، فـ«الفعلية تدل على التجدُّد والحدوث، فيما الاسمية تدلُّ على الدوام والاستمرار»[٥].

١٨. «البحث عن المعاني التي تدل عليها وجوه روايات القراءات العشر المختلفة التي نزل بها القرآن»[٦]. فالقراءات يُبيِّن بعضها بعضًا[٧]، وتنوُّعها هو بمنزلة تعدُّد الآيات[٨].

القسم الثاني: منهج الفهم في الحديث الشريف:

➢ يختلف منهج فهم الحديث الشريف عمَّا سبق في جملة أمور:

١ ـ كون الحديث الشريف بيانًا نبويًا للوحي القرآني، وتطبيقًا له، مع تقييد أو تخصيص أو تفصيل في بعض الأحيان. وربَّما كان لتأصيل مسائل لم يتناولها النص القرآني. وهو في كلِّ ذلك يُنسَب لفظه إلى رسول الله ﷺ، ومعناه إلى الله تعالى (دون لفظه)، فهو بذلك

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٤٥٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٦٧، بتصرُّف.

(٣) د. خالد السبت، **قواعد التفسير**، ص٢٣٢.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٥٥١، بتصرُّف. مع ملاحظة أنَّ قواعد اللغة العربية هي التي تلحَق الآيات القرآنية وتُستَنبط منها، لا العكس.

(٥) الرازي محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، سورة الذاريات، ٢٨: ١٧٥.

(٦) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٧٢٢، بتصرُّف.

(٧) د. خالد السبت، **قواعد التفسير**، ص٩٠.

(٨) المصدر نفسه، ص٨٨.

لا يخرج عن كونه وحيًا عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

٢ ـ ليس الحديث الشريف مجموعًا بترتيب وروده وفق تتابع الأحداث التاريخية على الشكل الذي تمَّ الاهتمام به في ترتيب نزول القرآن الكريم، رغم وجود مؤلَّفات حديثية اهتمَّت بأسباب ورود الحديث.

٣ ـ ليست كل الأحاديث النبوية الواصلة إلينا قطعية الثبوت بتواتر روايتها كالقرآن الكريم، بل كثير منها آحاد ظني الثبوت.

٤ ـ لما ظهرت الفتن، بدأ الفهم السقيم لمعاني آيات من القرآن الكريم، وبدأ أيضًا الوضع في الحديث النبوي باختلاق ما لم يقله النبيُّ ﷺ حتى تكون للقائل منزلة أو حجة دينية لخدمة أغراضه. وهنا، ظهرت أكثر فأكثر ضوابط علمية للتعامل مع الحديث من حيث الرواة (السند)، ومن حيث مضمون الحديث (المتن)، حتى اكتملت بعد نضجها وأصبحت علم الحديث: دراية ورواية. وقواعد هذا المنهج، «لا تزال ـ في أُسسها وجوهرها ـ محترمة في الأوساط العلمية»[1].

هذا، وباعتبار أنَّ السيرة النبوية هي عماد البحث، فلا بدَّ من التنبيه على أنَّ أحداثها تُمثِّل الجانب العملي من السنة النبوية، دون أن تدلَّ بذاتها على حكم شرعي (كالوجوب أو الجواز)، وتستلزم التوثيق في السند والمتن.

➢ ولاعتبار كلِّ ما سبق، كان على منهج الفهم هنا أن تسبقه مرحلة خاصة، تتمّ فيها مُراعاة سند الأحاديث، ومتنها، عبر القسمَين التاليَين:

١ ـ **القسم الأول**: «**الدراية**، وهو الخاص بأحوال الرواة والرواية الحديثية من حيث القَبول أو الرَّدّ. وفائدته معرفة ما يُقبل وما يُردّ؛ لأمن عدم الخطأ في نقل المقبول والمردود»[2].

---

(١) د. أسد رستم، **مصطلح الحديث**، ص٥، بتصرُّف.

(٢) بسام عبد الكريم الحمزاوي، **مدخل لطلب العلوم الشرعية «منح القيوم»**، ص٤٨ ـ ٤٩، بتصرُّف.

وما يعنينا هنا، هو التأكيد على صحة ـ أو حُسن ـ درجة الأحاديث المعتمد عليها مع الاعتقاد بورودها عن النبي ﷺ، والتي اشترط فيها العلماء في مناهج مصطلح الحديث تحقُّق شروط: اتصال السند، والعدالة، والضبط (وإن خفَّ قليلاً)، بالإضافة إلى شرطَي السلامة من الشذوذ والعلل اللذَين ينتميان إلى القسم الثاني.

➢ وتفصيل الشروط الثلاثة الأولى الخاصة بالسند ورجاله، على الشكل التالي:

❑ **اتصال السند**: أن يثبت أن كلَّ راوٍ من رجال السند قد التقى مع الذي قبله. لذلك نجد علماء الحديث قد اهتمُّوا بضبط تاريخ الرواة ومواليدهم ووفياتهم وبلدانهم ورحلاتهم. . . ليتوصَّلوا إلى معرفة اتصال السند.

❑ **العدالة**: باشتراط أوصاف لراوي الحديث، وهي: الإسلام، والبلوغ، والعقل، وعدم ارتكاب الكبائر من الذنوب، وعدم الإصرار على الصغائر منها، وعدم فعل ما يخلّ بالمروءة (العُرف الاجتماعي السليم). وهذا ما يُعتبر أشدّ من مفهوم الأمانة العلمية العادي.

❑ **الضبط**: باشتراط مقدرة الراوي على راوية الحديث كما سمعه. وهو ما يُمكن تسميته: الكفاءة العلمية. وإذا اجتمعت صفتا العدالة مع الضبط في الراوي كان الراوي: ثقة.

٢ ـ القسم الثاني: «**الرواية**، وهو الخاص بنقل ما أُضيف إلى النبيّ ﷺ من قولٍ أو فعلٍ وتقريرٍ أو همٍّ أو صفةٍ. وفائدته الاحتراز عن الخطأ في نقل الحديث، والتوصُّل إلى كيفية الاقتداء بالنبي ﷺ فيها»[(١)].

➢ وهنا، يتبيَّن أنَّ علماء الحديث لم يكتفوا بالتأكد من صحة السند، بل نظروا إلى المتن أيضًا، وربَّما ردَّه بعضهم؛ لعدم تحقُّق شروط المتن فيه، ولو كان السند سليمًا. لذلك يتأكَّد تحقُّق الشرطين السابقين في سلامة متن الحديث من الشذوذ والعلل على الشكل التالي:

---

(١) بسام عبد الكريم الحمزاوي، **مدخل لطلب العلوم الشرعية «منح القيوم»**، ص٥٠، بتصرُّف.

□ **السلامة من الشذوذ**: بأن لا يروي الراوي الثقة حديثًا يُخالف فيه مَن هو أوثق منه، عبر: زيادة مخالفة في نصّ المتن، أو القلب بوضع لفظة موضع غيرها، أو الاضطراب بصعوبة الترجيح أو التوفيق بين الروايات، أو التصحيف بتحويل رسم الكلمة المكتوبة إلى غيرها، أو الإدراج بإدخال الراوي تعليقًا منه على الحديث.

□ **السلامة من العلل**: بعدم وجود علّة خفيَّة تقدح في صحة الحديث، [أو علّة ظاهرة] بأن يُخالف الحديثُ: القرآنَ[1]، أو حديثًا آخر صحيحًا، أو التاريخَ الثابت، أو العقلَ السليمَ [بأن يُناقضه، وهو معيار مختلف عن معيار: عدم إدراك معانيه وعدم استيعاب قدرات العقل له]، أو الحسّ. بالإضافة إلى اشتماله على مجازفة في ثواب أو عقاب على عمل صغير، أو ركاكة معناه.

هذا، وإن تحقَّقت جميع الشروط الخمسة كان الحديث صحيحًا، ولكن إن تحقَّقت كلُّها وكان ضبط الرواي غير تامّ (بأن كان يُخطئ قليلاً)، كان الحديث حسنًا. وليس ما وراء ذلك إلا الحديث الضعيف.

إنَّ القيام بالخطوات السابقة، يوصلنا إلى النص الحديثي المقبول ـ صحيحًا كان أو حسنًا ـ الذي يُمكننا الآن الحديث عن منهج الفهم له، وذلك: بدراسة واقعه، والواقع المعاصر زمن التطبيق، وتنزيل أحد الواقعَين على الآخر[2].

وبذلك نتلافى كثيرًا من مظاهر الخلل في التعامل مع السنة النبوية، والتي نتجت من

---

(١) لأن السنة شارحة للكتاب ومُبَيِّنة له، وما كان للبيان أن يُناقِضَ المُبَيَّن.

(٢) تمَّت الاستفادة من هذا التقسيم من كلام الإمام ابن القيّم الذي جمع فيه بين أهمية معرفة الحق، ومعرفة الواقع، وتنزيل أحدهما على الآخر. ابن قيّم الجوزية محمد بن أبي بكر، **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، ص١٨، بتصرُّف. وقد جرى على ذلك التقسيم بعض الباحثين أمثال: د. محمد أبو الليث الخيرابادي، «المنهج العلمي عند المحدثين في التعامل مع متون السنة»، في: **إسلامية المعرفة**، السنة الرابعة، العدد ١٣، ص٣١ ـ ٣٢، بتصرُّف.

التعامل معها على أنَّها كلَّها متَّسمة بالأبدية والثبات غير خاضعة للظروف من جهة، أو أنَّها كلَّها خاضعة للزمان والمكان بإنهاء فعّاليَّتها من جهة أُخرى! ولكنَّ «الأمر ليس هذا ولا ذاك، ففي السنة النبوية ما هو ثابت وهو أكثرها، وفيها ما هو تابع للزمان والمكان يتغيَّر التعامل معها حسب تغيُّر الزمان والمكان»(١)، وهذا يظهر في «عناية النبيّ ﷺ بمعرفة أحوال المخاطبين لتحقيق الحكمة في الدعوة من خلال تنزيل الناس منازلهم والتعامل مع المدعويين والأعداء وإجابة أسئلة السائلين بما يُناسب أحوالهم»(٢). لذلك كان اختيار منهج الفهم على هذا النسق.

أما دراسة واقع الحديث، فهو «ما يكتنفه وقت صدوره من أبعاد: الظروف الزمانية(٣) والمكانية(٤)، والمقاصد العامة أو الخاصة للشريعة، [والموضوعي، والسببي]، ودلالات الحديث اللغوية والعرفية والشرعية. وهذه الأمور يُدركها المُخاطَب مباشرة فلا يُخطئ فهم مراد المتكلِّم، خلافًا لمَن يتعامل مع نصّ مكتوب مثلاً. ولعلَّ هذا هو سبب [من أسباب] قلّة اختلاف الصحابة في فهم مراد الأحاديث، وكثرته فيما بعد عصرهم بين علماء التابعين، وأكثر منه بين المتأخِّرين عن عصر الصحابة والتابعين. هذا، ويُعرف واقع الحديث بالتنصيص عليه في السنة ذاتها، أو في أحد طرقها، أو

(١) د. محمد أبو الليث الخيرابادي، «منهجية التعامل مع البُعدَين الزماني والمكاني في السنة عند المحدثين»، في: **إسلامية المعرفة**، السنة العاشرة، العدد ٣٧ ـ ٣٨، ص١٢٧، بتصرُّف.

(٢) د. يوسف العليوي، **رعاية حال المخاطَب في أحاديث الصحيحَين دراسة بلاغية تحليلية**، ص٣٥ ـ ٤١، بتصرُّف.

(٣) المقصود بها: ظروف الناس وحالاتهم التي تعامل معها النبي ﷺ من خلال زمن النبوة الذي استغرق: (٢٣) سنة.

(٤) المقصود بها: ظروف الجزيرة العربية وحالاتها من بيئتها ومناخها وأعرافها وعاداتها وتقاليدها ومشاغلها واهتماماتها، والتي تعامل معها النبي ﷺ خلال زمن نبوته.

بالتأمل في متعلَّقاتها من قريب أو من بعيد»[١]، أو «من خلال عمل الصحابة»[٢].

وبدراسة هذه الأبعاد يتبيَّن التالي:

□ **البُعدَين الزماني والمكاني**: ليس لهما دخلٌ تأسيسي أو تغييري في مجالات العقائد وأصول العبادات (إلا في حالات الاضطرار والأعذار) ومبادئ الأنظمة الإسلامية في المعاملات والحكم والقضاء وغيرها، والأخلاق والقِيَم. ولكن، لهما دخل في المجالات التي تُعتبر تفريعًا على الأصول، أو تطبيقًا للمبادئ السابقة، أو ما كان: من أحكام النبيّ ﷺ باعتباره حاكمًا، أو مبنيًا على السياسة الشرعية، أو على سبيل التجارب البشرية، أو الأعراف والعادات، أو الأفعال الجِبلِّية للنبيّ ﷺ والعادية والأوامر الإرشادية. وهذه من المتغيِّرات التي تَتمثَّل مرونة الشريعة الإسلامية فيها، والتي تُرِكَت أحكامها لاجتهادات الفقهاء واستنباطاهم تبعًا للظروف والأحوال والعوائد والأعراف ومراعاة مصالح الناس [المعتبرة] بيُسر ودون حرج. فما تخلَّف من هذه الأحكام بمرور الزمن عن تحقيق المصلحة، يدور مع علَّته وجودًا وعدمًا طالما أنَّه أُنيط بأوصاف أو مصالح أو أعراف وعادات متغيِّرة، فيتغيَّر بتغيُّرها، أو زمان أو مكان معيَّنَين، أو سدًا للذرائع»[٣]. وإنَّ من فوائد دراسة واقع الحديث كما مرَّ أنَّه يتمّ «فهم المراد من النص النبوي على الطبيعة، وتقليص الخلافات المذهبية، وإزالة التعارضات والإشكالات»[٤].

□ «**البُعد المقاصدي للشريعة**: باعتبار أنَّ الأحكام شُرِعَت لدرء مفسدة أو لتحقيق مصلحة، ولأنَّها غاية مقصودة من التشريع، سواء أكان منصوصًا عليها أو مُشارًا إليها أو مُستنبطة.

□ **البُعد الموضوعي**: بجمع الأحاديث الداخلة تحت الموضوع الذي تتمّ دراسته، لأنَّ

---

(١) د. محمد أبو الليث الخيرابادي، «المنهج العلمي عند المحدثين في التعامل مع متون السنة»، ص٣٢، بتصرُّف.

(٢) د. محمد أبو الليث الخيرابادي، «منهجية التعامل مع البُعدَين الزماني والمكاني في السنة عند المحدثين»، ص١٢٧، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٤ ـ ٨٥، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ص١٢١ ـ ١٢٥، بتصرُّف.

الحديث يُفسِّر بعضه بعضًا، لأنَّه قد يرد الحديث في طريق عامًا أو مطلقًا، وفي طريق آخر خاصًّا أو مقيَّدًا. وإنَّه بجمعها يتحصَّل مقصَد للحديث.

❑ **البُعد السببي**: بمراعاة الأسباب التي وردت لأجلها الأحاديث، وسيقت في مساقها، لأنَّه ببترها يقلق مفهومها ويضطرب أحيانًا، فتترتَّب على ذلك نتائج خاطئة.

❑ **البُعد الدلالي اللغوي والشرعي والعرفي**: لأنَّه مَن أراد تفهُّم الحديث عليه أن يتفهَّم لسان العرب، ولا يُفهم إلا من جهة ذلك. فالعرب قد تُخاطب بالعام ويُراد به ظاهره، وبالعام ويُراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام ويُراد به الخاص، والظاهر ويُراد به غير الظاهر... وتتكلَّم بالشيء يُعرف بالمعنى كما يُعرف بالإشارة، وتُسمِّي الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحد، وكل ذلك معروف عندها، وكما أنَّ القرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب فكذلك السنة. بالإضافة إلى ما سبق، وبلحظ تغيُّر الزمن، فبعض المصطلحات كانت لها دلالة خاصة في عصر، ثمَّ تغيَّرت دلالتها في عصر آخر، أو تمَّ في عصر آخر استعمال مصطلح لأمر يدلّ على مسمّى آخر يختلف عن مدلوله في زمن النبوة»[1].

وأما دراسة الواقع المعاصر زمن التطبيق، فيتمّ عبر دراسة واقع «أوضاع المسلمين وأحوالهم وحاجاتهم، وأوضاع الدنيا من حولهم. عبر: قراءة أحوالهم في [الوسائل الإعلامية المناسبة من حيث الشمول والموضوعية] كبعض الصحف والمجلات، والوسائل السمعية والبصرية، وما توصَّلت إليه الأمم لأخرى من الرقي والتقدّم في ميادين العلم والمعرفة، والقيام بتحليل منصف دقيق لتخلُّف المسلمين في تلك الميادين وأسبابه وعوامله، لأنَّه كلما كانت معرفة الواقع المعاصر دقيقة، كلما كانت عملية تنزيله على واقع السنة أو تنزيل واقع السنة على الواقع المعاصر دقيقة وناجحة»[2].

وأما تنزيل أحد الواقعَين على الآخر، فهو نتيجة للدراستَين السابقتَين.

---

(١) د. محمد أبو الليث الخيرابادي، «المنهج العلمي عند المحدثين في التعامل مع متون السنة»، ص٣٧ ـ ٤٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣، بتصرُّف.

وتبقى مسألة تتعلَّق بضبط المصلحة المعتبرة، وهي التي يتمّ تحديد اعتبارها من قِبَل الشَّرع، ثمَّ تُصبح مؤشِّرًا ومرجِّحًا لفهم بعض «نصوص الشريعة وفق تطبيقاتها الواقعية، أو للاجتهاد وفقها في المسائل المستجدّة. ويُنظر إلى المصلحة من جهات متعددة: الخيرية العامة لجموع الناس عمومهم وخصوصهم، أو دفع المفاسد بها، أو كونها جامعة [بهدف حفظ المقاصد] (الدين والنفس والنسل والعقل والمال)، وبين كونها مادية أو معنوية، أو كونها ضرورية أو حاجية أو تحسينية، أو بالنظر إلى المدى الزمني الواسع ومتغيِّراتها ومآلاتها. والمصلحة المعتبرة يتمّ استنباطها بالموازنة بين جميع الجهات السابقة، ثمَّ تقديم ما يستحقّ التقديم، وتأخير ما يستحقّ التأخير، حتى لو فوَّت ذلك مصلحة أدنى أو وقوع مفسدة أخفّ»[1].

وتُعتبر البنود التالية من الأمور المساعِدة في تحديد المصلحة المعتبرة عند التطبيق، وهي: «دراسة مكانة الحكم الوارد في النص من خريطة التشريع، ودراسة شروط ولوازم التطبيق السليم لهذا النص، وخصائص هذا الجانب من التشريع، والانطلاق من النص لاستنباط المصلحة باعتباره معيارًا ولو لم يكن تفصيليًا (وليس من ذاتية أيّ باحث في النص ومشاعره وإيحاءات زمنه). . . ،»[2]. علمًا أنَّه «لا تعارض بين المصلحة المعتبرة بجهاتها والنص، إلا تعارضات ظاهرية مردُّها إلى الخلل في فهم المصلحة وتقديرها، أو الخلل في فهم النص وتطبيقه»[3].

---

(١) د. أحمد الريسوني، «النص والمصلحة بين التطابق والتعارض»، في: **إسلامية المعرفة**، السنة الرابعة، العدد ١٣، ص٤٨ ـ ٥٢، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٨ ـ ٥٩، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٥، بتصرُّف.

ثالثًا: المنهجية التاريخية:

سيتمّ اعتماد المنهجية التاريخية عند دراسة أحداث من السيرة النبوية (عماد الأطروحة). وهي «تستند إلى البيانات التاريخية التي ظهرت على مسرح الحياة، وتنقسم إلى: بيانات شفوية، ووثائق متناقلة (كروايات السِّيَر)، وآثار إنسانية. ويقوم هذا المنهج على النَّظر إليها وفحصها ودراستها، واستخلاص النتائج منها، والرَّبط بين هذه النتائج لإعداد وصف للماضي أو تحليل أو تفسير للوقائع والأحداث [ممَّا يستلزم التثبُّت والدقَّة]، والتعرُّف على معالم المسارات التي تتَّخذها الظواهر»[١]. هذا، وقد سبق عرض ما يتعلَّق بمنهج تحديد الأحداث في السيرة[٢].

أهمية البحث وفائدته:

إنَّ هذه الدراسة تُضيف بلا شكّ مسائل جديدة في زمن يحتاج إلى مثل نوعيَّتها، فهي ـ كما سبق ـ تُحاول البحث عن منظومة قيمية إنسانية تجمع نصوصًا متفرِّقة في رؤى التعددية وسياسات إدارتها في الإسلام، ضمن هرمية تتقدَّم فيها قِيَمٌ على غيرها (سواء مطلقًا أو حسب عوامل المرحلة)، أُركِّز فيها على دور الجماعة في المجتمع إضافة إلى دور السلطة الناظمة، عبر توجيهات الوحي إليها حسب ظروف نزول القرآن الكريم وورود السنة النبوية وما يقتضيه ذلك من فهم وتطبيق. للحصول في نهاية البحث على ملامح (أوَّلية) في منهج التعددية وسياسات إدارتها في المجتمع، تكون ترجيحات الاختيار من بينها قابلة للقياس في الزمن الحاضر، فنتمكَّن من اختيار الأصل الأنسب بحسب كل مرحلة، واستبعاد غيره.

وهذا الفقه لو تحوَّل إلى بنود مُلزمة فوق دستورية، وأصبحت الرئاسات مُلزَمة بها ضمن

---

(١) د. مصطفى التير، **مساهمات في أُسس البحث الاجتماعي**، ص ٥٤، بتصرُّف.

(٢) يُراجع: البند الأول من «أولاً: المنهج المختار في الدراسة لترتيب سور القرآن الكريم» من «منهجية البحث» ص١٧ ـ ١٨.

المجالس الدستورية، لتَقَيَّدت عوامل ومُسبِّبات تحويل النُّظم إلى التحكُّم بالنَّاس وظلمهم والتساهل في حفظ حريَّاتهم وحياتهم وسائر حقوقهم. وبذلك تتحقَّق في هذا البحث أهداف البحث العلمي: «فهمًا (بالوصف والتفسير للمنظومة القيمية) وتنبُّؤًا (بالقدرة على الاستنتاج المستقبلي عبر فهمها وقوانينها) وضبطًا (بالتحكُّم بها لإنتاج الصالح المرغوب)»[1].

تقويم المصادر وتحليلها[2]:

إنَّ المصادر التي رجعت إليها واعتمدتها في الأطروحة كثيرة؛ وقد خصَّصت هذا البند لعرض أهمِّها وأكثرها اتِّصالاً بموضوع الأطروحة حسب أقسام البحث، منبِّهًا على أهميتها، ومدى الفائدة التي أفدتها منها:

➢ أما فيما يختص بتحقيق دلالات ألفاظ القرآن الكريم وتفاسيره، فأختار منها:

١ ـ **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٣هـ): كاد يُجمع العلماء على أن هذا الكتاب يأتي في المرتبة الأولى من الكتب الكثيرة المؤلَّفة في هذا الموضوع، فليس هناك مؤلّف في علوم القرآن، أو دارس أو مفسِّر أو كاتب ـ بعد الراغب الأصفهاني ـ إلا ويشعر بالإجلال والإعجاب لهذا العمل العظيم الذي يعتبر بحقّ نقلة كبيرة في ميدانه، ومنعَطفًا هامًا في تاريخ معاجم المفردات القرآنية؛ فهو يكشف جذر الكلمة، ويتتبَّع المعاني المستعارة، ويتحرَّى المعاني الصحيحة، ويعمد إلى التعاريف الجامعة، ويستخلص قواعد كلية من تتبُّع الاستعمال القرآني لبعض الكلمات. وقد اعتمد عليه كثير من

---

(١) د. جودت عطوي، **أساليب البحث العلمي: مفاهيمه ـ أدواته ـ طرقه الإحصائية**، ص١٧ ـ ١٨، بتصرُّف.

(٢) تمَّت صياغة مواد هذه البند بعد الاطلاع على تلك الكتب ومقدِّماتها، وعلى كتب أو أبحاث تناول الدراسة التحليلية لبعضها، مثل: د. محمد الذهبي، **التفسير والمفسِّرون**. وإبراهيم قريبي، **مرويات غزوة بني المصطلق**. وأ.د. أحمد فرحات، **معاجم مفردات القرآن موازنات ومقترحات**.

المفسِّرين والمتخصِّصين في علوم القرآن اعتمادًا وصل إلى النقل الحرفي الكامل لمعظم موادّه ـ إن لم يكن لجميعها ـ واستخدامها.

وقد اعتمدت عليه في تحقيق دلالات بعض الكلمات القرآنية لتأصيل معاني استخدامها القرآني.

على أن أقوم بالاستعانة بأقدم المعاجم اللغوية كـ**كتاب العين** للخليل بن أحمد الفراهيدي، **ومعجم مقاييس اللغة** لابن زكريا، لتحقيق معنى جذر الكلمة باعتباره ـ في الأغلب ـ المعنى الجامع لمعاني الألفاظ في استخداماتها الاصطلاحية ولوازمها التي تُفهم من السياق الذي ترد فيه.

٢ ـ جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ): هو أعظم ديوان أُلِّف في التفسير، وقد أجمع العلماء على أن ابن جرير إمام المفسِّرين بما أودع في هذا الكتاب من معارف وعلوم، جمع فيها بين الدراية والرواية، وتتبَّع التفسير بالأثر محاولاً الاستقصاء ممَّا لم يُسبق إليه، ثم يُتبع ذلك بذكر الخلاف في معنى الآية، وترجيح الصواب فيها، كما يُعنى باللغة وذكر أقوال أهل النحو والصرف والمعاني ويُبيِّن أقربها لأسلوب القرآن بما هداه إليه فهمه، وكان خبيرًا باختلاف القراءات معتنيًا بتوجيهها مستشهدًا لها من أساليب العرب، وقد كان إمامًا في فنون كثيرة وحجّة في الفقه والتفسير والأصول والقراءات وعلوم اللغة على اختلافها، فاستخدم هذه الوسائل كلَّها في تفسيره، كما كان محدِّثًا ضليعًا فلم يُغفِل الأحاديث الواردة في سبب نزول أو توضيح آية، وكان بالجملة جمَّاعًا في تفسيره بين علوم شتى مزج بينها مزجًا فريدًا بروح علمية فذّة، ظهرت فيها شخصيته العلمية ظهورًا بيِّنًا فاستحقَّ بذلك ثناء العلماء عليه وتقديمهم له على غيره من المفسِّرين، فاحتلَّ تفسيره مكان الصدارة بين كتب التفسير جميعها. على أنَّه قد وقع في سرد بعض الإسرائيليات التي يختلط فيها الحق بالباطل، غير أنه لم يكن يسردها على سبيل الاحتجاج، وإنما كان يوردها من أجل توضيح حادثة أشارالقرآن إليها، وقد كان يُنبِّه على بطلان بعض القصص الإسرائيلية، وإن أهمل كثيرًا منها بدون تنبيه مما كان مثار النقد له في إيرادها.

وقد اعتمدت عليه في معرفة روايات التفسير المأثور وترجيحاتها من بينها.

٣ ـ **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ): هو تفسير ذائع الصيت منتشر في الآفاق انتشارًا واسعًا، وقد تداوله العلماء وأثنوا عليه ثناء عظيمًا وقدَّموه على غيره من كتب التفسير، لما امتاز به من ميزات كثيرة، وذلك أن مؤلّفه على رغم تبحُّره في العلوم وتفنُّنه في فنون كثيرة جرَّد تفسيره من الحشو والتطويل واهتمَّ بتفسير القرآن بالقرآن، كما أوضح ذلك في مقدِّمته، ممَّا لم يُسبَق إليه، ولم يهتمّ بالإكثار من المباحث اللغوية من نحو وصرف وبلاغة، مع أنه كان عالماً كبيرًا فيها، وذلك لأنَّ هذه العلوم قد شغلت كثيرًا من المفسِّرين عن الغرض الأساسي في التفسير، ممَّا جعل تفاسيرهم تفقد المنهج الصحيح لتفسير القرآن. فجاء ابن كثير ونهج في تفسيره منهج تفسير القرآن بالقرآن، وأضاف إلى ذلك تفسيره بالسنة الصحيحة، والأثر الصحيح. فجاء تفسيره واضحا لمنهج عظيم الفائدة. وكان يُعنى بتحقيق الروايات وتمحيصها وبيان صحيحها من سقيمها، ولم يذكر من الإسرائيليات إلا ما لم يكن فيه محظور مما يذكر فلا يُصدَّق ولا يُكذَّب.

وقد اعتمدت عليه في معرفة روايات التفسير المأثور واختياراته من بينها.

➢ هذا في تفاسير المتقدِّمين، أما في تفاسير المتأخِّرين، فقد اعتمدت على ثلاثة تفاسير ظهرت في بداية القرن الحالي (على أن أُؤجِّل نقد أولاهما إلى بند الدراسات السابقة)، وهي:

٤ ـ **فهم القرآن الحكيم ـ التفسير الواضح حسب ترتيب النزول**، د. محمد عابد الجابري: هو محاولة مقدَّمة من مفكِّر عربي لاستعادة أصالة النص القرآني لفهمه كنصٍّ مجرَّد عن أنواع الفهم التي دُوِّنت في كتب التفسير عبر عزل المضامين الأيديولوجية لتلك الأنواع من الفهم، واعتماد ترتيب النزول بمراعاة التطابق النسبي على الأقلّ بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، والبحث عن فهم الآيات بناء على ذلك التسلسل المنطقي المفروض والملموس.

وقد استفدت من ذلك، ومن تصنيفه لموضوعات السور القرآنية، ومن ربط بعضها بأحداث محدَّدة من السيرة لها دلائلها (ولو لم ترد في مراجع أُخرى من السِّيَر). مع

احتفاظي ـ عند الاستعانة بالمؤصَّل من منهجه في الرسالة ـ بالنظرة النقدية المتحفِّظة على بعض نتائج منهجه ممَّا يتعارض بشكل صريح وقطعي مع المرويات الصحيحة الثابتة والإجماع العلمي المعتبر.

٥ ـ **معارج التفكّر ودقائق التدبّر**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: «هو تفسير تدبُّري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، وفق منهج كتابه «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل».

وقد استفدت من منهجه العلمي في التدبُّر، وفي عرضه في كثير من الأحيان للروايات المتعلِّقة بالآيات، وقراءته لها باستحضار العصر الحديث وإشكاليات الدعوة الحاضرة، ومن تصنيفه لموضوعات ودروس السور القرآنية، ولهذا أكثرت من الاستشهاد به في العرض المختصر لموضوعات السور الطويلة. مع ملاحظة عدم اكتمال تفسيره بسبب وفاة المؤلِّف قبل إنهائه.

٦ ـ **التفسير الموضوعي**، مجموعة باحثين، بإشراف: د. مصطفى مسلم: وهو كتاب رائد في الاهتمام بالتفسير الموضوعي لجميع سور القرآن على منهج التفسير الموضوعي، بما يُراعي السياق، ويُعطي لكل سورة محور موضوعها الذي تلتقي فيه مجموعات فقراتها ضمن نسق واحد، مع مناسبات السور ومقاطعها ببعضها.

وقد استفدت منه بشكل أساسي في إعطاء عناوين في أهداف بعض السور أثناء عرضها بشكل مختصر في الأطروحة.

هذا فيما يختص بالقرآن الكريم من حيث الألفاظ والتفسير.

➢ وأما بخصوص الحديث الشريف، فقد اخترت عدَّة كتب تتناول تحقيق دلالات الألفاظ الحديثية أهمها: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وأما الشروح الحديثية فهي متعدِّدة بحسب الكتب التي خرَّجَت الحديث.

٧ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ابن الأثير المبارك بن محمد (ت: ٦٠٦هـ):

هو من أَجَلِّ ما صُنِّف في غريب الحديث وأعظم ما كُتِب في بابه، وذلك أنه سبقت جهود كبيرة للعلماء في الكتابة في غريب الحديث على زمن ابن الأثير فأنارت له معالم الطريق، ولكنها على اختلاف مناهج مؤلِّفيها لم تفِ بالغرض، ولم تستوعب غريب الحديث حتى جاء ابن الأثير فوقف على جميع الكتب التي عنيت بهذا الموضوع وطالعها كلَّها واستوعب ما تضمَّنته وعرف ما فاتها من غريب الحديث، فقام بسدّ هذه الثغرة العلمية إسهامًا منه في خدمة الحديث النبوي الشريف، وبذل جهدًا علميًا كبيرًا في تمحيص هذا الكتاب واستيعابه لما وصل إليه من غريب الحديث، وقد جمع فيه بين كتابَين جليلَين لـمَن سبقه هما أهمّ ما كُتِب قبله في هذا الفنّ: كتاب أبي عبيد الهروي في غريب القرآن والحديث، وكتاب أبي موسى الأصفهاني الذي جمع ما فات الهروي من غريب القرآن والحديث. فجمع ابن الأثير في كتابه ما في الكتابَين من غريب الحديث دون غريب القرآن. ولم يقف عند الجمع فحسب، وإنما ضمَّ إليهما ما فاتهما من غريب الحديث، وهو كثير وافر، مستقرئًا له من مطالعته لكتب الصحاح والمسانيد والمجاميع وكتب السنن والغرائب قديمها وحديثها إلى زمنه، وكتب اللغة على اختلافها. فجاء كتابه هذا أعظم كتاب في غريب الحديث، وأوسع الكتب التي سبقته في هذا الباب، وأصبح مرجعًا هامًّا للعلماء على مدار الزمن.

وقد اعتمدت عليه في تحقيق دلالات بعض الكلمات الحديثية لتأصيل معاني استخدامها النبوي.

على أن أقوم أيضًا بالاستعانة بأقدم المعاجم اللغوية كـ: **كتاب العين** للخليل بن أحمد الفراهيدي، **ومعجم مقاييس اللغة** لابن زكريا، لتحقيق معنى جذر الكلمة باعتباره ـ في الأغلب ـ المعنى الجامع لمعاني الألفاظ في استخداماتها الاصطلاحية ولوازمها التي تُفهم من السياق الذي ترد فيه.

هذا في التعامل مع فهم ألفاظ الوحي.

➢ وأما بخصوص السيرة، فيلزم قبل استعراض كُتُبها أن أقوم بمراجعة طبقاتها وعلاقة المصادر ببعضها لتمييزها:

يتبيَّن أنَّ «المؤلِّفين في السيرة ينقسمون إلى طبقات، أشهرهم في الطبقة الأولى: عروة ابن الزبير (ت: ٩٤هـ) وأبان بن عثمان (ت: ١٠٥هـ) ووهب بن منبِّه (ت: ١١٠هـ) وشرحبيل بن سعد (ت: ١٢٣هـ).

وفي الطبقة الثانية: عاصم بن عمر (ت: ١٢٠هـ) وابن شهاب الزهري (ت: ١٢٤هـ) وابن حزم الأنصاري (ت: ١٣٥هـ). وقد بادت كتب هؤلاء جميعًا ولم يبقَ منها إلا اسمها الوارد في كتب المتقدِّمين أو بعض النقول المنتشرة في مصنَّفات متأخِّرة.

ثمَّ في الطبقة الثالثة اشتهر: موسى بن عقبة (ت: ١٤١هـ) ومعمر بن راشد (ت: ١٥٤هـ) ومحمد بن إسحاق (ت: ١٥١هـ) شيخ رجال السيرة، ويلحق بهم محمد بن عمر الواقدي (ت: ٢٠٧هـ).

أما كتاب ابن عقبة فلم يصل إلينا، وأما كتاب ابن راشد فقد بقيت منه نقول في كتب الواقدي وابن سعد. وقد وضع ابن عقبة مع ابن إسحاق والواقدي الأُسس التي بنى عليها المؤلِّفون المتأخِّرون كتبهم مثل الطبري وابن كثير.

وقد جاء بعدهم محمد بن سعد (ت: ٢٣٠هـ) صاحب «الطبقات الكبرى» بالرواية عن الواقدي، كما جاء عبد الملك بن هشام (ت: ٢١٨هـ) بتهذيب وتنقيح سيرة ابن إسحاق وحذف ما لا علاقة له بالسيرة فيه أو الأخبار غير الثابتة»[(١)]. وبالتالي، أصبحت المصادر المعتبرة لدينا: سيرة ابن هشام، والطبقات الكبرى، والطبري، وابن كثير، إضافة إلى بعض كتب المتقدِّمين والمتأخِّرين، أعرضها على الشكل التالي قبل أن أورد في خاتمة العرض مواضع استفادتي منها:

٨ ـ **السيرة النبوية**، عبد الملك بن هشام (ت: ٢١٨هـ): هو أخصُّ المراجع وأهمُّها،

---

(١) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٢٣ ـ ٢٥، بتصرُّف.

وهو كتاب جليل اعتنى فيه مؤلِّفه بتنقيح السيرة النبوية وتهذيبها وحذف الفضول منها، وقد اشتهرت سيرة ابن هشام شهرة فائقة حتى كاد يُنسى الأصل الذي أُخِذَت منه وهو سيرة ابن إسحاق، والسبب في اشتهارها يعود إلى ما امتازت به من تنقيح وتهذيب، فقد كان ابن هشام في تهذيبه للسيرة محقِّقًا للنصوص ومنتقِدًا لما وقع لابن إسحاق من هفوات، ومتمِّمًا لما فاته من الروايات ذات الصلة بموضوع السيرة، هذا وقد كانت هذه السيرة أصلاً عظيمًا ومرجعًا هامًّا، وهي ـ كما سلف ـ مستقاة من سيرة ابن إسحاق الإمام المقدَّم في السِّيَر والمغازي، ومن هنا كانت أهمية هذه السيرة وقوة الاستناد إليها، فابن إسحاق وإن كان صاحب الفضل السابق في هذا العمل الجليل، لكن ابن هشام لا يقلُّ فضله عن فضل ابن إسحاق، في التهذيب والترتيب وحذف ما لا تعلُّق له بالسيرة النبوية الشريفة وترك ما لا يحسن ذكره مما لصق بالسيرة، وترك أشياء كثيرة كان مصيبًا في تركها، مثل حذفه كثيرًا من الإسرائيليات والأشعار المنتحلة، فجاءت سيرته على أكمل الوجوه وأحسنها اختصارًا واستيعابًا للأحداث الأساسية الهامة في حياة النبيﷺ. وإنَّ «قرب سيرة ابن هشام ممَّا أوردته الأحاديث الصحيحة أعطى سيرته توثيقًا كبيراً»[1].

٩ ـ **الطبقات الكبرى**، محمد بن سعد (ت: **٢٣٠هـ**): كتاب تحدَّث فيه مؤلِّفه عن السيرة والصحابة والتابعين حتى عصره، وبلغ من الدقة فيه حدًّا يجعله وثيقة بالغة الأهمية. ويُعتبر ابن سعد «أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرِّين»[2].

١٠ ـ **تاريخ الرسل والملوك أو تاريخ الأمم والملوك**، الطبري محمد بن جرير (ت: **٣١٠هـ**): هو من أعظم الكتب التاريخية، وقد عُنِيَ فيه ابن جرير بالجمع والاستقصاء، وبناه على منهج المحدِّثين من حيث الرواية بالسند، ولم يكن يعتني فيه بالتحقيق والتمحيص والنقد، وإنما كان يهمُّه الجمع، وذكر الوقائع منسوبة إلى قائليها ورواتها (مقدمة الطبري). وقد اعتذر هو عن نفسه فقال: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أنَّ اعتمادي في كل ما أحضرت

---

(١) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٦٦، بتصرُّف.

(٢) ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، **تهذيب التهذيب**، ٩: ١٨٢، بتصرُّف.

ذكره مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رَوَيت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه. . . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يُعرف له وجه في الصحة ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُؤت في ذلك من قِبَلِنا، وإنما أُتِيَ من قِبَل بعض ناقليه إلينا وأنّا إنما أدّينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا». لقد كان ابن جرير بذلك أمينًا في النقل دقيقًا في التحرِّي ونِسبة الرواية إلى راويها تاركًا لـمَن جاء بعده أن يُحقِّق ويُمحِّص ويبحث في تحرِّي الصواب بقدر ما تُمكِّنه وسائله. ويبقى أنَّني سأعمل على ناحية نقد الروايات التي تحتاج إلى ذلك.

١١ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، البيهقي أحمد بن الحسين (ت: ٤٥٨هـ): هو من أنفَس وأشمل ما صُنِّف في دلائل النبوة، اعتمد فيه أساسًا على الصحيحَين وعلى بقية كتب السنن، وأخذ من كتب المغازي كابن عقبة والواقدي وابن إسحاق. وقد حظي بتقدير العلماء لاتفاقهم على شموله وصحَّته ودقَّته وتهذيبه وترتيبه.

١٢ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن قيِّم الجوزية (ت: ٧٥١هـ): هو كتاب في السيرة النبوية يمتاز بالتحليل والاختصار واستخلاص العبرة من وراء ما يورده مؤلِّفه من أحداث السيرة والمغازي مع اعتناء بالأحكام الفقهية المستنبطة من السيرة النبوية بهدف تربوي يُحقِّق الأسوة والقدوة برسول الله ﷺ.

١٣ ـ **البداية والنهاية**، ابن كثير إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ): هو من أهمِّ المراجع التاريخية إن لم يكن أهمّها وأفضلها، وظاهرٌ من اسمه أنه تاريخ شامل لمراحل البشرية من بدايتها إلى زمن المؤلّف، وقد اجتهد مؤلِّفه في تحقيقه وترتيبه وحشد المعلومات التاريخية الواسعة فيه، وقد التزم أنه لا يذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع فيه، مما لا يُخالِف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعرَّفه بأنه القسم الذي لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، مما فيه بسط لمختصر عندنا أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلِّي به، لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه، وإنما الاعتماد والاستناد على

كتاب الله وسنة رسوله ما صحَّ نقله أو حَسُن، وما كان فيه ضعف نُبيِّنه. وهذه الطريقة التي التزمها ابن كثير في تاريخه الواسع، لم يكن يلتزمها كثير من المؤرِّخين قبله، وهي طريقة حَسَنة امتاز بها تاريخه هذا، وقد كتب ابن كثير عن أحداث السيرة النبوية ضمن الأحداث التاريخية التي عُنِيَ بتسجيلها، وكان يلتزم في حديثه عن التاريخ الإسلامي طريقة الترتيب على حسب السنين ابتداء من أول سنة هجرية إلى زمنه.

وقد استفدت من الكتب الستة السابقة ما أوردوه من روايات في السيرة النبوية، بألفاظ متوافقة أو متقاربة أو حتى مختلفة، تُضفي جوانب مختلفة من رواية الحَدَث في السيرة، إضافة إلى أنَّني قُمت بمقارنتها مع دراسات في تحقيق أسانيد هذه الروايات من جهة، ومع روايات وردت في الكتب الحديثية من جهة أُخرى.

١٤ ـ **الجامع في السيرة النبوية**، سميرة الزايد: هو أول جهد في نطاق الكتابات الحديثة في السيرة يختص بجمع سائر مرويات السيرة النبوية وربطها بمصادرها من الكتب الأصلية على اختلافها (سيرة، وحديث، وشروح، وتاريخ، ورجال. . . ،) دون الاكتفاء بالأصح (مع الإشارة إلى الضعيف منها) أو بمرجع دون آخر.

وقد استفدت منه بما أحصاه من الروايات ـ في كلِّ حدَثَ في السيرة على حِدة ـ والتي نسبها إلى كتبها، فكان الكتاب أشبه بالمعجم الذي يصلح لتُبنى عليه الدراسات في السيرة.

➢ وأما بخصوص التعددية المجتمعية، فقد اخترت عدَّة كتب ومقالات معاصرة تناولت التعددية المجتمعية وأقسامها (العَقَدية، والثقافية، والسياسية، والعرقية، والطبقية). ورغم أنَّ كثيرًا منها ركَّزت على النظريات الغربية من جانب الإدارة للتعددية، إلا أنَّني حرصت على البحث عن مقالات وكتابات أُخرى تتناولها من جانب الرؤية للتعددية، وفي تأصيلها الإسلامي[1].

---

(١) يُراجع «مصطلحات عنوان الأطروحة ونقدها» من «دليل مصطلحات البحث» من «مدخل الدراسة» ص٧٧ ـ ٧٨، وص٨٣ ـ ٩٢.

٨ ـ محدَّدات البحث:

إنَّ أسلوب عرض الأطروحة استلزم التأصيل والتوثيق والتدقيق في متعلَّقاتها. فاقتصر ظهور الباحث في الطَّروحات نفسها، وفي جهد جمع الروايات والآراء بمنهجية تتحرَّى الموضوعية. فامتلأت الأطروحة بالمقتبسات، ولكنَّها ضرورة لازمة لاستخراج منظومة علمية من أصول الإسلام تنسجم مع موروثه العلمي والثقافي في الوقت الذي تُحقِّق منهجية تفكير وأسلوب فَهْمٍ جديدَين لها باعتبار الطَّرح نفسه.

وإنَّ معالجة الطَّرح في مضمون الأطروحة، أظهرها ككتاب سيرة نبوية أو كتاب تفسير للقرآن. ولكنَّ رؤية التعددية وسياسات إدارتها في العهد النبوي ارتبطت بمشروع دعوي وقضية إيمانية قِيَمية إنسانية في السيرة، كما ارتبطت حَسب الفرضية بمعايير تختلف باختلاف مراحل السيرة حَسب تتابع أحداث هذه القضية، فكان لا بدَّ من الاهتمام بعرض السيرة لاستنباط تلك المعايير، لأنَّ هناك تداخل منطقي بين تتابع الأحداث وبين أصول رؤية التعددية المجتمعية وسياسات إدارتها في كلِّ مرحلة. كذلك فإنَّ هاتَين (الرؤية والإدارة) ارتبطتا أيضًا بالخطاب القرآني في كل مرحلة، ولأنَّ هناك العديد من الآراء والأقوال حول نزول الآيات وتصنيفها بين مكية أو مدنية، فقد استلزمت المعالجة جُهدًا إضافية مُوازيًا لتحقيق روايات السيرة بتحقيق روايات أسباب النزول، ثمَّ جمع النتيجتَين في كلِّ مرحلة وتحقُّق مدى الانسجام بينهما والاستنباط بقراءتهما معًا.

➢ إضافة إلى ما سبق تبرز مجموعة أُخرى من المحدَّدات، وهي التي تتعلَّق بالمنهجيَّات المختارة في الأطروحة:

أولاً: محدَّدات مناهج العلوم الإنسانية:

➢ إنَّ هناك العديد من **العقبات والصعوبات** المحيطة بالمناهج الخاصة بمجال العلوم الإنسانية، منها:

❏ استحالة عزل الظاهرة عن ظواهر أخرى.

❏ صعوبة القياس الكمِّي الإحصائي.

❏ الغموض والتعقيد الإنساني في محاولة تفسير السلوك.

❏ فقْد عنصر العموميَّة (فقوانين العلوم الإنسانية لا تتَّصف بالدقَّة نفسها التي تتَّصف بها غيرها، لأنَّ الاستثناء لا يزال له دوره في مجال العلوم الإنسانية).

❏ فقْد عنصر الموضوعيَّة (التعرُّض لأخطار التحيُّز لارتباط المسائل التي يدور حولها الاستقراء بالإنسان ذاته، فليست خارجة عنه. كما قد توضع الأهداف مُسبقًا قبل المُضيِّ بالمسائل، ممَّا يوجب الحذر في إصدار الأحكام العامَّة).

ويُلاحظ من كلّ ما سبق أنَّه يَصعُب رصد التَّجارب الإنسانيَّة على نحو سليم، ودقيق، وواضح، وموضوعي. ومع ذلك فإنَّه يُمكن دراسة أعماق ظواهر الإنسان النفسية ودوافعه من خلال ملاحظة سلوكه وتصرُّفاته لمعرفة العوامل المؤثِّرة فيه. مع التأكيد مُسبقًا على:

❏ ضرورة اعتماد «الشَّك المنهجي» في المعتقدات الاجتماعية الناتجة عن تقاليد (دينية) موروثة، وعدم الإيمان بأيّ آراء قبل التأكد من قيمتها وصحَّتها.

❏ «النظر إلى التراث على أنَّه معطيات تُنير العقول وتزوِّدها بالخبرة، في الوقت الذي تسمح للعقول بالنظر فيها ونقدها، لأنَّ التَّعامل مع الموروث الثقافي على أنَّه مجموعة معطيات جاهزة وصافية، يضرُّ بحركة التفكير، ويجعل عقولنا أحد ممتلكات السابقين»[1].

❏ مُحاولة رصد كافَّة جوانب ظاهرةٍ ما (عوامل نشأتها والظروف المحيطة بها)، لصيانة

---

(١) أ.د. عبد الكريم بكار، **١٤٩ بصيرة في التراث والماضي والتاريخ والمستقبل وطبائع الأشياء**، ص١٠، بتصرف.

احتمال أن يكون أيّ جانب يُغفل هو عامل أساس في حدوثها. لكن، لا يخلو أنَّ تعدُّد التأويلات المتباينة للأحداث ذاتها يُعتبر من صعوبات البحث، فيلزم مطالعتها، «ولا نرى في مثل هذه الظروف أفضل من تنسيق الحقائق المفردة على أساس علاقتها بالحاضر، فما يُعاوننا منها على فهم الحاضر هو أهمّ بدرجات من غيره، إذ القصد من درس الماضي إنَّما هو فهم الحاضر وإعداد العدَّة للمستقبل»(١). كذلك فإنَّ «من الشروط الأساسية لصوابية التاريخ واستمراريَّته، أن يعكس للمعاصرين، قرَّاءً أو كتَّابًا أو طلَّابًا، صورًا يتعرَّفون بذواتهم من خلالها، ويجدون فيها جذورهم وأصالتهم»(٢).

❏ عدم قول كل شيء، فليس ذلك من الحِكمة. لأنَّ مَن ظنَّ أنَّه قال كلَّ شيء، فبنتيجة كلامه ما قال شيئًا. لهذا فقد التزمت بعنوان البحث قدر الإمكان. وما أُضيفه من تفاصيل فهو من قبيل المساعدات على الفهم الأقرب.

وإنَّه بمقتضى المنهجية التاريخية، «لا بدَّ من قراءة جديدة للأصول والأحداث، بغية فهم المواقف واستيعاب التطوُّرات من الداخل، وانطلاقًا من نظرة الجماعات إلى نفسها، ومن طبيعة علاقاتها مع الآخرين»(٣).

ويبقى أنَّني سأُحاول ما استطعت الالتزام بالدِّقَّة والموضوعيَّة في مُقاربة هذا البحث، كمُراقب أكاديمي يُريد أن يفهم، وذلك في جميع مراحل البحث، سواء في جمع المادَّة أو في تأويلها، لأنَّ المعلومات وإن صحَّت، فإنَّها لا تكفينا خطأ الوقوع في استنتاجات خاطئة، ذلك أنَّ «التاريخ الذي يهمُّنا رائده الحقيقة وليس ما عداها، ولأنَّ كل ما يُبنى على غير الحقيقة فكالقصور على الرمل إلى زوال»(٤).

---

(١) د. أسد رستم، **مصطلح التاريخ**، ص١٣٧.

(٢) جمعية متخرِّجي المقاصد الإسلامية، **كتابة تاريخ لبنان إلى أين؟**، ص٢٣.

(٣) د. جان شرف، «الأبعاد المجتمعية للاستقلال»، بحث مقدَّم لـ **مؤتمر اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان**، الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب ـ الفرع الثاني، إعداد: قسم التاريخ، ٢٤ ـ ٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٣م، ص٧٥٥.

(٤) جمعية متخرِّجي المقاصد الإسلامية، **كتابة تاريخ لبنان إلى أين؟**، ص ٢٤.

ثانيًا: محدَّدات معرفية ـ تحفُّظات وعوائق:

١ ـ حكم تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول:

أفتى بعض العلماء بجواز تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، لأنَّ «التأليف والتصنيف تابع لأغراض المؤلِّفين، حسبما يعرض لهم من إشكال، لإظهار الفوائد التي يطَّلعون عليها، وليس التفسير بقرآن يُتلى حتى يُراعى فيه ترتيب الآيات والسور. . . ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور»[١]. وإنَّ «الاعتماد على روايات ظنية احتمالية[٢] تُعين على تسلسل البناء المعرفي والتكامل التربوي، خاصة عند الاكتشاف من خلال التدبُّر الميداني أنَّ ترتيب مراحله معظمه حقّ[٣]، فالأخذ بما يُفيد الظن في مراحل النزول لتدبُّر القرآن ومحاولة فهمه أولى من الاعتماد في تدبُّره على الترتيب الثابت قطعًا بأنَّه لم يُراع مراحل التنزيل، وهو الترتيب الحالي المجمع عليه والذي يُتعبَّد به»[٤].

بالمقابل، من الباحثين مَن أبدى التحفُّظ على تفسير القرآن حسب ترتيب النزول[٥]، بل

---

(١) هذا نص فتوى مفتي سوريا الشيخ أبو اليسر عابدين رحمه الله تعالى. مجد مكي، **التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر**، ص٢٨، بتصرُّف. وكذلك للأستاذ العلامة المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله فتوى محرَّرة في جواز تفسير القرآن حسب نزوله أوردها الأستاذ محمد عزة دروزة في مقدمة تفسيره: محمد عزة دروزة، **التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول**، ١٤٢١ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) أقول: سيتنبَّه القارئ خلال عرض السور مدى كمية الروايات المقبولة الداعمة لآيات السورة ومكانها من السيرة، ممَّا يتجاوز حدّ التخمين الاحتمالي إلى الظن الراجح.

(٣) سيُلاحظ القارئ بإذن الله «وجود نوع من المنطق الداخلي في تتابع السور، غير ترتيب النزول المروي، وهو منطق داخلي لعملية نزول القرآن منجَّمًا حسب مقتضى الأحوال». د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الزلزلة، ١: ١٤٤، بتصرُّف.

(٤) مجد مكي، **التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر**، ص٢٨، بتصرُّف.

(٥) كما فعل د. فريد سليمان عند نقده لكتاب التفسير الحديث في كتابه: محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم.

بعضهم اعتبره بدعة في العدول عن الترتيب الإلهي وخدمة لأغراض استشراقية للطعن في القرآن الكريم بسبب كونه اجتهادًا مبنيًا على الظنّ والتخمين[1]. وبالتمعُّن في هذه الآراء يتبيَّن التالي:

أما بخصوص التحفُّظ، فقد قام الباحث نفسه ـ في الدراسة ذاتها التي أبدى فيها تحفُّظه ـ بتزكية «دراسات معاصرة تقوم على الأسلوب المنهجي الموضوعي، فتجمع الآيات الواردة في موضوع واحد ويُناقش ترتيبها وفق أسباب النزول، ثمَّ يُستخلص من كل ذلك دراسة مقارنة للفكرة الأساس الجامعة لهذه الآيات، أو الحكم الشرعي المستفاد منها، تُعطي ثمارًا طيبة إن أُحسِن استغلالها واستثمارها»[2]. وهذه التزكية كفيلة بإزالة أثر تحفُّظه عن هذه الأطروحة، لأنَّها تتناول موضوعًا محدَّدًا هو «التعددية المجتمعية: من الرؤية إلى الإدارة». غير أنَّه بسبب تشعُّب هذا الموضوع وتعدُّد الفئات الداخلة فيه، كان لزامًا عليَّ أن أُحاول ـ كما أشرت سابقًا ـ رصد كافَّة جوانب الظاهرة (عوامل نشأتها والظروف المحيطة بها)، لصيانة احتمال أن يكون أيّ جانب يُغفل هو عامل أساس في حدوثها. ولذلك رصدت كافة السور القرآنية وما تناولَته من موضوعات عمومًا ومن توجيهات في رؤية التعددية وسياسات إدارتها خصوصًا، ولم أكتفِ باختيار عدد محدود من السور فحسب.

وأما بخصوص اعتبار التفسير حسب ترتيب النزول بدعة وخدمة لأغراض استشراقية بسبب كونه اجتهادًا مبنيًا على الظنِّ والتخمين، فإنَّ هذا إن صحَّ في واقع بعض الدراسات الغربية والعربية، إلا أنَّ منهج الدراسة السياقية قد تمَّ بيانه سابقًا، ويتَّضح اختلافه عن مناهج ونظريات ومفاهيم، مستوردة من الخارج، ارتبطت بخلفيَّات أيديولوجية وتاريخية وفكرية، واعتبَرَت أنَّ خطاب النص الديني ردّ فعلٍ وأنَّ أحكامه وقتية لم يعُد لها قيمة في الحاضر، فدعت لتغيير تفسيرات النص بما يُناسب متطلَّبات العصر الحديث ومفاهيمه. وأُضيف هنا: أنَّ توجيهات القرآن الكريم تُعتبر مبادرات جعلت خصوم الدعوة في خانة ردِّ الفعل، وأنَّ

---

(١) أ.د. محمد عمارة، **رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم**، ص٤٠ ـ ٤٣، بتصرُّف.

(٢) د. فريد سليمان، **محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم**، ص١٣٣، بتصرُّف.

ظروف السيرة كما كانت سببًا في نزول آيات من القرآن، فإنَّ حدوثها وتنزيل الآيات بها كان سابقًا في علم الله تعالى. كذلك فقد تمَّ اعتبار معرفة أسباب النزول تعريفًا بالمنزَّل ومنطلَقًا لفهمه وهداية في تحديد دلالته عند تنزيله على نوع المقصودين به لتوضيح عموم اللفظ دون اقتصارها على خصوصية نزولها، وفي ذلك أيضًا التزام بقاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». وإنَّه بذلك لا يبعُد التأويل عن معهود العرب بلغتهم ومفاهيمهم وشؤون حياتهم زمن نزول القرآن.

كذلك، يلتزم المنهج في هذه الأطروحة بالعودة إلى الرواية والسماع في التفسير وربط السور أو آياتها بأحداث من السيرة النبوية ومراعاة اعتبارات السياق، مع مقارنة الترتيبات المختلفة للسور كما وصلت إلينا. وسيتبيَّن للقارئ مدى الالتزام بذلك في الأطروحة من جهة، ومدى توافر الروايات حول السورة وآياتها وغزارتها من جهة أُخرى، إضافة إلى المعنى التراكمي الذي يُلحَظ بين السور (المتلاحقة في الراجح من ترتيب النزول، المتباعدة في ترتيبها في المصحف). كذلك، باعتماد عرض كل سورة (كوحدة كاملة نزلت في مرحلتها من السيرة حسب الروايات لها أو لبعض آياتها) طالما لم يظهر مُرجِّح لتأخير نزول مجموعات منها. ويكفي لتزكية إمكانية التفسير حسب ترتيب النزول كتاب «معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر» للشيخ عبد الرحمن حسن حبنَّكة الميداني الذي فسَّر فيه كل السور المكية (حسب الترتيب الذي اعتمده). وقد أوضحت عند عرضه في بند «الدراسات السابقة» أنَّه لم يقم بتحقيق كامل ترتيب السور، رغم وجود أقوال وترجيحات في عدم مناسبة بعض السور لمكانها في لوائح الترتيب أو تحديد المكي من المدني، وهو الأمر الذي لَحَظَته هذه الأطروحة لتقترب أكثر فأكثر من غلبة الظن واليقين.

٢ ـ عوائق معرفية (تطبيقات النسخ، والنسء):

رغم العرض السابق، يبرز عائق معرفي أمام اعتماد المنهج السابق بالترتيب المذكور، ليمنع ـ عند تعميمه وعدم تحقيق انضباطه بقضاياه الخاصة ـ من الاستفادة من أغلب عطاء القرآن في مجمل وصاياه في كلِّ مرحلة من جهة، ويُعطِّل بالتالي أسوة السيرة النبوية

بالاقتداء بالنبي ﷺ في خياراته (غير الخاصة) تبعًا لكلِّ مرحلة من جهة أُخرى، ألا وهو: الادّعاء بالنسخ. أي: الادّعاء بأنَّ المخرج عند وجود تعارض (ظاهري أو حقيقي) بين نصٍّ فيه حكم شرعي في مسألة معيَّنة، ونصٍّ آخر فيه حكم شرعي آخر في المسألة نفسها، يكون بإيقاف العمل بنصٍّ منهما وإعمال الآخر بمسوِّغ ديني هو: أنَّ الحكم الثاني (المتأخِّر) ألغى الحكم الأول.

ولا يخفى أنَّ هذه المعالجة العامة تجعل من الحكم المنسوخ ـ بإلغاء حكم من المرحلة السابقة ـ إلغاءً نهائيًا لا يقبل عودته. في حين أنَّ منهج الدراسة يُقسِّم ترتيب نزول القرآن ـ والسيرة النبوية بالتالي ـ إلى عشر مراحل متمايزة، تختلف أحكام التعامل مع الآخر فيها بحسب عوامل كل مرحلة، والفرضية تعتبر ـ بلازمها ـ إمكانية العودة ـ عمومًا ـ إلى نتائج رؤية التعددية المجتمعية أو سياسات إدارتها عند عودة عوامل معايير المرحلة مجددًا.

لذلك كان هذا البند الإضافي لبحث هذا الموضوع بموضوعية.

وأول ما يظهر أنَّه قد اختلف في تعريف «النَّسخ» وضبط حدوده الكثير ممَّن كتب في علوم القرآن، فنتج عنه الاختلاف في دعاوى النَّسخ، فمنهم مَن عالج أربعين قضية نسخ، ومنهم مَن أوصلها إلى أكثر من مئتَين، ومنهم مَن حصرها في خمس آيات فقط.

من هنا، كان لا بدَّ من تأصيله لجلاء حقيقته ومتعلَّقاته الواردة في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦]، بتأصيل لفظتَي: النسخ والنسى، كالتالي:

أ. معنى النسخ:

أما معنى النسخ لغة ففي كتاب العين (باعتباره أقدم المعاجم): «إزالتك أمرًا كان يعمل به ثم تنسخه بحادث غيره، كالآية تنزل في أمر ثم يُخفَّف فتُنسَخ بأُخرى، فالأولى منسوخة والثانية ناسخة»[١].

---

(١) الفراهيدي الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، حرف الخاء، باب الخاء والسين والفاء معهما، ٤: ٢٠١.

وفي معجم مقاييس اللغة: النسخ «مختلَفًا فيه بين: رفْع شيءٍ وإثبات غيرِه مكانَه، وبين: تحويل شيءٍ إلى شيءٍ. وهو: أمرٌ كان يُعمَل به من قبلُ ثم يُنسَخ بحادثٍ غيرِه، كالآية ينزل فيها أمرٌ ثم تُنسَخ بآيةٍ أخرى. وكلُّ شيءٍ خلَفَ شيئاً فقد انتَسخَه»(١).

وفي الاستخدام القرآني: «إزالة شيء يتعقَّبه، كنسخ الشمس الظِّلّ، والظِّلّ الشمس، والشيب الشباب. فتارة يُفهم منه الإزالة، وتارة يُفهم منه الإثبات، وتارة يُفهم منه الأمران. ونسخ الكتاب: إزالة الحكم بحكم يتعقبه، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ قيل: معناه ما نُزيل العمل بها، أو نحذفها عن قلوب العباد، وقيل: معناه ما نوجده وننزله، من قولهم: نسخت الكتاب. وما ننسأه. أي: نؤخِّره فلم ننزله، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢]. ونسخ الكتاب: نقل صورته المجردة إلى كتاب آخر، وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثلها في مادة أخرى، كاتخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة»(٢).

وأمام هذه المعاني المتعدِّدة لمادة النسخ، اختلف اللغويون أيّها هو المعنى الحقيقي للنسخ وأيّها هو المعنى المجازي له، ثمَّ تجاوز هذا الخلاف دائرتهم إلى الأصوليين والمؤلِّفين في الناسخ والمنسوخ. وبالاعتماد على دراسة تشريعية تاريخية نقدية معاصرة ترجَّح أنَّ «مادة النسخ وُضِعَت لتدلَّ على معنى الإزالة»(٣)، فهو «حقيقة في الرفع والإزالة، مجاز في النقل»(٤)، وبذلك يتمّ تجاوز الاختلاف في التعريف اللغوي بتقسيمه إلى حقيقة ومجاز.

---

(١) ابن زكريا أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب النون، باب النون والسين وما يثلثهما، ٥: ٤٢٤.

(٢) الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب النون، ص٨٠١.

(٣) د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم دراسة تشريعية تاريخية نقدية**، ١: ٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ١: ٦٦، بتصرُّف.

وأما معنى النسخ اصطلاحًا، فكان الصحابة والتابعون «يُطلقون على تقييد المطلق نسخًا، وعلى تخصيص العموم بدليل نسخًا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخًا، كما كانوا يُطلقون على رفع الحكم الشرعي[١] بدليل شرعي متأخِّر نسخًا»[٢]. وهذا القسم الأخير هو المُعبِّر عن تعريف النسخ اصطلاحًا عند الأصوليين[٣]. وهو «التعريف الواضح البسيط الذي يعود بالنسخ إلى مدلوله الأول فيربط بينه وبين معناه اللغوي ويستمدّ [من] القرآن والسنة ولغة الصحابة والتابعين حقيقته الشرعية»[٤]. كما «يُميِّز النسخ عن كل ما يُشبهه في الظاهر كالتخصيص والتقييد»[٥]. وهذا ما يجعله التعريف الاصطلاحي الراجح.

وباستعراض منهج النسخ يتبيَّن أنَّه «لا مجال للنسخ إلا حيث كان كلٌّ من الدليلَين (القطعيَّين) المتعارضَين نقيضًا للآخر لا يُمكن أن يوجد معه، أو حيث نصَّ الشارع أنَّ أحدهما ناسخ للآخر، ولو لم يكن بينهما تناقض، وحيث لم يُعلم النَّسخ يُصار إلى الترجيح بين الأدلة»[٦]. كما يُشترط لإثبات تحقُّق النسخ شرائط[٧] هي بمثابة مؤشِّرات على وجود النسخ كاقتران الناسخ بلفظ يدلّ على كونه ناسخًا للمنسوخ (كالتخفيف والتوبة على المقصِّرين في تحقيقه، رغم جواز نسخ الأخفّ بالأثقل)، أو وجود سنة مبيِّنة لواقعة النسخ.

وبالتفرقة «بين النسخ والتخصيص والتقييد والبيان، يتَّضح أنَّ معظم ما اعتبره المتأخِّرون في كتبهم حول الناسخ والمنسوخ ليس من باب النسخ، وليست الآيات من المنسوخات،

(١) رفع حكم شرعي، أي: قطع تعلُّقه بالمكلَّفين. ملا علي القاري، **شرح شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر**، ص٣٧٧.

(٢) الشاطبي، **الموافقات**، ٣: ٣٤٤، بتصرُّف.

(٣) د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، ١: ٩٤، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ١: ١٠٥، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، ١: ١٠٦، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، ١: ٣١٨، بتصرُّف.

(٧) المصدر نفسه، ١: ٢١١، بتصرُّف.

بل تخصيص أو تقييد أو بيان مبهم أو تفصيل مجمل»[١]. «ولم تصحّ من وقائع نسخ القرآن بالقرآن إلا خمس وقائع[٢]، ومن وقائع نسخ السنة بالقرآن (مع اشتراط وجود سنة مبيِّنة لحدث النسخ) إلا أربع وقائع[٣]»[٤]. وأما نسخ القرآن بالسنة فلم تثبت فيه واقعة واحدة[٥]، وأما نسخ السنة بالسنة فقد حدث في عدّة وقائع[٦].

وتظهر الحكمة من النسخ في قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، «فالحكم الناسخ قد يكون خيرًا من الحكم المنسوخ وقد يكون مثله، ذلك أنَّه قد يكون أخفّ منه ومصدر الخيرية فيه أنه أيسر في العمل، وقد يكون أشقّ منه ومصدر الخيرية فيه أنه أعظم مثوبة وأكثر أجرًا، وقد يكون هو والمنسوخ متماثلَين في السهولة أو المشّقة وفي مقدار الأجر، ولكنَّ أسبقهما استنفذ الغاية من شرعه، وأصبح الثاني هو الذي تقتضيه المصلحة ويتطلَّبه المجتمع في وضعه الذي تطوَّر إليه»[٧]. كما تُعتبر حالة المثلية بين الناسخ والمنسوخ ـ عند الانتقال إلى مثل ما جاءت به الآية ـ «محكًّا للإيمان باختبار الالتزام الإيماني

---

(١) د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، بتصرُّف.

(٢) هي: واقعة وجوب التهجد ثمَّ نسخه في سورة المزَّمِّل، وواقعة وجوب الثبات في القتال أمام عشرة أمثال المؤمنين من الكفار ثمَّ نسخه بوجوب الثبات أمام مثلَيهم فقط في سورة الأنفال، وواقعة عقوبة الزنا في آيَتي سورة النساء ونسخها بالحدِّ في آية سورة النور، وواقعة نسخ مفهوم النهي الجزئي عن شرب الخمر في الزمن الخاص بالصلوات ونسخه باجتناب الخمر مُطلَقًا عن القيود في سورة المائدة، وواقعة فرض الصدقة بين يدي رسول الله ﷺ ثمَّ رفعه في سورة المجادلة.

(٣) هي: نسخ القِبلة الأولى، ونسخ إباحة الكلام في الصلاة، ونسخ صيام عاشوراء بفرض صيام رمضان، ثمَّ نسخ كيفية الصيام الأول من رمضان.

(٤) د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، ٢: ٨٤٨ ـ ٨٤٩، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، ٢: ٨٣٨، بتصرُّف.

(٦) مثال: تحريم نكاح المتعة، ونسخ اقتداء الجماعة قعودًا بالإمام القاعد، إلى غير ذلك.

(٧) د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، ١: ٢٧٨، بتصرُّف.

بالتكليف واختبار اليقين الإيماني في إدارة توجيه المدبِّر لهذا السَّير، والانصياع [الكامل] للحكم الذي ينزله الله»[١].

وبذلك، تبيَّن عدم كون النسخ عائقًا أمام منهج البحث في الاستفادة من عطاء القرآن وأسوة النبي ﷺ في سيرته.

ب. معنى نسى:

في الآية نفسها التي يتمّ الاستدلال بها على نسخ الآيات ورد لفظ «نسى»، معطوفًا على النَّسخ، فيكون من الألفاظ ذات الصلة المباشرة بموضوعنا. والجدير بالذكر أنَّ حرف العطف بينهما «أو» «موضوعة لأحد الشيئَين أو الأشياء، وقد تخرج إلى معنى «الواو»»[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، «أي: يجمع بين التذكير والخشية، فهي فيها بمعنى الواو لمطلق الجمع»[٣]، وكما في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرَّك، فقال ﷺ: «اسكن حراء، فما عليك إلا نبيّ أو صِدِّيق أو شهيد»[٤]. «وهذا الاستعمال بمعنى الواو متأتٍّ من استعمالها بمعنى الإباحة التي [هي كالتخيير من معاني «أو» الواقعة بعد الطلب، غير أنَّها] لا تمنع الجمع»[٥].

أما معنى (نسى) لغة ففي كتاب العين: «نسي فلان شيئًا كان يذكره، وإنه لنسيّ، أي: كثير النسيان»[٦]. وفيه أصل آخر: نسأ: «نُسِئت المرأة فهي نسء إذا تأخَّر حيضها، ونسأت الشيء أخَّرته، والمنتسأ من الإبل المباعَد لجربه، والانتساء التباعد»[٧].

---

(١) **تفسير الشعراوي**، سورة الرعد، الآية: ٣٩، ١٢: ٧٣٨٥ ـ ٧٣٨٦، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام عبد الله بن يوسف، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ١: ٦٧، بتصرُّف.

(٣) د. جميل ظفر، **النحو القرآني قواعد وشواهد**، ص٤٨٥، بتصرُّف.

(٤) وكان عليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ﭫ. **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل طلحة والزبير ﭭ، ٤: ١٨٨٠، ح: ٥٠.

(٥) د. فاضل السامرائي، **معاني النحو**، ٣: ٢٢٠، بتصرُّف.

(٦) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف السين، باب السين والنون و(و ا ي ء) معهما، ٧: ٣٠٤.

(٧) المصدر نفسه، حرف السين، باب السين والنون و(و ا ي ء) معهما، ٧: ٣٠٥.

وفي معجم مقاييس اللغة «يدل على أصلَين: إغفال الشيء ومنه النسيان وهو عزوب النفس عن الشيء بعد حضوره لها وترك الشيء، فإذا هُمز تغيَّر المعنى إلى تأخير الشيء»[١].

وفي الاستخدام القرآني: نسي: «النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع. . . وإنساؤها في قوله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ بحذف ذِكْرها عن القلوب بقوة إلهية»[٢]. ونسء: «تأخير في الوقت. . وقُرئ ﴿أو ننساها﴾ أي: نؤخِّرها إما بإنسائها، وإما بإبطال حكمها»[٣]، «وما ننسأه. أي: نؤخِّره فلم ننزله»[٤].

وأمام وجود أصلَين للكلمة ذاتها، فإنَّه يتعذَّر حسم المعنى الاصطلاحي للكلمة بالاعتماد على أصل واحد منهما فقط، لذا، ينبغي للعودة إلى مدلولها الأول أن يتمّ الربط بينها وبين معناها اللغوي مع الاستمداد من القرآن والسنة لحقيقتها الشرعية. وبذلك تتبيَّن العلاقة بين أصلَي الكلمة كما مرَّ في تعريف النسخ. ويتبيَّن عند الاستمداد من القرآن ـ كما مرَّ ـ أنَّ في وجوه روايات القراءات العشر المختلفة التي نزل بها القرآن استخدام الأصلَين (نسى / نسء)[٥]، وهذا من شأنه ـ فيما أرى ـ أن يقسم المعنى الاصطلاحي للكلمة إلى قسمَين:

الأول: للأصل غير المهموز (نسى): فيكون معناه «المحو من الذاكرة للفظ الآية

---

(١) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب النون، باب النون والسين وما يثلثهما، ٥: ٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٢) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب النون، ص٨٠٣ ـ ٨٠٤.

(٣) المصدر نفسه، كتاب النون، ص٨٠٤.

(٤) المصدر نفسه، كتاب النون، ص٨٠١.

(٥) قرأ ابن كثير المكي، وأبو عمرو البصري بفتح النون الأولى والسين وهمزة ساكنة بين السين والهاء ﴿ننسأها﴾، وقرأ الباقون بضم النون وكسر السين من غير همز ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾. محمد فهد خاروف. **التسهيل لقراءات التنزيل**. سورة البقرة، ص١٧. وعبد الفتاح القاضي، **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقَي الشاطبية والدرة**. سورة البقرة، ص٣٨.

ومعناها مع حُكمها جميعًا. وباستحضار معنى الواو في العطف بـ «أو»، يُصبح المنسوخ بالنتيجة بين النسخ والنسي: إزالة الحكم فقط بالنسخ، وإزالة اللفظ أيضًا مع إنسائه [من النسيان] بالنسي[(١)]»[(٢)]. أما عند إعمال «أو» بأصل وضعها لأحد الشيئين، بإثبات النسخ لا النسي، فتكون الآية منسوخة بحكمها فقط، ويبقى لفظها في القرآن، وهي الوقائع الخمس التي مرَّ ذكرها. ويبقى من التقسيم المنطقي: ما أُزيل لفظه وبقي حكمه، عبر إعمال «أو» بأصل وضعها بإثبات النسي لا النسخ، فهذا لم يثبت[(٣)].

---

(١) فعن عمر بن الخطاب ﵁ أنَّه قال: «أقرؤنا أُبَيّ وأقضانا علي، وإنَّا لندع من قول أُبَيّ، وذاك أنَّ أُبيًّا يقول: لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾. البخاري محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾، ٤: ١٦٢٨، ح: ٤٢١١. وهذا إقرار من الفاروق أنَّه يدع بعض قول أُبَيّ، وعلَّل هذا بأنَّ أُبيًّا لا يدع شيئًا سمعه من رسول الله ﷺ، مع أنَّ بعض ما سمعه منه قد نُسِخ أو أُنسيه المسلمون، فلم يعد قُرآنًا يُتلى». د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، ١: ٢٥٤، بتصرُّف.

(٢) د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، ١: ٢٥٣، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ١: ٢٨٥، بتصرُّف. وأما ما يُمكن أن يتمّ تناقله باعتباره قرآنًا منسوخ التلاوة باقي الحكم، فمردُّه إلى «نقول متناقضة مهَّدت لها، كثير منها ضعيف، ومنها روايات لا يُمكن للباحث أن يتناولها دون الأخذ بعين الاعتبار اختلافات الصحابة في مرحلة جمع القرآن وتاريخه وتدوينه وأسباب نزوله وقراءته وتناقله، ومآخذ بعضهم على اللجنة المشكَّلة لكتابة القرآن في المصاحف، واعتراضات البعض على بعض أعضائها، والخلط بين ما كتبه بعض الصحابة في مصاحفهم بوصفه قرآنًا يُتلى وما كتبوه بوصفه تعليقًا أو استنباطًا فقهيًا أو تفسيرًا. وهي أمور تتعلَّق بعلم الاجتماع الديني وعلم اجتماع المعرفة الذي نبَّه كثير من الأئمة إلى قواعده. د. طه جابر العلواني، «النسخ ليس تحريفًا»، في: **إسلامية المعرفة**، ص٥٥ ـ ٦٢، بتصرُّف.

نسخ	✓	✓	✗	×
معنى «أو»	«و»	«أو»		
نسيٍ	✓	×	✓	×
نتيجة	نسخ الحكم ورفع اللفظ	نسخ الحكم وبقاء اللفظ	بقاء الحكم ورفع اللفظ: لم يثبت إعمال النسيِ، دون النسخ، خلافًا لـنسءِ	عدم وجود نسخ لحكم أو رفع للفظ: حالة معظم الأحكام

والثاني: للأصل المهموز (نسء): فيكون معناه «التأخير إلى وقتٍ ثانٍ، والإتيان بدلاً منه في الوقت المتقدِّم بما يقوم مقامه»[١]. وهذا يظهر عند استحضار معنى «أو» بأصل وضعها عند إثبات النسء لا النسخ. وسنجد أنَّ أحد الأعلام في علوم القرآن وأصول الفقه قد عدَّ هذا الأصل المهموز ممَّا: «أُمِرَ به لسبب ثمَّ زال السبب، فينتقل بانتقال علَّته إلى حكم آخر، وهو يختلف عن النَّسخ بأنَّه إذا عاد السبب عاد الحكم مرة أُخرى. فكلُّ حكم منهما يجب امتثاله في وقته»[٢].

وبتمثيله لما سبق يتبيَّن صحة منهج الفهم في البحث، فقد عرض اختلاف موقف النَّص القرآني بين أمر المسلمين بالصبر على أذى الكفار وبين أمره بقتالهم تحت قسم: «ما أُمِر به لسبب ثم يزول السبب»، فقال: «كالأمر حين الضَّعف والقلَّة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها، ثم نسخه إيجاب ذلك. وهذا ليس بنسخ في الحقيقة وإنما هو نسء كما قال تعالى: ﴿أو

---

(١) الكرماني محمد بن أبي المحاسن، **مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني**، ص١٠٦، بتصرُّف.

(٢) الزركشي، **البرهان**، النوع الرابع والثلاثون: معرفة ناسخه من منسوخه، ٢: ٤٢ ـ ٤٣، بتصرُّف. وسيأتي مزيد بيان وتوضيح في المثال التالي لهذا التعريف الاصطلاحي.

نسأها﴾، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى. وبهذا التحقيق تبيَّن ضعف ما لهج به كثير من المفسِّرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف[(١)]، وليست كذلك، بل هي من المنسأ بمعنى أنَّ كلَّ أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدًا[(٢)]. فلو فُرِض وقوع الضَّعف كما أخبر النبي ﷺ في قوله: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا»[(٣)] عاد الحكم، وقال ﷺ: «فإذا رأيت هوى متَّبعًا، وشحًّا مطاعًا، وإعجاب كلِّ ذي

---

(١) المقصود بآية السيف في أصح الأقوال، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. وهي ضمن سياقها وأوصاف المشركين المذكورين بعدها تتناول فريقًا خاصًا من المشركين كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوه وظاهروا عليه أعداءه، وكانوا يصدون عن سبيل الله، ولا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، وطعنوا في دين الله، وبدؤوا القتال أول مرة. أما بقية المشركين، فقد وجَّهت الآيات إلى إتمام العهد معهم. فالغاية لن تكون أبدًا الإكراه على الدخول في دين الإسلام، لأنَّه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. بل شُرِع القتال في الإسلام لتأمين الدعاة إليه ولضمان الحرية التي تكفل لهم إبلاغ الدعوة ودرء الشبه بالمنطق السليم والحجة المقنعة. د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، ٢: ٥٠٤ ـ ٥٠٧، بتصرُّف. وإنَّه بدراسة عشرات الآيات التي قيل أنَّها نُسِخت بتلك الآية، فقد بيَّنت الدراسة أنَّ جميع تلك الدعاوى باطلة. المصدر نفسه، ٢: ٨٤٦، بتصرُّف.

(٢) وإلى هذا أشار الشافعي في «الرسالة» إلى النهي عن ادخار لحوم الأضاحي من أجل الدافة، ثم ورد الإذن فيه فلم يجعله منسوخًا، بل من باب زوال الحكم لزوال علَّته حتى لو فاجأ أهل ناحية جماعة مضرورون تعلَّق بأهلها النهي. الزركشي، **البرهان**، ٢: ٤٢ ـ ٤٣، بتصرُّف.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنَّه يأرز بين المسجدَين، ١: ١٣٠، ح: ٢٣٢.

رأي برأيه، فعليك بخاصَّة نفسك». وهو سبحانه وتعالى حكيم، أنزل على نبيه ﷺ حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمَن تبعه ورحمة، إذ لو وجب لأورث حرجًا ومشقّة، فلمّا أعزَّ الله الإسلام وأظهره ونصره، أنزل عليه من الخطاب ما يُكافئ تلك الحالة... ويعود هذان الحكمان أعني: المسالمة عند الضعف والمسايفة عند القوة بعَود سببهما، وليس حكم المسايفة ناسخًا لحكم المسالمة، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته»[1]. ومنه قضايا أُخرى نُصنِّفها من نسء السنة بالسنة[2]، فـ«النبي ﷺ كان يتحرَّك في واقع له خصائصه وطرائقه في الاستجابة إلى النص والتفاعل معه، منزِّلاً قِيَم القرآن في ثنايا الواقع ومتابعًا ردود فعل ذلك الواقع واستقباله الآيات، ومُلاحظًا الأولويات والمقاصد والمآلات وسائر الجوانب التربوية، ليتمكَّن القرآن عقيدة وشريعة ونظم حياة في واقع الأمة المؤمنة»[3].

---

(١) الزركشي، **البرهان**، ٢: ٤٢ ـ ٤٣، بتصرُّف. وإلى مثل ذلك سبقه الإمام ابن تيمية فقال: «فمَن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر و الصفح و العفو عمَّن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنَّما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين». ابن تيمية، **الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ**، ١: ٢٢٩، بتصرُّف.

(٢) أحاديث: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكرًا». **صحيح مسلم**، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمِّه، ٢: ٦٧٢، ح: ٩٧٧. وحديث النهي عن أكل الحمر الأهلية خوفًا من أن تحدث أزمة في المواصلات وأن تفنى الحمر الأهلية من كثرة ذبحها: فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: أكلت الحمر، فسكت، ثمَّ أتاه الثانية فقال: أكلت الحمر، فسكت، ثمَّ أتاه الثالثة فقال: أفنيت الحمر، فأمر مُناديًا فنادى في الناس: «إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية»، فأُكفئت القدور وإنَّها لتفور باللحم. **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٤: ١٥٣٩، ح: ٣٩٦٣.

(٣) د. طه جابر العلواني، «النسخ ليس تحريفًا»، في: **إسلامية المعرفة**، ص٥١ ـ ٥٤، بتصرُّف.

نسخ	×	×
معنى «أو»	«أو»	
نسء	✓	×
نتيجة	عدم إزالة الحكم، بل تأجيل الحكم حتى تحقُّق العلة والسبب، وإعمال حكم آخر تحقَّق وجود علَّته وسببه	عدم وجود نسخ لحكم أو تأجيل له: حالة معظم الأحكام

وبذلك، يُحقِّق هذا الفهم للمتقدِّمين التوافق والانسجام بين كامل عطاء القرآن الكريم (عدا الآيات المنسوخة حقيقة) وأسوة السيرة النبوية وفق إمكانيَّات الواقع (المعاصر) المتاحة للمكلَّف ضمن وسعه وما آتاه الله منها. ولكنَّه يُظهر أنَّ مدار الحكم أصبح يدور مع السبب بما يُناسب وضعية المكلَّف، وهو أمر لا بدَّ من انضباطه بثلاث نقاط كي لا نستبدل دعاوى النسخ بدعاوى يُحاول أن يُخرِج بها المكلَّف نفسه من التكليف الذي لا يُناسبه:

أ. تحديد القضايا الداخلة تحت حكمَي النسخ والنسء. وهي التي لا تتعلَّق بالعقيدة الإيمانية، أو بالأخبار [الغيبية (تاريخية أو حاضرة أو مستقبلية)]، بل بقضايا الحياة التي نجد فيها أحكامًا حسب ما طرأ عليها من توسُّعات، مع علم الله المسبق بأنَّ هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه قبل أن يحلّ حكم جديد مكانه، ولكن الظرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج[1]. ولكنَّ نوع الأحكام هو الذي يختلف بين أحكام ناسخة أُزيل الحكم السابق نهائيًا كعدد الصلوات اليومية وتحديد اتجاه القبلة وصوم عاشوراء بشهر رمضان...، وبين أحكام ناسئة وهي التي يُمكن أن يعود الحكم بعدها لتعلُّقه بعلَّة يدور معها كما مرَّ في التمثيل السابق بين أمرَي الصبر والقتال في التعامل مع الكفار المعتدين، وكما تمَّ تمييز المجالات التي لها دخلٌ فيها من التي ليس لها دخلاً فيها عند الحديث عن منهج فهم الحديث الشريف.

---

(١) **تفسير الشعراوي**، سورة البقرة، الآية ١٠٦، ١: ٥٠٨ ـ ٥٠٩، بتصرُّف.

ب. إنَّنا نرى أنَّ منهج الفهم الذي عرضناه سابقًا بتحديد مفاصل السيرة النبوية بحسب فرضية السور العشر التي وردت فيها كلمة ﴿سَنَةٍ﴾ وتفريعاتها (حسب الراجح من ترتيب نزولها) ـ كما تمَّ عرضه في فرضية البحث ـ يُعين على تمييز ما بينها من مراحل مختلفة العوامل والظروف. وبذلك ينضبط أَجَل كلِّ مرحلة بتغيُّر عواملها[1] بوضع وصايا المرحلة حيِّز التنفيذ لأنَّه تكون هي العمل الذي يُعبِّر حقيقة في تلك المرحلة عن إسلام الأمر لله (كما سيتمّ عرض هذا المفهوم في قصة آدم عليه السلام). فمثلاً: كان من إسلام الأمر لله في مكة العفو، أما في المدينة فأصبح من إسلام الأمر لله القتال، وواضحة التربية على الانتقال إليه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

ج. يبقى انضباط حركة المكلَّف نفسه بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] المُظهر أنَّ التكليف يكون بالوسع حين تكون طاقة الإنسان أوسع من التكليف»[2]، وبذلك، لا يكون وسع الإنسان هو الحُكم، بل يكون التكليف في كل مرحلة هو الحُكم في الوسع الحقيقي المناسب لها، فيحكم النص المناسب الواقع المعاش، بدل من أن تتحكَّم إرادة المكلَّف الراضخة للواقع والمستسلمة للظروف بالنص عبر اختيار ما يُناسبها منه فيُصبح النص تابعًا للواقع. وهذا أمر دقيق الملحظ.

إنَّه بذلك، يتمّ التذليل الموضوعي لهذا العائق المعرفي، لتتمّ الاستفادة من كامل عطاء القرآن في وصاياه في كلِّ مرحلة، وتحقيق أسوة السيرة النبوية بالاقتداء بالنبي ﷺ في خياراته تبعًا لكلِّ مرحلة.

---

(١) وفي هذا إجابة على التساؤلات المنهجية لمَن عارض مفهوم النسء بسبب عدم وضوح تحديد وقت انتقال الحكم بانتقال العلة.

(٢) **تفسير الشعراوي**، سورة البقرة، الآية ٢٨٦، ٢: ١٢٤٢، بتصرُّف.

ملحق: ميدان النسء:

رغم تقييد ميدان النسخ بتسع قضايا كما سبق، إلا أنَّ ميدان النسء ظلَّ عامًّا مُقتصرًا على تمثيل استخدام المسالمة حال الضعف والمسايفة حال القوة. ومع أنَّ هذا هو أوضح مثال يُمكن الاتفاق عليه ويتعذَّر على العاقل الواعي مخالفته لما فيه من استنزاف للقدرات بالمسايفة حال الضعف أو تعطيلها بالمسالمة مع المعتدين حال القوة، إلا أنَّه ينبغي على الأقلّ تحديد الإطار الخاص بالنسء الذي قد يعمل في بعض جوانبه، لما قد يُسيء إلى فهم الطَّرح في الأطروحة ونسبته إلى نسبية الأحكام الشرعية وبشرية النص القرآني في تغيُّره لمناسبة الواقع المُخاطَب. لذلك كان لا بدَّ من إضافة هذا الملحق لتحديد ميدان عمل النسء.

هذا الميدان هو ما يُمكن الاصطلاح على تسميته بـ «ميدان الحكمة»، استنباطًا من قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١][1]. فهذه الآية تتعرَّض لأربعة ميادين: ميدان الإيمان (العقيدة) باتباع العلامات القاطعة (من الظواهر الكونية ومعجزات الأنبياء وآثار هلاك الأمم السابقة) الدالة على أركان الإيمان[2] (وركنَي الإيمان بالله واليوم الآخر خصوصًا)، وميدان التزكية وتعديل السلوك[3]، وميدان العلوم الشرعية[4]، وميدان الحكمة[5].

---

(١) تكرَّر ذكر هذه الميادين في أربعة مواضع من ثلاث سور، هي: البقرة: ١٢٩ و١٥١، وآل عمران: ١٦٤، والجمعة: ٢.

(٢) الراغب الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، كتاب التاء، ص١٦٧ ـ ١٦٨، بتصرُّف. والمصدر نفسه، كتاب الألف، ص١٠١، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، كتاب الزاي، ص٣٨٠ ـ ٣٨١، بتصرُّف.

(٤) د. ماجد عرسان الكيلاني، **تطوُّر مفهوم النظرية التربوية الإسلامية**، ص٤٨ ـ ٥٠، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٧ ـ ٥٧، بتصرُّف.

وإنَّ منهج التعددية المجمعية وسياسات إدارتها في الأطروحة وما يتبعها من نسء لها عند اختلاف المراحل الزمنية بمعاييرها، تتعلَّق بميدان الحكمة، وهو عبارة عن: مهارات التخطيط الفكرية والعملية لإدارة الحياة وفق الوجود القائم، والبصيرة في سنن الحوادث ومجريات الأمور، دون الصدام مع قوانين الظواهر وفي ضوء ظروف العصر، حتى يعرف كل فرد أو جماعة أو سلطة دورهم وكيف يُتقنون هذا الدور. وهذا هو الميدان المتغيِّر مع المراحل الزمنية ضمن الحقبة الواحدة (كما تعدَّدت المراحل في السيرة النبوية وبين عهود الخلفاء الراشدين)، خلافًا للميادين الثابتة في العقيدة والتزكية والأحكام الشرعية. وبذلك يتمّ التعاطي مع القرآن الكريم بما ينسجم مع مصدره الإلهي، وكليَّته في الخطاب (إلا عند التخصيص)، وشموليَّته في تناول مظاهر الحياة، وحقائقه المطلقة، وصلاحيَّته لجميع العصور والظروف.

الدراسات السابقة:

إنَّ تشعُّب البحث التأصيلي الذي يجمع السيرة بالاستناد إلى نصّ الوحي بترتيب نزوله أو وروده، يُضيِّق حدود وجود دراسات سابقة شبيهة به. ولكن، بالعودة إلى المكتبات، يتبيَّن وجود كتابات معاصرة تُقارب تلك الدراسة، وهي: «التفسير الحديث» للأستاذ محمد عزة دروزة، و«بيان المعاني» للشيخ عبد القادر ملّا حويش آل غازي، و«معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر» للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، و«فهم القرآن الحكيم» لـ د. محمد عابد الجابري.

□ أما **الكتاب الأول،** فإنَّه لم يعتمد منهجًا صحيحًا في التعامل مع الأحاديث النبوية والروايات، فقد «ردَّ الكثير من الأحاديث الصحيحة للحفاظ على انسجام السياق، ولم يقم بتوثيقها من مصادرها مع عدم دقَّته أحيانًا في نقلها، كما شكَّك في مدى صحة الروايات الواردة في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي مقابل إكثار استشهاده بكتب المستشرقين في تفسير قَصص قرآنية»[1].

---

(١) د. فريد سليمان، **محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم**، ص١٠٠ ـ ١١٠، بتصرُّف.

وإنَّه كذلك لم يقم بتحقيق ترتيب السور، فالتزم بداية في السور المكية بلائحة من لوائح ترتيب النزول بترتيب غير راجح (الفاتحة، العلق، القلم، المزمّل، المدثّر) وعَرَضها كاملة، علمًا أنَّ السور الأربع الأخيرة منها لم تنزل كاملة. وأما في السور المدنية فرتَّب بعض سورها ترتيبًا لم أجده في أيٍّ من روايات ترتيب النزول الأربعة التي اعتمدت عليها في هذا البحث. وأما من حيث السور المختلف فيها، فقد قام بنقل السور التي رجَّح مكيَّتها (الرعد، الحج، الرحمن، الإنسان، الزلزلة) ووضعها كمجموعة في نهاية ترتيب السور المكية. ورغم أنَّ أغلبها يترجَّح فعلاً كونها مكية إلا أنَّه لم يقم بتحقيق الروايات فيها لوضعها في مكانها الأنسب، بل أخَّرها لمطلق وجود معايير مشابهة، وذلك بسبب كونه «لم يُوظِّف ترتيب النزول لبناء تصوُّر عن مسار نزول القرآن»[1]. وهذا ما سنعمل على تلافيه في البحث بتحقيق الروايات الواردة في هذه السور وغيرها ومقاصدها وألفاظها ومدى تقاربها مع مراحل محدَّدة من السيرة النبوية.

□ وأما **الكتاب الثاني**، فقد لوحظ أنَّ تفسيره اتَّسم بطابع صوفي مشوَّش لا يرقى إلى مرتبة صفاء مفسِّرين صوفيين آخرين[2]. كذلك، التزم أيضًا كسابقه ترتيب نزول، فبدأ ترتيب السور في مكة كالتالي: (العلق، القلم، المزمّل، المدثّر. . . ،) دون تحقيق الروايات المُلزِمة بتأخير بعضها، كما بدأ ترتيبها في المدينة كالتالي: (البقرة، الأنفال، آل عمران، الأحزاب. . . ،) دون القيام بالمقارنة مع أحداث السيرة الملزِمة بتأخير بعضها وتقديم غيرها عليها. وذلك بسبب اعتماده على إحدى روايات ترتيب النزول، وهي رواية ابن عبد الكافي كما أشار في مقدِّمته[3]، ورغم ذلك فقد عدَّل فيها بذكر الفاتحة في بداية العهد المكي، وتقديم الجمعة قبل الفتح مباشرة (خلافًا لجميع روايات ترتيب النزول)، وختم الترتيب بسورة النصر خلافًا لتلك الرواية.

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**، ص٢٤٣، بتصرُّف.

(٢) د. فريد سليمان، **محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم**، ص١٣٢، بتصرُّف.

(٣) عبد القادر بن ملا حويش، **بيان المعاني**، ١: ١٠، بتصرُّف.

□ وأما **الكتاب الثالث**، فقد استفدت منه بناءه على منهج علمي دقيق في التدبُّر خصَّص له مؤلِّفه كتابًا سبق التفسير نفسه، ولكنَّه لم يقم بتحقيق كامل ترتيب السور، فالتزم بإحدى لوائح ترتيب النزول[1] إلا في ترتيب سورة القلم. رغم وجود أقوال وترجيحات في عدم مناسبة بعض السور لمكانها في لوائح الترتيب أو تحديد المكي من المدني (كسورتَي المزمّل والرحمن، وتتمَّات السور الأولى. . .)، كما كان يُدخل في تدبُّره آيات مكمِّلة لموضوعها من سور أُخرى فيخرج عن عطاء السورة المحدَّد ضمن مرحلة السيرة، كذلك فقد كان تدبُّره ـ الدقيق والمميَّز والمستحضِر لإشكاليات عصره ـ غالبًا على العرض الدائم للمسار الموازي للآيات مع تفاعلات السيرة النبوية وتطوُّرات إشكالياتها، رغم إيراده لبعض الروايات (التاريخية) في مقدِّمات بعض السور، وذكره لتحوُّلات الخطاب في القرآن (حسب ما اعتمده من ترتيب).

هذا، وقد اتفقت الكتب الثلاثة السابقة في عرضها للسور التي يتمّ تفسيرها كاملة وفق الترتيب الذي اعتمدت كلٌّ منها، دون تقسيم السور التي ثبت كونها نزلت على مراحل.

□ وأما **الكتاب الرابع**، فقد استفدت ممَّا قام بتأصيله في بعض منهجه، ومن اقتراحاته المتعدِّدة التي تحتملها الآيات من خارج التفسير التقليدي ممَّا ينسجم مع الظروف الزمانية والمكانية لتنزيل القرآن، كما كان يحرص دائمًا على العرض المتوازي بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة في السيرة النبوية. ولكنَّه ـ بالمقابل ـ تحرَّر أكثر من المتاح في فهمه للقرآن في بعض المواضع مخالفًا لنصوص ثابتة (كحادثة انشقاق القمر) أو لترجيحات دراسات علمية نقدية (كثبوت أصل قضية النسخ)، إلى غير ذلك. فوقع رحمه الله فيما اصطلح البعض على تسميتها بـ«أخطاء وخطايا بناء على تبنِّيه لمنهجيات وفلسفات ومفاهيم وضعية مادية ومواقفه المتحرِّرة من الموروث العلمي والثقافي والرسول ﷺ والقرآن»[2].

---

(١) هو الترتيب الذي أثبته علماء القراءات في المصاحف المعتمدة من شيخ المقارئ المصرية الشيخ محمد علي خلف الحسيني. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، ص١٧٨ ـ ١٨٤.

(٢) أ.د. محمد عمارة، **رَدّ افتراءات الجابري على القرآن الكريم**، ١٩٧ ـ ١٩٩، بتصرُّف.

١٠ ـ خطة البحث:

بعد إدراك مفاصل السيرة النبوية حسب المنهجية المتَّبعة، وبعد قراءات متكرِّرة للقرآن الكريم باستشعار تعلُّقات آياته حسب ترتيب نزولها، تمَّ تقسيم هذه الأطروحة إلى مدخل وبابَين وخاتمة، وتحت كل باب فصول ومباحث ومطالب، وحاولت جهدي أن تكون عناوينها دقيقة وسَلِسَة ومحدَّدة في جانب رؤية التعددية المجتمعية وسياسات إدارتها، ليُشكِّل كل مبحث مجموعة متجانسة من المفاهيم وأساليب الإدارة والدعوة بانفتاح وتحرُّر وإدراك المقاصد دون الوقوف على الظواهر.

مدخل الدراسة:

- أولاً: دليل مصطلحات البحث.
- ثانيًا: تفسير حركة التاريخ إسلاميًا من قصة آدم عليه السلام ومقاربتها مع «السنة».
- ثالثًا: دلالات السياق وأسباب النزول والورود.

الباب الأول: رؤية التعددية المجتمعية في مسار التنزيل ومسيرة العهد المكي:

- **تمهيد: خصائص العهد المكي.**
- **الفصل الأول: رُقيُّ الدعوة بالحوار الأخلاقي الاجتماعي.**
  - المبحث الأول: نزول الوحي والدعوة الفردية.
  - المبحث الثاني: الدعوة الجماعية لقريش وموقفها منها.

المطلب الأول: رسالة الوحي عملية تطبيقية لإصلاح المجتمع التعددي.

المطلب الثاني: التعامل مع مَن يرفض التعددية وينأى عن الحوار (المتولِّي).

المطلب الثالث: التعامل مع مَن يُهاجم التعددية والحوار (المُعرِض المُتعدِّي).

ـ خلاصات ونتائج.

الباب الثاني: إدارة التعددية المجتمعية في مسار التنزيل ومسيرة العهد المدني:

❑ **الفصل الرابع: تحدِّيات ما بعد الفتح.**

- المبحث الأول: تشكيل الائتلاف الكبير على مقاصد الدين.
- المبحث الثاني: منهج الاستقامة في التعامل مع مختلف مكوِّنات المجتمع: علاج وضعيات ومواقف خاطئة.
- خلاصات ونتائج.

❑ **الفصل الخامس: تتمّة في تعامل الخلفاء الراشدين مع المرتدّ والمارق.**

- تمهيد: شرعية تتمّة التأصيل من الخلافة الراشدة.
- المبحث الأول: التعامل الراشدي مع المرتدّ.
- المبحث الثاني: التعامل الراشدي مع المعارِض والمارق.
- ملاحق الباب الثاني: موضوعات في السور المدنية: منظومة الإنفاق.

❑ **خاتمة**: رؤية فكرية تأصيلية في منهج التعددية المجتمعية رؤية وإدارة ـ ملامح وقواعد.

❑ **ملاحق وفهارس.**

➢ **وفي الختام**، أسال الله سبحانه وتعالى لي التوفيق في مقاربة مسائل هذا البحث، وأن يكون ذلك الموضوع مفتاح خير لأبحاث كثيرة تُساعدنا على النهوض بواقعنا ومجتمعاتنا، حتى نكون أرضى لخالقنا، وأكثر طمأنينة في التعامل مع ذواتنا وتاريخ هويَّاتنا، وبمستوى إنسانيَّتنا في التعامل مع غيرنا لتفهُّم وممارسة التنوُّع بوعي وعدل ورحمة.

هذه مُحاولة مطروحة بموضوعيَّة،

فما كان فيها من صواب فهو المراد،

أو غيره، فرجائي أن تظلَّ المسافة ظاهرة

بين الأخطاء والذنوب



مدخل الدراسة

أولاً: دليل مصطلحات البحث:

➢ أتناول في هذا الدليل المصطلحات الواردة في الأطروحة لشرحها والدلالة على مقاصدها. وهي ثلاثة: ما يتعلّق بعنوان الأطروحة ونقدها، وما يتعلّق بفرضيتها، وما يتعلّق بموضوعها ومكوِّنات المجتمع في المدّة التي تتمّ دراستها:

القسم الأول: مصطلحات عنوان الأطروحة ونقدها:

١. مصطلحات عنوان الأطروحة:

▪ **نهج**: «طريقٌ نهجٌ: بيِّن واضح»(١). والمنهج في العصر الحديث يُطلَق على الخطّة المتكاملة المرسومة للوصول إلى غرض معيَّن(٢).

▪ **التعددية**: العدّ هو بمعنى «الحساب والإحصاء»(٣)، «والعديد الكثرة»(٤). هذا المعنى اللغوي يحمل في طيَّاته بعض الملامح الوصفية لحقيقة التعددية من حيث إنها تعني عدم الواحدية، أو التفرُّد، وذلك لأن أصل العدّ وجود الشيء القابل للإحصاء قلَّ أو كَثُر.

▪ **المجتمع**: «موضع الاجتماع والجماعة من النَّاس»(٥). وهو «نظام نصف مغلق تُشكِّله مجموعة من الناس تعيش سوية في شكل منظَّم وضمن جماعة منظَّمة في موقع معيَّن،

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، حرف الجيم، فصل النون، ٢: ٣٨٣.

(٢) د. إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، باب النون، ٢: ٩٥٧.

(٣) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف العين، باب العين والدال، ١: ٧٩، بتصرُّف.

(٤) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب العين، باب العين وما بعدها في المضاعف والمطابق والأصم، ٤: ٢٩.

(٥) د. إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، باب الجيم، ١: ١٣٦.

وتترابط فيما بينها بعلاقات ثقافية واجتماعية، كما يتشاركون هُمومًا مشتركة تُشكِّل شخصية هذا المجتمع وهويته»[١].

■ **التعددية المجتمعية**: هي «تنظيم حياة المجتمع وفق قواعد عامة مشتركة، تحترم وجود التنوُّع والاختلاف في اتجاهات السكان في المجتمعات ذات الأُطُر الواسعة حيث تختلط الاتجاهات الأيديولوجية والفلسفية والدينية»[٢]. «والتعددية بمنظور علم الاجتماع عبارة عن إطار للتفاعل، تظهر فيه المجموعات التي تحترم التسامح مع الآخرين والعيش المثمر والتفاعل بدون صراع أو انصهار»[٣]. فهي تعبير عن مشروعية تعدُّد الآراء وحقِّ أصحابها في العيش وفي التعبير عن نفسها وفي المشاركة والتأثير في المجال العام.

■ **الإسلام**: «السِّلم: معظم بابه من الصحة والعافية، ومنه: الإسلام: وهو الانقياد، لأنَّه يسلم من الإباء والامتناع»[٤]، فهو «الاستسلام لأمر الله، والانقياد لطاعته، والقَبول لأمره»[٥]. و«السِّلم: هو التعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة»[٦].

وهو اصطلاحًا: «الانقياد لله بقَبُول رسوله ﷺ بالتلفُّظ بكلمة الشهادة والإتيان بالواجبات، والانتهاء عن المنكرات. . . ، ويُطلَق الإسلام على دين محمد ﷺ، يُقال: دين الإسلام، كما يُقال: دين اليهودية، والنصرانية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ

(١) نقلاً عن موقع: ***www.wikipedia.com*** حول «المجتمع». ومنير البعلبكي، **موسوعة المورد**، ٩: ٨١، بتصرُّف.

(٢) سامي ذبيان، «قاموس المصطلحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية»، ص١٣٨ ـ ١٣٩، في: وفاء لطفي، «التعددية المجتمعية»، نقلاً عن موقع:
www.asharqalarabi.org.ukmarkazt - 02052012.doc

(٣) نقلاً عن موقع: ***www.wikipedia.com*** حول «التعددية الثقافية».

(٤) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب السين، باب السين واللام وما يثلثهما، ٣: ٩٠.

(٥) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف السين، باب السين واللام والميم معهما، ٧: ٢٦٦.

(٦) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب السين، ص٤٢١، بتصرُّف.

﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1] [آل عمران: ١٩]. وفيه «إظهار الخضوع، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبيُّ ﷺ، وبذلك يُحقَن الدم ويُستَدفَع المكروه»[2]. وهو «في الشَّرع على ضربَين:

أحدهما: دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل، وإيّاه قصد بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

والثاني: فوق الإيمان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدَّر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]»[3].

■ **رؤية**: «النظر والإبصار بالعين أو البصيرة. والرأي: ما يراه الإنسان في الأمر»[4]. وهو «النظر بالعين والقلب»[5].

والرؤية في اصطلاح الأطروحة هي التي تُعبِّر عن التوجُّه ـ المبنيّ على معايير ـ الذي تتبنَّاه مجموعةٌ ما تجاه واقعها للتعامل معه بما يدرء عنها المفاسد أو يجلب لها المصالح.

■ **إدارة**: «مداورة الشؤون: معالجتها»[6]. و«أدار الرأي والأمر: أحاط بهما»[7]. وهي «عملية تخطيط وتنظيم وتنسيق وتوجيه ورقابة للموارد البشرية والمادية للوصول إلى

---

(١) العيني محمود بن أحمد، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ «بني الإسلام على خمس»، ١: ١: ١٠٩.

(٢) ابن منظور محمد بن مكرم، **لسان العرب**، حرف الميم، فصل السين المهملة، ١٢: ٢٩٣، بتصرُّف.

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب السين، ص٤٢٣، بتصرُّف.

(٤) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الراء، باب الراء والهمزة وما يثلثهما، ٢: ٤٧٢.

(٥) ابن منظور، **لسان العرب**، كتاب الواو والياء من المعتل، فصل الراء المهملة، ١٤: ٢٩١، بتصرُّف.

(٦) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف الدال، باب الدال والراء و(و أ ي) معهما، ٨: ٥٨.

(٧) د. إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، باب الدال، ١: ٣٠٢.

أفضل النتائج بأقصر الطرق وأقل التكاليف. وهي أهم الأنشطة الإنسانية في أي مجتمع»[١]. والإدارة في اصطلاح الأطروحة هي التي تُعبِّر عن المعالجات التي تتَّخذها سلطة ناظمة ما تجاه مجتمعها للتعامل معه بما يدرء عنه المفاسد أو يجلب له المصالح.

■ **منهج التعددية المجتمعية: من الرؤية إلى الإدارة:** هي بالمحصِّلة: **الطريقة المتَّبعة في التعامل مع المجال العام المتنوِّع، سواء بتوجُّهات معيارية لمجموعة منه أم بمعالجة تنظيمية لسلطته، لتحقيق ما يُمكن من صلاح أموره.**

■ **أصل:** «أساس الشيء»[٢]، و«قاعدته»[٣]. و«أصول العلوم: قواعدها التي تُبنى عليها الأحكام»[٤].

وتأصيل العلوم: البحث في تاريخ نشأتها، مع تحديد التطوُّرات المختلفة التي مرَّت بها[٥]. إضافة إلى ذلك، أقصد به في الأطروحة: **جمع منهج التعددية المجتمعية من أصوله في الإسلام اعتمادًا على المصادر الشرعية الأساسية: القرآن والسنة (بما فيها السيرة النبوية)، مع التقيُّد الزمني بالعهد النبوي خصوصًا.**

■ **السياق:** «حدو الشيء. وتسمية السوق لما يُساق إليها من كل شيء. والساق للإنسان وغيره سُمِّيَت بذلك لأن الماشي ينساق عليها»[٦]. «والمساوقة للإبل: المتابعة كأنَّ

---

(١) نقلاً عن موقع: ***www.wikipedia.com*** حول «الإدارة».

(٢) الأصل: «أساس الشيء». ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الهمزة، باب الهمزة والصاد وما يثلثهما، ١: ١٠٩.

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الألف، ص٧٩.

(٤) د. إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، باب الهمزة، ١: ٢٠.

(٥) **معجم اللغة العربية المعاصر**، نقلاً عن موقع: ***www.almaany.comardict*** حول «التأصيل».

(٦) ابن زكريا أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب السين، باب السين والواو وما يثلثهما، ٣: ١١٧، بتصرُّف.

بعضها يسوق بعضًا»[١]. والدلالة المشتركة تتلخَّص بكونه «التحريك المتَّصل والمتسلسل والمنتظم في سلك واحد»[٢]. وسياق الكلام هو «ربط القول بالغرض المقصود من غير تصريح به»[٣].

▪ **الدراسة السياقية**: هي دراسة «النَّظم التركيبي للكلام الذي يُوجِّه دلالة الكلمات والجُمل والفقرات، بناء على موقعها في النص، واستنادًا إلى العلاقات المعنوية بينها، بما يتَّفق في النهاية مع الغرض العام للكلام، ومع جملة الظروف الخارجية المصاحبة له»[٤].

▪ **سبب النزول**: هي «ما نزلت الآية أيام وقوعه»[٥]. فهي الأسباب الخاصة ضمن أحداث السيرة (ظروف معيَّنة) التي نزلت آيات من القرآن الكريم لمعالجتها وإظهار الحكم فيها. أما إن لم يكن للآيات أسباب نزول، فهي لا تخلو أن يكون لها ظروف نزول حسب زمن نزولها في السيرة وما كان يكتنفه من حاجات أو هواجس.

وأسباب النزول «هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تُصرَف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصَّتها وبيان نزولها. ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممَّن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها»[٦].

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، كتاب القاف، فصل السين المهملة، ١٠: ١٦٧، بتصرُّف.

(٢) سامي العجلان، **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنَين الثامن والتاسع الهجريَّين دراسة بلاغية في التراث العربي**، ص٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٥) السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، **لباب النقول في أسباب النزول**، ص٤.

(٦) الواحدي علي بن أحمد، **أسباب نزول القرآن**، ص١٠.

▪ **السيرة**: «الطريقة في الشيء والسنة»[١]. وهي «الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، غريزيًا كان أو مكتسبًا»[٢].

▪ **السيرة النبوية**: تختص بحياة النبي محمد ﷺ، «وتتميَّز من بين سير أفراد البشر بدقَّتها وشمولها واستيعابها لدقائق الحياة وتفاصيلها وملامحها وقسماتها، وذلك بفضل علم الحديث الشريف، فلم يكن في تأليفها في مختلف العصور صعوبة أو غموض أو افتراض أو قياس، وهي مؤسَّسة على نصوص قرآنية، ووثائق تاريخية، ودقائق في الخَلق والخُلُق، وتفاصيل في العادات والعبادات، والأخلاق والمعاملات، لا يُتصوَّر فوق ذلك، وهي أقرب إلى الحقيقة والواقع، قُربًا لا يُتصوَّر فوقه، ولا يُطمع في أكثر منه، بعد أن مضى على هذه الحياة الطيبة الكريمة مدة طويلة»[٣].

▪ **العهد النبوي**: يُقصد بالعهد النبوي ضمن البحث، الجزء الخاص بالسيرة النبوية منذ بعثة النبي ﷺ إلى وفاته (٦١٠ ـ ٦٣٢م / ٠١ من البعثة ـ ١١ هـ).

➢ وتنقسم مقاربة التعددية المجتمعية في العهد النبوي إلى قسمَين:

▪ **العهد المكي**: رؤية التعددية التي تتمظهر كأساليب تُؤسِّس لتوجُّهات واعية تجاه الآخر من خلال منهج التعامل معه في إدارة النبي ﷺ لصحابته والخيارات في مسار دعوته، وفق مختلف المراحل التي يكون أحد أصناف الآخر هو المتسلِّط فيها. وهي نموذج عن تعامل مجموعة من المجتمع مع سلطة رافضة للتعددية المجتمعية بأقسامها، كما تكمن أهميَّتها أيضًا في معرفة الخطاب والخطوات المطلوب اتخاذها للتعامل معه.

▪ **العهد المدني**: سياسات إدارة التعددية التي تتمظهر في نظام وسلطة قضائية في مجتمع للمسلمين أمرهم فيه بيدهم وليس عليهم سيطرة من أحد من الناس، ومهمَّة النبي ﷺ

---

(١) ابن زكريا أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب السين، باب السين والياء وما يثلثهما، ٣: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب السين، ص٤٣٣.

(٣) أبو الحسن علي الندوي، **السيرة النبوية**، ص١٥ ـ ١٦، بتصرُّف.

في هذه الإدارة حسب تعبير وصف القرآن هي ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١٠٥]، وليس حُكم الناس أو التحكُّم بهم أو محض الحُكم عليهم[١]. وتكمن أهميَّتها أيضًا في معرفة الخطاب والخطوات المطلوب اتخاذها في هذه الإدارة. هذا، وتبرز أيضًا كيفية إدارة النبي ﷺ لجماعة المؤمنين بسبب دورها في الشأن العام والمجتمع.

٢. تحليل نقدي لأقسام «التعددية المجتمعية»

قبل تناول مصطلح «التعددية المجتمعية» لاستنباط أصول منهجها من الدراسة السياقية في مسار نزول القرآن ومسيرة السيرة، فإنَّه يلزم تعريف الأقسام المختارة لهذه التعددية (الدينية، والثقافية، والسياسية، والعرقية، والطبقية)، ودراستها نقديًا في استخداماتها في العصر الحديث، ثمَّ تحقيق مضامينها في الرؤية الإسلامية لأنَّها المنطَلَق في تحديد مفاهيم أقسام التعددية وتطبيقاتها التي سيكون العمل في الأطروحة وفقها. وبذلك تظلّ المعالجة أمينة لمرجعية الإسلام وموروثه العلمي والثقافي.

➢ التعريف العام للأقسام المختارة من التعددية المجتمعية:

❑ **التعددية الدينية**: هي «تعايش المعتقدات الدينية المتنوِّعة المختلفة في وقت واحد، مع بقاء مميِّزات وخصائص كلٍّ منها»[٢].

❑ **التعددية الثقافية**: هي الاختلافات المتجذِّرة من خلال مجموعة المعتقدات والممارسات التي تتفهَّم من خلالها فئة من الناس ذاتها، وتعي العالم المحيط بها، وتُنظِّم على أساسها حياتها الفردية والجمعية، وهي تحمل قدرًا من السلطة، ويتم تأطيرها وهيكلتها

---

(١) وستتبيَّن الأبعاد التي تحقَّقت فيها تلك الإدارة عند الحديث عن صحيفة المدينة بعد غزوة بدر في المبحث الأول من الفصل الثاني من الباب الثاني، ص٤٣٣ ـ ٤٤٣.

(٢) د. سعد العتيبي، «التعددية الدينية رؤية تأصيلية»، نقلاً عن موقع:

http:fiqh.islammessage.comNewsDetails.aspx?id=1665.

بفعل تجسُّدها في نظام المعنى والأهمية المشترك والمتوارث تاريخيًا في ثقافة من الثقافات[١].

□ **التعدُّدية السياسية**: هي «مشروعية تعدُّد القوى والآراء السياسية وحقِّها في العيش والتعبير عن نفسها والمشاركة في التأثير على القرار السياسي في مجتمعها»[٢]. وهذا التعريف يعني الاعتراف بوجود تنوُّع، واحترامه بما يترتَّب عليه من اختلاف في المصالح والاهتمامات والأولويات، وإيجاد صِيَغ ملائمة للتعبير عن ذلك كلِّه بحرية، وفي إطار مناسب يحول دون نشوب صراع يُهدِّد سلامة المجتمع[٣].

□ **التعدُّدية الإثنية والعرقية**: أما الإثنية فهي: «الجماعة التي تشترك في أساطير معيَّنة عن أصلها ومنحدرها، وتمتاز ببعض العناصر المشتركة كالعادات والتقاليد واللغة والدين، وبوجود إحساس بالتضامن بين معظم أفرادها، والوعي بالانتماء المشترك. والإثنية المسيَّسة لها إدراك لوجودها وخصوصيَّتها كما تمتلك شعورًا بالاعتزاز بالذات ومجموعة من القِيَم والرموز المشتركة. هذا، وتختلف الإثنية المسيَّسة في مسبَّباتها ومطالبها وغاياتها ودرجة احتقانها». وأما العرقية فهي: «الجماعة التي تشترك في مجموعة من الصفات الجسمانية أو الفيزيائية، فهو مصطلح بيولوجي، يعتقدون به انحدارهم من أصل مشترك فضلاً عن اشتراكهم في خصائص ثقافية»[٤]. كما يُلحَق بالاستعلاء العرقي النظر إلى جماعةٍ ما على

---

(١) بيخو باريخ، **إعادة النظر في التعددية الثقافية التنوع الثقافي والنظرية السياسية**، ترجمة مجاب إمام، ص٢٠ ـ ٢٣، بتصرُّف.

(٢) رياض عزيز هادي، «من الحزب الواحد إلى التعددية»، ص٦٣، في: وفاء لطفي، «التعددية المجتمعية». نقلاً عن موقع:

www.asharqalarabi.org.ukmarkazt -02052012.doc

(٣) نقلاً عن الموقع السابق.

(٤) نقلاً عن: وفاء لطفي، «التعددية المجتمعية». نقلاً عن موقع:

www.asharqalarabi.org.ukmarkazt -02052012.doc

أنَّها مركز كل شيء[١]. فالتعددية العرقية والإثنية تُشير إلى تجمُّع العديد من العرقيات والإثنيات المتباينة والمميزة والمستقلّة في مجتمع شامل من الناس[٢].

▫ **التعدُّدية الطبقية**: أما «الطبقية أو نظام الطبقات: فيُقصَد بها تقسيم المجتمع إلى طبقات على حسب المستوى الاقتصادي»[٣]. فالتعددية الطبقية هي: «تعبير عن حقيقة من حقائق الواقع الاجتماعي الإنساني بالتفاوت الاجتماعي بين الطبقات الناتج عن التفاوت الاقتصادي»[٤].

➢ **استخدامات الأقسام المختارة من التعددية المجتمعية في العصر الحديث (نظرة نقدية):**

▪ أما «**التعددية الدينية**: فيُستخدم هذا المصطلح في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية وفلسفة الدين ومقارنة الأديان في العصر الحديث بتعريف «جون هيك» لها أنَّها: بمثابة تصوُّرات وأفهام متنوِّعة عن الحقيقة الإلهية الخفية الواحدة، واستجابات مختلفة للحقيقة النهائية المطلَقة والذات العليا من خلال ثقافات الناس المختلفة، وأنَّ تَحَوُّل الوجود الإنساني من محورية الذات إلى محورية الحقيقة حدث في كل الأديان بنِسَب متفاوتة، باعتبارها مظاهر شكلية لحقيقة واحدة، وهذا المعنى تجاوزٌ لمجرَّد الاعتراف بوجود الآخر والعَيش السلمي معه. وإنَّ جذور هذه الفكرة ظهرت أول ما ظهرت في البلاد التي تتعدَّد فيها الأديان وتقع فيها الحروب الأهلية بسبب ذلك. وقد وجد الغربيون فيها حلّاً من آثار الاضطهاد الديني بين الأوروبيين»[٥].

---

(١) نقلاً عن موقع: *www.wikipedia.com* حول «الاستعلاء العرقي».

(٢) نقلاً عن الموقع السابق حول «التعددية العرقية».

(٣) التعددية الطبقية: نقلاً عن موقع: *www.wikipedia.com* حول «طبقة اجتماعية».

(٤) د. محمد عمارة، «ثقافتنا والتعددية: وحدة الأمة والتعددية في الطبقات والمذاهب»، نقلاً عن: *http:daharchives.alhayat.com*

(٥) د. سعد العتيبي، «التعددية الدينية رؤية تأصيلية»، نقلاً عن موقع: *http:fiqh.islammessage.comNewsDetails.aspx?id=1665*

■ وأما **التعددية الثقافية**: فقد ظهرت بادئ ذي بدء منذ أربعة قرون في دول وجدت نفسها أمام فئات ثقافية مميَّزة ترفض الاندماج بعد أن آمنت مجتمعاتها لفترات طويلة من الزمن بأنَّها تتمتَّع بثقافة قومية واحدة يفترض بكل مواطنيها وفئاتها تَمَثُّلها والانصهار في بَوتقتها، الأمر الذي شكَّل تحديات جديدة وغير مألوفة[1]. أما اليوم، فمن جهة «أصبحت تُستَخدَم ضمن خطاب العولمة لمنح الجماعات الثقافية المتعدِّدة في المجتمع درجة من الحكم الذاتي، حتى تُؤلِّف كل ثقافة متباينة عن غيرها مجتمعًا قائمًا بذاته له شخصيَّته الثقافية المستقِلَّة عن الثقافة الوطنية. ومن جهة أُخرى، أصبحت تُرَوَّج من خلال نظرية صراع الحضارات لاستعلاء ثقافة وحضارة معيَّنة على أُخرى. فابتعد المفهوم بذلك عن دوره في تطوير الثقافة محليًا وعالميًا على أرضية احترام متبادَل، وفي التفاعل الخصب بين الخصوصيَّات الثقافية»[2].

■ وأما «**التعددية السياسية**: فهي تعني الاختلاف والاجتهادات المتعدِّدة دون سقف يحكم هذا الاختلاف، فتتَّسع لكل الآراء وكل الفلسفات وكل الاجتهادات»[3]. «وهي تصف المجتمع الذي تكون القوة فيه موزَّعة بصورة واسعة على جماعات متعدِّدة مرتَّبة في أنماط متنوِّعة للصراع أو المنافسة أو التعاون. كما تُشير إلى المؤسسات الحكومية والاجتماعية التي يُمكنها أن تُشارِك في مزاولة السلطة. وإنَّ عملية التركيب في الظاهرة التعددية جعلت منه مفهومًا معقَّدًا لارتباطه بالعديد من المفاهيم الأُخرى، ولكون الأبعاد التي يقوم عليها تتضمَّن عناصر متشابكة ومتداخلة تتوقَّف بدورها على مجموعة كبيرة من

---

(١) بيخو باريخ، **إعادة النظر في التعددية الثقافية**، ص١٩ ـ ٢٣، بتصرُّف.

(٢) د. ميلاد حنَّا ود. أحمد أبو زيد، ندوة «استراتيجية الثقافة العربية»، منظَّمة اليونيسكو، القاهرة، نقلاً عن موقع: ***http:www.aljazeera.netnews*** بعنوان: مفهوم التعددية الثقافية يُثير قلق بعض المثقَّفين المصريين.

(٣) د. محمد عمارة، **الإسلام السياسي والتعددية السياسية من منظور إسلامي**، ص٤، بتصرُّف.

العوامل والمتغيِّرات المتفاعلة، الداخلية والخارجية. وهذا المفهوم هو مفهوم مُراوِغ بما يعنيه ذلك من إمكانية استخدامه كصيغة تهدف إلى امتصاص السخط الشعبي، تمامًا مثلما يُستخدَم للإقرار بحقّ كافَّة القوى للتعبير عن نفسها. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ التعددية الدينية ليست هي المسؤولة عن أيّ نزاع من النزاعات التي تعرفها المجتمعات العربية، بل استغلال التعددية بتوظيفها من قِبَل النخب في الصراعات السياسية والاقتصادية. ويدخل هذا الاستغلال مباشرة في حقل السياسة»[١].

□ وأما **التعددية الإثنية والعرقية**: فالحداثة والعولمة بذرَت خلافًا تُمثِّله مفاهيم التمركز والتفوُّق ومحاولة سيطرة نموذج ثقافي على حساب آخر، وهذا يصُبُّ في الاستعلاء العرقي أيضًا[٢]. «فالعنصرية والطبقية (وسيأتي الحديث عن الطبقية) وما يقترن بهما من التعصُّب المذهبي أحيانًا، هي ظواهر رئيسة أشعلت تاريخ البشرية بنيران صراعها. قد أنتجت الحضاراتُ القديمة المجتمعَ الغربي وطلائم فكره الإمبريالي والصهيونية. فظلَّ الفكر الغربي ـ بالرغم من التطوُّر التقني الكبير من الجوانب المادية ـ أسير حضارته القديمة، كما بدأ الغرب نهضته بهجمته الجديدة على العالم من خلال حركة الاستكشافات والتفرقة العنصرية»[٣]. لذلك، «تسعى دول غربية إلى استغلال المظالم التاريخية والتعددية الإثنية والدينية لدول العالم الثالث لتفجير هذه البلدان»[٤].

---

(١) وفاء لطفي، «التعددية المجتمعية»، نقلاً عن موقع:
www.asharqalarabi.org.ukmarkazt-02052012.doc

(٢) نقلاً عن موقع: ***www.wikipedia.com*** حول «الاستعلاء العرقي».

(٣) عبد الصمد الركابي، «الأصول التاريخية للموقف العربي من النظريات العرقية والطبقية»، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد ٧، العدد ٤، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠م، نقلاً عن موقع:
www.pubcouncil.kuniv.edu.kw

(٤) د. معمر محمد سالم، «الخروج على النمطية»، نقلاً عن موقع: ***www.adhwa.mr***

□ وأما **التعددية الطبقية**: «فالنموذج الغربي سار ـ موغلاً ومغاليًا ـ على درب الطبقية، إلى الحدِّ الذي علَّق فيه رسالة التقدُّم على الطبقة البورجوازية في النموذج الليبرالي، والبروليتاريا في النموذج الشيوعي. كما اعتمد النموذجُ الغربي المنهاجَ الصراعي لحلّ التناقضات بين الطبقات الاجتماعية، بما يعنيه الصراع الطبقي من صَرعِ طبقة للأُخرى، الأمر الذي يهدف إلى إفناء الآخر والانفراد بالسلطان والثروات، كما يُفضي بالسعي إلى إلغاء التعددية الطبقية»[1].

من هنا، نجد أنَّ التعددية المجتمعية في العصر الحديث تعني تنوُّعًا مطلَقًا له، ينطلق من جذور إشكاليات تاريخية، وقابِل ـ عند إطلاقه ـ للاستخدام في تفتيت المجتمعات وغَلَبة غيرها عليها.

➢ أقسام التعددية المجتمعية في الرؤية الإسلامية:

إنَّ الدين[2] «في المنظور الإسلامي هو منهاج شامل للحياة، يتحرَّك الإنسان على أرضية العالَم الدنيوي وفق مقولاته، وتوجُّهاته، وخططه، وأهدافه»[3]. وبالمقابل، الدين

(١) د. محمد عمارة، «ثقافتنا والتعددية: وحدة الأمة والتعددية في الطبقات والمذاهب»، نقلاً عن:

http:daharchives.alhayat.com

(٢) الدين هو «الجزاء والطاعة». الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف الدال، باب الدال والنون و(و أ ي) معهما، ٨: ٧٣، بتصرُّف. وهو «كالملة، ولكنَّه يُقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة». الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الدال، ص٣٢٣.

(٣) محمد محيي الدين الأصفر، «حياة الإنسان في المنظر الإسلامي ودور العقل والوجدان، دراسة في بيان جدوى الحياة الإنسانية وآثارها»، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، نقلاً عن موقع:

http:www.neelwafurat.comitempageMobile.aspx?id=lbb38362&search=books

في الخبرة الغربية «يُشير إلى تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله، وهي علاقة تعبر عن نفسها فقط في عقائد وشعائر يؤدّيها الفرد»[١].

لذلك، فالحديث عن مقاربة بين نظرية في التعددية الدينية ـ مثلاً ـ في الغرب، وبين رؤية أو إدارة للتعددية الدينية في الإسلام غير مُتقابلة، لاختلاف معنى الدين في الثقافة الغربية عنه في الإسلام.

ولأنَّنا حدَّدنا أربعة ميادين في الإسلام (هي: الإيمان، والتزكية، والشريعة، والحكمة)[٢]، فالمصطلحات الأقرب للمُقارنة ـ باعتبار مناسبة أصوله ومسائله ـ تُصبِح: التعددية العَقَدية لتناول جانب الإيمان، والتعددية الثقافية[٣] لتناول جانبَي المنطلَقات الأخلاقية والسلوك الشرعي، والتعددية السياسية لتناول جانب الحكمة[٤]. وأما التعددية العرقية والإثنية فتُقابلها الرؤية الإسلامية للإنسان في أصوله الآدمية الترابية الموحِّدة. وأما التعددية الطبقية فتُقابلها الرؤية الإسلامية للمال بأنَّه مُلك لله ووديعة بيد الإنسان يُحاسَب على كيفية إنفاقه له.

---

(١) أ. فؤاد السعيد ود. فوزي خليل، «الثقافة والحضارة مقاربة بين الفكرَين الغربي والإسلامي»، نقلاً عن موقع:
http:www.aljazeera.netknowledgegatebooks2009627.

(٢) يُراجع البند الخاص بمحدَّدات البحث: المحدَّدات المعرفية: النسء، ص٦٠ ـ ٦٩.

(٣) «ارتبط التناول الغربي لمفهوم الثقافة بمفهوم حرث العقل وتهذيبه... أما في المنظور الإسلامي، فالثقافة بوصفها تعبيرًا عن سلوك الفرد والمجتمع، وأسلوب حياة الجماعة، وطرائق عَيشها، تُمثِّل الآفاق الحضارية لمفهوم الإيمان في الثقافة الإسلامية. وحين يقوم الفرد والمجتمع بالأعمال التي تهدف إلى بناء الحضارة فإنَّنا نكون بإزاء أعمال دينية». أ. فؤاد السعيد ود. فوزي خليل، «الثقافة والحضارة مقاربة بين الفكرَين الغربي والإسلامي»، نقلاً عن موقع: ***http:www.aljazeera.netknowledgegatebooks2009627***

(٤) باعتبار أنَّ السياسة هي: «القيام على الشيء بما يُصلحه». ابن منظور، **لسان العرب**، كتاب السين المهملة، فصل السين المهملة، ٦: ١٠٨، بتصرُّف.

➢ وبناء على ذلك، يُمكن تناول أقسام التعددية المجتمعية في الإسلام على الشكل التالي:

■ أما «**التعددية الدينية [أي: العَقَدية]**: ففي داخل الدين الإسلامي ذاته لا يُقبَل التعدُّد في أصول الدين، ومن ثَمَّ كانت أوامر الوحي بالجماعة والتحذير من الفُرقة (بالتعدُّد الاعتقادي داخل المجتمع فيما بين المسلمين). وتنطلق التعددية الدينية مع الأديان الأُخرى من مفهوم احترام الأديان الأُخرى في الإسلام في الواقع والتعامل معها بالعدل»(١). ولكنَّ هذا الاحترام ليس على إطلاقه لجميع هذه الأديان، فإنَّه لا يتمّ الاعتراف بأديان الشرك والوثنية، بل ضابط هذا الاعتراف هو الإيمان بالله وبالكتب المنزَلة، وهذا ما سيتبيَّن من عرض الآيات القرآنية في التعامل مع المشركين منذ بدايات الوحي حتى نهاياته. ثمَّ كثيرًا ما يكون الدين ستارًا لنزاعات تتعلَّق ببقية الأقسام.

■ وأما **التعددية الثقافية**: فليس القَبول بها على إطلاقها أيضًا، إذ هناك أعراف ثقافية تُبنى عليها سلوكيات مخالِفة للشريعة في مقاصد حِفظِها للدين (بالنسبة للمسلم) ولحرية المعتقَد (بالنسبة لغير المسلم)، أو للنفس أو للعقل أو للعِرض أو للمال، فلا يُقَرُّ بوجودها أو يُترَك ظهورها، لأنَّها بذلك تجلب المفاسد أو تُفوِّت المصالح العامة على المجتمع.

■ وأما «**التعددية السياسية** في الرؤية الإسلامية، فهي تعني التنوُّع والتمايز والاختلاف في إطار الوحدة. فليست التعددية مُطلَقة دون حدود، بل هناك مساحة مشتركة تجمع كل تيارات الأمة (كالعقيدة)، كما هناك مساحات للتعدُّد والاختلاف (كالحضارة)»(٢)، ومع أنَّها تُمثِّل «مشروعية تعدُّد القوى والآراء السياسية وحقِّها في العيش وفي التعبير عن نفسها وفي المشاركة في التأثير على القرار سياسيًّا في مجتمعها ـ بفعل وجود عِدّة دوائر انتماء فيه ضمن هويَّته الواحدة ـ بشكل يحول دون نشوب صراع يُهدِّد سلامة المجتمع، [إلا أنَّها تظلّ

---

(١) د. سعد العتيبي، «التعددية الدينية رؤية تأصيلية»، نقلاً عن موقع:

http:fiqh.islammessage.comNewsDetails.aspx?id=1665.

(٢) د. محمد عمارة، **الإسلام السياسي والتعددية السياسية من منظور إسلامي**، ص٤، بتصرُّف.

منضبطة في رعايتها للسلطة داخليًّا وخارجيًّا بمقاصد الشريعة (حِفظها للدين ولحرية معتقَد غير المسلم، وللنفس، وللعقل، وللعِرض، وللمال). فلا تُقَرُّ الأحكام المخالِفة لهذه المقاصد الكبرى، لأنَّها بذلك تجلب المفاسد أو تُفَوِّت المصالح]. هذا، وإنَّ من أهمِّ مظاهر هذه التعددية، حِرصها على مشاركة جميع فئات المجتمع في هذا الإطار بآرائهم من جهة، وكفالة كافَّة الحقوق المشروعة للمعارضة السياسية السلمية في هذا المجتمع من جهة أُخرى»[١].

□ وأما **التعددية العرقية**: فالإسلام نظر إلى اختلاف الشعوب والقبائل والألسِنة والألوان على أنَّها من آيات الله تعالى، وأمر بتوجيهها نحو التعارف[٢]. ولم يجعل لعربي على عجمي، أو لعجمي على عربي فضلاً إلا بالتقوى، فالرَّبّ واحد، والأب آدم واحد، والنبي ﷺ للمسلمين واحد[٣]. وسيُلحَق بها التعددية القَبَلية في الأطروحة باعتبار التعامل مع الشعور بالانتماء البشري الداعي للتمايز.

(١) وفاء لطفي، «التعددية رؤية مقارنة في المنظور الغربي والمنظور الإسلامي»، نقلاً عن موقع: ***http:www.globalarabnetwork.com***

(٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [**الحجرات**: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

(٣) قال رسول الله ﷺ: «لينتهِيَنَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا . . . إنَّ الله أذهَب عنكم عَيبة الجاهلية وفخرَها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس كلُّهم بنو آدم، وآدم خُلِق من تراب». الترمذي محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، كتاب المناقب، ٥ : ٧٣٤، ح : ٣٩٥٥. ورُوِيَ عنه قوله: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى». البيهقي أحمد ابن الحسين، **شعب الإيمان**، كتاب حفظ اللسان عمَّا لا يُحتاج إليه، فصل الفخر بالآباء، ٧ : ١٠٩، ح : ٤٧٧٤. وقال في معرض ذمِّه للعصبية القَبَلية: «دعوها فإنَّها منتنة». **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]، ٤ : ١٨٦١، ح : ٤٦٢٢.

□ وأما **التعددية الطبقية**: «فإنَّ النموذج الإسلامي [للنُّظم] مع اعترافه بالتمايز الطبقي، قد علَّق رسالة التقدُّم على الأمة، وليس على طبقة بعينها، فهو دين الجماعة، وليس فلسفة طبقة من الطبقات. كما أنَّ النموذج الإسلامي يستهدف ضبط التمايزات الطبقية، فلا يُؤدي التمايز إلى فاحش المظالم، ولا تحلم المساواة بإلغاء التمايزات. فتعيش التعددية الطبقية في إطار وحدة الأمة التي تجمعها وتُوَظِّفها لَبِناتٌ في هذا الجامع، دونما صراع ينفي الوحدة، أو وحدة قاهرة تنفي التمايز بين الطبقات. وهكذا، تتساند الطبقات بدل أن تتصارع، ويكون الحراك الاجتماعي هو السبيل لتعديل المواقع والمواقف وترشيد المسارات تحقيقًا للتكافل»[1].

من هنا نجد أنَّ التعددية المجتمعية في الإسلام تعني التنوُّع في إطار الوحدة، بشراكة ـ غير مطلقة ـ مع الآخر، ونزاهة مع الذات (حقّ الاختلاف ضمن الهوية الواحدة)، وعدالة عند الحكم بين قطاعات المجتمع المختلفة.

القسم الثاني: مصطلحات ذات صِلة بفرضية الأطروحة:

■ **السنة**: هي «السيرة»[2]، و«سنة النبيّ ﷺ طريقته التي كان يتحرَّاها، وسنة الله تعالى: قد تُقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته»[3]، والسنن الإلهية هي «النظام الرباني النموذجي الأصلي (المتناسق والمتكامل والمطَّرد والثابت والعام) الذي أجرى الله عليه شؤون الكون والحياة والإنسان، وحَكَم وِفقه حركة الاستخلاف؛ (العمران والحضارة والثقافة والتاريخ)، وأخضع له وجود الإنسان وصيرورته في عالم الشهادة الدنيوي. وذلك من أجل

---

(١) د. محمد عمارة، «ثقافتنا والتعددية: وحدة الأمة والتعددية في الطبقات والمذاهب»، نقلاً عن: ***http:daharchives.alhayat.com***

(٢) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب السين، باب ما جاء من كلام العرب وأوله سين في المضاعف والمطابق، ٣: ٦١.

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب السين، ص٤٢٩.

تمكين الإنسان ليُحقِّق أعلى مراتب الفقه البصير بالسنن والتسخير الرشيد لها فرديًا وجماعيًا، ويُحقِّق أقصى مستويات الترقي في الاستخلاف عبودية لله وعمرانًا للكون وإنقاذًا للخَلق وشهودًا حضاريًا على الأمم، ويحوز بذلك أعلى مراتب الفوز بمقامات الفلاح في عالم الآخرة والبقاء»[1].

وتُعتبر دلالة كلمة ﴿سنة﴾ حسب فرضية البحث طريقة حكمة الله سبحانه وتعالى، وقدره في التعامل الثابت على مر التاريخ الإنساني مع مراحل متشابهة في مضمون الأحداث التاريخية، وتنطبق بالتالي على أمر الله بالقسط[2] في القضاء بالحق وخسارة المبطلين كما وترتبط بتتبع مسيرة ذكرها قرآنيا حسب ترتيب النزول بالتدافع[3] الحاصل بين أهل الحق وأهل الباطل المعتدين على حرياتهم في مجتمع ثم بين مجتمعين، لتكتمل صورتها بتدافع آخر يحدث بين ممثلي الطيب من إيمان ورأي وممثلي الخبيث في المجتمع الواحد وهذا الأمر بالقسط (العدل في الأرض) هو أساس من أسس الرسالات السماوية،

---

(١) عبد العزيز برغوت، «ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية»، في: **إسلامية المعرفة**، السنة الثالثة عشر، العدد ٤٩، ص٤٢ ـ ٤٣.

(٢) القسط: النصيب بالعدل. الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب القاف، ص٦٧٠.

(٣) هي الكلمة البديلة عن لفظة الصراع، ذلك لأنَّ «الصراع لا يُمكن أن يكون سُنَّة تدفع إلى الرقي والازدهار، ولأنَّ الصراع في حدِّ ذاته خارج عن سنن الله التي قضت بقيام المجتمعات على أُسس الإيمان والحبّ والتعاون. وجاء القرآن بنظرية التدافع الاجتماعي في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. فالتدافع سُنّة يُقضى بها على الفساد، ولولاه لما وُجد للظلم والانحراف ما يدفعه». يونس صوالحي، «سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها لمحمد هيشور»، في: **إسلامية المعرفة**، السنة الثالثة، العدد ١٣، ص١٥٥ ـ ١٥٦، بتصرُّف.

وقدم ذكره من بينها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩ ـ ٣٠]، بل ووُضع مُقابل المعنى المُضادّ لوصف الإسلام (أي: القَسط: الجَور)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤].

ويستتبع ذلك، وجود مراحل مختلفة في الحقبة الزمنية الواحدة، يُمكن أن يُقاس عليها في حقبات أُخرى، سواء أكان الأمر بالقسط (العدل في الأرض) من نبيّ أو مجموعة أو مجتمع تجمعه وثيقة/ عناصر ترابط، دون التقيُّد بعهد النبوة[1].

وهذه قائمة بالسور العشر التي وردت فيها كلمة ﴿السنة﴾ وتفريعاتها[2]:

---

(١) فقد ورد في القرآن، بل وفي بعض السور التي وردت فيها كلمة ﴿سَنَةٌ﴾ وتفريعاتها، وجود أشخاص يقومون بمهام محددة تمّ ضمُّهم بالعطف إلى الأنبياء إشارة إلى التشابه الموجود بينهم وبين بُعدٍ أو أكثر من أبعاد رسالة الأنبياء، كالذين يأمرون بالقسط من الناس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، والرِّبيِّين في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، والصدِّيقين والشهداء والصالحين في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

(٢) تمَّ استنباط خانتَي «مرحلة نزول الآيات»، و«السنة بحسب الآية الواردة في السورة» عمومًا من: د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**. وعبد الرحمن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبُّر**. واستنباط خانة «معنى السورة واسمها» من: الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**. واستنباط خانة «التوجيه الأساس/ الضمني المستنبط من آيات السورة» من خلال تصفُّح توجيهات السورة مباشرة.

السورة وتاريخ نزولها		مرحلة نزول الآيات	معنى اسم السورة	السُّنَّة ومعناها حسب الآية في السورة	التوجيه الأساس/ الضمني المستنبط من آيات السورة
مكة قبل الهجرة	فاطر ٥ بعثة	الاستكبار ومكر السيئ بالنذير (الأسباب الحقيقية لعدم اتِّباع قريش هديَ مَن سبقهم ورفضِهم الدعوة)	فاطر: الفتح والشق وقوة معرفة الإيمان في النَّفس. وفيها أجوبة على أسئلة فطرية، وذكر نعمتَي الإيجاد والإمداد، وامتحان الحياة قبل الحساب	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: التكذيب حدث للأنبياء السابقين من قِبَل قومهم، وانتصروا، والمُصرُّ على رسول الله ﷺ بالاستكبار والتآمر سيهلك حتمًا	الصَّبر والمثابرة ومواصلة تبليغ الرِّسالة، وذكر الله وتوحيده وتلاوة الكتاب والصلاة والإنفاق، وعداوة الشيطان، وعدم الاغترار بالدنيا
	الحِجْر ٥، ٥ بعثة	الاستهزاء (وتعذيب كل قبيلة لمسلميها)	الحِجر: ما أُحيط به الحجارة المانعة، والعقل، والصلابة عن قَبول الحق	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلك الاستهزاء بالرسل في قلوب المجرمين (بجعله مسلكًا لهم) دون الإيمان ولو وَدُّوا ذلك، لأسباب: الهوية الوثنية واتخاذ موقف العداء منذ البداية ورفض الإيمان	الأمر بالصَّدع (بكسر جمود مواقف الحلقات القبلية المغلقة المواجِهة للدعوة) عبر نشر الدعوة خارج قبائل مكة، والصفح الجميل، والتواضع مع المؤمنين

	السورة وتاريخ نزولها	مرحلة نزول الآيات	معنى اسم السورة	السُّنَّة ومعناها حسب الآية في السورة	التوجيه الأساس/ الضمني المستنبط من آيات السورة
مكة قبل الهجرة	غافر ٧ بعثة	كيد أصحاب السلطة والمال من قريش بمقاطعة اجتماعية واقتصادية وحوارية وإنسانية بحصار النبي ﷺ وقرابته المدافعين عنه إيمانًا أو قَبَلية	غفر: إلباس ما يصون عن الدنس، وصون الله العبد من مسّ العذاب، وصون غير المؤمن عند إيمانه قبل الأجل	﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا ينفع الإيمان عند رؤية العذاب	استجابة كاتم الإيمان للدعوة ودوره الإيجابي في المجتمع (في الدفاع عن النبي ﷺ تمثيلاً بقصة مؤمن آل فرعون الصبر والاستغفار والتسبيح، وعدم الاغترار بالذين كفروا
	الكهف ١٠ بعثة	إفتان ما بعد الحصار (ترغيب بعد ترهيب)	الكهف: غار في جبل للإيواء إليه	﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الآية: ٥٥] أي: لا شيء يُمكن أن ينتظره المشركون بعد أن جاءهم القرآن إلا الهلاك في الدنيا أو العذاب يوم القيامة برؤية العذاب عيانًا	الاستعداد للهجرة والبحث عن الإيواء الصبر وعدم تعدية العين لزينة أو طاعة غافل

السورة وتاريخ نزولها		مرحلة نزول الآيات	معنى اسم السورة	السُّنَّة ومعناها حسب الآية في السورة	التوجيه الأساس/ الضمني المستنبط من آيات السورة
مكة قبل الهجرة	الإسراء ١٣ بعثة	محاولات إفتان الرسول ﷺ واستفزازه من الأرض للخروج منها	الإسراء: سير الليل، الأرض الواسعة، علو الشيء، النزع (# المدثر)	﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: إخراج النبي ﷺ من مكة يعقبه إهلاك الله لهم كما أهلك أمثالهم من قبل	عدم الركون إلى الظالمين، والخروج من مكة
المدينة بعد الهجرة	الأنفال ٢هجرة[1]	تدافع عسكري: غزوة بدر النصر. الفرقان بين الحق والباطل	الأنفال: غنيمة منحة من الله من غير وجوب، عطاء، زيادة على الواجب، زيادة خاصة للأمة خلافًا لمَن سبقها	﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الآية: ٣٨] أي: طلب الاعتبار بمَن سبقهم عندما عادوا (للصد عن سبيل الله) بالعذاب	الاستجابة لله ورسوله والثبات والذكر والطاعة، وعدم التنازع والتولي والاغترار والافتتان

---

(١) بسبب تأخُّر اعتماد التقويم الهجري للتأريخ الإسلامي إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد «اعتمد المسلمون بعد الهجرة اسمًا مخصوصًا للسنوات ما بين الهجرة ووفاة النبي ﷺ، كانوا يشتقُّونه من الأحداث التي اتَّفقت للنبي ﷺ. والسنة الثانية سُمِّيَت: سنة الأمر». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. أي: «سنة الأمر بالقتال». محمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية**، ١: ٣٤، بتصرُّف. وتكمن أهميَّة إيراد تلك التسميات في استحضار وتصوُّر المعهود الذهني للمسلمين اجتماعيًّا وحركيًّا وفكريًّا وحضاريًّا في قراءتهم ـ كشهود عيان ومشاركين في صناعة الأحداث ـ لمسار السيرة النبوية.

	السورة وتاريخ نزولها	مرحلة نزول الآيات	معنى اسم السورة	السُّنَّة ومعناها حسب الآية في السورة	التوجيه الأساس/ الضمني المستنبط من آيات السورة
المدينة بعد الهجرة	آل عمران ٣ هجرة[1]	تدافع نفسي: غزوة أحد القَرح. تمييز المتشابهات في المجتمع الواحد	زوج عمران وابنتاها مريم وأختها (زوجة زكريا): عائلة اختلف موقف الناس من أفرادها (من الاتِّهام إلى التعظيم)	﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: تجارب الأمم الماضية خلت، وعاقبة المكذِّبين الإهلاك	الدعوة إلى الطاعة والنظر إلى السنن بالمكذبين، والمسارعة إلى المغفرة والجنة والاستغفار والصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى والصدق والقنوت، دون الاغترار بمتاع الكفار وأحوالهم أو اتخاذهم أولياء
	آيات الأحزاب ٥ هجرة[2]	تدافع (بارد): غزوة (زلزال) الأحزاب. ابتلاء بالحَرَج في المجتمع الواحد	الحزب: طائفة جمعها اتجاه إلى غرض واحد. الأحزاب: هدف مشترك للقضاء على الدعوة، تختلف دوافع كل حزب منها	﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢] أي: إجلاء ولعن وقتل المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين	التقوى والاتباع والتوكل على الله، والثبات والتصديق والتسليم، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين أو الرد على أذاهم

(١) «سُمِّيَت السنة الثالثة: سنة التمحيص». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. ومحمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية**، ١: ٣٥، بتصرُّف.

(٢) «سُمِّيَت السنة الخامسة: سنة الزلزال». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. ومحمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية**، ١: ٣٧، بتصرُّف.

السورة وتاريخ نزولها		مرحلة نزول الآيات	معنى اسم السورة	السُّنَّة ومعناها حسب الآية في السورة	التوجيه الأساس/ الضمني المستنبط من آيات السورة
المدينة بعد الهجرة	الفتح ٦هجرة[1]	تدافع سياسي. توازن قوى (بين كيانَين): صلح الحديبية. النصر العزيز على النفاق والشِّرك	الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال	﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣] أي: نصر المؤمنين على الذين كفروا عند القتال	الوفاء بالعهد
	آيات النساء ٨ هجرة[2]	تدافع اجتماعي: غزوة حنين بعد فتح مكة - (بيان وهداية وتوبة) لإصلاح الضعف، والتحذير من الميل	النساء: رمز للاجتماع (الرَّحِم) من جهة، وللمستضعفين في المجتمع (عبر العصور) من جهة أُخرى	﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]	التقوى والعدل والاجتماع على طاعة ومرجعية الله ورسوله ومفاصلة المستهزئين

(١) «سُمِّيَت السنة السادسة: سنة الاستئناس». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. ومحمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية**، ١: ٣٨، بتصرُّف.

(٢) «سُمِّيَت السنة الثامنة: سنة الاستواء». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. ومحمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية**، ١: ٤٠، بتصرُّف.

القسم الثالث: مصطلحات ذات صِلة بموضوع الأطروحة، وخاصة بالأديان في القرآن، وبمكوِّنات المجتمع:

➢ قبل أن تقوم الأطروحة باستعراض أصول التعامل مع التعددية المجتمعية رؤية وإدارة، فإنّه يلزم عرض ثلاث مجموعات من المصطلحات:

١. مصطلحات ذات صِلة بموضوع الأطروحة:

➢ وقد اخترتُ التعريف بمصطلحَي «الديمقراطية التوافقية» و«السياسة» و«الآخر»:

□ **الديمقراطية**: هي «شكل من أشكال الحكم، يُشارِك فيها جميع المواطنين على قدم المساواة في اقتراح وتطوير واستحداث القوانين»[(١)]. ولكن «في المجتمع المتعدِّد، بسبب فقدان شرطَي الديمقراطية المستقِرَّة: التجانس الاجتماعي والإجماع السياسي، نشأت **الديمقراطية التوافقية**»[(٢)].

□ **الديمقراطية التوافقية**: «تتميَّز عن بقية أنواع الديمقراطيات بتراجع أسلوب الصراع السياسي بين الأقلية والأغلبية وتعويضه بالتوافق والحكم الجماعي والأخذ بأكبر عدد من الآراء وإشراك الأقلية المنتخبة في الحكم أو في السياسيات الكبرى»[(٣)]. وذلك عبر: «الحكم من خلال ائتلاف واسع من الزعماء السياسيين من كافة القطاعات الهامة في المجتمع التعددي، والفيتو المتبادل أو حكم الأغلبية المتراضية التي تُستَعمل كحماية إضافية لمصالح الأقلية الحيوية، والنسبة كمعيار أساسي للتمثيل السياسي والتعيينات، ودرجة عالية من الاستقلال لكل قطاع في إدارة شؤونه الداخلية الخاصة»[(٤)].

---

(١) نقلاً عن موقع: ***www.wikipedia.com*** حول «الديمقراطية».

(٢) آرنت ليبهارت، **الديمقراطية التوافقية في مجتمع متعدِّد**، ترجمة حسني زينة، ص١١، بتصرُّف.

(٣) نقلاً عن موقع: ***www.wikipedia.com*** حول «الديمقراطية التوافقية».

(٤) آرنت ليبهارت، **الديمقراطية التوافقية في مجتمع متعدِّد**، ص٤٧، بتصرُّف.

❐ سياسة:

■ **لغة**: «القيام على الشيء بما يُصلحه»[١].

■ **اصطلاحًا**: «النشاط الاجتماعي الفريد من نوعه الذي يُنظِّم الحياة العامة ويضمن الأمن ويُقيم التوازن والوفاق بين الأفراد والجماعات ويُنمِّي مشاعر التضامن الاجتماعي وحفظ السلم والاستقرار»[٢].

❐ الآخر:

■ **لغة**: «أحد الشيئَين، ويكونان من جنس واحد، وبمعنى غير الشيء، والآخِر: مقابل الأوَّل»[٣].

■ **اصطلاحًا**: «ما يُقابل الـ أنا»[٤]، و«ما يُقابل الذات»[٥]، أي: ما يُقابل «المماثل»[٦]، و«المختلف عن الكائن[٧]».

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، كتاب السين المهملة، فصل السين المهملة، ٦: ١٠٨، بتصرُّف.

(٢) د. عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة**، ٣: ٣٦٢ ـ ٣٦٣، بتصرُّف.

(٣) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**، ص ٨، بتصرُّف.

(٤) *Paul Foulquié, Raymond Saint-Jean, Dictionnaire De La Langue Philosophique, Paris, Presses Universitaires De France, 3e edition, 1978, P. 63: "L'autre s'oppose au moi"*

(٥) *Andre Lalande, Vocabulaire Technique Et Critique De La Philosophie, Paris, Presses Universitaires De France, 10e édition, 1968, P. 104: "Autre: S'oppose au Même".*

(٦) *Ibid, P. 455: "Identique: A un individu quand on dit qu'il est le même, ou identique à lui- même.*

(٧) *Ibid, P 104: "Platon, dans le Sophiste, définit l'autre comme different de l'être, et rétablit ainsi, contre Parménide, l'existance du non- être".*

■ **ظروف انتشاره في العصر الحديث**: «أغلب الظنِّ أنَّ المفهوم ـ [في أوَّل انتشاره في العصر الحديث][(١)] ـ قد بدأ استعماله في أوروبا مع الثورة الفرنسية، وبدأ تداوله في أميركا مع الثورة الأميركية، فالثوار الفرنسيون أطلقوا على أنفسهم والمتبنِّين لمبادئ الثورة الفرنسية «نحن» وأطلقوا على مناوئيهم من الذين وصفوهم بالاستبداد وعناصر الإقطاع والرَّجعية وأعداء الحرية والمساواة والعدالة «الآخر» أو «الآخرين»، والثوار الأميركان كانوا يُحاربون من أجل تحرير أميركا من هيمنة بريطانيا وفرنسا واستعمارهما، وتحقيق الاستقلال، كثيرًا ما كانوا يُشيرون إلى أنفسهم بقولهم «***We people***» وإلى الفرنسيين والبريطانيين بقولهم «The others»، وبقي هذا المصطلح متداولاً إلى أن اتَّحدت الولايات الأميركية الثلاث عشرة بعد مؤتمر فيلادلفيا، وأصبحت وحدتها القاعدة الأساسية والمنطلق لوحدة أميركا الشَّمالية القائمة حاليًا، فصار مصطلح «***We people***» (نحن الشَّعب) يتصدَّر خطابات زعماء أميركا ورؤسائها، وإلى جانبه يبرز مصطلح «***The other***» عند الحديث عن غير الأميركيين، فصار المصطلحان «نحن والآخر» شائعَين على مستوى عالمي خاصة في مجالات الخطاب النِّضالي والتَّحريضي»[(٢)].

■ **إشكالياته في العصر الحديث**: إنَّ ظروف أوّل انتشار للمصطلح في العصر الحديث، جعلت من لفظة «الآخر» «تأسيسًا لثقافة الكراهية»[(٣)]، وتدعو بذلك إلى التحيُّز والتمييز: لأنَّ «الأفكار المرتبطة بـ «نحن والآخر» جعلت الاتجاهات العقلية والنفسية للفكر الغربي ـ حيث شاع المصطلح ـ تقود دائمًا إلى نظر الغربي على أنَّه مركز الكون، وإلى غيره على أنَّه هامش وآخر، ولا تجتمع المشاعر والاتجاهات العالمية مع الاتجاهات المركزيَّة؛

---

(١) لأنَّ كثيرًا من الفلاسفة أتى على ذكر معنى هذه اللفظة الفلسفي ـ سواء بإعادة تأسيس وجوده أم لا ـ كما مرَّ في الهامش السابق عن أفلاطون وبارمنيد، فيكون الحديث عن استخدام هذا المصطلح والعوامل التي رافقت أوَّل انتشاره في العصر الحديث.

(٢) د. طه جابر العلواني، «الآخر بين الإسلام والغرب»، في: **اللواء الإسلامي**، ص١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤، بتصرُّف.

وفي مجالات الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد، يجد الغربي نفسه مسوقًا ـ شاء أم أبى ـ إلى نفسه باعتبارها «ذاتًا» وإلى غيره باعتباره «موضوعًا»[١]. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ تضخيم الذَّات لا يتَّفق أبدًا مع الحوار لأنَّه يتناقض مع شروطه[٢]، كذلك، فإنَّ التمركز حول الذَّات هو من علامات وخصائص التعصُّب السَّلبي[٣]؛ وعليه، فإنَّ لفظة «الآخر» ـ كما كان أوَّل انتشارها في العصر الحديث ـ لا تتَّفق مع الحوار، بل تنسجم مع التَّعصُّب السَّلبي المذموم، وهو أمر دقيق لطيف المخرج.

---

(١) د. طه جابر العلواني، «الآخر بين الإسلام والغرب»، ص١٤، بتصرُّف.

(٢) الحوار هو: «أسلوب يجري بين طرفَين (طرح الأول، وتجاوب الثاني، ومراجعة عند كلٍّ منهما) لمعالجة موضوع من الموضوعات في حقل علمي ومعرفي أو جانب فكري». د. عبد الستار الهيتي، **الحوار الذات والآخر**، (سلسلة كتاب الأمة، العدد: ٩٩)، ص ٤٠، بتصرُّف. ومن شروط الحوار: «إحاطة علم بالموضوع، ووضوح اللغة، بأسلوب طيِّب يُراعي المشاعر، واحترام التخصُّص، وطلب الحقِّ بتجرُّد عن العاطفة، وحُسن الاستشهاد، على منهج مشترك، مع تخلِّي طرفَي الحوار عن النَّرجسيَّة والأنانيَّة، وتحلِّيهما بالعلم لتعميم الاستفادة عليهما». المصدر نفسه، ص٧٠ ـ ٨٠، بتصرُّف. ومن آداب الحوار: «عفَّة اللسان والقلم، وحُسن الصمت والإصغاء، والتواضع والاحترام المتبادلَين، بهدوء ورويَّة ومودَّة». المصدر نفسه، ص٨١ ـ ٨٨، بتصرُّف.

(٣) أعني بالتعصُّب: التمسّك والميل والتحمّس المتشدِّد المبالغ فيه لصحة رأي أو فكر أو اتجاه، والدفاع عنه. وذلك لوجود عناصر كالالتحام والشعور بالانتماء، وهي معاني مشتركة بين العصب والتعصُّب. وغالبًا ما يرتبط بالتعصب إحساس بالكراهية والانفعال تجاه فئة معيَّنة. وكلما انخفض التزام الإنسان بمعايير العقلانية والمشاعر الإنسانية الرقيقة والعدالة، زاد تعصّبه السلبي. أما تمسّك الإنسان بقيم لا تتناقض مع العقل أو معيارَي العدالة والمشاعر الإنسانية، فلا يُمكن تصنيفه تعصُّبًا سلبيا، بل هو التعصُّب الإيجابي أو الاستمساك المحمود. يُراجع: د. معتز عبد الله، **الاتجاهات التعصبية**، (سلسلة عالم المعرفة: ١٣٧)، ص٤٨ ـ ٧١، بتصرُّف.

■ **الآخر في الرؤية الإسلامية**: «نظر الإسلام إلى البشريَّة كلِّها على أنَّها داخلة في مفهوم «نحن» واستبعد من ساحته الفكريَّة مفهوم «الآخر» إلا بالمعنى اللغوي المجرَّد من أيَّة تحيُّزات أو ظلال فكريَّة تؤدِّي إلى مواقف تتَّسم بالتمييز بأيِّ نوع من أنواعه. فالأسرة البشريَّة الممتدَّة في نظر الإسلام كلُّها تندرج في «نحن»، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [**الحجرات**: ١٣]. ويُحدِّد القرآن المجيد «الآخر» في مخلوق واحد هو الشيطان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس، الآية: ٦٠]»[١]. إذًا، إنَّ الرؤية الإسلاميَّة لهذا المفهوم لا تنبني على إلغاء وجود الآخر أو رفضه أو اعتباره موضوعًا أو هامشًا، بل بالاعتراف بوجوده، وقَبوله ـ في دعوة الإسلام العالميَّة ـ على ما هو عليه بالشَّكل الذي سيمرّ، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

■ **التعريف المختار**: بناء على ما سبق، فلفظة «الآخر» مع أنَّها جامعة في أصلها لشيئَين من الجنس نفسه، لكنَّ التراتبيَّة بينهما واضحة للعيان، فـ«الآخر» هو غير الشيء (بـ أل التعريف)، لذلك، فإنِّي سأذهب ـ حسب الرؤية الإسلامية ـ إلى أنَّ المعنى المختار يجب أن يجمع بين شيئَين لا من الجنس نفسه فحسب، بل من النَّوع نفسه؛ والإنسان[٢] هو النَّوع عند المناطقة، أما جنسه ـ الذي يشترك معه غيره فيه ـ فهو: الحيوان.

لذلك، كان لا بدَّ من إعادة النَّظر في معنى «الآخر»، ليكون المعنى المقصود أحد شيئَين:

أ ـ المختلف: ويُمثِّل تنوُّعًا في إطار وحدة الأصول (أصول الدين).

ب ـ المُخالف: ويُمثِّل تبنِّيًا لبعض الآراء المخالِفة في الأصول، لكنَّه مع ذلك في إطار وحدة النَّوع الإنسانيّ.

إذًا، فإمَّا أن يكون تنوُّعًا في إطار وحدة التبنِّي، أو تباينًا في إطار وحدة النَّوع.

---

(١) د. طه جابر العلواني، «الآخر بين الإسلام والغرب»، ص١٤، بتصرُّف.

(٢) في المنطق: الإنسان (النوع) = حيوان (الجنس) + ناطق (الفصل). أحمد الدَّمنهوري، **رسالة في المنطق ـ إيضاح المبهم من معاني السُّلَّم**، ص٤٦ ـ ٤٧، بتصرُّف.

٢. مصطلحات خاصة بالأديان في القرآن:

«إنَّ الأديان المذكورة بأسمائها في القرآن ليست كثيرة، هي: اليهودية والنصرانية (ويُذكران باسم مشترك هو أهل الكتاب)، والصابئة (وهو اسم يُسمَّى به مَن انتسَبوا إلى النبيّ يحيى عليه السلام، كما يسمَّى به مَن عبدوا النجوم)، والمجوس (الزردشتيين المنتمين إلى الدين السائد في إيران أيام الفتح، وهي توحيدية لاهوتيًا وإن كانت ثنائية فلسفيًا، ويُلحَقون بأحكام أهل الكتاب في الإسلام).

وهناك أديان لم ترد بأسمائها، وهي الأديان المشرِكة في الزمن القديم (شعب أور زمن إبراهيم عليه السلام، ومصر القديمة زمن يوسف وموسى عليهما السلام، وأقوام الجزيرة العربية السابقة كقومَي عاد وثمود) أو في حقبة البعثة النبوية (الوثنية العربية: قريش والأعراب خارج مكة)»[١].

٣. مصطلحات خاصَّة بمكوِّنات المجتمع:

➢ باستعراض السيرة النبوية بالتوازي مع نزول القرآن الكريم، يتبيَّن أنَّه يلزم التفرقة بين مكوِّنات مختلفة في المجتمع لما له من الأثر في تحديد الموقف وشكل التعامل والعلاقة معها، وقد أمكن حصر سبعة مكوِّنات:

❑ **المسلم:**

■ **لغةً:** «الإسلام: الاستسلام لأمر الله، وهو الانقياد لطاعته والقَبول لأمره»[٢]. و«السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية. والإسلام: الانقياد، لأنَّه يسلم من الإباء والامتناع»[٣]. و«السِّلم: هو التعرِّي من الآفات الظاهرة والباطنة»[٤].

---

(١) د. نايلا طبارة، «الإسلام والأديان الأُخرى»، في: الأب فادي ضو ود. نايلا طبارة، **الرحابة الإلهية لاهوت الآخر في المسيحية والإسلام**، ص١٢٢ ـ ١٢٥، بتصرُّف.

(٢) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف السين، باب السين واللام والميم معهما، ٧: ٢٦٦.

(٣) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب السين، باب السين واللام وما يثلثهما، ٣: ٩٠، بتصرُّف.

(٤) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب السين، ص٤٢١، بتصرُّف.

■ **اصطلاحًا**: «الإسلام في الشَّرع على ضربَين:

أحدهما: دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل، وإيّاه قصد بقوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

والثاني: فوق الإيمان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدَّر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٩]»(١).

■ **سيرةً**: هو الذي استجاب لما عُرِض عليه من الدعوة إلى الإسلام. ثمَّ لم تُمثِّل إدارة النبي ﷺ له بعد إسلامه (استسلامه وانقياده كما مرَّ) تذويبًا لشخصيَّته أو تعطيلاً لعقله في الوقت الذي تخضع فيه حركته للالتزام بالنص التوقيفي تسليمًا بأمر الله إليه(٢). وقد يكون المسلم مكتفيًا بما وصله من هدى، كما قد يكون داعيًا إلى الهدى، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق: ١١ ـ ١٢].

■ **تعدديةً**: يُمثِّل المسلم الـ أنا (مقابل الآخر) الذي يحمل مسؤولية حِراسة الدين وسياسة الدنيا. ويُوَجِّهه القرآن دَومًا للالتزام بأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وتغليب رابطة الإيمان ـ فيما بينه وبين المؤمنين ـ على بقية الروابط، والتسامي بالاتصاف بمواصفات المؤمنين في علاقتهم مع الله تعالى ومع أنفسهم ومع الناس ومع الأرض.

□ **الكافر (المغضوب عليه/ قاسي القلب)**:

■ **لغةً**: «الكفر: نقيض الإيمان، ويُقال لأهل دار الحرب. وهو العصيان والامتناع.

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٤٢٣، بتصرُّف.

(٢) بين إعمال العقل بالشورى، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، والتسليم لأمر الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والكفر أربعة أنحاء: كفر الجحود مع معرفة القلب، وكفر المعاندة: وهو أن يعرف بقلبه ويأبى بلسانه، وكفر النفاق: وهو أن يُؤمن بلسانه والقلب كافر، وكفر الإنكار: وهو كفر القلب واللسان»[١]. و«الكاف والفاء والراء تدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية. والكفر ضدّ الإيمان، سُمِّي به لأنَّه تغطية الحق»[٢]. «والكفر ستر الشيء. وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها، وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوّة»[٣].

■ **اصطلاحًا**: «الكفر على الإطلاق متعارَف فيمَن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها»[٤].

■ **سيرةً**: هو مَن يتبنَّى ـ عن عمد ـ أصولاً دينية مغايرة ومناقضة (للحقّ الذي ظهر له)، فخاصم الدعوة. وتختلف درجة تلك الخصومة بين اتِّخاذ موقف الرفض لها ومنعها من حرية الانتشار وصولاً إلى محاربتها وإرادة إلغائها. وهذا المُخالف يبدأ دوره المعادي بالتبلور بعد جهر النبي ﷺ بالدعوة عام (٦١٤م / ٤ من البعثة)، إلى أن يتمّ التوافق على الصلح السياسي الذي يُتيح حرية التعددية ونشر الدعوة عام (٦٢٧م / ٦هـ)[٥].

■ **تعدديةً**: يُمثِّل الكافر في مكة الآخر في التعددية العَقَدية في الظاهر. ولكنَّه كان أيضًا السلطة (المركزية معنويًا للجزيرة العربية) الرافضة للتعددية المجتمعية بكلِّ أقسامها. كما يُمثِّل الكافر بين الأعراب مَن يرفض إحدى أقسام التعددية.

---

(١) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف السين، باب السين واللام والميم معهما، ٥: ٣٥٦، بتصرُّف.

(٢) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الكاف، باب الكاف والفاء وما يثلثهما، ٥: ١٩١، بتصرُّف.

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الكاف، ص٧١٤، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، كتاب الكاف، ص٧١٤ ـ ٧١٥، بتصرُّف.

(٥) «سُمِّيَت السنة السادسة: سنة الاستئناس». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. ومحمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية**، ١: ٣٨، بتصرُّف.

□ مريض القلب (الضَّالّ / المحايد السلبي):

■ **لغةً**: المرض: «الوهن. والقلب المريض من العداوة والنفاق»[(١)]. و«المرض هو ما يخرج به الإنسان عن حدِّ الصحة في أيّ شيء كان. والنفاق مرض في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]»[(٢)]. و«المرض: الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وذلك ضربان: الأول مرض جسمي، والثاني عبارة عن الرذائل كالجهل والجبن والبخل والنفاق وغيرها من الرذائل الخُلُقية، نحو قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. ويُشبَّه النفاق والكفر ونحوها من الرذائل بالمرض إما لكونها مانعة عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التصرُّف الكامل، وإما لكونها مانعة من تحصيل الحياة الأُخروية، وإما لمَيل الناس بها إلى الاعتقادات الرديئة مَيل البدن المريض إلى الأشياء المضرَّة»[(٣)].

■ **اصطلاحًا**: يتبيَّن ممَّا سبق أنَّ أمراض القلب هي: الرذائل الخُلُقية المانعة عن إدراك الفضائل والمائلة بالإنسان إلى الاعتقادات الرديئة.

■ **سيرةً**: هو مَن التزم انتماءً غالبًا في مجتمعه (كائنًا ما كان) عن غفلة بسبب التقليد أو عن اضطرار للمكر والتبييت، وسعى في الحالتَين لتحقيق رغباته في الحياة الدنيا فقط. ورغم أنَّه جاءته البيِّنات ودلائل الفطرة والحقّ (التي تُجيب بشكل منطقي ومنسجم على أسئلة قضايا الحياة الكبرى)، وواكب تطوُّرات الأحداث بين المؤمن والكافر، لكنَّه تغافل في الغالب حتى عن تحديد موقف - واعٍ مع نفسه - من الدعوة تقتضيه المبادئ الإنسانية عقلاً وقلبًا. وهذا المحايد يتراوح دوره بين السلبية في عدم اتِّخاذ موقف أو ربط موقفه بموقف كبراء المجتمع، وبين الإيجابية في نصرة قضية إنسانية (من جانب اجتماعي بحت).

---

(١) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف الضاد، باب الضاد والراء والميم معهما، ٧: ٤٠، بتصرُّف.

(٢) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الميم، باب الميم والراء وما يثلثهما، ٥: ٣١١، بتصرُّف.

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الميم، ص٧٦٥، بتصرُّف.

■ **تعدديةً**: يُمثِّل مريض القلب مَن يتصادَم مع ضوابط التعددية الثقافية، سواء أكان جماعة كبرى في مجتمع وثني، أم مجموعة في مجتمع سلطته تنضبط بالإسلام، وسواء أكان ممَّن يُعلِن إسلامه، أم من غير المسلمين.

□ أهل الكتاب:

■ **لغةً**: «الكتاب: اسم للصحيفة مع المكتوب فيها. وحين ذكر الله أهل الكتاب فإنَّما أراد بالكتاب التوراة والإنجيل أو إياهما جميعًا»[(١)].

■ **اصطلاحًا**: هم «الخارجون عن الملة الحنيفية، والشريعة الإسلامية، ممَّن يقول بشريعة وأحكام، وحدود وأعلام. وهم قد انقسموا إلى مَن له كتاب مُحقَّق مثل: التوراة والإنجيل، وعن هذا يُخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب، وإلى مَن له شبهة كتاب مثل: المجوس والمانوية، ولهذا يجوز عقد العهد معهم، وينحى بهم نحو اليهود والنصارى إلا في بعض الأحكام. ويُمثِّل أهل الكتاب مع الأُمِّيِّين قبل بعثة النبي ﷺ فرقتَين متقابلتَين»[(٢)].

■ **سيرةً**: هو القريب والحليف الطبيعي في قضايا الحقّ والإنسان وأصول من الرسالات السماوية (كالاعتراف بوجود الوحي، والإيمان بالله الواحد، وبشرية الرسل، ونفي عبادة الأصنام).

■ **تعدديةً**: يُمثِّل الكتابي الآخَر في التعددية العَقَدية، كما يُمثِّل اليهود في المدينة إضافة إلى ذلك الآخَر في التعددية العرقية.

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الكاف، ص٧٠١، بتصرُّف.

(٢) الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، **الملل والنِّحل**، ٢: ١٣، بتصرُّف.

❑ **المنافق:**

■ **لغةً**: «النفق: أصل يدل على إخفاء الشيء وإغماضه. وصاحب النفاق يكتم خلاف ما يُظهر، فكأنَّ الإيمان يخرج منه أو يخرج هو من الإيمان في خفاء، والأصل فيها: الخروج»[١].

■ **اصطلاحًا**: «الخارج من الشرع»[٢].

■ **سيرةً**: هو الذي يبرز في النصف الثاني من السيرة النبوية (أي: منذ قُبَيل الهجرة إلى المدينة)، ممَّن أعلن الإيمان بلسانه دون تحمُّل تبعات هذا الإيمان من صبر إيماني ونفسي على الاضطهاد (فيُريد تحصيل المغانم دون المغارم). أما في المدينة (المجتمع الواحد مع المؤمنين) فيُظهر الالتزام ويُخفي غيره.

■ **تعدديةً**: يُمثِّل المنافق مَن يتعمَّد التصادم مع ضوابط التعددية الثقافية والسياسية ممَّن يُعلِن إسلامه، سواء أكان مجموعة صغرى في مجتمع وثني أم مجموعة في مجتمع سلطته تنضبط بالإسلام، وسواء أكان قبل إظهاره للإسلام من مشركي المدينة أو الأعراب أم من أهل الكتاب.

❑ **المرتدّ:**

■ **لغةً**: «الردة: الرجوع في الطريق الذي جاء منه، وتختصّ بالكفر»[٣]، وهي «الارتداد عن الدين»[٤]، وهو مرتد؛ لأنَّه «ردَّ نفسه إلى كفره»[٥].

■ **اصطلاحًا**: «الخروج عن الإسلام بإتيان ما يُخرج عنه قولاً أو اعتقادًا أو فعلاً»[٦].

---

(١) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب النون، باب النون والفاء وما يثلثهما، ٥: ٤٥٥، بتصرُّف.

(٢) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب النون، ص٨١٩، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، كتاب الراء، ص٣٤٩، بتصرُّف.

(٤) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف الدال، باب الدال والراء والميم معهما، ٨: ٧.

(٥) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الراء، باب الراء وما معها، ٢: ٣٨٦.

(٦) محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي، **معجم لغة الفقهاء**، حرف الراء، ص٢٢١.

■ **سيرةً**: هو مَن أسلم، ثمَّ خرج من الإسلام وعاد إلى دينه علانية. وقد حدثت بشكل فردي في مكة والمدينة، ولكنَّها تحوَّلت إلى ظاهرة جماعية قُبَيل وفاة رسول الله ﷺ، وقد كان على العهد الراشدي في بداياته التعامل معها.

■ **تعدديةً**: يُمثِّل المرتدّ خروجًا عَقَديًّا من الـ «أنا»، وقد يتلازم مع خروج سياسيٍّ وعسكريٍّ عليه.

□ **المارِق**:

■ **لغةً**: «المروق: الخروج من الشيء من غير مدخله»[١]، و«مرق: خروج شيء من شيء. ومرق السَّهم من الرَّميَّة: نفذ»[٢]. و«مروق السَّهم: سرعة خروجه»[٣].

■ **اصطلاحًا**: «مرق: في حديث الخوارج: «يمرقون من الدِّين مروق السهم من الرَّمِيَّة»، أي: يجوزونه ويخرقونه ويتعدَّونه، كما يخرق السهم الشيء المرمي به ويخرج منه»[٤]. واصطُلِح على كونه «كلّ مَن خرج على الإمام الحقّ الذي اتفقت الجماعة عليه»[٥].

■ **سيرةً**: هو مَن يُشارك المسلمين في عموم متبنَّياتهم الدينية/ الفكريَّة، مع احتفاظه بهامش أولويَّات قيميَّة مغايرة تجعله يظهر في ثوب المُعارضة غير المنضبطة بأُطُر العلم

---

(١) الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف القاف، باب القاف والراء والميم معهما، ٥: ١٦٠.

(٢) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الميم، باب الميم والراء وما يثلثهما، ٥: ٣١٣.

(٣) الحربي إبراهيم بن إسحاق، **غريب الحديث ـ المجلدة الخامسة**، الحديث الثامن عشر، باب مرق، ٢: ٣٨١.

(٤) ابن الأثير المبارك بن محمد، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، حرف الميم، باب الميم مع الراء، ٤: ٣٢٠.

(٥) الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، **الملل والنِّحل**، ١: ١١٤، بتصرُّف.

والأدب والاحترام، ولو كانت معارضته موجَّهة إلى النبيّ ﷺ. وقد ظهرت ملامح هذه الظاهرة عند تقسيم غنائم غزوتَي حُنَين والطائف عام (٦٣٠م / ٠٨هـ)[١]، التي تمَّ فيها أفول نجم الكفر بكسر شوكة القوى الثانية[٢] (بطون هوازن وثقيف ومَن معهم) على مستوى الجزيرة العربية بعد قريش في هاتَين الغزوتَين. وقد وصفه النبي ﷺ قائلاً: «إنَّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يُجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السَّهم من الرَّمِيَّة»[٣]، وذلك كناية عن عدم فقه القلب أو انتفاعهم بالدِّين. فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنَّه كان يأمر أصحابه عند التعامل مع المسلم الجديد بقوله: «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرؤه، وعلِّموه القرآن. . .»[٤]. لكنَّ هذا النَّوع عمومًا هو الذي ـ بعدم فقهه في دينه ـ يمرق من الدين[٥] ليُنهك الخلفاء والصحابة عند إدارة شؤون الأمة الإسلامية ومناقشة مسائلها، خاصَّة في عهود الخلفاء الراشدين عثمان وعليّ رضي الله عنهما.

■ **تعدديةٌ**: يُمثِّل المارق خروجًا سياسيًّا من الـ «أنا» باسم الـ «أنا» على الـ «أنا»، وقد يتلازم مع استخدام العنف العسكري ضدَّه.

---

(١) «سُمِّيَت السنة الثامنة: سنة الاستواء». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. ومحمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية**، ١: ٤٠، بتصرُّف.

(٢) وهذا الكسر لشوكة «المخالف» يتمايز عن ضمورهم الذي تحقَّق بعد انكسار المرتدِّين منهم في حروب الرِّدَّة التي تمَّت بعد وفاة النبي ﷺ في عهد الخليفة الراشد الأول أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٢: ٧٤٠، ح: ١٠٦٣.

(٤) الطبري محمد بن جرير، **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار**، ٣: ٢٣.

(٥) وحول هذا المروق من الدين قال الصحابي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه والي البصرة ثمَّ الكوفة (حيث ستظهر بذور للفتن بعد النبوة وتبدأ تحرُّكها بين عامَي ٦٥٤ ـ ٦٥٥م / ٣٤ ـ ٣٥هـ): «مَن علَّمه الله علمًا فليُعلِّمه، ولا يقولنَّ ما ليس له به علم، فيكون من المتكلِّفين، ويمرق من الدين». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٤: ١٠٩ ـ ١١٠.

ثانيًا: تفسير حركة التاريخ إسلاميًّا من قصة آدم عليه السلام ومقاربتها مع «السنة»:

باعتبار كون أحداث السيرة النبوية هي عماد البحث، كان لا بدَّ من دراسة المحرِّك المركزي في أحداث التاريخ، وفق المنهج الإسلامي ورؤيته الخاصة للتاريخ. وهذا هو المقصود بتفسير حركة التاريخ[١]. فهو الطريق إلى فهم الغاية من تسلسل الأحداث، وتقييم التجارب التاريخية بحسب قُرب أو بُعد الدوافع والأساليب والأهداف من هذه الغاية. وهذا الأمر يُحتِّم العودة إلى الوحي الإلهي في الإسلام بتحليل النصوص القرآنية التي وردت حول قصة بداية التاريخ لاستنباط جذور هذه الفلسفة في الإسلام.

يُمكن تصوُّر أبعاد تفسير حركة التاريخ في الإسلام في خمس نقاط: ماهية خلافة الإنسان، وامتحانات التميز، ودور الشيطان، وامتحانات الاختيار، وكيفية النجاة، على أن يتبعها بند في المقاربة مع «السنة».

---

(١) اخترت عبارة «تفسير حركة التاريخ» بدل مصطلح «فلسفة التاريخ» لأنَّني أرصدها من الآيات القرآنية، وليس من نظريات فلسفية. أما فلسفة التاريخ، فهي «فرع من فروع الدراسات الإنسانية التي تسعى إلى فهم التاريخ ودراسته على وفق مناهج العقل والعلم، عبر البحث في الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية لاكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثِّر في سَير الوقائع التاريخية، وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مرّ القرون. وبذلك يتمّ فهم سَير التاريخ ككل، ويتبيَّن بالتالي أنَّه وحدة وخطة كلية بالرغم من التفكك والانحرافات الظاهرة، وبفهم تلك الخطة يُمكن إلقاء الضوء على تفاصيل سَير الوقائع. ويُحاول فلاسفة التاريخ غالبًا تفسير التاريخ استنادًا إلى علة أساسية واحدة باعتبارها المحرِّك المركزي لأحداث التاريخ، لكنَّهم يختلفون فيما بينهم في تحديد هذه العلة بحسب اختلاف الفلسفات التي ينطلقون منها لدراسة التاريخ وتفسيره». د. هاشم الملاح، **المفصَّل في فلسفة التاريخ دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية**، ص٤ ـ ٨، بتصرُّف.

١. الإنسان.. خليفة:

وردت قصة آدم عليه السلام في بداية القرآن الكريم (بالترتيب الحالي المجمع عليه والمتعبَّد بتلاوته) بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. إنَّ هذا الإعلان الإلهي للملائكة يُشكِّل بيت القصيد. فكلمة ﴿خَلِيفَةً ۖ﴾ المميَّزة في القرآن تصف مشروع الإنسان في الأرض (المكان الذي سيعمل فيه). ومهما حمَّلنا هذه الكلمة من أبعاد حضارية أو استثنَيناها، فإنَّها تختزن مسؤولية (أمانة) يتحمَّلها الإنسان على صعيدَي الفرد والمجتمع.

إنَّ كلمات: خليفة، خلائف، خلفاء، مستخلَفين. . .، الواردة في القرآن تعني: «أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه»[1]، أي: عوضًا عنه. ومن أجل استنباط معنًى أدقّ لهذه الكلمة، يجب دراسة ردَّة فعل مَن سمعها لأول مرَّة من الملائكة إذ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ أي: الأرض ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾. فالملائكة حين أعلمها الله عز وجل بخلق آدم عليه السلام ـ وذريَّته ضمنًا ـ أدركت من كلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ نتيجتَين محتملتَين:

- الخروج عن حدِّ الاعتدال والصَّلاح، وهو المعبَّر عنه بالإفساد.
- الاعتداء ـ الناتج عن هذا الخروج ـ من المفسدين، وهو المعبَّر عنه بسفك الدماء.

ووضع الملائكة ذلك كلّه مقابل اتِّصافهم بـ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾.

وبالمقارنة تلك بين الإنسان والملائكة، يتبيَّن أنَّ من مخلوقات الله مَن يخضع لله بأصل الخلقة والإيجاد كما الملائكة الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولكنَّ الله تعالى أراد أن يختصَّ خلقًا يخضعون له بالتَّسليم بمحض الأمر الإلهي والتكليف، يستأمنهم على تنفيذ أمره دون جبر منه عليهم[2]. وهذه هي الأمانة ـ بقابلية اختيار التسليم أو

(١) ابن زكريا أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الخاء، باب الخاء واللام وما يثلثهما، ٢: ٢١٠.

(٢) «الخلق نوعان: عباد الله ذهبوا لله إيماناً ومحبة وطاعة، والنوع الثاني هم العبيد الذي يقهرون =

عدمه، والطاعة أو المعصية، والالتزام أو الانفلات ـ هي التي عرضها الله عز وجل على السماوات والأرض والجبال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وهكذا، بعد أن أشفقت المخلوقات السابقة ـ هَمًّا وخوفًا ـ من تحمُّل هذه المسؤولية لعِظمها، حَمَلها الإنسان.

إذن، الخلافة في قصَّتنا تلك تعني: تكليف من الله في توجيه الإرادة لتنفيذ الأوامر الإلهية. وهذا هو المعنى الوسطي للخلافة الذي يجمع الكثير من تعاريفها المختلفة. وهنا، تتبيَّن لنا الغاية من خلق الإنسان، والتي تتمثَّل أيضًا وبوضوح في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. لأنَّ العبادة في جوهرها هي طاعة الله بتوجيه إرادة العابد لاتِّباع مراد الله (أمرًا ونهيًا) والانقياد له (قلبًا وقالبًا) وتقديمه على مراد العابد. إذًا، إنَّها أمانة حرية ومسؤولية في آنٍ واحد.

٢. تعليم ثمَّ امتحان للتمييز وحوار قبل صدور الحكم بالعدل:

بعد أن علَّم الله تعالى آدم عليه السلام الأسماء كلَّها للتمييز فيما بينها (الذي يُمكن تعديته أيضًا إلى التمييز بين الخير والشّرّ، والهدى والضلال، والحقّ والباطل) كشرط عقلي لتحقيق مهمة الخلافة، صدر الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام بعد أن كانوا قد قارنوا طاعتهم بما يُحتَمَل من معاصي آدم، وبعد أن ترجَّحت الكفَّة لصالح آدم عليه السلام بالعلم. ذلك أنَّ إعلام الله الملائكة ﴿جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، سينتج عنه تكليفهم

= لقاهرية سيدهم، وكان الله قادرًا على أن يخلق خلقًا لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يأمرهم به الله، وقد فعل ذلك مع الملائكة. لكنَّ قدرة القهر تثبت لله صفة القهار على المقهور ولا تثبت صفة المحبة التي تأتي من كون المخلوق مختارًا أن يؤمن أو أن يكفر، ثم يختار الإيمان. إنه بذلك آمن بالمحبة لا بالقهر. وهكذا يريد الله خلقه المؤمنين به. مع الإشارة إلى أنَّ تكليف الله للإنسان لا يتمّ إلا بوجود ثلاثة شروط: العقل، والرشد، والحرية». **تفسير الشعراوي**، سورة المائدة، الآية: ١١٨، ٦: ٣٤٧٧ ـ ٣٤٧٨، بتصرُّف.

بإدارة أمور تختصّ به وذريَّته في عيشهم على الأرض وفق قدر الله (فمنهم الموكل بإنزال الوحي، ومنهم بكتابة الحسنات والسيئات، ومنهم بقبض الروح. . . ،).

ولكن، لم تنتهِ المسألة عند هذا الحدّ بالسجود لآدم. فتُطالعنا الآيات بوجود مخلوق مع الملائكة يُسمّى إبليس، يوصَف في كتاب الله بالامتناع الشديد ـ عن تنفيذ أمر الله بالسجود لآدم ـ واستكباره وكونه من الجنّ[١]. لقد قدَّم مراد نفسه على مراد الله عز وجل.

وهنا، تتبيَّن معانٍ من قول الله للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فلقد علم الله أنَّ هناك مع الملائكة مَن ظاهره الطاعة دون أن يكون في باطنه إسلام الأمر لله بإخلاص. وهذا الموقف يُمثِّل تجربة، على آدم أن يستفيد منها.

ولكنَّ الله عز وجل ـ خالقنا الذي يعلم ما لا نعلم ـ لم يُعاقب إبليس مباشرة. بل حاوره وسأله عن سبب امتناعه عن السجود، وترك له حرية الجواب قبل الجزاء، كما ترك له حرية طاعة الأوامر أو مخالفتها، على أن يُثاب أو يُعاقب على ذلك، وكل ذلك من قَدَر الله تعالى الذي يُحاسبنا على ما يصدر منَّا وليس على ما يعلَمه عنَّا[٢]. أما إبليس، فكان جوابه بادِّعاء الخيرية فيه لأصل خَلقِه من عنصر ناريّ، ومُستكبرًا على عنصر آدم الترابي (مع أنَّ التراب بناء وإنماء، والنار هدم وإفناء!)، وبرَّر ذلك بأجوبة حاول أن يُلبسها ثوب المنطق. ولم يلتفت إلى أنَّ أصل المخلوق (كما قوميَّته وعنصريَّته) ليس هو الذي يُحدِّد عند الله كرامته وقدره.

---

(١) هو مخلوق من عالم الجن كما تمَّ التصريح في [الكهف: ٥٠]، وهو يشترك مع عالم الإنس في مسؤولية التكليف والاختيار، وهذا يُفسِّر لنا قابليَّته للطاعة والمعصية. ويظهر أنَّه كان طائعًا لله باختياره، فلهذا كان مكانه مع الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، وبالتالي فقد كان مأمورًا بالسجود وداخلاً تحت الأمر الإلهي، بل كان يعلم أنَّ الأمر طاله، لكنَّه تمرَّد عليه.

(٢) إنَّ المتأمِّل لآيات خطاب الله لإبليس في سُوَر «الأعراف والحِجر والإسراء وص» يجد بُعدًا حواريًّا في المسؤولية والجزاء.

وهنا، جاءت ساعة الجزاء، وصدرت على إبليس عقوبة رسوبه في امتحان الطاعة بتقديم مراد الله ـ كائنًا ما كان ـ على مراده، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، بسبب هذا التمرُّد، لأنَّ مطلق الإيمان بوجود الله لا يكفي دون تسليم له، فكان جزاؤه الهبوط، هبوطَ مكانة لكلِّ مستعلٍ يظنُّ أنَّ قوتَّه ذاتيه لا منحة من الله، والخروج من رحمة الله (التي لم يعد يتأهَّل لتحصيلها) ومن جَمْع الملائكة الساجدين؛ لأنَّه تمايز عنهم فلم يعد تجمعه معهم طاعة.

٣ ـ حكمة الله.. ومخطَّط إبليس الانتقامي:

هكذا بدأت الأحداث مع إبليس الذي أصبح شيطانًا مُبعَدًا غاضبًا، يسعى بالعداوة والبغضاء للإنس، فوضع مُخطَّطًا انتقاميًا من آدم (يمتدّ إلى ذريَّته). فقال لله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]. وهذا الإغواء ـ الذي يُمثِّل جهل إبليس مع اعتقاده الفاسد[(١)] ـ هو الدافع الذي يُحرِّكه لإغواء النَّاس كما غوى، عبر الترصُّد لآدم وذريَّته على الطريق السويّ للإيمان وممارسته، الذي على الإنسان أن يسير عليه ليُحقِّق العبودية لله، والذي يضبط (بشريعته) كلَّ تصرُّفات الإنسان عند الالتزام به (أي: الإسلام له) لتحقيق رضوان الله تعالى والسعادة في الدنيا والآخرة[(٢)]. وبهذا المخطَّط يُريد إبليس من آدم

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الغين، ص٦٢٠.

(٢) إنَّ انتقام إبليس احتاج إلى وقت ومخطَّط. أما الوقت فطلبه من الله داعيًا أن يُمهله فلا يحين أجله حتى يُنفِّذ مخطَّطه. لذلك، استجاب الله دعوة إبليس ولكن إلى يوم معلوم (قبل يوم الدين حيث الجزاء للجميع). وأما المخطَّط، فقد أورده الله عز وجل في كتابه لتنبيهنا وتحذيرنا منه، ويُختصر بالترصُّد على الصراط المستقيم لثني آدم وذريَّته عن اتِّباع الطريق المؤدِّي لكل نجاة، وذلك بالاستيلاء على الإنسان لينقاد له ويتَّبعه، كما في قوله ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. المصدر نفسه، كتاب الحاء، ص٢٦١، بتصرُّف. وهذا الاستيلاء يكون عبر ما ورد في الآية (٦٤) من السورة نفسها: الاستفزاز (الإخافة والإزعاج لمَن يستخفّ به). والجلب (إتيان الإنسان بكل الوسائل الممكنة للكيد به)، والمشاركة في الأموال والأولاد (بعدم إحسان الاستخدام والتربية، وإطلاق الرغبات الشهوانية فيها)، والتغرير بالوعود (بالدعوة إلى المعصية، والتنفير عن الطاعة).

(وذريَّته) الرسوب في امتحان تحقيق غاية العبودية لله تعالى التي خُلِق لأجلها، وهو الخسران المبين للإنسان في الدنيا والآخرة. وكما كان خَلقُ آدم امتحانًا للملائكة ولإبليس من الجنّ ليتمّ التمايز بين الطائع والعاصي، وبعدما نال آدم من تعليم وتكريم، بل واطّلاع على تجارب في الطاعة والمعصية وجزائها، كان هذا الحدث إيذانًا بموعد امتحان آدم لتتحقّق حكمة الله من خلقه بحرية الاختيار واستعدادات للخير والشّرّ مع هبة العقل المميِّز بينهما.

ومع انَّ إبليس يعتمد في مخطَّطه على غفلة الإنسان، وعلى إلهائه عن شكر الله على نعمه بقوله لله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، الأمر الذي يؤدِّي بهم إلى الطغيان الناتج عن الشعور بالاستغناء عن الله، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]، لكن، يبقى من عباد الله مخلَصين، لا يستطيع إبليس أن يؤثِّر فيهم. وهذه الخالصة من الشوائب تمحورت لدى كبار الأنبياء حول: ذكرى الدار الآخرة بِحَمل همِّها والاستعداد لها والزهد في الدنيا، كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦ ـ ٤٧]. وهذه هي عوامل الدافع الإنساني ـ مقابل دافع الإغواء الشيطاني ـ الذي على آدم (وذريته) الاعتصام به للنجاة: من إخلاص الإيمان بالله وليّ النِّعم، وافتقارنا المطلق إليه بداية، إلى العمل للآخرة بإخلاص نهاية.

٤ ـ امتحان آدم: الاختيار بين الإسلام لله والدوافع الشخصية:

امتحن الله آدم بعد أن أسكنه وزوجه الجنة [كما في آيات الأعراف: ١٩]، ليكون الامتحان فيها، وليس في الأرض التي جعله الله فيها خليفة حيث ستبدأ أحداث التاريخ كنتيجة لأفعال الإنسان الحُرّ. وهذا الإسكان هو اختبار مؤقَّت لعزيمة آدم في الوفاء بعهد الله. وذلك عبر امتحان يرتبط به الإخراج من الجنة، وهو: عهد الله إلى آدم أن يلتزم أمره فلا يقرب شجرة محدَّدة في الجنة (فالامتناع عن الأكل منها يكون أولى). وأعلم الله سبحانه آدم أنَّ المخالفة لأوامره بالمعصية عاقبتها ظلم المُخالف لنفسه [البقرة: ٣٥، والأعراف: ١٩]، لأنَّ المعصية تجاوزٌ لحدود الله ـ يرتبط بها عقاب ـ بعد كلِّ ما أعطاه الله لآدم دون مقابل، فتكون معصية الإنسان لله ظلمًا من الإنسان لنفسه.

ورغم المقوِّمات التي توافرت لآدم في الجنة بعد الزوجة، من عدم الجوع والعري والظمأ والضحوة (صيانة من الحَرّ) [طه: ١١٨ ـ ١١٩]، والتحذير الإلهي لآدم من إبليس بقوله له: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، بأن يكون إبليس سببًا في الإخراج، فيُكابد آدم مشقّات الدنيا التي أُريح منها في الجنة، فإنَّ آدم قد عصى ربَّه.

توجَّه إبليس إلى آدم وزوجه بآليات تمهيدية خفيّة (الوسوسة) لإلقاء المعاني في النفس الإنسانية، تُشعِر الإنسان عند خضوعه لوسوسة الشيطان أنَّها من أفكاره هو، وذلك أدعى للاستجابة لها. كما قام بتغيير المعاني التي تُمثِّلها الشجرة لهما، بتزيين الأمر وتحسينه وتحبيبه إلى الإنسان (التسويل[1])، وربط ذلك بدافع بشري في النفس الإنسانية ـ حبّ البقاء والتملُّك ـ ليوقعهما في الغفلة عن إسلامهما التامّ لله من خلال وفائهما بعهده، مُلبسًا هدفه ـ بإخراجهما من الجنة ـ لباس تحقيق تلك الدوافع، وأعطى الشجرة معانٍ جديدة ـ بعيدة عن المعصية ـ لم تكن في خاطر آدم وزوجه، واستخدم أساليب التشويق [طه: ١٢٠]، وزعزعة الثقة بأوامر الله [الأعراف: ٢٠]، وحَلَف مؤكِّدًا نصحه لهما [الأعراف: ٢١]، حتى نسِيَ آدم عَهد الله إليه؛ لأنَّ الإنسان لا يُمكن أن يجمع في قلبه بين إسلام الأمر لله بإخلاص والدوافع الشخصية (الأنانية)، فترك العمل مع زوجه بوصيَّة الله، واستجابت إرادتهما للإغراءات، وتتابعت خطواتهما من غير قصد (وهذا معنى الزلّة) في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦]، إلى أن وصلا إلى الشجرة، وتذوَّقا منها لاستكشافها، فلم تعد هناك حدود يتوقَّفان عندها فأكلا[2].

وعندها ظهرت آثار معصية الله عليهما، ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١] بظهور

---

(١) ويُستفاد من معنى اللام في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]، أي: لأجل العاقبة الحسنة لهما ومصالحهما الشخصية.

(٢) يُنظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر**، سورة الأعراف، ٤: ١٣٤ ـ ١٤٢، بتصرُّف.

عوراتهما. فأدرك آدم وزوجه ضعفهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢، وطه: ١٢١]، لستر ما ظهر منهما، لأنَّ المعصية تتناقض مع الفطرة التي أوجدها الله في آدم وذريَّته[١].

وهنا، جاء النداء الإلهي بسؤال العتاب لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ليدلّ على أنَّه يكفي لالتزام الإنسان بالأمر الإلهي أن يصل الحُكم إليه (معرفة الشريعة)، وأن يصل إليه التحذير من الشيطان (معرفة العدو الذي يصدُّه عن التنفيذ ويجرُّه إلى المخالفة). فاعترف آدم وزوجه قائلَين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، راجين من الله الاستجابة لهما.

وصدر الحكم بالهبوط، لكنَّه ليس هبوطًا كهبوط إبليس حين أبى واستكبر. فآدم وزوجه اعترفا بضعفهما وبأنَّ أمر الله سبحانه وتعالى حريٌّ بالتنفيذ. أما إبليس فقد كانت معصيته رفضًا للأمر الإلهي، ولذا استحقَّ الإبعاد والطرد. وكما كان هذا الإخراج من الجنة نتيجة المعصية والافتتان بالشيطان، كان مناسبة ليبدأ آدم مهمَّة الخلافة في الأرض، بعد أن خاض التجربة البشرية الأولى في التعامل مع أوامر الله (حُكم التحريم)، والمحافظة على عهده، والتعرُّض للوسوسة، واقتراف المعصية، ثمَّ التوبة منها، فظهر أنَّ الخطيئة والتوبة فرديَّتان، وأنَّ الله تواب رحيم إذ قال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]. فكان الخلاص من الذنب بالتوبة، وقَبول الله لها.

٥. الحماية والنجاة بمنهاج الهدى والصراط المستقيم:

إنَّ هذا التدريب الذي تلقَّاه آدم أعطاه خبرات في التعرُّض للغواية والعقوبة والندم، كما عرَّفه بضعفه تجاه دوافعه الداخلية وعند البُعد عن منهج الله بالاستسلام للهوى والعدوّ. فكان لا بدَّ للعقل والفطرة من هدى (دليل) يدلُّ على منهج الله وصراطه المستقيم، فينجبر

(١) وقد يُرى أنَّ في إظهار العورة دلالة على وجود التناسل الذي يُحقِّق خلودًا معنويًّا للإنسان عبر نسله. فكأنَّ الجزاء بظهور العورة كان من جنس العمل بالأكل من الشجرة لتحقيق الخلود.

ضعف المعصية بالطاعة وضعف الغواية بسبيل الرشاد القويم، ويتمّ حفظ الفطرة وتقويمها وتجنُّب خرقها أو اختلالها، وذلك عبر قِيَم وقواعد ومقاصد المنهج الإلهي.

وهنا، اصطفى الله عز وجل آدم ليكون أول حاملٍ لرسالة بالمنهج الإلهي لأول مجموعة بشرية من ذريته، و﴿ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وقال له: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩]، وقال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤]. وهذه القاعدة الكلية للمنهج الإلهي.

إنَّه بتلك التجربة في الجنة تحوَّل مفهوم الأرض بالنسبة إلى آدم إلى مسرح مؤقَّت للامتحان، ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]. وهذا المسرح فيه مكابدة ومشقّة لم يكن يشعر بها في الجنة، أي: الجوع، والعري، والظمأ، والضحاء (التعرُّض لحرّ الشمس). وأصبحت الجنة دار جزاء لمَن يجتاز هذا الامتحان، وهذا هو الخلود الحقيقي الذي أراده آدم أوَّل مرة. كذلك، ستكون هناك عداوات متبادلة بين مجموعات من البشر أنفسهم في الأرض بسبب تكوين الإنسان بحرية في الإرادة حيث تختلف المصالح والأهواء وتتعارض بين إنسان وآخر. وهذا ما يُفسِّر قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦، والأعراف: ٢٤]. وهذا ما نشهده في التاريخ من صراعات وحروب.

لكنَّ الآيات تُشير إلى أنَّ منهاج الهدى الذي سيُنزله الله على الأنبياء سيكون عاصمًا من الضلال والشقاء، وحاميًا من مخاوف الآخرة وأحزان الدنيا جزاء الاتِّباع له. كما سيكون جزاء الإعراض عنه سبب ضيق العيش في الدنيا (ماديًّا أو نفسيًّا. . .) وعمى الحشر يوم القيامة وخلود عذاب النار. لأنَّ الالتزام بهذا المنهج هو المطلوب لاجتياز امتحانات الدنيا التي ما كانت تجربة آدم إلا نموذجًا عنها.

والآن، وبعد العرض القرآني الذي ظهرت فيه مجريات الأحداث التاريخية الأولى مع آدم باختياراته الحرّة، أصبحت أبعاد تلك القصة واضحة لكل إنسان ليستخلص العبر منها عند البحث في مغزاها. فهكذا نحن ننظر إلى الدنيا وأحداثها، ومن هذا المنطلق نفهمها ونتفهَّم دور الرسالات السماوية في تقويمها وإعادتها إلى المنهج الإلهي. وكل إنسان فينا هو آدم آخر، تحدث معه ارتقاءات ثمَّ امتحانات، يتمايز فيها كل إنسان في اختياراته بين الطيبة والخبث، فالطيب ـ وإن زلَّ ـ والخبيث مهما طغى واستكبر، فإنَّ الاعتصام بمنهاج الهدى كفيل بتحقيق العدل في الحكم بينهما إذا التزم به الطيب.

وهذه هي حركة التاريخ: امتحان لكل إنسان للاختيار بين الإسلام لله أو دوافع أُخرى شخصية، وينتج عن ذلك انقسام الناس بين الهدى والضلال، فيتمّ التمييز ـ شيئًا فشيئًا ـ بين الخبيث والطيب، وهنا تتحقَّق سنة الله عز وجل العادلة في القضاء بالحقّ وخسارة المبطلين. وهذا ما ظهر في قَصص الأنبياء مع أقوامهم في القرآن.

وهكذا كانت نشأة الأجيال في علاقتها بالصراط المستقيم، وتفاعلها مع دعوة الرسل وتأثيرهم على المجتمع.

٦ ـ مقاربات بين تفسير حركة التاريخ والسُّـنَّة:

إنَّه بمقاربة تفسير حركة التاريخ مع السنة، من حيث الدلالة والوضعية ومسار الحركة سيتبيَّن التقاطع بينهما.

أما من حيث الدلالة، فالسنة هي: النظام النموذجي الأصلي (المتناسق والمتكامل والمطَّرد والثابت والعام) الذي أجرى الله عليه شؤون الكون والحياة والإنسان، وحَكَم وِفقه حركة الاستخلاف (العمران والحضارة والثقافة والتاريخ)، وأخضع له وجود الإنسان وصيرورته في عالم الشهادة الدنيوي. وذلك من أجل تمكين الإنسان ليُحقِّق أعلى مراتب الفقه البصير بالسنن والتسخير الرشيد لها فرديًا وجماعيًا، ويُحقِّق أقصى مستويات الترقِّي في الاستخلاف عبودية لله وعمرانًا للكون وإنقاذًا للخَلق وشهودًا حضاريًا على الأمم، ويحوز

بذلك أعلى مراتب الفوز بمقامات الفلاح في عالم الآخرة والبقاء. وحين تُنسب إلى الله تُقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته[١].

وتفسير حركة التاريخ هي: فهم التاريخ ودراسته على وفق مرجعية الإسلام، عبر البحث في الوقائع التاريخية لاكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثِّر في سَير الوقائع التاريخية، وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مرّ القرون. وبذلك يتمّ فهم سَير التاريخ ككلٍّ، ويتبيَّن بالتالي أنَّه وحدة وخطّة كلية بالرغم من التفكُّك والانحرافات الظاهرة، وبفهم تلك الخطة يُمكن إلقاء الضوء على تفاصيل سَير الوقائع[٢]. ودرس التاريخ يُمكِّن الإنسان من «أن يجد معنًى وهدفًا لحياته»[٣].

فالسنة هي النظام الذي يحكم حركة التاريخ (ضمن ظروف زمانية ومكانية مختلفة). وبذلك تكون علَّة مركزية لأحداثه عند تحديد مرجعية الإسلام منطلَقًا لدراسته وتفسيره.

وأما من حيث الوضعية، فإنَّ السنة ـ كما سيتَّضح عند عرض مفاصل السيرة النبوية ـ تُعتبر أيضًا نفاذًا للحكم في الوضعية الأخيرة من كل مرحلة. أما التاريخ فهو كامل المرحلة (نشوء وارتقاء وتدهور).

وأما من حيث مسار الحركة، فالسنة ليست حكمًا ضمن مرحلة واحدة ينتهي عندها التدافع ويُحكم بالقسط الشامل، بل هي حكم نهائي في مرحلة تنتقل بعدها إلى الحكم في مرحلة لاحقة لها (بعوامل مختلفة)، ثمَّ إلى مرحلة لاحقة أُخرى... حتى استكمالها. وقد استُكملت في السيرة في عشر مراحل.

---

(١) سبق التعريف بها في «مصطلحات ذات صلة بفرضية الأطروحة» من «دليل مصطلحات البحث» من «مدخل الدراسة» ص٩٢ وما بعدها.

(٢) سبق التعريف بها في «تفسير حركة التاريخ إسلاميًا» من «مدخل الدراسة» ص١١٣.

(٣) د. هاشم الملاح، **المفصَّل في فلسفة التاريخ**، ص٢٦٧، بتصرُّف.

ومسار حركة التاريخ هو مسار «دائري مفتوحة نهايته[١] (على شكل حلزون أو لولب) يتَّفق مع وجود تشابه في بعض أحداث التاريخ دون تطابق أو تكرار، مع وجود صعود وهبوط ضمن اتجاه عام تصاعدي من خلال دورات مفتوحة على بعضها. كلما استكملت دورة حضارية أدوارها انتقلت إلى دورة جديدة أكثر تطوُّرًا وتقدُّمًا من الدورة السابقة مع اختلاف في التفاصيل ومستويات الرقي والتقدُّم»[٢].

وبما سبق يتبيَّن الانسجام بين المسارَين؛ فالسنة[٣] هي حكم في نهاية كل دورة، قبل الانتقال إلى الدورة التي تليها، ولكن ضمن الحضارة نفسها. ويُعتبر مجموع السنن العشر ـ الواردة في السيرة كمفاصل ـ دورات كاملة ـ أي: بهبوط وصعود ـ كلما استكملت دورة انتقل المسار لاستكمال ما بعدها حتى تحقيق كامل الدورات. ويتحقَّق الحكم بالقسط فيها وتصل الدورة إلى قمَّتها عند عبور خيارات كل دورة بالإسلام لله تعالى. وهذا الإسلام لله يظهر في وصايا وإرشادات وأوامر القرآن والسنة التي طبَّقها الرسول ﷺ في سيرته. من هنا، كان ضمن بند منهجيَّة البحث تركيزًا على منهج فهم القرآن والسنة (الحديث) وترتيب سور القرآن بالتوازي مع السيرة، لتحقيق الفهم الأقرب للإسلام لله في كل مرحلة من المراحل العشر.

---

(١) وهذا أولى من مسارات أُخرى اقترحها الفلاسفة، كـ«تدهور حركة التاريخ بحُكم متشائم على مساره التنازلي، أو تقدُّمها بحُكم متفائل على مساره التصاعدي، وهما تقييمان نسبيَّان يتصلان بالوعي الإنساني تجاه وقائع التاريخ، أو التعاقب الدوري المغلق لتعارضها مع التقدم والتطور ولزوم وجود بداية ونهاية خاصة عند الديانات السماوية، أو المسارات المتعددة التي أفقرت الدراسة التاريخية من الهدف والنظام والقوانين» د. هاشم الملاح، **المفصَّل في فلسفة التاريخ**، ص٢٤١ ـ ٢٦٧، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٣، بتصرُّف.

(٣) يُلاحظ أنَّ أحد معاني الجذر الأصيل لـ«السنة» يُطابق معنى الدائرة أيضًا، فما «دار حول البئر والدابة هي السانية، والسنة هي دورة من دورات الشمس». الزبيدي محمد بن محمد، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ٣٨: ٣١٦، بتصرُّف.

هذا، وبعد ثلاث سنوات من العمل في إعداد هذه الدراسة وقبل استكمالها تبيَّن لي أنَّ الشكل الدائري ينبغي دراسته من ثلاثة أبعاد:

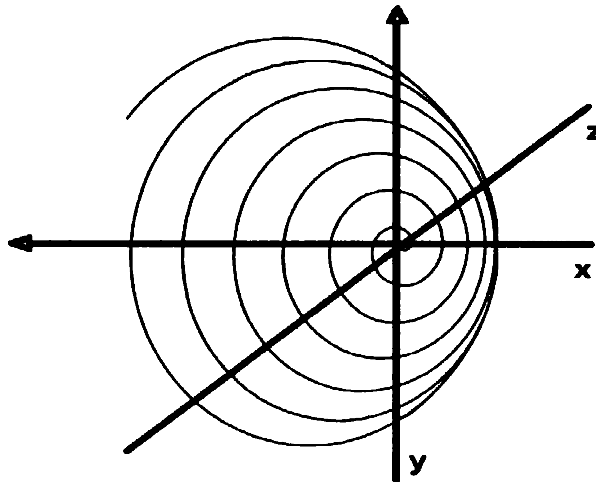
■ بُعد الزمن *(x)*: ويتَّضح فيه تتابع الأحداث عبر المراحل، ثمَّ أثرها في تمييز مكوِّنات المجتمع.

■ بُعد الحالة *(y)*: وهي مؤشِّر لحالة المسار الإصلاحي في واقعها (قوة/ ضعف، حركة/ جمود، نوعية/ كمية).

■ بُعد الفعل (z): وفيه المبادرة (الفعل الأول) ثمَّ ردود الفعل عليها (التحديات) ثمَّ الاستجابة (الفعل الثاني للتفاعل مع تلك التحديات).

وإنَّه باختيار المنهج الصحيح في رؤية التعددية المجتمعية وسياسات إدارتها (z) وفق المراحل المتناسبة *(x)* يتحقَّق التمييز القيمي في المجتمع عند اختلاف الموقف من الفعل الإصلاحي بأفضل المكاسب الإنسانية الجامعة وبأقلّ الخسائر، فتتعزَّز بالتالي حالة الإصلاح قوة وحركة ونوعية *(y)*.

من هنا، ستكون تلك الأبعاد أقسام جدول الاستنتاجات في نهاية كلِّ مبحث.



رسم توضيحي لحركة التاريخ بأبعادها الثلاثة

ثالثًا: دلالات السياق وأسباب النزول والورود:

١ ـ أنواع السياقات:

خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تَعرِف من معانيها. وكان ممَّا تعرف من معانيها: اتّساع لسانها، وأنَّ فِطرته أن يُخاطِب بالشيء منه عامًّا ظاهِرًا، يُراد به العام الظاهر، ويُستغنى بأوَّل هذا منه عن آخره[١]. وعامًّا ظاهرًا يُراد به العام ويَدخله الخاص[٢]، فيُستَدل على هذا ببعض ما خوطِب به فيه. وعامًّا ظاهرًا، يُراد به الخاص[٣]. وظاهرًا يُعرَف في سياقه أنَّه يُراد به غير ظاهره. فكلُّ هذا موجود عِلْمُه في أول الكلام، أو وَسَطه، أو آخره»[٤].

---

(١) مثال «قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، فهذا عام، لا خاصَّ فيه. فكل شيء، من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك: فالله خَلَقَه، وكل دابة فعلى الله رزقُها، ويَعْلم مُستقَرَّها ومُسْتَوْدعها». الشافعي محمد بن إدريس، **الرسالة**، ص٥٣، بتصرُّف.

(٢) مثال «قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [التوبة: ١٢٠]. فهنا أُرِيدَ به مَن أطاق الجهاد من الرجال، وليس لأحد منهم أن يرغب بنفسه عن نفس النبي ﷺ أطاق الجهاد، أو لم يُطِقْه؛ ففي هذه الآية الخصوص والعموم». المصدر نفسه، ص٥٤، بتصرُّف.

(٣) مثال «قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. فإذا كان مَن مع رسول الله ﷺ ناسًا، غيرَ مَن جمَعَ لهم من الناس، وكان المخبرون لهم ناسًا غيرَ مَن جمُع لهم، وغيرَ مَن معه ممن جمُع عليه معه، وكان الجامعون لهم ناسًا، فالدلالة بيِّنة مما وصفت من أنه إنما جمع لهم بعضُ الناس دون بعض». المصدر نفسه، ص٥٨، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٠.

➢ فهي أربعة أصناف، وغرضنا التركيز على الصنف الرابع منها «الذي يُبيِّن سياقه معناه»[١]، وهو أربعة أنواع:

أ ـ من حيث حدود الدلالة:

▪ السياق الجزئي: مجموع القرائن اللفظية المجاورة للكلمة موضع الإشكال، والتي تكشف عن المراد منها، فمجاله ينحصر في الآية الواحدة[٢].

▪ السياق الكلي: هو الترابط بين أجزاء النص بأكمله بما يشمل سورة بكاملها أو مجموعة آيات متعاقبة[٣].

---

(١) الشافعي، **الرسالة**، ص٦٢.

(٢) وهذا النوع هو الذي أورده الشافعي في باب «الصنف الذي يُبيِّن سياقه معناه»، وضرب مثال: «قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، فلمَّا قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ دلَّ على أنَّه أراد أهل القرية لأنَّ القرية لا تكون عادية ولا فاسقة بالعدوان في السبت». المصدر نفسه، ص٦٢. كما أوردها عدد من المفسِّرين والأصوليين: كالطبري والزمخشري والقرطبي وغيرهم في تفاسيرهم، والرازي والجويني وابن قدامة وغيرهم في كتبهم في أصول الفقه. سامي العجلان، **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية**، ص٣١ ـ ٣٤، بتصرُّف.

(٣) وهذا النوع أورده ابن قيّم الجوزية في كثير من كتاباته، وكذلك أورده أئمة في التفسير كالطبري وابن كثير والبقاعي. سامي العجلان، **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية**، ص٣٤ ـ ٣٦، بتصرُّف. فممَّا ذكره ابن القيّم مثلاً: «مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعَين، وتارة مثنَّيين، وتارة مفردَين؛ لاختصاص كلِّ محلٍّ بما يقتضيه من ذلك. فالأول كقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، والثاني كقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧ ـ ١٨]، والثالث كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. فتأمَّل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب موادّها، يُطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته وأنَّه تنزيل من حكيم حميد، فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها =

ب ـ من حيث العلاقات التركيبية بين أجزاء النص:

▪ السياق السابق (السِّباق): تدبُّر ما قبل الآية المُرادة باعتبار تقييد دلالتها بالعلاقة النصية الوثيقة التي تربطها بما قبلها. فيكون صرفًا للآية إلى معنى محتمل موافق لما قبلها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط[١].

▪ السياق اللاحق (اللحاق): تدبُّر ما بعد الآية المُرادة باعتبار تقييد دلالتها بالعلاقة

= في أيام السنة وهي متعدِّدة، وحيث أفردت كان المراد أفقَي المشرق والمغرب، وحيث ثنيا كان المراد مشرقَي صعودها وهبوطها ومغربَيهما فإنَّها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها فهذا مشرق صعودها وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء، فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقًا واحدًا ومشرق هبوطها بجملته مشرقًا واحدًا، ويُقابلها مغرباها، فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع. وأما وجه اختصاص كلِّ موضع بما وقع فيه فلم أرَ أحدًا تعرَّض له ولا فتح بابه، وهو بحمد الله بَيِّن من السياق، فتأمَّل وروده مثنى في سورة الرحمن لـمَّا كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات، فذكر أولاً نوعَي الإيجاد (الخلق والتعظيم)، ثم ذكر سراجَي العالم (الشمس والقمر)، ثم ذكر نوعَي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض (النجم والشجر)، ثم ذكر نوعَي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، ووسط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهى عن الظلم، وذكر نوعَي الخارج من الأرض (الحبوب والثمار)، ثم ذكر خلق نوعَي المكلَّفين (الإنسان والجان)، ثم ذكر نوعَي المشرقَين ونوعي المغربَين. . .». ابن قيّم الجوزية، **بدائع الفوائد**، ١: ١٢١، بتصرُّف.

(١) وهذا النوع بدأت تطبيقاته منذ الصدر الأول في عهد الصحابة والتابعين (فقد أشار ابن عباس رضي الله عنهما لمحدِّثه أن يقرأ الآية التي فوق قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] للدلالة على اختصاص النار بالكفار)، كما دخل هذا النَّوع في صُلب تعريف المفسِّرين للتأويل، وأورده النسفي والبقاعي وأبو السعود في تفاسيرهم. سامي العجلان، **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية**، ص٣٩ ـ ٤٤، بتصرُّف.

النصية الوثيقة التي تربطها بما بعدها. فيكون صرفًا للآية إلى معنى محتمل موافق لما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط[١].

ج ـ من حيث العلاقة بين النص ومحيطه الخارجي:

▪ سياق المقال: هو الأمر الداعي باعتبار توهُّم كونه محلاًّ لورود الكلام فيه على خصوصيةٍ ما[٢].

▪ سياق الحال: هو الأمر الداعي باعتبار توهُّم كونه زمانًا له[٣].

---

(١) وهذا النوع بدأت تطبيقاته أيضًا منذ الصدر الأول في عهد الصحابة والتابعين (فقد أشار عمر ابن عبد العزيز لمحدِّثه أن يقرأ الآية التي في نهاية سورة الإنسان لمَن تكلَّم في القَدَر مستدلاًّ بأوَّلها)، كما دخل هذا النَّوع في صُلب تعريف المفسِّرين للتأويل، وأورده النسفي والبقاعي وأبو السعود في تفاسيرهم، مع تأخُّر ظهور تسمية «اللحاق» إلى عهد البقاعي. سامي العجلان، **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية**، ص٣٩ ـ ٤٥، بتصرُّف.

(٢) وهذا النوع أورده الخطيب القزويني والتفتازاني وابن أبي العز والزركشي تحت مصطلح «القرينة»، كما أورده ابن تيمية وابن القيِّم والزركشي تحت المصطلح العام لها: «السياق»، مع شهرة مقولة «لكِّل مقام مقال» وتطبيقاتها العملية في فهم النص وتفسيره كما عند ابن قتيبة والزمخشري والشاطبي وأبي السعود. المصدر نفسه، ص٤٦ ـ ٥٤، بتصرُّف.

(٣) وهذا النوع أورده ابن القيِّم والزركشي وابن حجر والخفاجي تحت مصطلح «القرينة»، كما أورده ابن تيمية وابن القيِّم والزركشي والشاطبي وابن حجر أيضًا صراحة، مع شهرة مقولة «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» وتطبيقاتها العملية في فهم النص وتفسيره كما عند ابن قتيبة والزمخشري والشاطبي وأبي السعود. المصدر نفسه، ص٤٦ ـ ٥٤، بتصرُّف.

د ـ من حيث علاقة النصوص فيما بينها :

■ سياق التنزيل : هو الانسجام والتكامل والتتابع في المعاني بين مجموعة من السور المتقاربة في ترتيب النزول[١] .

■ سياق التوقيف : هو الانسجام والتكامل والتتابع في المعاني بين مجموعة من السور المتقاربة في الترتيب التوقيفي للمصحف[٢] .

ولا يخفى أهميَّة أنواع سياق المقال وسياق الحال وسياق التنزيل لعلاقتها المباشرة بالأطروحة التي تتناول «الدراسة السياقية في مسار تنزيل القرآن الكريم ومسيرة العهدَين المكي والمدني في السيرة النبوية» من حيث كون ظروف نزول آيات من سور القرآن وكون مسيرة السيرة النبوية جزءًا من المحيط الخارجي. لذلك، لا بدَّ من الاستفاضة فيها من جهة دلالة سبب النزول ومعرفة ترتيب سور القرآن.

٢ ـ أهمية معرفة أسباب نزول القرآن الكريم وورود الحديث الشريف:

نزل القرآن الكريم على النبيّ ﷺ مُفرَّقًا ولم ينزل جملة واحدة، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وذلك تثبيتًا لفؤاد النبيّ ﷺ، قال تعالى:

---

(١) وهذا النوع ذكره الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في تفسيره فقال: هناك «أسلوب قرآني مُلاحَظ من تتبُّع دروس التنزيل وفق ترتيب النزول في تجزئة العناصر الفكرية للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل ضمن عدد من السور غالبًا، وتأتي على مراحل في نجوم التنزيل». عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الطارق، ٣: ٢٦١، بتصرُّف. وهذا ما سيظهر بوضوح في الأطروحة.

(٢) وهذا النوع أُلِّفت فيه كتب التفسير الموضوعي، ويتَّضح من خلالها وجود الارتباط في المعنى بين مجموعة متعاقبة من السور. مثال: «مقصودها (سوة النساء) الاجتماع على ما دعت إليه السورتان قبلها (البقرة وآل عمران)». البقاعي إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، سورة النساء، ٥: ١٧٠، بتصرُّف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. ومن وجوه هذا التثبيت تسلية النبيّ ﷺ في المواقف المختلفة التي يُواجهها، عن «طريق قصص الأنبياء أو الوعود بالنصر والحفظ والتأييد، أو إنذار الأعداء، أو أمر الأتباع»[١]. وكان تنزُّل القرآن «يُساير الأحداث في تجدُّدها وتفرُّقها، فينزل من القرآن ما يُناسب ما يجدّ، ببيان الحُكم في الوقائع، وإجابة السائلين، وتصحيح المسار والإرشاد إلى الصواب، واستعراض واقع مكوِّنات المجتمع»[٢]. كذلك، كان الحديث النبويّ قد يصدر من النبيِّ ﷺ في «سياق بيان حكم واقعة كانت باعثًا على صدوره»[٣].

وقد اعتنى العلماء عناية كبيرة بعلم أسباب نزول القرآن الكريم وورود الحديث النبوي الشريف:

أما اعتناؤهم بعلم أسباب النزول فلأنَّه يُشكِّل «تعريفًا بمعاني المنزَّل»[٤]، أي: القرآن، حتى قيل بـ«امتناع معرفة تفسير آية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصَّتها وبيان نزولها»[٥]. فهو بذلك يُشكِّل «طريقًا قويًا على فهم معاني الكتاب»[٦]. بل إنَّ الجهل به شكَّل في التاريخ سبب اختلاف الآراء والاقتتال[٧]. لذلك كانت «معرفة الأسباب رافعة

(١) محمد الزرقاني، **مناهل العرفان**، ١: ٥٤ ـ ٥٦، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ١: ٥٩ ـ ٦٠، بتصرُّف.

(٣) د. طارق الأسعد، **علم أسباب ورود الحديث وتطبيقاته عند المحدِّثين والأصوليين وجمع طائفة ممَّا لم يُصنَّف من أسباب الحديث**، ص٣٢، بتصرُّف.

(٤) الشاطبي، **الموافقات**، ٤: ١٥٢، بتصرُّف.

(٥) الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، ص١٠.

(٦) الزركشي، **البرهان**، النوع الأول: معرفة أسباب النزول، ١: ٢٢، بتصرُّف.

(٧) فقد خلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم، فجعل يُحدِّث نفسه، فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: كيف تختلف هذه الأمة؟ فكتابها واحد ونبيُّها واحد وقبلتها واحدة! قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنَّا أُنزِل علينا القرآن، فقرأناه، وعلمنا فيمَ نزل، وإنَّه يكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن لا يعرفون فيمَ نزل، فيكون كل قوم فيه رأي، فإذا كان لقوم فيه رأي اختلفوا، =

لكلِّ مُشكل في هذا النمط، وهي من المهمّات في فهم الكتاب بلا عوض عنها، بمعرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالَين، وبحسب مخاطبَين، وبحسب غير ذلك. فتكون معرفة السبب معرفة لمقتضى الحال»[١].

وأما اعتناء العلماء بأسباب ورود الحديث فلأنَّه «تعريف بمقاصده»[٢]، وقد تُشارك السُّنة في المعاني السابقة القرآن، «إذ كثير من الأحاديث وقعت على أسباب، ولا يحصل فهمها إلا بمعرفة ذلك»[٣].

➢ وإنَّه بدراستهما، تتحقَّق الكثير من «الفوائد، منها:

■ معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

■ الوقوف على المعنى، وهو أمر تحصَّل للصحابة بقرائن تحتفُّ بالقضايا. فقد يكون اللفظ عامًا ويقوم الدليل على التخصيص، فإنَّ محلّ السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد؛ لأنَّ دخول السبب قطعيّ. ونقل البعض الاتفاق على أن لتقدُّم السبب على ورود العموم أثر.

= فإذا اختلفوا اقتتلوا. البيهقي، **شعب الإيمان**، باب في تعظيم القرآن، فصل في ترك التفسير بالظن، ٢: ٤٢٥، ح: ٢٢٨٣.

وقد حدث ذلك في التاريخ، فقد كان ابن عمر رضي الله عنهما يرى في فرقة الخوارج «أنَّهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين». **صحيح البخاري**، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم، ٦: ٢٥٣٩.

(١) الشاطبي، **الموافقات**، ٤: ١٤٦، بتصرُّف.

(٢) د. طارق الأسعد، **علم أسباب ورود الحديث**، ص٢٨، بتصرُّف.

(٣) الشاطبي، **الموافقات**، ٤: ١٥٥.

■ دفع توهُّم الحصر وغيره عند الأخذ بظاهر [النص][١]»[٢].

---

(١) فبدون معرفة سبب النزول قد يُفهم الفرض مندوبًا، كما قد يُفهم الحرام حلالاً:
فمن الأولى: ما نبَّهت عليه أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]. فقد فهم عروة بن الزبير رضي الله عنهما من الآية أنَّه ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة. فردَّت عليه خالته السيدة عائشة: «بئس ما قلت يا ابن أختي، إنَّ هذه لو كانت كما أوَّلتها عليه كانت «لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما»، ولكنَّها أُنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يُسلموا يُهلُّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان مَن أَهَلَّ يتحرَّج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنَّا كنَّا نتحرَّج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى الآية». **صحيح البخاري**، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجُعِل من شعائر الله، ٢: ٥٩٢. ح: ١٥٦١.
ومن الثانية: قد يُعتبر منها ما نبَّه عليه الإمام الشافعي رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، لأنَّ ظاهرها يوحي بحصر التحريم على هذه الأصناف فقط، وحِلِّيَّة غيرها.
فقال الشافعي دافعًا لهذا التوهُّم: إنَّ الكفَّار لما حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّم الله، وكانوا على المضادّة والمحادّة، جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرَّمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلاً منزلة مَن يقول: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول: لا آكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادّة لا النفي والإثبات على الحقيقة، فكأنه قال: لا حرام إلا ما حلَّلتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به، ولم يقصد حِلّ ما وراءه، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحلّ. الزركشي، **البرهان**، ١: ٢٣، بتصرُّف. كما قد تُفهم الآية أيضًا باعتبار أنَّها تعرض الأصناف التي أعلن الوحي عن تحريمها وقت نزولها قبل الهجرة إلى المدينة. ثمَّ تلتها محرَّمات أُخرى وردت في آيات مدنية. د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٢: ٥٧، بتصرُّف. وفي الحالتَين لا مناص من العودة إلى أسباب النزول.
وإنَّ هذَين المثالَين يدلان على أنَّ الخطاب القرآني يُراعي حال المُخاطَبين، الأمر الذي يتطلَّب معرفة المفكَّر فيه عند نزول الآيات باعتباره معرفةً لمقتضى الحال ومُكمِّلاً للمشهد ومُعينًا على فهم المراد.

(٢) الزركشي، **البرهان**، ١: ٢٢ ـ ٢٣، بتصرُّف.

٣ ـ العلاقة بين دلالة السياق ودلالة سبب النزول في القرآن:

كثيرًا ما يُفسِّر سياق المقام الطريقة المخصوصة التي بُنِيَ بها سياق النَّص القرآني، وكثيرًا ما يُقدِّم توضيحًا لإشارات لا يُمكن فهمها من خلال النَّص وحده، ومن هنا كانت أسباب النزول وسيلة ضرورية لفهم القرآن، وقد اعتمد عليها المفسِّرون والأصوليون لكشف مجملات القرآن، ومن هذه المجملات: تمييز الناسخ من المنسوخ من أحكامه، ومعرفة حدود الدلالة في ألفاظه وعباراته من حيث العموم والخصوص المقيَّد بظروف النزول. فقد عاب العلماء على الخوارج وقوفهم عند الدلالة العامة والظاهرة لبعض الآيات القرآنية دون الإحاطة بأسباب نزولها وأحوال تنزيلها ومعرفة المقصودين بها والمخاطبين فيها، ليس لقصر الآيات على أسباب نزولها، بل للاستهداء بها لمعرفة حدود التعميم في دلالات الألفاظ احتراسًا من تنزيل الآيات على غير نوع أصحابها المقصودين بها ومَن يُشبههم، من هنا كانت قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».

هذا، وإنَّ الرجوع إلى سبب النزول عند تفسير أيّ آية من القرآن يجب أن يكون منضبطًا بمراعاة السياق الكلِّي الذي وردت فيه هذه الآية، لأنَّ السورة القرآنية قد تحوي آيات عدّة لها أسباب نزول مختلفة، والذي يجمع بين هذه الآيات المتباينة في أسباب نزولها هو وحدة السياق في هذه السورة، ولا تتحقَّق هذه الوحدة إلا من خلال الربط المعنوي بين دلالات هذه الآيات المتباينة أسباب نزولها، وهو الربط الذي يقتضي نوعًا من التعميم في دلالة كلِّ آية من هذه الآيات، حتى تتناسب فيما بينها وتتناسق معانيها. لذلك، يترجَّح السياق على سبب النزول في الدلالة على التخصيص، فتدلّ الآية على ما يُشير إليه سببها الخاص، كما تدلُّ أيضًا على ما تُشير إليه ألفاظها العامة من دلالات مرتبطة بالسياق الكلي الذي وردت فيه هذه الآية»[١].

---

(١) سامي العجلان، **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية**، ص٢٩٢ ـ ٢٩٨، بتصرُّف.

٤ ـ العلاقة بين دلالة السياق ومعرفة ترتيب سور القرآن:

لا تقتصر الفائدة من معرفة ترتيب نزول سور القرآن الكريم على معرفة المرحلة التاريخية الدقيقة التي تنزَّلت فيها السورة القرآنية ضمن العهدَين المكي والمدني، بل إنَّ هذا الترتيب يقود أيضًا إلى فهم أعمق للسورة القرآنية، من خلال معرفة موقعها التاريخي ضمن السور المتقدِّمة عليها والمتأخِّرة عنها في النزول، لاستيعاب مضمونها وفهمه بناء على هذا التدرُّج المقصود في تنزيل السور القرآنية، وكأنَّ السورة حلقة ضمن سلسلة من الحلقات المترابطة والمتدرِّجة، والتي لا يُمكن فهم إحداها دون معرفة موقعها من الأُخريات. وإذا كانت السور المدنية مبنية في مضمونها على ما تمَّ تقريره في مجمل السور المكية ومكمِّلة له، فكذلك الحال بالنسبة لكلٍّ سورة من سور العهدَين المكي والمدني، حيث ينبني فهم السورة المتأخِّرة على فهم السور التي سبقتها في النزول. ولا يجب أن يغيب هذا المعنى عن الناظر في القرآن، فإنَّه من أسرار علوم التفسير، وعلى حسب المعرفة به تحصل للناظر في كتاب الله المعرفة بكلام ربِّه»[١].

٥ ـ قواعد في نزول القرآن:

➢ نبَّه العلماء إلى جُملة من قواعد متعلِّقة بأسباب النزول وأمكنتها، أذكر منها:

أ. القول في الأسباب موقوف على النقل والسماع[٢].

ب. سبب النزول له حكم الرفع[٣].

ج. الأصل عدم تكرار النزول[٤].

---

(١) سامي العجلان، **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية**، ص٣١٣ ـ ٣١٥، بتصرُّف.

(٢) د. خالد السبت، **قواعد التفسير**، ص٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٢.

د. قد يكون سبب النزول واحدًا والآيات النازلة متفرِّقة، والعكس[(١)].

هـ. إذا تعدَّدت الروايات في سبب النزول نُظِر إلى الثبوت فاقتُصِر على الصحيح، ثمَّ العبارة فاقتُصِر على الصريح، فإن تقارب الزمان حُمِل على الجميع، وإن تباعد حُكِم بتكرار النزول أو الترجيح[(٢)].

و. إنَّما يُعرَف المكي والمدني بنقل مَن شاهدوا التنزيل. ومن الأصول المهمة في هذا الباب أنَّ السورة التي يثبت نزولها بمكة تكون جميع آياتها مكية، ولا يُقبَل الادعاء بأنَّ شيئًا من آياتها نزل بالمدينة إلا بدليل[(٣)].



(١) د. خالد السبت، **قواعد التفسير**، ص٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٧.

الباب الأول
رؤية التعددية المجتمعية في مسار التنزيل ومسيرة العهد المكي

تمهيد: خصائص العهد المكي

أولاً: تنظيم الحياة في مكة قبل النبوة:

العالم والجزيرة العربية ومكة في القرن السادس للميلاد:

كان يُشكِّل العالم في القرن السادس للميلاد (قبل الإسلام) مسرحًا للحكم الجائر المستبدّ، في ملكيات مطلقة، تقوم على تقديس بيوتات خاصة، كما في الفرس والروم والهند ودول آسيا الوسطى والصين وأوربا. وكان أحطَّ أدوار التاريخ بلا خلاف بانحدار الإنسانية وإهدار كرامتها وذوبان أُسس الفضيلة وانهيار دعائم الأخلاق وضياع الدين وانسحاب أهله من الحياة، وانتشار ظواهر الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي.

أما الجزيرة العربية، فكانت منطقة منسيّة، ليس لها تأثير مباشر على العالم، وليس للعالم شغل فيها أو مطامع استعمارية لاحتلالها كاملة. يعيش معظم مَن فيها على تراث منسوب إلى النبيّ إبراهيم عليه السلام الذي زارها ووضع فيها أهله. وتدَّعي العرب في بعض طقوسها الدينية النسبة إليه مع وجود بقايا من ملّة إبراهيم عليه السلام فيها، رغم انغماسها أيضًا في الوثنية وعبادة الأصنام[1]، في مقابل وجود مجموعات صغيرة تبحث عن

---

(1) «تنقسم آلهة المشركين قسمَين: القسم الأول: أشياء لا حياة لها كأحجار وأشجار وأشياء أُخرى من الكون يتوهَّمون أنَّ لها حياة خفيَّة وأنَّ لها تأثيرات في الكون، أو رموز ذوي حياة مُدرِكة لهم اطِّلاع على عابديها. والقسم الثاني: غيبيَّات من الأحياء، ممَّا يُظَنُّ أنَّ لها حياة، كالجنّ والملائكة وأرواح الموتى». عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة فاطر، ٧: ١٠٦ ـ ١٠٧، بتصرُّف.

الحقّ والدين بينهم. ومع هؤلاء العرب عاش اليهود (الذين نزحوا إلى المنطقة بعد خراب هيكلهم (٥٨٧ ق.م. ثمَّ ٧٠ م)، كما كان بعض العرب قد نزح من اليمن بعد انهيار سدّ مأرب. كذلك، دخلت النصرانية الجزيرة عبر التبشير في اليمن بعد احتلالها من الحبشة، أو العرب المجاورين للرومان، كما دخلت المجوسية إلى العرب المجاورين للفرس. وقد وصف ابنُ عمِّ النبيّ ﷺ جعفر بن أبي طالب ﷺ وَضْعَ العرب حينها قائلاً: «كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف». وانتشرت ظواهر غلبة الأُميَّة، ووَأْد البنات، والتعامل بالربا، وشرب الخمر، وعدم إعطاء النساء حقوقهنّ، واستغلال الرقيق. ولكن بالمقابل، كان العرب يعيشون على عصبية قبلية توطِّد علاقاتهم بأقربائهم، وامتازوا بأخلاق الكرم، والوفاء بالعهد، وعزّة النفس، والشجاعة، والحلم، والصدق، والطيبة، والأمانة. وكانت قواهم العملية والفكرية ومواهبهم الفطرية ما زالت بكرًا، لم تُستهلك في جدالات فلسفية وكلامية»[1].

أما مكة[2]، «فهي بلد في وادٍ غير ذي زرع، تُشرف عليها جبال جُرد، فتزيد في قسوة مناخها، ليس بها ماء غير ماء زمزم عمومًا، ويضطرّ سكّانها إلى استيراد ما يحتاجون إليه. ولم يكن بها حصون وبروج ولا سُوْرٌ يقيها من احتمال غزو الأعراب أو أيّ عدوّ لها. وبسبب طبيعة أهل مكة المستقرّين التجّار، لزم الابتعاد عن الحروب وعن خلق المشكلات، وحلِّ كل معضلة بالمفاوضات وبالسِّلم أولاً، كما سعت للاتفاق مع القبائل المجاورة على محالفتها ومهادنتها. ويعود الفضل في بقاء مكة وبقاء أهلها إلى وجود البيت فيها، إضافة إلى موقعها الجغرافي، فهي عقدة تتجمَّع فيها القوافل التي ترد اليمن قاصدة بلاد الشام، أو

---

(١) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٣٠ ـ ٧٩، بتصرُّف.

(٢) مكة: «بيت الله الحرام، سُمِّيَت مكة لأنَّها تمكّ الجبارين ولازدحام الناس بها، وقيل غير ذلك». ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، حرف الميم، باب الميم والكاف، ٥: ١٨١، بتصرُّف.

القادمة من بلاد الشام قاصدة اليمن، والتي كان لا بدَّ أن تستريح في هذا المكان، ثمَّ ما لبث أن كوَّن زعماؤها لأنفسهم رحلات سفر اقتصادية. فاحتكُّوا ببقية العرب واختلطوا بغيرهم، واهتمُّوا بالسياسات الدولية. وبسبب هذا النشاط الاقتصادي، والزعامة الدينية، تفوَّقت مكة على بقية القبائل، وأصبحت من أهمّ المراكز المرموقة في غربي الجزيرة وفي التجارة»[١].

إدارة مكة:

أما كيفية إدارة قريش لمكة، فقد «كان لقُصيّ بن كلاب الدور البارز في انتقال مكة من البداوة إلى الحضارة ولو بمعنى محدود، فجمع ذرية قريش (لقب لجدِّ جّدِّ جدِّه) في مكة، وقسَّمها بينهم، وبنى دار الندوة حيث يتمّ فصل المهام وبتّ الشؤون العامة والخاصة وتجهيز القوافل وإبرام العقود، بالاتفاق التطوُّعي والتفاهم الجماعي وتوزيع المسؤوليات والمهامّ[٢]. ومن بعد قُصيّ تصالح أحفاده على تقسيم المسؤوليات في مكة بينهم.

فالحكم في مكة، كان حكم رؤساء وأصحاب جاهٍ ونفوذ ومنزلة، تُطاع فيها الأحكام، وتُنفَّذ الأوامر. وتنقسم مكة إلى وحدات اجتماعية مستقلة (شِعاب) لكل عشيرة، وأمرها لرئيسها. هم أصحاب الحلّ والعقد والأمر والنهي والتأديب، وكل مخالف يُؤدِّبه حيُّه. (وكانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك، فكانت القبيلة تبعًا لرأي سيِّدها في السلم والحرب، لا تتأخَّر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون

---

(١) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٨٠ ـ ٨١، بتصرُّف.

(٢) وهي: السقاية: بجمع الماء من آبار مكة ووضعها في فنائها، والرفادة: طعام الحجيج، وهما لبني هاشم. والحجابة: الكعبة بالمفاتيح، واللواء: الحرب، والندوة: القرار، وهي لبني عبد الدار. وأيسار: استقسام الأصنام، لبني جمح. وتحجير أموال: نذور الأصنام، لبني سهم. وشورى: للإقرار أو التخيير، لبني أسد. والأشناق: للديات والغرامات، لبني تميم. والعقاب: اللواء القومي، لبني أمية. والقبة: قيادة الخيل، لبني مخزوم. والسفارة: لحلّ الخصومات، لبني عدي. المصدر نفسه، ١: ٨٤ ـ ٨٥، بتصرُّف.

لدكتاتور قويّ، وكان لهم حقوق خاصة)[١]. فيُصنَّفوا بذلك أنَّهم: مُحافظون، ورثوا نظامًا أمَّن لهم حكمًا وسلطة، فخضعوا له والتزموا به، ليُراعوا بهذا العرف حقوقهم الموروثة ومصالحهم. ولضمان الأمن، عقدت قريش المعاهدات التجارية في البلاد للتجارة بأمان، وكانوا يتعاملون بالعملة البيزنطية والفارسية، ويستعملونها في موازينهم»[٢].

ثانيًا: شخصية النبي ﷺ بين البشرية والرسالة (في مكة):

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي. «لم تؤثِّر سلبيات البيئة الوثنية التي نشأ بها في شخصيَّته، فكان منكرًا لعبادة الأصنام مبتعدًا عن سَيِّئ الخُلُق والعادات، رغم أنَّه نشأ يتيمًا أُميًا.

كان بشرًا مثل البشر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، يجوع ويعطش، ويتألَّم وينام، ويُصيبه ما يُصيب البشر من ضعف وخطأ (بمعنى عدم كون نتيجة اجتهاده ـ عند عدم وجود نصّ وحي ـ هي النتيجة الأكمل دَومًا)، وسهوٍ وموت، فيما لا يؤثِّر على الدعوة وتبليغ الوحي.

أخلاقيًا، تتلازم صفاته النفسية (كالزهد والرحمة والشجاعة) مع صفاته السلوكية (كالصدق والأمانة)، في المعتقدات وما يصدر عنه من أقوال وأفعال، على شكل مبادرات لا تَكَلُّف فيها، لتُشكِّل تكامل الصفات النبيلة التي يستخدمها استخدامًا بنَّاءاً من جهة وتتكامل مع غيرها من جهة أُخرى.

واجتماعيًا، كان من أكثر الناس احترامًا للذَّوق العام في مظهره، تزوَّج مرارًا (بعد النبوّة لأسباب عامة وخاصة تصبّ في نفع الدعوة وإنشاء صلات المصاهرة بين الناس فيما لا يُشكِّل ضررًا أو يقدح بالعرف السائد آنذاك)، وعامَل خدَّامه بتواضع ومسؤولية ومحبة واحترام، واختلط بالمجتمع دون أن يُميِّز نفسه عن الناس أو يجرح مشاعرهم، بمجاملة وكسب قلوب وحلاوة منطق وخفّة ظلّ.

---

(١) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٦٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ١: ٨١ ـ ٨٦، بتصرُّف.

وتربويًا، بتحلِّيه بصفات الرحمة والصبر والفطانة والتواضع والحلم والعفو وقوة الشخصية باقتناع. عبر بناء النفس أولاً بتزكيتها وتنميتها بثقة، وتدعيم المعرفة النظرية بالتطبيق العملي، والتكليف على قدر الطاقة، والخطاب على قدر الفهم، ومراعاة الفروق الفردية، وعدم الإكثار من المواعظ، واختيار الظرف المناسب للتوجيه، وترتيب الأولويات، والتشجيع على الإكثار من الخيرات، معتَمِدًا على قاعدة الثواب والعقاب (عند تعمُّد المخالفة دون توبة خالصة)، مع تجاوز عن الهفوات، واختيار أخفّ التكاليف، والتقويم الذاتي، واستمرار العطاء دون استعجال قطف الثمار. وقد اعتمد على وسائل تربوية مختلفة في كل ما سبق»[1].

على أن يتمّ استكمال استعراض شخصية النبي ﷺ في تعاملها مع مستجدات الهجرة إلى المدينة المنورة سياسيًا وعسكريًا في تمهيد الباب الثاني.

ثالثًا: خطاب العهد المكي:

أ. **وضعية المخاطَب**: يُشكِّل المسلمون في العهد المكي جزءًا من نسيج المجتمع الاجتماعي الذي خرج عن الالتزام بالعقائد المتوارثة فيه، فيتعرَّضون للتضييق من الجهات الحاكمة الرافضة للتعددية المجتمعية. لذلك، تتمظهر رؤية التعددية في العهد المكي كأساليب تُؤسِّس للوعي بوجود الآخر من خلال توجيهات التعامل معه وفق مختلف المراحل التي يكون هو المتسلِّط فيها.

ب. **نوعية الخطاب**: يتَّجه الخطاب في المجتمع المكي إما إلى النبيّ ﷺ وإما إلى الكافرين المعتدين ـ وهما طرفان رئيسيان في هذا العهد ـ وإما إلى المسلمين، سواء أكانوا دعاة إلى الدعوة أم متَّبعي هدى فقط. كما يتوجَّه الخطاب أيضًا إلى المحايد الذي لم يُحدِّد موقفه من الدعوة بعد، فهو وإن كان مشركًا وثنيًا إلا أنَّه لم يكن معاديًا للدعوة معتديًا على

---

(١) أ.د. محمد رواس قلعه جي، **دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (من خلال سيرته الشريفة)**، ص٣٩ ـ ٢٨١، بتصرُّف.

المسلمين رغم طاعته لكبراء القوم وربط اتِّخاذ موقفه من الدعوة بهم. كما يتناول الخطاب الكتابيَّ كحليف طبيعي في الشهادة لصالح المسلمين. ويلحظ الخطاب في نهاية هذا العهد ظهور المرتدين والمنافقين.

ج. **موضوع الخطاب**: يدور الخطاب حول مفاهيم النبوّة والربوبية والإلهية، والبعث والجزاء ومشاهد القيامة، وإبطال الشرك، والصَّبر على الشدائد، وغيرها من المسائل التي تتناول «تفصيل المبادئ الإسلامية والتشريعات التي يُمكن العمل بها لكل فرد وحده [بما يتناسب تمامًا مع واقعهم في مكة]، مع الحثّ على البرّ والخير ومكارم الأخلاق واجتناب الرذائل والدنايا»[١].

د. **أسلوب الخطاب**: «كانت الآيات تتنزَّل فيها أسلوب المنتقيات المحفوظات المتداولات من كلام بلغاء العرب وفُصحائهم وخُطبائهم، والسائر من أمثالهم، إذ كان يُعجبهم منها الجمل القصار المفصَّلة بتوازن، والإيجاز الذي يكشف الذكاءُ دلالاته، والكنايات الإشارية الدالة على معانٍ غير مدلول عليها ولا مُعبَّر عنها بألفاظ صريحة، والاكتفاء من الموضوع بذكر بعض عناصره البارزة، كذكر اسم قوم أو اسم طاغِيَتهم واسم رسولهم والإشارة إلى مساكنهم، والاكتفاء بأنَّهم كذَّبوا الرسول الذي دعاهم إلى الإيمان بربِّهم، وذكر إهلاكهم، مع توجيه العظة للمُخاطَبين بما جرى للسابقين. وحين يكون توجيه الخطاب لأحد طغاة أئمة الشرك الذين وصلوا إلى مستوى المواجهة الصريحة بمعاداة الرسول ﷺ والقرآن والمسلمين، فإنَّ القرآن يؤثر طريقة التعريض، وذكر الصفات، دون التصريح بالاسم (إلا في حالة أبي لهب في سورة المسد للخاصية التي سترد عند التعقيب على السورة). فيكون القرآن قابلاً لأن ينطبق على أشباه هذا الطاغية في كل العصور، وهو أسلوب مَن يسهل عليه الانتقام من الطغاة»[٢].

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص١٦٧ ـ ١٦٨، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٥٥، بتصرُّف.

الفصل الأول
رُقيّ الدعوة بالحوار الأخلاقي الاجتماعي

المبحث الأول: نزول الوحي والدعوة الفردية

كان محمد بن عبد الله «قد أُعدَّ للنبوّة قبل نزول الوحي بسموِّ فطرته، وشَرَف نسبه، وشقِّ صدره[1]، وعصمته[2]، . . . .

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الصبيان فصرعه ـ بطرحه على الأرض ـ فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثمَّ غسله بطست من ذهب بماء زمزم، ثمَّ لأَمَهُ، ثمَّ أعاده إلى مكانه. وقال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المِخيَط في صدره. **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ١: ١٤٧، ح: ١٦٢، بتصرُّف. وقد كان عمره ﷺ سنتَين وأشهر كما يظهر من رواية ابن هشام في: عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، حديث الملكين اللذَين شَقّا بطنه ﷺ، ١: ١٦٤.

(٢) يظهر من حادثة شقّ الصدر الأولى معنى العصمة من الشيطان، فلا حظَّ له مع رسول الله ﷺ. وفي السيرة النبوية تبرز أحداث تدلُّ على معنى العصمة من حيث حفظ الله لنبيه ﷺ من أمور الجاهلية، ففي المستدرك ترد رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما هممت بما كان أهل الجاهلية يهمُّون به إلا مرتَين من الدهر، كلاهما يعصمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لفتًى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها تُرعى: أبصِر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزمر فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة، فلَهَوت بذلك الغنا والصوت حتى غلبتني عيني فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس. وقد حدثت تلك الحادثة مرَّتَين، فقال رسول الله ﷺ: «فوالله ما هممت بعدها أبدًا بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته». الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب التوبة والإنابة، ٤: ٢٧٣، ح: ٧٦١٩، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وخلواته[١]، ورؤاه الصادقة[٢]»[٣].

وحين جاءه الملَك وهو في خلوته بغار حِراء[٤]، خاطبه بالآيات الأولى من سورة **العلق**[٥]، وفيها: «الأمر بالقراءة باسم الرَّبّ قولاً، ومنه ابتداءً، وعنه بلاغًا، الذي خلق (بالعموم والإطلاق)، ثمَّ خصَّص في هذه السورة بالذكر ـ من ضمن خلق الله ـ الإنسان [المُخاطَب بهذا الوحي] أنَّ أصل خلقه من عَلَق، بما يُفيد طلاقة قدرة الله، ثمَّ ذكر أوصاف الرَّبّ الأكرم الذي علَّم بالقلم [باعتبار الوسائل والأسباب للتوثيق]، فتعليمه ووحيه دون مقابل بل رحمة منه ونعمة، [وهو تعليم مَن خلق، فيتحقَّق كامل الانسجام في الحياة بين عالم الخلق ومبادئ الوحي]، ثمَّ خصَّص الإنسان بأنَّ مبتدأ علمه من الله»[٦]،

---

(١) حُبِّب إلى رسول الله ﷺ الخلوة، وكان يُجاور في حراء من كل سنة شهرًا. ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب مبعث النبي ﷺ، ٢: ٢٣٦. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٢٣، بتصرُّف.

(٢) أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. **صحيح البخاري**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله ﷺ، ١: ٤، ح: ٣. واستمرَّت «ستة أشهر من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة الذي وقع في رمضان». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ١: ٢٧.

(٣) أ.د. محمد رواس قلعه جي، **دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ**، ص٩٥ ـ ١٠٠، بتصرُّف.

(٤) حِراء: «جبل من جبال مكة». ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، حرف الحاء، باب الحاء والراء، ٢: ٢٣٣.

(٥) وهي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق. **صحيح البخاري**، ١: ٤، ح: ٣. وهو «صدرها الذي أُنزل على رسول الله ﷺ يوم حراء، ثمَّ أُنزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله». البيهقي أحمد بن الحسين، **دلائل النبوة**، باب أول سورة نزلت من القرآن، ٢: ١٥٧.

(٦) الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، سورة العلق، ٩: ١٢ ـ ١٧، بتصرُّف.

وهذا العلم هو «القَدر الذي امتاز به أبو البرية آدم عليه السلام على الملائكة»[١].

نزل النبيُّ ﷺ بالآيات إلى زوجه السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. فلما علمت بالأمر ثبّتت فؤاده بذكر خصاله الحميدة ومستلزماتها الطيبة والحَسَنة في المآلات، وانطلقت به إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل. وعند ورقة جاءت البشرى والوصية بعدما أخبره بالأمر، فقال له: هذا الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام، يا ليتني فيها جذَعًا [أي: شابًا]، ليتني أكون حيًا إذ يُخرجك قومك، فقال النبيُّ ﷺ: أوَ مُخرجيَّ هم؟ فردَّ عليه ورقة: نعم، لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يُدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا. ثمَّ لم ينشب ورقة أن توفّي وفتَر الوحي[٢]. وفي رواية أُخرى تتمّة لكلام ورقة: «لتُكذِّبنَّه، ولتُؤذَيَنَّه، ولتُخرجَنَّه، ولتُقاتلنَّه»[٣].

بعد انقطاع الوحي مدّة من الزمن، سمحت للنبيّ ﷺ التيقُّن من حقيقة نبوَّته[٤] واستيعاب الموقف[٥]، عاد الوحي. وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك وهو يُحدِّث عن فترة

---

(١) ابن كثير إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، سورة العلق، ٨: ٤٣٩.

(٢) يُنظر: **صحيح البخاري**، ١: ٤، ح: ٣.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر ورقة بن نوفل، ١: ٢٣٨. والطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ذكر ما كان من أمر نبي الله ﷺ عند ابتداء الله تعالى ذكره إياه بإكرامه بإرسال جبريل عليه السلام بوحيه، ٢: ٣٠٢.

(٤) وردت روايات ضعيفة حول: تحقُّق السيدة خديجة رضي الله عنها من كونه وحيًا عبر إلقاء خمارها حين أخبرها النبي ﷺ بوجود الملَك في المكان فاختفى على إثرها، فثبّتته وبشَّرته أنَّه ملاك وليس بشيطان. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ١: ٢٣٩. ومثل مناداة جبريل عليه السلام له بعد أيام من نزوله عليه بحراء: يا محمد أنت رسول الله حقًا وأنا جبريل. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ١: ١٩٦. والروايتان ضعيفتان. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٢٦ـ١٢٨، بتصرُّف.

(٥) كما قال ابن حجر: إنَّ فتور الوحي عبارة عن تأخُّره مدّة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وجده من الرَّوع وليحصل له التشوُّف إلى العَود. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ١: ٢٧.

الوحي: «بينا أنا أمشي، سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، ففرقت منه، فرجعت، فقلت: زمِّلوني زمِّلوني، فدثَّروه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] قال: ثم تتابع الوحي»[١]. وقد تتابع الوحي بآيات من ثلاث سور، أعرضها مع أبرز توجيهاتها:

□ **المدَّثِّر**[٢]: وفيها «الأمر للنبيّ ﷺ ـ الذي تدثَّر في ثيابه، فَرَقًا من رؤية الملك جبريل عليه السلام على تلك الهيئة»[٣] ـ «بالإنذار والتوحيد والطهارة واجتناب الرجز على اختلاف معانيه بين الأوثان أو ما يستحقّ فاعله العذاب»[٤] أو حتى «على أصل معناه اللغوي، أي: الاضطراب ممَّا تعرَّض له من قلق عند انقطاع الوحي»[٥] ثمَّ رؤية جبريل عليه السلام التي فَرَق عندها.

وهنا كانت بداية الرسالة[٦]، حيث ستتخلَّل تلك الدعوة أصل الخطاب القرآني في غالبية آيات المرحلة المكية، سواء أكانت الدعوة فردية أم جماعية، إلى قريش أم إلى غيرها من العرب.

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة العلق، ٤: ١٨٩٥، ح: ٤٦٧١.

(٢) هي الآيات الخمس الأولى أيضًا من سورة المدَّثِّر. **صحيح البخاري**، باب بدء الوحي، ١: ٧، ح: ٤.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة المدَّثِّر، ١: ٨٥، بتصرُّف.

(٤) الطبري، **جامع البيان**، سورة المدثر، ٢٣: ٩ ـ ١٢، بتصرُّف.

(٥) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة المدَّثِّر، ١: ٣٢، بتصرُّف.

(٦) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة المدثر، ٨: ٢٦١، بتصرُّف.

□ **القلم**[١]: وفيها تثبيت للنبيّ ﷺ بأنَّ الوحي الذي جاءه علم حقٌّ مُقَدَّر، مُحَتَّمٌ مآل الخير له[٢]، وذلك في كونه نعمة ربوبية[٣] يؤجَر عليها، وخُلُق النبيّ ﷺ العظيم يدلُّ عليه[٤]، كما يحتمل الخُلُق العظيم أيضًا وصف دين الإسلام وشرائعه التي ستوحى إليه[٥]، والتي بدأت معالمها في أوامر سورة المدثر (عند اعتماد ترجيح نزولها قبلها).

---

(١) هي الآيات الخمس الأولى أيضًا من سورة القلم. الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٢٩٩. وعن مجاهد: أول سورة نزلت ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب تفسير القرآن، سورة المدثر، ٨: ٦٧٨. فهي تنتمي لهذه المجموعة، وإن لم تكن أول آيات نزل بها جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ لأنَّ التحقيق ما أوردنا من كونها آيات العلق الخمس، ثمَّ آيات المدثر الخمس بعد فتور الوحي. وفي رواية ذكرها الطبري عن مجاهد: «إنَّ أول سورة أُنزلت ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ثم ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾. الطبري، **جامع البيان**، سورة العلق، ٢٤: ٥٢٠ ـ ٥٢٢.

(٢) فتأويل ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] يحتمل التنبيه على العلم، كما يحتمل ما أجراه الله بالقدر حين كُتِبَت مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرضين. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة القلم، ٨: ١٨٧، بتصرُّف.

(٣) فسَّر مجاهد وابن إسحاق: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ في سورة الضحى بكونها: النبوة التي أكرم الله بها نبيَّه ﷺ. الطبري، **جامع البيان**، سورة الضحى، ٢٤: ٤٨٩، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الضحى، ٨: ٤٢٨، بتصرُّف. ولا أجد ما يمنع أن يتمّ تفسير ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ في سورة القلم بالتفسير ذاته. وقد ذهب إلى ذلك أيضًا: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة القلم، ١: ٢١٢، بتصرُّف.

(٤) لأنَّ المجنون لا يكون على خُلُق عظيم، وفي هذا دليل على أنَّ أسباب الرِّيب كلِّها أو الأسباب التي تثير الشك [في الوحي والقرآن] غير موجودة وغير متوافرة، ولا يوجد سبب حقيقي واحد يجعل [الإنسان] يشكُّ في أن القرآن ليس من عند الله. **تفسير الشعراوي**، سورة البقرة، الآية ٢٣، ١: ١٩٣، بتصرُّف.

(٥) الطبري، **جامع البيان**، سورة القلم، ٢٣: ٥٢٨ ـ ٥٢٩، بتصرُّف.

□ **الفاتحة**[1]: وفيها تطبيقات ما نزل من آيات السور السابقة: القراءة باسم الرَّبّ، والشكر على النعمة، والإنذار بيوم الدين، وتوحيد الاعتقاد والعبادة، وتُضاف إليها الدعوة بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، الذي يتمايز الناس فيه بين مُنعَم عليهم

---

(١) وقد نزلت سورة الفاتحة كاملة. البيهقي، **دلائل النبوة**، باب أول سورة نزلت من القرآن، ٢: ١٥٨. والأثر الذي يُثبتها في هذه المرحلة من السيرة حديث مرسل وإن كان رجاله ثقات. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب تفسير القرآن، باب سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ٨: ٧١٩، ح: ٤٦٧٠. «وهذه السورة مكية باتفاق الجمهور، وقال ابن كثير: إنها أول سورة نزلت، والصحيح أنه نزل قبلها ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وسورة المدثر ثم الفاتحة، وقيل: نزل قبلها أيضاً ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ . . .، وقال بعضهم: هي أول سورة نزلت كاملة، أي غير منجَّمة، وقد حقَّق بعض العلماء أنها نزلت عند فرض الصلاة فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها». ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير**: **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، سورة الفاتحة، ١: ١٣٥. ذلك لأنَّه «لا خلاف أنَّ فرض الصلاة كان بمكة، وما حُفِظ أنه كان في الإسلام قطّ صلاة بغير ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدل على هذا قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» [وهذا حديث في الصحيح. الهيثمي علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، ٢: ١١٥، ح: ٢٦٧٨، بتصرُّف]. وهذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء. وقد قال بمكيَّتها ابن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحي وغيرهم. وهو أصح [الأقوال]». القرطبي محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الفاتحة، ١: ١١٥.
ولمَّا كانت سورة الفاتحة السورة الوحيدة التي لم ترد ضمن لائحتَين من لوائح ترتيب النزول إسنادهما حسن (البيهقي وأبي عمرو الداني). أما اللائحتَين الأُخريَين وإسنادهما ضعيف، ففي رواية ابن الضريس وضعها قبل «المسد»، وفي لائحة الزهري جعلها أول ما نزل بالمدينة. لذا، فإنِّي لم أر مانعًا من وضعها هنا، وكذلك نظمها الجعبري في منظومته، والشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في تفسيره واختياره في ترجيح ترتيب سور القرآن الكريم.

(عرفوا الحقّ واتّبعوه)، ومغضوب عليهم (عرفوا الحقّ وعاندوه)، وضالّين (التزموا الانتماءات التقليدية، واستخدموا أدوات المعرفة لا لمعرفة الحقّ بل لتحقيق رغباتهم في الحياة الدنيا فقط ولم يعبؤوا بالدعوة، سواء أوجدوا مَن يُعرِّفهم على الحقّ وتفكَّروا بعقولهم أم لم يجدوا)[(١)].

وقد رُوِيَ أنَّه نزل جبريل عليه السلام في هذه المرحلة أيضًا بالوضوء والصلاة، لما فيها من تحويل لهذه المفاهيم الإيمانية إلى شعائر تعبُّدية عملية[(٢)].

بهذه المقدِّمات، تُطالعنا كتب السِّيَر والتاريخ أنَّ رسول الله ﷺ بدأ دعوته ـ تطبيقًا لسورة المدَّثِّر ومنهجها مع الفاتحة بثبات سورة القلم ـ بشكل فردي، فجعل «يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد من النبوة سِرًّا إلى مَن يطمئنّ إليه من أهله»[(٣)]. وقد استمرَّت هذه الدعوة ثلاث سنين[(٤)].

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الفاتحة، ١: ٣٠٤ـ ٣٠٦، بتصرُّف.

(٢) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند الشاميين، حديث زيد بن حارثة رضي الله عنهما، ٢٩: ٢٥، ح: ١٧٤٨٠. وقد فُرِضت الصلاة في أول الإسلام ركعتَين بالغداة وركعتَين بالعشيّ، ثمَّ فُرِضَت الصلوات الخمس ليلة الإسراء. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب المعراج، ٧: ٢٠٣، بتصرُّف. وابن هشام، **السيرة النبوية**، باب ابتداء ما افترض الله على النبي ﷺ من الصلاة وأوقاتها، ١: ٢٤٣، بتصرُّف. وهي رواية ضعيفة. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٢٨، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب إسلام خديجة بنت خويلد، ١: ٢٤٣.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب مباداة رسول الله ﷺ قومه وما كان منهم، ١: ٢٦٢. وابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب ذكر دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام، ١: ١٩٩.

إنَّ هذا الشكل الفردي يُمكن تحليل أسبابه بوضوح عند مراجعة واقع مكة وكيفية إدارة قريش لها، بل وحتى عند مراجعة تجارب إصلاحية سابقة لرافضي الوثنية والساعين نحو إصلاح اجتماعي[١]. ومن هنا يُمكن تفهُّم وصية ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ عن حاجة الدعوة إلى الشباب بقوله: «يا ليتني فيها جذعًا». لذلك، بدأ النبيُّ ﷺ بدعوة أهل بيته وأصدقائه المقرَّبين ومَن يثق منهم من معارفه، على اختلاف انتماءاتهم القَبَليّة وطبقاتهم الاجتماعية وشرائحهم العمرية[٢]، فظهر «السابقون الأولون، وهم من جميع بطون

(١) أمثال زيد بن عمرو بن نُفَيل: «كان يتعبَّد في الجاهلية ويطلب دين إبراهيم الخليل ﷺ ويُوحِّد الله تعالى ويقول: إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم. وكان يعيب على قريش ذبائحهم على غير اسم الله تعالى إنكارًا لذلك وإعظامًا له». ابن الأثير علي بن محمد، **أُسد الغابة**، **٢: ١٤٣**، بتصرُّف. «واعتزل [عبادة] الأوثان، وخرج من مكة باحثًا عن الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، فكانت زوجته تمنعه وتُخبر عمَّه الخطَّاب، الذي كان يؤذيه ويُحاصره كراهة أن يُفسد عليهم دينهم وأن يُتابعه أحد منهم، حتى أخرجه إلى أعلى مكة، ووكَّل به شبابًا من شباب قريش وسفهاءاً من سفهائهم». ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب ذكر ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل، **١: ٢٢٩ ـ ٢٣١**، بتصرُّف. «وكان يُحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيكها مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها». **صحيح البخاري**، كتاب فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، **٣: ١٣٩٢**، ح: **٣٦١٦**. فكان بحق «نصير المرأة في الجاهلية، وقد توفي قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين». الزركلي خير الدين بن محمود، **الأعلام**، **٣: ٦٠**. وفي هذا يظهر وجود أفراد حاولوا تغيير الواقع الاجتماعي وإصلاحه ولكنَّهم لم يستطيعوا أن يُحقِّقوه على مستوى المجتمع.

(٢) يتبيَّن ذلك عند استعراض المسلمين الأوائل، وهم من الرجال والنساء والفتيان، وقد حصرت أغلبهم باعتبار القبائل كالتالي: من بني أسد (خديجة بنت خويلد، ٥٥ سنة؛ وعبد الله وعبيد الله وأبي أحمد بني جحش؛ والزبير بن العوام، ١٥ سنة، وقيس بن عبد الله وزوجه بركة

=

قريش»[١]. فحقَّق بذلك النواة الأولى للدعوة بشكل انتقائي، «وبانفتاح متوازن على

= بنت يسار)، ومن بني تيم (أبو بكر الصديق، **٣٨** سنة، وابنته أسماء، **١٤** سنة؛ وطلحة بن عبيد الله، **١٥** سنة)، ومن بني هاشم (علي بن أبي طالب، **١١** سنة؛ وجعفر ابن أبي طالب، **٢١** سنة، وزوجه أسماء بنت عميس الخثعمية، وأختها سلمى؛ وأمّ الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العباس عمّ النبي ﷺ، وبناته ﷺ)، ومن بني المطَّلب (عبيدة بن الحارث، **٥٠** سنة)، ومن حلفاء بني عبد مناف (مسعود بن الربيع، **١٧** سنة)، ومن بني عبد شمس (عثمان ابن عفان، **٣٤** سنة؛ وأبو حذيفة بن عتبة، **٢٩** سنة؛ وخالد بن سعيد بن العاص وزوجه أُمَينة بنت خلف)، ومن حلفاء نوفل (عتبة بن غزوان، **٢٧** سنة)، ومن بني زُهرة (عبد الرحمن بن عوف، **٣٠** سنة؛ وسعد بن أبي وقاص، **١٧** سنة، وأخوه عامر؛ والمطَّلب بن أزهر، وأخوه طُلَيب)، ومن حلفائهم (عبد الله بن مسعود، **٢٠** سنة تقريبًا)، ومن بني مخزوم (الأرقم بن أبي الأرقم، **١٧** سنة؛ وأبو سلمة بن عبد الأسد، وزوجه أم سلمة هند بنت سهيل، **١٥** سنة؛ وعياش بن أبي ربيعة وزوجه أسماء بنت سلامة)، ومن بني عديّ (سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب؛ ونُعَيم بن عبد الله)، ومن حلفاء عديّ (عامر بن ربيعة وزوجه ليلى بنت أبي حثمة)، ومن بني تميم (خباب بن الأرتّ، **٢٣** سنة؛ وواقد بن عبد الله)، ومن بني سهم (خُنَيس بن حذافة، ورملة بنت أبي عوف)، ومن بني جمح (عثمان وعبد الله وقدامة بنو مظعون، والسائب بن عثمان بن مظعون، ومعمر بن الحارث وأخواه: حاطب، وحطَّاب وزوجه فكيهة بنت يسار)، ومن بني عامر (حاطب بن عمرو وأخوه سليط بن عمرو، وسهلة بنت سهيل بن عمرو، وفاطمة بنت المجلَّل)، ومن بني فهر (أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، **٢٧** سنة)... وفيهم أيضًا من الموالي (زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق الذي أعتقه، **٢٣** سنة). فكان واضحًا منذ الوهلة الأولى أنَّ الإسلام ليس خاصًّا بمكة ولا بقريش. يُراجع: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**. وابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**. وسميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٣١٧ ـ ٣٣٨. الزركلي، **الأعلام**.

(١) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٧٢.

الجميع، ممَّا أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفُّظات متَّصلة بالعصبية»[١]. ويُعتبر تشكُّلها سببًا يُمكن أن تتلافى الدعوة به القضاء عليها وإخفاء معالمها وتشويهها كما حدث مع أصحاب تجارب إصلاحية قبل النبوة.



(١) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٣٣، بتصرُّف.

المبحث الثاني: الدعوة الجماعية لقريش وموقفها منها

بعد تشكُّل النواة الأولى، حان وقت الجهر بالدعوة وعرضِها بشكل علني، وهي ليست مرحلة مستقِلَّة كما درج في تقسيم كثير من كتب السِّيَر، بل مكمِّلة للمرحلة الأولى حسب فرضية البحث.

كان خبر الدعوة قد وصل إلى قريش إجمالاً بَيد أنَّها لم تكترث بها»[١]، فلم يرَوا داعيًا للإنكار أو الاعتراض، لكنَّ بعض قريش كان لديهم موقف سلبي رافض لما يحدث كما سيظهر.

في هذا الوقت، «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صَلَّوا ذهبوا في الشِّعاب واستخفَوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر يُصلُّون بشعاب مكة، إذ ظهر عليهم بعض المشركين فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بلَحْي [أي: عظم فخذ] جملٍ فشجَّه، فكان أول دم أُهريق في الاسلام»[٢].

لم يتوقَّف الأمر عند هذه المواجهة، فتورد إحدى الروايات أنَّ «قريشًا كانت لا تُنكِر صلاة الضحى، إنما تُنكِر الوقت، وكان رسول الله ﷺ إذا جاء وقت العصر تفرَّقوا إلى الشعاب فصلَّوا فُرادى ومثنى. فمشى طُلَيب بن عُمَير وحاطب بن [عمرو بن] عبد شمس يُصلُّون بشِعْب أجناد، بعضهم ينظر إلى البعض، إذ هجم عليهم ابن الأصيدي وابن القبطية، وكانا فاحشَين، فرمَوهم بالحجارة ساعة حتى خرجا وانصرفا وهما يشتدَّان، وأتيا أبا جهل وأبا لهب وعقبة بن أبي مُعَيط، فذكروا لهم الخبر. فانطلقوا لهم في الصبح وكانوا يخرجون في غَلَس الصبح، فيتوضَّئون ويُصلُّون. فبينما هم في شِعْب إذ هجم عليهم أبو جهل وعقبة

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٧٣، بتصرُّف.

(٢) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٣١٨. وابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣: ٥٠.

وأبو لهب وعِدَّة من سفهائهم، فبطشوا بهم، فنالوا منهم وأظهر أصحاب رسول الله ﷺ الإسلام وتكلَّموا به ونادَوهم وذبُّوا عن أنفسهم. وتعمَّد طُلَيب بن عُمَير إلى أبي جهل فضربه فشجَّه، فأخذوه وأوثقوه، فقام دونه أبو لهب حتى حلَّه، وكان ابن أخيه. فقيل لأروى بنت عبد المطلب: ألا ترَين إلى ابنك طُليب قد اتَّبع محمَّدًا وصار عرضًا له؟ وكانت أروى قد أسلمت فقالت: خير أيام طُلَيب يوم يذبُّ عن ابن خاله وقد جاء بالحقّ من عند الله تعالى. فقالوا: وقد اتَّبعت محمدًا؟ قالت: نعم. فخرج بعضهم إلى أبي لهب فأخبره، فأقبل حتى دخل عليها، فقال: عجبًا لك ولاتِّباعك محمَّدًا وتركت دين عبد المطلب، قالت: قد كان ذلك، فقُم دون ابن أخيك فاعضده وامنعه، فإن ظهر أمره فأنت بالخيار، إن شئت أن تدخل معه أو تكون على دينك، وإن لم تكن كنت قد أعذرت ابن أخيك، قال: ولنا طاقة بالعرب قاطبة، ثم يقولون: إنه جاء بدين مُحدَث، قال: ثم انصرف أبو لهب»[1]. وقد ورد عن أبي لهب أيضًا قوله للنبيّ ﷺ: ماذا أُعطى يا محمد إن آمنت بك؟ قال: «كما يُعطى المسلمون». فقال: مالي عليهم فضل؟ قال: «وأيّ شيء تبتغي؟» قال: تبًّا لهذا من دين، تبًّا أن أكون أنا وهؤلاء سواء[2].

وبالعودة إلى أبي الحكم عمرو بن هشام المخزومي (أبي جهل) الذي كان يتصدَّر القيادات في قريش، فقد ورد عنه قوله: «تنازعنا نحن [أي: بنو مخزوم] وبنو عبد مناف [جدّ عبد المطَّلب] الشَّرَف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطَينا، حتى إذا تحازَينا على الرَّكب وكنا كفرَسَي رِهان قالوا: منَّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُدرك مثل هذه؟ والله لا نُؤمن به أبدًا ولا نُصدِّقه»[3].

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب ذكر أروى بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، ٤: ٥٧، ح: ٦٨٦٨.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة المسد، ٢٤: ٦٧٥. مع ربط نزول سورة المسد إلى ما بعد الجهر بالدعوة كما سيتبيَّن من الرواية في الصحيح.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب قصة استماع قريش إلى قراءة النبي ﷺ، ١: ٣١٦. ولكن «لم =

هذه المواجهات الأُولى حدثت في مرحلة الاستخفاء، وتُظهِر عدم حِرص المسلمين على الظهور بممارسة شعائرهم الدينية أو المبادرة باستفزاز المجتمع المكي (الذين هم جزء من نسيجه). وبتحليلها لتحديد الأسباب الذي دعت مشركين من قريش - بشكل عفوي أو منظَّم، ومن المستوى العام أو القيادات - إلى التعدِّي على متَّبعي الدعوة الجديدة، يتبيَّن أنَّها تعلَّقت برفض التعددية المجتمعية بجميع أقسامها. فقد رفضوا التعددية العَقَدية (الخروج عن دين عبد المطَّلب)، وتمظهراتها الثقافية (الصلاة في غير الأوقات المعتادة منهم)، وتأثيراتها السياسية (الخوف من ردة فعل العرب على الدعوة ومآلاتها العسكرية)، ومساواتها العرقية - الطبقية (رفضهم العدل والمساواة بين المسلمين، وتغليبهم التفوُّق بالتنافس المصلَحي بين القبائل).

بعد هذه الواقعة[1]، دخل النبيُّ ﷺ وأصحابه مُستَخفين في دار الأرقم[2]، فكانوا

= يثبت بطريق صحيحة هذا الاعتراف من أبي جهل، بسبب الانقطاع في إسناد الرواية.. ولا يعني ذلك [الضعف] نفي وقوع الأمر تاريخيًا، بل عدم ثبوته فقط، وما أكثر الأحداث التاريخية التي وقعت ثم لا يمكن إقامة الأدلة الصحيحة عليها». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٦٣، بتصرُّف.

(١) «تذكر كتب السيرة أنَّ اتخاذ دار الأرقم مقرًّا للقيادة كان بعد مواجهة سعد بن أبي وقَّاص السابقة». د. علي الصلابي، **السيرة النبوية - عرض وقائع وتحليل أحداث**، ص٩٥، بتصرُّف. إنَّنا نرى أنَّ هذه الاحتكاكات ربَّما كان لها دور مزدوج: فأزالت هيبة قريش من المسلمين بعد الرد الفردي على تعدِّيهم، وألجأت النبي ﷺ - خاصة بعد نزول الوحي بالجهر بالدعوة - إلى الاجتماع مع قبيلته لعرض الدعوة عليهم مبادرة منه قبل شدة انتشار الأخبار وتبنِّي المواقف المسبَقة بين القبائل.

(٢) دار الأرقم: كانت هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرًّا، فيتلو عليهم آيات الله ويُزكِّيهم ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة؛ وليُؤدِّي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله وهم في أمن وسلام، وليدخل مَن يدخل في الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة». صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٨٧.

يُقيمون الصلاة بها ويعبدون الله تعالى فيها إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين»[١]، وكان ذلك في أواخر مدَّة الدعوة الخاصة «بين أواخر السنة الثالثة وبداية السنة الرابعة»[٢]. وإنَّ لاختيار دار الأرقم تحديدًا أسبابًا وجيهة، فالأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه، وهو من بني مخزوم[٣] التي تحمل لواء التنافس والحرب ضدّ بني هاشم كما تبيَّن، إذ يُستبعد أن يختفي الرسول ﷺ في قلب الخصم المعادي للدعوة، ولأنَّ الأرقم كان شابًّا عندما أسلم (١٦سنة) فلا تنصرف الأذهان إليه.

حتى إذا أوحِيَ إلى النبيّ ﷺ الجهر بالدعوة وإظهار الدين، نزل الوحي بـ: «وأنذر عشيرتك الأقربين، ورهطك منهم المخلصين»[٤]، «فاشتدَّ ذلك على النبيّ ﷺ وضاق به

---

(١) الحلبي علي بن برهان الدين، **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، ١: ٤٥٦ ـ ٤٥٧، بتصرُّف.

(٢) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٣٤٩، بتصرُّف.

(٣) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٨٧.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة المسد، ٤: ١٩٠٢، ح: ٤٦٨٧. ويُلاحظ في تلك الرواية الصحيحة أنَّه تمَّ جمع جملتَين تحت عنوان «نزلت»، مع أنَّ الجملة الأولى نصّ للآية (٢١٤) من سورة الشعراء، والجملة الثانية ليست من القرآن، الأمر الذي ألجأ بعض الشرَّاح إلى تصنيفها من قبيل التفسير، أو القراءة الشاذة، أو منسوخ التلاوة، كما في التعليقات في المصدر نفسه، وقريب منها في: ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب التفسير، سورة الشعراء، ٨: ٥٠٢. وقد ذهب الشيخ حبنكة رحمه الله إلى أنَّ «جمع الجملتَين تحت عنوان «نزلت» يدلُّ على أنَّها نزلت وحيًا غير قرآن، ولم تنزل قرآنًا في أوائل العهد المكي، والله أعلم». عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة المسد، ١: ٣٧٨، بتصرُّف. وأما رواية ارتباط الجهر بالدعوة بنزول ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحِجر: ٩٤] فضعيفة الإسناد. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٤٣، بتصرُّف. وسيأتي الحديث عن تلك الآية في التعقيب على سورة الحِجر ص٢٥٣ وما بعدها.

ذرعًا، لأنَّه عرف أنَّه متى يُباديهم بهذا الأمر فإنَّه سيرى منهم ما يكره»[١]. لكنَّه بعد فترة[٢] عاد «فجمع بني عبد المطَّلب (جدَّه) ودعاهم إلى طعام، فلمَّا أراد أن يُكلِّمهم بدره أبو لهب إلى الكلام بما يُسيء إلى النبيّ ﷺ والدعوة، فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلَّم في ذلك المجلس، ثمَّ دعاهم إلى مجلس آخر وأعلن دعوته لهم أنَّه رسول من الله إلى الناس، وأنَّ البعث والحساب حقّ، وأنَّ الخلود في الجنة أو النار هو المآل، ثمَّ طلب مؤازرتهم له. فتكلَّم القوم كلامًا ليِّنًا غير أبي لهب الذي طلب أن يتمّ منع النبيّ ﷺ من الدعوة مخافة ردّة فعل بطون قريش والعرب على الدعوة، إلا أنَّ أبا طالب [عمّ النبيّ ﷺ وكبير العائلة حينها] أعلن قراره بقوله: «والله لَنَمنعنَّه ما بقينا»[٣].

حينها، «وبعد تأكُّد النبيّ ﷺ من تعهُّد أبي طالب بحمايته وهو يُبلِّغ عن ربه، صعد ﷺ على الصفا»[٤] لدعوة قومه، فنادى جميع القبائل بأسمائها وقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: «فإنِّي نذير لكم بين يدَي عذاب شديد». قال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعتنا إلا لهذا. ثم قام. فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][٥].

□ **المسد**: وفيها «انتصار الله لرسوله ﷺ ضدَّ عمِّه أبي لهب[٦] الذي آذاه بالدعاء عليه

---

(١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٣١٩ ـ ٣٢٠، بتصرُّف.

(٢) ورد في السيرة الحلبية أنَّها وصلت إلى الشهر. **السيرة الحلبية**، ١: ٤٥٧.

(٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢١، بتصرُّف. و**السيرة الحلبية**، ١: ٤٥٩، بتصرُّف.

(٤) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٧٥.

(٥) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة المسد، ٤: ١٩٠٢.

(٦) في ذكر كنية عمِّ النبي ﷺ صراحة خلافًا لجميع كفار قريش دلالة إضافية بسبب خاصية عمومته له، فقد «كان يصرف الناس عن محمد ﷺ بقوله: إنه مجنون، والناس ما كانوا يتَّهمون أبا لهب لأنه كان كالأب له، فصار ذلك كالمانع من أداء الرسالة إلى الخَلق، فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة، فصار بسبب تلك العداوة مُتَّهَمًا في القدح في =

بالخسران والهلاك والانقطاع، فكان جزاؤه خسران كسبه بسبب اعتزازه بما يملك في معاداته للرسول ﷺ ومقاومة [الدعوة]»[١]، «وذِكر جزاء امرأته (أم جميل بنت حرب) التي كانت «تنمُّ على النبيّ ﷺ وأصحابه إلى المشركين فتوقد بينهم العداوة»[٢].

وبذلك بدأ الانتقال إلى الدعوة الجماعية، بعد تحقُّق النبيّ ﷺ من وجود ضمانات ـ من عُرف المجتمع وعاداته المؤثِّرة والمتجذِّرة فيه ـ تكفل حمايته مهما كان موقف الدعوة من نظام قريش ومصالح كبرائها.



= محمد ﷺ فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك. [كما تكمن] الحكمة [أيضًا في] أن محمدًا ﷺ لو كان يُداهن أحدًا في الدين ويُسامحه فيه، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمّه الذي هو قائم مقام أبيه، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع، وعلم كلُّ أحد أنَّه لا يُسامح أحدًا في شيء يتعلَّق بالدين أصلاً. وكونه عمًّا يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه، [ولكن] لما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة لا جرم استحقَّ التغليظ العظيم». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة المسد، ٣٢: ٣٥١.

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة المسد، ١: ٣٨١ـ٣٨٥، بتصرُّف.

(٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب التفسير، سورة الضحى، ٨: ٧٣٨، بتصرُّف.

المطلب الأول
رسالة الوحي عملية تطبيقية لإصلاح المجتمع التعددي

«لما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام. . . لم يبعُد منه قومه ولم يردُّوا عليه»[(١)]، وقد «استجاب لله مَن شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كَثُر مَن آمن به[(٢)]، وكفار قريش غير منكرين لما يقول. فكان إذا مرَّ عليهم في مجالسهم يُشيرون إليه أنَّ غلام بني عبد المطلب ليُكلَّم من السماء»[(٣)].

ولكن إلى جانب ذلك، كانت بعض قيادات قريش رافضة لهذه الدعوة رَفضًا منها للتعددية المجتمعية بكل أقسامها كما تبيَّن. وقد انتقل بعض هذا الرفض من القول إلى الفعل. فقد أمر عمّ النبيّ ﷺ أبو لهب ابنَيه أن يُطلِّقا بنتَي النبيّ ﷺ رقية وأمّ كلثوم اللَّتَين كانا قد تزوَّجاهما دون الدخول بهما، فطَلَّقا بناته[(٤)]. ومهما كانت النتيجة إيجابية لصالح آل

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب مباداة رسول الله ﷺ قومه وما كان منهم، ١: ٢٦٤.

(٢) ممَّن ورد أنه أسلم بمكة قديمًا، أي: بين ما قبل الجهر بالدعوة (٣ب) إلى الخروج من دار الأرقم (٥,٥هـ): من بني عبد الدار (مصعب بن عمير، ٢٧ سنة)، وبني عدي (زيد بن الخطاب، ٢٨ سنة)، وحلفاء بني مخزوم (عمار ووالده ياسر وأمه سمية)، ومولَّد بني جمح (بلال بن رباح، ٤٥ سنة)، وبني تميم (سلمى أم أبي بكر)، وبني أمية (أم كلثوم وأم عثمان، ورملة بنت أبي سفيان)، وبني هاشم (فاطمة أم علي، وصفية وأروى عمتَي النبي ﷺ)، وبني عبد قصي (طُلَيب بن عمير، ١٢ سنة)، بني عامر (حاطب بن عمرو)، ومن الجواري (أم عبيس، وزنيرة، والنهدية، وابنتها، ولبيبة). . . وسيُقارب العدد المعروف للمسلمين عند الخروج من دار الأرقم (١٢٠) مسلمًا ومسلمة، في محيط يتجاوز الـ (١٠،٠٠٠) لعدد سكان مكة حينها.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب ذكر دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام، ١: ١٩٩، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ٨: ٣٦ ـ ٣٧، بتصرُّف.

البيت النبوي وخسارة على بيت أبي لهب، فإنَّه لا يُمكن التغاضي عن أثرٍ هكذا حدث في العائلة، لنُدرك أعماقًا وجدانية أيضًا للتضحيات التي على النبيّ ﷺ وآله والمؤمنين أن يبذلوها في سبيل إيمانهم وثباتهم على مبادئهم ودعوتهم. وقد تزوَّج عثمان بن عفان رضي الله عنه رقيَّة فيما بعد.

إنَّ هذا الوضع «المحايد» لن يستمرّ طويلاً على هذا النحو، فالوحي الإلهي ليس دينًا نظريًا، بل له ارتباط وثيق بالحياة كما تَبيَّن في الآيات الأولى المنزَلة في العلق والمدَّثِّر خصوصًا، فسيُطالب بإصلاحات اجتماعية يكون الإيمان بالله وحده (وما يقتضيه من نبذ للأوثان) والإيمان باليوم الآخر (وما يقتضيه من إيمان بالبعث والجزاء) دافعًا لتحقيقها، وسيجعل الدعوة امتدادًا طبيعيًا لموكب الأنبياء، خاصة: إبراهيم عليه السلام (جدّ العرب وأبو الأنبياء والرسالات السماوية) وموسى عليه السلام (نبيّ أهل الكتاب). ولكنَّ قريشًا بالمقابل لم يُمكنها تحمُّل وجود هذه الدعاوى الإصلاحية، وذلك تمامًا كما لم تتحمَّل المُصلحين السابقين والذي دعَوا أيضًا للعودة إلى دين إبراهيم عليه السلام[١].

لذلك في وسط هذا الجوّ «المحايد» (الغالب حتى الآن) على المستوى العام، والرافض على مستوى بعض قيادات قريش، نزلت السور التالية[٢]:

---

(١) يُراجع الهامش (١) ص١٥٠، والخاص بعرض نموذج من الإصلاحيين قبل النبوة.

(٢) هذه السور (أي: التكوير والأعلى والليل والفجر والضحى والشرح والعصر والعاديات والكوثر والتكاثر والماعون والكافرون) جميعها مكية وهكذا ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الثلاث (البيهقي، وأبي عمرو الداني، وابن الضريس)، وأما اللائحة الرابعة ضعيفة الإسناد، فتمَّ فيها تقديم سورة العاديات على سورة العصر. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فأورد أبو عبيد سورتَي الليل والفجر ضمن السور المدنية، خلافًا لجميع راويات الترتيب وبقية روايات تحديد المكي من المدني (الحارث المحاسبي، وابن الأنباري، وأبي جعفر النحاس)، وبقي أن نقول: إن سورة الماعون شكّ أحد الرواة في مدنيتها في رواية الحارث المحاسبي.

□ «**التكوير**»: وفيها مشاهد القيامة بعرض نهاية الظواهر الكونية المُشاهَدة في الدنيا، وخطاب إلى قوم النبي ﷺ بنفي الجنون عنه أو كونه متّهمًا يُشكُّ في أخلاقه، أو أنَّ ما يوحى إليه مصدره شيطان، وإقرار بأنَّ الوحي ذِكْر للعالمين لكلِّ مُريد للاستقامة. وتظهر في السورة بجلاء بداية انتقاد مظاهر الجاهلية في المجتمع الماثلة في ممارسات من الثقافة الاجتماعية الخاطئة بحقّ الشرائح الضعيفة فيه، فتبدأ في هذه السورة بانتقاد ظاهرة الوَأْدِ «بدفن البنات أحياءً خوفًا من العارِ عند سبيِهنَّ في الغزوات الجاهلية»[1].

□ «**الأعلى**»: وفيها «توحيد الربوبية بالخلق، والإلهية بالرسالات»[2]، تتميمًا لمعاني الآيات الأولى من سورة «العلق» في ذكر مآل الخَلق (بتمثيل نبات الأرض) إلى الغثاء، أي: «الهبوط والانحطاط بعد الصعود إلى الكمال. وإثبات مهمّة الرسول ﷺ بالتذكير، وعلى الله التيسير بالتهيئة والإمداد له بما تتطلّبه تلك المهمّة، حتى يدعو للملّة اليُسرى (الميسَّرة تكاليفها على الإنسان). وهنا، تكون مبادئ الوحي لمَن يخشى (مقابل الأشقى) هي سبيل الفلاح [الحقيقية] بالتزكية ـ طهارة ونماء ـ وبعبادة الله»[3]، ويتطلّب ذلك إيثار الآخرة على الدنيا. وقد تمَّ الاستشهاد بصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام كتأكيد لكون الدعوة امتدادًا لما قبلها من الرسالات.

□ «**الليل**»: وفيها الإشارة إلى طلاقة قدرة الله في خلقه واختلاف إراداتهم، ولكنَّ إرادات كلٍّ منهم في النهاية «إما أن تصب في سعي في الخير (بالعطاء والتقوى والتصديق بالملة الحُسنى المفضَّلة في الحُسن) فجزاؤه إمداد بالتيسير في شؤونه (دنيا وآخرة)، أو

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة التكوير، ١: ٤١١، بتصرُّف.

(٢) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الأعلى، ٩: ١٠٨، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأعلى، ١: ٤٥٠ ـ ٤٦٣، بتصرُّف.

تصب في سعي في الشر (بالبخل وتوهُّم الاستغناء عن الله والتكذيب بالرسالة) فجزاؤه تهيئة أسباب ظروف الحياة الدنيا وفق اختياره حتى تنتهي مسيرته بالعسر في شؤونه (دنيا وآخرة)، ولن ينفعه ماله في هذا التردِّي العسير. فالله قد تكفَّل عبر إرسال الرسل بإعلام الناس بالحق والخير والفضيلة، ليختار الإنسان طريقه. وتُختَم السورة بالمقارنة بين نتائج سعي الأشقى (النار) مقابل دوافع سعي الأتقى (ابتغاء وجه الله)»[١].

وهنا نلحظ خطابًا اجتماعيًا للدين وممارساته المطلوبة في نفع طبقات المجتمع بالأموال ـ عبر ربطها بتزكية النفس ـ التي تُركِّز الآيات عليها، وتدلُّنا بالإشارة على أنَّ الحرص عليها وخوف نقصانها كان سببًا هامًّا لقريش في رفض التعدّدية والإعراض عن الدعوة.

□ «**الفجر**»: وفيها إهلاك الطغاة والجبابرة بسبب الطغيان والإفساد، وفي ذلك تهديد ضمني (يتناسب مع الأمر بالإنذار في سورة المدَّثِّر) عبر ذكر نموذج واقعي من التاريخ، يتمّ الاستدلال به على المفاهيم السابقة، وأنَّ الآيات في السور السابقة تُعبِّر عن وعد بالخير ووعيد بالشَّرّ تحقَّقا فعلاً. بالمقابل، تُنبِّه السورة لتصحيح «مفهوم خاطئ حول قضية بَسْط الرزق أو تضييقه، بأنَّها حكمة وابتلاء لا ينبغي أن يُفهم منها؛ إكرامُ الله للغني، وإهانةُ الله للفقير. [ثمَّ تنتقل الآيات مباشرة لانتقاد ممارسات من الطبقية الاجتماعية ـ خارجية (في المجتمع) وداخلية (ضمن العائلة) وحتى قَلْبية (وِجدانية) ـ خاطئة في عدم الرعاية الاجتماعية لأفراد المجتمع الواحد] بعدم إكرام اليتيم والحضِّ على طعام المسكين. فكان حالهم الشَّره لامتلاك الأموال وحُبّهم الشديد له»[٢] بسبب هذا الانقلاب في المفاهيم. وكان الخطاب الأخير في السورة بعرض مشاهد القيامة كدافع لتغيير تلك الممارسات وتصحيح المسار في الحياة الدنيا، فأصبح الدين هو حاجة كل إنسان لتستقيم مفاهيمه

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الليل، ١: ٤٨٥ ـ ٥٠٤، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الفجر، ١: ٥٣١ ـ ٥٣٩، بتصرُّف.

وتتصحَّح ممارساته. كما يُلاحظ أنَّ اختيار هذه الأقوام الماضية تحديدًا؛ لأنَّ المُخاطَبين (قريش)، وخاصة «التجار منهم يعرفون آثارهم؛ لأنَّهم يمرُّون عليهم في أسفارهم، ويتوارَثون أخبارهم»[١]، وفي ذلك اقتراب من «موروثهم الحاضر»[٢].

إنَّ هذا الخطاب القوي في انتقاد قريش وفضح ممارساتهم وتوعُّدهم ومطالبتهم بإنفاق الأموال (عكس رغباتهم)، تبعه فتور للوحي[٣] لليلة أو ليلتَين؛ ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ اشتكى، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، إني لَأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، فأنزل الله تعالى سورة «الضحى»[٤]. وهذه المرأة ما هي إلا أمّ جميل بنت حرب امرأة أبي لهب[٥] التي ظهرت العداوة لها في سورة «المسد»، فقالت ما قالت شماتة وتهكُّمًا «مُتَصيِّدة ما يُمكن أن يُثير وخزات إعلامية ضدّ دعوة الرسول ﷺ ورسالته»[٦]، باعتبارها أحد أساليب تعميم رفض الدعوة. بالمقابل، كان للسيدة خديجة زوج النبيّ ﷺ تفاعلاً مع هذا الموقف بالتعاطف والتوجُّع لحال النبيّ ﷺ بقولها: ما أرى ربَّك إلا قد قَلَاكَ، ممَّا نرى من جَزَعك[٧]. بعدها، عاد نزول الوحي بسورة «الضحى».

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الفجر، ١: ٥٤، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الشمس، ١: ١١١، بتصرُّف.

(٣) ورد في: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣: ٢٤، وفي: الطبري، **جامع البيان**، سورة العلق، ٢٤: ٥٢٠، ما يُظهر كون السورة متقدِّمة النزول عن هذا الموضع من الترتيب، لكن، وكما ذهب ابن حجر في «الفتح»، فقد اعتبر أنَّ ذلك خلطٌ من بعض الرواة بين فتور الوحي المذكور في سبب نزول الضحى وبين فتور الوحي الذي حدث عند ابتداء الوحي. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب التفسير، سورة الضحى، ٨: ٧١٠، بتصرُّف.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة الضحى، ٤: ١٨٩٢، ح: ٤٦٦٧، بتصرُّف.

(٥) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب التفسير، سورة الضحى، ٨: ٧١٠، بتصرُّف.

(٦) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة ص، ٣: ٤٧١، بتصرُّف.

(٧) الطبري، **جامع البيان**، سورة الضحى، ٢٤: ٤٨٧.

□ «**الضحى**»[1]: وفيها «نفي لإشاعة فراق الوحي للنبيّ ﷺ وهجرانه، وإعلامه أنَّ قابل الأيام خير من ماضيها، بدلالة مِنَن الله السابقة على النبيّ ﷺ منذ أوائل نشأته حتى بعثته. وانتهت السورة بتكليف النبيّ ﷺ بمقابلة نِعَم الله عليه بواحدة من جنسها، بعدم قهر اليتيم (أي: بإكرامه دون تعالٍ وتفضُّلٍ) وعدم زجر السائل وإغضابه (أي: بإطعام المسكين مع مراعاة وِجدانه) واستكمال الدعوة (التي هي: نعمة الله كما سبق في سورة «القلم»)»[2].

وبذلك، تُحقِّق السورة تثبيتًا للنبيّ ﷺ في مهمَّته، وتنتقل في خطابها الاجتماعي من انتقاد الممارسات الخاطئة في المجتمع (كما في السور السابقة) إلى التوجيه للقيام بمبادرات عملية من النبيّ ﷺ (والمؤمنين بالدعوة) في المجالات التي تمَّ افتقادها في المجتمع ومع تلك الشرائح الضعيفة.

□ «**الشرح**»: وفيها استكمال عرض مِنَن الله على النبيّ ﷺ فيما يتعلَّق بالجانب الخاص بنبوَّته «من شرحٍ للصدر (بحادثة شقِّ الصدر، وإيضاح حقائق الدين له) وإلقاء هموم إصلاح حال الأمة (حين كان يخلو في غار حراء بحثًا عن الهداية لتحقيق هذا الإصلاح، وقد حدث بالوحي) ورفع ذِكْرِه الحَسَنَ، للدلالة على أنَّ اليُسر (غير المنظور) سيغلب صعوبات تأدية الرسالة، وعلى النبيّ ﷺ أن يلجأ إلى الله ليستمدَّ منه العون»[3].

---

(١) «اختلط على بعض الرواة حادثة إبطاء الوحي التي أعقبها نزول سورة الضحى، فحسبوا أنها نزلت عقب فترة الوحي الطويلة التي أعقبت نزول ﴿ٱقْرَأْ﴾. وسند تلك الرواية مُرسَل وهو مخالف للروايات الصحيحة». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٢٧، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الضحى، ١: ٥٥٩ـ ٥٧٣، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة الشرح، ١: ٥٨٤ـ ٥٩٣، بتصرُّف.

□ «**العصر**»: وفيها «توضيح رسالة الحياة وسبب سعادة الإنسان ونجاحه عند الاعتصام بأُسُس الفضيلة وأساس الدين: إيمانًا وعملاً صالحًا وتواصيًا بالحقّ وبالصبر. وبمقابلها تكون الشقاوة والخسارة»[١]. فبعد استعراض السور السابقة التي أخذت أسماء أجزاء من الزمن في القَسَم المرتبط بالمُقسَم به[٢]، جاءت سورة العصر للدلالة على «قيمة الوقت في حياة الإنسان، فأصبح عمره هو رأس ماله الحقيقي، وعليه باغتنامه لتحقيق النجاح»[٣].

□ «**العاديات**»: وفيها استكمال انتقاد الممارسات الاجتماعية الخاطئة من جانب السياسة الخارجية، سببها حبّ المال، وهي «قبيحة غزو الناس بعضهم لبعض للسلب والنهب والسطو على الأموال عدوانًا وظُلمًا، كأنَّه حقّ مشروع للأقوياء على الضعفاء. ويستخدمون في ذلك إحدى نِعَم الله على الناس، وهي نعمة الخيل المهيَّأة للقتال، فكان الإنسان جَحودًا بالنعمة بسبب دافع حبِّ أنانيٍّ للمال. لكن تُختَم السورة بالتذكير بيوم البعث من القبور، وتمييز ما في الصدور من النيات والمقاصد والمعتقدات، وأنَّ الله خبير بهم فيُحاسبهم بعدل ولا يظلمهم»[٤].

□ «**الكوثر**»: وفيها تسلية للنبيّ ﷺ ودفاع عنه بعد وفاة ولده عبد الله ـ بعد أن كان وَلَده الأول القاسم قد مات ـ فنَعَتَه أحد خصوم الدعوة جهرًا[٥] أنَّه بذلك «قد انقطع ولده فهو

---

(١) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة العصر، ٩: ٣٢٦، بتصرُّف.

(٢) يُراجع: ابن قيّم الجوزية، **التبيان في أقسام القرآن**. ففيه إظهار حِكَم في مناسبة القَسَم للمُقسَم عليه في السور القرآنية.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة العصر، ١: ٦٠٦، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة العاديات، ١: ٦٢٨ ـ ٦٤٠، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، سورة ص، ٣: ٤٧١، بتصرُّف.

أبتر»[1]، أي: لا وَلَد ذكر له ليكون مُعينًا له عند الكِبَر. فكان الجواب من الله تعالى أنَّه أعطى لنبيِّه ﷺ الكوثر[2]، وأمره بالصلاة وذبح الإبل للإطعام كأصل في العبادة الحقَّة الذي ابتعدت عنها قريش وتحوَّلت إلى الوثنية. كما وجَّهت الآيات مفهوم الأبتر من المعنى السابق إلى معنى «الأقطع من كل خير، باتِّهام مُبغِض النبيّ ﷺ بذلك، لأنَّه صائر إلى عذاب الله، وسيكون هو الخاسر»[3].

□ «**التكاثر**»: وفيها السبب الذي دعا خصوم الدعوة إلى «استبعاد يوم الدين من حساباتهم، وهو التلهِّي بالتكاثر من الأموال ولذَّات الحياة حتى موتهم، فيتحقَّق حينها علم اليقين لهم فيما بعد الموت، ثمَّ عين اليقين بمعاينته يوم البعث، ثمَّ يُسألون عن النعيم الذي فاتهم في الجنة»[4]. وهذا قد يُعتبر تتميمًا لتوجيه المفاهيم في السورة السابقة، فكما الأبتر الحقيقي هو الأقطع من كل خير، فيُقابله أنَّ التكاثر في الأموال والأولاد كان سببًا في تلهِّيهم عن أمور الآخرة، فتُقابِل سورة التكاثر سورة الكوثر.

---

(١) «كان أول مَن مات من ولده ﷺ القاسم، ثم مات عبد الله بمكة، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده فهو أبتر. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب ذكر أولاد رسول الله ﷺ وتسميتهم، ١: ١٣٣. وابن كثير، **البداية والنهاية**، ٥: ٣٢٨، بتصرُّف.

(٢) ذكر رسول الله ﷺ الكوثر لأصحابه قائلاً: «هو نهر وعدنيه ربِّي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض تَرِد عليه أُمَّتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم». **صحيح مسلم**، كتاب الصلاة، باب حجة مَن قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، ١: ٣٠٠، ح: ٤٠٠.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الكوثر، ١: ٦٥٣-٦٥٩، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة التكاثر، ١: ٦٦٤ - ٦٨١، بتصرُّف. والسؤال عن النعيم في سياق الآية هو للكافرين بعد دخولهم الجحيم. وكلُّ ما جاء في القرآن من النعيم فالمراد به نعيم الجنة، أما لذَّات الدنيا فجاء التعبير عنها بأنَّها متاع. وبسبب ترك هذا الاستقراء والنظر في وحدة موضوع السورة إضافة إلى اعتماد أحاديث مروية عن الرسول ﷺ، توسَّع الرواة في استعمال لفظ «النعيم». المصدر نفسه، سورة التكاثر، ١: ٦٨٠ - ٦٨٢، بتصرُّف.

◻ «**الماعون**»: وفيها استكمال انتقاد ممارسات الطبقية الاجتماعية الخاطئة أيضًا، وإرجاع سببها إلى «التكذيب بيوم الدين، أي: قانون الجزاء الرباني. ومن ظواهرها في هذه السورة تعنيف اليتيم ومعاملته بغلظة، وعدم الحضّ على طعام المسكين، ومراءاة الناس ببعض الظواهر الدينية (غير المُكلِفة)، ومنع إعارة الماعون (أدوات البيت) مع أنَّه لا خسارة في إعارتها»(١). وفي هذا دليل على الأهمية البالغة للجانب العَقَدي في ركن الإيمان باليوم الآخر كدافع لالتزام السلوك المستقيم، لأنَّ «التكذيب بالبعث يُجرِّئ على مساوئ الأخلاق»(٢) التي سبقت نماذجها. وبالمقابل، يُصبح هو الدافع المطلوب لقَبول أقسام من التعدّدية المجتمعية.

ولكنَّ القيادة في قريش لم تكن لتُغَيِّر ما ورِثته من الآباء من دين جعل لهم مكانة عند العرب ثمَّ ـ كما ترى ـ تُسلِّم أمرها لبني هاشم! حتى ولو كانت عودة إلى دين إبراهيم عليه السلام بإصلاحات اجتماعية منسجمة مع العقل والفطرة ومحاسن العرب كبديل عن عاداتهم المظهرية للدين وقبائح بعض ممارساتهم الاجتماعية.

لذلك، ألجأ هذا السَّيل من الانتقادات الفاضِحة لقريش من جهة، والكاشفة للأسباب الحقيقية لرفض الاعتراف بالدعوة الجديدة والخضوع لها من جهة أُخرى، أن يقوم وفد من خصوم الدعوة (الذين أعطتهم السورة السابقة وصف الذي يُكذِّب بالدين) يتكوَّن من «الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خَلَف بلقاء رسول الله ﷺ، فقالوا له: يا محمد، هلمَّ فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونُشرِكك في أمرنا كلِّه، فإن كان الذي جئت به خيرًا ممَّا في أيدينا كنَّا قد شركناك فيه وأخذنا بحظِّنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرًا ممَّا في يدك كنتَ قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظِّك منه. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حتى انقضت السورة»(٣).

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الماعون، ١: ٦٨٨، بتصرُّف.

(٢) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الماعون، ٩: ٣٧٧، بتصرُّف.

(٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٣٣٧. ولكن «لم يثبت بطريق صحيحة أنَّ قريشًا =

□ «**الكافرون**»: وفيها «أعنف مواجهة للمساوِمين على الباطل المداهنين للحقّ المُفاوِضين للخلط بين الحقّ والباطل بغية إقامة مصالحة توفيقية بين متناقضات لا يُمكن اجتماعها [كما ظهر من الاختلافات بين النَّهجَين في السور السابقة]. وقد أعلنت السورة وصفًا جديدًا لهم ـ بدون مقدِّمات ليِّنة ـ يُناسب هذا التحرُّك وهو «الكافرون»، أي: الجاحدون للحقّ الديني الربَّاني بستر أدلة الإيمان والإسلام بعد أن وضحت لهم وعرفوا الحقّ. ثمَّ أقرَّت الآيات أنَّه للكافرين دينهم (ليس للمؤمنين منه شيء يُخالف دينَهم، لأنَّه لو تظاهر المؤمنون بمسايرة العرض فلن تكون عبادة، لأنَّها مخالفة للمعتقد الإيماني المستقرّ في صدور المؤمنين)، وللمؤمنين دينهم (ليس للكافرين منه شيء ما داموا على شِركهم، لأنَّهم لو تظاهروا بغير ذلك كما أرادوا عند المساومة لتحوَّلوا إلى منافقين كاذبين لا مؤمنين)»[١].

إنَّ هذا المشهد «يعكس عقلية كبار قريش التجارية، فقد كانوا تُجَّارًا يُمارسون ديانتهم بوصفها جزءًا من تجارتهم، فما كان يهمُّهم من الأصنام هو المنافع الاقتصادية التي كانوا يجنونها من حجّ القبائل العربية إلى مكة وتقديم الهدايا إلى أصنامها»[٢]. لذلك، كان الرَّدّ عليهم برفض الأساليب التوافقية غير المستنِدة على قواعد حقوقية (حرية المعتقد، وحرية ممارسة الشعائر الدينية) في العلاقة مع الآخر. فهي مساومة دوافعها عند قريش «الكسب في الدنيا بواسطة الدين»[٣]، وإنَّ اعتبارهم الدين وسيلة يُدلِّل على عدم كون التعددية العَقَدية

= عرضت على النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، بل هناك ضعف في الرواية.. ولا يعني ذلك [الضعف] نفي وقوع الأمر تاريخيًا، بل عدم ثبوته فقط، وما أكثر الأحداث التاريخية التي وقعت ثم لا يمكن إقامة الأدلة الصحيحة عليها». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٦٢ ـ ١٦٣، بتصرُّف.

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الكافرون، ١: ٧٠٤ ـ ٧١٠، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الكافرون، ١: ٧٢، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة الكافرون، ١: ٧٣، بتصرُّف.

أساس النزاع بينهم وبين النبيّ ﷺ، بل سِتارًا لمصالحهم (الثقافية، والسياسية، والطبقية، وحتى العرقية مع مواليهم من غير العرب). لذلك، طالَبوا بدمج دين النبيّ ﷺ بدينهم الوثني للخروج بتَوليفة شركية، وهذا مرفوض من حيث مبادئ الدعوة التي لا تعترف بالشرك في رؤيتها للتعددية العَقَدية كما سيظهر أكثر تباعًا، كما لا تتبنَّى طروحات نِسبية تجعل من جميع الأديان مظاهر شكلية لحقيقة واحدة. ولو استجاب أصحاب دعوة الحقّ «لمساومة صلحية في الدين، لانتهت الدعوة بوَأْد الحقّ على أيدي دعاته وروّاده أنفسهم، ففي ذلك الضعف والوَهن والانحراف عبر سقوطٍ للدعوة وانهيارٍ للبناء الفكري وتحوُّلٍ لهم من أصحاب مبادئ حقّ وكفاح لأجلها، إلى أصحاب منافع ومصالح دنيوية. وهذا يدلُّ على أنَّ أيَّ تنازل عن جزء من الحقّ الذي يُمثِّل وحدة اعتقادية متكاملة هو تنازل عن الحقّ كلِّه، مهما كانت الذرائع»[1]. وهنا نبدأ بتلمُّس حركة التاريخ كما تمَّ عرضها سابقًا، أنَّها تقتضي اختلافًا حتميًا لطريقَي الحقّ (التمسُّك بالتوحيد في أصول الدين) والباطل (التمسُّك بالشرك في أصول الدين) والتدافع بينهما.

لذا، فمن المنطقي أن تتَّجه الأحداث بدءًا من تلك المقابلة إلى التدافع، وسيظهر ذلك جليًا في السور التي تلت سورة «الكافرون» نزولاً[2]، وهي:

❑ «**الفيل**»: وفيها «تهديد ضمني للكافرين، وطمأنة ضمنية للرسول ﷺ. فقصة أصحاب

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الكافرون، ١: ٧١١ ـ ٧١٢، بتصرُّف.

(٢) هذه السور جميعها (أي: الفيل والفلق والناس والإخلاص) مكية، وهكذا ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الأربع (البيهقي، وأبي عمرو الداني، وابن الضريس، والزهري). أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فأورد الحارث المحاسبي سورة الإخلاص ضمن السور المدنية، فيما ذهب أبو جعفر النحاس إلى اعتبار المعوِّذات (الإخلاص والفلق والناس) سورًا مدنية، وذلك خلافًا لجميع راويات الترتيب وبقية روايات تحديد المكي من المدني (أبي عبيد، وابن الأنباري).

الفيل تُذكِّر قريش بنعمة الله عليها بهزيمة الجيش الذي قصد تدمير الكعبة»[١]. فمن جهة تُشعرهم بأنَّ الله عز وجل ـ الذي رفضوا توحيده ـ هو القويّ على أعدائهم مع ما يُعاملهم به من الحفظ والرعاية والحماية؛ وفي ذلك أيضًا ردٌّ على السبب السياسي لرفض الدعوة (الخوف من ردّة فعل العرب عليهم)؛ ولكن من جهة أُخرى، رَبطت الآيات سبب إهلاك الجيش بالكيد، أي: «التدبير الخفيّ الذي يُحضِّر مكروهًا لمَن يُوجَّه إليه. وهنا التهديد الضمني بأنَّهم لو أخذوا قرار الكيد برسول الله ﷺ سيكونون عُرضة لعذاب من الله وإهلاك»[٢]. وهذه المرة الأولى نزولاً التي يرد فيها ذكر الكيد في القرآن.

وقد بدأت هنا «حركات الحسد، ورغبات الكيد سِرًّا، وانطلقت الوساوس تنفث في صدور الناس لتصدَّ عن دين الله»[٣]، وهذا الوضع المتوقَّع ينسجم مع نزول سورتَي «الفلق» و«الناس»[٤].

□ «**الفلق**»: وفيها «الاعتصام بالله من الشَّرّ الظاهر»[٥]، خصوصًا: «عند دخول ظلمة

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الفيل، ٢: ٨، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الفيل، ٢: ٨، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة ص، ٣: ٤٧١، بتصرُّف.

(٤) اختُلِف في مكية أو مدنية سورتَي «الفلق» و«الناس»، «فقال جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة: إنها مكية، ورواه كريب عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة إنها مدنية، ورواه أبو صالح عن ابن عباس. والأصح أنها مكية؛ لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة، بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس ففيها متكلّم. وقال الواحدي: قال المفسّرون: إنها نزلت بسبب أن لبيد بن الأعصم سحر النبيَّ ﷺ [سنة ٧هـ]، وليس في الصحاح أنها نزلت بهذا السبب». ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، سورة الفلق، ٣٠: ٦٢٤. ولكلٍّ أدلَّته وردوده على أدلة الآخر؛ بعدم قطعية دلالتها، ففضَّلت إبقاءهما في هذا الموضع رغم قوة الأدلة المقابلة.

(٥) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الفلق، ٩: ٤٦٤، بتصرُّف.

الليل (لتعذُّر الوقاية من الشرور التي تدخل في الأماكن المظلمة)، ومن السحرة، ومن الحسد»[١].

□ «**الناس**»: وفيها «الاعتصام بالله من الشَّرّ الباطن»[٢]، وتحديدًا «من شَرّ الشيطان الجنّي والإنسي»[٣].

وفي هاتَين المعوِّذتَين مبادرة قرآنية لحفظ النبيّ ﷺ من الشرور المحيطة به بعد الكيد الذي أصبح ماثلاً في الأُفق بعد رفض المساومة مع الكافرين.

ربَّما تكون أول ملامح الكيد بدأت بالجدالات، حين أصبح المشركون يُريدون جداله وجدال المؤمنين في الأركان الإيمانية التي يدعو إليها (الجانب العَقَدي)، بسبب عجزهم عن صدِّه بالمنطق أو المساومة في بقية الجوانب (الثقافية، والسياسية، والطبقية)، ومن هذه الجدالات أن المشركين قالوا: يا محمد، انسب لنا ربَّك؛ فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٤].

□ «**الإخلاص**»، وفيها: «ما يستطيع العباد معرفته عن ذات الله الغائبة عن إدراكات حواسِّهم، وهي [الصفات السلبية[٥] التي تسلب عن الذهن ما لا تليق نسبته إلى الله تعالى، وهي]: أحديَّته (فردٌ في الذات والصفات)، وصمديَّته (استغناه عن كلِّ شيء، وحاجة كلِّ شيء إليه)، وأنَّه لم يلد ولم يولد، وأنَّه لا كفء له. وبذلك، كان الجواب الواضح الذي

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الفلق، ٢: ٣١ ـ ٣٢، بتصرُّف.

(٢) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الناس، ٩: ٤٧٧، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الناس، ٢: ٤١، بتصرُّف.

(٤) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، سورة الإخلاص، ٢: ٥٨٩، ح: ٣٩٨٧، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٥) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الإخلاص، ٣٢: ٣٦١.

يقتضي أنَّ الله لا نسب له. وقد نزلت السورة بأسلوب تقريري خبري دون أن تتضمَّن الدليل على ما فيها، وذلك مناسبة لنوعية استفسار المشركين السائلين»[١]. كما أنَّ «العلم بذات الله لا يُمكن الوصول إليه بالسمع»[٢]. أما أدلة تنزيه الله في صفات كماله فقد تمَّ تنزيلها في سور لاحقة. وإنَّ الصفات الواردة في السورة كفيلة حقيقة بإجابة السائلين من المشركين، لأنَّها «تُخلِّص القلب من كلِّ غاشية ومن كلِّ شائبة ومن كلِّ تعلُّق بغير هذه الذات»[٣]، وهذه أمراض ماثلة في قلوب الوثنيين.



---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الإخلاص، ٢: ٧٧ـ٨٨، بتصرُّف. كذلك، «فإنَّ كلَّ مسألة لا تتوقَّف معرفة صدق الرسل عليها فإنَّه يُمكن إثباتها بالسَّمع، والوحدانية لا تتوقَّف معرفة صدق الرُّسل عليها، فلا جرم يُمكن إثباتها بالدلائل السمعية». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الأنبياء، ٢٢: ١٣٠.

(٢) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الإخلاص، ٣٢: ٣٥٩.

(٣) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الإخلاص، ٩: ٤٥٣، بتصرُّف.

المطلب الثاني

التعامل مع مَن يرفض التعددية وينأى عن الحوار (المتولّي)

بعد هذا التطوُّر في الخطاب والأحداث بين النبيّ ﷺ (بالوحي) وبين خصوم الدعوة الذين أصبحوا «كافرين» يُتوقَّع منهم «الكيد والجدالات للتكذيب»، تبلور موقف قريش، وظهرت مجموعة جديدة من السور عددها أربعة عشر سورة (إضافة إلى سورة «الرحمن» وتتمة سورتَي «العلق» و«المدَّثِّر» كما تمَّ ترجيحها) تنقسم إلى مجموعتَين: الأولى سبع سور[١]:

□ «**النجم**»[٢]: وفيها الردّ على اتهامات «المشركين الذين قالوا: إنَّ محمدًا يتقوَّل القرآن ويختلق أقواله»[٣]، كما يعرض ويردّ على ما حدث من «تعيير أحد المشركين أحد المسلمين الجدد بقوله: أتركت دين الأشياخ وضلَّلتهم وزعمت أنَّهم في النار؟! كان ينبغي لك أن تنصرهم، فكيف يُفعَل بآبائك؟! فقال له: إنِّي خشيت عذاب الله»[٤]. كما تردّ الآيات على مَن «كانوا يمرُّون على رسول الله ﷺ غضابًا مبرطِمين»[٥]، أي: «مُعرِضين مع الغضب»[٦].

---

(١) هذه السور جميعها (أي: النجم وعَبَسَ والقَدْر والشمس والبروج والتين وقريش) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الأربع (البيهقي، وأبي عمرو الداني، وابن الضريس، والزهري) ضمن السور المكية. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد ذهب أبو عبيد وأبو جعفر النحاس إلى اعتبار سورة القَدْر ضمن السور المدنية، وذلك خلافًا لجميع راويات الترتيب وبقية روايات تحديد المكي من المدني (الحارث المحاسبي، وابن الأنباري).

(٢) أعرضها كاملة في هذه المرحلة عدا الآيات التي ارتبطت بحادثة الإسراء والمعراج، فألحَقتها بمرحلتها في نهايات العهد المكي.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، سورة النجم، ٢٧ : ٨٨، بتصرُّف.

(٤) الطبري، **جامع البيان**، سورة النجم، ٢٢ : ٥٤١.

(٥) المصدر نفسه، سورة النجم، ٢٢ : ٥٥٩.

(٦) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة والنجم، ٤ : ١٨٣٩، بتصرُّف.

وهذه النماذج متوقَّعة ومنطقية في تسلسل الأحداث، وتستكمل مسار ردِّهم على الجانب العَقَدي من الدعوة لسَتر مصالحهم ـ المهدَّدة من جوانبها الأُخرى ـ وللتشكيك فيها.

وقد ردَّت آيات السورة على كلٍّ ما سبق عبر «عرض عناصر إقناعية بشأن الوحي الذي يُكذِّب به المشركون بنفي ما يتناقض مع صدق النبيّ ﷺ فيما يُبلِّغ عن ربِّه، بذكر المكان الذي ظهر فيه أمين الوحي جبريل عليه السلام للرسول ﷺ[١]، ثمَّ [تمهيد] إسقاط مذهبهم [دون التشنيع ورفض مبرِّراتهم ومناقشتها التي ستبدأ في سورة «الأعراف» فصاعدًا] حول اعتقادهم في (أكبر) أوثانهم (اللات والعزّة ومناة) وفي الملائكة، [فكما بدؤوا يُناقشون معتقدات الإسلام، ناقش الوحي ـ بشكل استفهامي ـ جانبًا من معتقدات الوثنية من حيث عدم عدالتها مع التشكيك فيها]، ثمَّ توجيه النبيّ ﷺ لاتخاذ موقف الإعراض عمَّن تولَّى وأدبر (واختار حصر مُرادِه في الدنيا [بعدم ضبطه للخيارات الثقافية والسياسية والطبقية كما وجَّهت الدعوة]) فتكون للنبيّ ﷺ حالة وَسَطية بين الإقبال والإدبار، ثمَّ إقرار مسؤولية الإنسان في الحياة الدنيا عن أعماله واختياراته وتحقُّق الجزاء يوم الدين، كما أنَّ العقاب في الدنيا واقع أيضًا عند الظلم والطغيان كردّ [حاسم] على المشكِّكين والمجادِلين، وخُتِمَت السورة بالإنذار وبالأمر الإلهي بالسجود لأول مرة في تنزيل الآيات[٢]»[٣]. وكانت هذه «أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة»[٤].

---

(١) رأى النبي ﷺ جبريل في صورته الملائكية مرَّتَين، الأولى هي التي كانت بين السماء والأرض في أول الوحي، والثانية ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى في السماء السابعة. د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة النجم، ٧: ٤٩٢ ـ ٤٩٣، بتصرُّف. وآيات السورة [١٣ ـ ١٨] تُشير إلى الرؤيا الثانية، ممَّا يدل على أنَّ هذا القسم قد تأخَّر نزوله إلى حين حادثة الإسراء في نهاية العهد المكي.

(٢) عن ابن مسعود ﷺ قال: «أول سورة أُنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَن خلفه. **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة والنجم، ٤: ١٨٤٢، ح: ٤٥٨٢.

(٣) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة النجم، ٢: ٩٨ـ١٦٧، بتصرُّف.

(٤) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة النجم، ١٧: ٨١.

وبذلك، تحوَّل شكل العلاقة المأمور بها بين النبيّ ﷺ ومجموعة المدبِرين عن الوحي ووصاياه والمجادِلين ـ بقَصد التشكيك (لا الاهتداء) والهروب إلى مناقشات في الجانب العَقَدي كبديل ساترٍ عن مناقشة الإصلاحات الاجتماعية المطلوبة في بقية جوانب الدعوة ـ من عموم الإنذار والتذكير كما كان مطلوب السور السابقة إلى الإعراض عمَّن تولَّى منهم عن الدعوة، وذلك بشكل وسطي لا يرتقي إلى الإقبال الكامل عليهم ولا يصل إلى الإدبار الكامل عنهم. ولأنَّ النبيّ ﷺ «مأمور بإدامة دعوتهم ـ قبل الأمر بالإعراض وبعد الأمر به»[1] ـ فإنَّ معنى الإعراض عن المشركين يكمن في «عدم المبالغة في الحرص على هداهم»[2] من جهة، و«ترك إيذائهم»[3] «بعدم الالتفات إلى ما يقولون وعدم قصد الانتقام منهم»[4]، و«عدم الالتفات إليهم في صدِّهم له عن آيات الله»[5] أو في «لَومهم له على إظهار دينه وتبليغ رسالته»[6] من جهة أُخرى. كما نلحظ أنَّ هذه المرحلة تخلَّلتها درجة متقدِّمة من الجهر بالدعوة بإعلان الآيات القرآنية أيضًا، وسيتبع ذلك حرص آخر على إظهار الشعائر الدينية بصلاة النبيّ ﷺ عند الكعبة كما سيأتي في حينه.

ولكنَّ رسول الله ﷺ رغم الأمر له بالإعراض عن المتولِّي، ظلَّ حريصًا على الدعوة، خاصة مع كبار قريش، الذين ـ بإسلامهم ـ تنتشر الدعوة بيُسر وسهولة بين أتباعهم دون

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، سورة النجم، ٢٧ : ١١٧، بتصرُّف.

(٢) الآلوسي محمود بن عبد الله، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، سورة النجم، ١٤ : ٦٠، بتصرُّف.

(٣) القاسمي محمد جمال الدين بن محمد سعيد، **محاسن التأويل**، سورة النجم، ٩ : ٧٨، بتصرُّف.

(٤) إسماعيل حقي، **روح البيان**، سورة الحِجر، ٤ : ٤٩١، بتصرُّف.

(٥) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الحِجر، ٤ : ٥٥١، بتصرُّف.

(٦) الخازن علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، سورة الحِجر، ٤ : ١٥٩، بتصرُّف. ومثله في: الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الحِجر، ١٩ : ١٦٥.

صدامات. فأصبحت بذلك «دعوة أصحاب الطبقات الاجتماعية العليا ـ ولو من رافضي الدعوة ـ أولوية على غيرهم، مع أنَّ ضعفاء المؤمنين (من طبقات أدنى) يحتاجون مزيدًا من التثبيت والتزكية»[١]. فكان أن جلس النبيّ ﷺ مع رجل من عظماء المشركين[٢]، فجاء أعمى يُدعى ابن أمِّ مكتوم، فجعل يقول: يا رسول الله أرشِدْني. فجعل رسول الله ﷺ يُعرِض عنه ويُقبل على الآخر ويقول: «أترى بما أقول بأسًا؟» فيقول: لا[٣]. فنزلت سورة عبس.

□ «**عبس**»: وفيها «عتاب الرسول ﷺ على ما كان منه بشأن الأعمى حين تلهَّى عنه،

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة عبس، ٢: ٢١٢، بتصرُّف.

(٢) ورد في رواية: أنَّ هذا الرجل هو الوليد بن المغيرة. ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب ذكر ما لقيَ رسول الله ﷺ من قومه من الأذى، ١: ٣٦٣. كما ورد في رواية أُخرى: أنَّ هذا الرجل هو أُبيّ بن خَلَف. وفي رواية أُخرى: أنَّ رسول الله ﷺ كان يُناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب. الطبري، **جامع البيان**، سورة عبس، ٢٤: ٢١٧. «وهذا يجمع بين الأقوال». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب التفسير، سورة عبس، ٨: ٦٩٢. ولكن، قد يترجَّح كونه الوليد بن المغيرة بدليل متعلَّقات رواية تُفيد غياب الوليد بن المغيرة وأبي جهل وغيرهما في الطائف عند نزول آية فيها سجدة [أي: النجم في السورة السابقة]، ثمَّ قدومهما، ثمَّ كان لهما دور في تحويل بعض المسايرين للدعوة إلى الكفر. يُنظر: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب ذكر مناقب مخرمة بن نوفل القرشي ﷺ، ٣: ٥٥٩. وقد أثبت البخاري في صحيحه سجود المسلمين والمشركين لسجدة سورة النجم. **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة والنجم، ٤: ١٨٤٢، ح: ٤٥٨١.

(٣) **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، كتاب تفسير القرآن، سورة عبس، ٥: ٤٣٢، ح: ٣٣٣١، بتصرُّف. و«إسناد رجال الحديث رجال الصحيح، وصحَّحه الحاكم على شرطهما، ولكنَّ الذهبي رجَّح فيه الإرسال». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٦٧، بتصرُّف.

ووجَّه كلَّ عنايته واهتمامه لدعوة عظماء من قريش ممَّن استغنى [رغم سبق توجيهه ﷺ في سورة «النجم» بالإعراض عن المتولِّين المدبِرين]. ثمَّ أوضحَت السورة أنَّ الوحي تذكرة عبر عرضها لأوصاف الرسالة السماوية في صُحفها المكتوبة والمحفوظة بأيدي كَتبة من الملائكة. ثمَّ تناولت الآيات نموذج الكافر المستَغني عن الدعوة ورافضها [أي: من نموذج الذي كان النبيّ ﷺ قد تلهَّى بدعوته عن العناية بالمؤمنين في هذا الموقف] بتقريعه وعرض مفاصل حياته كإنسان ـ من بداية خلقه حتى بَعثه ـ والتي لم يستفد منها بتنفيذ أمر الله له بالإسلام، ثمَّ ذِكر نِعَم الله على هذا الإنسان للتفكُّر الموصل إلى اتِّباع سبيل الله [فيستحضر هذا المستغني افتقاره إلى الله ويُدرك «أنَّ الله هو الذي هيَّأ الأسباب للغنى كما أجرى نظام الطبيعة لفائدة الإنسان»[١]]، وخُتِمت السورة بعرض مشاهد البعث والقيامة وما يواكبها من فرار الأقرباء من بعضهم لهَول حساب هذا اليوم وانشغال كلِّ فرد به دون أن يُلبِّي استنجاد أحد به ولو من خواصّ أقربائه»[٢]، وبذلك يتبيَّن عدم الانتفاع يوم القيامة بالعصبية القبلية العائلية التي تُقوِّي آصرة رفض الدعوة والاستغناء بها عنها. وحينها تنقسم وجوه الناس بين الضحك والاستبشار (للمؤمنين)، وبين الاغبرار والسواد للكفرة الفجرة. وهذا الوصف لهم يُمهِّد التوسُّع القادم في ارتكابهم القبائح والجرائم لمواجهة الدعوة والمؤمنين بها، لأنَّ الفجور هو «شقّ ستر الديانة»[٣].

□ «**القَدْر**»: وفيها استكمال موضوع قصة الوحي مع الملائكة التي وردت في سورة «النجم» (للرّدّ على جدالات المشركين، بذكر أمكنة نزول ملاك الوحي على النبيّ ﷺ)، ثمَّ في سورة «عبس» (للتذكرة به مع ذكر مهامٍ للملائكة معه)، ثمَّ جاء في هذه السورة بذكر زمان نزوله على رسول الله ﷺ ودور آخر للملائكة بالتنزُّل في ليلة القدر (التي نزل القرآن فيها)، مع الالتفات إلى فضل هذه الليلة في تَضاعُف خيريَّتها وسلامها.

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة عبس، ١: ١٠٨، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة عبس ٢: ٢١٤ ـ ٢٥٥، بتصرُّف.

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الفاء، ص٦٢٦.

□ «**الشمس**»: وفيها استكمال مشاهد الحياة ـ عبر إيراد ظواهر كونية ـ مطلوب من الإنسان التفكُّر فيها وتدبُّرها، وهي عبارة عن استعراض «ثنائيات كونية (ضياء وظلمة، سماء وأرض)، وإنسانية مُلهَمة للفجور والتقوى»[1] كمنطلَقات أخلاقية للسلوك، أي: «فطرة استحسان الحَسَن واستقباح القبيح، للوصول إلى استنتاج قضية الجزاء الرباني بفلاح مَن زكَّى نفسه بعمله الإرادي، وخَيبة مَن دسَّاها (بتدنيسها وعدم تزكيتها) بعمله الإرادي، ثمَّ تستعرض السورة قصة تاريخية لقوم فَجَروا [كما وُصف الفجرة في سورة «عبس»] بأن كذَّبوا رسولهم [كما وُصف المكذِّبون في سورة «الماعون»]، رغم ما جاءهم به من براهين، وطَغَوا [كما تمَّ بيانه باختصار في سورة «الفجر»]، وقد تولَّى في هذه القصة أَمْرَ هذا الطغيان أشقاها [كما ذُكِر الوصف سابقًا في سورتَي «الأعلى» و«الليل»] بانبعاث (سرعة وغضب) وتكذيب للإنذار والتحذير»[2]. وبذلك تكون سورة «الشمس» بمثابة كشف حساب بياني لعاقبة تجمُّع كل تلك الصفات عند صدور الاعتداء منهم. وتُعتبر تلك السورة أول سورة تأتي على ذكر وقائع للقَصص القرآني، بذكر تفصيلات وحِوارات بدلاً من ذكر عموم الإهلاك عند تحقُّق الطغيان والكيد كما مرَّ في سور «الفجر» و«الفيل» و«النجم».

□ «**البروج**»: وفيها استكمالٌ لاستعراض قَصص الأقوام المُكذِّبين، الذين وصل تكذيبهم إلى حدِّ «فتنة ضعفاء المؤمنين والمؤمنات عن دينهم بألوان من الاضطهاد والتعذيب، وكانت قصة أصحاب الأخدود كمَثَل تاريخي شنيع للذين أكرهوا مؤمني بلدهم [أي: نصارى نجران في اليمن][3] على الكفر بإحراقهم بالنار»[4]. وفي السورة «تنبيه لقريش

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الشمس، ١: ١٠٩، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الشمس، ٢: ٣١٨ ـ ٣٢٤، بتصرُّف.

(٣) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٥٧، بتصرُّف.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة البروج، ٢: ٣٤٩، بتصرُّف.

أنَّهم إذا أخذوا يفتنون المؤمنين فسيكون مصيرهم هو نفس المصير (عذاب جهنَّم) الذي لقيه أمثالهم في الماضي، ولكنَّ باب التوبة ما يزال مفتوحًا لهم، والله الغفور الودود سيقبلها منهم، فعليهم تجنُّب مصير جهنَّم قبل فوات الأوان»[١]. أما بخصوص المؤمنين، ففي السورة «تثبيت لهم وتصبير على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على مَن تقدَّمهم من التعذيب على الإيمان، حتى يقتدوا بهم ويصبروا على أذى قومهم»[٢]، وقد نسبت السورة الفوز في هذا الامتحان العصيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتُختم السورة بذكر «بلوغ القرآن الغاية من الشرف لتوجيه العقول لتدبُّره، وذِكر مكان تسجيله في السماء في اللوح المحفوظ»[٣]، لتسير تلك السورة عن نحو سابقيها في الحديث عن القرآن ومتعلَّقاته، مع عرض صفات لله عز وجل من خلال بعض أسمائه.

وفي هذه السورة الإشارة الأولى إلى حقيقة حدوث اضطهاد للمؤمنين والمؤمنات بالدعوة في مكة، وهذا منطقي أيضًا باستعراض تسلسل الأحداث منذ رفض المساومة وصولاً إلى اتِّخاذ موقف الإعراض. فقد «وثبت كلُّ قبيلة على مَن فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويُعذِّبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتدَّ الحَرّ، مَن استُضعِفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم مَن يُفتن من شدَّة البلاء الذي يُصيبه، ومنهم مَن يصلُبُ لهم ويعصمه الله منهم»[٤]، «فكانت فتنة شديدة الزلزال على مَن اتَّبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام»[٥]. أما غير الضعفاء، فكان «أبو جهل الفاسق يُغري بهم في رجال من

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة البروج، ١: ١١٣، بتصرُّف.

(٢) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة البروج، ٣١: ١٠٩.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة البروج، ٢: ٣٨٥ ـ ٣٩٢، بتصرُّف.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممَّن أسلم بالأذى والفتنة، ١: ٣١٧، بتصرُّف.

(٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٣٢٨.

قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومَنَعة أنَّبه وأخزاه، وقال: تركتَ دين أبيك وهو خير منك، لنُسفِّهنَّ حِلمَك، ولَنُفيِّلَنَّ رأيك [أي: تخطئته]، ولنَضَعنَّ شرفك، وإن كان تاجرًا قال: والله لنُكسِدَنَّ تجارتك ولَنُهلِكَنَّ مالك»[1]. وهذه التُّهم موافقة جدًّا لهذه المرحلة حتى الآن، وتختلف عن تُهم سَبِّ الآلهة التي وردت في روايات متأخِّرة عن هذا الموقف، والتي واجهتها قريش بوسائل أُخرى وبمستويات أشمل.

وقد حدَّث النبي ﷺ أصحابه عن قصة أصحاب الأخدود ـ أعرضها لأهميَّة دلالاتها في التعامل مع هذه المرحلة ـ فقال ﷺ: «كان ملك فيمَن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كَبرَ قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليَّ غلامًا أُعلِّمه السحر، فبعث إليه غلامًا يُعلِّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس. فرماها، فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بُنَيّ، أنت اليوم أفضل منّي، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلَّ عليّ. وكان الغلامُ يُبرئ الأكمه والأبرص ويُداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمِي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس. فقال له الملك: مَن ردَّ عليك بصرك؟ قال: ربّي. قال: ولك ربّ غيري؟ قال: ربّي وربّك الله. فأخذه فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الغلام. فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بُنَيّ، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممَّن أسلم بالأذى والفتنة، ١: ٣٢٠، بتصرُّف.

والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إني لا أُشفي أحدًا، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الراهب. فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى. فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقَّه حتى وقع شقَّاه. ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شقَّاه. ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور [سفينة]، فتوسَّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه. فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله ربّ الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات. فقال الناس: آمنّا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام. فأُتِيَ الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُدَّت، وأضرم النيران، وقال: مَن لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمّه اصبري فإنك على الحقّ»[1].

---

(١) **صحيح مسلم**، كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، ٤: ٢٢٩٩، ح: ٣٠٠٥.

وممَّا يُمكن استنباطه من قصة أصحاب الأخدود عند قراءتها بالتوازي مع هذه المرحلة من السيرة: أنَّ جيلاً جديدًا (الغلام) ـ كان مُخطَّطًا له أن يُكمل نهج الباطل ـ قد مال إلى الحقّ (بإعجابه به) بالسِّرّ عند ظهور الراهب (صوت الحقّ)، ومارس التقية ليتَّقي التعدِّي عليه[1]، ثمَّ حسَم موقفه بالالتجاء إلى الله ووفَّقه الله لذلك (عبر خدمة اجتماعية)، وقد مهَّدت هدايته حتمية خضوعه للابتلاء، فكان أن زاده الله بعد هدايته هبة الكرامات. ولمَّا ظهر أمرُه نَسَب الكرامات إلى الله. ورغم أنَّه لم يستطع ببشريَّته ـ رغم الكرامات ـ أن يدفع التعذيب أو يفِيَ بوعده إلى الراهب بالكتمان عن أمره (ممَّا أضاف تضحيات في سبيل الحقّ بين أفراد من المجتمع)، ورغم أنَّ الملك قد عزم على قتله ليُحقِّق انتصاره عليه واعتمد طرقًا أُخرى تُمهل الغلام ليتراجع فيقوى موقف الملك، إلا أنَّ الغلام كان مُصِرًّا على أن يظهر بإيمانه ويُظهره للنَّاس، لذلك كان يعود إلى الملك في كلِّ مرة حاول قتله فيها، حتى أخبره بطريقة تُحقِّق هدف الغلام، فآمن الناس. وقد تبع إيمانهم أيضًا اضطهاد (لأنَّ الإيمان بالحقّ تغيير لسَمت المجتمع والنظام، فيُشكِّل تهديدًا له)، وكان المطلوب لهم الصبر والثبات.

وهكذا كانت وصايا النبيّ ﷺ بالدعوة إلى الثبات والتحمُّل في سبيل الله والتيقُّن بإتمام الدين وعدم استعجال النصر على قومه، واستخدام نماذج وردت في القصة نفسها للتثبيت.

---

(١) وهذه الأوصاف نجدها في مرحلة دار الأرقم ـ التي كانت ما تزال قائمة عند نزول هذه السور ـ بإسلام عدد من الصحابة كمصعب بن عمير (من بني عبد الدار) وعمَّار بن ياسر (من حلفاء بني مخزوم) وصهيب بن سنان (الرومي ومن حلفاء بني تيم)، الذين بلغتهم دعوة النبي ﷺ في دار الأرقم، فدخلوا عليه وسمعوا كلامه فأسلموا وصدَّقوا، وخرجوا مُستخفين يكتمون إسلامهم، وكانوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ سرًّا. يُنظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر (إسلام) من بني عبد الدار، ٣: ١١٦. والمصدر نفسه، ذكر (إسلام) من حلفاء بني مخزوم، ٣: ٢٤٧. وقد أسلم في دار الأرقم في هذه المرحلة غيرهم مثل: عاقل وعامر وإياس وخالد بنو ابن أبي البكير حلفاء بني مخزوم. المصدر نفسه، ذكر (إسلام) من حلفاء بني عدي بن كعب ومواليهم، ٣: ٣٨٦.

فقد شكى إليه الصحابة ﷺ قائلين: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «كان الرجل فيمَن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيُجعَل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيُوضع على رأسه، فيُشقّ باثنتَين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمَشَّط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عَصَب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون»[(١)].

وهنا، برز دور جديد للمؤمنين، اشتهر به أبو بكر الصديق ﷺ حين «كان يُعتق من أمواله ويُقوِّي المسلمين»[(٢)]، وقد «أعتق سبعة ممَّن كان يُعذَّب في الله»[(٣)]. وهو جزء من عمل الصالحات المطلوب في هذه السورة وفي سور سابقة[(٤)].

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٣: ١٣٢٢، ح: ٣٤١٦.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب ذكر الغار والهجرة إلى المدينة، ٣: ١٧٢، بتصرُّف.

(٣) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب ذكر بلال ابن رباح مؤذن رسول الله ﷺ، ٣: ٣٢١، ح: ٥٣٤١، بتصرُّف، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٤) رغم أنَّه «يُتحدَّث أنه ما نزلت هؤلاء الآيات [من خواتيم سورة الليل] إلا فيه [أبي بكر]: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٢١]، ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممَّن أسلم بالأذى والفتنة، ١: ٣١٩، بتصرُّف. لكن، بالعودة إلى رواية «المستدرك» نجد أنَّ أبا قحافة قال لابنه أبي بكر: «أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جلدًا يمنعونك ويقومون دونك. فقال أبو بكر: يا أبتِ، إني إنما أريد ما أريد لما نزلت هذه الآيات فيه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب التفسير، تفسير سورة والليل إذا يغشى، ٢: ٥٧٢، ح: ٣٩٤٢. وصحَّحه. وهي رواية «بإسناد حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٥٦. ويُمكن أن نستنتج من ذلك أنَّ الصديق ﷺ يستشهد بالآية التي سبقت بداية التعذيب، وليس أنَّها نزلت فيه.

وبهذا التحوُّل، تستكمل حركة التاريخ دورتها بالتمييز، فكما تميَّز المؤمن من الكافر، فقد تميَّز الآن المؤمن الثابت الراسخ من ضعيف الإيمان الذي لا يصبر على معتقده ولا يُناضل لأجله. وسيتمّ استكمال التمييز بعد السورتَين القادمتَين ليشمل فئة «المحايد» كما سيأتي في مكانه، وهم الذين يُمثِّلون السواد الأعظم من جمهور القوم.

❑ «**التين**»: فيها استكمال الحديث عن الوحي، ولكن من جانب «أولى مهابط الوحي في الرسالات السماوية على جملة الأنبياء والرسل في أرض التين والزيتون (أرض الشام وفلسطين)، وعلى موسى عليه السلام في طور سيناء، وعلى النبيّ ﷺ بمكة. وذلك للدلالة على أنَّ تلك الرسالات ـ بكمالها وجلالها ـ مُنزلَةً على الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، فهي بذلك تُناسب حاله. ولكنَّ هذا الخَلق في أحسن تقويم يصير أسفل سافلين باختيار الإنسان بكفره وجحوده»[(١)] [ـ عمومًا ـ] من جهة، «وبردِّ الإنسان عند الكِبَر إلى أرذل العمر (بإدبار العمر وذهاب العقل) بالتوجُّه ـ خصوصًا ـ إلى منكري البعث من كبار قريش المُعاينين لهذا التبدُّل بعد أحسن تقويم، فتكون عليهم حجّة ممَّا يحسُّون به ولا يتمكَّنون من دفعه»[(٢)] من جهة أُخرى. ليأتي ذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات المأجورين من الله (مقابل عقاب جهنَّم)، ووُصِف أجرهم بأنَّه بلا انقطاع (مقابل الفناء بعد الهرم) لأنَّه «لا يثبت لمَن ذهب عقله بالهرم إلا حسنة الإيمان والعمل الصالح»[(٣)]. وفي هذا أيضًا تأكيد على أهمية العمل الصالح مع الإيمان لمواجهة الاضطهادات بإيجابية لا بردّ فعل سلبي مدمِّر.

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة التين، ٢: ٤٠٠ـ٤٠٦، بتصرُّف.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة التين، ٢٤: ٥١٠، بتصرُّف. وقد نقل هذا القول عن عدد من التابعين، وقال عنه أنَّه أولى الأقوال عنده بالصحة.

(٣) المصدر نفسه، سورة التين، ٢٤: ٥١١، بتصرُّف. وقد نقل الطبري ذلك أيضًا عن عدد من التابعين.

وتُختَم السورة أنَّ ذلك دليل على عدم صحة التكذيب بيوم الجزاء، بل هو من حكمة أحكم الحاكمين.

هذا، وإنَّ في اختلاف تأويل ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] بين جزاء الآخرة للكافر، وبين التقدُّم الطبيعي في السِّنّ في الدنيا وما قد يواكبه من هرم وضعف في القدرات الجسدية والعقلية، يُظهِر بُعدًا جديدًا في اختيار الدوافع المحرِّكة للإيمان، فبعد أن كانت محصورة في مشاهد القيامة، أصبحت هناك أيضًا دوافع دنيوية في استبقاء نِعَم الله على الإنسان، وهذا سيتَّضح أكثر في السورة القادمة.

□ «**قريش**»: وفيها «الأمر الإلهي لقريش (مع تسميتها) بعبادة ربّ الكعبة، مع ربطها [بدافع دنيوي جديد] هو دوام المحافظة على رزقهم وأَمنهم [في الدنيا] الذي هيَّأه الله لهم عبر عهود الإيلاف التجارية التي بها تمَّ تأمين حرية التنقُّل للتجَّار في البلاد»(١). وإنَّ التصريح بتسمية «قريش» في السورة يُعيدنا إلى أصل معناها الدائر بين معنيَي «الاجتماع بإقامتهم في مكة حيث الأمان في الحَرَم، والاختصاص بالتجارة»(٢) كسبب ومورد في الرزق. وهما ركنا المِنَّة على قريش في السورة، والمطلوب الإيمان شُكرًا عليهما ممَّا يُحافظ على بقائهما.

وإذا اعتبرنا «الإيلاف» النظام السياسي الجامع، واعتبرنا «قريش» الرابطة الاجتماعية القَبلية، واعتبرنا «رحلة الشتاء والصيف» النشاط المعبِّر عن الجانب الاقتصادي، فتكون عناصر السورة جامعة لأركان الاقتصاد السياسي والخاص بنشاط الإنسان في المجتمع لتأمين إيرادات نظام المجتمع.

وسيتبيَّن خلال السيرة، الخطّة النبوية في تغيير الموقف «السياسي» لقريش الرافض

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة قريش، ٢: ٤٣٢ ـ ٤٤٠، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة قريش، ١: ١٢٠ ـ ١٢١، بتصرُّف.

للتعددية المجتمعية، عبر الضغط «الاقتصادي» عليها ـ بعد الهجرة ـ لأنَّه دافع هذا الرفض كما تبيَّن في سور سابقة، ودون أيّ محاولة لزعزعة كيانهم «الاجتماعي» طيلة السيرة. ذلك أنَّ إسلام العرب مُرتَبط بوجودهم وتماسُكِهم وإسلامهم كما يدلُّ عليه الواقع وسيتحقَّق في المآل، وهذا ممَّا يُفهَم أيضًا من حديث رسول الله ﷺ: «الناس تَبَع لقريش في الخير والشَّرّ»[1].

أما بخصوص الدافع الدنيوي، فسنلحظه في السور التي تتعرَّض فيها الدعوة للاضطهاد والتضييق عليها، كما سيأتي.

ولكن وبالتوازي، سيتمّ التعرُّض مجدَّدًا لمشاهد القيامة ودلائل البعث بشكل مُفصَّل أكثر، لأنَّه دافع قَبول الدعوة وتوجيهاتها الاجتماعية (الثقافية، والسياسية، والطبقية)، ولأجل تحقيق امتحان للمجتمع لاستكمال التمييز بين مكوِّناته، خاصة مَن لم يحسم موقفه تجاه الدعوة. فلقد رفعت السور السبعة السابقة سقف الخطاب بالرَّدّ على شبهات الوثنيين والإعراض عنهم، في الوقت الذي بدأ فيه أيضًا اضطهاد المؤمنين. وهذا يفتح المجال أمام تمايز فئة «المحايد» في المجتمع الذي استقبل جهر النبيّ ﷺ بالدعوة دون تحديد موقفه، وهي الفئة التي سيُطلق عليها القرآن تسمية ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، كتسمية سلبية ـ كما يظهر منها ـ لأنَّ دلائل الفطرة التي نزلت في السور السابقة إليهم كانت كافية ليؤمن بها مَن آمن، فكَون «المحايد» قد ظلَّ «في منزلة وسطى بين الإيمان والكفر، [يُعتبر ذلك علامة على وجود] مرض في قلبه من أمراض الشك لم يبلغ مبلغ الكفر»[2] أي: تسميته كافرًا في القرآن، لأنَّ القرآن كما تبيَّن يتدرَّج حسب تطور المواقف في إعطاء التسميات (أشقى، يُكذِّب بالدين، الكافرون، تولَّى، الفجرة. . .).

لذلك، قد يترجَّح أنَّها نزلت في هذه المرحلة، وضمن هذه المجموعة من السور

(١) **صحيح مسلم**، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، ٣: ١٤٥١، ح: ١٨١٩.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة المدثر، ١: ١١٨، بتصرُّف.

السبع[١]، **تتمة آيات من سورة المدَّثِّر** التي تستكمل الوصايا إلى النبيّ ﷺ «بالإحسان دون استكثار المنّ والصبر على الدعوة، وتعرِض مشهد أول البعث يوم القيامة العسير الذي لا يُيَسَّر للكافرين، وتردّ على الوليد بن المغيرة الذي عاند وأدبر واستكبر [وأعلن دعاية إعلامية مضادّة[٢] بوصف القرآن أنَّه سحر وقول بَشَر[٣]]، وذلك بعدما كان النبيّ ﷺ يتحرَّى إسلامه[٤] [بل وردت رواية[٥] تُفيد أنَّه كاد أن يُسلم[٦] لولا تدخُّل أبي جهل الذي ستُخصَّص

---

(١) بدليل كون سورة القيامة التي ستليها ـ بعد سورة القارعة ـ نزلت فيها آيات للرد على أبي جهل بعد أن استهزأ بالآية (٣١) من سورة المدَّثِّر، والتي ترتبط بما قبلها أيضًا في سياق السورة، وبما بعدها بحسب رواية الواحدي في هامش قادم.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة ص، ٣: ٤٧٠، بتصرُّف.

(٣) وردت روايات تربط بين تحديد اتِّهام القرآن بأنَّه سحر وقول بشر، مع اقتراب موسم الحجيج العرب الوافدين إلى مكة. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر الوليد بن المغيرة [و]كيده للرسول ﷺ وموقفه من القرآن، ١: ٢٧٠ ـ ٢٧١، بتصرُّف. وهذا قد يتناسب مع التركيز على الحرب الإعلامية التضليلية فيما بعد أيضًا، والمحاولات المتواصلة لقريش في منع ظهور النبي ﷺ في المسجد الحرام حول الكعبة كما سيتطوَّر مجرى الأحداث.

(٤) كما مرَّ في رواية ابن هشام لسبب نزول سورة عبس.

(٥) وردت العديد من الروايات فيما يختص بقُرب إسلام الوليد بن المغيرة، منها ما سياقه عام وهي التي رجَّحتها وربطتها بمكانها ضمن مجموعات النزول لمؤشِّرات أُخرى أوردتها، ومنها المُقيَّد بقُرب موسم حج العرب الذين وصلهم خبر النبي ﷺ وهذا ما يحتمل أن يكون آل إليه الأمر كما سيتبيَّن من التعقيب على سورة الأعراف (التي نزلت بعدها بعشر سور فقط، والتي سبقها تتمة آيات من سورة العلق ولحقها سورتَي الجن ويس، وهذه الثلاثة تتناول أحداث منع النبي ﷺ من إظهار شعائر العبادة حول الكعبة)، ومنها الوارد فيه تسمية عمر رضي الله عنه المفيد أنَّه سبق إسلامه ممَّا ينقلنا إلى النصف الثاني من السنة الخامسة للبعثة.

(٦) فقد جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن وكأنَّه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، =

آيات قادمة للرد عليه]، فتُشير الآيات إلى تهديد الوليد ووعيده بعدم تحقيق مطامعه في الدنيا وتحميله عذابًا لا يُطيقه في الآخرة، مع توجيه النبيّ ﷺ إلى ترك المواجهة معه، ثمَّ أعقب ذلك الحديث عن المشرِفين على التعذيب في جهنَّم وأنَّهم تسعة عشر من الملائكة. وكان هذا التعداد التفصيلي عن هذا الجانب الغيبي لامتحان عقول وإرادات الذين كفروا وليتيقَّن علماء أهل الكتاب صِدق الدعوة وليزداد الذين آمنوا إيمانًا وليتساءل المحايدون الذين في قلوبهم مرض عن حكمة ذلك فيُحدِّدوا موقفهم من الدعوة بين تقدُّم إلى مقتضيات هذا العذاب أو تأخُّر عنه. ثمَّ تؤكِّد السورة أنَّ الإنسان مسؤول عن اختياراته ويُحاسَب المجرم في جهنَّم على عدم الصلاة وإطعام المسكين واقتراف الجرائم والتكذيب بيوم الدين دون أن تنفعهم شفاعة. وتُختَم السورة ببيان العلَّتَين النفسيَّتَين اللَّتَين تسبَّبتا في إعراضهم عن التذكرة بـ: الكِبْرِ رغبةً في الشهرة بين الناس بأن يكونوا هم الأنبياء من جهة، وعدم خوفهم من الآخرة من جهة أُخرى»[1]، رغم ما نزل في وصف متعلَّقاتها من آيات في السور السابقة.

= فقال: يا عمّ إن قومك يُريدون أن يجمعوا لك مالاً ليُعطوكه، فإنك أتيت محمدًا تتعرَّض لما قبله، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنَّك مُنكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني، والله ما يُشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّه لمثمر أعلاه، معذق أسفله، وإنَّه ليعلو وما يُعلى، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: هذا سحر يُؤثَر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات كلها. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة المدَّثِّر، ص٤٦٨. ومع أنَّها رواية ضعيفة لرجحان كونها مرسلة. مقبل بن هادي الهمداني، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة المدثر، ص٢٢٥، بتصرُّف. ولكن ورد مثلها في: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المدَّثِّر، ٢: ٥٥٠، ح: ٣٨٧٢، وصحَّحه، ووافقه الذهبي. وفي: الطبري، **جامع البيان**، سورة المدَّثِّر، ٢٤: ٢٤.

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة المدثر، ١: ٨٩_١٤٣، بتصرُّف.

وقد يترجَّح أنَّه نزل ضمن هاتَين المجموعتَين (مجموعة «النجم» إلى «قريش»، ومجموعة «القارعة» إلى «الطارق») أيضًا سورة «**الرحمن**»[1]، وفيها: «بيان نِعَم الله في

---

(١) رغم أنَّ سورة الرحمن في روايات ترتيب النزول الأربع وُضِعَت بين سورتَي الرعد والإنسان في المرحلة المدنية، لكن صنَّفتها أربع روايات من روايات تحديد المكي من المدني كونها مكية (أبو عمرو الداني وأبو عبيد والحارث المحاسبي وأبو جعفر النحاس، والإسنادان الأوليان صحيحان والثالثة صحيحة مع الإرسال والرابعة ضعيفة) مقابل رواية ابن الأنباري (الصحيحة مع الإرسال) التي صنَّفتها مدنية. وقد «قال بمكيَّتها كلِّها الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر، وهذا أصح». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الرحمن، ١٧ : ١٥١. وهناك العديد من الشواهد التي تؤكِّد كونها مكية، بل وتنتمي إلى هذه المرحلة الأولى من الدعوة في مكة، وهي: رواية أنَّ أول مَن جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة ابن مسعود ﵁، حين أراد بعض الصحابة أن يُسمعوا قريشًا القرآن، فقام ابن مسعود ﵁ عند المقام ثمَّ قرأ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ رافعاً بها صوته ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾. ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب أول مَن جهر بالقرآن، ١: ٣١٤. ورواية السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق ﵄ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ وهو يُصلِّي نحو الركن، قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يستمعون ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أحمد بن حنبل، المسند، مسند النساء، حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق ﵄، ٤٤ : ٥١٧، ح: ٢٦٩٥٥. قال الهيثمي: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، سورة الرحمن، ٧: ١١٧، ح: ١١٣٨٦. كما بالاستئناس بروايتَي ابن عباس ومقاتل في ترتيب السور فقد وضعاها بين سورتَي الشرح والعصر (أو الكوثر) في هذه المرحلة المكية، ولكن مبكِّرًا. الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، **تفسير الشهرستاني المسمى مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار**، ١: ١٩.
وقد اخترت لها أن تكون بين هاتَين المجموعتَين بالذات (المجموعة الأولى: النجم حتى قريش، والمجموعة الثانية: القارعة حتى الطارق) لمناسبتها الدقيقة بين توجُّهات الآيات فيهما حول تكذيب الجانّ والإنسان (بعد سبق ذكرهما في سورة الناس) ومشاهد القيامة. وقد ذهب الجابري في تفسيره إلى ترجيح مكيتها ضمن المرحلة (ولكن عند بداية المجموعة

=

الدنيا والآخرة، والحثُّ على شكرها والتحذيرُ [المتواصل على مدار السورة] من تكذيبها. وتستَهلُّ السورة بمعجزة القرآن ونعمة تعليمه، ثمَّ الدعوة [للخضوع لله بإقامة القسط (العدل) وعدم إفساد التوازن][١]، وللتفكُّر في نِعَم الله بالنظر إلى [توازن (ترتيب منظَّم) الظواهر الطبيعية][٢] وأثره في الخَلق (وأصل مادَّته في الجانّ والإنسان) والآفاق [كدليل على وجوب الخضوع لله بإقامة العدل]، ثمَّ التحدي والإعجاز للجانّ والإنسان أن يتفلَّتوا من الحساب في الآخرة، ثمَّ بيَّنت السورة أحوال القيامة وأهوالها [حين ينتهي هذا التوازن الكوني الدقيق]، ووصفت النار عاقبة المجرمين [وفيها بيان الشّقّ الأُخروي للأخذ بالنواصي الذي سيرد في سورة «العلق»، ثمَّ يظهر تحقُّق شقِّه الدنيوي بذلَّة أبي جهل كما سيأتي في حينه]، ووصفت الجنة نعيم المتقين»[٣].

وكما سبق، فقد تبعت السور السبع السابقة من المجموعة الأولى نزول مجموعة جديدة

= الأولى منهما قبل سورة النجم). إلا أنِّي ارتأيت تأخيرها عن المجموعة الأولى بعد أن تمَّ تمهيد ظهور التكذيب الفردي (في سورة التين بعد الماعون) ثمَّ الجماعي للمجرمين (في سورة المدَّثِّر)، ليكون لمنطق الاستنكار الشديد والمتكرِّر في السورة على الجانّ والإنسان في التكذيب ما يُبرِّره ويُفسِّره. كما ارتأيت تقديمها على المجموعة الثانية لأنَّ فيها سورة المرسلات، وقد نزلت ليلة الجنّ كما في رواية ابن مسعود رضي الله عنه قال: «نزلت ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ على النبي ﷺ ليلة الجن ونحن معه نسير، حتى أَوَينا إلى غار بمنى فنزلت». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة المرسلات، ١٩ : ١٥٣. ومعروف أنَّ الروايات وردت بقراءته ﷺ على الجن سورة الرحمن كما سيأتي في تقديم سورة المرسلات ص١٣٧، وهذا دليل على نزول سورة الرحمن قبل سورة المرسلات. كما تعرض المجموعة الثانية مشاهد من القيامة بشكل تفصيلي عمَّا وَرَد من عَرضٍ في سورة الرحمن، وتواصل الحديث عن ظاهرة التكذيب مع ربط المكذِّبين بوعيدهم المستَحقّ عليهم.

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الرحمن، ١ : ٩٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الرحمن، ١ : ٩٧، بتصرُّف.

(٣) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الرحمن، ٧: ٥٤٥ ـ ٥٧٩، بتصرُّف.

من السور تتعرَّض لمشاهد القيامة ودلائل البعث بشكل مُفصَّلٍ أكثر (مع عِبَرٍ من التاريخ)، بما يُنمِّي الدوافع المُشجِّعة على التصديق والإصلاح والاستقامة، وهي أيضًا سبع سور[١]، قد يتبيَّن في بعض جوانبها أنَّ سورة الرَّحمن مثَّلت مدخلاً لها بما عرضته من سياق عام وشامل من الخَلق ونِعَم الدنيا إلى نهايتها، ثمَّ الحساب فالجزاء في النار أو الجنة؛ وهذه السور السبع هي:

□ «**القارعة**»: وفيها «عرض مشاهد البعث وأهواله التي لا تجعل للناس أوزانًا (مادية) بتطايرهم ولا تكون للجبال صلابة. ثمَّ تدلُّنا على الغاية من تلك الأحداث بالحساب والجزاء، على قدر رجحان موازين أُخرى مُتَنَوِّعة (قلبية ونفسية وفكرية وجسدية) من الأعمال الصالحة (مقابل السيئة أو حتى الحيادية) التي تؤهِّل للنجاة»[٢]. وفي ذلك تكاملٌ لميزان سورة «الرحمن»، وردٌّ على اعتزاز الكفار بأوزانهم المعنوية (القَبَلية والطبقية) التي بها استطاعوا أن يفتِنوا ويُضَيِّقوا كما ظهر في التعقيب على سورة «البروج»، وسيظهر ذلك أيضًا في السورة القادمة. وبذلك تكون هذه السورة مؤسِّسة لمفهوم «الموازين» الحقيقية والباقية، كما أسَّست سورتَي «الفجر» و«الكوثر» سابقًا لمفاهيم جديدة أو صحَّحتها حول بسط الرزق وتضييقه وحول الأبتر. فمَن أراد الاعتزاز بالوزن الفعلي الباقي فعليه بالأعمال الصالحة (كما في سورة «العصر»، وإلا خَسِر)، وهذا دافع يُضاف إلى نوعية الدوافع الدنيوية التي بدأت في السور السابقة.

---

(١) هذه السور جميعها (أي: القارعة والقيامة والهمزة والمرسلات و«ق» والبلد والطارق) مكية، وهكذا ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الثلاث (البيهقي، وأبي عمرو الداني، وابن الضريس)، أما في رواية الزهري فقد قدَّم المرسلات و«ق» على الهمزة، كما قدَّم القمر على البلد. وهي عندهم ضمن السور المكية. وأما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد اتَّفقت جميع الروايات على مكيَّتها أيضًا.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة القارعة، ٢: ٤٤٧-٤٥٣، بتصرُّف.

□ «**القيامة**»: وفيها الرد على جدالات المشركين في موضوع البعث، فقد أتى عمر بنُ ربيعة النبيَّ ﷺ فقال: حدِّثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبيُّ ﷺ بذلك، فقال: لو عايَنت ذلك اليوم لم أُصدِّقك يا محمد ولم أُؤمِن به، أوَ يجمع الله هذه العظام؟![1]. كما تعرض وتردّ على ما حدث من أبي جهل حين قال لقريش بعد نزول تتّمة آيات «المدَّثِّر»: ثكلتكم أُمَّهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة[2] يُخبركم أنَّ خزنة النَّار تسعة عشر وأنتم الدَّهم [أي: كثيرو العدد]، أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنَّم؟[3] لقد كانت نتيجة امتحان الذين كفروا بعدد المشرِفين على التعذيب في جهنَّم من الملائكة أنَّهم أعلنوا الاستهزاء، كما أنَّ النبيّ ﷺ أعلن القرآن، فلذلك استحقُّوا الوعيد الذي سيرد في سورة «القيامة» وما بعدها. وهذا التطوُّر في نوعية التفاعل مع الدعوة وفق تطور السياق متوقَّع ومنطقي بالتحوُّل إلى حرب نفسية.

وقد ردَّت آيات السورة على كلِّ ما سبق عبر «دفع توهُّمات المنكِرين الجاحِدين للبعث رغم دليل فطري في النفس اللوَّامة التي تلوم صاحبها عند ارتكاب الإثم، وبيان دوافع إنكار الجزاء يوم القيامة من فجور وحبِّ العَاجلة (أي: الدنيا المُشاهَدة مقابل الآخرة الغيبية) وترك الآخرة في نفوس المكذِّبين، كما تذكر عرض الأعمال على الإنسان فيُنبَّأ بما قدَّم وأخَّر، ويُحاوِل التملُّص منها بتلفيق الأعذار مع إدراكه لارتكابه [الإرادي] لها، كما تعرض السورة مشهدًا من الساعات التي تكون قُبَيل انتهاء أَجَل هذا الإنسان في الدنيا حتى قَبْض

---

(١) الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، ص٤٦٩، بتصرُّف.

(٢) يعني رسول الله ﷺ، وكذلك كان المشركون يذكرونه. والمقصود المحتمل من نسبة «ابن أبي كبشة، أي: وهو أبو كبشة أحد أجداده ﷺ من قِبَل أمِّه لأنَّ وهب بن عبد مناف بن زهرة جدّ أبي آمنة أمّه يُكنى أبا كبشة. أو هو من قِبَل مُرضعته حليمة لأنَّ والدها أو جدَّها كان يُكنى بذلك، أو كان لها بنت تُسمَّى كبشة فكان زوجها ـ الذي هو أبوه من الرضاعة ـ يُكنى بتلك البنت». **السيرة الحلبية**، ١: ٤٩١ ـ ٤٩٢.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، سورة المدَّثِّر، ٢٤: ٢٨.

روحه ومُفارَقَته الدنيا، ثمَّ حسابه بين يدَي ربِّه حيث لا مفرّ، (فيُحاسَب المُكذِّب بالنبيّ ﷺ المتولِّي عن عبادة ربِّه والمتمطِّي تبختُرًا وتكبُّرًا، وهذه مقتضية لإقرار العذاب المتنوِّع عليه)[١]، وتُختَم السورة بإقامة الحجّة على المُكذِّب بيوم الدين؛ بأنَّ حكمة الله تقضي بأن لا يُترك سُدًى دون جزاء، بدليل بَدء خلقه المُثبِت لقُدرة إحياء الموتى»[٢].

واستمرَّ الاستهزاء، حتى أصبح أحد كفار قريش معروفًا به، فلقد كان «أميّة بن خَلَف إذا رأى رسول الله ﷺ هَمَزَه ولَمَزَه»[٣]، فنزلت سورة «الهمزة». ويُمكن النظر إلى هذه الأحداث في إطار «حرب نفسية على النبيّ ﷺ وعلى أصحابه بغية إفساد العلاقات بينهم وزرع الشَّكّ في نفوس بعضهم ضدَّ بعض. ولا يخفى إمكانية استخدامهم المال ـ الوارد ذكره في السورة ـ في تسويق هذه الحرب إعلاميًا»[٤].

◻ «**الهُمَزَة**»: وفيها «وعيد الهمَّازين اللَّمَّازين الذين يستخدمون الأقوال والأفعال لِيَعيبوا الناس (حتى بحضورهم)، للتحريض على الرِّدَّة عن دين الله والصدِّ عن الدخول فيه، مُغتَرِّين بأموالهم ونفوذهم ومكانتهم [القَبَلية والطبقية]، ولكنَّ عاقبتهم الإهانة في عذاب النار الذي يُحطِّمهم ويصل إلى عُمق أفئِدَتهم وهُم مأسورون فيه»[٥].

هذا، وقبل نزول سورة «المرسلات»[٦]، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إني أُمِرت أن

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة القيامة، ٢: ٥١٣ ـ ٥١٥، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة القيامة، ٢: ٤٦٣ ـ ٤٦٧، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب ذكر ما لقي رسول الله ﷺ من قومه من الأذى، ١: ٣٥٦.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الهمزة، ١: ١٥٣، بتصرُّف.

(٥) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الهمزة، ٢: ٥٣٠ـ٥٣٥، بتصرُّف.

(٦) لأنَّها نزلت ليلة الجنّ كما في رواية ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: «نزلت ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ على النبي ﷺ ليلة الجنّ ونحن معه نسير، حتى أَوَينا إلى غار بمنى فنزلت». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة المرسلات، ١٩: ١٥٣.

أقرأ القرآن على الجنّ، فأيُّكم يتبعني؟». . . فاتَّبعه عبد الله بن مسعود ﷺ، فدخل رسول الله ﷺ شعبًا يُقال له: شعب الحجون. . . ثمَّ تلا القرآن[1]، وكان فيما قرأ ﷺ سورة «الرحمن» [التي سبق نزولها]، وأخبر الصحابة بذلك حين قرأ عليهم سورة «الرحمن» حتى ختمها ثم قال: «ما لي أراكم سكوتًا، لَلجنّ كانوا أحسن منكم ردًّا، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيءٍ من نعمتك ربّنا نُكذِّب، فلك الحمد»[2].

ونلمح في هذه الوصية النبوية أمرًا بالتفاعل، يتناسب مع قصة اتفاق الصحابة على القيام بمبادرة دعوية تجاه قريش بالجهر بالقرآن، وهو الأمر الذي سيقوم به ابن مسعود ﷺ كما سيأتي في التعقيب على سورة «ق».

□ «**المرسلات**»: وفيها «الاستدلال من بعض الظواهر الكونية على أنَّ يوم الدين واقع، مع استعراض لطائفة من أحداث يوم القيامة [من حيث كيفية وقوعه ووقائعه]، ووعيد المجرمين المكذِّبين المتحقِّق بدلالة أحداث الأمم الغابرة وتكوين المخلوقات بقَدَر، وحينها يثبت عَجزَهم عن القيام بأيّ تصرُّف أو كيد يُنقِذهم في الآخرة. بالمقابل يظهر ثواب المتقين فيها. فكان بالتالي تمتُّع المكذِّبين في الدنيا هو بإذن من الله [ـ وليس بقدراتهم الذاتية ـ]، وهو قليل في الكَمّ والكيف والدوام، ورغم ذلك يتكبَّرون عن عبادة الله. [وبالتالي، فالآية

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأحقاف، ٢٢: ١٣٦، بتصرُّف. وإيراد الرواة لهذا الحدث في سورة الأحقاف ضمن سياق تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. «وهذا حديث للآيات عن هذا الحدث من السيرة الذي سبقها». د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الجن، ١: ٢٤٧، بتصرُّف.

(٢) البيهقي، **شعب الإيمان**، باب في تعظيم القرآن، فصل في تخصيص سور منها بالذِّكر، ٢: ٤٨٩، ح: ٢٤٩٣. والحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب التفسير، تفسير سورة الرحمن، ٢: ٥١٥، ح: ٣٧٦٦، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

تُشير إلى معالجة نفسية لتساؤلات محتمَلة واقعيًّا حول سبب شقاء المؤمنين في الدنيا بالاضطهاد رغم كونهم على الحقّ، مقابل تمتُّع المجرمين المكذِّبين ورخائهم وهم على باطل]. وتُختَم السورة بسؤال ينطوي على أنَّها اشتملت على حديثٍ بيانيٍّ إقناعيٍّ حاصَر المكذِّبين فكريًّا ونفسيًّا، فلا وسيلة بيانية بعد ذلك يُمكن أن تُعالِجَهم»[1].

❑ «ق»: وفيها «معالجة دعاوى الكافرين المُظهِرين تعجُّبهم ـ كأسلوب للتكذيب (بدأ ذكره في سورة «النجم») ـ لِكَون الرسول ﷺ منهم (أي: بشرًا مثلهم)، ولكون البعث أمرًا واقعًا، فأنكروهما (مع أنَّ التعجُّب لا يصلح دليلاً للاحتجاج به)، والحقّ أنَّهم كاذبون في أمر مريج ـ من الاعوجاج والالتباس والاختلاف والاضطراب ـ وليسوا بشاكِّين [فهي وسيلة إعلامية في الظاهر لاستِمالة المحايد الشَّاكّ فعلاً إلى جانبهم وربط تحديد موقفه بهم كما سيظهر]، فتمَّ الرَّدّ عليهم بمعالجات فكرية ونفسية أيضًا ـ استكمالاً لما مرَّ في سورة «المرسلات» قبلها ـ وذلك عبر: توجيه النظر في آيات الله في كونه ونِعَمه على عباده ووظائفهما الدنيوية من جهة، والهادية إلى الله وصفاته وحكمته لأجل صلاح آخرتهم من جهة أُخرى، ثمَّ عَرض نماذج من المكذِّبين الأولين الذين استحقوا الوعيد الإلهي بتكذيبهم الرسل أيضًا، وأعقب ذلك بيان خلق الإنسان وعِلم الله بأحواله وخواطره (وساوس النفس) ونيَّاته مع وجود ملكَين يُسجِّلان أعماله. ويتمّ التعرُّض بعدها لمشاهد الموت والبعث والحساب (كمضمون مشترك في مجموعة السور السبع)، مع إيراد حساب القَرين الشيطاني للكافر العنيد المنَّاع للخير المعتدي المريب للناس ـ أي: يُشكِّك المحايد كما سبق ـ المشرِك، فمآلهما إلقاء في عقاب جهنَّم. وبالمقابل ثواب الجنة بدخول بسلام يكون للمتقين، ولكلِّ أوَّاب مُراقِب لعَمله خَوف الزَّلل، ويخشَى الرحمن بالغيب وقلبه مُنيب. وفي هذا ذكرى لمَن كان له قلب واعٍ متدبِّر بأدوات تفكير وفَهْم، مع استعداد لاستماع آيات التذكير وشهود آثارها، [وهي وسائل استمالة المحايد]. وجاء التوجيه إلى النبيّ ﷺ

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة المرسلات، ٢: ٥٤٨ ـ ٦١٦، بتصرُّف.

لمعالجة حالته النفسية، عبر دعوته إلى الصبر على أقوال المكذِّبين الجارحة، والإكثار من التسبيح والذكر قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وأثناء الليل وعقب الصلوات. وتُختَم السورة بأن الله هو المُحيي المميت وإليه المصير، وما دور الرسول ﷺ أن يُجبِرهم على الإيمان بذلك، بل يُذكِّر بالقرآن مَن يخاف وعيد الله»[١].

لقد خُتِمَت سورة «ق» بالطلب الإلهي أن يتمّ التذكير بالقرآن مَن يخاف الوعيد، وجاء فيها أنَّ الذكرى ينتفع بها مَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، كوسائل لاستمالة المحايد، ولا عجب أن يكون هذا هو سبب محتمل لاتِّفاق الصحابة على أهمية استماع قريش للقرآن. فقد «اجتمعوا فقالوا: والله ما سَمِعت قريش هذا القرآن يُجهَر لها به قطُّ، فمَن رجل يُسمعهُموه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نُريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في «الضحى» وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ رافعًا بها صوته ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، قال: ثم استقبلها يقرؤها، قال: فتأمَّلوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابنُ أمّ عبد؟ قال: ثم قالوا: إنَّه لَيتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشَينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهوَن عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأُغادِيَنَّهم بمثلها غدًا. قالوا: لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون»[٢]. فكان أول مَن جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ[٣]. وهذا الاستهداف لم يكن حِكرًا على بعض الصحابة فحسب، بل أصبح

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة ق، ٣: ١١ ـ ١٣٩، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب أول مَن جهر بالقرآن، ١: ٣١٤ ـ ٣١٥، بتصرُّف.

(٣) «قال عروة بن الزبير عن أبيه: كان أول مَن جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه». المصدر نفسه، ١: ٣١٤، بتصرُّف.

النبيّ ﷺ ـ بعدم مساومته وبإعراضه عن المتولِّين وبتتابع تلك الأحداث ـ مستهدَفًا أيضًا، وهذا ما ستُوَضِّحه السورة القادمة.

□ «**البلد**»: وفيها «بيان كون النبيّ ﷺ قد جعله كبراء قريش حِلاًّ (أي: هدفًا [مُستَباحًا من طرف المشركين][1]) للإيذاء والاضطهاد، مستحِلِّين حُرمة البلد الحرام، فخالَفوا اعتقادهم بتأمين مَن فيه كما خالفوا مبادئ حِلف الفُضول[2] [وهذا إظهار لتناقضهم في ممارساتهم السياسية، وهو أدعى للمحايد الذي ستُخاطِبه السورة أيضًا أن ينفكَّ عن ثقته بهم ويتَّخذ موقفه بشكل مستقِلٍّ عنهم]، وتستكمل السورة بالإقناع بقانون الجزاء الرباني كاستنتاج منطقي ناشئ عن التأمُّل في ظروف الحياة الشديدة والشاقّة التي يُكابدها الإنسان والتي تستلزم (كحكمة) أن تكون متَّصلة بامتحان يقتضي من الإنسان لينجح فيه، أن يقتحم تلك العقبات ويجتازها، ثمَّ يأتي الرَّدّ على أصحاب القوّة والعزّة [القَبلية والطبقية] الذين يعتقدون بهما أنَّه لا يُمكن أن يُغلَبوا، والرَّدّ على المتوهِّمين أنَّ حواسَّهم المحدودة تُحيط بكلِّ ما حولهم [وهذا مرض من أمراض نوعية من المحايد الذي أسماه القرآن ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾] فيعتقدون أنَّهم لا يُحاسَبون على ما يُضمِرون في أنفسهم أو على القبائح التي يقترفونها بعيدًا عن أعين الناس. وكان الرَّدَ عليهم عبر: تذكيرهم بأنَّ الله هو المُنعِم عليهم بأدوات البصر والنطق، فهو أولى بإحاطة عِلمه بهم، والرَّدّ على المتوهِّمين بأنَّ التمكين الواقع لسلوك طريقَي الخير والشَّرّ [وهذا مرض آخر] دليل على إباحة سلوكهما دون حساب عبر: كَون مَكمن الامتحان هو في تهيئتهم لسلوك الطريقَين، فلماذا لم يقتحم عقبة الخير ويُحجِم عن سلوك عقبة الشَّرّ؟ فالمطلوب اقتحام نفسي لسلوك طريق الخير عبر: تخليص الرقيق من إسار الرِّقّ والإطعام عند المجاعة لليتيم القريب والمسكين الفعلي، مع كون هذا

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة البلد، ١: ١٦٦، بتصرُّف.

(٢) حِلف الفُضول: هو الاتفاق الذي عقدته قريش قبل الإسلام بعقدَين فقط، والذي ينصّ على التناصر والأخذ للمظلوم والقيام معه حتى تُردَّ عليه مَظلمته. يُراجع: ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب حلف الفضول، ١: ١٣٣ ـ ١٣٤، بتصرُف.

الإنسان من الذين آمنوا وتواصَوا بالصبر وبالمرحمة»(١). وبذلك تكون السورة قد جعلت المبادرات الاجتماعية وسيلة لمواجهة نتائج الحرب النفسية.

□ «**الطارق**»: وفيها «تأكيد على أنَّ الإنسان مُراقَب على سلوكه، وأنَّ الله قادر على إرجاعه إلى الحياة بعد الموت، وأنَّ الإنسان لدى محاسبته عن سرائره لا يُمكنه أن يدفع شيئًا من عقاب الله. وهذا كلُّه لتأكيد قانون الجزاء الرباني يوم الفَصل أنَّه حقّ. وتُختَم السورة ببيان موقف كبراء المشركين بأنَّهم يكيدون ضدَّ الدعوة، ولكنَّ لله تدبيرًا بالمقابل، فتمَّ التأكيد الشديد على الرسول ﷺ أن يُعامِلَهم بالتمهُّل والانتظار والترفُّق، وعدم التعجُّل باتِّخاذ أيّ موقف تصادمي»(٢).

هنا، يُلاحظ أنَّه في آيات الوعيد الإلهي التي يتوعَّد الله فيها المشركين المعتدين، ترتبط الآيات بمعاني الإنظار وعدم استعجال العذاب، خِلافًا للآيات التي ترد على الكيد الذي يتمّ تبييته للرسول ﷺ فإنَّها تستعجله كما سيأتي، وفي هذا تباين عن الطبيعة البشرية فيما جُبِلَت عليه من الرغبة في الخير واستعجاله والرغبة عن الشَّرّ واستبعاده. لذلك، هو عين الإسلام لله (خلافًا للدوافع الشخصية) في مسار حركة التاريخ المتقدِّم نحو تمييز الخبيث من الطيب في مآل هذا التدافع الواضح من تطوُّر العلاقة بين الطرفَين ورفع سقف الخطاب القرآني مقابل التعدِّي الإجرامي.

لقد أوضحت السور السابقة تطوُّرًا جديدًا في العلاقة بين النبيّ ﷺ والمشركين باستهدافه في البلد الحرام وإعداد المكائد له، وبدأت تتوالى أحداث التهجُّم ـ تِباعًا ـ على النبيّ ﷺ من العنف اللفظي إلى الهجوم الجسماني، فمِن القول: ردُّ أبي جهل على توعُّد الله له في سورة «القيامة» بقوله للنبيّ ﷺ: والله ما تستطيع أنت ولا ربُّك شيئًا، وإني لأنا أعزّ مَن

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة البلد، ٣: ١٧٩ـ ٢٠٦، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الطارق، ٣: ٢٥٠ ـ ٢٥٢، بتصرُّف.

مشى بين جبلَيها[١]. ومِن فعل التعدِّي ورد أنَّه «بينما رسول الله ﷺ قائم يُصلِّي عند الكعبة وجَمْع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم[٢]: ألا تنظرون إلى هذا الـمُرائي؟ أيُّكم يقوم إلى جَزُور آل فلانٍ فيعمد إلى فَرْثها [أي: بقايا الطعام في الكرش] ودمها وسلاها [أي: الغشاء المحيط بالجنين]، فيجيء به ثمَّ يُمهله، حتى إذا سجد وضعه بين كتفَيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفَيه. وثبت النبيّ ﷺ ساجدًا فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك. فانطلق منطلِقٌ إلى [ابنة النبيّ ﷺ] فاطمة عليها السلام وهي جُويرية [أي: طفلة صغيرة]، فأَقبَلَت تسعى. وثبت النبيُّ ﷺ ساجدًا، حتى ألقته عنه وأقبلت عليهم تسبُّهم. فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «اللَّهمّ عليك بقريش، اللَّهمّ عليك بقريش، اللَّهمّ عليك بقريش»، ثم سمَّى: «اللَّهمّ عليك بعَمْرو بنِ هشام، وعُتبة بن ربيعة، وشَيبة بن ربيعة، والوليد بنِ عُتبة، وأُمَيَّة بن خَلَف، وعُقْبة بن أبي مُعَيط، وعمارة بن الوليد». قال عبد الله [بن مسعود راوي الحديث]: والله لقد رأيتهم [أي: رأيت أكثرهم][٣] صَرْعَى يوم بدر»[٤]. «ثمَّ خرج رسول الله ﷺ من المسجد ولقِيَه أبو البَخترِيّ [العاص بن هشام][٥] ـ ومعه سَوط يتخصَّر به ـ فلمَّا لقِيَه النبيّ ﷺ أنكر وجهه فأخذه، فقال: تعال

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة القيامة، ٢٤: ٨٢.

(٢) هو أبو جهل في رواية الطبراني القادمة.

(٣) «لأنَّ عمارة بن الوليد مات بالحبشة كافرًا، وعقبة بن أبي مُعَيط لم يُقتل ببدر إنَّما أُخِذ أسيرًا منها، وأُميَّة بن خلف لم يُطرح في قليب بدر». **السيرة الحلبية**، ١: ٤٧٠، بتصرُّف.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئًا من الأذى، ١: ١٩٤، ح: ٤٩٨، بتصرُّف.

(٥) هو «أبو البَختَرِي العاص بن هشام بن الحارث بن أسد، من زعماء قريش في الجاهلية. كان ممَّن نقض الصحيفة التي تعاقد فيها مشركو قريش على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب حتى يُسلِّموا إليهم محمدًا ﷺ، واتَّفق مع آخرين على تمزيقها، فشقُّوها. ولم يُعرَف عنه إيذاء للنبي ﷺ، بل كان في بدء الدعوة يكفُّ الناس عنه. ولما كانت وقعة بدر حضرها مع

=

ما لك؟ قال النبيُّ ﷺ: «خَلِّ عنِّي». قال: عليَّ لله أن لا أُخلِّيَ عنك أو تُخبرني ما شأنك، فلقد أصابك شيء. فلما علم النبيُّ ﷺ أنَّه غير مُخَلٍّ عنه أخبره، فقال: «إنَّ أبا جهلٍ أمر أن يُطرَح عليَّ فرثٌ». فقال أبو البَختَرِيّ: هلمَّ إلى المسجد، فأبى، فأخذه أبو البَختَرِيّ فأدخله إلى المسجد، ثمَّ أقبل على أبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أنت الذي أمرت بمحمد فطُرح عليه الفرث؟ قال: نعم. فرفع السوط فضرب رأسه. فثارت الرجال بعضها إلى بعض. فصاح أبو جهل فقال: ويحكم مَن له؟ إنَّما أراد محمد أن يُلقِيَ بيننا العداوة وينجُوَ هو وأصحابه»[(١)].

ولكنَّ الرواية تشهد أنَّ النبيّ ﷺ لم يُحاول أبدًا الالتجاء إلى غير الله تعالى في نصرته بالانتقام منهم، وهذا واضح من تصرُّفه مع أبي البَختَرِي في رَفْض إخباره ثمَّ رَفْض المجيء معه. وذلك يُعزِّز ما تمَّ عرضه في سورة «قريش» من كون النبيّ ﷺ لم يُحاول زعزعة الكيان الاجتماعي القَبَلي.

ويُستَنبط بوضوح من هذا الحدث دور «المحايد» في شخصية أبي البَختَرِيّ، الذي يتأرجح بين أن يصل إلى نصرة قضية إنسانية من جهة اجتماعية (كما حدث في هذه القصة، وفي مشاركته في إنهاء مأساة قطيعة قريش لبني هاشم والمطلب مدّة ثلاث سنين عند سجنهم في الشِّعب كما سيأتي)، أو ينكفئ إلى الموافقة على قرار اغتيال النبيّ ﷺ في اجتماع دار الندوة عشية الهجرة، ثمَّ يخرج بعدها بعام لقتال المسلمين في بدر من جهة سياسية!

= المشركين، من قريش وغيرهم: ونحر لهم على ماء بدر عشرة جزر. ونهى النبيُّ ﷺ عن قتله، إلا أن المجدر بن زياد البلوي قتله [بعد رفضه أن يتمّ تأمينه ـ وهو في المعركة ـ إلا بشروط، ثمَّ تعدِّيه على النبي ﷺ بالشتم]». الزركلي، **الأعلام**، ٣: ٢٤٧.

(١) الطبراني سليمان بن أحمد، **المعجم الأوسط**، ١: ٢٣٢، ح: ٧٦٢. قال الهيثمي: «حديث ابن مسعود في الصحيح باختصار قصة أبي البَختَري. ورواه البزار، والطبراني في الأوسط، وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي، وهو ثقة عند ابن معين وغيره، وضعَّفه النسائي وغيره». الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب تبليغ النبي ﷺ ما أُرسل به وصبره على ذلك، ٦: ١٨، ح: ٩٨١٩.

وقد رفض النبيّ ﷺ إخباره بداية الأمر، ثمَّ الذهاب معه إلى المسجد لمواجهة أبي جهل والرَّدّ عليه، وذلك حَصرًا للخلاف وعدم إخراجه عن مساره إلى غيره من المسارات القَبَلية والصراعات الشخصية، وفي ذلك أيضًا تطبيق للإعراض عنهم وإمهالهم.

ورغم هذا الحدث، فإنَّ أبا جهل ظلَّ مُصِرًّا على أن يُثنِيَ النبيّ ﷺ عن إظهار شعائر الإسلام بالصلاة عند الكعبة كاستكمالٍ للحرب الإعلامية من جهة التعتيم بعد أن كانت تختصُّ بالتشويه. ولكنَّ النبيّ ﷺ أصرَّ على الصلاة عند الكعبة، فهي الحدُّ الأدنى ـ في هذا الجوّ الضاغط ـ من الذكرى التي أُمِر ﷺ بها، كما أنَّها مسؤوليَّته أن يكون أظهَر المسلمين لهذا الدين بأن يجهر بالقرآن في مكة بين المشركين (تطبيقًا للأمر بالإنذار بدايةً، واستكمالاً مع توجيهات سورة «ق»)، وليكون نموذجًا لإقامة الصلاة مقابل صلاة الوثنيين فارغة المضمون الديني والاجتماعي (كما ظهر في سورة الماعون). كما أنَّ الخضوع لرغبة أبي جهل في شأن دعوي يُعتَبر خروجًا عن موقف الإعراض الذي أُمِر به ﷺ في سورة «النجم»، وعن الثبات والظهور الإيماني في إظهار الدعوة بين النَّاس الذي تخلَّل قصة أصحاب الأخدود. لذلك وجَدنا جَمْع قريش يتَّهمونه في الرواية السابقة بأنَّه مُراءٍ لحرصه على هذا الظهور.

فعاد النبيّ ﷺ مرة أُخرى فجهر بصلاته، «فجاء أبو جهل فقال: أَلَم أنهك عن هذا؟ أَلَم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبيُّ ﷺ فزَبَره [أي: منعه ونهاه]، فقال أبو جهل: إنك لَتعلم ما بها [أي: ما بمكة] نادٍ أكثر منّي؛ فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[1] من سورة «العلق».

□ «**العلق**» (**تتمة**): وفيها «الرَّدّ على الشعور النفسي الكاذب حين يرى الإنسان نفسه مستَغنِيًا عن الله ورسالته إلى الناس بما لديه من اعتزاز، بل الإنسان بحاجة إلى هذه الرسالة، وابتلاؤه في هذه الحياة دليل عقلي على حكمة وجود الحياة الأُخرى. ثمَّ تعرض الآيات

---

(١) **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، كتاب تفسير القرآن، سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، ٥: ٤٤٤، ح: ٣٣٤٩، بتصرُّف.

القصة السابقة وتَصِف لكلِّ راءٍ متفكِّر وَضعًا يتعجَّب منه العقلاء، وهو انقسام المجتمع إلى أربعة أصناف: صنف المتعدِّي على حرية الاعتقاد والعبادة وصيانتها بتعرُّضها للإكراه، والصنفَين المضطهدَين (المهتدي فقط، والمهتدي الذي يحمل هَمَّ الدعوة وأعباء هداية غيره)، وصنف [المحايد الذي] اقتصر على التكذيب بالرسالة والتولِّي عنها دون أن يكون متعدِّيًا مُكرِهًا لغيره على الكفر. [وهنا يتبيَّن من الوصف السابق أنَّ المحايد قد مال (أو تمَّت استمالته كاستجابة لمحاولات الكفار المعروضة في سورة «ق») إلى التكذيب والتولِّي]. ثمَّ يأتي وعيد الله ـ الذي يرى هذه الأحداث ـ على الصنف الأول إذا لم ينتهِ عن هذا الاضطهاد باللَّطم والضَّرْب على الناصية (مُقَدَّم رأسه ـ محلِّ التكريم الأعلى من الإنسان ـ) تعبيرًا عن المهانة والإذلال. واكتمل الرَّدّ على كلام أبي جهل بتحدِّيه أن يدعو ناديه أهلاً وعشيرة وأنصارًا، وقد تكفَّل الله بدعوة الزبانية من الملائكة الذين يدفعون أهل الكفر والتكذيب والعناد عن أولياء الله. وخُتِمت السورة بالتوجُّه إلى النبيّ ﷺ بـ[تأكيد] عدم مسايرة أبي جهل في نَهيِه له عن الصلاة والإيمان، بل بالسجود خضوعًا قلبيًا ونفسيًا لله فيقترب إليه عز وجل»[1]. وبقي الرَّدّ على المحايد بالآية التي تلي ذكره فيها بأنَّ الله يرى، لتتشابه في مضمونها مع ما ورد في الرَّدّ على المحايد في سورة «البلد».

وبهذا الشكل، تكون السورة في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩ ـ ١٠] قد أعلنت مبدأ حرية ممارسة الشعائر الدينية باعتباره ـ بالمنطق الإنساني ـ لازم الاتفاق عليه وتطبيقه لتحقيق إدارةٍ لتعدّدية لا تجعل لطرف استقواءً على آخر.

لكنَّ أبا جهل لم يتوقَّف عن إصراره، بل توعَّد النبيّ ﷺ أن يعتدِيَ عليه إن رآه ساجدًا. فعن «العباس بن عبد المطلب ﵁ قال: كنت يومًا في المسجد، فأقبل أبو جهل فقال: إن لله عليَّ إن رأيت محمدًا ساجدًا أن أطأ على رقبته، [قال العباس:] فخرَجْت على رسول الله ﷺ حتى دخلت عليه فأخبرته بقَول أبي جهل، فخرج غضبانًا حتى جاء المسجد

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة العلق، ١: ٥٥ ـ ٧٠، بتصرُّف.

فعجل قبل أن يدخل من الباب فاقتحم الحائط، فقلت: هذا يوم الشَّرّ، فاتَّزَرت ثم اتَّبعته فدخل رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ فلما بلغ شأن أبي جهل ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] قال إنسان لأبي جهل: يا أبا الحكم هذا محمد رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل: ألا ترَون ما أرى، والله لقد سدَّ أُفُق السماء عليّ، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة سجد»[1]. وفي رواية أُخرى نجد أنَّ أبا جهل ـ بعد أن توعَّد النبيّ ﷺ التوعُّد ذاته ـ كان ما فعله أنَّه «نكص على عقبَيه واتَّقى بيدَيه [أمرًا] وقال: إنَّ بيني وبينه لَخندقًا من نار وهَولاً وأجنِحة. فقال رسول الله ﷺ: لو دنا منِّي لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»[2].

لقد ذُعِر أبو جهل من هذا الوعيد، ويظهر أنَّه أعرض عن متابعة الرسول ﷺ [بهذا الشكل]، بل لم يقم حتى بدعوة ناديه»[3] [أي: لم يُواجه التحدِّي له في آيات سورة «العلق» كما فعل مع آيات سورة «القيامة»]. وبمراجعة الروايات، نجد أنَّ أبا جهل كان «مع عداوته لرسول الله ﷺ وبُغضه إيَّاه وشدَّته عليه، يُذلُّه الله له إذا رآه»[4].

فلم يجد الكفار بُدًّا بعد أن لم يستطيعوا منع النبيّ ﷺ من الظهور العلني في ناديهم، من أن يتوجَّهوا إلى عمِّه أبي طالب الذي يحميه قَبَلِيًّا، شاكين له هذا الوضع بقولهم: «إنَّ ابن

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر إسلام العباس واختلاف الرواة في وقت إسلامه، ٣: ٣٦٨، ح: ٥٤١٣، وصحَّحه، وقال الذهبي: فيه عبد الله بن صالح وليس بعمدة، وإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك. وتُعوِّض عنها الرواية المختصرة القادمة في صحيح مسلم.

(٢) **صحيح مسلم**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، ٤: ٢١٥٤، ح: ٢٧٩٧، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة العلق، ١: ٦٩، بتصرُّف.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب أبو جهل والأراشي، ١: ٣٨٨.

أخيك يُؤذِينا في نادِينا وفي مجلسنا[١]، فانْهَهُ عن أذانا، [فبعث إليه أبو طالب ابنه عقيلاً ليأتي] فجاء، فقال له أبو طالب: إنَّ بني عمِّك زعموا أنَّك تُؤذيهم في ناديهم وفي مجلسهم، فانْتَهِ عن ذلك. فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: ما ترَون هذه الشمس؟ ما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تُشعِلوا منها شُعلة. فقال أبو طالب: ما كَذَبنا ابنُ أخي قطّ، فارجعوا»[٢].



(١) يُلاحظ أنَّ الاتهامات التي وجَّهوها إلى النبي ﷺ ـ في هذه الزيارة لأبي طالب ـ مناسبة تمامًا لسياق السيرة الحالي، ومُختَلِفة عن الاتهامات القادمة في زيارات لاحِقة تتعلَّق بشتم آبائهم وتسفيه أحلامهم (أي: تجهيل عقولهم) وعَيب آلهتهم التي لم تكن سور القرآن قد تناولتها بعد بالشكل المباشر الصريح.

(٢) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب ذكر عقيل ابن أبي طالب ﷺ، ٣: ٦٦٨، ح: ٦٤٦٧. وهي «رواية تمَّ تصحيحها». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٦٠، بتصرُّف.

المطلب الثالث

التعامل مع مَن يُهاجم التعددية والحوار (المُعرِض المُتعدِّي)

لقد اتَّضح من الأحداث السابقة عدم قدرة كبار كفار قريش على صدِّ النبيّ ﷺ عن إظهار الدعوة. وربَّما كان ذلك سببًا لديهم للانتقال من الدفاع (بصدِّه) إلى الهجوم بتعجيزه كما سيتبيَّن في طلب الآية على صِدق نبوَّته في سورة «القمر». وهذا الحدث سيُؤسِّس لتطوُّر في المواقف بين النبيّ ﷺ (بالوحي) وبين خصوم الدعوة الذين أصبحوا «مُكذِّبين مُعتَدين على الحريات». وهنا تظهر مجموعة جديدة من السور عددها سبعة[1] (إضافة إلى تتمّة سورة «القلم» كما تمَّ ترجيحها).

فقد «اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظرائهم فقالوا للنبيّ ﷺ: إن كنت صادقًا [أي: عكس ادِّعاءاتهم المتكرِّرة بتكذيبه]، فشُقَّ لنا القمر فرقتَين، فسأل ربَّه، فانشقّ»[2]. فقالوا: «سَحَرَنا محمد. فقالوا: إن كان سَحَرَنا، فإنَّه لا يستطيع أن يسحَر

---

(١) هذه السور جميعها (أي: القمر و«ص» والأعراف والجنّ و«يس» والفرقان وفاطر) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الثلاث (البيهقي، وأبي عمرو الداني، وابن الضريس) ضمن السور المكية، خلافًا للزهري الذي قدَّم سورة القمر على سورة البلد كما سبق بيانه. وأما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد اتَّفقت جميع الروايات على مكيَّتها أيضًا.

(٢) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب انشقاق القمر، ٧: ١٨٢، ح: ٣٦٥٥. وفي الصحيح أنَّ أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريَهم آية، فأراهم القمر شقَّين. **صحيح البخاري**، كتاب المناقب، باب انشقاق القمر، ٣: ١٤٠٤، ح: ٣٦٥٥. «وما جاء في الأحاديث المروية الصحيحة يُثبت بيقين أنَّ القمر قد انشقّ للنبي ﷺ بإشارة منه أمام طالبي الآية، وهو خبر متواتر، رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، كما أورده الطبري والبيهقي». عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة القمر،

=

النَّاس كلَّهم»[١]، واتَّفقوا على أن يسألوا السُّفَّار (أي: المسافرون)، «فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾»[٢].

وسورة «القمر» تؤسِّس لتحوُّل جديد في شكلية العلاقة بين النبيّ ﷺ وخصوم الدعوة، من الإعراض عن المُتولِّين (في سورة النجم) إلى التولِّي عن المكذِّبين (في هذه السورة). ويُمثِّل حدث انشقاق القمر نقطة هذا التحوُّل باعتباره معيار تحقُّق وصول الأنباء التي فيها ازدجار لهم، ولم يمتَثِلوا. فكان الدليل الواضح على انتهاء شكلية العلاقة السابقة والالتزام بشكلية علاقة جديدة ـ بدءًا من هذه السورة ـ تحكم العلاقة بين النبيّ ﷺ وخصوم الدعوة. كما كان حَدَث انشقاق القمر ردًّا حاسمًا على تهمة السِّحر التي وصفوا بها الدعوة، لأنَّ حَدَثًا كهذا، يراه القاصي والداني لا يُمكن أن يكون سحرًا.

❑ «**القمر**»: وفيها «افتتاح بمعجزة حسيَّة (بعد معجزة القرآن في سورة الرحمن)، وتذكير متكرِّر بتيسير تذكُّر القرآن (بعد ذكر نعمة تعليمه في سورة الرحمن [وبيان الله له في سورة القيامة ومجده في سورة «ق»])، واشتملت السورة على دعوة للنظر والاعتبار بالآيات والنذر [عبر التاريخ] (بعد دعوة التفكُّر في نِعَم الله الحاضرة في سورة الرحمن [وما تخلَّلها وتلاها من مشاهد القيامة في السور اللاحقة])»[٣] فأظهرت «السورة مصير المكذِّبين»[٤]، واشتملت

= ٣: ٣٣٢ ـ ٣٣٤، بتصرُّف. وهذه الرواية لا تجعل تحقُّق الآية (المعجزة) شرطًا لإيمانهم، لأنَّ هذه المعجزات عاقبتها الإهلاك عند عدم إيمان القوم بها كما وَعَدوا، وهذا ما سيرد في سورة الإسراء.

(١) **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، كتاب تفسير القرآن، سورة القمر، ٥: ٣٩٨، ح: ٣٢٨٩. وأحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المدنيين، حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، ٢٧: ٣١٤ ـ ٣١٥، ح: ١٦٧٥٠.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة القمر، ٢٢: ٥٦٧.

(٣) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الرحمن، ٧: ٥٤٦ ـ ٥٤٧، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة القمر، ٧: ٥١٢، بتصرُّف.

على «بيان موقفهم المعاند المكذِّب بعد حدث انشقاق القمر ـ بسبب اتِّباعهم أهواءهم ـ وما يقتضيه ذلك ـ بعد أن وصلتهم الأنباء التي فيها ازدجار لهم ولم يمتَثِلوا لها ـ من توجيه للنبيّ ﷺ بالتولِّي عنهم بإدارة ظهره إليهم ليُتابع بذل جهده لدعوة مَن لم يصلوا إلى هذه الحالة من العناد، وتحذير المكذِّبين من قريش عبر عرض مصير المكذِّبين من الأمم السابقة، ثمَّ توجيه الخطاب إلى أهل مكة عن كُفَّارهم وهزيمتهم المستَحقَّة عليهم بقَدَر الله. وتُختَم السورة ببيان ترهيبي لعقاب المجرمين، وترغيبي لثواب المتَّقين»[1]. ويُلاحَظ في السورة أنَّه تمَّ فيها عرض تحوُّل التكذيب بالآيات عند قريش إلى أن يقولوا إنَّه ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، كما ورد في قَصص أحد الأنبياء في السورة اتِّهامه بالجنون[2]، واتِّهام غيره بأنَّه ﴿كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥]، أي: توسَّع في الكذب، خِدمة لأهوائه، وفيه معنى الشّقّ[3] كشقّ الصف في المجتمع.

«لما رأت قريش ظهور الإسلام وجلوس المسلمين حول الكعبة [القضية التي ما زالوا يصرون على إنهائها]، سقط في أيديهم، فمشوا إلى أبي طالب حتى دخلوا عليه فقالوا: أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا، وقد رأيت هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا [أي تجهيلهم عقولنا]، وجاؤوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا قد جئناك بفتى قريش جمالا ونسبا ونهادة [أي ضخامة وقوّة] وشعرا، ندفعه

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة القمر، ٣: ٣١٩ـ٣٢١، بتصرُّف.

(٢) مع أنَّ الجنون ورد سابقًا في آيات القلم الأولى ثمَّ في سورة التكوير منفيًا عن رسول الله ﷺ، ولكنَّه كان في بداية الوحي ثمَّ في بداية الدعوة الجماعية، وظاهرها الرد على الاحتمالات الأولية المفكَّر فيها من قِبَل المحايدين ـ بحُسن نية إن صحَّ التعبير ـ لتصنيف التغيُّر الذي طرأ على محمد بن عبد الله الهاشمي كما عرفوه. أما هنا، فهو بعد الاتهام بالسحر، تمهيد لتحوُّل إعلامي قادم للتهرُّب من حقيقة نبوته والتسليم بما يدعو إليه من إيمان وعمل صالح (اجتماعي).

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الألف، ص٧٨.

إليك فيكون لك نصره وميراثه، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فإن ذلك أجمع للعشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة. قال أبو طالب: والله ما أنصفتموني، تعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابن أخي تقتلونه؟ ما هذا بالنصف، تسومونني سوم العرير [أي الغريب] الذليل قالوا: فأرسل إليه فلنعطه النصف. فأرسل إليه أبو طالب، فجاء النبيُّ ﷺ فقال: يا ابن أخي، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك، وقد أرادوا يُنصِفونك. فقال ﷺ: «قولوا، أسمع». قالوا: تَدَعنا وآلهتنا، ونَدَعك وإلهك. قال أبو طالب: قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتُكم هذه، هل أنتم مُعطِيَّ كلمة، إن أنتم تكلَّمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم؟» فقال أبو جهل: إنَّ هذه لَكلمة مُربِحة، نعم وأبيك لنقولَنَّها وعشر أمثالها. قال: «قولوا: (لا إله إلا الله). فاشمأزوا، ونفروا منها، وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم إنَّ هذا لَشيء يُراد[١]. ويُقال المتكلِّم بهذا: عقبة بن أبي مُعَيط، وقالوا: لا نعود إليه أبداً، وما خيرٌ من أن يغتال محمد»[٢]. وفي رواية أخرى، يطلب النبي ﷺ من قومه كلمة (لا إله إلا الله) وهو معهم عند أبي طالب حينما كان مريضاً، فأجابوه: أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب[٣]، ونزل فيها: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾[٤].

أوضحت الرواية مجموعة من التطوُّرات. لقد أصبحت قريش مستعِدَّة للقَبول بالتعدّدية

---

(١) وهي الجملة التي نزل فيها قرآن لتوثيقها في سورة «ص».

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب ذكر ممشى قريش إلى أبي طالب في أمره ﷺ، ١: ٢٠٢.

(٣) وهذه الجملة أيضًا نزل فيها قرآن لتوثيقها في سورة «ص».

(٤) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، تفسير سورة (ص)، ٢: ٤٦٩، ح: ٣٦١٧، وصحَّحه ووافقه الذهبي. ولكنَّ إسناده ضعيف، فعباد بن جعفر (وهو يحيى بن عمارة، جزم بذلك البخاري ويعقوب بن شيبة وابن حبان، ويُقال: يحيى بن عباد) لم يرو عنه غير الأعمش، ولم يُوَثِّقه غير ابن حبان، فهو في عداد المجاهيل، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخَين.

العَقدية بشرط: عدم مسّ الدعوة بآلهتهم. ولكنَّ جواب النبيّ ﷺ انطلَق من الفوائد السياسية لقَبولهم شهادة توحيد الله تعالى (التي هي بذاتها ضدَّ الشرك)، وهي اجتماع كلمة العرب وحُكم قريش لهم، إضافة إلى الانتقال بالدعوة إلى العجم. وفي هذا بيان على استمرار الإصرار على دعوة التوحيد.

هذا التطوُّر في العلاقة بين النبيّ ﷺ وخصوم الدعوة قد أوصلهم إلى «الشعور بالهزيمة الفكرية القائمة على عقيدة الشرك أمام دعوة التوحيد (التي بدؤوا يتأثَّرون بها لكنَّ نفوسهم تأبى)[1]، فبدؤوا يتكاتَفون لمتابعة مسيرتهم الشِّركية، بالاعتزاز بقوَّتهم وبوقوفهم في شِقّ المعادي الذي يُفكِّر بقَمْع الدعوة بالقوة وبالدعاية الإعلامية التضليلية بأقوال جارحة للرسول ﷺ، ومحرِّضة على مُعاداته وحربه وحرب الذين آمنوا به»[2].

لقد أصبح هناك تلازم في هذه المرحلة بين واقع اعتزازهم الرافض للرضوخ لدعوة التوحيد وما يتبعه من تقسيمهم المجتمع بالعداوة والخلاف (الشِّقاق)، وبين موضوع خطابهم باتِّهام النبيّ ﷺ بأنَّه هو السبب في انقسام العشيرة وأنَّه ساحر وأنَّ متَّبعيه أشرار. وهذا قد يرتبط بحلول موسم الحجّ الذي سيُحرِج قريشًا حين ينتشر ذكر النبيّ ﷺ وآيات الوحي بينهم، والذي ستأتي الإشارة إليه في سورة الأعراف اللاحقة لسورة «ص».

❐ «ص»: وفيها استعراضٌ للمعادلة السابقة التي تُلخِّص واقع المرحلة، «ومعالجةٌ لأقوال الذين كفروا عبر إعلامهم بأنَّه لا مفرَّ من قضاء الله بإهلاك الأقوام، وعرض أدلة ادِّعاءاتهم في كون دعوة النبيّ ﷺ لمصلحة خاصة (أو مؤامرة على آلهتهم) لا تنسجم مع المتوارَث وجاء بها إليهم وهم أَولى منه بالنبوّة، لذلك كان موقفهم اتِّهام النبيّ ﷺ أنَّه ساحر كذَّاب وانتهاجهم تقليد الآباء والصبر على آلهتهم واستعجال العذاب استخفافًا. ثمَّ جاء الرَّدّ

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة ص، ٣: ٤٩٥، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة ص، ٣: ٤٧٤ ـ ٤٨١، بتصرُّف.

عليها بأنَّه ليس من حقِّهم الاعتراض على مشيئة الله وأفعاله. ثمَّ تمَّ توجيه النبيّ ﷺ للصبر وأخْذ العِبَر من قَصص الأنبياء السابقين الذين منهم مَن امتحَنه الله بالعطاء والبلاء، فكانوا أوَّابين لله طاعة واستقامة، ومنهم مَن كان من المصطفَين الأخيار، عِبَر خالصة التذكُّر الدائم للآخرة، ومنهم مَن كان من الأخيار (فقط)، وذلك في إشارة ضمنية للنبيّ ﷺ أن يختار لنفسه نموذجًا منهم (من جهة)، [فيقتَدِيَ بهم للتثبيت ومواجهة إغراءات ومساومات قريش (من جهة أُخرى)][(١)]. ثمَّ عرضت السورة مشاهد من نعيم المتقين، كما عرضت مشاهد من عذاب الطاغين وأتباعهم الذي أضلُّوهم، وقد استتبع اجتماعهم معهم في جهنَّم تخاصُمًا حول سبب عدم تعذيب المؤمنين أيضًا معهم ممَّن اتَّهموهم في الدنيا أنَّهم أشرار (بسبب تصديقهم لإضلال الطغاة لهم). وتورد السورة لأول مرة قصة آدم عليه السلام (المخلوق من طين) وموقف إبليس (المؤمن بربِّه مع جحوده واستكباره عن الخضوع للحقّ) فتحقَّق التمايز بينه وبين الملائكة، وهي تُعبِّر عن خطاب إبليس المتهرِّب من الاعتراف بكفره إلى تبرير موقفه بنزعة التفوُّق العرقي والتعالي العنصري والاستكبار القومي، فاستحقَّ اللَّعن، فوضع مخطَّط إغواء آدم وذريَّته إلا المخلَصين المصطفَين، [وتسير القصة بالتوازي مع موقف كفار قريش من النبيّ ﷺ ومن التوحيد، وإرادتهم التعالي بالقبيلة والطبقية]. وتُختَم السورة بالنفي أن تكون للنبيّ ﷺ مصلحة خاصة من الدعوة أو أن يكون متصنِّعًا لها، وإثبات كون القرآن ذكر للعالمين [وفي كلِّ ما سبق رَدّ على ادِّعاءات الكفار أول السورة]»[(٢)].

ونلمح في هذه السورة بداية إطلاق اتِّهام النبيّ ﷺ أنَّه ساحر (مع صفة) كذَّاب (السابقة)، وأنَّ تابعيه من الأشرار. كما قامت السورة بتسمية الوحي الذي يُنزَّل عليه على أنَّه «كتاب» ـ لأوَّل مرة ـ مطلوب «من أولي الألباب تدبُّره بتفكُّر عميق لعاقبته وتذكُّره بحفظه والعمل به»[(٣)].

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة ص، ١: ٢١٦ ـ ٢١٩، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة ص، ٣: ٤٩١ ـ ٦٣٨، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة ص، ٣: ٥٥٤ ـ ٥٥٥، بتصرُّف.

بعد سورة «ص» نزلت سورة الأعراف «كامتداد لها للرَّدّ على قريش على إثر ذهابهم إلى أبي طالب، ولكن مع تفصيل»[١].

□ «**الأعراف**»: وفيها «دعوة النَّاس لاتِّباع ما أُنزل إليهم من ربِّهم عن طريق النبيّ ﷺ (فيكون الله هو متولِّي أمورهم)، وعدم اتِّباع أولياء من دونه (يتولَّون أمور النَّاس [المحايدين الـمُستَمالين] في مسيرة حياتهم فيتَّبعونهم في أوامرهم ونواهيهم فيُضلُّونهم)»[٢]. وعليهم بالتالي ـ كأُناس مُحايدين ـ أن يفكُّوا ارتباط اختياراتهم بكبار قريش (الكفار المكذِّبين المستكبِرين المعتدين المُضِلِّين)، و«يُحدِّدوا موقفهم من الصراع بين الحقّ والباطل. لذلك، عرضت السورة قَصص الأنبياء [بتسلسل زمني] ليُظهر الصراع في تاريخ البشرية بين كلِّ نبيٍّ وقومه أنَّ نهايته هلاك الظالمين بسبب فسادهم»[٣] ونجاة المؤمنين، مع إيراد مشاهد نعيم الجنة وعذاب النار (للمكذِّبين المستكبرين المجرمين الظالمين الذين اتَّخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرَّتهم الحياة الدنيا ونسوا يوم الحساب) [مع عرض مشهد اجتماع المضلِّين في النار مع أتباعهم الضالّين وتلاعنهم]. وفي ذلك تحذير لقريش من هذا المصير، بالنظر إلى التوازي بين قَصص السورة وواقع تصرُّفاتهم (تكذيب، وكُفر مبرَّر بميراث الآباء، واستكبار، واستعجال للعذاب، وارتكاب للفواحش، وإكراه على الوثنية (بدل التزام وصية نبيِّهم بالدعوة إلى الحريات ـ دون ضغط الوعيد والصدِّ عن سبيل الله ـ والصبر على وجود الدعوة ليكون الزمن كفيلاً بإظهار حكم الله بين الطرفَين)، والتقتيل والقهر). ولم يتمّ الاقتصار في ذلك على أخبار «أنبياء العرب البائدة، بل أيضًا أنبياء بني إسرائيل. وفي هذا الإطار تمَّت الإشارة إلى العلاقة بين الرسالة المحمدية وما في كتب أهل الكتاب من التبشير

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الأعراف، ١: ٢٤١ ـ ٢٤٢، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأعراف، ٤: ٥٩، بتصرُّف.

(٣) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية ـ نظرات في أهداف سور القرآن**، سورة الأعراف، ص١١١ ـ ١١٢، بتصرُّف.

به (بصفاته: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾)، والإشارة إلى عموم هذه الرسالة المحمدية لتشمل النَّاس جميعًا وأهل الكتاب (الذين تمَّ ذكر قَصص من تاريخهم وأخطائهم في مخالفة الأوامر الإلهية وارتكاب المحظورات الشِّركية وترجيح اتِّباع الهوى بعد أن أَتَتهم الآيات، ممَّا يصبُّ في التأكيد على خطورة «السَّلبية أو التردُّد وعدم الثبات»[1] في تحديد المواقف في قريش وجدانًا وسلوكًا من جهة (فأَشبهوا الأنعام في ضلالهم وغفلتهم)، وأهمية دور الداعية من غير الأنبياء في الأمر بالتقوى (قصة أصحاب السبت) وكونه سببًا في النجاة عند إهلاك الظالمين من جهة أُخرى). وتعرَّضت السورة [في تحقيقٍ لصفات النبيّ المبشَّر به] إلى أحكام الحلال والحرام، وشجب الإثم والبَغي وبعض «العادات الوثنية التي ارتبطت بالحجّ[2]»[3] والتي كانت قريش أيضًا تُبرِّرها بأنَّهم وجدوا عليها آباءهم. وتردّ السورة عليهم

(١) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة الأعراف، ص١١٩، بتصرُّف.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة، وقالوا: لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب. ومنهم مَن يقول: نفعل ذلك تفاؤلاً حتى نتعرَّى عن الذنوب كما تعرَّينا عن الثياب. وكانت المرأة منهم تتَّخذ سترًا تُعلِّقه على حقوَيها لتستتر به عن الحمس وهم قريش، فإنَّهم كانوا لا يفعلون ذلك وكانوا يُصلُّون في ثيابهم ولا يأكلون من الطعام إلا قوتًا ولا يأكلون دسمًا. فقال المسلمون: يا رسول الله، فنحن أحقُّ أن نفعل ذلك. فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، أي: البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدَّسم واشربوا ولا تسرفوا». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الأعراف، ١٤: ٢٢٨، بتصرُّف. وقد أورد الطبري وابن كثير ذكر هذه العادات في سياق تفسيرهما لتلك الآية وما سبقها. يُنظر: الطبري، **جامع البيان**، سورة الأعراف، ١٢: ٣٧٩. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأعراف، ٣: ٤٠٢.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الأعراف، ١: ٢٢٢ ـ ٢٢٨، بتصرُّف.

أيضًا بذِكر أصول الرسالة ومبادئ الدين التي على الناس اتِّباعها إيمانًا وعملاً، وهي: «الأمر بالقسط (عدل واستقامة [واعتدال بتوسُّط في الأمور])، وإيفاء عبادة الله وحده حقَّها بإخلاص في أوقاتها ومحالِّها، والإيمان بالبعث. وبذِكر الكُلِّيَّات التي نهى الله الناس عنها وهي: الفواحش (وتعلُّقاتها جنسية)، والإثم (المعاصي)، والبغي (الظلم والعدوان)، والشِّرك، والافتراء على الله»[1]. وتُختَم السورة ـ ولأول مرة ـ «بهجوم لاذعٍ على الأصنام، فيه تسفيه لعقول الذين يعبدونها وتشنيع على قريش بالتجائهم إلى تبرير عبادتهم للأصنام التي لا يقبلها عقل بأنَّهم وجدوا عليها آباءهم. ثمَّ تتحدَّاهم أن يستعينوا بها ويُنفِّذوا ما يتحدَّثون به من ضرورة التخلُّص من النبيّ ﷺ»[2]، وتأمر النبيّ ﷺ بالمقابل بالأخذ بالعفو والأمر بالعُرف والإعراض عن الجاهلين، و«الاستعاذة بالله من الرغبات الشيطانية بالانتقام من قريش»[3] بسبب ممارستها، والتحلِّي بالتقوى. مع الأمر بالاستماع والإنصات للقرآن.

رغم أنَّ تسفيه عبادة الأصنام والتعرُّض لها وإثبات عجزها هو مُكمِّل لإظهار عقيدة المسلمين الإيمانية، إلا أنَّ ظهور ذلك الآن، يتبيَّن منه أيضًا الرَّدّ على الجانب العَقَدي الجامع لقريش للتهجُّم (بشكل جماعي) على الآخر وتبرير اضطهاده وصولاً إلى قتله. وبذلك يتمّ الرَّدّ على كيد التضييق والتعدِّي على الحرية الدينية برفع درجة موضوع الحوار إلى التهجُّم على الهوية الفكرية/ الثقافية (عبادة الأصنام)، لأنَّها دليل التعصُّب الأعمى للمتعدِّي وعامل تحشيدي لمكوِّنات المجتمع للقَبول باضطهاد مَن لا يعترف بها. وهو

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأعراف، ١٢: ٣٧٩، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأعراف، ٣: ٤٠٢ ـ ٤٠٣، بتصرُّف. وعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأعراف، ٤: ١٧١ ـ ١٩٧، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الأعراف، ١: ٢٤٦، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأعراف، ٥: ١١٧ ـ ١٢٠، بتصرُّف. ود. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الأعراف، ١: ٢٤١، بتصرُّف.

تصعيد في جانب الدعوة العَقَدي الذي هربوا إليه كي يتلافَوا مواجهة الجوانب الأُخرى التي تُهدِّد مصالحهم (الثقافية، والسياسية، والطبقية).

هذا، وقد ذُكِرَ لفظ «العداوة» في سورة الأعراف لأول مرة في القرآن، للدلالة على عداوة الشيطان لآدم وزوجه، وأنَّ بني آدم سيكون بعضهم لبعض عدوًّا، والإشارة إلى مرحلة العداء بين قوم موسى عليه السلام وفرعون ومَلَئِه بعد أن استهدفوهم بالقتل والتعذيب والإيذاء، وكان ردُّ فعل موسى عليه السلام تجاهها نُصح قومه أن يستعينوا بالله ويصبروا. ثمَّ لما نجَوا من فرعون، وعَبَد قومه العجل بغياب موسى عليه السلام، صنَّفهم هارون عليه السلام أنَّهم أعداء بعد أن كادوا يقتلونه، ووجَّه موسى عليه السلام لوحدة الصَّفّ معه كي لا يكون في خلافهما شماتة للأعداء فيهما. ممَّا يصبّ في وجود تلازم بين تسمية العدوّ ومحاولته الاعتداء بالقتل، فيكون تعلُّقه تعلُّقًا ماديًا مباشرًا، وليس بسبب اختلاف فكري ديني فقط.

بمقابل ذلك، جعل النبيّ ﷺ الأمر بالعفو ـ الذي ورد في ختام سورة الأعراف ـ قاعدة له في التعامل مع القوم[1]، لأنَّه يتطابق مع الأصل والهدف من الدعوة إلى القسط والعدل وحبّ الخير ونشره في المجتمع وإصلاحه. فعن ابن عباس رضي الله عنهما «أنَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأصحابًا له أتَوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة. قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»[2]. كما انتهج ﷺ أيضًا الإعراض عن الجاهلين الذي أمرته به الآيات.

وهذا هو عين الإسلام لله[3] بعيدًا عن تحقيق الدوافع الشخصية ولو بتبرير ديني ـ

(١) مع أنَّ كلمة العفو لم ترد في القرآن المكي نزولاً قبل هذه السورة، ولم ترد بعدها حتى العام السابع من البعثة عند الحصار في شِعْب أبي طالب.

(٢) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب الجهاد، ٢: ٧٦، ح: ٢٣٧٧. وهي «رواية صحيحة على شرط مسلم». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٥٨، بتصرُّف. ومثله في: الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٨: ٥٤٩، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النساء، ٢: ٣٥٩، بتصرُّف.

(٣) هذا في مكة، أما بعد الهجرة إلى المدينة، فسيرتبط الإسلام لله بالجهاد كما سيتبيَّن في حينه.

المؤدِّي إلى القَسْط (الجَور) ـ كما قد يحدث في بعض المجتمعات. وقد ورد هذان المصطلحان (الإسلام والقَسط) في سورة الجنّ التالية لسورة الأعراف كما تبيَّن. وقد أدرك عبد الرحمن بن عوف ﷺ نفسه معنى الإسلام لله وأنَّه هو السلوك الصحيح بقوله: «نزل الإسلام بالكره والشدة، فوجدنا خير الخير في الكراهة»[1].

ثمَّ نزلت سورة الجِنّ التي «تتحرَّك في امتداد سورة الأعراف»[2] بإظهار حال «مُنضمِّين جُدُد إلى ركب الإيمان»[3] وهم جِنٌّ استمعوا القرآن، فكانوا دعاة منذرين في أقوامهم، ممَّا يصبّ في تزكية تحوُّل المدعوّ إلى داعية في قومه، كما أشارت سورة الأعراف، وستُشير إليه قصة سورة «يس» بعدها.

فقد «انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ[4]، وقد حيل

---

(١) البزار أحمد بن عمرو، **مسند البزار المسمَّى البحر الزخار**، مسند عبد الرحمن بن عوف، ٣: ٢٤٨، ح: ١٠٣٨، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه البزار وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، باب سورة الأنفال، ٧: ٢٦ـ ٢٧، ح: ١١٠٢٦، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الجن، ١: ٢٤٧، بتصرُّف.

(٣) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الجن، ٨: ٣٩٢، بتصرُّف.

(٤) كما تناولت سورة الأعراف في طيَّاتها انتقاد عادات وثنية في موسم الحج، فقد نزلت سورة الجن في هذا الموسم أيضًا. وكان النبي ﷺ قد بدأ بالدعوة خارج مكة باكرًا. فعن جابر ﷺ قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى، يقول: مَن يؤويني مَن ينصرني حتى أُبلِّغ رسالة ربي وله الجنة، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب». أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله ﷺ، ٢٢: ٣٤٦ ـ ٣٤٧، ح: ١٤٤٥٦، بتصرُّف. قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجال أحمد رجال الصحيح». الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب ابتداء أمر الأنصار، ٦: ٤٦، ح: ٩٨٨٢. مع =

بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسِلَت عليهم الشُّهُب. فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيْلَ بيننا وبين خبر السماء وأُرسِلَت علينا الشُّهُب. قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمرَّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة ـ وهو بنخل ـ عامدين إلى سوق عكاظ وهو يُصلِّي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾»[١].

□ «**الجنّ**»: وفيها «قصة النَّفر من الجنّ الذين استمعوا القرآن من الرسول ﷺ دون أن يعلم بحضورهم[٢] فآمنوا به وانصرفوا إلى أقوامهم من الجنّ دعاة إلى دين الله»[٣]، ويظهر

= التحفُّظ على تعميم عبارة «مَن يؤويني مَن ينصرني» لأنَّها لم تكن طيلة السنوات العشر بل بدأت بعد وفاة أبي طالب كما سيأتي بيانه في موضعه عند أول الصدع بالدعوة في سورة الحِجر ثمَّ بعد الخروج من الحصار. ولكن يعنينا هنا كون النبي ﷺ قد التفت مبكِّرًا إلى الدعوة في المواسم والأسواق ضمن الدعوة العامة دون ارتباطها بإعراضه عن قومه المشركين. وسيأتي مزيد بيان عند التعقيب على سورة الحِجر ص٢٥٣ وما بعدها.

(١) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة الجن، ٤: ١٨٧٣، ح: ٤٦٣٧، بتصرُّف. **وصحيح مسلم**، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، ١: ٣٣١، ح: ٤٤٩، واللفظ له.

(٢) وهذا الحدث مختلف عن لقاء النبي ﷺ السابق بالجنّ حين قرأ عليهم سورة الرحمن بحضور عبد الله بن مسعود ﵁. فهذه من الوفادات التي «لم يأت بيان عنها في القرآن المجيد». عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الجن، ٥: ٥٤٦، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة الجن، ٥: ٥٢٠، بتصرُّف.

من خلال كلامهم أنَّهم «كانوا مخدوعين بأقوال يسمعونها من الإنس والجنّ قبل استماعهم للقرآن»[١]، في توازٍ دقيق يصف واقع المحايد المُصدِّق لكلام كفار قريش مع تكرار ذكر أهمية استماع القرآن في إزالة الغشاوة عن بصيرته، وأنَّهم اختاروا أن يكونوا من «المسلمين لله متحرِّي الرَّشَد مقابل القاسِطين الجائرين العادلين عن الحقّ»[٢]. وتُختَم السورة بتأكيد مهمّة النبيّ ﷺ بالبلاغ والرسالة باعتبارهما «الملجأ الحامي والعاصم من عقاب الله، وهما ما يملكه النبيّ ﷺ»[٣].

كان الهجوم على الأصنام وتسفيه عقول الذين يعبدونها وتحدِّيهم ـ في سورة الأعراف ـ سببًا في نقل الصراع إلى وضعية جديدة ونوعية مواجهات مختلفة، خاصَّة وأنَّ رسول الله ﷺ قد أعرض عنهم. لذلك، «لما رأت قريش أنَّ رسول الله ﷺ لا يُعتبهم [أي: يُرضيهم] من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعَيب آلهتهم، ورأوا أنَّ عمَّه أبا طالب قد حَدِب عليه وقام دونه فلم يُسلِمه لهم [كما سبق]، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب (وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البَختَرِيّ العاص بن هشام، والأسود بن المطلب، وأبو جهل، ونُبَيه ومُنَبِّه ابنا الحجاج بن عامر، والعاص بن وائل) يُعاتبون أبا طالب، فقالوا: يا أبا طالب، إنَّ ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا، فإما أن تكُفَّه عنَّا، وإما أن تُخَلِّيَ بيننا وبينه، فإنَّك على مثل ما نحن عليه من خلافه [ومقصودهم هنا الترغيب عكس زيارة لاحقة[٤]]، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا وردَّهم ردًّا جميلاً فانصرفوا عنه. ومضى رسول ﷺ على ما هو عليه يُظهر دين الله ويدعو إليه، ثمَّ شَرِيَ الأمر بينه وبينهم [أي: عظُم وتفاقم ولجُّوا فيه] حتى تباعد الرجال

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الجن، ٥: ٥٧٢ ـ ٥٧٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الجن، ٥: ٥٩٧ ـ ٥٩٨، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة الجن، ٥: ٦٢٧، بتصرُّف.

(٤) تُراجع أحداث تلك الزيارة في ص٢٧١.

وتضاغَنوا [أي: انطووا على الأحقاد]، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه [أي: حضَّ بعضهم بعضًا على القتال وتلاوموا]، وحضَّ بعضهم بعضًا عليه»[١].

في هذا السياق، حدثت منهم محاولات للمواجهة الجسدية. فقد «كان رسول الله ﷺ يقرأ في المسجد، فيجهر بالقراءة، حتى تأذَّى به ناس من قريش، حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا هم عُميٌ لا يبصرون، فجاؤوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا: ننشدُك الله والرحم [أي: القرابة معهم] يا محمد ـ ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبيّ ﷺ فيهم قرابة ـ فدعا النبيّ ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم؛ فنزلت: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]. فما آمن من أولئك النفر أحد»[٢].

كما حدثت بعض المواجهات الكلامية، فقد «جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعَظْم حائل ففتَّه، فقال: يا محمد أيبعث الله هذا بعدما أرم؟ قال: نعم، يبعث الله هذا، يُميتك ثم يُحييك ثم يُدخِلك نار جهنم؛ فنزلت الآيات ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]»[٣]. كما «مشى أُبيّ بن خلَف (من بني جُمَح) إلى رسول الله ﷺ بعَظم بالٍ قد ارفتّ. فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أَرَم، ثمَّ فتَّه بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يُدخِلك الله النار؛ فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، باب مباداة رسول الله ﷺ قومه وما كان منهم، ١: ٢٦٥، بتصرُّف. وابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣: ٦٢، بتصرُّف.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله، **دلائل النبوة**، باب ذكر عصمة الله رسوله ﷺ حين تعاقد المشركون على قتله، ١: ١٩٩، ح: ١٥٣.

(٣) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، تفسير سورة يس، ٢: ٤٦٦، ح: ٣٦٠٦. وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠]»[١].

❑ «يس»: وفيها «تفويض الأمر لله أثناء الدعوة إلى الله، بالإصرار المستمِرّ على الدعوة»[٢] عبر «الإنذار. والاستدلال بحكمة القرآن (سواء في نظمه أو معارفه أو السلوك [الذي يدعو إليه] على صراط مستقيم) كدليل على صدق رسالة النبيّ ﷺ. وتمّ عرض حال المجتمع المكي المُنقَسِم بين مَن وصل إلى حالة ميؤوس منها لا يؤدِّي إنذاره إلى إيمانه (لاستكبار أكثرهم الذي جعلهم أسَرى أهوائهم)، وبين مَن لم يصل إلى هذه الحالة ممَّن اتَّبع الذكر (القرآن الذي يسمعه) وخشِيَ الرحمن بالغيب. وفي هذا السياق، يتمّ عرض قصة أصحاب القرية ـ الذين كذَّبوا مُرسَليهم الثلاثة في مهمّة تبليغهم ـ وأثاروا ذرائع (التشاؤم منهم) وهدَّدوهم بالقتل والتعذيب، وفي القصة أيضًا ذكر تدخُّل رجل حمل همَّ هذه الدعوة فقام بأعبائها ـ رغم وجود مُرسَلين ـ وأكمل الحوار بعد تأزُّم الموقف بتلك التهديدات، [فخنقوه ليموت، فالتفت إلى الأنبياء ليشهدوا له فعله[٣]]، وقد ذكرت الآيات تحسُّر هذا الرجل على المعانِدين عند تعريض أنفسهم للهلاك [وهي الرُّوحية المطلوبة في الدعوة]. كما تمَّ عرض ظواهر كونية دالَّة على قدرة الله (على الإهلاك للعقاب والإحياء للبعث) وعِلمه وحكمته، ومظاهر سلوكية خاطئة [تتعلَّق بالطبقية] للكافرين يُقابِلون بها مساعي إنقاذهم من عقاب الله وما استتبعه من رفضهم للتكافل الاجتماعي، ثمَّ عرض مشاهد من نعيم الجنة وعذاب جهنَّم، وتذكير الله لبني آدم (جميعًا [في إشعار لمساواتهم فيما بينهم])

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر ما لقِيَ رسول الله ﷺ من قومه من الأذى، ١: ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٢) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة يس، ص٣٢٧، بتصرُّف.

(٣) «لما قال صاحب ياسين: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، خنقوه ليموت، فالتفت إلى الأنبياء فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥]، أي: فاشهدوا لي. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، تفسير سورة يس، ٢: ٤٦٦، ح: ٣٦٠٥. وصحَّحه، ولكن الذهبي ضعَّف أحد رجال الإسناد.

بعهده لهم (الذي ورد في سورة الأعراف) أن يعبدوا الله ولا يُطيعوا عدوَّهم الشيطان، ثمَّ الرَّدّ على جَدَلِيَّاتهم حول موعد قيام الساعة وشبهاتهم على الوحي (المنذِر للأحياء بالفكر والإدراك واستخدام أدوات المعرفة) وعلى إمكانية البعث، مع توجيه النبي ﷺ بعدم التسليم لتأثير أقوالهم بالحُزن عليهم، وأنَّ الله ناصره وهو يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلنون»[١] في اجتماعاتهم وما يُحضِّرون من مكائد.

إنَّ التوجُّه إلى كفَّار قريش ومحايديها بالخطاب القرآني، قد أثمر استكمال الكفار لشبهاتهم على الدعوة من جهة، وتلكُّؤ المحايد بسبب علاقته مع غيره وارتباطه بعادات الجاهلية من جهة أُخرى.

فمِن مواجهاتهم الكلامية وشبهاتهم وطلباتهم من المعجزات، أن قالوا للنبيّ ﷺ: «سَلْ ربَّك يبعث معك مَلَكًا يُصدِّقك بما تقول، ويُراجعنا عنك، وسَلْهُ فيجعل لك قصورًا وجنانًا، وكنوزًا من ذهب وفضة، تُغنيك عمَّا نراك تبتغي، فإنَّك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعلم فضلك ومنزلتك من ربّك إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل؛ فأنزل الله في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٨]»[٢].

كما كفر عقبة بن أبي مُعَيط ـ بعد أن أعلن إسلامه لدواعي اجتماعية[٣] ـ بعد أَمرِ خليله

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة يس، ٦: ٢٠ـ ٢١٥، بتصرُّف.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة الفرقان، ١٩: ٢٤٠، بتصرُّف.

(٣) فقد دعا عقبة بن أبي مُعَيط مجلسًا فيهم النبي ﷺ لطعام، فأبى النبي ﷺ أن يأكل، وقال: «ولا آكل حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»، فقال: ما أنت بآكل حتى أشهد؟ قال: «نعم»، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فلَقِيَه أُمَيَّة بن خَلَف فقال: صبوتَ؟! فقال: إن أخاك على ما تعلم، ولكنِّي صنعت طعامًا، فأبى أن يأكل حتى أقول ذلك، فقُلته، وليس من نفسي. المصدر نفسه، سورة الفرقان، ١٩: ٢٦٣، بتصرُّف.

وصفيِّه أُمَيَّة بن خَلَف له بذلك، كما امتنع أُبَيّ بن خَلَف عن مجالسة النبيّ ﷺ بسبب زجر عقبة بن أبي مُعَيط له؛ فنزلت في أمثالهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

كما «أتى ناس من المشركين إلى النبيّ ﷺ كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنَوا فأكثروا، فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تُخبرنا أنَّا لما عمِلنا كفَّارة؛ فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]».

□ «**الفرقان**»: وفيها ذكر «كُلِّيَّات كبرى من عناصر القاعدة الإيمانية: تعظيم الله وتوحيده، وتنزيل القرآن الفرقان بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال، وعالمية الرسالة النبوية، وإنذار الناس بها»[2]. والرَّدّ على المواجهات الكلامية مع قريش وشبهاتهم (المتناقضة) على الدعوة، مع التعرُّض لأصنامهم بإثبات عجزها (النافي لإلهيَّتها)، وعرض مشاهد القيامة حيث لا عُذر لهم فيُعاقَبوا مقابل نعيم المتَّقين. وأظهرت السورة حكمة الابتلاء الإلهي للفريقَين من أهل الحقّ وأهل الباطل ببعضهما (نتيجة تحقُّق الفرقان في المجتمع)[3] وأنَّ المطلوب من أهل الحقّ الصبر، كما أظهرت نتائج من تحسُّر المحايد

(١) **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، ١: ١١٣، ح: ١٢٢، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة يس، ٦: ٣٣٤، بتصرُّف.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠] «يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض. والمعنى: أنه ابتلى المرسلين [منهم] بالمُرسَل إليهم، وبمناصبتهم لهم العداوة، وأقاويلهم الخارجة عن حدِّ الإنصاف، وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل...، وقيل: جعلناك فتنة لهم، لأنَّك لو كنت غنيًّا صاحب كنوز وجنان لكان مَيلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا، أو ممزوجة بالدنيا، فإنَّما بعثناك فقيرًا ليكون طاعة مَن يُطيعك خالصة لوجه الله من غير طمع دنيوي». الزمخشري محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، سورة الفرقان، ٣: ٢٧٢، بتصرُّف.

وندمه في الآخرة أن ظلم نفسه في الدنيا باختيار الضلال، وأنَّ صالح أعماله الدنيوية لا تنفعه حينها بسبب عدم الإيمان. مع إبراز دور الشيطان في خذلانه (كعدوّ لم يُحتَرَز منه). وكانت النتيجة التي أعلنها النبيّ ﷺ في السورة: هجران قريش للقرآن الهادي. وتمَّ «التوطين للنبيّ ﷺ أنَّه سيُجعل له عدوٌّ من المجرمين كما جُعِل لمَن قبله من الأنبياء»[1] وأنَّ «على الله الهداية لأسباب منع العدوّ من تحقيق أهدافه والانتصار عليه»[2]. وتمَّ «الطلب من قريش الاعتبار من مساكن القوم الذين أهلكهم الله والتي يُشاهدونها في رحلاتهم»[3]. كما تمَّ التأكيد على مهمّة النبيّ ﷺ في «كونه مبلِّغًا فقط دون تحمُّل مسؤولية تحويلهم إلى صراط الله، وإعلامه أنَّ علّة إعراضهم هي عبادتهم لأهوائهم التي جعلتهم ينصرفون عن الاستماع للقرآن، فعطّلوا أدوات المعرفة حتى أصبحوا كالأنعام التي تتصرَّف بغرائزها»[4]. وتمَّ توجيه النبيّ ﷺ لمُقاومة هذا الواقع في هجر القرآن ونشر الشبهات بمضاعفة جهده الدعوي[5]، مقابل ازدياد نفور الكافرين. وخُتِمَت السورة بعرض ظواهر كونية من جهة، وصفات عباد الرحمن أئمّة المتَّقين من جهة أُخرى باعتبارهما دلائل في الدعوة إلى الله وبيانًا واقعيًا للخضوع لله ضمن تكامل وانسجام. وهذه الصفات هي: السكينة والوقار، وضبط الإرادة للسلام، والعبادة بإخلاص واجتهاد، مع خشية من عذاب جهنَّم، واعتدال واقتصاد في التصرُّفات المالية، وتوجُّهٌ إلى الله وحده في حاجاتهم، وعدم القتل بغير حقّ، أو الزنا، أو الشهادة بباطل أو كذب، مع حُسن إدارة أوقاتهم، ومع حضور قلبي وفكري ونفسي، وحرصٍ على إنشاء الأُسَر المَرْضيَّة صفاتها، وذلك بتقوى وصبر)[6].

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الفرقان، ١٩: ٢٦٥، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة يس، ٦: ٤٨٣، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة يس، ٦: ٥٠٣، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة يس، ٦: ٥٠٩ ـ ٥١٠، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، سورة يس، ٦: ٥٥٥ ـ ٥٥٦، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، سورة يس، ٦: ٦٠٨ ـ ٦٦٨، بتصرُّف.

إنَّ عطاء سورة الفرقان، ينسجم مع مرحلته من السيرة، فيظهر منه بداية حسم الموقف في انقسام المجتمع، والصعوبات التي تكتنف حسم المحايدين لموقفهم، سواء أكانت هذه الصعوبات مردُّها منهم أم من طبيعة الواقع الحالي في مكة بنشر الشبهات والافتراءات على الدعوة والتصادم معها. فكان المطلوب في ذلك الصبر وتوطين النفس على وجود أعداء للدعوة وبذل جهود إضافية في الدعوة، مع الاستفادة في الدعوة من مشاهدات واقعية (الآثار، والظواهر الكونية، وصفات عباد الرحمن الإيجابية والبنَّاءة والقيادية ودورهم الدعوي). وإنَّ ذكر عباد الرحمن بسلوكهم يُشكِّل إشارة إلى الرابطة التي تجمعهم، وهي: عبادة الرحمن، مقابل التجمُّعات التي تتشكَّل في هذه المرحلة بأساس قَبَلي لمواجهة الدعوة بشكل جماعي (بعد أن استنفدت قريش التحرُّكات الفردية قبل ذلك).

بعد سورة الفرقان، نزلت سورة فاطر التي «تُتابع تفصيل بيانات تتعلَّق بموضوع سورة الفرقان»[١].

□ «**فاطر**»: وفيها «التذكير بنِعَم الله في عرض أركان الإيمان والإجابة على الأسئلة الملحَّة التي تدور في الأذهان»[٢] وهي أسئلة الفطرة الإنسانية. وتَفتَتِح السورة بعرض التنوُّع في المخلوقات بعِزّة وحكمة، وذِكر «نِعَم الإيجاد بالخلق، ونعمة الإمداد بالرزق، والظواهر الكونية لفائدة الإنسان، وكلُّها تؤدي إلى واجب الإيمان به»[٣]. ومبدأ الاتفاق على العدوّ المشترك (الشيطان باعتباره الآخر المعادي الحقيقي لجميع النَّاس على اختلافهم وتنوُّعهم)

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة فاطر، ٧: ١٣، بتصرُّف.

(٢) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة فاطر، ٦: ٢٣٥، بتصرُّف.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة فاطر، ١: ٢٨٥، بتصرُّف.

كعامل جمعٍ مع الآخر في الداخل (البلد الواحد)، والتعرُّض للأصنام بإثبات عجزها (فقرًا وضعفًا)، وإيراد قاعدة الجزاء بالمسؤولية الفردية التي لا يتعدَّى العقاب عليها وتحمُّلها لغير مرتكبها (ولو كان ذا قُربى). وتمَّت الإشارة إلى أنَّ «الإنذار يؤثِّر فيمَن يخشَون ربَّهم بالغيب»[١]، كما أنَّ «الذين يخشَون الله لا بدَّ أن تكون خَشيَتهم قد تحقَّقت بسبب علمهم به»[٢]؛ [فكان العلم باستخدام أدوات المعرفة (لاستماع المحايد للقرآن كما سبق) سببًا للخشية، والخشية تُسبِّب التأثُّر بالإنذار النبوي للعمل بمقتضى مطلوب الدين عبادة وسلوكًا]. ثمَّ كان «البيان بأنَّ القرآن هو الحقّ مُصدِّق [من حيث كونه وحيًا][٣] للكتب الربانية التي أنزلها الله على رُسله من قبله»[٤]، فيُنتج ذلك اتِّفاقًا طبيعيًا مع أهل الكتاب على أصل الرسالة ونزول الوحي على الأنبياء كقَدْر أَوَّليّ مشترك بيننا، وهذا هو عامل جمعٍ مع الآخر (من أهل الكتاب) في الخارج (بين بلدَين). وتمَّ عرض انقسام أصناف «مَن بَلَغتهم

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة فاطر، ٧: ١٢٥، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة فاطر، ٧: ١٥٦، بتصرُّف.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [فاطر: ٣١]، أي: «إنَّ هذا الوحي مُصدِّق لما تقدَّم، لأنَّ الوحي لو لم يكن وجودُه لكذب موسى وعيسى عليهما السلام في إنزال التوراة والإنجيل. فإذا وُجد الوحي ونزل على محمد ﷺ عُلِمَ جوازُه وصُدِّق به ما تقدَّم. وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أنَّه تعالى جعل القرآن مُصدِّقًا لما مضى، مع أن ما مضى أيضًا مُصدِّقٌ له، لأن الوحي إذا نزل على واحد، جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة فاطر، ٢٦: ٢٣٨.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة فاطر، ٧: ١٦٣، بتصرُّف.

الدعوة إلى الإسلام بين ظالمٍ لنفسه (لا يلتزم به)، وبين مُقتَصِد (لا يتجاوز الواجبات)، وبين سابقٍ بالخيرات»[١]. وتمَّ إيراد مشاهد القيامة بنعيم الجنة وعذاب جهنَّم. وتُختَم السورة بإيراد ادِّعاء سابق لقريش عن طاعتها للنذير (بوحيٍ) لو جاء إليها، ولكنَّها في واقعها كَفَرت به ونَفَرَت منه بسبب «دائَين نفسيَّين: حبّ الاستكبار في الأرض بالزعامة والأَنَفة من اتِّباع النبيّ ﷺ، وشهوات النَّفس وأهوائها ومطالبها السيئة المقتضية للمكر. وبذلك استحقُّوا أن يترقَّبوا **سُنَّة الأولين** (الطريقة المتَّبعة في إهلاك كفار القرون الأولى)»[٢]، مع الإعلام بأنَّ الله يُؤخِّرهم إلى أجلٍ مسمّى.

وضمن في هذه المجموعة من السور السبع[٣]، قد يترجَّح أيضًا نزول تتمَّة سورة القلم:

□ «**القلم**» (**تتمة**): وفيها: «التوصية للرسول ﷺ أن لا يستجيب لإغراءات المكذِّبين، كأن يُداهِنهم في قضايا الدين [بناء على احتدام الجدال في زيارتهم الأخيرة إلى أبي طالب، والسياق الذي أدَّى إلى توقُّف الحوار]، وتطمينه بإذلال المستكبِر من قومه وخَيبة مساعيهم. [كما ترد «قصة إخوة ورثوا بستانًا فمنعوا حقَّ الفقراء والمساكين فيه، فكان عاقبتهم الضلال

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة فاطر، ١: ٢٨٣، بتصرُّف.

(٢) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة فاطر، ٧: ٢٣٤-٢٣٧، بتصرُّف.

(٣) إنَّ ترجيح نزول تتمة سورة القلم ضمن هذه السور السبع مردُّه إلى عوامل متعدِّدة: تصريح السورة بالتكذيب والمكذِّبين، وهو أمر تأخَّر حتى سورتَي الرحمن والقمر. ولكنِّي استقررت على ضمِّه إلى المجموعة التي تبدأ بسورة القمر بسبب التعرُّض للأصنام وإثبات عجزها عن نصرتهم وذكر «المسلمين» و«أساطير الأولين»، وكلُّها لم يبتدئ ذكره سابقًا قبل مجموعة السور السبع التي تبدأ بالقمر.

ومعه أيضًا عقاب»[١]. وفي ذلك إشارة إلى توازٍ يستكمل ـ مع مصير ثروات الكافرين ـ مصير المحايد الذي حدَّد موقفه (كما مرَّ في تتمة سورة العلق)، وجعل كبار قريش أولياءه (كما مرَّ في سورة الأعراف)، واستمع إليهم (كما مرَّ في سورة الجن)، وربط موقفه بموقفهم (كما مرَّ في سورة الفرقان)]. ثمَّ تمَّ عرض قانون الجزاء الرباني مع علاجات جَدَلية لمُنكِريه (بإثبات ضعف شركائهم عن نُصرتهم)، وإنذار المكذِّبين مع إمهالهم، والأمر بالصبر [مع التحذير من ترك الدعوة بسبب عدم الاستجابة][٢]. وتمَّ عرض موقفهم عند سماع القرآن إلى حدّ حسد[٣] النبيّ ﷺ مع اتِّهامه بالجنون»[٤].

وبنهاية المرحلة الأولى من السيرة، تحضرنا قصة خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في توازٍ مع الرجل الداعية الذي ورد ذكره في سورة يس. فلما «اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظهور فقال: يا أبا بكر، إنَّا قليل. فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يُلِحّ حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد، كلُّ رجل في عشيرته، وقام أبو بكر رضي الله عنه في الناس خطيبًا، ورسول الله ﷺ

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة القلم، ١: ٢٤٢ـ٢٤٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة القلم، ١: ٢٧٠، بتصرُّف.

(٣) «كانت قريش عانوا رسول الله ﷺ ليُصيبوه بالعين». الطبري، **جامع البيان**، سورة القلم، ٢٣: ٥٦٤. «فسأل الكفار رجلاً من بني أسد أن يُصيب لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم، فعصم الله نبيه ﷺ ونزلت: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ [القلم: ٥١]». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾، ١٨: ٢٥٤ ـ ٢٥٥، بتصرُّف.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة القلم، ١: ٢٠٠ـ ٢٠٢، بتصرُّف.

جالس. فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ. وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضُرِبوا في نواحي المسجد ضَربًا شديدًا»[١].

وقد نستنبِط من إلحاح الصدِّيق رضي الله عنه استشرافه لأهمية الظهور الجماعي ردًّا على الاضطهاد والتكذيب الذي أصبح جماعيًا من جهة، وقُرب تكوين المؤمنين بالنبيّ ﷺ لجماعة منفصلة عن قريش بتتابع الأحداث، الأمر الذي يُلفِت له بداية ذكر تسمية «المسلمين» ـ ضمن مجموعة السور السبع الأخيرة ـ على مَن آمن بالدعوة «كدلالة على الخضوع لسلطة جماعة»[٢]، من جهة أُخرى. وقد بدأت تظهر التسمية في سورة الأعراف، وهي السورة الثانية بعد «ص» التي ذكرت القرآن بتسمية «الكتاب». والكتابات المدوَّنة هي من معايير الجماعة المنظَّمة المؤهَّلة لاستكمال النضج والترقِّي.

وهكذا، أوصلنا تأصيل رؤية التعدّدية في المجتمع في العهد المكي إلى انتهاء المرحلة الأولى (من المراحل العشرة). وتبيَّن لنا ما كان في سورها من رفض لقريش للتعدّدية المجتمعية بأقسامها: العَقَدية، والثقافية، والسياسية، والطبقية. وقامت الآيات بانتقاد إدارتهم الخاطئة للتعدّدية، واستهدفت دوافعهم المصلحية (من المال إلى العقيدة الشركية)، ورَصَدت أساليبهم التشكيكية والتشويهية للدعوة وصولاً إلى اضطهاد أتباعها، وذلك تهرُّبًا منهم من مطالبها التوحيدية وتعلُّقاتها الإصلاحية في المجتمع، وتجنيبًا منهم لتأثُّر عموم المجتمع المحايد بها. وكانت التوجيهات القرآنية والنبوية واضحة في الحثّ على الدعوة وردّ الاتهامات، والتأكيد على الدافع الأُخروي، والإعراض عن الجاهلين، والصبر على إيذائهم، والمعالجة النفسية. حتى خُتِمَت المرحلة بالتدافع بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وظهور مفهوم «العدوّ» (كتصنيف مشترك بين الناس في علاقتهم مع

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣: ٤٠.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة القلم، ١: ١٨٠ ـ ١٨١، بتصرُّف.

الشيطان، مع كون مفهوم «الوحي» تصنيفًا مشتركًا مع أهل الكتاب)، وتوتُّر العلاقة مع قريش وتوقُّف الحوار بنفور الكافرين (بالابتعاد والتجافي لأسباب الكِبْر ومكر السيّئ)، فجَمَدت الدعوة واستمرَّ كيدهم بالدعوة وبالنبيّ ﷺ.



خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة:	الأولى	الأولى
	السور:	آيات من سور العلق، والمدثر، والقلم، وسورة الفاتحة	٣٩ سورة (من المسد إلى فاطر)
	الزمن:	١ ـ ٣ بعثة	٤ ـ ٥ بعثة
	الأحداث:	النبوة والرسالة والأمر بالدعوة	الأمر بالجهر بالدعوة
	الهدف:	بناء النواة الإيمانية الأولى بمعايير	دعوة الأفراد في مكة إلى الإيمان ومستتبعاته الإصلاحية
الفعل	الموضوع	التوحيد، التزكية	الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، انتقاد مظاهر الجاهلية، التوحيد، الربوبية، امتداد الرسالات السماوية، تصحيح المفاهيم، رسالة الحياة، مشاهد القيامة (كدافع للإصلاح)
	الأسلوب	الإنذار	الإنذار، القَصص القرآني
	الإطار	الدعوة الفردية الخاصة (السرية)	دعوة الأفراد الجهرية، دار الأرقم
	المخاطَب	شباب من مختلف شرائح المجتمع	العشيرة (الأقربون)
	الضمانة	السرية، عدم اكتراث السلطة	منعة قَبَلِيَّة

ردة الفعل	الاتجاه العام	-	الرفض على مستوى القيادات، الحياد على مستوى الأفراد		
	الأسباب	-	رفض المساواة بين الجميع وعدمها بين القبائل (بِنُبوَّة في إحداها)، الحرص على مكتسبات النظام		
	الوسائل	-	الوخز الإعلامي المساومة الجدالات والاتهامات	التولي عن الدعوة التعدي على حريات المعتقد وممارسة الشعائر. حملات التشويه الإعلامية (لاستمالة المحايدين بتشكيك وتعتيم) الحرب النفسية والاستهزاء التعدي على النبي(في الحرم (مخالفة دينية للحرم وسياسية لحلف الفضول) الكيد للدعوة	التعجيز بطلب المعجزات الإعراض عن الآيات استمرار حملات التضليل واتهام الدعوة بالشر وتقسيم المجتمع استمرار الجدالات والتشكيك تلكؤ المحايد بسبب ارتباطاته بالمجتمع وعادات الجاهلية نفور الكافرين للاستكبار ومكر السيء

الاستجابة			رفض المساومة التهديد الضمني الاعتصام بالله الرد على الجدالات والاتهامات	الإعراض عمَّن تولىَّ (تخفيف الحرص عليهم وعدم الانتقام منهم) الجهر بالقرآن ذكر متعلَّقات الوحي وعيد المعتدين على الحريات مع فتح باب التوبة لهم الصبر والثبات وعدم استعجال النصر الحفاظ على نُظُم تماسك الجماعة اجتماعيًا مواجهة الاضطهاد بمبادرات صالحة الدوافع الأخروية والدنيوية للإيمان التوجُّه إلى المحايد (السلبي) لدعوته الدعوة إلى العدل وعدم إفساد التوازن وعيد المستهزئين المعالجة النفسية للتساؤلات الإصرار على ظهور شعائر الدين (الصلاة) في الحرم إعلان حرية ممارسة الشعائر الدينية	التولي عن المعرضين المصرِّين بعد اكتمال أنباء الازدجار لهم إعلان المحايدين بهزيمة الكفار القادمة [بعد ١٠ سنوات] وإعلان عاقبة المحايدين إن استمروا على غفلتهم وسلبيتهم وتردُّدهم باتباع الكفار الصبر والدعوة إلى الحريات والعفو وعدم الانتقام التهجم على الأوثان ظهور مفهوم العداوة لَمِن يستهدف بالقتل والتعذيب دعوة المهتدين للتحوُّل إلى دعاة تحديد العداوة الحقيقية باتباع الشيطان، وكونها عامل جمع مع الآخر داخل المجتمع قصر مهمة النبي (على التبليغ كون الاتفاق على المبادئ المشتركة (أصول الرسلات) عامل جمع مع الآخر (أهل الكتاب) في الخارج المسؤولية الفردية ظهور تسمية «المسلمين» كجماعة مستقلة لجوء الضعفاء إلى مناطق عادلة الحكم

تمييز مكوّنات المجتمع	تصنيف التدافع	الاجتماعي:		داخلي (ضمن المجتمع الواحد). تشويه إعلامي وتعدي على الحريات	
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	(عرض أصول الاتجاهات: مُنعَم عليهم، مغضوب عليهم، ضالون)	الكافرون المؤمنون	الذين في قلوبهم مرض	المسلمون الذين أوتوا الكتاب (من خارج المجتمع)
	مظاهر الاختلاف فيها	مصدري (مصدرية الوحي)	مصدري (عقدي)	خُلُقي (المفاضلة بين الانتمائي والبيئي مقابل المصدري)	
	التمييز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	(تمييز من حيث: تحقُّق الاستجابة أو عدمها، والتلكؤ فيها أو سرعتها)	تمييز المؤمن من الكافر	تمييز الراسخ في الإيمان من ضعيف الإيمان تمييز المحايد بين مؤمن وكافر	جعل بعضهم لبعض فتنة
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا:	قوة	قوة	-	ضعف
	حركة/ جمودًا:	حركة	حركة	-	جمود
	نوعًا/ عددًا:	نوع	نوع وعدد	تقلُّص من العدد	ارتقاء في النوع



الفصل الثاني

حفظ الدعوة ورعاية الدعاة

المبحث الأول: التضامن باللجوء إلى القريب (أهل الكتاب)

بعد انتهاء المرحلة الأولى من السيرة النبوية، «تفاقمت في أواسط السنة الخامسة الاعتداءات، ونبا بالمسلمين المقام في مكة، وأخذوا يُفكِّرون في حيلة تُنجيهم من هذا العذاب الأليم»[(١)].

➢ في هذه الظروف، نزلت ثلاث سور متتالية[(٢)]:

❏ «**مريم**»: وفيها ذكر رحمة الله الوهَّاب عند انقطاع الأسباب. ويظهر ذلك جليًا في قَصَص السورة ـ التي لم ترد سابقًا ـ عن «زكريا مع ابنه يحيى عليهما السلام: في توجُّه زكريا إلى الله كي يهبه الولد المؤهَّل ليرث مركز السلطة الدينية (الدعوة)، وعن مريم مع ابنها عيسى عليهما السلام: التي اعتزلت أهلها فأرسل الله لها جبريل عليه السلام مبشِّرًا بهبة ابنها، ثمَّ اعتزلت به مكانًا بعيدًا. وبذلك يتمّ تثبيت المؤمنين مع بشارتهم برحمة الله بلا أسباب منظورة متوقَّعة، وما تبع ذلك من استغراب بعض قومها للحدث واتِّهام البعض الآخر لها»[(٣)] في تواز مع ردود أفعال المحايدين والمُخالِفين. ثمَّ يتم ذكر جانب من قصة إبراهيم

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٨٧، بتصرُّف.

(٢) هذه السور الثلاث (أي: مريم و«طه» والواقعة) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الثلاثة (أبي عمرو الداني، وابن الضريس، والزهري) ضمن السور المكية، ورواية البيهقي أسقطت سورة مريم من الرواية، مع اتفاقها مع بقية اللوائح على ترتيب «طه» والواقعة. وأما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد اتَّفقت جميع الروايات على مكيَّتها أيضًا.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة مريم، ٧: ٣٨٥ـ ٤٥٦، بتصرُّف.

عليه السلام مع أبيه في دعوته ثمَّ هجره واعتزاله وما تلاه من هبة له، وكذلك قصة موسى عليه السلام في وحي الله إليه وتقريبه وهِبة أخيه معه نبيًا، وقصة إسماعيل عليه السلام (النبيّ، وهو جدُّ النبيّ محمد ﷺ) الذي أقام الصلاة والزكاة (أي: الوصايا التي نادى بها المسيح عليه السلام في السورة)، وقصة إدريس الصدِّيق («في صدقه وتصديقه بالوحي»[١]).

وإنَّ في اختيار أن تكون موضوعات القَصص عن هؤلاء الأنبياء اقتراب من الموروث الديني للشخصيات المقدَّسة عند أهل الكتاب، وفي هذا تمهيد جديد لإمكانية التحالف الطبيعي معهم في واقع الدعوة الراهن. وقد تمَّ وصف هؤلاء الأنبياء بأنَّهم يخرُّون للرحمن سجَّدًا (الوصف الذي رفضته قريش في سورة الفرقان). كما عرضت السورة واقع جيل لاحق بهؤلاء الرسل أضاع الوصايا فاستحقَّ العقاب مع استمرار إمكانية قَبول توبته، وأَمْر النبيّ ﷺ بـ«عبادة الله والصبر غاية الاستطاعة لهذه العبادة»[٢]، و«كما عالجت السورة مُنكِري البعث وبعض مواقف الذين كفروا[٣]»[٤]، وتمَّ توجيه النبيّ ﷺ أن «لا يتعجَّل هلاكهم لأنَّهم

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة مريم، ٧: ٥٤٣ ـ ٥٤٤، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة مريم، ٧: ٥٧٦ ـ ٥٧٧، بتصرُّف.

(٣) ومن نماذج أخبارهم: عن خباب بن الأرت ﵁ قال: «كنت رجلاً قَيْنًا [أي: حَدَّادًا]، فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفًا، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أُعطيك حتى تكفر بمحمد. قلت: لا أكفر بمحمد حتى يُميتك الله ثمَّ يُحييك. قال: إذا أماتني الله ثمَّ بعثني ولي مال وولد فأقضيك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]». **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة مريم، ٤: ١٧٦١، ح: ٤٤٥٦ـ ٤٤٥٧، بتصرُّف. وفي ذلك دلالة على ما لَحِق المستضعفين من ظلم وغصب لأموالهم إضافة إلى أذى أبدانهم. كما يدل على نقض قريش لحلف الفضول الذي عقدته قبل الإسلام بعقدَين فقط، والذي ينصّ على التناصر والأخذ للمظلوم والقيام معه حتى تُردَّ عليه مظلمته. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٥٧، بتصرُّف.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة مريم، ٧: ٣٧١، بتصرُّف.

ما يزالون في مدة الإمهال»[١]. كما ردَّت السورة على مَن ادَّعى لله ولدًا وأثبتت التوحيد وعبودية المسيح عليه السلام لله (فلا مداهنة أو مساومة مع أهل الكتاب ولو تمَّ التحالف معهم). وتُختم السورة «ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات (المضطهَدين) بأنَّ الرحمن سيجعل لهم وُدًّا في القلوب يستتبع خيرًا كثيرًا»[٢] بعد الخصومة مع قومهم. وهذا الأمر سيتحقَّق عند الهجرة إلى الحبشة حيث النصارى[٣].

لما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمّه أبي طالب وأنَّه لا يقدر أن يمنعهم (أي: يحميهم)، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنَّ بها مَلِكًا لا يُظلَم عنده أحد، وهي أرض صِدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا ممَّا أنتم. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام»[٤]. و«خرجوا متسلِّلين سِرًّا[٥]، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة»[٦]، فيهم عثمان بن عفان رضي الله عنه مع زوجته رقيَّة ابنة النبيّ ﷺ.

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة مريم، ٧: ٦٣٧، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة مريم، ٧: ٦٥٢ ـ ٦٥٣، بتصرُّف.

(٣) من الأقوال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦] أنَّها نزلت في «المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب، ألقى الله لهم ودًّا في قلب النجاشي» ملك الحبشة. أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، سورة مريم، ٧: ٣٠٥، بتصرُّف. مع التحفُّظ على ذكر جعفر لأنَّه إنما قاد الهجرة الثانية إلى الحبشة.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، ١: ٣٢٢. وكانت «هجرة المسلمين الأولى من مكة إلى الحبشة في شهر رجب من سنة خمس من المبعث، وإن أول مَن هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب هجرة الحبشة، ٧: ١٨٨، بتصرُّف.

(٥) قد يُلمَح في هذا الوصف توازٍ مع الآيات التي تعرض خروج موسى ببني إسرائيل من مصر في السورة القادمة، وأنَّ فرعون بجنوده لن يصلوا إليهم.

(٦) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر هجرة مَن هاجر من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، ١: ٢٠٤.

وهنا، يُمكن مقاربة رؤية التعددية العَقَدية مع أهل الكتاب، فمن الجانب الديني، تناولت آيات سورة مريم شخصيات مقدَّسة مشتركة، لعرض موضوع مشترك يهمُّ الدعوة في هذه المرحلة، في الوقت الذي أثبتت فيه جانب التوحيد وعبودية المسيح عليه السلام كما هي في الإسلام كضابط في التعامل مع مَن يتبنَّون معتَقَدًا مختلِفًا. ومن الجانب السياسي، حدَّد النبي ﷺ صفة العدل لدى الحاكم في قوله: «لا يُظلَم عنده أحد» كضابط في العَيش تحت حُكمه والالتجاء إلى بلده، وهذا ضابط مهمّ في مقاربة رؤية التعددية السياسية.

هذا، وقد دفعت أحداث التجهُّز للهجرة عمر بن الخطاب ـ الذي كان حينها لم يُسلم بَعْدُ، وكان يُضَيِّق على مَن أسلم من قبيلته (بني عدي) وحلفائها ومواليها: بلاء وأذًى وشدَّة ـ إلى ظهور بعض اللِّين في موقفه، فقد قام بزيارة إلى بيت عامر بن ربيعة وزوجه ليلى بنت أبي حثمة ـ وهما من قدماء المسلمين ومن حلفاء بني عدي ـ فوجد بنت أبي حثمة (أمّ عبد الله) تتجهَّز للهجرة إلى الحبشة، فقال لها: «إنَّه الانطلاق يا أمّ عبد الله؟ فقالت: نعم والله، لَنَخرُجَنَّ في أرض الله. آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مَخرجًا. فقال: صَحِبكم الله. قالت [أمّ عبد الله واصفة ما لَمَست منه]: رأيت له رِقَّة لم أكن أراها، ثمَّ انصرف وقد أحزَنه فيما أرى خروجنا»[1]. وهذا يدلُّ على أنَّ تطوُّر التدافع بين المسلمين والمجرمين بدأ يُحرِّك وجدان مَن لم يؤمن بَعْدُ.

أما النبيّ ﷺ، فقد اجتهد في العبادة مُصطَبرًا عليها، متحمِّلاً هو وأصحابه ضيق المرحلة بثبات، الأمر الذي أظهر انطباعًا عند كفار قريش يجعل من الدين ونزول القرآن على النبيّ ﷺ سببًا للشقاء، فنزلت آيات من سورة «طه»[2].

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة ﵃، ذكر أم عبد الله ليلى بنت أبي حثمة، ٤: ٦٥، ح: ٦٨٩٥، بتصرُّف.

(٢) فعن ابن عباس ﵄ في قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢] قال: إنَّ قومه [أي: قوم النبي ﷺ] قالوا: لقد شقِيَ هذا الرجل بربِّه، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿طه﴾ يعني: يا رجل ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾. الطبري، **جامع البيان**، سورة طه، ١٨: ٢٦٦.

=

□ «طه»: وفيها «رعاية الله للمختارين لحمل الدعوة من الرسل وأتباعهم والرِّفق بالمدعُوِّين والعناية بهم»(١). وتظهر قصة موسى عليه السلام في السورة لإظهار نموذج (من أنبياء أهل الكتاب) على تلك الرعاية، عبر مشاهد: «المناجاة في الوادي المقدَّس، والتكليف بالدعوة»(٢)، مع الأمر «بذكر الله وتذكيره به»(٣)، ودعوة فرعون بالقول اللَّيِّن للتذكُّر والخشية. وقد أورد الله ذكر أحداث من حياة موسى السابقة على رسالته ـ ومنها نجاته عند إلقائه في اليَمِّ وأخذ عدوِّه له مع إلقاء المحبة عليه ـ كدليلٍ على استمرار مِنَّته عليه بالرعاية بعدها. وعرضت السورة الجدال مع فرعون بطلبه منه التوقُّف عن تعذيب مجموعة بني إسرائيل من المجتمع [اضطهاد عرقي يتوازى مع اضطهاد قريش العَقَدي بالاستعلاء الطبقي]، فاتَّهمه فرعون بالسِّحر وانتهج الاستعلاء للتغلُّب عليه، والمباراة العلنية أمام النَّاس مع السحرة التي ظهر فيها الحقّ وأنَّه هو الأعلى، فسجد السحرة وآمنوا بالله، ثمَّ اضطهدهم فرعون فثبتوا على إيمانهم. وذكرت السورة خُروج موسى ببني إسرائيل من مصر وغَرَق فرعون بجنوده وإضلاله لهم. ثمَّ «المناجاة جانب الطور وموقف موسى ممَّا أحدثه قومه من بعده من الضلال وعبادة العجل»(٤). وحذَّرت السورة المُعرِض عن القرآن،

= وعن الضحاك قال: لما أنزل الله القرآن على رسوله، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أُنزِل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ١ ـ ٣]. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة طه، ٥: ٢٧٢.

(١) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة طه، ٤: ٤٩٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة طه، ٤: ٥٢٣، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة طه، ٨: ١١٤ـ ١١٥، بتصرُّف.

(٤) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة طه، ٤: ٥٢٣، بتصرُّف.

وعَرَضت مشاهد القيامة. وتمَّ «عرض قصة آدم عليه السلام وتحذيره من عداوة الشيطان ـ الذي أبى الالتزام بأوامر الله ـ فتسبَّب بإخراج آدم وزوجه من الجنة لضَعف إرادته في عدم الاستجابة للمؤثِّرات. وخُتِمت السورة بأَمْر النبيّ ﷺ بالصبر والتسبيح دون مدِّ عينَيه إلى زهرة الحياة الدنيا مع أمر أهله بالصلاة بالاصطبار عليها، وترقُّب أحداث ستُرضيه. وأتى الإعفاء للرسول ﷺ من السعي لكسب الرزق ليتفرَّغ لتأدية الرسالة»[1].

لم تزل الآيات تُثبِّت النبيّ ﷺ وأصحابه، ولا يزال الظهور العلني لرسول الله ﷺ نهجه، حتى حدث الموقف الذي سيستتبع ما وَعَدَت الآيات بترقُّبه من عزَّة للإسلام بإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما.

فقد اعترض «أبو جهل لرسول الله ﷺ عند الصفا، فأذاه وشتمه وقال فيه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له. فلم يُكلِّمه رسول الله ﷺ [التزامًا بالإعراض والعفو]. . . ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب [عمُّ النبيّ ﷺ] أن أقبل وكان يومئذ مُشرِكًا على دين قومه. . . [فلما علم بما كان من شتم أبي جهل وعدم ردِّ النبيّ ﷺ عليه] احتمل حمزةَ الغضبُ، فخرج سريعًا، ودخل المسجد وأقبَل نحو أبي جهل، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه على رأسه، وقامت رجال من قريش من بني مخزوم لينصروا أبا جهل فقالوا: ما نراك يا حمزة إلا صبأت. فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي ذلك منه، أنا أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنَّ الذي يقول حقّ، فوالله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين. . . فلمَّا أسلم حمزة، عَلِمت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع وأن حمزة سيمنعه [أي: سيحميه]، فكَفُّوا عن بعض ما كانوا يتناولونه وينالون منه. ثمَّ تمَّ حمزة على

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة طه، ٨: ٣٤١ـ ٣٧١، بتصرُّف.

إسلامه بعد أن ذكَّره رسول الله ﷺ ووعظه وخوَّفه وبشَّره. . . فكان حمزة ممَّن أعزَّ الله به الدين»[(١)].

ودعا رسول الله ﷺ قائلاً: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحب الرَّجلَين إلَيك، عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»[(٢)] [**أبي جهل**].

فكانت حادثة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، التي أسلم بسببها بعد أن قرأ من القرآن صدر سورة «طه». فقد «كانت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد مُستخفِيان بإسلامهما. فخرج عمر يومًا متوشِّحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه قد ذُكِروا له أنَّهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ومع رسول الله ﷺ عمّه حمزة وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم ممَّن كان أقام

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب، ٣: ٢١٣، ح: ٤٨٧٨، بتصرُّف. ومثله في: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر إسلام حمزة رضي الله عنه، ١: ٢٩٢، بتصرُّف. وابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣: ٤٥. وبالعودة إلى الروايات التي تتحدَّث عن «تفاصيل إسلام حمزة رضي الله عنه، لم تثبت من طريق صحيحة، وهي بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها حديثيًا». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٤٦ ـ ١٤٧، بتصرُّف. ولكن، «لا بأس من الأخذ بالضعيف عندما لا نجد غيره من الروايات القوية فيما سوى ما له أثر في العقائد أو التشريع». المصدر نفسه، ١: ٦٩، بتصرُّف. كما أنَّ «الضعف لا يعني نفي وقوع الأمر تاريخيًا، بل عدم ثبوته فقط، وما أكثر الأحداث التاريخية التي وقعت ثم لا يمكن إقامة الأدلة الصحيحة عليها». المصدر نفسه، ١: ١٦٢ ـ ١٦٣، بتصرُّف.

(٢) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي رضي الله عنه، ٣: ٥٧٤، ح: ٦١٢٩، وسكت عنه الذهبي. ومثله في: **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، كتاب المناقب، باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٥: ٦١٧، ح: ٣٦٨١.

مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج إلى أرض الحبشة، فلقِيَه نُعيم بن عبد الله (وهو مستخفٍ بإسلامه) فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أُريد محمدًا الذي فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها وعاب دينها وسبَّ آلهتها فأقتُله. فقال له نُعيم [ليُغَيِّر وِجهته]: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتُقيم أمرهم؟ سعيد وأختك فاطمة قد أسلما وتابعا محمدًا على دينه. فرجع عمر عامدًا الى أخته وخَتَنه وعندهما خَبَّاب بن الأرتّ معه صحيفة فيها ﴿طه﴾ يُقرئهما إياها. فلما سمعوا حسَّ عمر تغيَّب خَبَّاب في بعض البيت وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها. وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبَّاب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهَينَمة التي سمعت؟ لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه. وبطش بختنه سعيد، وضرب أخته فشجَّها. فلما فعل ذلك قالت له: نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعَوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتُكُم تقرؤون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد؟ وكان عمر كاتبًا. فطمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنَّه لا يمسُّها إلا الطاهر(١). فقام عمر فاغتسل. فأعطته الصحيفة وفيها ﴿طه﴾ فقرأها. فلما قرأ منها صدرًا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه»(٢). فأسلم عمر بين يدَي رسول الله ﷺ في دار الأرقم.

---

(١) يُلمح التوازي مع آية ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] في السورة القادمة.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ١: **٣٤٣ ـ ٣٤٥**، بتصرُّف. هذا، و«إنَّ تفاصيل إسلامه لم يثبت شيء منها بطريق صحيحة». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٨٠، بتصرُّف. ولكن، وكما سبق، «لا بأس من الأخذ بالضعيف عندما لا نجد غيره من الروايات القوية فيما سوى ما له أثر في العقائد أو التشريع». المصدر نفسه، ١: ٦٩، بتصرُّف. كما أنَّ «الضعف لا يعني نفي وقوع الأمر تاريخيًا، بل عدم ثبوته فقط، وما أكثر الأحداث التاريخية التي وقعت ثم لا يمكن إقامة الأدلة الصحيحة عليها». المصدر نفسه، ١: ١٦٢ ـ ١٦٣، بتصرُّف.

لقد بدأ التميز الإيجابي في الصَّفّ الداخلي. «فما هو إلا أن أسلم عمر، فظهر الإسلام بمكة»[(١)]. فقد «قاتل قريشًا حتى صلّى عند الكعبة وصلّى معه المسلمون»[(٢)]. وبذلك ظهرت معايير المرحلة الثانية من السيرة، والتي تختلف عن معايير المرحلة الأولى.

□ «**الواقعة**»: وفيها «بيان درجات أصحاب الجنة بالتمييز بين السابقين الأوَّلين الذين قضَوا السنين الماضية على بدء الدعوة في اضطهادٍ وتعذيبٍ وهجرةٍ إلى الحبشة، وبين الذين أسلموا حين بدأ الإسلام ينتشر ويتقوّى خصوصًا بعد إسلام شخصيات مثل حمزة وعمر رضي الله عنهما، اللذَين كان إسلامهما نقطة تحوُّل في مسار الدعوة»[(٣)]. وتعرض السورة «مشاهد القيامة، وتقسيم النَّاس أصنافًا: المؤمنين أصحاب اليمين، والكافرين أصحاب الشمال، والسابقين المقرَّبين من المحسنين والأبرار أصحاب الدرجات السامية في الجنة. وتُعالج السورة المكذِّبين بالبعث ـ وأنَّ مصيرهم النَّار (أوَّلهم وآخرهم) ـ بأدلة من الظاهرات الكونية. وخُتِمَت السورة ببيان مجد القرآن وإعجازه وأنَّه حقّ اليقين»[(٤)] «يُدرَك بالحواسّ، بعد أن تمَّ بيان علم اليقين (المعتَمِد على أدلة فكرية أو خَبَرية صادقة) وعين اليقين (القائم على المعاينة والمشاهدة البصرية) في سورة التكاثر»[(٥)].

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر إسلام عمر رحمه الله، ٣: ٢٦٩، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ١: ٣٤٢، بتصرُّف.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الواقعة، ١: ٣١١، بتصرُّف.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الواقعة، ٨: ٤٢٩ـ ٤٣١، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، سورة الواقعة، ٨: ٥٢٠ ـ ٥٢١، بتصرُّف.

يُلاحظ أنَّ هذا التمييز بين المؤمنين أنفسهم هو تدرُّج طبيعي، بعد تمييز الحقّ من الباطل بين المؤمنين والكافرين، وتمييز المؤمنين بين ضعفاء وأقوياء في الإيمان، وتمييز الخبيث من الطيب بين المحايدين. كما يُؤَكِّد تفسير حركة التاريخ التي سبق بيانها.



المبحث الثاني: التثبيت على الاستقامة في دعوة الجماعة (قريش)

إنَّ مرحلة عزّة الإسلام اقتضت إعادة إنذار قريش ـ الذين أصَرُّوا على تكذيب الرسول ﷺ ـ بنوعية خطاب مناسِبة للوضع الجديد، فنزلت سبع سور[١] تستعرض «آيات ودلائل وحجج من الكتاب الحكيم من تاريخ الأنبياء مع أقوامهم لتثبيت النبيّ ﷺ وأصحابه المؤمنين، وعرض أدلة تاريخية على تحقُّق الوعد بالتمكين»[٢]:

□ «**الشعراء**»: وفيها «عرض تجارب الأنبياء مع أقوامهم المكذِّبين[٣] ليتأسَّى النبيّ ﷺ بها فلا يشتدّ حرصه ويحمل همًّا وغمًّا وحزنًا مُقلِقًا بسبب إصرار خصوم الدعوة على محاربتها وإعراضهم عن الاستجابة»[٤]، و«لا يرغب في أن يُرِيَهم الله آية من الخوارق تجعل

---

(١) هذه السور السبع (أي: الشعراء والنمل والقَصص ويونس وهود ويوسف والحِجر) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الأربعة (البيهقي، وأبي عمرو الداني، وابن الضريس، والزهري) ضمن السور المكية. وأما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد اتَّفقت جميع الروايات على مكيَّتها أيضًا، ما عدا رواية الحارث المحاسبي (صحيحة مع الإرسال) حيث مدنية سورة الحِجر، ولكنَّها «مكية باتفاق». الماوردي علي بن محمد، **النكت والعيون**، سورة الحجر، ٣: ١٤٧. هذا، وقد وضعت جميع روايات ترتيب النزول سورة الإسراء بين سورتَي القَصص ويونس، ولكنِّي رجَّحت تأخيرها إلى نهاية المرحلة المكية لعوامل كثيرة أذكُرُها في مكانها.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة القَصص، ١: ٣٣٩، بتصرُّف.

(٣) فكأنَّها امتداد لسورة القمر، التي كانت الأولى في مجموعة السور السبع السابقة، كما سورة الشعراء هي الأولى في مجموعة السور السبع الحالية. ولكنَّ سورة القمر عرضت مصير المكذِّبين من الأقوام لأنبيائهم دون الدخول في تفاصيل الأساليب الحوارية والجوانب الدعوية التي تُركِّز عليها هذه السورة لتكون عبرة للنبي ﷺ في مرحلته الراهنة من سيرته.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الشعراء، ١: ٣٢١، بتصرُّف.

قلوبهم تخضع لأنَّهم وصلوا إلى حالة ميؤوس منها»[(١)]. وقد تمَّ استعراض قَصص سبعة من الأنبياء (كان ما جرى معهم آية كافية الدلالة على الإيمان، لكنَّ أكثرهم لم يؤمنوا) نستعرضهم كالتالي:

• موسى عليه السلام جاء بالآيات المادية دون أن يستجيب له الظالمون «فتعامَل معهم بالهجوم بعد الدفاع ثمَّ بالحوار الدعوي دون الرَّدّ على صغائر جدالاتهم»[(٢)] (وهذا من تطبيقات توجيه الإعراض الذي بدأ مع نزول سورة النجم) وظهر ثباته وثقته بالله وهدايته.

• وإبراهيم عليه السلام (جدّ العرب وأهل الكتاب) تبرَّأ من الأصنام واتَّخذها عدوًّا بعد أن أبطل حجج قومه (في تبرير تقليد الآباء) وأثبت براهين التوحيد ـ بحوار عقلاني ـ والانتفاع يوم القيامة لورثة الجنة بالقلب السليم (من الأمراض الصارفة عن الإيمان والطاعة) دون المال والبنين.

• ونوح عليه السلام تعلَّل قومه لتبرير عدم إيمانهم به بأنَّه اتَّبعه الأرذلون، فأكَّد تمسُّكه بالمؤمنين وعدم طرده لهم لكسب رضى قومه، فانقطع الحوار بتهديده بالقتل، فكان مناسبة الدعاء بالفتح [النصر والحُكم والقضاء بين الحقّ والباطل] والنجاة للمؤمنين.

• وهود عليه السلام لام قومه على العبث والإسراف في التعامل مع نِعَم الله في عمارة مدنيَّتهم، ولكنَّهم برَّروا ذلك بتقليد الآباء، فهلكوا.

• وصالحٌ عليه السلام حذَّر قومه من عقاب الله بسَلب نعمة الأمن بسبب كفرهم وإسرافهم وتقليد المفسدين، فاتَّهموه بالسِّحر وطالبوا بآية، وكان هلاكهم عند التكذيب بها.

• ولوط عليه السلام الذي عاب على قومه تغيير الفطرة السليمة والتعدِّي في الفاحشة، فهدَّدوه بالإخراج من أرضهم، فأعلن بغضه وهجرانه لهذا العيب، وكانت مناسبة الدعاء بنجاة المؤمنين من العقاب الذي استحقَّ عليهم.

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الشعراء، ٨: ٥٥٧ ـ ٥٥٩، بتصرُّف.

(٢) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة الشعراء، ص٢٧٦، بتصرُّف.

• وشعيب عليه السلام نهى أصحاب الأيكة عن التلاعب بالكيل والإفساد وأمرهم بالاعتدال، فاتّهموه بالسحر واستعجلوا العذاب، فوَكَل الأمر إلى الله بعد أن يَئِس منهم، فأخذهم العذاب.

• وخُتمت السورة بالحديث عن القرآن والوحي ودلائله في كتب الأولين وكشف كون كبراء قريش قد سألوا في ذلك علماء بني إسرائيل. وأظهرت الآيات أنَّ كبراء قريش لن يؤمنوا بالقرآن لكِبْرهم وإجرامهم، وأنَّ العذاب سيَأتِيهم بغتة. ثمَّ نفى الشبهات عن الوحي من أنَّه تنزُّل شياطين. وأمر الله النبيَّ ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين والتواضع برحمة لمَن اتَّبعه من المؤمنين، والبراءة من عمل مَن لم يستجِب له. وبالمقابل اتَّهم القرآنُ الكاذبون الآثمون والشعراء الذين يهجون النبيّ ﷺ ويُهاجمون الدعوة[1] ـ ويتَّبعهم الضالّون المفسدون ـ أنَّهم هم الذين تتنزَّل عليهم الشياطين.

وقد ظهر بوضوح في السورة أنَّه عند نهاية دعوة الأنبياء للمجتمع، تحوَّلت روابط الأنبياء التي كانت تربطهم بالمجتمع المدعوّ، وهي: أُطُرُ التربية والعائلة (لدى موسى وإبراهيم) والنَّسب (لدى نوح وهود وصالح ولوط) والجيرة (لدى شعيب)، إلى رابطة الإيمان مع المجموعة المؤمنة، وهي التي كُتِبَت لها النجاة من الهلاك والعذاب. أما بقية الروابط القومية، أو الطبقية. . . ، فلم تُنجِهِم.

وقد «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقال: يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد مناف، لا أُغني عنكم من الله شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا. ويا صفية عمّة رسول الله، لا أُغني عنك من الله شيئًا. ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت

(١) «كان في مكة شعراء يهجون النبي ﷺ، منهم: النضر بن الحارث والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب وغيرهما، وكان هناك شعراء مسلمون يرُدُّون عليهم وهو المستثنَون في الآية». د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الشعراء، ١: ٣٢٢، بتصرُّف. ولا يخفى أنَّ الشعر عند العرب كان الوسيلة الإعلامية لتناقُل الأخبار والدعاية، لذلك نلمح في سورة الشعراء تدريبات في الحوار وأساليب التواصل من قَصص الأنبياء.

من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئًا»[١]. و«جعل النبيّ ﷺ يدعوهم قبائل قبائل»[٢]. فـ «دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة أنقذي نفسك من النار. فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أنَّ لكم رحمًا سأبُلُّها ببلالها»[٣] أي: سأَصِلها. وكان خطابه ﷺ تطبيقاً لعدم نفع الروابط القبلية والعائلية شيئًا في هذا المقام.

وبذلك، «انتقلت الدعوة من دعوة الأفراد ـ سرًّا وجهرًا ـ إلى دعوة الجماعة»[٤].

□ «**النمل**»: وفيها ما «يكاد أن يكون منهجًا واحدًا في سلوك مَسلك العِظة والاعتبار ممَّن سبق من الأمم»[٥]. فتنطلق السورة «كسابقتها من الإشارة إلى آيات القرآن كعلامات وحجج ومعجزات خصَّ الله بها أنبياءه وقصَّ أخبارها في هذه السورة»[٦]. ولكنَّها تميَّزت بالحديث عن سلطان مُلك سليمان عليه السلام (التفوُّق الحضاري) كعامل مساعد في نشر الدعوة مقابل جحود فرعون بالآيات المبصِرة التي جاء بها موسى عليه السلام دون سلطان قوة أو حضارة[٧]. كما ظهر من قصة صالح عليه السلام أنَّ نتيجة الدعوة أفرزت في المجتمع

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، ٣: ١٠١٢، ح: ٢٦٠٢.

(٢) المصدر نفسه، كتاب المناقب، باب مَن انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، ٣: ١٢٩٨، ح: ٣٣٣٥.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ١: ١٩٢، ح: ٢٠٤.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الشعراء، ١: ٣٢٠، بتصرُّف.

(٥) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة النمل، ٥: ٤١٨، بتصرُّف.

(٦) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة النمل، ١: ٣٣٠، بتصرُّف.

(٧) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة النمل، ص٢٨٥، بتصرُّف.

الواحد فريقَين مختصمَين، أصرَّ الفريق المفسِد منهما على استعجال العذاب ومكروا برسولهم لقتله وإخفاء ذلك عن أولياء الدم (قومه الذين يتكفَّلون بحمايته في تواز مع بني هاشم والمطَّلب) فأهلكهم الله. كما استنكر لوط عليه السلام ارتكاب قومه الفاحشة مع أنَّهم يُبصِرون (بأدوات المعرفة) أنَّها فاحشة[١]، واتَّهمهم بالجهالة للطبع (السليم) والشرع[٢]، ثمَّ «غضبوا عليه لأنَّه أنكر ذلك عليهم»[٣] فأهلكهم الله. وتبع ذلك سَوق براهين على إلهية الله ووحدانيَّته من الظواهر الكونية، والاستدلال على الواقع المشاهَد من بقايا أحداث الإهلاك على صدق وقوعه. وتمَّ توجيه النبيّ ﷺ لعدم الحزن والضيق ممَّا يمكر قومه الذين ما يزالون يستعجلون العذاب. وعَرْض هداية القرآن وأنَّ النبيّ ﷺ يُسمِع به مَن يؤمن بآيات الله فهو مَن يستجيب فيُسلِم (وليس مَن وصل إلى الموت أو الصَّمم أو العمى من إعراضه). وخُتمت السورة بمشاهِد القيامة حين يأمن مَن جاء بالحسنة ويُعذَّب مَن جاء بالسيئة.

في هذه الأجواء من الاعتزاز بظهور الإسلام وكفِّ قريش عن بعض ما كانت تنال منه من الدعوة، «بلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبَلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنَوا من مكة بلغهم أنَّ ما كانوا تحدَّثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوارٍ أو مُستخفِيًا»[٤]. «ثمَّ اشتدَّ البلاء من قريش على مَن قَدِمَ من مهاجري الحبشة وغيرهم، وسَطَت بهم عشائرهم، ولَقُوا منهم أذًى شديدًا»[٥].

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة النمل، ١٩ : ٤٨١، بتصرُّف.

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النمل، ٦ : ٢٠٠، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة النمل، ٩ : ١١٩، بتصرُّف.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، العائدون من أرض الحبشة، ١ : ٣٦٤.

(٥) ابن قيّم الجوزية محمد بن أبي بكر، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، فصل في هجرة المسلمين إلى الحبشة حين اشتد الأذى عليهم، ٣ : ٢٥. وهو المقصود من رواية عروة أنَّه بعد أن أسلم رجال «من أشراف مكة ومنعتهم [كحمزة وعمر رضي الله عنهما]، استرخوا [رؤوس قريش] استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه.. فبلغ ذلك مَن كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ.. فرجعوا إلى مكة». الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٣ : ٥٤٠، بتصرُّف.

بالمقابل، استمرَّت الدعوة، «فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو ناحية سرًّا، وكان سعيد بن زيد رضي الله عنهما مثل ذلك، وكان عثمان رضي الله عنه مثل ذلك، وكان عمر رضي الله عنه يدعو علانية، وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأبو عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه، فغضبت قريش من ذلك، وظهر منهم لرسول الله ﷺ الحسد والبغي»(١).

وقد «قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً ـ أو قريب من ذلك ـ من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة. فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عمّا أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدَّمع، ثمَّ استجابوا لله وآمنوا به وصدَّقوه وعرفوا منه ما كان يوصَف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش. فقالوا لهم: خيَّبكم الله من ركب، بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئنّ مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقتموه بما قال، ما نعلم ركبًا أحمق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نُجاهِلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرًا. . . وفيهم نزلت هؤلاء الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾(٢) [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

▫ «**القَصص**»: وفيها استكمال «عرض آيات وحجج ودلائل من تاريخ الأنبياء مع أقوامهم. وفي هذه السورة بيان من قصة موسى عليه السلام كدليل تاريخي (عملي) [يظهر فيها بشكل واقعي] كيف أنَّ الله مَنَّ على المستضعفين [في توازٍ مع المستضعفين من المسلمين المضَّطهَدين] وجعلهم أئمة ووارثين ومكَّن لهم في الأرض»(٣). وأعقب ذلك

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب ذكر دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام، ١: ٢٠٠.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، قدوم وفد النصارى من الحبشة، ١: ٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة القَصص، ١: ٣٣٩، بتصرُّف.

إثبات إعجاز القرآن التاريخي في إخباره بتلك الأحداث من التاريخ، وتحدِّي قريش أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى من التوراة والقرآن لاتِّباعه، ويُعتبر عدم تحقيقهم لذلك دليل اتِّباعهم أهواءهم الموروِثة للضلال، علمًا أنَّ «الذين آتاهم الله الكتاب قبل نزول القرآن علموا ما فيه من الحقّ لطاعتهم السابقة لله»[1]. وهذا ضابط في رؤية التعدّدية العَقَدية المقبولة، فهي ترفض الوثنية؛ لأنَّها قائمة على اتِّباع أهواء موروثة، وليس على كتابٍ مُنزَل من عند الله تعالى. ثمَّ تمَّت معالجة دعاوى الكفار لعدم إيمانهم وعرض مشاهد القيامة. وخُتِمت السورة بعرض قصة قارون الذي بغى على قوم موسى عليه السلام بسبب استغنائه المادي وإفساده، وما تخلَّله من انقسام آراء المجتمع حوله «بين جماهير عامة منبَهِرة بثروته التي ظهر بها، وبين علماء فضلاء يُوَجِّهون أنظارهم إلى تصحيح المفاهيم بخيرية ثواب الله (للصابرين) عن هذه المظاهر»[2]، ثمَّ كان عاقبته أن خسف الله به الأرض.

«بعد مجموعة السور الثلاث السابقة (وتسمّى الطواسين لافتتاحها بـ ﴿طسٓ﴾/﴿طسٓمٓ﴾)، تأتي مجموعة الراءات (لافتتاحها بـ ﴿الٓرٰ﴾). وهي تنطلق كسابقتها بالإشارة إلى آيات الكتاب، والتذكير بكفاح الأنبياء السابقين ونجاتهم من مكائد خصومهم، لتنتقل إلى مواجهة قريش بإبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام وإثبات البعث والحساب»[3]، مع التذكير بأهمية توكُّل النبي ﷺ والمؤمنين، مقابل استمرار مطالبة الكافرين بالآيات المادية والرَّدّ عليهم بعرض ظواهر كونية وقَصص أنبياء لم يؤمن أقوامهم بالآيات المادية وتحدِّيهم بالإتيان بمثل الكتاب وسور القرآن من عند الله.

□ «**يونس**»: وفيها عرض جدالات قريش (الذين لا يرجون لقاء الله في الآخرة ورضوا بالحياة الدنيا) في «طلبهم من النبيّ ﷺ [ـ الذي لبث فيهم عُمُرًا قبل نبوَّته فيعرفون صدقه

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة القَصص، ٩: ٤٢٤، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة القَصص، ٩: ٤٧٦ ـ ٤٧٧، بتصرُّف.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة يونس، ١: ٣٥٠، بتصرُّف.

وأمانته ـ] أن يُبدِّل القرآن فيعترف بالأصنام [كتمهيد يُساوم على إمكانية الاستجابة له حينها] أو يأتي بالآيات المعجزات»[١] «الماديات، بتعليق إيمانهم عليها كإشاعة إعلامية»[٢]. فكان الرَّدّ عليهم: بإثبات كون القرآن من الله لا يُمكن للرسول ﷺ تبديله، وتذكيرهم بآيات الله في تصاريف الكون التي تنزل بهم (بأساء وضرَّاء)، وإعلامهم بحقيقة الحياة الدنيا الفانية، وعرض مشاهد القيامة، وأدلة الربوبية من الظواهر الكونية، وإجابتهم عن طلب التبديل بأنَّه لا يُمكن أن يُفترى القرآن بدلالة تصديق الكتب الربانية السابقة له، مع تحدِّيهم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن من عند أصنامهم ثمَّ إثبات كذبهم في جدالاتهم، وأمر الله النبيّ ﷺ بإعلان «المسؤولية الفردية كجواب لهم بأن يتحمَّل كل طرف (مؤمن وكافر) مسؤوليَّته في دعواه (بالافتراء أو التكذيب)»[٣]. وتمَّ عرض قصة نوح عليه السلام الذي «طلب من قومه ـ بعد أن ثقُل على نفوسهم وجوده بينهم ـ أن يُجمِعوا أمرهم بلا تردُّد ويُنفِّذوا تدبير مكائدهم دون إمهال، فكذَّبوا بالآيات فنجَّاه الله»[٤]. وقصة موسى عليه السلام في إيمان ذرية من قومه على خوف من اضطهاد فرعون لهم، وأَمْرِ الله له ولأخيه هارون عليهما السلام بالاستقامة (الاعتدال والاستواء) دون اتِّباع سبيل الجهلة، فكان عاقبة فرعون أن تحوَّل هلاكه إلى آية دالَّة على انتقام الله. مع إظهار إمكانية الاستشهاد بأهل الكتاب عن قَصص أنبيائهم لإثبات إعجاز القرآن. وقصة قوم يونس عليه السلام الذين كشف الله عنهم عذاب الإهلاك لمَّا آمنوا فنفعهم إيمانهم، فيُستنبط منها أنَّ «الهلاك لقريش غير حتميّ وأنَّ هناك إمكانية تجنُّب الهلاك وانتصار الدعوة»[٥]، كما أنَّ الهلاك ارتبط بعدم الإيمان وليس بأحداث كونية طبيعية. وخُتِمَت السورة بأمر النبيّ ﷺ باتِّباع الوحي والصبر حتى يحكم الله خير الحاكمين.

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة يونس، ١: ٣٥٠، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة يونس، ١٠: ٧٣، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة يونس، ١٠: ١٣٠ ـ ١٣١، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة يونس، ١٠: ١٩٥ ـ ٢٠٠، بتصرُّف.

(٥) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة يونس، ١: ٣٥٢، بتصرُّف.

❐ «**هود**»: وفيها استكمال العرض من تاريخ الأنبياء لتثبيت النبيّ ﷺ والمؤمنين. وتحدِّي قريش في الإتيان بعشر سُوَرٍ من القرآن من عند أصنامهم. وجزاء الذين يُريدون الحياة الدنيا وزينتها بإعطائهم نتائج أعمالهم وافية فيها دون نقصان، وليس لهم في الآخرة إلا النار. وإثبات الاكتفاء للإيمان بالله بدلائل الفطرة ووحي القرآن إلى النبيّ ﷺ تسبقه شهادة كتاب موسى عليه السلام. وفي قَصص الأنبياء: تَبيَّن اتِّهام الذي كفروا للمؤمنين بنوح عليه السلام كونهم أراذل بسطاء في التفكير (كتمهيد يُساوِم على إمكانية الاستجابة له عند طرده لتلك الشرائح الضعيفة)، في عرض للنفسية الطبقية التي ينطلقون منها. فتجهُّز نوح لأسباب النجاة بعد معيار اليأس من إيمان مؤمنين جُدد، وتقديم عصبية الإيمان على النَّسب (غرق ابن نوح). واستعجال هود عليه السلام لكيد قومه الجماعي، مع توكُّله على الله، ثمَّ نجاته برحمة، وهلاكهم لجحودهم بالآيات ومعصية الرسل واتِّباع كبرائهم (كلّ جبَّار عنيد). وظُلم قوم صالح عليه السلام وتعدِّيهم على الآيات وتمسُّكهم بتقليد الآباء. وبشارة إبراهيم عليه السلام وعدم وصول قوم لوط عليه السلام إلى لوط بأذى. وإرادة الإصلاح حسب الاستطاعة ودور عصبية النسب في حماية دعوة شعيب عليه السلام. واستحقاق قوم فرعون النار لاتِّباعهم إياه. وعرض مشاهد القيامة، واستمرار نشر الكافرين الشك بالدعوة. وخُتِمَت السورة بأمر النبيّ ﷺ بالاستقامة (الاعتدال والاستواء) بلا طغيان (كغلوّ أو استهانة بالدين) أو ميل لإغراءات الذين كفروا، مع النهي عن الفساد (باعتباره سببًا للنجاة) والعبادة والصبر والتوكُّل على الله، والطلب من غير المؤمنين الانتظار.

❐ «**يوسف**»: وفيها عرض قصة نبي الله يوسف عليه السلام مع إخوته لتثبيت الدعوة «بالثقة بتدبير الله والصبر دون يأس»[1]. ففيها دليل عملي من التاريخ ـ يُظهر بشكل واقعي ـ

---

(١) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة يوسف، ص١٧٢ ـ ١٧٦، بتصرُّف.

كيف أنَّ الله سيُنجي النبيّ ﷺ (والمؤمنين) من كيد قريش، وتكون عاقبته لصالحهم. وفي السورة كما ورد في نصِّها ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، من حيث إخبار النبيّ ﷺ بها[١]، وما تدلُّ عليه من قدرة الله عز وجل[٢] وحكمته في قضاءه[٣] وكمال صفاته. كما تخلَّلت السورة التبرُّؤ من الشرك والأصنام والدعوة إلى التوحيد كاتِّباعٍ لملّة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، في تأكيد على رؤية التعددية العَقَدية تستبعد الشرك وتدعو إلى التوحيد الذي نادى به إبراهيم عليه السلام. ويُمكن أن يتبيَّن منها تمهيد لأحداث قادمة في السيرة: كالكيد والهجرة والسجن والعزّة والعفو عمَّن تورَّط في الكيد.

□ «**الحِجر**»: وفيها عرض نتيجة الدعوة في السور السبع السابقة بـ «عدم قدرة كثير من الكافرين أن يعترفوا بالإسلام (المنطقي والعزيز) بسبب سبق اتِّخاذهم موقف العداء وإعلانهم التكذيب والإعراض ممَّا جعلهم مسجونين فيما أعلنوا من مواقف لا يُمكنهم التحرُّر منها، فلا داعي للانشغال بدعوتهم. [وقد عرضت السورة اتِّهاماتهم ومطالباتهم بالآيات المادية واستهزائهم، وبيان أنَّ المجرمين قد جُعِل الاستهزاء بالرسل مَسلكًا لهم في قلوبهم دون الإيمان كما خَلَت **سُنَّة الأوَّلين**، وأنَّ مجيء الآيات المادية لن تزيدهم إلا اتِّهامًا بأنَّها سحر. ثمَّ وجَّهتهم الآيات للالتفاف للظواهر الكونية كآيات على ربوبية الله وإلهيَّته وكمال صفاته][٤]، ثمَّ ذكرت قصة السجود لآدم عليه السلام وإعراض إبليس عنه بمبرِّر كونه أشرفَ أصلاً (شرَف النار على الطين) فكان بذلك إعراض قريش ـ الطبقي والعرقي ـ امتدادًا

---

(١) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة يوسف، ١٨: ٤٢٢، بتصرُّف.

(٢) أبو حيان، **البحر المحيط**، سورة يوسف، ٦: ٢٤٠، بتصرُّف.

(٣) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة يوسف، ١٨: ٤٢٢، بتصرُّف.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الحِجر، ١١: ٢٩ـ ٣٥، بتصرُّف. ود. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الحِجر، ٢: ٣٤، بتصرُّف.

له (كما كان امتدادًا لإعراض قوم لوط عليه السلام وأصحاب الحِجر). ووجَّهت السورة النبيّ ﷺ للصَّدع بالدعوة والإعراض عن المشركين بعدم الاهتمام بإعراضهم عبر الصفح الجميل عنهم والتواضع للمؤمنين»[١].

رغم كلِّ تلك الآيات والعِبَر في السور السبع السابقة، «تمادى المشركون في الشَّرِّ وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء فأنزل الله تعالى عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٦]»[٢].

فكانت أمرًا بالانتقال بالدعوة إلى مرحلة جديدة بالانفتاح على العرب (خارج مكة) كي ينفتح العرب على الدعوة بعد مرحلة دعوة الجماعة من قريش. ومع أنَّ النبيّ ﷺ كان قد التفت مبكِّرًا إلى الدعوة في المواسم والأسواق كما مرَّ في هوامش سورتَي «الأعراف» و«الجن»، إلا أنَّها كانت دعوة عامة لم ترتبط بالإعراض عن مشركي مكة، كما لم يكن الخطاب القرآني يستهدف قبائل العرب خارج مكة بقَصص من موروثهم وانتقادًا لمعتقدات وممارسات اختصَّت بهم، كما سيكون في السور التي ستنزل في المرحلة التالية للصدع مباشرة.

لقد نزلت السور السبع قبل هذا الانتقال، ولاحظنا فيها دعوة العشيرة من قريش في سورة الشعراء، بعد أن كانت قريش قد لجأت إلى استعمال القبيلة لمحاربة الدعوة (كل قبيلة تُراقب أبناءها وتُحاصرهم وتضطهدهم كما مرّ في التعقيب على سورة البروج). ولكن من جانب آخر، عرضت السور السبع مواقف وعلاقات ومآلات للمُقرَّبين من الأنبياء (وليس فقط أقوامهم)، ففي سورة الشعراء عرضت ضلال أبي إبراهيم عليه السلام، ثمَّ عرضت

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الحِجر، ٢: ٣٩ - ٤١، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، المستهزؤون بالرسول ﷺ وكفاية الله أمرهم، ١: ٤٠٩ - ٤١٠، بتصرُّف.

سورة النمل مكر القوم بالالتفاف على أولياء صالح عليه السلام لقتله وهلاك امرأة لوط عليه السلام، وعرضت سورة القَصص ائتمار الملأ من قوم فرعون (المُربِّي له) لقتله، وعرضت سورة يونس عدم نفع تاريخ مُكث النبيّ ﷺ مع قومه ومعرفتهم بأخلاقه في عدم اتِّهامه وجداله، وعرضت سورة هود هلاك ابن نوح عليه السلام وامرأة لوط عليه السلام، وعرضت سورة يوسف كيد إخوته له عليه السلام. كما كان النبيّ ﷺ في عشيرته التي كانت أول مَن دعاها عند نزول آية الشعراء (بني عبد مناف) قد آذَوه من هاشمها وعبد شمسها (أمويِّها)، فقد قال ﷺ: «كنت بين شرِّ جارَين، بين أبي لهب [الهاشمي] وعقبة بن أبي مُعَيط [الأموي]، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي، حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابي، فيخرج به رسول الله ﷺ فيقول: يا بني عبد مناف، أيّ جوارٍ هذا؟ ثم يُلقيه بالطريق»[1].

لذلك، وبعد عرض هذه التجارب (العائلية / القَبَلية / العشائرية) وحصاد واقع مشركي مكة الذين تمادَوا في الاستهزاء كما سبق، جاء الأمر في آية الصدع من سورة الحِجر بـ «عدم التوقف عند حدود الأقربين من العشيرة، بل بالصدع بالدعوة، أي: بين القبائل العربية التي تقطن خارج مكة، وهي التي تحجّ إليها في المواسم الدينية وتقصدها في مواعيد الأسواق [وبذلك يتمّ صدع (كسر) جمود مواقف الحلقات القَبَلية المُغلَقة المواجِهة للدعوة بالتضييق على مسلميها]. من هنا ارتبط الأمر (في الآية نفسها) بين الصدع خارج مكة، وبين الإعراض عن مشركي مكة، وتبعتها آية تُطمئِن النبيَّ ﷺ أنَّه لن يلقى الحصار الإعلامي وتشويه المستهزئين (نفسه) الذي كان يضربه عليه الملأ من قريش للحَيلولة دونه ودون نشر

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب ذكر دعاء رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام، ١: ٢٠١.

الدعوة في الأسواق، ذلك أنَّ شخصيات من هذا الملأ ممَّن كانت أكثر استهزاء قد هلكت في أيام مُتقارِبة[(١)]»[(٢)].

أوصلتنا مقاربة التعدّدية المجتمعية في نهاية المرحلة الثانية من السيرة إلى رفع لسقف

---

(١) «عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قال: المستهزئون الوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب وأبو زمعة من بني أسد بن عبد العزى والحارث بن عيطل السهمي والعاص بن وائل. فأتاه جبريل عليه السلام حين شكاهم رسول الله ﷺ، فأراه الوليد، فأومأ جبريل إلى أبجَله [أي: أكحَله]، فقال: ما صنعت؟ قال: كُفيتَه. ثمَّ أراه الأسود بن المطلب، فأومأ جبريل إلى عينيه، فقال: ما صنعت؟ قال: كُفيتَه. ثمَّ أراه الأسود بن عبد يغوث الزهري، فأومأ إلى رأسه، فقال: ما صنعت؟ قال: كُفيتَه. ومرَّ به العاص بن وائل، فأومأ إلى أخمصه، فقال: ما صنعت؟ قال: كُفيتَه. فأما الوليد بن المغيرة فمرَّ برجل وهو يَريش نبلاً له فأصاب أبجَله فقطعها. وأما الأسود بن المطلب فعَمِي. وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها. وأما الحارث بن عَيطَل فأخذه الماء الأصفر في بطنه فمات منه. وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف على حمار فربض به على شِبرِقة فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته». البيهقي أحمد بن الحسين، **السنن الكبرى**، كتاب السِّيَر، باب مبتدأ الفرض على النبي ﷺ ثمَّ على الناس وما لقي النبي ﷺ من أذى قومه في تبليغ الرسالة، ٩: ١٤، ح: ١٧٧٣١، بتصرُّف. «وهذه الرواية لم تثبت من طريق صحيحة رغم تصحيح الذهبي لها، ولولا وجود مجهول بين رواتها لكانت لا بأس بها». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٥٢، بتصرُّف. ولكن، «لا بأس من الأخذ بالضعيف عندما لا نجد غيره من الروايات القوية فيما سوى ما له أثر في العقائد أو التشريع». المصدر نفسه، ١: ٦٩، بتصرُّف. كما أنَّ «الضعف لا يعني نفي وقوع الأمر تاريخيًا، بل عدم ثبوته فقط، وما أكثر الأحداث التاريخية التي وقعت ثم لا يمكن إقامة الأدلة الصحيحة عليها». المصدر نفسه، ١: ١٦٢ ـ ١٦٣، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٢: ١١ ـ ١٦، بتصرُّف.

الخطاب بعد القوة النسبية التي تحقَّقت للدعوة بإسلام حمزة وعمر ﵄، فعرضت الآيات قَصص أهل الكتاب وطائفة من الظواهر الكونية، واعتبرت أنَّ فيها الآيات التي تطلبها قريش، كما استمرَّ انتقاد إدارة قريش للتعدّدية المجتمعية سواء في دينها الذي ابتعد عن ملّة إبراهيم عليه السلام، أم في استعلائها الطبقي، مع أنَ النجاة هو بمعيار الإيمان وليس غيره من الروابط.



خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة :	الثانية	الثانية
	السور :	مريم، طه، الواقعة	٧ سور (من الشعراء إلى الحِجر)
	الزمن :	٥ ـ ٥،٥ بعثة	٥،٥ ـ ٦ بعثة
	الأحداث :	التوجيه للهجرة إلى الحبشة	إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما
	الهدف :	تثبيت المؤمنين وحماية المستضعفين	دعوة القبائل في مكة بقوة الآيات والتحدي
الفعل	الموضوع	رحمة الله الوهاب عند انقطاع الأسباب، عبودية المسيح عليه السلام، اعتزال المضطَهِدين وطلب الكف عن التعذيب، بشارة المضطَهَدين، الدعوة باللين، ظهور الحق على الباطل، عدم الاغترار بالدنيا والاستجابة للمؤثِّرات فيها، تفرُّغ النبي ﷺ للرسالة	عرض آيات (دلائل الحقّ) لتثبيت النبيّ ﷺ والمؤمنين، والرَّدّ على المضلِّلين، والاستدلال من التاريخ على تحقُّق الوعد بالتمكين للمستضعَفين (مع إمكانية رفع العذاب عمَّن يستحقُّه من الكافرين عند الإيمان)، الحوار الدعوي، النجاة بالقلب السليم، مآل الروابط الاجتماعية المنجية هي بالإيمان، نماذج معاصرة من إيمان أهل الكتاب، المسؤولية الفردية، تحدّي المعارضين للإتيان بمثل سور القرآن، الاستشهاد بأهل الكتاب (حول المتعلَّقات المشتركة بينهم وبين الدعوة)، استعجال الأنبياء للكيد من أقوامهم، رفض المساومات بطرد ضعفاء المؤمنين لاستقطاب كبار الكافرين.
	الأسلوب	الإنذار، القَصص القرآني (أنبياء أهل الكتاب)	الإنذار، القَصص القرآني
	الإطار	دعوة الأفراد الجهرية، دار الأرقم	الدعوة الجماعية
	المخاطَب	العشيرة (الأقربون)	العشيرة (الأقربون)
	الضمانة	منعة قَبَليَّة	منعة قَبَليَّة

ردة الفعل	الاتجاه العام	الرفض على مستوى القيادات اتباع على مستوى الأفراد لهم	استمرار الرفض والتبعية
	الأسباب	رفض القيادات المساواة بين الجميع وعدمها بين القبائل (بِنُبوَّة في إحداها)، الحرص على مكتسبات النظام تصديق التضليل الإعلامي، والميل لحفاظ الأفراد على روابطهم مع المجتمع	عدم إمكانية تغيير المواقف السابقة المُعلَنة من الدعوة
	الوسائل	اضطهاد المستضعَفين	طلب تبديل القرآن (بما فيه من نبذ للأصنام) تضييق كل قبيلة على مسلميها
الاستجابة		التوجيه للهجرة إلى الحبشة إلى ملك لا يُظلم عنده أحد.	عدم الرضوخ لطلبات التبديل لأنَّ النبي ﷺ يتَّبع ما يُوحى إليه الصَّدع بالدعوة إلى خارج مكة والإعراض عن مشركي مكة (في نهاية المرحلة) الطمأنة بكفاية الله للمستهزئين بالنبيّ ﷺ
تمييز مكوّنات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي:	داخلي (ضمن المجتمع الواحد)	داخلي (ضمن المجتمع الواحد)
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	المسلمون، الكافرون	المسلمون، الكافرون الذين أوتوا الكتاب (من خارج المجتمع)
	مظاهر الاختلاف فيها	مصدري	مصدري
	التمييز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	تميز رجال من قريش بمواقفهم عن مسايرة الاعتداء على حريات المعتقد وممارسة الشعائر الدينية (بالإذلال والاضطهاد والتهجير)	تمييز السابقين الأولين ممَّن سيُسلم لاحقًا (بعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما)
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا:	ضعف	قوة
	حركة/ جمودًا:	جمود	حركة
	نوعًا/ عددًا:	هجرة للبعض	نوع وعدد وعودة المهاجرين

الفصل الثالث

مواجهة الكيد بالتسليم لله والسلام مع المجتمع

المبحث الأول: الدعوة المجتمعية (بقية العرب خارج مكة)

بدأ النبيُّ ﷺ بـ«الدعوة في المواسم والأسواق(١)، عبر دعوة النَّاس إلى الإيمان بالله وبالبعث وترك عبادة الأصنام. . . ، جهارًا وبشكل جماعي»(٢)، أو عبر عقد لقاءات مع الأشراف يعرض عليهم الإسلام.

ففي «سوق ذي المجاز كان [النبيُّ ﷺ] يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله،

---

(١) «أسواق المواسم هي: عكاظ ومَجَنَّة وذو المجاز. ذلك أنَّ العرب كانت إذا حجَّت تُقيم بعكاظ شهر شوال، ثمَّ تجيء إلى سوق مَجَنَّة تُقيم فيه عشرين يومًا، ثمَّ تجيء سوق ذي المجاز فتُقيم به إلى أيام الحج». د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٢: ١٨٦، بتصرُّف. وهذه الدعوة في الأسواق مختلفة عن البحث عن حليف يحمي الدعوة ويُهاجر إليه النبي ﷺ التي سيبدأها بعد وفاة عمِّه الذي كان يحميه ويحمي الدعوة. ومع أنَّ غالب كتَّاب السِّيَر جمعوا روايات الدعوة في الأسواق فجعلوها في سياق واحد ومرحلة واحدة، إلا أنَّ اختلاف الموضوعَين وأسلوبهما بين الروايات (الجهر بدعوة الناس خارج مكة إلى التوحيد بشكل عام، والبحث عن حليف بلقاءات خاصة مع وفود القبائل) من جهة، وتناول موضوعات السور التي تمَّ تصنيفها ضمن هذه المرحلة لأسماء جديدة وانتقاد عادات وعبادات جديدة لم ترد سابقًا، بل وترتبط بأفعال وتراث قبائل عربية أُخرى خارج مكة من جهة أُخرى، كلُّها عوامل رجَّحت هذا التصنيف.

(٢) المصدر نفسه، ٢: ١٨٦، بتصرُّف.

تُفلحوا، يُردِّدها مرارًا، والناس مجتمعون عليه يتبعونه، وإذا وراءه رجل أحوَل ذو غديرتَين [أي: ضفيرتَين] وَضِيء [أي: حسن] الوجه (عمُّه أبو لهب) يقول: إنَّه صابئ كاذب»[١]، بل كان «أبو لهب يرميه بالحجارة وأدمى كعبَيه»[٢]. «فما رأيت أحدًا يقول شيئًا، وهو ﷺ لا يسكت»[٣]. كما تبع النبي ﷺ مرة أُخرى أبو جهل، فكان «يحثي عليه التراب ويقول: يا أيها الناس لا يغرنَّكم هذا عن دينكم، فإنَّما يُريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى[٤]. وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ»[٥]، في تطبيق كامل للأَمْر بالإعراض عن المشركين الذي ورد منذ سورة النجم، وتأكّد للدعوة في المواسم في سورة الحِجر.

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب الإيمان، ١: ٦١، ح: **٣٩**، بتصرُّف. «وإسناد الرواية حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: **١٩٣**، بتصرُّف.

(٢) البيهقي، **السنن الكبرى**، كتاب الطهارة، باب الدليل على أنَّ الكعبَين هما الناتيان في جانبَي القدم، ١: **١٢٣**، ح: **٣٥٨**، بتصرُّف. ومثله في: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب تواريخ المتقدِّمين من الأنبياء والمرسلين، باب ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ، **٢**: **٦٦٨**، ح: **٤٢١٩**، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكيين، حديث ربيعة الديلي ﷺ، **٢٥**: **٤٠٤**، ح: **١٦٠٢٣**. قال الهيثمي: رواه أحمد وابنه، وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات الرجال. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب تبليغ النبي ﷺ ما أُرسل به، **٦**: **٢٢**، ح: **٩٨٣٤**.

(٤) يُلمح التوازي بين هذا القَول وبين آيات سورة سبأ التي تعرض أساليب الصدِّ عن الدعوة، وادِّعاءاتها، ومنها: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣].

(٥) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المدنيين، حديث شيخ من بني مالك بن كنانة، **٢٧**: **١٤٨**، ح: **١٦٦٠٣**، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب تبليغ النبي ﷺ ما أُرسل به، **٦**: **٢٢**، ح: **٩٨٣٠**.

كما «تصدَّى النبيُّ ﷺ لسُوَيد بن الصامت حين قَدِم مكة حاجًّا أو معتمرًا، وكان يُسمِّيه قومه: الكامل؛ لجَلَده وشِعره وشرفه ونسبه. . . فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. فقال له سويد: فلعلَّ الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلَّة لقمان، يعني: حكمة لقمان[١]. فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها عليّ. فعَرَضها عليه، فقال له: إنَّ هذا لَكلام حَسَن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى علَيَّ هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام. فلم يبعد منه وقال: إنَّ هذا لَقول حَسَن. ثم انصرف عنه، فقدم المدينة [يثرب] على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فإذا كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قُتِل وهو مسلم. وكان قتله قبل يوم بعاث[٢]»[٣].

ويظهر أنَّ تجمُّع معايير المرحلة الثانية مع هذه التحرُّكات جعلت بعض مشركي قريش يُساومون النبيَّ ﷺ لطرد ضعاف المسلمين (تمامًا كما طلب كفار قوم نوح منه في سورة هود) بقولهم: «اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. . . فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾»[٤] [الأنعام: ٥٢].

---

(١) يُلمح التوازي مع سورة لقمان التي نزلت في هذه المرحلة.

(٢) يوم بعاث: هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج في يثرب، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج. الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٦ : ٥٥، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل، ١ : ٤٢٧، بتصرُّف. و«إسناد الرواية حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١ : ١٩٥، بتصرُّف.

(٤) **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ٤ : ١٨٧٨، ح: ٢٤١٣، بتصرُّف.

وقد نزل في هذه المرحلة خمس سور[١]:

□ «**الأنعام**»: وفيها «إعادة لمعاني التوحيد والنبوّة والبعث بسبب تغيُّر المقام (وجود مُخاطَب جديد هم العرب في الأسواق خارج مكة)»[٢] مع إضافة أحكام جديدة تتناسب مع هذا المقام.

فقد عرضت السورة آيات من الظواهر الكونية وموقف الكافرين منها ومصيرهم، ومطالِبهم (المستهزِئة) بالآيات المادية وبدائلها من عِبَر التاريخ وقَصص الأُمم السابقة الملموسة آثارها، والإنذار بالقرآن لهم ولِمَن بلغ (من خارج مكة)، والاستشهاد بأهل الكتاب على التوحيد، ومشاهد القيامة حيث لا ينتفع المشركون بشركائهم، وعرض علاقتهم بالنبيّ ﷺ بنهي النَّاس عنه (كما فعل أبو لهب وأبو جهل عند الدعوة في الأسواق)، وعرض حزن النبيّ ﷺ من أقوالهم (التي ينشرونها للصَّدّ عن الدين) وتثبيته بالصبر على التكذيب والأذى، وتوضيح محدودية قُدُرات النبيّ ﷺ باتِّباع الوحي (دون مُلكه أو علمه بالغيب). ثمَّ عرضت الآيات توجيهات لإدارة الجهد الدعوي عبر: تحديد شريحة المنذَرين بالقرآن بأنَّهم الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربّهم، و«عدم طرد العابدين المخلِصين (من المستضعفين) فهم يتحمَّلون مسؤوليَّتهم الشخصية، ووجودهم امتحان لغيرهم»[٣]،

---

(١) هذه السور الخمس (أي: الأنعام والصافات ولقمان وسبأ والزمر) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الأربعة (البيهقي، وأبي عمرو الداني، وابن الضريس، والزهري) ضمن السور المكية. وكذلك اتُّفق على مكيَّتها في جميع لوائح تحديد المكي من المدني. ويُمكن اعتبار أنَّ سور هذه المرحلة هي أيضًا سبع سور إذا أُضيفت إليها سورتا: الذاريات والغاشية اللتان جاءت المرحلة الرابعة ففصلت بينهما (مرحلة الحصار والتي نزلت فيها سور الحواميم السبع).

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٢: ٨٦، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأنعام، ١١: ٢٤٩_٢٥٣، بتصرُّف.

و«الإعراض عن الذين يطعنون في الآيات باستهزاء بمقاطعة مجالسهم إلا لمَن يتَّقي التأثُّر بكلامهم ولا يُتَّهم بالرِّضا عنه عبر تذكيرهم بالترغيب والترهيب»[١]، وترك دعوة الذين خدعتهم متاعات الدنيا «فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعب بآياته، واللهو والاستهزاء بها إذا سمعوها وتُلِيَت عليهم»[٢]، فيكون تذكيره بالقرآن «حتى لا تُرتهن نفس إنسانية بما كسبت من ذنوب دون تنبيه وإنذار فتهلك»[٣]. وتمَّ الاستشهاد بإبراهيم (جدِّ العرب وأبي أنبياء أهل الكتاب) على رفض عبادة الأصنام والبراءة من عبادة الكواكب والقمر والشمس (وهي معبودات تُذكَر لأول مرة ممَّا ينسجم تمامًا مع المُخاطَبين الجدد من خارج مكة[٤]) ومجادلة قومه في ذلك، وكون النبيّ ﷺ مُقتَدِيًا بهَدْي النبيين قَبله. ثمَّ الإعلام بأنَّ القرآن مُصدِّقُ الذي أُنزل قَبله من كتب ربَّانية ليُنذر به النبيّ ﷺ أهل مكة ومَن حولها (في إشارة لأول مرة إليهم). وكَون المؤمن بالآخرة مؤمنًا بالقرآن مؤدِّيًا عباداته. والرَّدّ على عبادة الجنّ[٥] وافتراء البنين والبنات لله بغير علم. وفي كلٍّ ذلك تبيَّنت الحجّة مع إثبات عدم كون الرسول ﷺ حفيظًا على الناس يُجبِرهم على سلوك الصراط المستقيم. ونهَت الآيات عن شتم الآلهة المعبودة من المشركين تلافيًا لاندفاعهم لشتم الله بالمقابل [كضابط للتعامل مع

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأنعام، ١١: ٢٨١ ـ ٢٨٤، بتصرُّف.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنعام، ١١: ٤٤١.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الأنعام، ٢: ٥٠، بتصرُّف.

(٤) «كانت قبيلة حِميَر ـ المُقيمة في اليمن ـ تعبد الشمس، وكنانة ـ المُقيمة في تِهامة (وهي المنطقة الساحلية الموازية للبحر الأحمر) ـ تعبد القمر، ولخم وجذام ـ المُقيمة في الحيرة على تخوم العراق ـ تعبد المشتري. . . .». سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٤٧ ـ ٦٦، بتصرُّف.

(٥) وردت عبادة الجن في سورٍ من هذه المرحلة فقط، وهي سور: الأنعام والصافات وسبأ، ممَّا يؤكِّد على مُخاطَبة القرآن في هذه المرحلة لمُخاطَبين جُدد بعبادات وثنية أُخرى، وهم: «بنو مليح من خزاعة [التي كانت تسكن في تهامة بين مكة ويثرب (أي: المدينة)]». سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٦٦، بتصرُّف.

استبعاد الشرك من التعدّدية العَقَدية]. واستمرار رفض تقديم آيات مادية بسبب المعرفة المسبَقة بعدم إيمانهم، وذلك «لإصرارهم على كفرهم وتقليدهم الأعمى»[١] «وعداوتهم»[٢] «بإغواء وإغراء متبادل بين شياطين الإنس والجنّ للخداع بالباطل وتزيينه لتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرضَوه ولِيَقتَرِفوا السيئات والجرائم»[٣].

وعَرَضَت السورة أحكام الحلال والحرام فيما يختصّ بالذبائح من الأنعام وغيرها، وانتقاد مظاهر ثقافية ذات أساس عَقَدي وثني لا دليل لهم عليها مع كونها تُضلُّ النَّاس. كما عرضت وصايا «المنهيات من الاعتقادات والأفعال (الشرك، وقتل الأولاد، والفواحش، وقتل النفس بغير حقّ، وإضرار اليتيم بالتصرُّف في ماله، والنزاع والفرقة)، والمأمورات (الإحسان إلى الوالدين، والعدل في الكَيل والميزان، وأداء الشهادة بحقّ، والوفاء بالعهد)»[٤]. وأعادت السورة التذكير بخطاب مباشر عن ادِّعاء سابق للعرب (يُقارِب تذكير قريش بطلبها مجيء نذير (بوحي إلهي) في سورة فاطر) عن طاعتها للوحي (الكتاب) لو نزل عليها، وحذَّرت السورة من عاقبة التكذيب. وعَرَضت أنَّه بظهور آيات الله في علامات قيام الساعة، لا ينفع إيمان نفسٍ إنسانية لم تكن آمنت قبل ذلك أو عَمِلت صالحًا، مُعبِّرًا عن صحة الإيمان وصِدقه، وعلى المنذَرين الانتظار. وخُتِمَت السورة بإعلان النبي ﷺ الهداية إلى ملّة إبراهيم غير المشرك و«المائل عن كلِّ عِوَج في ملل الناس ومذاهبهم، بالاستقامة على صراط الله المستقيم»[٥]. فالإسلام هو بذلك عودة أمينة إلى ملّة إبراهيم.

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأنعام، ١١: ٣٨٥، بتصرُّف.

(٢) أبو حيان، **البحر المحيط**، سورة الأنعام، ٤: ٦٢٣، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأنعام، ١١: ٣٨٨ـ ٣٩٠، بتصرُّف.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الأنعام، ٢: ٦١، بتصرُّف.

(٥) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الأنعام، ١١: ٤٩٤، بتصرُّف.

□ «**الصافّات**»: وفيها الاستدلال بـ«تنظيم الصافات (أكانوا ملائكة، أم طيورًا، أم جماعات الربَّانيين المصلِّين، أم غير ذلك)[١] وتوجيهها وصلاحها على وحدانية الله»[٢]. وعرض مَوقف المكذِّبين بالبعث يوم القيامة واستسلامهم (بعد أن سخروا من آيات الله في الدنيا)، و«تلاوم (الأتباع) المقلِّدين مع رؤسائهم»[٣] المضلِّين لهم وعرض أساليب التضليل في الدنيا، وفيها بدء اتِّهام النبيّ ﷺ أنَّه شاعر (لأول مرة)، مقابل جزاء عباد الله المخلَصين الذين نجَوا من طاعة قرناء السوء المكذِّبين. ثمَّ تمَّ عرض قَصص سبعة من الأنبياء: نوح عليه السلام الذي استجاب الله له فنجَّاه وأهله، وإبراهيم عليه السلام الذي جاء بقلب سليم (من أمراض المعتقدات والسلوكيات) مُستَنكِرًا على قومه عبادة الأوثان، ثمَّ قام بتكسيرها لإقامة الدلائل العقلية، ولكنَّ قومه هَمُّوا بإحراقه فنجَّاه الله من كيدهم، ثمَّ امتحنه الله بذبح ولده فأسلما لله، ففداه الله بذِبح عظيم. وموسى وأخوه هارون عليهما السلام في نجاتهما وقومهما من الكرب العظيم مع نصرهما. وقد أثنى الله على جميع هؤلاء الأنبياء بسلام عليهم. وإلياس عليه السلام في تكذيب قومه له لمَّا عاب عليهم عبادة الأوثان، وقد أثنى الله عليه وعلى آله. ولوط عليه السلام الذي نجَّاه الله وأهله إلا عجوزًا (امرأته) ودمَّر قومه، مع الاستشهاد بالمستمِعين الذين يمرُّون على تلك الأرض في أسفارهم. ويونس عليه السلام في تركه دعوة قومه دون استئذان ربِّه وركوبه الفُلك، فكان قَدَره قرعة (عند هيجان البحر) ألقَته في البحر، فالتَقَمه الحوت جزاء إتيانه بما يُلام عليه من ربِّه بتركه قومه، ولكنَّ تسبيحه لله (بالتنزيه) أنجاه وشفاه، ثمَّ أرسله الله إلى قومه فآمنوا. وعَرَضَت السورة التشنيع على مَن ينسب البنات لله ويعبدونها (في تناقض مع ثقافتهم في كونهم يُفضِّلون البنين عليهنَّ)، وعلى

---

(١) السمين الحلبي أحمد بن يوسف، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، سورة الصافات، ٩: ٢٩٠، بتصرُّف.

(٢) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الصافات، ٢٦: ٣١٣، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الصافات، ١١: ٥٦٥، بتصرُّف. ود. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الصافات، ٢: ٦٤، بتصرُّف.

مَن جعل بين الله وبين الجِنَّة نسبًا، ولا دليل لهم على كلِّ ذلك من كتاب مُنزَّل، وهو ضابط قَبول التعددية العَقَدية كما سبق. وجاء الرَّدّ على أساليب المشركين التضليلية ـ (التي وردت في هذه السورة بين الرؤساء وأتباعهم، وفي السورة التي سبقتها عن إغراءات الشياطين وتزيينها لاستمالة قلوب غير المؤمنين بالآخرة، كما وردت في سور المراحل السابقة بالتشويه الإعلامي) ـ بأنَّ «المشركين ومعبوداتهم لا قُدرة لهم إلا على إفتتان متَّبعي الأهواء باختيار حُرٍّ ممَّن يسلك المسالك الموصِلة إلى الجحيم، كما أنَّ المؤمنين لهم مقام اعتقادي وسلوكي ثابت، وهم صافُّون منضبطون منظَّمون ومنزِّهون لله عمَّا لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله»[١]. ويتمُّ التذكير بمقولة العرب عن استعدادهم «لاتِّباع كتاب ربَّاني لو ورثوه من الرسل الأوَّلين»[٢]، ولكنَّها في واقعها كفَرَت (في مقاربة مع ما ورد في سورتَي فاطر والأنعام عن ادِّعاء الطاعة للنذير والوحي لو نزل عليها). وخُتِمَت السورة بأنَّ النبيَّ ﷺ سينتصر مثلما انتصر الأنبياء السابقون وسيَغلِب، ووجَّهته الآيات بالتولِّي عنهم حتى حين.

□ «**لقمان**»: وفيها بيان هداية القرآن للمُحسِنين، و«الرَّدّ على القُصَّاص[٣] الذين يُشغِلون الناس بلهو الحديث»[٤] للإضلال عن سبيل الله والاستهزاء منها، مع استكبارهم عند سماع

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الصافات، ١١: ٦٥٦، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الصافات، ١١: ٦٥٦، بتصرُّف.

(٣) فقد كان «النضر بن الحارث يخرج تاجرًا إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم، فيرويها ويُحدِّث بها قريشًا ويقول لهم: إن محمدًا يُحدِّثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أُحدِّثكم بحديث رستم وأسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملِحون حديثه ويتركون استماع القرآن؛ فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة لقمان، ص٣٥٦.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة لقمان، ٢: ٧٥، بتصرُّف.

تلاوة آيات الله وذكر وعيدهم (في استكمال للرَّدّ على محاولات التضليل التي وردت في السورتَين السابقتَين أيضًا)، مع عرض ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتمَّ الاستشهاد بالظواهر الكونية للدلالة على وحدانية الله في ربوبيَّته وإلهيَّته، ومواعظ لقمان الحكيم لابنه (كبديل عن أساطير القُصَّاص) وفيها: وصايا التوحيد ومصاحبة الوالدَين بالمعروف وشكرهما، واتِّباع سبيل المنيبين إلى الله (الرسل وأتباعهم)[١]، والإيمان باليوم الآخر والاستعداد له بإقام الصلاة وتوجيهات دعوية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى الناتج عن ذلك «مع التواضع والاعتدال وعدم رفع الصوت فيها (كالباعة المتجوِّلين)»[٢].

وتعرض السورة نماذج من نِعَم الله على الناس التي تستدعي شكرهم له، ثمَّ منهم مَن يُجادل في الله بغير علم أو هدى أو كتاب، بل يُقلِّد الآباء ويتَّبع دعوة الشيطان إلى العذاب، في تأكيد على ضابط قَبول التعددية العَقَدية. وتمَّ البيان بأنَّ «الإسلام لله (بالانقياد إليه) مع الإحسان هو الاستمساك بأوثق اعتصام»[٣]. وتُوَجِّه السورة النبيّ ﷺ لعدم الحزن لأجلهم. كما تمَّ البيان بعدم إغناء الآباء عن الأبناء (والعكس) من عقاب الله، كي لا تَغُرَّهم الحياة الدنيا، فلا يعتمدوا على روابط القبيلة. وخُتِمَت السورة بجواب أحد أهالي البادية[٤] عن

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة لقمان، ١١: ٧١٧، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة لقمان، ١١: ٧٢٤ ـ ٧٢٦، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة لقمان، ١١: ٧٤٠ ـ ٧٤١، بتصرُّف.

(٤) فقد «نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] في الحارث بن عمرو من أهل البادية، أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال: إنَّ أرضنا أجدَبت فمتى ينزل الغيث؟ وتركت امرأتي حبلى فماذا تلد؟ وقد علمت أين وُلِدت، فبأيِّ أرض أموت؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. كما جاء رجل بفرس له يقودها عقوق ومعها مهرة له يبيعها فقال للنبي ﷺ: مَن أنت؟ قال: أنا نبي الله. قال: ومَن نبي الله؟ قال: رسول الله. قال: متى تقوم الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله. قال: ما في بطن فرسي هذه؟ قال: غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله. وقد كان الرجل قال: أذهب إليه فأسأله عن هذه الخصال». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة لقمان، ص٣٥٩.

تساؤلات غَيبية (مواعيد: القيامة ونزول المطر، وما في الأرحام، والمستقبل، ومكان الوفاة) بأنَّ العلم فيها لله وحده.

□ «**سبأ**»: وفيها «بيان شمول ملك الله وإحاطة علمه في تأسيس للرَّدّ على مقالات الذين كفروا بإنكار البعث وصدِّهم النَّاس عن الرسول ﷺ عبر سعي (أي: عمل بِهِمَّة) إعلامي لتثبيطهم عنه، بالمقابل يظهر أنَّ الذين أوتوا العلم (بأدواتهم الفكرية) يرَون الحقّ والهداية في تلك الرسالة»[١]. وتمَّ عرض قصة داود وابنه سليمان عليهما السلام «للدلالة على قدرة الله عز وجل وعلمه بما سخَّره لهما»[٢] (وفي القصة ما يدلُّ على عجز الجنّ عن إدراك الغيب، بما يُكمِل مسار السورتَين السابقتَين بتسفيه عبادة الجنّ)، ثمَّ قصة مملكة سبأ الذين جزاهم الله بإعراضهم وكفرهم أن سلب منهم نعمتَي الرزق والاجتماع فأصبحوا هم الأحاديث (من جنس القَصص التي تُروى في الأسواق، ولكن للاعتبار من كلِّ صبَّار على الطاعة وشكور على النعمة)، وقد اتَّبع قوم سبأ بذلك إبليس الذي «مكَّن الله له بالوسوسة كامتحان؛ لتمييز المؤمن بالآخرة من الشَّاكّ بوجودها»[٣]. (وبذلك تُمثِّل قصة سبأ للمُستَمِعين من العرب عمومًا، ومن قبائل اليمن خصوصًا تهديدًا ضمنيًا (من عمق تراثهم) إذا أعرضوا عن الدعوة، واستمرارًا للنعمة ـ أو استعادة لها ـ إذا استجابوا لها بالصبر والشكر). وقد استُكمِلَت الآيات بحوار إقناعي مع المشركين بنفي القُدرة عن آلهتهم في

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة سبأ، ١٢: ٢٢ـ ٣٤، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة سبأ، ٢: ٧٩، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة سبأ، ١٢: ٧٠، بتصرُّف.

الدنيا والآخرة، وإثبات قُدرة الله عز وجل، فكانت دليلاً على هداية رسالة النبيّ ﷺ. وتعرض الآيات نتيجة المجادلات برفض الذين كفروا الإيمان بالقرآن وبما قبله من الكتب، [فرفضوا بذلك ضابط القَبول في رؤية التعدّدية العَقَدية]. ثمَّ تعرض «تلاوم المستضعفين والمستكبرين في النار»(١) بالاتِّهام المتبادل بينهم، فتبيَّن منها أنَّ «المستكبِر يمكر ليصدّ عن الهدى ويأمر بالكفر، وأنَّ المُستَضعَف مُجرِم في نفسه بإرضائه أهواءه بمبرِّر اتِّباع المستكبِرين»(٢). وتلفِت الآيات إلى أنَّ الاعتزاز بالمال والولد كان سببًا في الكفر، مع أنَّ الإيمان والعمل الصالح هما معيارا القُرب من الله. وترد الآيات على الذين يسَعون (في الزمن الحاضر لنزول السورة) في آيات الله «مُتَوَهِّمين قُدرتهم الإفلات من عقابها من جهة، ومُثَبِّطين مُعَوِّقين لغيرهم عن الإيمان بها من جهة أُخرى»(٣)، (وفي هذه الآية مع مشهد التلاوم بين المستكبِرين والمستضعَفين إشارة واضحة إلى سعي أبي لهب وأبي جهل في الأسواق وراء النبي ﷺ لصدِّ النَّاس عن الدعوة). ثمَّ تعرض الآيات مَشهدًا في الآخرة تتبرَّأ الملائكة فيه ممَّن عبدها، وتنسب تلك العبادة إلى الجنّ العاجز. ووجَّهت الآيات لفكّ الارتباط في المواقف بين أئمّة الضلال وجماهير الأتباع «أن يقوم هذا التابع قيامًا لله (بقصد الوصول إلى الحقّ وتحقيق مرضاة الله والتجرُّد من الأهواء والعصبيات والتبعيات) عبر التفكير الفردي أو الثنائي (بعيدًا عن الضغط الجماعي المُحيط المُهَيمن ممَّا يُمكِّن من تحقيق الحرية للفرد والحوار بين متساويَين للاثنَين) فيتفكَّروا ليتوصَّلوا بالتفكير الحرّ إلى نفي

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة سبأ، ٢: ٨١، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة سبأ، ١٢: ٨٩-٩٠، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة سبأ، ١٢: ٩٩، بتصرُّف.

اتِّهامات الجنون عن النبيّ ﷺ وتحقيق كونه نذيرًا لهم»[١]. والإعلام بأنَّ دعوة النبيّ ﷺ أجرُها أيضًا لهم (فلا يطلب «كالقُصَّاص في الأسواق أجرًا»[٢] على مقالاته). وتُختَم السورة بمشهد القيامة الذي لا ينفعهم فيه إعلان متأخِّر عن إيمانهم.



---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة سبأ، ١٢: ١١٣ ـ ١١٤، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة سبأ، ٢: ٨٢، بتصرُّف.

المبحث الثاني: تهيئة الصَّفّ الداخلي للصمود

كانت نتائج مرحلة الدعوة في الأسواق أن جعل للدعوة آفاقًا جديدة، وانتشر ذكر النبيّ ﷺ في أنحاء الجزيرة العربية. الأمر الذي يُهدِّد زعامة قريش ومكانتها بفَضحِهم واتِّهامهم بالكفر (حتى مشابهة الأنعام) ومحاربة الدعوة والحقّ والهدى... ممَّا اجتَهَدت قريش في تشويهه والتعتيم عليه المدّة السابقة للدعوة.

لذلك، فلا غرابة أن تُطالعنا كتب السِّيَر بالتصعيد الذي تمَّ بعد ذلك حتى الوصول إلى إعلان المقاطعة العامة.

فقد أعادت الآيات رفع سقف الخطاب بالتعرُّض لمعبودات قريش والعرب أيضًا وتسفيه عقولهم، الأمر الذي يُمكن في سياقه أن يتمّ ارتباطه باجتماعهم مع «أبي طالب مرة أُخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إنَّ لك سنًّا وشَرفًا ومنزلة فينا، وإنَّا قد استَنهَيناك من ابن أخيك فلم تَنهَه عنَّا، وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكُفَّه عنَّا أو نُنازِله [أي: نُقاتله] وإياك [ومقصودهم هنا الترهيب] في ذلك حتى يهلك أحد الفريقَين، ثمَّ انصرفوا عنه. فعَظُم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يَطِب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خِذلانه»(١).

فبعث «أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي، إنَّ قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، الذي كانوا قالوا له، فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تُحمِّلني من الأمر ما لا أُطيق. فظنَّ رسول الله ﷺ أنَّه قد بدا لعمِّه فيه بداء، وأنَّه خاذله ومُسَلِّمه، وأنَّه قد ضَعُفَ عن نصرته والقيام معه. فقال رسول الله ﷺ: يا عمّ، واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترُك هذا الأمر حتى يُظهِرَه الله أو أَهلِكَ فيه ما تركته. ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام. فلمَّا ولَّى، ناداه أبو طالب فقال: أقبِل يا ابن أخي.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مباداة رسول الله ﷺ قومه وما كان منهم، ١: ٢٦٦، بتصرُّف. والطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٣٢٣، بتصرُّف.

فأقبَل عليه رسول الله ﷺ. فقال: اذهب يا ابن أخي فقُل ما أحببت، فوالله لا أُسلِمُك لشيءٍ أبدًا»[١].

في هذا الجوّ الضاغط، المتحوِّل إلى الترهيب حتى لأبي طالب حامي النبيّ ﷺ قَبليًا، تُردِّد سورة الزمر صدى التهديدات بتخويف قريش للنبيّ ﷺ من جهة، وبالتربية على الإخلاص الباقي بثبات (وهو الذي بَقِي للرسول ﷺ حين ظنَّ من عمِّه خذلانًا محتَمَلاً) ورعاية المستضعفين من المؤمنين مجدّدًا بالهجرة إلى الحبشة واستكمال مقال الدعوة في الأسواق من جهة أُخرى.

◻ «**الزمر**»: وفيها بيان «أهمية الإخلاص لله»[٢] في تنقية للإرادات لمواجهة الواقع غير الإنساني. والرَّدّ على «التعِلَّة الجدالية للمشركين أنَّهم يعبدون الأوثان ليستشفعوا بها عند الله[٣] (وليس لذاتها)»[٤]، وعلى زعمهم باتِّخاذ الله الولد، والاستدلال بالظواهر الكونية على وحدانيَّته وقهره لجميع مخلوقاته، ممَّا يُؤسِّس لغنى الله عن كُفر مخلوقاته، ورِضاه بشكرهم، وتحمُّل كلِّ مخلوق لمسؤوليَّته بشكل فردي يُحاسَب عليها يوم القيامة. وعَرَضَت السورة صفة الإنسان الذي يلتجئ إلى الله عند الضرّ وينساه عند النعمة وينسبها إلى غير الله، مقابل العابد بإخلاص (في الليل) الذي يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربِّه، مع ذكر عاقبتهما في الآخرة بالتخويف والتبشير. وتُوجِّه الآيات الذين آمنوا للتقوى والإحسان

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مباداة رسول الله ﷺ قومه وما كان منهم، ١: ٢٦٦، بتصرُّف.

(٢) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة الزمر، ص٣٣٤، بتصرُّف.

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الزمر: ٣] قال: «أُنزِلت في ثلاثة أحياء: عامر، وكنانة، وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان ويقولون: الملائكة بنات الله». السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، سورة الزمر، ٧: ٢١١، بتصرُّف.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الزمر، ١٢: ١٥٣، بتصرُّف.

والهجرة (في أرض الله الواسعة) لتحقيق ذلك فيها بحرية وأمان، مع ما تقتضيه الهجرة من صبر. وكما عَرَضت سورة الأنعام قسوة قلوب السابقين مع دعوات الأنبياء، توعَّدت هذه السورةُ القاسيةَ[1] قلوبهم من ذكر الله «بالنفور والاشمئزاز منه»[2] مقابل لين قلوب الذين يخشَون ربَّهم. وتعرض السورة كون القرآن أحسن الحديث (المعروض بشكل هادئ في مجلس متكافئ مع المستمعين)[3] وعربيًا لا عِوَج فيه وفيما يدعو إليه. وتمَّ ضَرب المَثَل «للتنفير المنطقي من الشرك»[4]. وأكَّدت الآيات على أنَّ «الله قادر على أن يكفِيَ رسوله ﷺ (والذين آمنوا به واتَّبعوه) كلَّ شرور كبراء مشركي مكة الذين يُدبِّرون المكائد للتخلُّص منه ويُخوِّفونه بانتقام آلهتهم»[5]. وتُرغِّب السورة غير المسلمين بعدم اليأس من رحمة الله بسبب تجاوزاتهم إن استجابوا بالإنابة والإسلام لله واتِّباع ما أنزل الله قبل ندمهم يوم القيامة من التفريط والاستهزاء بالدين وتبرير عدم هدايتهم بعدم مشيئة الله ذلك (كما برَّروا ذلك في سورة الأنعام). مقابل اتِّهام الآمرين بالشرك بالجهل. وتُختَم السورة بعرض مشاهد القيامة حين تُساق جماعات الذين كفروا بإهانة إلى جهنَّم فيدخلونها بالذَّم، وتُساق جماعات الذين اتَّقَوا ربَّهم بتكريم إلى الجنة فيدخلونها بسلام.

وتعليقًا على قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) القسوة: «غلظ القلب، ومن اشتقاقاتها عدم كونها خالصة». الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب القاف، ص٦٧١، بتصرُّف. وتعني أيضًا: «الصلابة وشدة الظلمة». الفراهيدي، **كتاب العين**، حرف القاف، باب القاف والسين و(و ا ي ء) معهما، ٥: ١٨٩، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الزمر، ١٢: ١٩٩، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة الزمر، ١٢: ٢٠٢، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة الزمر، ١٢: ٢١٦، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، سورة الزمر، ١٢: ٢٢٦ ـ ٢٢٧، بتصرُّف.

حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فقد قال عنها ابن عباس رضي الله عنهما: «يُريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة»[١]. أي: وفد الهجرة الثانية إلى الحبشة.

وبالفعل، «خرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم مَن خرج بأهله معه، ومنهم مَن خرج بنفسه لا أهل له معه... وأصبح عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً»[٢].

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أَمِنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلَين من قريش جَلْدَين إلى النجاشي فيردَّهم عليهم ليفتنوهم في دينهم ويُخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأَمِنوا فيها. فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ثم بعثوهما إليه فيهم»[٣].

وإنِّي أعرض بتفصيل بسيط ما حدث في الحبشة لأهميتها، إذ من المحتمل جدًّا أن تُعبِّر هذه الأحداث ـ بحواراتها ـ عن مدى التربية التي استفاد منها المؤمنون من السور التي نزلت سابقًا، لما مرَّ فيها من تدريب على الحوارات وأساليب عرض الحجج المنطقية والإقناع بها (كأساليب سورة الشعراء مثلاً).

لقد اجتمع الوفد مع «النجاشي وكلَّماه ـ بعد أن دفعا الهدايا إليه وإلى البطارقة ـ فقالا له: «أيها الملك، إنَّه قد ضوى إلى بلدك منَّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أشراف قومهم

---

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الزمر، ١٥: ٢٤٠.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، ١: ٣٢٣ ـ ٣٣٠، بتصرُّف. وإنَّ هذه الهجرة الثانية إلى الحبشة كانت «سنة سبع من النبوة وحين أمر رسول الله ﷺ مَن كان بمكة من المسلمين أن يخرجوا إليها». **السيرة الحلبية**، ٢: ٢٦، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، إرسال قريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها، ١: ٣٣٣.

من آبائهم وأعمامهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عَينًا [أي: أبصر بهم وأعلم بحالهم] وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. (ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يَسمع كلامَهم النجاشيُّ). فقالت بطارقته حوله: صدقًا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عَينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلِمهم إليهما فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشيُّ، ثم قال: لاها الله إذن، لا أُسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على مَن سواي حتى أدعوهم فأسألهم عمَّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. [وهنا أهمية اختيار الحبشة لمعيار العدل فيها بما يكفل حماية الحريات وحقوق اللجوء].

فلما جاؤوا سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالب ﵁، فقال له: أيها الملك، كنَّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القويُّ منَّا الضعيفَ. فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مِنَّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله لنُوَحِّده ونعبده ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحُسن الجوار والكَفّ عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (وعدَّد عليه أمور الإسلام). فصدَّقناه وآمنَّا به واتَّبعناه على ما جاء به من الله. فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا وحرَّمنا ما حرَّم علينا وأحللنا ما أحلَّ لنا. فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحلّ من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. [فالتعدِّي على الآخر في المعتقد وممارسة الشعائر الدينية، يعقبها خيار الهجرة إلى بلد حكمه عادل]. فقال له النجاشي: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر:

نعم. فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم. فبكى النجاشي حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فلا والله لا أُسلِّمهم إليكما ولا يكادون.

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينَّه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة (وكان أتقى الرَّجلَين في المهاجرين): لا تفعل، فإنَّ لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالَفونا. قال: والله لأُخبرنَّه أنَّهم يزعمون أن عيسى ابنَ مريم عبدٌ. قال: ثم غدا عليه من الغد فقال: أيها الملك، إنَّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا. فأرسَل إليهم ليسألهم عنه. فاجتمع القوم ثم قالوا لبعضهم: نقول ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن [أي: بصراحة ووضوح في الثبات على المعتقد وعرضه]. فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب ﵁: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال. فقال: وإن نخرتم والله. اذهبوا فأنتم شيوم [أي: آمنون] بأرضي، مَن سبَّكم غرم. ما أُحبّ أن لي دَبرًا [أي: جبلاً] من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم. رُدّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها. فوالله ما أخذ الله منّي الرشوة حين ردَّ عليَّ مُلكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأُطيعهم فيه. فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقام المهاجرون عنده بخير دار مع خير جار»(١).



---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، إرسال قريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها، ١: ١٩٧- ٢٠٠، بتصرُّف. و«إسناد الرواية حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٧٤، بتصرُّف.

المبحث الثالث: الثبات على مقاصد الحوار
الإسلام رسالة تبليغ لا وصاية

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأنَّ النجاشي قد منع مَن لجأ إليه منهم، وأنَّ عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل الإسلام يفشو في القبائل»[1]، «اشتدَّ المشركون على المسلمين كأشدِّ ما كانوا، حتى بلغ المسلمين الجهدُ، واشتدَّ عليهم البلاء، وعمد المشركون من قريش، فأجمعوا مكرهم وأمرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية. فلما رأى ذلك أبو طالب، جمع بني عبد المطلب، فأجمع لهم أمرهم على أن يُدخِلوا رسول الله ﷺ شِعَبَهم ويمنعوه ممَّن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك كافرهم ومسلمهم [إلا أبا لهب]، منهم مَن فعله حميَّة [العصبية القبيلة] ومنهم مَن فعله إيمانًا ويقينًا. فلمَّا عرفت قريش أنَّ القوم قد اجتمعوا ومنعوا رسول الله ﷺ»[2]، «اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطَّلب على أن لا يَنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، [حتى يُسلِّموا رسول الله ﷺ للقتل][3]. فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم»[4].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، خبر الصحيفة، ١: ٣٥٠.

(٢) الأصبهاني، **دلائل النبوة**، قصة دخول بني هاشم شعب أبي طالب، ١: ٢٧٢، ح: ٢٠٥، بتصرُّف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب دخول النبي ﷺ مع مَن بقي من أصحابه شعب أبي طالب، ٢: ٣١١، بتصرُّف.

(٣) الأصبهاني، **دلائل النبوة** قصة دخول بني هاشم شعب أبي طالب، ١: ٢٧٢، ح: ٢٠٥، بتصرُّف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب دخول النبي ﷺ مع مَن بقي من أصحابه شعب أبي طالب، ٢: ٣١١، بتصرُّف.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، خبر الصحيفة، ١: ٣٥٠. و«إنَّ أصل حدث الحصار ثابت، ولكنَّ =

أقام النبيُّ ﷺ مع قومه في الشِّعَب ثلاث سنين [من بداية السنة السابعة إلى بداية السنة العاشرة من البعثة]، لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجَهد، وسُمِع أصوات صبيانهم من وراء الشِّعَب، فمن قريش مَن سرَّه ذلك ومنهم مَن ساءَه»[(١)]، وصدرت محاولات مُستخفية لإيصال الطعام إليهم ممَّن أراد صِلَتهم من قريش[(٢)].

أما الصحابة المضطهدون كما سبق، فقد «كان أبو لهب يطلب من التجار أن يُغالوا عليهم حتى لا يبيعوهم وهم يتضاغَون أطفالهم من الجوع، بل ويُربح أبو لهب التجَّار، حتى جهد المؤمنون ومَن معهم جوعًا وعُريًا»[(٣)].

وفي هذه المرحلة نزلت سور الحواميم السبع[(٤)]، وهي «ذات خطٍّ رئيس، هو خطّ الحديث عن القرآن وموقف الكافرين منه، وعن الله منزله وعن موقف الكافرين منه، وعن الرسول ﷺ مُبلِّغ القرآن وموقف مكذِّبيه، والحديث عن الجزاء المعجَّل في الدنيا،

= التفاصيل لم تثبت إلا من مرويات مراسيل». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١ : ١٨١، بتصرُّف.

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر حصر قريش رسول الله ﷺ وبني هاشم في الشِّعَب، ١ : ٢٠٩، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، خبر الصحيفة، ١ : ٣٥٤، بتصرُّف.

(٣) السهيلي عبد الرحمن بن عبد الله، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية**، حديث نقض الصحيفة، ٣: ٣٥٥، بتصرُّف.

(٤) هذه السورة السبع (غافر، وفصِّلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف) اتُّفق على مكيَّتها بحسب لوائح ترتيب النزول الأربعة، واختُلِف على ترتيبها. فروايتا ابن الضريس والزهري رتَّبتاها حسب ترتيبها السابق كما هي عليه اليوم في المصحف. أما رواية البيهقي فقدَّم الدخان على فصِّلت. وأما رواية أبي عمرو الداني فأخَّر الشورى إلى ما بعد الكهف. وكذلك اتُّفق على مكيَّتها في جميع لوائح تحديد المكي من المدني.

والمؤجَّل إلى يوم الدين، مع الترغيب والترهيب»[١]. وذلك عبر الدعوة إلى تنمية أسباب تخفيف الكيد، وتثبيت المؤمنين، وإنذار الكافرين. وهذه السور هي:

□ «**غافر**»: وفيها يتمّ عرض «الصراع العقلي بين الحقّ والباطل وأدب الحوار»[٢] في «الدعوة إلى الله مع تفويض الأمر إليه»[٣]. وتبدأ بعَرْض صفات الله للترغيب والترهيب، والتثبيت النفسي للنبيّ ﷺ بعرض مجادلات وتكذيب الذين كفروا كما فعل أقوام الأنبياء السابقين الذين حاولوا اغتيال رُسُلهم وجادلوا بالباطل ليُدحِضوا به الحقّ، وعَرْض عاقبة الذين كفروا مقابل جزاء الذين آمنوا، وتحقُّق العدالة يوم القيامة وأنَّ الملك كلَّه لله وحده. وتَعْرض السورة مشهدًا من قصة موسى عليه السلام (للاعتبار وتحقُّق العقاب) حين اضطهد فرعون المؤمنين وحاول قتل موسى (تُذكر لأول مرة) بمبرِّر إفساده، كما قام بتعتيم إعلامي مع استكبار وتحدٍّ، مقابل أحد المؤمنين من آل فرعون (ممَّن يكتم إيمانه) الذي أعلن حرية المعتقد (مستعجِبًا أن يُعاقَب عليها موسى بالقتل) وذكَّرهم بالعقاب في الدنيا وبالحساب في الآخرة وبتاريخ دعوة نبي الله يوسف عليه السلام الإصلاحية قبل موسى ثمَّ فوَّض أمره إلى الله (فكان توجيهًا لدور المسلم المتخفِّي ـ والمتعاطف مع النبيّ ﷺ دون تبعيَّة عمياء لكبراء قريش[٤] ـ في دعم موقف الدعوة). ثمَّ تمَّ عَرْض مشهد التلاوم بين الضعفاء والمستكبِرين في جهنَّم مقابل نصر الله للرسل والمؤمنين في الدنيا والآخرة. وتُوجِّه السورة النبيّ ﷺ إلى الصبر على الموقف الحالي (الناتج عن كِبْر المجادلين في الآيات) والدعاء لله بإخلاص. وتعرض السورة آيات من الظواهر الكونية «للدلالة على وحدانيَّته ونِعَمه التي

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الشورى، ١٢: ٥٦٢، بتصرُّف.

(٢) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة غافر، ٦: ٥٢٨، بتصرُّف.

(٣) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة غافر، ص٣٤٠، بتصرُّف.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة غافر، ٢: ١٠٧، بتصرُّف.

تستوجب الشكر»[١]. وتوجيه النبيّ ﷺ لإعلان عدم ثنيه عن إيمانه القائم على البيِّنات وانتهاج إسلام الأمر لله. وتعرض السورة «ترهيب المجادِلين في آيات الله»[٢] والاكتفاء بالظواهر الكونية (وآثار الأمم السابقة) عن الآيات المادية[٣]. وتُختَم السورة بأنَّ سنَّة الله تقضي بأنَّه لا ينفع إيمان هؤلاء المشركين (الذين فضَّلوا معتقداتهم الوثنية على ما جاء به الرُّسُل من الله)[٤] عند رؤية العذاب.

▫ «**فُصِّلت**»: وفيها عرض تكامل عالَم الخلق مع رسالة القرآن (ممَّا يؤدِّي بطبيعة ذلك إلى انسجام المؤمنين في حياتهم وتناقُض عَيش المشركين). وتبدأ السورة بذكر إعراض المشركين عن القرآن رغم كونه عربيًا (وفق لسانهم)، ورَفضِهم الاستقامة والتكافل الاجتماعي (بالإنفاق على الضعفاء)[٥] رغم آيات الظواهر الكونية الدالة على وحدانية الله الخالق من جهة، وتاريخ إهلاك أقوام الأنبياء عند الكفر والاستكبار (بالقوة المادية وتقديم العمى على الهدى) من جهة أُخرى، وذكر عاقبة الذين آمنوا وأعداء الله في الدنيا والآخرة، مع توجيه النبيّ ﷺ بالإنذار بها. ثمَّ تعرض السورة محاولات «أئمة الكفر التشويش على القرآن للتعتيم الإعلامي لما فيه من تأثير على جماهير قومهم يُحرِّك قناعات مَن لا ولاء أعمى له»[٦] وجزاءهم (أسوأ الذي كانوا يعملون)، مقابل جزاء أصحاب الإيمان والاستقامة. والتوجيه بالدعوة إلى الله والعمل الصالح والتصريح بالانتماء إلى

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة غافر، ١٢: ٤٠٥، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة غافر، ١٢: ٣١٥، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة غافر، ١٢: ٤٢٤ ـ ٤٢٥، بتصرُّف.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة غافر، ٢: ١٠٧، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، سورة فصِّلت، ٢: ١١١، بتصرُّف.

(٦) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة فصِّلت، ١٢: ٤٩٩، بتصرُّف.

المسلمين[١]، والتعامل مع الظرف الراهن عبر: مقابلة السيئة بالتي هي أحسَن بصبر دون مَيل إلى الانتقام لتحويل العداوة إلى ولاية نصرة حميمة[٢]. ثمَّ عَرَضت السورة دلائل التوحيد والمعاد من الظواهر الكونية التي تدعو إلى الخضوع لله، وبيان عن مجد القرآن وغلَبته بالحجج والبراهين[٣]. وبيَّنت المسؤولية الفردية[٤] أنَّ مَن عمل صالحًا فلنفسه، وأنَّ مَن أساء فعليها. وخُتِمَت السورة بعرض طَبعٍ مُتَأصِّل في الإنسان يُشاهَد في واقعهم وهو «كفرهم بالله (بعدم الشكر على نعَمه وما تتطلَّبه من إيمان) في الوقت الذي يلتجئون فيه إلى الله عند النِّقَم لرفع الضرر، ممَّا جعلهم في شِقاق»[٥].

يظهر أنَّه رافق نزول السورة حضور الموسم (في نهاية السنة السابعة للبعثة) الذي يخرج فيه النبيّ ﷺ وقومه من الحصار كما سبق، ذلك أنَّ رسول الله ﷺ «لقِيَ أبا سفيان بن حرب وزوجه هند بنت عتبة وابنهما معاوية ـ الذي كان غلامًا[٦] حينها وكان يركب على حمارة ـ فقال أبو سفيان: انزل يا معاوية حتى يركب محمد. فلما سار أمامهما رسول الله ﷺ بعد أن ركبها هُنَيهة التفت إليهما فقال: يا أبا سفيان بن حرب، ويا هند بنت عتبة، والله لَتموتُنَّ ثم لَتُبعَثُنَّ، ثمَّ لَيَدخُلَنَّ المُحسِن الجنة والمُسيء النار، وإنَّ ما أقول لكم حقّ، وإنكم أول مَن أُنذِرتم [أي: بعد نزول السورة وخروجه المؤقَّت من الحصار]. ثم قرأ رسول الله ﷺ:

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة فصِّلت، ١٢: ٥٠٨، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة فصِّلت، ٢: ١١٥، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة فصِّلت، ١٢: ٥٢٣ـ ٥٢٤، بتصرُّف.

(٤) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة فصِّلت، ٢: ١١٦، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، سورة فصِّلت، ٢: ١١٣ ـ ١١٤، بتصرُّف.

(٦) وهذا يتناسب مع سنّ معاوية في العام السابع من البعثة، إذ إنَّه «وُلِد قبل البعثة بخمس سنين على الأشهر». ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، ذكر مَن اسمه معاوية، ٦: ١٢٠، برقم: ٨٠٨٧، بتصرُّف.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١١]. فقال له أبو سفيان: أفرغت يا محمد؟ قال: نعم. ونزل رسول الله ﷺ. فلما لامت هند أبا سفيان على إنزاله ابنها له، قال لها عن النبيّ ﷺ: والله ما هو بساحر ولا كذّاب»[١].

□ «**الشورى**»: وفيها عرض تماثل الوحي الإلهي من مالك السماوات والأرض إلى الأنبياء والمضمون المتّحد في أصل الرسالات. وتبدأ السورة بإظهار خضوع أهل السماء مقابل شرك فريق ممَّن في الأرض «يُحصي الله أفعالهم ليُجازيَهم عليها»[٢]، فليس النبيّ ﷺ وكيلاً عليهم «بقَسرِهم على الإيمان»[٣]، بل مهمَّته الإنذار لمكة ومَن حولها (باستكمال الدعوة في الأسواق عند المواسم). وتوجيه العلاقة بين المؤمنين والكفار بالاحتكام إلى الله («مرجعية وإظهارًا للحكم في وحيه»[٤] و«قضاء وفصلاً»[٥] بين الفريقَين) والاستدلال بكونه الخالق للناس (وذرياتهم) والمرجع في إرزاقهم[٦]. ثمَّ عرض أصل رسالات الأنبياء بإقامة الدين وعدم التفرُّق فيه. وتوجيه النبيّ ﷺ للتعامل مع المشركين ـ الرافضين لدعوته ـ بـ: الثبات على دعوته وفق الرسالات (للاتفاق عليها بعد استعراض الاختلافات الكثيرة التي

---

(١) الطبراني، **المعجم الأوسط**، ٦: ٣٦١، ح: ٦٦١٥. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وحميد بن منهب لم أعرفه وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسِّيَر، باب تبليغ النبي ﷺ ما أُرسل به وصبره على ذلك، ٦: ٢٠، ح: ٩٨٢٥، بتصرُّف.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة الشورى، ٢١: ٥٠٢، بتصرُّف.

(٣) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الشورى، ٢٧: ٥٨٠، بتصرُّف.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الشورى، ١٢: ٥٨٢، بتصرُّف.

(٥) الطبري، **جامع البيان**، سورة الشورى، ٢١: ٥٠٦، بتصرُّف.

(٦) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الشورى، ١٢: ٥٨٧، بتصرُّف.

لحقت دعاوى الأنبياء السابقين)[١]، مع الاستقامة، دون اتِّباع أهوائهم، مُعلنًا الإيمان بكل ما أنزل الله من كتاب (كمعيار موضوعي جامع للإيمان، وضابط لقَبول التعدّدية العَقَدية)، وأنَّ أوامر الله إلى الرسول ﷺ غايتها العدل في الحكم (في مقابلة ظلمهم)، وأنَّه يجمع المؤمنين والمشركين ربٌّ واحد هو الله، مقابل اختلاف أعمال كلِّ فريق منهما، وإبطال وجود حجج متبادلة بينهما على بعضهما (بسبب وجود شَكّ مريب[٢] في المشركين يمنع تحقُّق المحاججة) ممَّا يُبطِل الخصومة[٣]. مع الإعلام بأنَّ مجرَّد وجود مَن استجاب لدعوة النبيّ ﷺ للتوحيد هو ردّ على محاججات المشركين في التشكيك في الدعوة، وأنَّ الله أنزل الحقّ والعدل، وأنَّ يوم الجزاء قريب (يستعجله غير المؤمنين ويحذر منه المؤمنون) فكان من آثار لطف الله أن أعطى كلَّ فريق منهما ممَّا يبذل فيه جهده (الآخرة للمؤمن، والدنيا للمشرِك) فطمأن المؤمنين ولم يستعجل عقاب المشركين. وتعليم النبيّ ﷺ أن يطلب لأول مرة في سياق دعوته طلبًا دنيويًا من قريش بمراعاة قرابته منهم فيكفُّوا أذاهم[٤] (ولا سيَّما أنَّ أقرباءه من بني هاشم وبني المطَّلب لديهم قرابات أيضًا مع بطون قريش وهم مُحاصَرون معه

---

(١) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الشورى، ٢٧: ٥٨٩، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الشورى، ٢: ١٢١، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الشورى، ٧: ١٩٦، بتصرُّف.

(٤) الطبري، **جامع البيان**، سورة الشورى، ٢١: ٥٢٥، بتصرُّف. ورغم أنَّه ورد نزول قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣] ضمن روايات أُخرى كما في «مجمع الزوائد» تجعلها متوجِّهة إلى أهل المدينة، سواء في أول مقدم النبيّ ﷺ إليها أو ضمن خطابه ﷺ لهم بعد توزيع غنائم غزوة حنين، ولا تخلو من ضعف أو لين، إلا أنَّه ورد في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سُئِل عن قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش، إلا كان له فيهم قرابة، فقال: «إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة». **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾، ٤: ١٨١٩، ح: ٤٥٤١. فمراد ابن عباس رضي الله عنهما أن المقصود بالقُربى في الآية جميع قريش.

في الشِّعَب)، وبالمقابل، فإنَّ الله أنزل الغيث على قريش من بعد ما قنطوا[١] (من مصيبة جَفاف بما كسبت أيديهم وأظهَرَت عجزهم وعدم إمكانية هروبهم من عقاب الله)[٢]. وتعرض السورة فضائل من السلوك الإسلامي للحثّ على الالتزام بها، وهي: «الزهد في متاع الدنيا، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش (وتعلُّقاتها جنسية)، وتجاوز الذي يغضب عن مؤاخذة المُسيء إليه، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، واعتماد الشورى في شؤونهم، والإنفاق، والإذن (لأول مرة)[٣] للانتصار للنَّفس ممَّن بغى بشرط عدم التعدِّي مع ترجيح الترغيب في العفو والإصلاح والمغفرة والصبر»[٤]. وبعد عرض مشاهد القيامة

(١) قال ابن عاشور: «إذا صح أن آية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨] نزلت في انحباس المطر عن أهل مكة كما قال مقاتل بن سليمان تكون السورة نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة، ولعلَّ نزولها استمرَّ إلى سنة تسع بعد أن آمن نقباء الأنصار ليلة العقبة فقد قيل: إن قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أُريد به الأنصار قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة». ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، سورة الشورى، ٢٥: ٢٤، بتصرُّف. مع التحفُّظ على ذكر الأنصار في هذه المرحلة.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الشورى، ١٢: ٦٣٨ ـ ٦٣٩، بتصرُّف.

(٣) إنَّ هذا الموضع من سورة الشورى قد فتح لأول مرة نافذة على احتمال وإمكانية أن يقوم المؤمن بنفسه بالانتصار لنفسه إلى جانب الترغيب بخيار العفو والإصلاح والمغفرة والصبر كترجيح يترجَّح عليه. وذلك بعد أن كان قد تحدَّد العفو كخيارٍ أوحد (منذ سورة الأعراف وما بعدها) في الصبر على أذى الذين كفروا وفتنتهم (الذي سيُعاقبون عليه يوم القيامة كما ورد في سورة البروج). وبالتالي، فهذا الموضع يُمهِّد ـ مع قصة ذي القرنَين من سورة الكهف وذكر نوعيَّات أدنى من عذاب الآخرة في سورتَي الطور والسجدة (كما سيظهر في موضعه بإذن الله) ـ للمرحلة المدنية التي لا يكون عقاب الكافرين المعتدين فيها محصورًا في الآخرة.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الشورى، ١٢: ٦٤٠ـ ٦٤٩، بتصرُّف. ود. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الشورى، ٢: ١٢٥، بتصرُّف.

وعجز الظالمين عن الانتصار فيه، تطلب الآيات منهم أن يستجيبوا لله قبل أن يأتي هذا اليوم عليهم. وتلفت الآيات نظر مَن يُعرض عن هذا الطلب إلى الظواهر الكونية في مُلك الله الخالق الواهب. وتُختم السورة ببيان «الكيفية التي يوحي بها الله إلى أنبيائه وحصرها بين الوحي إلى الفؤاد أو إسماع الكلام أو عبر رسول من الملائكة. وإنَّه بالكيفية الأخيرة تعلَّم الرسول ﷺ الكتاب والإيمان ليهدي إلى صراط مستقيم»[1]، فكان وحيًا ممَّن ملك ما في السماوات وما في الأرض وإليه عاقبة الأمور.

في هذا الوقت، تُخبرنا الروايات أنَّ رسول الله ﷺ دعا على قريش لما غلبوه واستعصَوا عليه وقال: «اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف. فأخذتهم سنة، أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع. قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢]. فقيل له: إن كشفنا عنهم عادوا، فدعا ربَّه فكشف عنهم، فعادوا [إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية][2]، فانتقم الله منهم يوم بدر. فذلك قوله تعالى ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ إلى قوله جل ذكره ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٠ ـ ١٦]»[3].

وهذا قد يتناسب مع استخدام الإذن للانتصار للنَّفس ممَّن بغى كما ورد في سورة الشورى، ولكن بحدِّه الأدنى بالدعاء، مع عدم حصر المقصِد بالانتصار للنَّفس، بل للدين أيضًا. وهذا قد يؤيِّده ما ورد ضمن موضوعات سورة الزخرف التالية من كون الرفاهية هي من موانع الخضوع للإيمان من جهة، وأنَّ الأخذ بالعذاب كان يهدف ـ في قصة موسى عليه السلام ـ لعودة القوم عن الكفر من جهة أُخرى. هذا، وسيتمّ ذكر رفع العذاب في سورة الدخان التي تليها.

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الشورى، ١٢: ٦٦٣ـ ٦٦٨، بتصرُّف. ود. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الشورى، ٢: ١٢٥ ـ ١٢٦، بتصرُّف.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة حم الدخان، ٤: ١٨٢٣، ح: ٤٥٤٤.

(٣) المصدر نفسه، كتاب التفسير، سورة حم الدخان، ٤: ١٨٢٣، ح: ٤٥٤٥.

▫ «**الزخرف**»: وفيها الرَّدّ على «اعتراضات قريش على التوحيد»[١] والرَّدّ على مبرِّرات الاستهزاء بالدعوة بجعل «الانبهار بالمظاهر المادية»[٢] ورفاهيَّاتها معيارًا للأفضلية في الحكم بين حالة الرسول ﷺ وقومه. وتبدأ السورة بعرض «بيان القرآن ومنزلته الرفيعة»[٣]، والتحذير من وصول الكافرين إلى درجة «الإسراف المقتضية لأن يصرف الله عنهم تبليغ الآيات فيستحقوا عذابًا مشابهًا للأقوام السابقة»[٤]. واستعراض نِعَم الله في الظواهر الكونية المقتضية تنزيهه وإثبات المعاد. ولكنَّهم بالمقابل أشركوا بالله واعتقدوا ما يتناقض مع أعرافهم (بِنسبة البنات لله وهم أنفسهم يُفضِّلون البنين لأنَّهم يُنشَّؤون نشأة خشنة ويُستعان بهم في المخاصمات) «دون أن يكون لديهم دليل شهودي حسِّي على ذلك أو كتاب مُنزَل عليهم، بل محض تقليد من المترَفين لآبائهم»[٥] في تأكيد على ضابط قَبول التعدّدية العَقَدية، ثمَّ يُبرِّرون ذلك بقَدَر الله «دفعًا لما يترتَّب عليهم من مسؤولية»[٦]. ويكون موقفهم رفض دعوة الرسل ولو كانت أهدى من تقليد الآباء (دليل التعصُّب الأعمى منهم، مقابل الحوار الموضوعي من الرسل). وعرضت السورة «براءة إبراهيم عليه السلام من قومه المشركين وكونها وصية لذريَّته»[٧] (قريش والعرب)، وكون دعوة النبيّ ﷺ هي «تجديد لتعاليم إبراهيم عليه السلام»[٨]، ولكنَّ الكافرين (من أحفاد إبراهيم) برَّروا كفرهم بعدم

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الزخرف، ٢: ١٣٧، بتصرُّف.
(٢) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة الزخرف، ص٣٥٤، بتصرُّف.
(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الزخرف، ١٢: ٦٩٧، بتصرُّف.
(٤) المصدر نفسه، سورة الزخرف، ١٢: ٦٩٩، بتصرُّف.
(٥) المصدر نفسه، سورة الزخرف، ١٢: ٧١٣، بتصرُّف.
(٦) المصدر نفسه، سورة الزخرف، ١٢: ٧١٥، بتصرُّف.
(٧) المصدر نفسه، سورة الزخرف، ١٢: ٧٢٣، بتصرُّف.
(٨) المصدر نفسه، سورة الزخرف، ١٢: ٧٢٥، بتصرُّف.

وجود مظاهر مادية باهرة للرسول ﷺ. فكان الجواب الإلهي على ظاهرة اختلاف المظاهر بين الناس في الدنيا أنَّها من «رحمة عطاءات الله المادية والمعنوية حسب ما تقتضيه حكمته في تفاوت خصائص الناس ممَّا يضمن تبادل الخدمات وتكامل تأدية وظائف الحياة ومعايشهم»[(١)]. وهذا المتاع الدنيوي مُتاح للمؤمن والكافر ولكنَّ ثواب الآخرة للمتقين. وبيان أنَّ «مَن يكُفُّ بَصَر بصيرته عن تدبّر آيات الله يُهَيَّأ له شيطان يصدُّه عن سبيل الله في الوقت الذي يحسب نفسه مهتديًا ثمَّ يُصبح نادمًا يوم القيامة»[(٢)]. وبدأت التوجيهات إلى النبيّ ﷺ «بالتيئيس من ترقُّب استجابة الصُّمّ العُمي عن الحقّ المقتضي للانتقام الإلهي منهم وسؤالهم عن موقفهم من القرآن، وطلب الاستمساك بالوحي مع الاستشهاد بالرسل السابقين أن ليس في رسالاتهم إذنًا بعبادة آلهة من دون الله»[(٣)] (ويُمكن الاستشهاد بالمؤمنين بهؤلاء الرسل من أهل الكتاب بالتبعية؛ لأنَّ «الرسل دعَوهم إلى التوحيد ونهَوهم عن عبادة الأصنام والأنداد»[(٤)]). وعرضت السورة قصة موسى عليه السلام التي أهلك الله فيها المستهزِئين بالآيات والمبرِّرين لرفضها بالمظاهر المادية لسلطتهم الدنيوية والتي جعلت قوم فرعون بوسائله الإغرائية يُطيعونه فأصبحوا فاسقين «باتِّباع الهوى والخروج عن الفضائل»[(٥)]. والرَّدّ على شبهات جدالية حول المسيح عليه السلام[(٦)] والتحوُّل إلى الاستدلال به على اقتراب يوم القيامة. وإظهار عداوة الشيطان التي تصدُّ عن سبيل الله، وعداوة الأخِلَّاء (الأصدقاء

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الزخرف، ١٢: ٧٢٨ ـ ٧٢٩، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الزخرف، ١٢: ٧٣٣ ـ ٧٣٤، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة الزخرف، ١٢: ٧٤١، بتصرُّف.

(٤) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الزخرف، ٧: ٢٣٠، بتصرُّف.

(٥) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الزخرف، ١٢: ٧٥٥، بتصرُّف.

(٦) «قال رسول الله ﷺ لقريش: يا معشر قريش، إنه ليس أحد يُعبَد من دون الله فيه خير. وقد علِمَت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كان نبيًا وعبدًا من عباد الله صالحًا؟ فلئن كنت صادقًا فإنَّ آلهتهم لكما تقولون. فأنزل الله عز =

المتعاونين) لبعضهم بعضًا يوم القيامة إلا المتقين. وعَرْض مشاهد القيامة وما فيها من حقيقة نعيم للمؤمنين وعذاب للمجرمين. وبمقابلة التعصُّب الأعمى السابق في الحوار الموضوعي، يظهر بشكل قاطع عدم وجود تعصُّب أعمى في قضايا الإيمان عند إعلان «الاستعداد الافتراضي للرسول ﷺ لعبادة ولد الله إن كان له ولد في الواقع»[١] (وهو الأمر المستحيل في حقّ الله؛ لتنزيهه عنه) فكان ذلك دليلاً على كون الإيمان بالتوحيد والتنزيه (بنفي الولد عن الله) ينبع من تتبُّع لواقع نزل فيه وحي و«ليس عن قضية محض إنكارية»[٢] بتقليد أعمى لهذا القول، وهذا فارق ملموسة آثاره الاجتماعية بين تعصب المشرِك وإيمان المؤمن وفق كتاب مُنزَل، في تزكية لكون الكتاب المُنزَل ضابط التعدّدية العَقَدية المقبولة في المجتمع، كما يوضِّح ذلك سبباً إضافياً يُفسِّر ضيق أقوام الأنبياء بالمؤمنين والتعدِّي عليهم وإخراجهم (ومنهم موسى عليه السلام كما سيُعرَض أمر دعوته في السورة القادمة). وتُختَم السورة ببيان صفات الله «الإله الأوحد والحكيم والعليم وأنَّ الحُكم إليه وحده يوم القيامة مع وجود شفاعة للصادق العالم (غير المقلِّد)»[٣]. وعلى الرسول ﷺ أن يصفح عن غير المؤمنين «بالإعراض عن ذنوبهم وعدم مؤاخذتهم عليها»[٤].

= وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ٥: ٨٥ ـ ٨٦، ح: ٢٩١٨، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه أحمد وفيه عاصم بن بهدلة، وثّقه أحمد وغيره وهو سيِّئ الحفظ، وبقية رجاله رجال الصحيح. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، سورة الزخرف، ٧: ١٠٤، ح: ١١٣٣١.

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الزخرف، ١٢: ٧٨٢، بتصرُّف. وهذا فيه إلطاف من الكلام وحُسن الخطاب، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. الطبري، **جامع البيان**، سورة الزخرف، ٢١: ٦٥١، بتصرُّف.

(٢) **تفسير الشعراوي**، البقرة: ١١٦، ١: ٥٤٦، بتصرُّف.

(٣) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، سورة الزخرف، ١٢: ٧٨٤ـ ٧٨٦، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة الزخرف، ١٢: ٧٨٩، بتصرُّف.

◻ «**الدخان**»: وفيها «الإنذار بتعذيب المكذِّبين بالبعث، مع إتاحة الفرصة لهم بكشف العذاب قليلاً»[١]. وتبدأ السورة بذكر إنزال القرآن للإنذار من الرَّبّ الواحد المُحيي والمُميت. ولكنَّ موقف المستهزِئين بالمقابل كان بالشَّكّ فيه، فكان امتحان العذاب ثمَّ كشفه عنهم لما أعلنوا الاستعداد للإيمان، ولكنَّهم عادوا إلى كفرهم. واستدلَّت السورة بامتحانات قوم فرعون مع نبيِّهم موسى عليه السلام الذي استعصم بالله من إجرامهم ودعاهم لاعتزاله إن رفضوا الإيمان به (أي: دون أذيَّته ومحاولة قتله التي سبقت في سورة غافر. ممَّا يصُبُّ في أنَّ القرآن على لسان الرسل يدعو غير المسلمين للاعتراف بحرية المعتقَد دون التجريم عليها). فكانت النتيجة أن أمر الله موسى عليه السلام بالخروج من أرضهم ثمَّ تمَّ إهلاكهم (فكأنَّ اعتزال المؤمن البلاد بالهجرة من الأرض هو البديل المعتمَد عند عدم قيام المخالفين له في إيمانه من أهلها باعتزاله عبر احترام حرية المعتقد).

وخُتِمَت السورة ببيان إهلاك الله لقوم تُبَّع (وكانوا ملوك اليمن[٢]) مع عرض مشاهد القيامة (يوم الفَصل) ـ ردًّا على اعتراضاتهم على إمكانية البعث ـ حيث يُهان الأثيم (ولا يُغني المولى (السيد) عن مولاه (العبد) والعكس)[٣] ويُؤَمَّن المتقون، مع توجيه النبيّ ﷺ لارتقاب ما سيحدث.

◻ «**الجاثية**»: وفيها عرض دلائل التوحيد من المظاهر الكونية، مقابل تصرُّفات كل كذَّاب أثيم يُصرُّ مستكبِرًا، فسيُحاسَب وفق مبدأ العدل في أنَّه ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥][٤]، وتمَّ الاستشهاد بتطبيقاتها من واقع الرسالات السابقة. وعرض مشاهد القيامة حيث يُدخل الله في رحمته الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتكون

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الدخان، ٢: ١٤٥، بتصرُّف.

(٢) ممَّا يتناسب مع لحظ معهود المخاطبين الجدد بالقرآن، وهم مَن حول مكة من العرب.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الدخان، ٢: ١٤٢، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة الجاثية، ٢: ١٥١، بتصرُّف.

النار بعد الذُّلّ مأوى الذين كفروا واستكبَروا وكانوا مجرمين. وخُتِمَت السورة بإثبات الكبرياء لله وحده.

□ «**الأحقاف**»(١): وفيها إقرار وضعية إعراض الذين كفروا عمَّا أُنذروا دون أن يكون لهم الدليل على شركهم سواء أكان مُشاهَدًا من الظواهر الكونية أم منقولاً من علم الرسالات المنزَلة سابقًا (في إشارة لكونهم مُقلِّدين يُواجِهون أدلة الآيات الكونية والكتابية). وتُركِّز السورة على ركن النبوّة(٢) (بعد أن عالجت السور السابقة ركنَي التوحيد والمعاد مع الوحي في اتحاد رسالاته وانسجامها مع عالم الخلق). لذلك عرضت موقف قريش من النبيّ ﷺ باتِّهامه بافتراء القرآن، وتمَّ الاستدلال بشهادة تصديق بني إسرائيل على مِثل ما فيه أنَّه من الوحي(٣) (ممَّا يدعو إليه القرآن)، مقابل اتِّهامات الذين كفروا لتبرير عدم إيمانهم. وتعرض

(١) أعرضها كاملة هنا، عدا الآيات [٢٩ ـ ٣٢] التي نزلت بعد عودة النبي ﷺ من الطائف، فألحقتها في مرحلتها من السيرة.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الأحقاف، ٢: ١٥٧، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأحقاف، ٧: ٢٧٨، بتصرُّف. و«عن الشعبيّ، قال: إنَّ ناسًا يزعمون أن الشاهد على مثله: عبد الله بن سلام، وأنا أعلم بذلك، وإنما أسلم عبد الله بالمدينة، وقد أخبرني مسروق أن آل «حم» إنما نزلت بمكة، وإنما كانت محاجَّة رسول الله ﷺ لقومه، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني الفرقان ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [**الأحقاف**: ١٠] فمثل التوراة الفرقان، التوراة شهد عليها موسى، ومحمد على الفرقان صلى الله عليهما وسلم. . . [ثمَّ قال الطبري:] والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل، لأن قوله ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ في سياق توبيخ الله تعالى ذكره مشركي قريش، واحتجاجًا عليهم لنبيه ﷺ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها». الطبري، **جامع البيان**، سورة الأحقاف، ٢٢: ١٠٣ ـ ١٠٧، بتصرُف. «أما رواية البخاري أنَّها نزلت في عبد الله بن سلام فهي ليست نصًّا في السببية، بل إنَّ عبد الله بن سلام داخل في مضمونها شاهد على صدق القرآن». د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الأحقاف، ٧: ١٩٠، بتصرُّف.

السورة نموذجَين: بارًّا وعاقًّا لوالدَيه للتفرقة بين نوعَي تعامل الظالمين والمستقيمين ومصيرهما في الآخرة. كما تعرض السورة قصة قوم عاد الذين أنذرهم فكذَّبوه فأخذهم العذاب المُدمِّر رغم قوَّتهم ـ كما جحدوا بالآيات رغم أدوات إدراكهم ـ دون أن تنفعهم آلهتهم، كما تمَّ إهلاك ما حول مكة من القرى[١]. ويتمّ الاستدلال بخلق الله للسماوات والأرض على قدرته على إحياء الموتى ومحاسبة الذين كفروا. وتُختَم السورة بدعوة النبيّ ﷺ إلى الصبر دون استعجال نزول العذاب على قريش.

إنَّ مقاصد الآيات في هذه المرحلة تُؤَكِّد ما سبق ذكره أنَّها تعبير عن الإسلام لله، بعدم الاستجابة لهوى النَّفس التي لو تُرِك لها المجال لانتفَضت على واقع الظلم والاضطهاد غير الإنساني الذي مارسته قريش على بني هاشم وبني المطَّلب. ولكنَّها بالعكس، تُخاطب النبيّ ﷺ والمؤمنين بما يُخفِّف الخصومة ويُنهي مرحلة العداء مع قريش ويُساعد على تنمية دور مَن ليس في الحصار معهم، في الوقت الذي تُخاطب الآيات المشركين بقوة المنطق وحزم الحجج فجعلتهم محاصَرين متأهِّلين للمعاقبة (عكس الظروف الظاهرة)، ثمَّ تُثبِّت في كلِّ ذلك المؤمنين.

وفعلاً، تمَّت تنمية دور المحايد بشكل إيجابي. فبعد ثلاث سنوات من الحصار، «سَلَّط الله الأَرَضة على صحيفة قريش، فلم تَدَعْ فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته فيها ونَفَت منه الظلم والقطيعة والبهتان. فلما أخبر النبيُّ ﷺ عمَّه أبا طالب بهذا، ذهب أبو طالب إلى قريش فقال: يا معشر قريش إن ابن اخي أخبرني بكذا وكذا، فهلُمَّ صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن اخي فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عمَّا فيها، وإن يكن كاذبًا دفعت إليكم ابن أخي. فقال القوم: رضينا. فتعاقَدوا على ذلك ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شرًّا. عند ذلك، صنع رهط من قريش ما صنعوا في نقض الصحيفة»[٢]. فقد اتَّفق

(١) بعد انتهاء الحصار، وعند عودة النبي ﷺ من الطائف، ستُضاف بعد قصة عاد وهلاكهم، الآيات التي نزلت للحديث عن استجابة وفد الجن الذين استمعوا القرآن بإنصات ثمَّ تحوَّلوا إلى دعاة منذِرين.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، حديث نقض الصحيفة، ١: ٣٧٧، بتصرُّف.

خمسة من قريش لهم صلات رحم مع بني عبد المطَّلب[١]، على تكوين رأي عامّ عند الكعبة ضدَّ الصحيفة القاطعة الظالمة التي لم يرضَ بها الناس عندما كُتِبَت برضاً [حصريٍّ من] كبراء قريش[٢]. «ولبسوا السلاح، ثمَّ خرجوا إلى بني هاشم وبني المطَّلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، فلما رأت قريش ذلك سُقِط في أيديهم وعرفوا أن لن يُسلموهم»[٣].

خرج النبيُّ ﷺ من الشِّعب في بداية العام العاشر من البعثة، وكان عام حزن، لأنَّه «بعد خروج بني هاشم من الشِّعب بيسير»[٤] مات عمُّه أبو طالب وزوجه خديجة رضي الله عنها. «فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بموت خديجة ـ وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها ـ وبِهَلك عمّه أبي طالب ـ وكان له عضدًا وحِرزًا في أمره ومَنَعَة وناصرًا على قومه ـ وذلك قبل مُهاجَره إلى المدينة بثلاث سنين. فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب»[٥]. وقد نزلت في هذه المرحلة سورتَا الذاريات والغاشية[٦]:

□ «**الذاريات**»: وتبدأ بالقَسَم «بالظواهر الطبيعية لإبراز ـ من خلال انتظامِها وتعاقُبها ـ

---

(١) هم: هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية (ولم يُسلم منهم غيرهما بعد فتح مكة)، والمطعم بن عديّ (وقد مات قبل غزوة بدر)، وأبو البَختريّ بن هشام، وزمعة بن الأسود (وقد قُتِلا في غزوة بدر على الكفر).

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، حديث نقض الصحيفة، ١: ٣٧٦، بتصرُّف.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر حصر قريش رسول الله ﷺ وبني هاشم في الشِّعَب، ١: ٢١٠، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ذكر تسمية النساء المسلمات والمهاجرات من قريس والأنصاريات المبايعات، ٨: ١٨، بتصرُّف.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، وفاة أبي طالب وخديجة وما عاناه رسول الله ﷺ بعدهما، ١: ٤١٦، بتصرُّف.

(٦) هاتان السورتان (الذاريات والغاشية) اتُّفق على ترتيبهما بحسب لوائح ترتيب النزول (بعد سورة الأحقاف)، كما اتُّفق على مكيَّتهما في جميع لوائح تحديد المكي من المدني.

كونها آيات وعلامات على الحياة الأُخرى»[١] والحساب. وتعرض السورة حيرة قريش[٢] واستعجالها يوم الدين حيث سيُعذَّبون بمقابل نعيم المتقين. وتعرض السورة فضائل من السلوك الإسلامي للحثّ على الالتزام بها، وهي: الإحسان، وقلّة النوم للطاعة والاستغفار، وتَحَمُّلهم للمسؤولية الاجتماعية من خلال معرفة حقّ المحرومين في أموالهم. ثمَّ تنتقل السورة ـ بعد الاستدلال بالظواهر الطبيعية على البعث والحساب ـ إلى الاستدلال بقَصص الأنبياء (التي أهلك الله فيها قوم لوط، وفرعون، وعاد، وثمود، وقوم نوح) على ذلك. وتعرض السورة الفرار إلى الله وتوحيده كنتيجة حتمية ونجاة من الهلاك.

وخُتِمَت السورة بعرض اختلاف اتّهامات قريش للنبيّ ﷺ (بين سحر أو جنون كدليل على حيرتهم)، وتوجيهه للتولّي عنهم رافعة اللوم عنه، مع إبقاء التذكير لنفع المؤمنين (وتحقيق غاية العبودية لله الغني عن الجنّ والإنس)، مقابل توعُّد قريش بنصيب كنصيب الأقوام السابقة.

□ «**الغاشية**»: وفيها «أوصاف لمظاهر النعيم في الجنة والعذاب في النار، والاستدلال على ذلك بأوصاف من معهود العرب من أهل القبائل، وهي: الإبل والسماء والجبال والأرض المسخَّرة للراحة»[٣].

أوصلتنا مقاربة التعدّدية المجتمعية في المرحلة الثالثة إلى خطاب لم يختلِف في ضوابط قَبول التعدّدية العَقَدية، بل أكّدها في كثير من المواضع، وأعادها إلى ملّة إبراهيم عليه السلام أيضًا، وكانت مضامين الخطاب قريبة أيضًا من موروث المخاطَب. كذلك، تمَّ انتقاد الممارسات الثقافية الناتجة عن معتقد خاطئ لدى الأعراب، كما أظهرت لهم عدم الانتفاع بروابط العائلة في أمر الآخرة، وأظهرت أن التعدّي على المعتقَد تعقبها الهجرة إلى بلد حكمه عادل لإقامة الدين فيه بثبات عليه. هذا، وفي مرحلة الاضطهاد، توجّه الخطاب إلى الآخر المعتدي لتخفيف الخصومة مع الثبات على المعتَقَد.

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الذاريات، ٢: ١٩٥، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الذاريات، ٢: ١٩٥، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة الغاشية، ٢: ٢٠٠ ـ ٢٠١، بتصرُّف.

خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة:	الثالثة	الثالثة
	السور:	الأنعام، الصافات، لقمان، سبأ	الزمر + ٧ سور (من غافر إلى الأحقاف) + الذايات والغاشية
	الزمن:	٦ بعثة	٧ ـ ١٠ بعثة
	الأحداث:	الأمر للدعوة حول مكة	التوجيه للهجرة الثانية إلى الحبشة والحصار مع استمرار الدعوة في الأسواق وعام الأحزان
	الهدف:	دعوة الأفراد من القبائل العربية خارج مكة للإيمان	حماية المستضعَفين، وانتهاج ما يُنَمِّي أسباب انتهاء الكيد، وتثبيت المؤمنين، وإنذار الكافرين
الفعل	الموضوع	الاستشهاد بأهل الكتاب على أصول من الرسالات السماوية، وبالنبيّ إبراهيم على نبذ عبادة الكواكب، ونبذ عبادة الجنّ، أحكام الذبائح، انتقاد ممارسات دينية لا دليل عليها، الوصايا العشر (منهيات ومأمورات)، والإسلام لله، والرد على القُصَّاص الذين يُشغلون الناس باللهو الحديث للإضلال والاستهزاء، ووصايا لقمان (توجيهات دعوية)، الرّدّ على مقالات إنكار البعث للساعين في التضليل الإعلامي، ومآل الضعفاء المتبعين لمواقف المستكبرين في النار وتوجيههم لفكّ ارتباطهم بهم عبر دعوتهم للخلوة والتفكُّر الحرّ في واقع الدعوة، وتبرؤ الملائكة ممَّن عبدها.	الإخلاص لله والرّدّ على شبهات الشرك وضرب المثل المنطقي للتنفير منه، والمسؤولية الفردية، الهجرة لتحقيق الحرية والأمان، المقابلة بين الكافر والمؤمن في قضايا الحياة والآخرة والتعامل مع القرآن.
	الأسلوب	الإنذار، القَصص القرآني (تاريخ المخاطَبين)	الإنذار، القَصص القرآني
	الإطار	دعوة الأفراد الجهرية في الأسواق	دعوة الأفراد الجهرية في الأسواق (في الموسم عند فكّ الحصار زمنيًا)
	المخاطَب	أفراد من القبائل العربية خارج مكة	العشيرة (الأقربون) (حسب الهدف السابق) أفراد من القبائل العربية خارج مكة
	الضمانة	منعة قَبَلِيَّة	منعة قَبَلِيَّة

ردة الفعل	الاتجاه العام	التجاهل على مستوى الأفراد	محاولة اغتيال النبيّ ﷺ ثمَّ حصار قبيلته التي منعته
	الأسباب	تصديق التضليل الإعلامي لقريش	انتشار الدعوة
	الوسائل	التضليل الإعلامي مساومة قريش بطرد ضعاف المؤمنين لاستقطاب كبار الكافرين الاستهزاء بآيات الله طلب المعجزات	حصار اقتصادي واجتماعي على القبيلة رفض التكافل الاجتماعي استمرار التضليل الإعلامي
الاستجابة		رفض مساومات قريش بطرد ضعاف المؤمنين لاستقطاب كبار الكافرين مقاطعة مجالس المستهزئين لَمن يتأثَّر بكلامهم ويُتَّهم بالرضا عنه ولا يدعوهم الامتناع عن تقديم معجزات بسبب المعرفة بعدم إيمانهم لو حدثت (واستحقاقهم الهلاك حينها) عدم شتم آلهة المشركين كي لا يشتموا الله	التثبيت النفسي للنبيّ ﷺ بذكر قَصص الأنبياء السابقين الذين حاول أقوامهم اغتيالهم، والتوجيه لدور المسلم المتخفِّي في نصرة القضية وحرية المعتقَد، وتفويض الأمر إلى الله تعالى والصبر، والاكتفاء بالظواهر الكونية وآثار الأمم السابقة عن تقديم معجزات، وتكامل عالم الخَلق مع رسالة القرآن للدلالة على انسجام عيش المؤمنين في الحياة مقابل تناقض عيش المشركين، والتوجيه للدعوة إلى الله والعمل الصالح مع التصريح بالانتماء إلى المسلمين، ومقابلة السيئة بالتي هي أحسن لتحويل العداوة إلى ولاية نصرة حميمة، والمسؤولية الفردية، الثبات على الدعوة، والإيمان بالكتب السماوية، وإعلان عدالة الأوامر الإلهية للرَّبّ الواحد الذي يجمع الناس، واعتبار وجود المؤمنين دليل بطلان التشكيك في الدعوة، وطلب النبيّ ﷺ مراعاة القرابة بالمودّة، والوصايا العشر (فضائل من السلوك: الزهد والتجاوز عن المسيء والشورى وإمكانية الانتصار من الظالم بلا تعدٍّ مع ترجيح العفو)، والوحي، وإظهار أن متاع الدنيا وإسرافهم فيه هو سبب عدم الخضوع للإيمان وسبب خضوع أتباعهم لهم، والرَّدّ على معتقداتهم الفاسدة التي لا دليل لهم عليها، والبراءة من المشركين، والاستشهاد بأهل الكتاب على أصول من الرسالات السماوية، وإظهار التعصُّب الأعمى للكافرين مقابل انفتاح المؤمنين في اتباع الوحي والهدى، والهجرة عند التضييق على الحريات.

تميز مكوِّنات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي:	داخلي (ضمن المجتمع الواحد)	داخلي (ضمن المجتمع الواحد) - الكيد بمحاولة الاغتيال ثمَّ الحصار
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	المسلمون، الكافرون، الذين أوتوا الكتاب	المسلمون، الكافرون
	مظاهر الاختلاف فيها:	انتمائي، بيئي، مصدري	انتمائي، بيئي، مصدري
	التميز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	جعل ضعاف المؤمنين فتنة لكبار الكافرين	تميز موقف المحايد لدواعٍ اجتماعية عن موقف القادة السياسي وتصدِّيه له (بإنهاء الحصار)
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا:	قوة	ضعف
	حركة/ جمودًا:	حركة	جمود
	نوعًا/ عددًا:		هجرة لكثيرين



الفصل الرابع
البحث عن محضن بديل لتبليغ الدعوة

المبحث الأول: التحمُّل النفسي في مقاومة فتن الترغيب والترهيب

بعد الحصار وما تبعه من أحزان، وفقدان الحماية القَبَلية بوفاة أبي طالب وتسلُّم أبي لهب مكانه، «خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، ولكنَّهم رفضوا دعوته وفضحوا مجيئه إليهم عند قريش، وأغرَوا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ويصيحون به. فالتجأ رسول الله ﷺ إلى حائط [أي: بستان] لعُتبة وشَيبة ابنَي ربيعة [وهما من أسياد مكة] ودعا ربَّه قائلاً: اللَّهمّ إليك أشكو ضعف قوَّتي وقلَّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى مَن تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني [أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه] أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟[1] إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي، ولكن عافيتُك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصَلُح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزِل بي غضبك أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبى [أي: الرضى] حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك. فجاءه غلام نصراني ـ من قِبَل عُتبة وشَيبة ـ يحمل عنبًا له، فأكله النبيّ ﷺ بعد أن سمَّ الله تعالى، فاستغرب الغلام، فسأله النبيُّ ﷺ عن بلاده ودينه فبيَّن له أنَّه نصراني من نينوى [بالموصل]، فردَّ النبيُّ ﷺ عليه بأنَّها قرية الرجل الصالح يونس بن

---

(١) وفي رواية: «إلى عدو يتجهَّمني أم إلى قريب ملَّكته أمري؟». الطبراني، **المعجم الكبير**، ١٣: ٧٣، ح: ١٨١. قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلِّس ثقة، وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب خروج النبي ﷺ إلى الطائف، ٦: ٣٥، ح: ٩٨٥١.

متّى أخيه النبيّ، وأنَّه ﷺ أيضًا نبيّ، فأكبَّ الغلام يُقبِّل رأس النبيّ ﷺ ويدَيه وقدمَيه»[١].

لقد كان هذا أصعب موقف على النبيّ ﷺ كما قال بنفسه لزوجه عائشة رضي الله عنها فيما بعد حين سألَتْه: «هل أتى عليك يوم أشدّ من يوم أُحُد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال [في ثقيف]، فلم يُجبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني مَلَك الجبال فسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد، إن شئت أُطبق عليهم الأخشبَين [وهما جبلان]؟ فقال النبيُّ ﷺ: بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئًا»[٢].

وحين «انصرف النبيُّ ﷺ راجعًا إلى مكة، قام من جوف الليلة بنخلة يُصلِّي، فمرَّ به نفر من الجنّ من أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم مُنذِرين. فقصَّ الله خبَرهم فيما نزل من **آيات سورة الأحقاف**»[٣] [٢٩ ـ ٣٢].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، سعي الرسول ﷺ إلى الطائف وموقف ثقيف منه، ١: ٤١٩ـ ٤٢٢، بتصرُّف. «إنَّ رحلة الطائف وما تخلَّلها من ردٍّ شديد على النبي ﷺ بشدةٍ أمرٌ ثابت بدلالة الرواية التالية الصحيحة عن ذكراها في نفسه ﷺ، ولكنَّ روايات تفاصيل تلك الرحلة (الدعاء واللقاء بعدَّاس) لم تثبت من طريق صحيحة، بل هي مراسيل». د. أكرم العمري، **صحيح السيرة النبوية**، ١: ١٨٦، بتصرُّف.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين ـ والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى ـ غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه، ٣: ١١٨٠، ح: ٣٠٥٩، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، سعي الرسول ﷺ إلى الطائف وموقف ثقيف منه، ١: ٤٢٢، بتصرُّف. وقد حدَّدتها من الآيات [٢٩ ـ ٣٢] ليكتمل سياق موضوع الإنذار الوارد في بداية قصَّتهم. د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الأحقاف، ٧: ١٨ ـ ٢١٩، بتصرُّف. علمًا أنَّ ابن هشام قصرها على الآيات [٢٩ ـ ٣١].

وقد «قدم رسول الله ﷺ مكة [بعد هذا الموقف] حيث كان قومه أشدّ عليه من خلافه وفراق دينه، فانصرف إلى غار حراء وأرسل إلى المُطْعِم بن عدي [أحد الخمسة الذين عملوا ضدّ صحيفة المقاطعة] ليُجيره حتى يُبلِّغ رسالات ربِّه، فرضيَ»(١).

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ هدفًا جديدًا أُضيف في الدعوة بعد وفاة أبي طالب هو البحث عن الحليف الحامي للدعوة، كما أنَّ النبيّ ﷺ قد عبَّر عن أسمى درجات الإسلام المطلَق لله رغم كلِّ ما جرى له.

وكما استمرَّت الدعوة أثناء سنوات الحصار الثلاث في المواسم فقط، فقد استمرَّت بعدها. ففي موسم السنة العاشرة عاد النبيُّ ﷺ للدعوة في المواسم والأسواق، «مُتَّخِذًا استراتيجية جديدة. فبدلاً من دعوة النَّاس إلى الإيمان بالله والبعث وترك عبادة الأصنام... جهارًا وبشكل جماعي [كما ظهر من روايات سابقة]، أخذ في عقد لقاءات مباشرة مع وفود القبائل، بصحبة أبي بكر الصديق ﷺ الذي كان خبيرًا بالشؤون القَبلية في الجزيرة العربية. وكان التركيز هذه المرة أيضًا على البحث عن قبيلة تُؤويه وتتبنَّى دعوته وتتحالف معه»(٢) كما يظهر بوضوح في روايات أُخرى تعود لاتصاله بالقبائل. وهذا يؤكِّد وجود هدفَين منفصلَين في زمنَين مختلفَين للاتصال بين القبائل، فالأُولى - قبل وفاة أبي طالب - كانت دعوة عامة بعد الإعراض عن مشركي مكة، والثانية - بعد وفاة أبي طالب وتسلُّم أبي لهب مكانه - أصبحت مطلب إيواء مع احتضان للدعوة. وإلى هذا أشارت إحدى الروايات أنَّه ﷺ بعد أن «أفسد الله صحيفة مكر (قريش)...، خرج وأصحابه فعاشوا وخالطوا الناس، ورسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على القبائل... لا يسألهم مع ذلك إلا أن يُؤووه ويمنعوه، ويقول: لا أُكره منكم أحدًا على شيء، مَن رضي الذي أدعو إليه قَبِله، ومَن

---

(١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٣٤٧، بتصرُّف. وسيحفظ له النبي ﷺ فِعله كما سيأتي بعد غزوة بدر، ص٤٠١.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٢: ١٨٦، بتصرُّف.

كَرِهه لم أُكرهه، إنما أُريد أن تحوزوني [أي: تأخذوني] مما يُراد بي من القتل، فتحوزوني حتى أُبلِّغ رسالات ربّي، ويقضي الله لي ولمَن صحبني بما شاء»[١].

ولكن، تُطالعنا الروايات أنَّ النبيّ ﷺ أتى العديد من القبائل ودعاهم وعرض نفسه عليهم، إلا أنَّه لم يستجِب منهم أحد[٢] لأسباب التشويه الإعلامي وللاعتبارات نفسها التي رفضت الإسلام لأجلها قريش.

بالمقابل ظهرت استجابات فردية من بعض القبائل. فقد «قَدم أبو الحَيْسَر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب. ثمَّ ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ (وكان غلامًا حَدَثًا صغيرًا): أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحَيسَر حفنة من تراب فضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك، فلَعمري لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكان وقعة بعاث[٣] بين الأوس والخزرج. ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك وكان يُهلِّل الله تعالى ويُكبِّره ويحمده ويُسبِّحه حتى مات، فما كانوا يشكُّون أن قد مات مسلمًا»[٤].

---

(١) الأصبهاني، **دلائل النبوة**، ما رُوِيَ في عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، ١: ٢٩٥، ح: ٢٢١، بتصرُّف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، ٢: ٤١٤، بتصرُّف.

(٢) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص١٢٢ ـ ١٢٣، بتصرُّف.

(٣) «كانت «وقعة بعاث قبل الهجرة بثلاث سنين. وهو المعتَمَد، وهو أصح من قول ابن عبد البر في ترجمة زيد بن ثابت أنَّها كانت قبل هجرة رسول الله ﷺ بخمس سنين». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب الحراب والدرق يوم العيد، ٢: ٤٤١، ح: ٩٠٧، بتصرُّف.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، إسلام إياس بن معاذ وقصة أبي الحَيسَر، ١: ٤٢٧ ـ ٤٢٨، بتصرُّف. و«إسناد الرواية حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٩٦، بتصرُّف.

كذلك أسلم في هذا الموسم [أي: بعد عودة النبيّ ﷺ من الطائف] الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوسي[١] سيِّد دَوس التي كانت تقطن جنوب الحجاز من الجزيرة العربية «على إحدى السروات المطلَّة على [المنطقة الساحلية] تهامة»[٢]. كما أسلم ضِماد[٣] وهو من «أَزْدِ شَنُوءَة التي أقامت في تهامة»[٤] من الجزيرة العربية، وأسلم أبو ذرّ الغفاري من قبيلة غفار التي هي «على طريق الشام»[٥] في هذا الموسم أيضًا[٦].

وقد نزلت في هذه المرحلة سورة الكهف، وفيها التمهيد للهجرة للحفاظ على الدين، والتثبيت في مقاومة فتن الترغيب، مع دلالات الإيمان باليوم الآخر:

□ «**الكهف**»[٧]: وفيها «العواصم من الفتن»[٨]. وتبدأ بذكر مهمّة الإنذار للقرآن موجِّهة النبيَّ ﷺ لعدم إهلاك نفسه حُزنًا على عدم إيمانهم، وعارِضة امتحان الله للناس في هذه الحياة الدنيا ومآلاتها الفانية. ثمَّ تعرض السورة قصة أصحاب الكهف الموحِّدين ـ طالبي الرحمة والرَّشَد ـ الذين لجؤوا إلى كهف يأويهم هربًا من اضطهاد قومهم لهم (الفتنة في

---

(١) ابن عبد البر يوسف القرطبي النميري، **الدرر في اختصار المغازي والسِّيَر**، إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، ص٦٤، بتصرُّف.

(٢) د. شوقي أبو خليل، **أطلس السيرة النبوية**، ص٦٥، بتصرُّف. ود. شوقي أبو خليل، **أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح الستة**، ص١٧٥.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٢: ٥٩٣، ح: ٨٦٨.

(٤) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٥١، بتصرُّف.

(٥) د. شوقي أبو خليل، **أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح الستة**، ص٢٨٨.

(٦) شاه أكبر خان نجيب آبادي، «تاريخ إسلام»، مكتبة رحمت ديوبند يوبي الهند، ١: ١٢٨، نقلاً عن: صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص١٢٤، بتصرُّف.

(٧) هذه السورة (الكهف) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول (بعد سورة الغاشية)، كما اتُّفق على مكيَّتها في جميع لوائح تحديد المكي من المدني.

(٨) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة الكهف، ص٢٢٣، بتصرُّف. ود. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الكهف، ٤: ٢٨٧، بتصرُّف.

الدين: الجانب العَقَدي) فناموا حتى بعثهم الله بعد سنين طويلة، فكانت القصة دليلاً على رعاية الله للمؤمنين، وتوجيهًا للهجرة من بلاد الاضطهاد، ودليلاً على أنَّ البعث حقّ. ووجَّهت السورة النبيَّ ﷺ للصبر وعدم إطاعة الكافرين (الغافلين متَّبعي أهوائهم) بطرد المؤمنين، وعَرَضت مشاهد القيامة حيث عذاب الظالمين وتنعُّم المؤمنين. كما ضربت السورة مثالَين لبيان فناء زينة الدنيا وبقاء الصالحات (الفتنة في المال: الجانب الطَبَقي). وعرضت السورة قصة فِسق إبليس بمعصيته لله عند رفضه السجود لآدم عليه السلام وكان دافعه كونه من الجنّ (فتنة عصبية الانتماء (الجانب العرقي/ القَبلي)). وتُقرِّر السورة أنَّه «لا شيء يُمكن أن ينتظره المشركون بعد أن جاءهم القرآن إلا الهلاك في الدنيا (وهو **سُنَّة الأولين**) أو العذاب يوم القيامة برؤيته عيانًا»[1]. ثمَّ جاءت قصة موسى عليه السلام مع الخضر التي أبانت أنَّ بواطن الأمور قد تكون عكس ظواهرها (الفتنة في العلم: الجانب الثقافي) وأنَّ «الشَّرّ القليل قد يكون أمامه خير أكبر»[2]. ثمَّ تعرض السورة قصة ذي القرنَين الذي مكَّن الله له في الأرض (الفتنة في السلطة: الجانب السياسي) فكان حكمه في البلاد - التي غزاها - حكم عدل بتعذيبه الظالم في الدنيا (قبل عذاب الله له في الآخرة) وتيسير أمور المؤمن الصالح، ومساعدته في منع تعدِّي قوم يأجوج ومأجوج على غيرهم.

وخُتِمَت السورة بعرض مشاهد القيامة بعذاب الذين كفروا بآيات الله ولقائه (ولا وزن لهم) مقابل نعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات. مع توجيه النبيّ ﷺ للدعوة للعمل الصالح مع التوحيد بما يُحقِّق للإنسان رجاءه «بالثواب والجزاء الصالح»[3] عند لقاء الله.

اجتمعت قريش [ربَّما لعدم قدرة كفِّ النبيّ ﷺ (بعد انتهاء الحصار) عن الدعوة، خاصة للعرب خارج مكة] فقالوا: انظروا أعلَمَكم بالسحر والكهانة والشعر فليأتِ هذا الرجل الذي فرَّق جماعتنا وشتَّت أمرنا وعاب ديننا فليُكلِّمه فلينظر ماذا يردُّ عليه. فأتاه عُتبة بن ربيعة

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الكهف، ٢: ٢١٢، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الكهف، ٢: ٢١٩، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الكهف، ٥: ٢٠٥، بتصرُّف.

فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله [أبوه]؟ فسكت. ثمَّ قال: أنت خير أم عبد المطلب [جدّه]؟ فسكت. قال: فإن كنت تزعم أنَّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبتها، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلَّم حتى نسمع قولك، ما رأينا سَخلة قَطّ [أي: مَولودًا جديدًا، وأصله من ولد المعز والضأن حين يولد] أشأم على قومك منك، فرَّقت جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أنَّ في قريش ساحرًا وأنَّ في قريش كاهنًا. والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحُبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل، إن كان إنما بك الباءة [أي: الزواج، ممَّا قد يتناسب مع وفاة زوجه خديجة ﵂] فاختَر أيَّ نساء قريش فلنُزوِّجك عشرًا، و[إن كنت إنما تُريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تُريد به شَرَفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك [ممَّا قد يتناسب مع وفاة أبي طالب زعيم بني هاشم (وبني المطَّلب) بوجاهَته وهَيبته في قريش]، وإن كنت تُريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطِّبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه][(1)].

فقال رسول الله ﷺ: فرغت؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ حتى قرأ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١٣]. فقال له عُتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: لا. فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تُكلِّمونه إلّا وقد كلَّمته [أي: أنَّ خطاب نادي قريش للنبيّ ﷺ بالترغيب بعد نفاد الترهيب أصبح رأيًا عامًّا بينهم]. قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم. قال: لا، والذي نصبها بَنِيَّة [أي: الكعبة]، ما فهمت شيئًا ممَّا قال غير أنه قال: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك، يُكلِّمك رجل بالعربية لا تدري ما قال؟ قال: لا والله ما فهمت شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة»[(2)]. وقال لهم عُتبة أيضًا: «يا معشر قريش أطيعوني

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عتبة بن ربيعة يُفاوض الرسول ﷺ، ١: ٢٩٣ ـ ٢٩٤، بتصرُّف.

(٢) الأصبهاني، **دلائل النبوة**، ذكر أخذ القرآن ورؤية النبي ﷺ بالقلوب، ١: ٢٣٠، ح: ١٨٢، بتصرُّف.

واجعلوها بي وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه مُلككم وعزُّه عزُّكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم»(١).

إنَّ هذه الرواية التي حاولت فيها قريش إنهاء الدعوة بالترغيب بعد الترهيب، قد تضمَّنت بندًا هامًّا هو مكمن التفاوض، وهو: منع النبيّ ﷺ من نشر الدعوة بين العرب. وهذا هو بالذات سيكون سبب التدافع القادم بين المسلمين وقريش خصوصًا في العهد المدني.



(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عتبة بن ربيعة يُفاوض الرسول ﷺ، ١: ١٧٠ ـ ١٧١، بتصرُّف. ولكن «لم يثبت بطريق صحيحة هذا العرض من الرئاسة والمال والزواج والتطبب، بل هناك ضعف في الرواية». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٦٢، بتصرُّف. ولكن، لا بأس من الأخذ بالضعيف عندما لا نجد غيره من الروايات القوية فيما سوى ما له أثر في العقائد أو التشريع». المصدر نفسه، ١: ٦٩، بتصرُّف. كما أنَّ «الضعف لا يعني نفي وقوع الأمر تاريخيًا، بل عدم ثبوته فقط، وما أكثر الأحداث التاريخية التي وقعت ثم لا يمكن إقامة الأدلة الصحيحة عليها». المصدر نفسه، ١: ١٦٢ ـ ١٦٣، بتصرُّف.

المبحث الثاني: ميراث الدعوة بالحرية

يتمّ التعاطي ـ في مرحلة ما بعد الحصار ـ مع قريش (بدعوتها والرَّدّ على شُبُهاتها والترقِّي بالمؤمنين مع التمهيد للهجرة من مكة وما يستتبعه من هلاك القوم)، ومع العرب في الأسواق (بدعوتهم في موسم العام الحادي عشر من البعثة قبل استجابة وفد يثرب والترقِّي بهم)، ومع أهل يثرب بتأهيل المدينة للانتقال إليها.

تتكامل بداية سبع سور تعرض التوحيد والبعث بالاستدلال بنِعَم الله، وتردُّ على شبهات قريش (في الأسواق) وتُسقط مذاهبهم الوثنية بالحجج المنطقية، وتعرض معيارًا وجدانيًا (خوف، ووجل، وشفقة، ورغبة، ورهبة. . . .) مع الإيمان والعمل الصالح كشرط للنجاة، مع ذكر لمفهوم إسكان ورثة الأرض بعد الظالمين، واهتمام بالعامل الأُسري (نواة المجتمع البديل) بشكل ملحوظ. وهذه السور السبع ـ تتخلَّلها سورة الرعد ـ وهي[1]:

---

(١) هذه السور جميعها (أي: النحل ونوح وإبراهيم والأنبياء والمؤمنون والسجدة والطور) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الثلاث (البيهقي، وابن الضريس، والزهري) ضمن السور المكية. ورواية أبي عمرو الداني فقد جعلت ترتيبها (إبراهيم والأنبياء والنحل والسجدة ونوح والطور والمؤمنون). وبالتالي، فقد اتفقت جميع روايات ترتيب النزول على مكانها كمجموعة من سبع سور مع الاختلاف في رواية على ترتيبها فيما بينها. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد ذهب الحارث المحاسبي، وابن الأنباري إلى اعتبار سورة النحل ضمن السور المدنية، وذلك خلافًا لجميع راويات الترتيب وبقية روايات تحديد المكي من المدني (أبي عبيد وأبي جعفر النحاس). مع العلم أنَّها «مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة النحل، ١٠: ٦٥. علمًا أنَّ النبي ﷺ كان يستشهد بعدد من آياتها ضمن خطابه في دعوة القبائل لنصرته. الأصبهاني، **دلائل النبوة**، ما رُوِيَ في عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، ١: ٢٩٩، ح: ٢٢٤، بتصرُّف. ووردت روايات في شأن الآية ١١٠ منها وخواتيم السورة أنَّها نزلت بعد الهجرة بعد أُحد وعند فتح مكة، وقد أثبتُّها في أماكنها اللاحقة من السيرة.

□ **النحل**[١]: وفيها الاستدلال بنِعَم الله على عباده ـ فيما سخَّر لهم ـ على الإنذار بالوحي لتوحيد الله والتقوى. وفيها الرَّدّ على شبهات المشركين المُضلِّين لغَيرهم وعرض مشاهد من القيامة لتوعُّدهم مقابل جزاء المتقين، مع الاستدلال بأهل الكتاب (على كون الرسل رجالاً وليسوا من الملائكة) وضرب الأمثال للرَّدّ على شبهاتهم. كما عَرَضَت السورة من ممارساتهم الاجتماعية الخاطئة في الأُسَر (برفض ولادة البنات ووأدِهِنَّ). وعَرَضَت أمر الله بالعدل والإحسان والوفاء بالعهد وعدم نقض الأَيْمان إلا في حالات الإكراه[٢]. وذكرت السورة إبراهيم عليه السلام (جَدّ العرب) غير المشرك والشاكر لأَنعُم الله، وكون النبيّ ﷺ مُتَّبِعًا مِلَّته.

وخُتِمَت السورة بتوجيه النبي ﷺ للدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

□ «**نوح**»: وفيها عرض قصة نوح عليه السلام في إنذاره قومه (للعبادة والتقوى والطاعة لتحقيق مغفرة الله)، وذلك بشتى الطرق والوسائل والظروف (ليلاً ونهارًا، جهارًا وإعلانًا وإسرارًا) مع ترغيبهم بدوافع دنيوية لتحصيل نِعَمه (المطر، والأموال، والبنين، والبساتين، والأنهار)، والاستدلال بالظواهر الكونية على تحقُّق البعث. ولكن كانت النتيجة عدم استجابتهم وفرارهم وإصرارهم على رفض الدعوة واستكبارهم، فعصَوا رسولهم ومكروا وحرَّضوا النَّاس على عدم ترك عبادة الأوثان (مما يتناسب مع موقف قريش من الدعوة في الأسواق). فعَرَض شكواه لله منهم ودعا عليهم بالهلاك بخطيئاتهم كي لا يُضِلُّوا عباد الله، كما دعا بالمغفرة له ولوالديه ولمَن دخل بيته (توجُّه أُسَري) وللمؤمنين والمؤمنات.

---

(١) أعرضها كاملة هنا، ما عدا الآيات التي نزلت في العهد المدني (بعد أُحد وبعد فتح مكة).

(٢) ورد أنَّ قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] «نزلت في عمار ابن ياسر رضي الله عنهما، والرواية مرسلة». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٥٦ـ ١٥٧، بتصرُّف. هذا، وسيتم توجيه مَن أُكرِه وفُتِن إلى الهجرة والجهاد والصبر كسبيل لتوبتهم، عند نزول الآية (١١٠) من سورة النحل في مرحلتها المدنية (بعد صدر سورة النساء).

□ «**إبراهيم**»: وفيها عَرْض توجيه الوحي للنبيّ ﷺ (كما لموسى عليه السلام قبله) لإخراج الناس (قوم موسى) من الظلمات إلى النور (أي: «من الضلال والغي إلى الهدى والرشد»[1] من جهة، ومن «وضعية مادية»[2] حيث البلاء بالتعذيب للنجاة منها من جهة أُخرى)، مع طلب الشكر على ذلك. وفي ذلك تمهيد مباشر لمعنى الهجرة بالمستضعفين من مكة المشابِهة لما حدث مع موسى عليه السلام وقومه الذين خرجوا من مصر. وعَرْض قَصص أقوام الأنبياء الذين كفروا بهم وشكّكوا الناس فيهم ونشروا الشبهات وهدَّدوهم بإخراجهم من بلادهم (كتلازم بين النَّفي وحرية المعتقد!)، وكانت النهاية بخيبة كل جبار عنيد في الدنيا والآخرة وسَكَن المؤمنين الأرض من بعدهم. وتمَّ عرض مشاهد القيامة حيث يتخلَّى المستكبرون من الكافرين عن أتباعهم الضعفاء، كما سيتخلَّى عنهم جميعًا الشيطان، في مقابلة جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات السلام. وبعد توعُّد الظالمين تمَّ توجيه الذين آمنوا إلى إقامة الصلاة والإنفاق. وعَرَضَت السورة دعاء إبراهيم عليه السلام لما أسكن من ذريَّته بمكة (توجُّه أُسري) بأن يكون بَلَدًا آمنًا ويجتنب بَنُوهُ عبادة الأصنام، وإعلانه أنَّ مَن تبعه على التوحيد فهو منه، وتفويض أمر العصاة منهم إلى مغفرة الله ورحمته (لترغيبهم باستمرار فتح باب التوبة لهم، وهذا ضابط في التعامل مع المشرِك ولو خرج من التعدّدية العَقَدية المقبولة).

وخُتِمَت السورة بتوعُّد الظالمين بتأخيرهم إلى عذاب يوم القيامة بعد أن مكروا مكرهم في الدنيا، وتأكيد صدق وعد الله لرسله (في الدنيا بإهلاك الظالمين، وبالبعث في الآخرة للجزاء للظالمين والمؤمنين، كما يتبيَّن من وعود سور المراحل السابقة، وسيُضاف إلى الوعد نجاة المؤمنين في الدنيا كما سيتبيَّن في السورة القادمة).

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة إبراهيم، ٤: ٤٧٦، بتصرُّف.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة إبراهيم، ٢: ٢٤٦ ـ ٢٤٧، بتصرُّف.

□ «**الأنبياء**»: وفيها بيان اقتراب حساب المعرضين عن ذكر ربّهم، والرَّدّ على شبهاتهم (مع الاستدلال بأهل الكتاب على بشرية الرسل)، والوعد بنجاة الرسل ومَن شاء الله معهم، وإهلاك المسرِفين. والتحوُّل من الرَّدّ على الشبهات إلى إسقاط مذاهبهم الوثنية التي لا دليل لهم عليها (مقابل دليل النبيّ ﷺ على التوحيد من القرآن والكتب السابقة) وإقرار واقع أنَّ أكثر الوثنيين لا يعلمون الحقّ فكان جهلهم سبب إعراضهم. وتمَّ الاستدلال على توحيد الله تعالى من خلال نِعَمه، مقابل واقع استهزائهم بالدعوة واستعجالهم لتحقُّق ما تُنذر به، مع أنَّهم لا يملكون ردَّه ولن يُمكنهم تأخيره حينها. وفي هذا تعلُّق بسُنَّة سورة الكهف (أنه لا شيء يُمكن أن تنتظره قريش سوى العذاب)، والاستدلال بقَصص إهلاك الأقوام السابقة (التي حول قريش)[1] كدليل على ذلك. ونجاة الرسل فيها ـ من كيد أقوامهم ـ إلى أرض جديدة مباركة، وهِبَة الأولاد الصالحين (توجُّه أُسري)، واستجابة كشف الضُّرّ عنهم وإدخالهم في رحمة الله، ومنهم إبراهيم عليه السلام الفتى الرَّشيد (استدلالاً به كأبٍ للعرب، وتوجيهًا إلى الاهتمام بشريحة الشباب في دعوتهم، وهي التي ستُثمر بوفد يثرب الشابّ)، مع التوجيه الضمني في قَصصهم إلى التقوى والصلاح وفعل الخيرات (مع المسارعة فيها) والصلاة والزكاة والعبادة والإيمان والدعاء رغبًا ورهبًا بخشوع. وتُختم القَصص بإعلان وحدة الانتماء إلى هذه الأمة العابدة لله [الكيان الجامع بعيدًا عن العرقيات أو الطبقيات]، مقابل «اختلاف مواقف أقوامهم منهم وتفرُّقهم في دينهم بين مُحقِّق لمعيار القَبول بعمله الصالحات بإيمان وبين مَن أهلكه الله»[2]. وتنتقل الآيات إلى عَرْض مشاهد القيامة.

---

(١) ورد في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، أنَّها في «ظهور الإسلام على الشرك». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنبياء، ٥: ٣٤٥، بتصرُّف.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنبياء، ١٨: ٥٢٤، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنبياء، ٥: ٣٧٢، بتصرُّف.

وتُختَم السورة بمبدأ: وراثة الصالحين للأرض الذي كتبه الله في الزبور بعد الذكر (كمبدأ مشترك مع أهل الكتاب)، وهو ضابط في التعدّدية السياسية.

□ «**المؤمنون**»: وفيها عرض صفات المؤمنين: خشوع في الصلاة مع المحافظة عليها، وإعراض عن اللغو، والزكاة، وحِفظ الأعراض (توجُّه أُسري)، ورعاية الأمانات والعهد، وأنَّ مآلهم هو وراثة الفردوس في الجنة (كمقابل لخاتمة السورة السابقة في وراثة الأرض في الدنيا). وعَرْض قدرة الله ونِعَمه على الإنسان للدلالة على البعث. وعَرْض قَصص الأنبياء للاستدلال بها على رفضهم التوحيد وشبهاتهم (بسبب التكذيب بالآخرة والترف في الدنيا بالاستخدام الخاطئ لِنِعَم الله) قبل نجاة الرسل منهم، ودعوة نوح عليه السلام للانتقال إلى منزل مبارك (بديل)، كما إيواء الله المسيح عليه السلام وأمّه إلى ربوة ذات قرارٍ ومَعين ماء. وتُختم القَصص بإعلان وحدة الانتماء إلى هذه الأمة المتقية لله، مقابل اختلاف مواقف أقوامهم منهم وتفرُّقهم في دينهم بين متروك لتعصُّبه[1] على ما عنده حتى حين (وتتمّ المسارعة له في الخيرات في الدنيا)، وبين مُحقّق لمعيار القَبول بخشية الله والإيمان بآياته وارتباط أعمالهم باستشعار الخوف من جزاء الآخرة (فأولئك هم الذين يُسارعون في الخيرات).

وتنتقل السورة للحديث للاستدلال بموقف المترَفين من العذاب (الضُّرّ الذي نزل بقُرَيش أيام الحصار)[2] ولم يستطيعوا رفعه كدليل على عجزهم عن دفع عذاب الآخرة

(١) «كل فريق من تلك الأمم، بما اختاروه لأنفسهم من الدين والكتب، فرحون معجبون به، لا يرون أن الحقّ سواه». الطبري، **جامع البيان**، سورة المؤمنون، ١٩: ٤٢، بتصرُّف.

(٢) يُراجع التعقيب على سورة الشورى ص٢٨٥. كما وردت رواية محدَّدة في أسباب النزول عن الآية المقصودة وهي: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، وفيها أنَّ «أبا سفيان أتى رسول الله ﷺ وقال له: يا محمد، ننشدك الله والرحم، لقد أكلنا العِلْهِز، يعني: الوبر بالدم». المصدر نفسه، سورة المؤمنون، ١٩: ٦٠، بتصرُّف.

وأنَّهم بعد رفعه لم تتحقَّق فيهم معايير القَبول السابقة بالاستكانة والتضرُّع، فلا شيء ينتظرونه بعد ذلك إلا عذاب الآخرة (وهي سُنَّة سورة الكهف). والرَّدّ على احتمالات شبهاتهم وإلزامهم الحجج المنطقية على التوحيد والبعث. ووجَّهت السورة النبيّ ﷺ للدعاء أن لا يرى هلاك الظالمين وهو فيهم (أي: بالخروج من بينهم).

وتُختَم السورة بعَرْض مشاهد القيامة التي لا تنفع فيه الأنساب، بل العبرة لموازين الإيمان والأعمال، في إشارة مُتجدِّدة لعدم الاعتماد على الروابط القَبلية ونحوها في أمر الآخرة.

وقد يتخلَّل هذه المرحلة نزول **(آيات من) سورة الرعد**(١)، وفيها الاستدلال بالظواهر

---

(١) هذه السورة اتُّفق على مدنيَّتها في جميع لوائح ترتيب النزول الأربع (البيهقي، وابن الضريس، والزهري، وأبي عمرو الداني) بين سورتَي محمد والرحمن. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد ذهب أبو عبيد وأبو جعفر النحاس إلى مكيَّتها، كما ذهب الحارث المحاسبي وابن الأنباري وأبو عمرو الداني إلى مدنيَّتها. مع العلم أنَّها «مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الرعد، ٣: ٩١. «والذي يجمع به ـ بين الاختلاف ـ أنها مكية إلا آيات منها». السيوطي، **الإتقان**، ١: ٤٨، بتصرُّف. كما بالاستئناس بروايتَي ابن عباس ومقاتل في ترتيب السور فقد وضعاها بين سورتَي المؤمنون والطور في هذه المرحلة المكية. **تفسير الشهرستاني**، ١: ٢١. لذلك وضعتها في مكانها من هذه المجموعة بين سورتَي المؤمنون والطور. كذلك، فقد ورد في إحدى الروايات أنَّ النبي ﷺ قرأ إحدى آيات السورة (قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٨ ـ ٣٩]) في السنة الثانية من الهجرة بعد غزوة بدر في خطبة نكاح علي لفاطمة رضي الله عنهما. الزرقاني محمد بن عبد الباقي، **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، ٢: ٣٦٣ ـ ٣٦٤. وقد نزلت منها آيات في أفراد من وفد بني عامر(٩هـ). لذلك يُعتبر هذا هو الموضع الأول لنزول معظمها، وأُؤجِّل الموضع الثاني إلى مكانه من عام الوفود.

الكونية كآيات دالَّة على البعث، وعَرْض موقف منكري البعث باستعجال السيئة قبل الحسنة مقابل مغفرة الله للنَّاس على ظلمهم وكونه شديد العقاب. كما أنَّ الله لا تُدفَع إرادته تعالى السوء بقوم بدلالة قُدرته التي يُمكن استنباطها من الظواهر الكونية، مقابل عجز آلهة المشركين الواضح المنطقي المُثبِت للتوحيد. ثمَّ يضرب الله مَثَلاً للحقّ والباطل بذهاب الباطل لضعفه وبقاء الحقّ لثباته. وتعرض السورة أوصاف أولي الألباب: الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق، بِصِلة ما أمر الله بِوَصْله، وخشية الله ومخافة سوء الحساب، والصبر لله، وإقامة الصلاة، والإنفاق سرًّا وعلانية، وعدم مقابلة السيئة بمثلها، فمآلهم الجنات مع مَن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريَّاتهم (توجُّه أُسَري) كما سيأتي في سورة الطور.

وتعرض السورة أنَّه يعقب الاستهزاء بالرسل إمهالٌ للذين كفروا قبل الانتقام منهم بعذاب في الدنيا وآخَرَ أشقَّ منه في الآخرة. وعَرْض كون أهل الكتاب يفرحون بما أُنزل إلى النبيّ ﷺ رغم كون بعض الأحزاب تُنكِر بعضه (وهم الذين ورد ذكرهم في سورتَي مريم والمؤمنون الذين اختلفت مواقفهم وتفرَّقوا في دينهم بسبب تعصُّبهم). ويتمُّ توجيه النبيّ ﷺ في الرد عليهم لإعلان كونه أُمِر بعبادة الله وحده وأنَّه داعٍ إلَيه وأنَّ مرجعه إلَيه (فلن يقوم بكتم شيء من الوحي المُنزَل أو تبديله وفق «أهوائهم لاسترضائهم وكسب محبَّتهم»[1]، (وهذا ضابط في التعدّدية العَقَدية كما سبق في سورة مريم). وتُعيد السورة التلويح بإمكانية الانتقام منهم في حياة النبيّ ﷺ (كما هو الخطاب في سور مكية سابقة كسور يونس وغافر والزخرف قبل غزوة بدر).

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الرعد، ١٦ : ٤٧٥، بتصرُّف.

وتُختَم السورة بالإشارة إلى تقلُّص نفوذ الشرك على أطراف الأرض[1]، مع الاستشهاد بمَن عنده علم من الكتاب على كون النبيّ ﷺ مُرسلاً (بناء على جميع العوامل المشتَرَكة التي وردت في سور سابقة).



(١) ورد في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] أنَّها في «ظهور الإسلام على الشرك». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنبياء، ٤: ٤٧٣، بتصرُّف.

المبحث الثالث: انبعاث الأمل

يغلب أنَّه خلال هذه المدّة[١] كان قد حضر موسم العام الحادي عشر من البعثة، وكان النبيّ ﷺ يتوجَّه إلى القبائل نفسها والوفود بلا يأس، حتى قال بعضهم له: «أما آن لك أن تيأس منَّا؟»[٢]. وكان يخرج أحيانًا مع الصدِّيق رضي الله عنه ـ باعتباره رجلاً نسَّابة[٣]، أي: بليغ العلم بالأنساب ـ وابنِ عمِّه عليّ رضي الله عنه، وقد يبدأ الحوار مع القَوم بما يُحقِّق الأُلفة ولين الاستجابة والعلم بمدى إمكانيَّة حمايتهم للدعوة قبل أن يقوم بعرض نفسه عليهم[٤]، هذا إن لم يكن أحد من الكفار يتبعه ليُشوِّه دعوته كما كان يحدث سابقًا[٥]. لذلك كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين[٦]. وكان يُصِرُّ

---

(١) ستتبيَّن في المبحث اللاحق إشارة مباشرة في إحدى روايات نزول سورة الانشقاق ـ آخر سورة في مجموعة السور السبع القادمة ـ تُفيد سبق عقد بيعة العقبة الأولى، والتي حدثَت بعد عام من لقاء النبي ﷺ بوفد يثرب.

(٢) الأصبهاني، **دلائل النبوة**، ما رُوِيَ في عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، ١: ٢٩٩، ح: ٢٢٤، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ما رُوِيَ في عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، ١: ٢٨٢، ح: ٢١٤، بتصرُّف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، ٢: ٤٢٢، بتصرُّف.

(٤) كما يتبيَّن من قَصص تلك المقابلات. **السيرة الحلبية**، ٢: ١٥٤ ـ ١٥٨.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل، ١: ٤٢٣، بتصرُّف.

(٦) شاه أكبر خان نجيب آبادي، «تاريخ إسلام»، مكتبة رحمت ديوبند يوبي الهند، ١: ١٢٩، نقلاً عن: صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص١٢٧، بتصرُّف.

في كلٍّ لقاءاته على أنَّ المقابِل لحمايته هو الجنة فقط[١]، رافضًا أيَّ وعود أُخرى تتعلَّق بوراثة الحكم من بعده[٢]، كما رفض الحماية الجزئية[٣].

وقد أثمر الإصرار والصبر والثبات باستجابة وفد من أهل يثرب إلى الإسلام، يتألَّف من ستَّة شباب. وقد «لقِيهم رسول الله ﷺ فقال لهم: مَن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أُكلِّمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. وكان ممَّا صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد عَزُّوهم [أي: غلبوهم] ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم

---

(١) عن جابر رضي الله عنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم بعُكاظ ومجَنَّة وفي المواسم بمنى، يقول: مَن يؤويني مَن ينصرني حتى أُبلِّغ رسالة ربي وله الجنة، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مُضَر فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يُشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب...». أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، **٢٢: ٣٤٦**، ح: **١٤٤٥٦**، بتصرُّف. وقد تناولت في هامش عند التعقيب على سورة الأعراف (ص٢١٥ - ٢١٦) تخريج الرواية والتحفُّظ على تعميم عبارة «مَن يؤويني مَن ينصرني» لأنَّها لم تكن طيلة السنوات العشر بل بدأت بعد وفاة أبي طالب كما ظهر في موضعه عند أول الصدع بالدعوة في سورة الحِجر ثمَّ بعد الخروج من الحصار. ولكن يعنينا هنا كون النبي ﷺ قد جعل ثواب حمايته الجنة فقط.

(٢) كما تبيَّن من ردِّه على بني عامر بن صعصعة حين قالوا له: «أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على مَن خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء». ابن هشام، **السيرة النبوية**، عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل، **١: ٤٢٥**، بتصرُّف.

(٣) كما تبيَّن من ردِّه على بني شيبان بن ثعلبة حين قالوا له: «إن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب دون ما يلي أنهار كسرى فعلنا. فقال ﷺ: «ما أسأتم في الرَّدّ.. وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا مَن أحاط به من جميع جوانبه». **السيرة الحلبية، ٢: ١٥٣**.

شيء قالوا لهم: إنَّ نبيًا مبعوث الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرَم. فلما كلَّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنَّه لَلنبيّ الذي توعَّدكم به يهود، فلا تَسبِقَنَّكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدَّقوه وقَبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشَّرّ ما بينهم، فعسى أن **يجمعهم الله بك**[1]، فسنَقْدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزَّ منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا»[2]. وفي رواية أنَّهم قالوا له: «يا رسول الله، نحن مجتهدون لله ولرسوله، نحن ـ فاعلم ـ أعداء متباغضون، وإنما كانت وقعة بعاث عام الأول، يوم من أيامنا اقتتلنا فيه، فإن تَقْدم ونحن كذا لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعلّ الله يُصلِح ذات بيننا، وموعدك الموسم العام المقبل»[3].

وفي رواية: «قد عَلِمْتَ الذي بين الأوس والخزرج من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن حُرَّاص على ما أرشدك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا نشير عليك برأينا، فامكث على رسلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعلّ الله عز وجل أن يُصلِح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم، فإنا اليوم متباغِضون متباعِدون، وإنَّك إن تَقْدم علينا ولم نصطلح لا يكون لنا جماعة عليك، ولكنا نُواعِدك الموسم من العام المقبل.

---

(١) يتَّضح من ذلك أنَّ وقائع الحروب بين الأوس والخزرج قد ولَّدت مرارة فأنتجت رغبة قوية للاجتماع والتآلف على قِيَم هذا الدين، والتي تظهر في الآيات التي كان النبي ﷺ يتلوها على العرب في الأسواق عند دعوته لهم، ومنها آيات سورتَي الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] والنحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل، ١: ٤٢٨ ـ ٤٢٩، بتصرُّف.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر دعاء رسول الله ﷺ الأوس والخزرج، ١: ٢١٩، بتصرُّف.

فرَضِيَ بذلك رسول الله ﷺ، فرجعوا إلى قومهم فدعوهم سرًّا، وأخبروهم برسول الله ﷺ والذي بعثه الله به، وتَلَوا عليهم القرآن، حتى قلَّ دار من دور الأنصار إلا قد أسلم فيها ناس»[١]. وذلك أنَّه كان «يخرج الرجل من الأنصار فيؤمن به ويُقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيُسلِمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يُظهِرون الإسلام»[٢].

هذا، وكما وردت في السور السابقة إشارات ظهور الإسلام في نواحٍ جديدة من الأرض تُقلِّل نفوذ الشرك (سورتَي الأنبياء والرعد)، والتأكيد على الوفاء بالميثاق، كذلك، ترد في هذه المرحلة ذاتها إشارات أُخرى تتناول ذكر عذابٍ أدنى يذوقه الكفَّار في الدنيا قبل عذاب الآخرة، رغبة في عودتهم عن كفرهم، وهما في السورتَين اللاحقتَين مباشرة:

- «**السجدة**»: وفيها عَرْض الإنذار بوحي الله الخالق المدبِّر العليم. والرَّدّ على جدالات إنكار البعث وعرض عاقبتهم عذاب الخلد. مقابل المؤمنين الذين يُبادِرون إلى الخضوع لله ويلتجؤون إليه بإخلاص في العبادة والدعاء خوفًا وطمعًا، وهم متواضعون منفِقون، وعَرْض عاقبتهم جنات المأوى. وعَرْض وجود عذاب أدنى سيَذوقُه الكفار قبل العذاب الأكبر في الآخرة (كإشارة إلى انتقام حربي قادم بعد الخروج من مكة)[٣]، بهدف عَودتهم عن مَوقفهم المعاند. وتوجيه النبيّ ﷺ للإعراض عنهم والانتظار.

---

(١) الأصبهاني، **دلائل النبوة**، ما رُوِيَ في عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، ١: ٣٠٦، ح: ٢٢٧، بتصرُّف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب عرض النبي ﷺ نفسه على قبائل العرب، ٢: ٤٣١، بتصرُّف.

(٢) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ٢٢: ٣٤٦ ـ ٣٤٧، ح: ١٤٤٥٦، بتصرُّف. قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجال أحمد رجال الصحيح». الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب ابتداء أمر الأنصار، ٦: ٤٦، ح: ٩٨٨٢.

(٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السجدة: ٢١] قال: يوم بدر». الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، تفسير سورة السجدة، ٢: ٤٤٩، ح: ٣٥٥١، بتصرُّف.

□ «**الطور**»: وفيها القَسَم على وقوع العذاب، وعَرْض تفصيلات من عذاب جهنَّم للمُكَذِّبين ومن نعيم الجنة للمتقين (مع إلحاق ذريَّتهم المؤمنة بهم (الأسرة)) جزاء كونهم سابقًا مشفِقين في أهلهم (معتنين مع خوف من الحساب والجزاء يوم القيامة)[1]، ملتجئين إلى الله البَرّ الرحيم بالدعاء. وتوجيه النبي ﷺ لاستمرار التذكير ونفي شبهات جديدة عنه (الكهانة) والإعلام بأنَّ قريشاً تتربَّص بالنبيّ ﷺ أن يموت لإنهاء حالته، ثمَّ تعرِض السورة إسقاط مبرِّرات عدم الاستجابة للدعوة بالحجج المنطقية. وتعرِض السورة وجود عذاب للذين ظلموا دون عذاب المكذِّبين السابق.

وتُختَم السورة بتوجيه النبيّ ﷺ للصبر (وكونه تحت رعاية الله) والتسبيح في الصباح، وفي الليل.

أوصلتنا مقاربة التعدّدية المجتمعية في المرحلة الرابعة إلى ذكر نماذج من الفتن العَقَدية والطبقية والعرقية والثقافية والسياسية. وظهرت فيها بوضوح أنَّ الأمر الأساسي عند قريش أصبح سياسيًّا (منع النبيّ ﷺ من نشر الدعوة بين العرب) خوفًا من مآلاتها عليهم. وكثُر في خطاب هذه المرحلة التذكير بنعم الله تعالى، مع ذكر ضابط إضافي للتعامل مع الشرك بشكل أكثر استيعابية ولو خرج من التعدّدية العَقَدية بقابلية توبته. كما ورد ضابط في التعدّدية السياسية بحصر وراثة الأرض بين عباد الله الصالحين. ومع أنَّ الروابط العائلية كانت تُعرَض بشكل سلبي باعتبارها بدائل عن روابط الإيمان، إلا أنَّها في هذه المرحلة تمَّ عرضها بشكل إيجابي باعتبار اجتماع العائلة في الجنة في الآخرة.

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الطور، **٢٢: ٤٧٦**، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الطور، **٧: ٤٣٥**، بتصرُّف. والراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الشين، ص٤٥٨ ـ ٤٥٩.

أخيرًا، خُتِمَت المرحلة بانبعاث الأمل في المشروع الدعوي لإيمان وفد يثرب على قاعدة: «عسى الله أن يجمعنا بك»، فكانت مقاربتهم الإيمانية برسول الله ﷺ أنَّه عامل جمع للمجتمع، وليس تفرقة.



خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة:	الرابعة
	السور:	آيات من الأحقاف + **الكهف** + ٧ سور (من النحل إلى الطور) + الرعد
	الزمن:	١٠ ـ ١١ بعثة
	الأحداث:	دعوة الجماعات من القبائل العربية خارج مكة للإيمان
	الهدف:	البحث عن محضن بديل للدعوة خارج مكة
الفعل	الموضوع	الاعتصام من الفتن، الهجرة من الاضطهاد إلى الرحمة والرشد، ومشاهد القيامة، وفناء الدنيا مقابل بقاء الصالحات في الآخرة، اختلاف بواطن الأمور عن ظاهرها، إمكانية السلطة لتعذيب الظالم في الدنيا قبل الآخرة، الاستدلال بنِعَم الله على الإنذار بالوحي، وبأهل الكتاب على أصول من الرسالات، والدعوة بالحكمة، تجربة نوح الدعوية بمختلف وسائلها ودوافع الإيمان بها وما تلاها من إهلاك، الخروج من البلاد عند الاضطهاد، الوعد بإهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين، والهجرة إلى أرض جديدة وكون وراثة الأرض للصالحين، ووحدة الانتماء إلى الأمة، عدم نقض الميثاق، وجود عذاب أدنى في الدنيا قبل الآخرة (تمهيد لغزوة بدر) بهدف تغيير موقف قريش المعاند، والصبر
	الأسلوب	الإنذار، والقَصص القرآني. . . ،
	الإطار	دعوة خاصة للجماعات في الأسواق
	المخاطَب	جماعات من القبائل العربية خارج مكة
	الضمانة	جِوار قَبَلي
ردة الفعل	الاتجاه العام	المحاورات العامة على مستوى المجموعات
	الأسباب	استشعار مستتبعات الدعوة السلبية على الآخرين
	الوسائل	التسويف

الاستجابة		الإصرار على الدعوة
ردة فعل قريش	الاتجاه العام	الإعراض
	الأسباب	جهل الحقّ
	الوسائل	التضليل الإعلامي مساومة قريش بطرد ضعاف المؤمنين لاستقطاب كبار الكافرين الترغيب بعد الترهيب الإكراه للضعفاء على الكفر العصيان والمكر والتحريض على عدم ترك عبادة الأوثان التربُّص بالنبيّ ﷺ لموته
الاستجابة		رفض مساومات قريش بطرد ضعاف المؤمنين لاستقطاب كبار الكافرين الإنذار بالعذاب بسبب الإعراض الرَّدّ على الشبهات
تميز مكوِّنات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي:	داخلي (ضمن المجتمع الواحد) ـ الإفتان النفسي
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	
	مظاهر الاختلاف فيها:	انتمائي، بيئى، مصدري
	التميز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا:	ضعف
	حركة/ جمودًا:	جمود ثم حركة
	نوعًا/ عددًا:	

الفصل الخامس
إعداد المجتمع البديل الحاضن

المبحث الأول: تنمية دوافع الإيمان

قد تتخلَّل بداية هذه المرحلة نزول **آيات من سورة المزمل**[(١)]: وفيها أمر النبيّ ﷺ بقيام

---

(١) رغم أنَّ سورة المزمل في روايات ترتيب النزول الأربع وُضِعَت بين سورتَي القلم والمدثر. إلا أنَّ مضمونها (الصبر على ما يُقال، والهجر الجميل للمكذِّبين، وعرضٌ من قَصص الأنبياء) ومطلوبها (قيام الليل كاملاً إلا قليلاً بالقرآن) لا يتناسب مطلقًا مع نزولها كسورة ثالثة فقط وقبل الأمر بالدعوة أصلاً! ممَّا جعل العلماء يتَّفقون على تأخيرها. قال ابن حجر: «[إنَّ] نزولها [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾] تأخَّر عن نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ بالاتفاق، لأنَّ أوَّل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ الأمر بالإنذار، وذلك أول ما بُعِث، وأوَّل المزمل الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن، فيقتضي تقدُّم نزول كثير من القرآن قبل ذلك». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ٨: ٧٢٢، ح: ٤٦٧١. بالمقابل، قد يتناسب ترتيب السورة مع روايتَين: الأُولى أنَّه كان «أشدّ ما لقِيَ رسول الله ﷺ من قريش أنَّه خرج يومًا، فلم يلقه أحد من الناس إلا كذَّبه وآذاه، لا حُرّ ولا عبد، فرجع رسول الله ﷺ فتدثَّر من شدّة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾». ابن هشام، **السيرة النبوية**، الوليد بن المغيرة كيده للرسول ﷺ وموقفه من القرآن، ١: ٢٩١، بتصرُّف.

إذا أخذنا بعين الاعتبار عدم إمكانية كونها سورة المدثر التي سبق تحقيق كونها السورة الثانية نزولاً قبل بدء الدعوة، وأنَّ هذا الموقف الشديد يتناسب تمامًا مع ما لاقاه النبي ﷺ بعد وفاة عمِّه. يتبيَّن إمكانية أن تكون السورة المقصودة هي سورة المزَّمل التي تأخَّر نزولها.

والثانية: رواية نزولها عند اشتداد موقف عليه فيما قيل أنَّه: «بلغه ﷺ من المشركين سوء قول فيه، فاشتدَّ عليه فتزمَّل، وتدثَّر، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾». عمر بن علي، **اللباب في علوم الكتاب**، سورة المزمل، ١٩: ٤٥١. مع إسقاط الاستدلال بسورة المدثر في =

= هذه الرواية لعدم تناسبها أيضًا. كذلك، قد تُعتبر رواية السيدة عائشة رضي الله عنها مؤشِّرًا حين تكلَّمت عن هذا الإزار الذي تزمَّل ﷺ به فيما رُوِيَ عنها أنَّها قالت: «كان ﷺ متزمِّلاً بقطيفة نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على النبي ﷺ وهو يُصلِّي [ا.هـ. أي: كانت السيدة عائشة حاضرة لنزولها في وضعية تؤكِّد نزول السورة بعد عقد النبي ﷺ عليها (في شوال من السنة الحادية عشر من البعثة، وهو زمن مُتَقارِب مع إسلام وفد يثرب أيضًا).
ولكن اختلف العلماء في إدراج هذه الرواية:] فذهب البعض إلى اعتبار سورة المزمل مدنية نزلت بعد بناء النبي ﷺ بها [السيدة عائشة] في المدينة». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة المزمل، **١٩ : ٣٢**.
وذهب البعض إلى رفض تلك الرواية واعتبرها من الكذب الصراح لتصنيفه نزول السورة بمكة في أول البعثة. أبو حيان، **البحر المحيط**، سورة المزمل، **١٠ : ٣١١**، بتصرُّف. [وهذا التصنيف بكونها نزلت أول البعثة قد ثبت الترجيح بعدم صحَّته، كما يظهر أيضًا بوضوح من خلال تسلسل روايات السيرة في مقابلة عطاء القرآن الكريم في أول البعثة]. ومنهم مَن توسَّط فوضع احتمالاً أن يكون النبي ﷺ قد بات في بيت الصديق رضي الله عنه ذات ليلة بعد أن عقد على ابنته عائشة، لأنَّه لا دلالة في الرواية أنَّها حكاية ما بعد البناء. [لكنَّ البعض قام بالرَّدّ على هذا الرأي المتوسِّط] باعتباره تكلُّفًا لتأويل رواية ليست في الكتب الصحيحة. الآلوسي، **روح المعاني**، سورة المزمل، **١٥ : ١١٤**، بتصرُّف.
وعلى أية حال، فإني لا أرى مانعًا من تصنيف نزول السورة في هذه المرحلة، اعتمادًا على المؤشِّرات السابقة، بالإضافة إلى العوامل المرافقة للسورة قبلها وبعدها. أما قبلها فقد مرَّ حدث وفاة أبي طالب وتأثيره على الدعوة وتجرؤ قريش على النبي ﷺ وما يستلزمه من تثبيت الوحي له. وبعدها بما يتعلَّق بتتمة نزول السورة بعد عام، وفي التتمة التمهيد لوجود حالة قتال في سبيل الله مما يتناسب مع كون نزولها آخر العهد المكي، بالإضافة إلى تضمُّن التتمة لِنَسخ فرضية القيام بفرضية الصلوات الخمس. فقد قالت عنها السيدة عائشة: «إن الله عز وجل افترض قيام الليل فى أول هذه السورة [المزمل]، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حَولاً وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء، حتى أنزل الله فى آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام =

الليل (إلا قليلاً) وترتيل القرآن، لاستقبال القول الثقيل[1] الآتي. أما في النهار فعلى النبيّ ﷺ استكمال الدعوة بذكر وإخلاص وتوكُّل على الله وصبر جميل، وتمهيل المكذِّبين أولي النَّعمة فجزاؤهم قادم يوم القيامة، بدلالة إهلاك الله لفرعون بعد معصيته الرسول موسى عليه السلام. وكون سورة المزَّمِّل تذكرة لمَن شاء أن يتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً.

وفي هذا القسم من المرحلة نزلت سبع سور[2] أيضًا، تغلب عليها إجابة أسئلة

= الليل تطوعًا بعد فريضة». **صحيح مسلم**، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومَن نام عنه أو مرض، ١: ٥١٣، ح: ٧٤٦. وهو ما يتناسب تمامًا مع نزول سورة الإسراء ـ [التي نزلت بعد السنة العاشرة من البعثة كما سيتمّ عرضه في موضعه] ـ بعد تتمَّة سورة المزمل لأنَّ فيها فرض الصلوات الخمس ـ الذي نَسَخ هذا القيام كما «قال مقاتل وابن كيسان: كان هذا [أي: القيام المفروض في سورة المزمل] قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ثمّ نسخ ذلك بالصلوات الخمس». الثعلبي أحمد بن محمد، **الكشف والبيان**، سورة المزمل، ١٠: ٥٨. . وفيها [أي: سورة الإسراء] إثبات نافلة القيام (كفريضة زائدة) في حق النبيّ ﷺ، وفيها التمهيد للإخراج من مكة. وبذلك توكّد جميع هذه المؤشّرات على مناسبة هذه المرحلة لنزول السورة.

وأختم بقول للسيدة عائشة رضي الله عنها حول هذه السورة أيضًا: ما كان بين نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ وقول الله تعالى فيها ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ إلا يسير، حتى أصاب الله قريشًا بالوقعة يوم بدر. ابن هشام، **السيرة النبوية**، نزول سورة الأنفال تصف أحداث بدر، ١: ٦٧١، بتصرُّف. ممَّا يُؤكِّد نزولها في آخر العهد المكي.

(١) «قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية عطاء: ﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ يعني: كلامًا عظيمًا. ووجه النظم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل، فكأنَّه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل لأنا سُنلقي عليك قولاً عظيمًا، فلا بدّ وأن تسعى في صيرورة نفسك مستَعِدَّة لذلك القَول العظيم، ولا يحصل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة المزمل، ٣٠: ١٥٤، بتصرُّف.

(٢) هذه السور جميعها (أي: الملك والحاقة والمعارج والنبأ والنازعات والانفطار والانشقاق) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الثلاث (ابن الضريس، والزهري، =

المشركين حول موضوع البعث وإثباته لهم بالدلائل لِيَتِمَّ فيه إحقاق الحقّ بالجزاء. وهي بذلك تتلاقى مع مجموعة السور السبع (القارعة والقيامة والهمزة والمرسلات و«ق» والبلد والطارق) التي نزلت في المرحلة الأولى وعَرَضت مشاهد القيامة ودلائل البعث بشكل مُفصَّلٍ لتنمية الدوافع المُشجِّعة على التصديق والإصلاح والاستقامة لدى مشركي مكة، والتي ظهر فيها بشكل واضح استهداف النبيّ ﷺ من قِبَلهم. ولكنَّ الفارق بين مجموعتَي السور السبع أنَّ هذه المجموعة تتوجَّه أيضًا للمشركين في يثرب[١]، كما أنَّ مشركي مكة وبشكل واضح أيضًا تحوَّلوا إلى مستهدَفين بعذاب واقع بهم. وهذه السور السبع هي:

□ «**الملك**»: وفيها إثبات المُلك لله من خلال استعراض آيات من الظواهر الكونية التي تُثبت عجز الإنسان، وعَرْض امتحان الموت والحياة لابتلاء الإنسان ليُحسِن عمله. ثمَّ تعرض جزاء الذين كفروا وكذَّبوا نذيرهم في عذاب جهنَّم مقابل الذين يخشَون ربَّهم بالغيب بالمغفرة والأجر الكبير. وهذا المُلك اقتضى علم الله بما تُسرّ قريش (من مكائد) وما تجهر به، وقدرته على معاقبتهم. كما تعرض السورة سؤالهم عن ميعاد تحقُّق الوعد بالبعث.

□ «**الحاقة**»: وفيها «إحقاق الجزاء يوم القيامة»[٢]، وذكر إهلاك المكذِّبين من الأقوام السابقة ونجاة المؤمنين. ثمَّ تستعرض السورة مشاهد من يوم القيامة ـ بوقوع الواقعة ـ وأحداثها، وانقسام الناس بين مؤمن بالحساب وجزاؤه الجنة، وبين مُستَغنٍ بمالِهِ عن الإيمان بالله والحضّ على طعام المسكين (ممارسات اجتماعية خاطئة) فجزاؤه الجحيم.

= وأبي عمرو الداني) ضمن السور المكية. ورواية البيهقي قدَّمت الانشقاق على الانفطار. وبالتالي، فقد اتفقت جميع روايات ترتيب النزول على مكانها كمجموعة من سبع سور مع الاختلاف في رواية على ترتيبها فيما بينها. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد اتفقت جميع راويات تحديد المكي من المدني على مكيَّتها.

(١) بدلالة الاتصالات التي كانت تتمّ بين النبيّ ﷺ وبينهم، ويتمّ التركيز فيها على قراءة القرآن كما سبق.

(٢) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الحاء، ص٢٤٧.

وتُثبت السورة كون القرآن قول رسول كريم (وحي ربّ العالمين) بالردّ على شبهات اتّهامه بالشعر والكهانة، بل هو تذكرة للمتقين وحسرة على الكافرين وحقّ اليقين.

❑ «**المعارج**»: وفيها إيراد السؤال عن العذاب الواقع قريبًا للكافرين، وعلى النبيّ ﷺ الصبر الجميل (بلا جزع)[1]. وعَرْض مشاهد من يوم القيامة حيث يُعذَّب المجرم الذي تولّى عن الدعوة واستغنى بمالِهِ (دون قدرة على الفِداء بالعشيرة للنجاة من العذاب). وتُبيِّن السورة أنَّ الجزع عند الشَّرّ والبخل عند الخير، من خصال الإنسان إلا المصلِّين، فيتمّ استعراض صفاتهم: المداومة على الصلاة والمحافظة عليها، والإنفاق للسائل والمحروم (كحصّة مستَحَقَّة لهم)، والتصديق بيوم الدين مع إشفاق (اعتناء مع خوف من الحساب والجزاء فيه)، وحِفظ الأعراض، ورعاية الأمانات والعهد، وتأدية شهادة الحقّ، وأنَّ مآلهم هو الجنات. ويُقسِم الله على قدرته على أن يُبدِّل خيرًا من الذين كفروا من قريش في طاعتهم[2] (أهل يثرب). وتُختَم السورة بتوجيه النبيّ ﷺ لترك الذين كفروا يخوضون في باطلهم ويلعبوا في هذه الدنيا حتى يُلاقوا العذاب[3].

❑ «**النبأ**»: وفيها عَرْض تساؤل المشركين المنكرين للبعث عن النبأ العظيم واختلافِهم فيه، وإثبات وقوع يوم الفَصل بينهم بعرض آيات من الظواهر الكونية. وحينها تكون جهنَّم مرصاد الطاغين، والجنة مفاز المتَّقين. وتُختَم السورة بإعلان كونها تذكرة لمَن شاء أن يتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً.

❑ «**النازعات**»: وفيها إثبات البعث حيث يتساءل المُنكِرون به في يوم القيامة عن مآلهم وخسارتهم. والاستدلال بأخذ الله لفرعون (بعد تكذيبه وعصيانه وتحشيد أعوانه واستكباره) للاعتبار ممَّن يخشى، وبالظواهر الكونية على قدرة الله على البعث، حيث يُجازى الطاغي الذي آثر الحياة الدنيا بالجحيم، ومَن خاف مقام ربِّه ونهى النفس عن الهوى بالجنة.

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة المعارج، ٢٣: ٦٠٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة المعارج، ٢٣: ٦٢٢، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة المعارج، ٢٣: ٦٢٣، بتصرُّف.

وتُختَم السورة بسؤال ـ سَبَقَ في الدنيا ـ عن موعد الساعة، وجوابه اقتصار النبيّ ﷺ في ذلك على كونه منذرًا مَن يخشاها.

□ «**الانفطار**»: وفيها علامات حدوث البعث (الذي تمَّ السؤال عنه في السور السابقة)، مقابل سؤال الله للإنسان عن سبب غرَّته (بغفلته[١] عن الإيمان به وطاعته والتكذيب بالدين)، رغم سَبْقِ نِعَم الله عليه بحِكمة تقتضي الإيمان[٢]. وعَرْض جزاء الأبرار بالنعيم، والفجار بالجحيم.

□ «**الانشقاق**»: وفيها استكمال علامات حدوث البعث التي وردت في السورة السابقة، يُقابلها أيضًا سؤال الله للإنسان عن سبب عدم إيمانه وخضوعه عند استماع آيات القرآن، بعد أن تمَّ إعلامه بأنَّه مُلاقٍ جزاءه في الآخرة بحسب سَعْيِهِ في الدنيا، حيث ينقسم الناس إلى مَن يكون حسابه يسيرًا وينقلب إلى أهله مسرورًا، ومَن يصير إلى جهنَّم بعد أن كان في الدنيا في أهله مسرورًا مُنكِرًا للبعث رغم الدلائل الظاهرة عليه.

هذا، وقد وردت رواية في أسباب نزول إحدى آيات هذه السورة «أنَّها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد، وهو أول مَن هاجر من مكة إلى المدينة»[٣]. كما ورد أنَّه «كان أول مَن هاجر منهم [المهاجرين] إليها [يثرب] أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي.. وهو أول مَن يُدعى للحساب اليسير. فإنَّه لما قَدِم من الحبشة لمكة آذاه أهلها وأراد الرجوع إلى الحبشة، فلما بلغه إسلام مَن أسلم من الأنصار ـ أي: الاثني عشر الذين بايعوا البيعة الأولى ـ خرج إليهم وقَدِم المدينة بكرة النهار. ولما عزم على الرحيل حمل على بعيره زوجه وابنها سلمة، فجاء قومها فمنعوها من الهجرة، كما جاء قوم زوجها فتجاذبوا ابنها حتى

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الغين، ص٦٠٣.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الانفطار، ٢: ٢٩٩، بتصرُّف.

(٣) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الانشقاق، ١٩: ٢٧٢. كما قالت أم سلمة عن زوجها أبي سلمة بعد وفاته: «أيّ المسلمين خير من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ». **صحيح مسلم**، كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند المصيبة، ٢: ٦٣٠ ـ ٦٣١، ح: ٩١٨، بتصرُّف.

خلعوا يده وأخذوه. ففُرِّق بينها وبين زوجها وولدها. فكانت تخرج كل غداة بالأبطح فتبكي حتى المساء مدّة سنة. فمرَّ بها رجل من بني عمِّها فرأى ما بها فرَحِمها وقال لقومها: أما ترحمون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين ولدها وزوجها. فقالوا لها: اِلْحَقي بزوجك. فلما بلغ ذلك قوم أبي سلمة ردُّوا عليها ولدها. فارتَحَلَت بعيرًا وجعلت ولدها في حجرها، وخرجت تريد المدينة وما معها أحد من خَلْق الله تعالى. حتى إذا كانت بالتنعيم، لَقِيها عثمان بن طلحة ـ وكان يومئذ مُشرِكًا ـ فتَبِعها إلى المدينة، حتى إذا وافى على قباء قال لها: هذا زوجك هنا ثم انصرف. وهي أول ظغينة دخلت من المهاجرين المدينة، وكانت تقول: ما رأيت صاحبًا أكرَمَ من عثمان بن طلحة»[١].

وبذلك يتبيَّن أنَّه كان للمشركين (المحايدين) دور اجتماعي مناصِرٌ لقضايا إنسانية.

تبيَّن من رواية سبب نزول إحدى آيات من السور السابقة أنَّه تخلَّل هذا القسم من المرحلة بيعة العقبة الأولى، وقد تمَّت بعد مرور عام على لقاء النبيّ ﷺ بوفد يثرب.

فقد «وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقَوا النبيّ ﷺ بالعقبة. وبايعوه قبل أن تُفتَرض الحرب [وكانت بنود البيعة:] على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف [تمهيد الطاعة السياسية]. [وقال:] فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غَشَّيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل[٢]؛ إن شاء عذَّب، وإن شاء غفر»[٣]. وفي رواية: «بايعناه على أن لا نشرك

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر المهاجرين إلى المدينة، ١: ٤٦٨ ـ ٤٧٠، بتصرُّف. و**السيرة الحلبية**، ٢: ١٨٢. و«إسناد الرواية صالح للاعتبار». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٠٤، بتصرُّف.

(٢) «يُلاحظ أنَّ نَصَّ البيعة يَكِل معاقبة الجرائم إلى الله تعالى في الآخرة لعدم تشريع الحدود». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٩٨، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، بيعة العقبة الأولى، ١: ٤٣٣، بتصرُّف. و«إسناد الرواية صحيح لغيره لورود الرواية أقلّ وضوحًا وكمالاً منها في صحيح البخاري». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٩٧، بتصرُّف.

بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا ننتهب، ولا نعصي، بالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غَشَّينا من ذلك شيئًا كان قضاء ذلك إلى الله»(١).

كما قرأ النبي ﷺ وصايا سورة الأنعام المشتَمِلة على بنود البيعة إجمالاً ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١](٢)، وهي التي كان يقرؤها على القبائل عند عَرْض دعوته عليهم(٣).

كما «بعث رسول الله ﷺ مع القوم مُصعَب بن عُمَير(٤)، وأمره أن يُقرِئهم القرآن، ويُعلِّمهم الإسلام، ويُفقِّههم في الدين، فكان يُسمَّى المقرئ، فكان يُصلِّي بهم. ذلك أنَّ الأوس والخزرج كَرِه بعضهم أن يَؤُمَّه بعض»(٥). وبالحوار المنفتح العقلاني أسلم سادة من القوم واتَّبعهم قومهم. حتى عاد مصعب إلى رسول الله ﷺ قبل الموسم التالي ولم يترك خلفه دارًا من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون (عدا قلة قليلة)، مع بقاء وجود

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب فضائل الصحابة، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة، ٣: ١٤١٤، ح: ٣٦٨٠.

(٢) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنعام، ٢: ٣٤٨، ح: ٣٢٤٠، بتصرُّف.

(٣) كما في عرض الدعوة على بني شيبان بن ثعلبة. **السيرة الحلبية**، ٢: ١٥٣.

(٤) «كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ومن السابقين إلى الإسلام. أسلم ورسول الله ﷺ في دار الأرقم، وكتم إسلامه خوفًا من أمّه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرًّا، فبصر به عثمان بن طلحة العبدري يُصَلِّي، فأَعلَم أهله وأمّه، فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوسًا إلى أن هاجر إلى أرض الحبشة، وعاد من الحبشة إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة بعد العقبة الأولى ليُعلِّم الناس القرآن ويُصَلِّي بهم». ابن الأثير، **أُسد الغابة**، ٤: ٤٠٥.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، بيعة العقبة الأولى، ١: ٤٣٤ ـ ٤٣٥، بتصرُّف.

مشركين في المدينة[١]. وبعد أن كان «يُصلّي بهم ويجمع بهم الجُمُعات بأمر رسول الله ﷺ فقد صلّى بهم [بعد عودته إلى مكة] أسعد بن زرارة» الخزرجي[٢]، ممّا يعني أنّه بالتربية على الإيمان تدريجًا غلب مفهوم الأخوّة الإيمانية على العصبية القَبَلية.

وفي كل ذلك «كان لا يخفى على رسول الله ﷺ بمكة أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأُخْبِر به»[٣].

وحدث نتيجة إسلام بعض أفراد العائلة دون بعضها أن كان أحد المشركين يؤذي زوجته المسلمة وهي تُصلّي. فلما علم النبيّ ﷺ بذلك، وعلم أنَّ الرجل وصل إلى أحد الأسواق، ذهب إليه وحرص على دعوته إلى الإسلام وتقرَّب إليه بتَكنِيَته (أبا يزيد). فلما لم يستَجِب بسبب شُغلِه بحَربٍ رغم استحسانه الدعوة، قال له رسول الله ﷺ: «يا أبا يزيد، إنَّ صاحِبَتَك حواء قد بلغني أنَّك تُسيء صُحبَتَها مذ فارَقَت دينَك. فاتَّقِ الله واحفَظني فيها ولا تَعرِض لها. قال: نعم وكرامة، أفعل ما أحببتَ، لا أعْرِض لها إلا بخير. ثم قدم المدينة فقال: يا حواء، لقيت صاحِبَك محمدًا فسألني أن أحفَظَك فيه. وأنا والله وافٍ له بما أعطَيتُه، فعلَيكِ بشأنِك، فوالله لا ينالُك منِّي أذًى أبدًا. [فشأنُك بدينك، فوالله ما رأيتُه إلا حَسَن الوجه حَسَن الهيئة[٤]]. فأظهرَت حواء ما كانت تُخفي من الإسلام، فلا يعرِض لها زوجها»[٥]. وبذلك كانت تتمّ معالجة هذه الإشكاليات بالتأكيد على احترام حرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أول جمعة أُقيمت بالمدينة، ١: ٤٣٧، بتصرُّف.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، تسمية النقباء وأنسابهم وصفاتهم ووفاتهم، ٢: ٦٠٩، بتصرُّف.

(٣) البيهقي، **دلائل النبوة**، باب ذكر العقبة الثانية وما جاء في بيعة مَن حضر الموسم، ٢: ٤٥٥.

(٤) المصدر نفسه، باب ذكر العقبة الثانية وما جاء في بيعة مَن حضر الموسم، ٢: ٤٥٦.

(٥) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، تسمية غرائب نساء العرب المسلمات، ٨: ٣٢٣، بتصرُّف.

ونزلت ضمن المرحلة **تَتِمَّة سورة المزمِّل**[١]، وفيها: نسخ حكم فرضية قيام الليل (على المسلمين) بالتخفيف لعلم الله أن سيكون منهم مرضى وآخرون يُقاتِلون في سبيل الله. وتمَّ التوجيه لقراءة ما تيسَّر من القرآن وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله والاستغفار.



---

(١) وقد سبق التعليق على نزولها عند عرض أول مَوضع لنزولها ص٣٢١.

المبحث الثاني: المجاهدة حتى تحقُّق الوعد

في هذه الأثناء (قبل الهجرة بسنة)، «أرسل الله جبريل عليه السلام بالبُراق (دابَّة بين البغل والحمار) إلى النبيّ ﷺ، وذهبا بها في رحلة إلى بيت المقدس، حيث صلَّى ﷺ إمامًا بأنبياء الله تعالى، قبل أن يُعرَج به إلى السماء فيستفتح أبوابها ويُسلِّم على مَن فيها من الأنبياء ويرى فيها مشاهد من تعذيب المذنبين في الآخرة، وقد فُرِضَت عليها الصلوات الخمس اليومية في الليلة ذاتها»[١].

وقد نزلت ثلاث سور متتابعة، تناولت امتحانات التمييز للمسلمين، وذلك قبل الهجرة إلى المدينة التي حدثت بعد بيعة العقبة الثانية. وهذه السور هي:

❐ «**الإسراء**»[٢]: وفيها تنزيه الله الذي أسرى بالنبيّ ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر الإسراء والمعراج، ١: ٣٩٧ ـ ٤٠٧، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق على مكيَّتها وترتيبها بين سورتَي القصص ويونس في جميع لوائح ترتيب النزول الأربع (البيهقي، وابن الضريس، والزهري، وأبي عمرو الداني). وكذلك تمَّ الاتفاق على مكيَّتها في جميع لوائح تحديد المكي من المدني. ولكنَّ حادثة الإسراء ارتبطت بفرضية الصلوات الخمس، بعد أن كانت الصلاة المفروضة في أول الإسلام ركعتَين بالغداة وركعتَين بالعشيّ. وهذه السورة تتعلَّق أول ما تتعلَّق بحادثة الإسراء والمعراج التي لا بدَّ أن تكون قد وقعت بعد شهر رمضان من السنة العاشرة من النبوة، لأنَّه الشهر الذي توفِّيَت فيه السيدة خديجة ﵂، باعتبار أنَّ السيدة عائشة ﵂ جزمت بأنَّ خديجة ماتت قبل أن تُفرض الصلاة، أي: الصلوات الخمس. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب المعراج، ٧: ٢٠٣، بتصرُّف. وهذا يجعل موعد تلك الحادثة بعد هذا التاريخ. وقد قال موسى بن عقبة عن الزهري أنَّ «الإسراء كان قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الإسراء، ٥: ٤٢، بتصرُّف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ٢: ٣٥٤، بتصرُّف.

وفي سورة الإسراء أيضًا إشعار بالإذن بالخروج من مكة في أكثر من آية، فمنها قوله تعالى: =

الأقصى المباركِ ما حوله ليُريَه من آياته، كما حدث في لقاء موسى عليه السلام في طور سيناء فأراه آياته[(١)]. وتستعرض السورة قضاء الله بإفساد بني إسرائيل في الأرض مرَّتَين مع العُلُوّ وما حدث لهم من هزائم، فعليهم الاستفادة من تاريخهم بعدم تكرار الإفساد اليوم[(٢)] (مع هجرة النبيّ ﷺ إلى يثرب) عسى ربُّهم أن يرحمهم[(٣)]. وقد اقتضت حكمة الله أن يتحمَّل الإنسان مسؤولية أفعاله، علمًا أنَّ التعذيب لا يكون قبل إرسال الرسول إلى القوم (ممَّا يُلمِّح بتصنيف دخول يهود يثرب ضمن المخاطَبين برسالة النبيّ ﷺ للإيمان به كي لا يستوجِبوا العذاب عند اختيارهم الترف والفسق). ورغم أنَّ عطاء الربوبية في الدنيا للجميع (مؤمن وغير مؤمن)، إلا أنَّه على مُريد الآخرة أن يُقدِّمها على العاجلة بالسعي لها مع الإيمان،

= ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] التي ورد عنها أنَّ «أهل مكة هَمُّوا بإخراج رسول الله ﷺ من مكة، فأمره الله تعالى بالخروج، وأنزل هذه الآية إخبارًا عمَّا هَمُّوا به». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة الإسراء، ص٢٩٨. ومنها قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] فقد ورد بشأنها أنَّ كفار قريش لما أرادوا أن يُوَثِّقوا النبي ﷺ ويُخرِجوه من مكة، أراد الله تعالى بقاء أهل مكة، وأَمَر نبيه أن يخرج مُهاجِرًا إلى المدينة. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة الإسراء، ص٢٩٨. وقد ورد قريب منهما أيضًا في: الطبري، **جامع البيان**، سورة الإسراء، ١٧: ٥١٠ ـ ٥٣٣، بتصرُّف. ممَّا يُشعِر بتأخُّرها في نهاية العهد المكي، قبل نزول آية الإذن في سورة الحج وبالتوازي مع تَتِمَّة المزمِّل، لرواية أنَّ أول شيء نزل من القرآن في شأن القتل كان آية ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ﴾ [الإسراء: ٣٣]. الطبري، **جامع البيان**، سورة الإسراء، ١٧: ٤٤٢، بتصرُّف.

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الإسراء، ٢: ٣٢٩، بتصرُّف.

(٢) بعد أن سبقت سورة الرعد سورة الإسراء في الإشارة إلى وجود منكِرين لبعض القرآن من الأحزاب، ونهي النبي ﷺ أن يتَّبع أهواءهم، فقد يُمكن النظر إلى هذه السورة باعتبارها رسالة إلى يهود المدينة منهم كي لا يُكرِّروا أخطاء الماضي.

(٣) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الإسراء، ٢: ٣٢٩، بتصرُّف.

وبالالتزام بالوصايا التالية: وحدانية الله بعبوديَّته، والإحسان إلى الوالدَين، وإتيان ذي القربى حقَّه والمسكين وابن السبيل مع اعتدال، وعدم قتل الأولاد خشية الفقر، وعدم الاقتراب من الزنى، وعدم قتل النفس التي حرَّم الله إلّا بالحقّ (مع احتفاظ أولياء المقتول بحقّ قتل القاتل حصرًا دون إسراف)، وإدارة أموال اليتيم بالتي هي أحسن، والوفاء بالعهد، والوفاء في الكَيل والميزان بالقسط، وتحمُّل مسؤولية أدوات المعرفة (السمع والبصر والفؤاد) التي تستلزم عدم الاتِّباع (بإصدار الأحكام)[1] دون علم، وعدم العُجُب (استعظام الإنسان لعمله الصالح واغتراره به من دون الله تعالى)، لما في ذلك من الخير في الدنيا وفي الآخرة.

ثمَّ انتقل الخطاب للرَّدّ على شبهات الوثنيين والذين لا يؤمنون بالبعث مع إيراد حِفظ الله لنبيه ﷺ منهم. والتوجيه لعباد الله أن يقولوا التي هي أحسن كي لا ينزغ عدوَّهم الشيطان بينهم.

وتعرض السورة سبب عدم إرسال الله المعجزات مع نبيِّه أن الأوَّلين كذَّبوا بها فأهلكهم الله، وبالمقابل كانت حادثة الإسراء (كما غيرها من الغيبيات كشجرة الزقوم في الجحيم) امتحانًا للناس الموصِل للتمييز بينهم، فظهر المرتدُّون (تمامًا كما كان التعداد التفصيلي عن جانب غيبي للنار في سورة المدثر امتحانًا للذين كفروا الموصِل للتمييز بينهم، وسيُستكمل امتحان التمييز للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم في سورة الحجّ).

ثمَّ تعرض السورة قصة آدم ورفض إبليس السجود له وتسلُّطه على ذريَّته من غير العابدين لله، كما تعرض تكريم الله لبني آدم مقابل انقسامهم في الآخرة بين ناجين وعميانٍ، وإيراد محاولات قريش لإفتان النبيّ ﷺ وتثبيت الله له، وإيراد استفزازهم له من الأرض لإخراجه منها مع إعلامهم بأنَّ **سنَّة الرسل** السابقين تقضي إهلاكهم بعد ذلك

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب القاف، ص٦٨٠.

الإخراج. وتنتقل الآيات مباشرة إلى توجيه النبيّ ﷺ لإقامة الصلاة في أوقات (دلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر) مع قيام الليل كفريضة زائدة عليه[١] (ممَّا يعني نسخ فرضيَّتها عن المسلمين بالصلوات الخمس كما تبيَّن من الهامش المخصَّص للتعليق على السورة) ليُقابلها في الآخرة التأهُّل للمقام المحمود (من أهل الجمع[٢] كلِّهم يوم القيامة) بالشفاعة لأمَّته[٣] (كأنَّه عطاء مقام أُخروي ـ بدل الدنيوي ـ جزاء الخروج من مقامه بمكة)، مع توجيه النبيّ ﷺ لطلب الإدخال مُدخَل صِدقٍ (إلى يثرب) والإخراج مُخرَج صِدقٍ (من مكة)[٤] وأن يجعل الله له من لدنه سلطانًا نصيرًا.

ثمَّ تعرض السورة نماذج من أسئلة[٥] ومطالب قريش من المعجزات ليُؤمنوا، وهم

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الإسراء، ١٧: ٥٢٤، بتصرُّف.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب الزكاة، باب مَن سأل الناس تكثُّرًا، ٢: ٥٣٦، ح: ١٤٠٥، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ٦: ٢٧٠٨، ح: ٧٠٠٢.

(٤) الطبري، **جامع البيان**، سورة الإسراء، ١٧: ٥٣٣، بتصرُّف.

(٥) وردت عدة روايات حول قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، منها ما جعلها مكية ومنها ما جعلها مدنية. ففي «لفظ البخاري عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حَرْث، وهو متوكئ على عسيب، إذ مرّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه. وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يردّ عليه شيئًا، فعَلِمْتُ أنه يُوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية. وهذا السياق يقتضي فيما يظهر أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يُجاب عن هذا بأنها قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يُجيبهم عما سألوا بالآية المتقدِّم إنزالها عليه، وهي هذه الآية:

كافرون بالآيات مآلهم جهنَّم، وتمَّت الإشارة إلى قصة رفض فرعون لآيات موسى واتِّهامه لها بالسحر وإهلاكه بعد إرادته استفزاز المؤمنين من الأرض بالاستشهاد المباشر عبر سؤال بني إسرائيل (الحاليين).

وخُتِمَت السورة ببيان الحقّ في إنزال القرآن وكون الرسول ﷺ مبشِّرًا ونذيرًا يقرأ القرآن على النَّاس على مُكث، فإن لم يُؤمن به مشركو مكة فقد خَضَع لله الذين أوتوا العلم من قبله عند استماعه.

□ وقد تخلَّل هذه المرحلة أيضًا نزول آيات من سورة **النجم**، وفيها إثبات رؤيا النبي ﷺ لجبريل عليه السلام ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى(١).

وقد كذَّبت قريش حديث الإسراء بالنبيّ ﷺ، بل «ارتدَّ كثير ممَّن كان أسلم.. ونزلت فيهم آية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]»(٢).

في هذه المرحلة، «اقتتل الروم وفارس في أدنى الأرض ـ وأدنى الأرض يومئذ

= ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾. وممَّا يدلُّ على نزول هذه الآية بمكة ما روى الإمام أحمد.. عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل؟ فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: أُوتينا عِلمًا كثيرًا، أُوتينا التوراة، ومَن أُوتيَ التوراة فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا. قال: وأنزل الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الإسراء، ٥: ١١٤، بتصرُّف.

(١) رأى النبي ﷺ جبريل في صورته الملائكية مرَّتَين، الأولى هي التي كانت بين السماء والأرض في أول الوحي، والثانية ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى في السماء السابعة. د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة النجم، ٧: ٤٩٢ ـ ٤٩٣، بتصرُّف. وآيات السورة [١٣ـ١٨] تُشير إلى الرؤيا الثانية التي ارتبطت بحادثة الإسراء في نهاية العهد المكي.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر الإسراء والمعراج، ١: ٣٩٨ ـ ٣٩٩، بتصرُّف.

أذرعات ـ بها التقوا، فهُزِمَت الروم. فبلغ ذلك النبيّ ﷺ وأصحابه وهم بمكة، فشقَّ ذلك عليهم، وكان النبيّ ﷺ يكره أن يظهر الأُمِّـيُّون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، ففرح الكفار بمكة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبيّ ﷺ فقالوا: إنكم أهل الكتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أمّيّون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا [مناسبة لنزولها بعد الإسراء وفي أجواء تَتِمَّة المزمِّل] لَنَظهَرنَّ عليكم [كحرب نفسية تستكمل امتحان الله للناس الوارد في سورة الإسراء]، فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1] [الروم: ١ ـ ٥]. ويُلاحظ أنَّ هذا التعاطف يتجاوز كونه مع أهل كتاب (كموقف ديني)، بل لموقف الحبشة (بيزنطية التبعية) من الدعوة[2] (كموقف اجتماعي ـ سياسي).

❑ «**الروم**»[3]: وفيها نبوءة بغَلَبة قادمة للبيزنطيين بعد أن غُلِبوا، وذلك ضِمن بضع

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الروم، ٢٠: ٦٩ ـ ٧٠، بتصرُّف. وفي المستدرك: «كان المسلمون يُحِبُّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب، وكان المشركون يُحِبُّون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان». الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، تفسير سورة الروم، ٢: ٤٤٥، ح: ٣٥٤٠، بتصرُّف. وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الروم، ٢: ٣٥٣، بتصرُّف.

(٣) هذه السورة (الروم) اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الأربع (البيهقي، وابن الضريس، والزهري، وأبي عمرو الداني) ضمن السور المكية بعد مجموعة السور السبع السابقة وقبل سورة العنكبوت. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد اتفقت جميع راويات تحديد المكي من المدني على مكيَّتها أيضًا. ورغم وجود روايات تجعل نزولها قديمًا في مكة، ليتناسب عدد السنوات السبع (بضع سنين) مع غزوة بدر، إلا أنَّ هناك رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما تُشير أنَّه «ظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك على رأس سبع سنين». الأصبهاني، **دلائل النبوة**، ذكر ما رُوِيَ من مناجاة الصديق رضي الله عنه مشركي مكة على غلبة الروم، ١: ٣٥١، ح: ٢٤٣.

سنين[١]، وسيفرح المؤمنون يومَها بنصر الله. وتستكمل السورة عرضها بالرّدّ على قريش التي تبني موقفها على ظاهر الأمور وتغفل عن بواطنها بعدم تفكُّرها في الظواهر الكونية المُثبِتة وجود حكمة من الحياة الدنيا تَؤُول إلى هلاك المكذِّبين بالآيات وتأكيد البعث، حيث ينقسم الناس إلى أهل رَوضة (بالإيمان والعمل الصالح) وأهل عذاب (بالكفر والتكذيب وإنكار البعث).

وتستكمل السورة لفت النظر إلى آيات الظواهر الكونية الزوجية (المساء والصباح، والسماوات والأرض، والعشِيّ والظهر، والحياة بعد الموت، والموت بعد الحياة، والتراب والبشر، والرجل والمرأة. . . ،) للدلالة على البعث والتوحيد. وتُوَجِّه السورة النبيّ ﷺ إلى التزام دين الفطرة الحنيف القَيِّم بالإنابة والتقوى والصلاة والتوحيد والوحدة، وإتيان ذي القربى حقَّه والمسكين وابن السبيل، وتجنُّب الربا. وتُختَم السورة بإثبات أنَّ نصر الله للمؤمنين حقٌّ عليه بالاستدلال بظواهر من حياة الإنسان (ضعف ثمَّ قوة ثمَّ ضعف وشَيبة)، مع توجيه النبيّ ﷺ بالصبر وعدم الاستخفاف (بالتثبيط بعد الإزعاج والإزالة عن المعتقد بالشبهات[٢]، كنتيجة للحرب النفسية بعد هزيمة الروم وشماتة الكفار).

---

(١) وردت العديد من الروايات، بعضها ربط تحقُّق النبوءة بظهور الروم على فارس في يوم بدر، وبعضها ربطها بيوم الحديبية، وبعضهم أطلقها. ولكن، بعد اعتماد مناسبة السورة لمكانها من لوائح ترتيب النزول، يُمكن اختيار رواية ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ وقال: «ظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين». الأصبهاني، **دلائل النبوة**، ذكر ما روي في مناجاة الصديق رضي الله عنه مشركي مكة على غلبة الروم والفرس، ١: ٣٥١، ح: ٢٤٣، بتصرُّف. وبذلك تكون السنوات السبع هي منذ نزول السورة قبل الهجرة بعام، إلى العام السادس الهجري عام الحديبية. كما يُرجِّح هذا الرأي رواية في الصحيح أنَّ هرقل لما جاءه كتاب النبي ﷺ (الذي أرسله إليه بعد عودته من الحديبية) كان في إيلياء (بيت المقدس) شكرًا لله على انتصار الروم على الفرس. **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام، ٣ ١٣٩٧، ح: ١٧٧٣.

(٢) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الخاء، ص٢٨٩.

وفي موسم الحجّ في السنة الثالثة عشرة من البعثة، حضر وفد يثرب من الشباب[1] إلى مكة وفيهم المسلمون. فبعد أن زال ما كان بينهم من العداوات، وبعد أن بايعوا البيعة الأولى، تشوَّفوا لاستقبال رسول الله ﷺ ليُقيم معهم آمنًا. وكان معظم الوفد قد آمن بالنبيّ ﷺ دون أن يراه. فلما حاولوا الذهاب إليه قابلوا عمَّه العباس بن عبد المطلب[2] الذي وجَّههم فقال: «إنَّ معكم من قومكم مَن هو مُخالِف لكم، فأَخفُوا أمركم حتى ينصَدِع هذا الحاجّ ونلتقي نحن وأنتم فنُوَضِّح لكم الأمر، فتدخلون على أمرٍ بَيِّن. فوَعَدَهم رسول الله ﷺ الليلة التي في صُبحها النَّفر الآخر أن يُوافِيَهم أسفل العقبة، وأمَرَهم أن لا يُنبِّهوا نائمًا ولا ينتظروا غائبًا.

فخرج القوم تلك الليلة، ليلة النفر الأول يتسلَّلون، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى ذلك المَوضع ومعه العباس، ليس معه أحد من الناس غيره. وكان يثق به في أمره كلِّه. فلما اجتمعوا، كان أول مَن تكلَّم العباس فقال: يا معشر الخزرج ـ وكانت الأوس والخزرج تُدعى الخزرج ـ إنكم قد دعوتم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه. ومحمد من أعزّ الناس في عشيرته، يمنعه والله مَن كان مِنَّا على قوله، ومَن لم يكن مِنَّا على قوله منعه للحَسَب

(١) لما التقى العباس رضي الله عنه بوفد يثرب قال للنبي ﷺ: يا ابن أخي، إني لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاؤوك، إني ذو معرفة بأهل يثرب. ونظر في وجوههم وقال: هؤلاء قومٌ لا أعرِفهم، هؤلاء أحداث». أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ٢٣: ٢٣، ح: ١٤٦٥٣، بتصرُّف. والحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب الهجرة الأولى إلى الحبشة، ٢: ٦٨١، ح: ٤٢٥١، بتصرُّف، وصحَّحه الحاكم وأقرَّه الذهبي.

(٢) «كان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم». الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر إسلام العباس واختلاف الرواة في وقت إسلامه، ٣: ٣٦٦، ح: ٥٤٠٧، وفيه راوٍ واهٍ. ووصفه النبي ﷺ أنَّه «أجود قريش كفًّا وأحناه عليها». المصدر نفسه، ٣: ٣٧١، ح: ٥٤١٩، وصحَّحه. وفي رواية: «وأوصلها لها». المصدر نفسه، ٣: ٣٧١، ح: ٥٤٢٠.

والشرف. وقد أبى محمد الناس كلُّهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجَلَد وبَصَر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فإنَّها سترميكم عن قوس واحدة، فارتَؤوا رأيكم وائتَمِروا بينكم ولا تتفرَّقوا إلّا عن ملأٍ منكم واجتماع، فإنَّ أحسن الحديث أصدقه»(١).

فقالوا: «يا رسول الله، على ما نُبايعك؟ قال: تُبايعوني على السَّمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العُسر واليُسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تَأخُذكم لومة لائم، وعلى أن تَنصُروني إذا قَدِمْتُ عليكم، وتمنعوني ممَّا تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة. قال: فقُمنا نُبايعه. وأخذ بيده أسعد ابن زرارة ـ وهو أصغر السبعين ـ إلا أنه قال: رُوَيدًا يا أهل يثرب. إنا لم نضرِب إليه أكباد المطي إلّا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأنَّ إخراجه اليوم مُفارقة العرب كافَّة وقتل خِياركم وأن يعضَّكم السيف، فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مسَّتكم وعلى قتل خِياركم ومُفارقة العرب كافَّة فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر عند الله عز وجل. فقالوا: يا أسعد، أَمِط عَنَّا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها [أي: لا نفسخها]، قال: فقُمنا إليه رجلاً رجلاً، فأخذ ليُعطِينا بذلك الجنة»(٢).

فاعتَرَض القول أبو الهيثم بن التَّيِّهان فقال: يا رسول الله، إنَّ بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنَّا قاطعوها ـ يعني العهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهَرَك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعَنا. فتبسَّم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منّي، أُحارِب مَن حاربتم، وأُسالِم مَن سالمتم.

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار، ٤: ٧، بتصرُّف.

(٢) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ٢٢: ٣٤٧ ـ ٣٤٨، ح: ١٤٤٥٦، بتصرُّف. والحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب الهجرة الأولى إلى الحبشة، ٢: ٦٨١، ح: ٤٢٥١، بتصرُّف. وصحَّحه الحاكم وأقرَّه الذهبي.

وقد قال رسول الله ﷺ: أخرِجوا إليَّ منكم اثنَي عشر نقيبًا[١] يكونون على قومهم. فأخرَجوا منهم اثنَي عشر نقيبًا، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس»[٢]. لأنَّ عدد الخزرج أكثر من عدد الأوس في المجتمع اليثربي.

فلما تَخَيَّرهم قال للنقباء: أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي. قالوا: نعم. فلما بايع القوم وكملوا، صاح الشيطان على العقبة بأبعد صوت سمع: يا أهل الأخاشب، هل لكم في محمد والصَّبَأة معه قد أجمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ: انفضّوا إلى رحالكم. فقال العباس بن عبادة بن نضلة: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقّ، لئن أحببت لنَمِيلنَّ على أهل مِنى بأسيافنا. فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نُؤمَر بذلك، فانفضُّوا إلى رحالكم. فتفرَّقوا إلى رحالهم.

فلما أصبح القوم غدت عليهم جلّة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا. فانبعث مَن كان هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما عَلِمنا. وجعل ابن أُبَيّ يقول: هذا باطل وما كان هذا، وما كان قومي لِيَفتَئِتوا [أي: ينفردوا] عليَّ بمثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يُؤامِروني»[٣].

---

(١) النقيب هو: «الباحث عن القوم وعن أحوالهم». الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب النون، ص٨٢٠.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، مسند المكيين، حديث كعب بن مالك الأنصاري ﵁، ٢٥: ٩٣، ح: ١٥٧٩٨، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرَّح بالسماع. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب ابتداء أمر الأنصار، ٦: ٤٥، ح: ٩٨٨١. وابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر العقبة الثانية، ١: ٤٤٢ ـ ٤٤٣، بتصرُّف. و«إسناد رواية ابن هشام حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٠١، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر العقبة الثانية، ١: ٤٤٦ ـ ٤٤٩، بتصرُّف. وابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر العقبة الآخرة، ١: ٢٢٣، بتصرُّف. و«إسناد رواية ابن هشام حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٠١، بتصرُّف.

كانت تلك بيعة العقبة الثانية. «ولما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقومًا أهل حرب وعدّة ونجدة، وجعل البلاء يشتدُّ على المسلمين من المشركين لِما يعلمون من الخروج، فضيَّقوا على أصحابه، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى. فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة. فقال: قد أُريت دار هجرتكم، أُريت سبخة ذات نخل بين لابتَين وهما الحرَّتان، ولو كانت السَّرَاة أرض نخل وسِباخ لقلت هي هي. ثم مكث أيامًا، ثم خرج إلى أصحابه مسرورًا فقال: قد أُخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمَن أراد الخروج فليخرج إليها. فجعل القوم يتجهَّزون ويتوافَقون ويتواسَون ويخرجون ويُخفون ذلك»[1].

أما المسلمون من الأنصار أهل يثرب، فإنَّهم «لما قَدِموا المدينة أظهروا الإسلام بها، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك»[2].

في هذه المرحلة، بدأت الهجرات إلى يثرب، وقد كان رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحقّ والمواساة»[3].

وقد استتبع الهجرة انقسام مقام السكن بين أفراد العائلة الواحدة، والتي كان لديها

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر إذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة، ١: ٢٢٥ ـ ٢٢٦، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر العقبة الثانية، ١: ٤٥٢، بتصرُّف.

(٣) ابن عبد البر، الدرر، ص٩٢، وسنده حسن. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٤٠، بتصرُّف. وورد بعضه في: الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، ذكر مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ٣: ٣٥٥، ح: ٥٣٧٢. وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي. «وحكمة المؤاخاة هي أنَّ بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى. فآخى النبي ﷺ بين الأعلى والأدنى ليرتَفِق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي رضي الله عنه لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمرّ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة رضي الله عنهما لأنَّ زيدًا مولاهم. . . ،». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، ٧: ٢٧١، بتصرُّف.

مستتبعات أُخرى. ومنها أنَّ «سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما هاجر، قالت أمُّه: واللهِ لا يُظِلُّني بيتٌ حتى يرجع. فأنزل الله في ذلك أن يُحسِن إليهما، ولا يطيعهما في الشرك ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] [العنكبوت: ٨]».

وتتبيَّن بوضوح علاقتها مع السورتَين السابقتَين، فقد ذكرنا نماذج من امتحانات التمييز للمؤمنين (بالأحداث والأخبار الغيبية من جهة النبيّ ﷺ والوحي كما في سورة الإسراء، وبالحرب النفسية من جهة الكفار كما في سورة الروم)، في حين تأتي سورة العنكبوت على ذكر النموذج الثالث (امتحانات موجة الاضطهاد الجديدة التي حَدَثَت بعد بيعة العقبة الثانية كما مرّ) مع عرض نتيجتها ببروز صنف جديد هو «المنافقين» مقابل «الذين آمنوا».

□ «**العنكبوت**»[2]: وفيها «تثبيت الإيمان وقت الابتلاء والفتن»[3]. وتبدأ السورة بتأكيد مبدأ الفتنة لمَن ينتسب بلسانه إلى الإيمان ليتبيَّن الصادق من الكاذب. وتعرض السورة نموذجَين، الأول ممَّن ثبت على الإيمان رغم التعلُّق الوجداني له مع والدَيه (مع توصية السورة بالإحسان إليهما وطاعتهما فيما دون الشرك)، مقابل المنافق[4]. ثمَّ يتمّ الاستشهاد

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة العنكبوت، ٢٠: ١٢، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الأربع (البيهقي، وابن الضريس، والزهري، وأبي عمرو الداني) ضمن السور المكية بعد سورة الروم وقبل سورة المطفِّفين. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد اتفقت جميع راويات تحديد المكي من المدني على مكيَّتها أيضًا. هذا، وأعرضها كاملة في هذه المرحلة عدا الآية التي نزلت بعد أُحد وأُلحِقَت بها فيتمّ عرضها في مكانها.

(٣) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة العنكبوت، ص٣٠٢، بتصرُّف. ود. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة العنكبوت، ٥: ٥٨٠، بتصرُّف.

(٤) بعد نزول الآية (١٠) من سورة العنكبوت في مكانها من المرحلة المدنية (بعد نزول صدر سورة النساء وقبل سورة الأحزاب)، يُصبح تعريف المنافق من ربط الآيتَين ببعضهما: الذي نطق الإيمان بلسانه دون تحمُّله تبعات هذا الإيمان بالصبر الإيماني والنفسي على الاضطهاد، ثمَّ يُريد الانتساب المصلحي إلى المؤمنين لنَيل نصيبه من مكاسبهم.

بقَصص الأنبياء على الصبر وتحمُّل الأذى حتى نجاتهم وإهلاك الظالمين بذنوبهم، مع التثبيت بآيات من الظواهر الكونية وآثار الأمم الهالكة. وتمَّ توجيه النبيّ ﷺ (لتثبيت فؤاده من هذا الواقع) بقراءة (واتِّباع) الوحي والصلاة (باعتبارها تنهى عن الفحشاء والمنكر) وذكر الله. ثمَّ تنتقل السورة للحديث عن التعامل الحواري مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن على قاعدة إيمان المسلمين بجميع الكتب المنزلة (على النبيّ ﷺ وعلى أنبياء أهل الكتاب) والإيمان المشترك بإله واحد [وهما ضابطا قَبول التعدّدية العَقَدية]. والرَّدّ على شبهات الكافرين الجاحدين للآيات (الدالة على التوحيد والبعث) الطالبين لمعجزات (كما سبق في سورتَي الرعد والإسراء) رغم أنَّ نزول القرآن يكفي. ولكنَّهم يستعجلون النبيّ ﷺ بالعذاب (في الدنيا والآخرة) وهو آتٍ عليهم.

وتُختَم السورة بتوجيه عباد الله للهجرة في أرض الله الواسعة بصبر وتوكُّل لإظهار التوحيد وشعائر الدين (بدل استسلام المنافقين لأذى الكفار)، وعدم الخوف من الموت المحتَمَل حينها؛ لأنَّه محتَّم على الجميع ومآل المؤمنين الصالحين الجنة، ويبقى الرزق في الدنيا على الله بدلائل من الظواهر الكونية ومن تاريخ مكة التي أمَّنها الله، والهداية منه للذين جاهدوا في سبيله.

➢ وفي خاتمة العهد المكي، يُمكن ترجيح نزول السورتَين التاليتَين:

☐ «**الإنسان**»[1]: وفيها بيان هداية الله للإنسان ـ بعد إيجاده وتأهيله ـ ولابتلائه؛ لاختيار

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مكية. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي الرحمن والطلاق. وقد اعتمدنا مكية سورة الرحمن كما سبق. مع العلم أنَّها «مكية في قول ابن عباس ومقاتل. وقال الجمهور: مدنية. وقيل: فيها مكي، من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] إلى آخر السورة، وما تقدَّمه مدني». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الإنسان، ١٩: ١١٨. كما بالاستئناس

=

سبيل الشكر أو الكفر، مع بيان مقتَضَب لمآل الكافرين، وبيان موسَّع لنعيم الأبرار بذكر نماذج من أعمالهم في الدنيا (إطعام المسكين واليتيم والأسير) لوجه الله مع الصبر. ثمَّ تنتقل الآيات للحديث عن تنزيل القرآن على النبيّ ﷺ وأنَّ عليه الصبر وعدم إطاعة الآثم أو الكفور وذكر ربِّه والسجود بالليل والتسبيح فيه، بمقابل وصف الظالمين بحبّ العاجلة (الدنيا) وتركهم الاستعداد ليوم القيامة الثقيل، مع الاستدلال عليه بأنَّ الله خَلَقَهم وبمشيئته يَبعثهم خَلقًا جديدًا(١).

وتُختَم السورة بكَونها تذكرة لمَن شاء أن يختار سبيلاً إلى ربِّه، مع الإعلام بأنَّ مشيئة الإنسان هي بمشيئة الله الذي يُدخِل مَن يشاء في رحمته ويُعذِّب الظالمين.

هذا، وقد ابتدأ نزول سورة الحجّ في هذه المرحلة قبل وصول النبيّ ﷺ إلى المدينة (سواء أنزلت قبل خروجه من مكة أم بُعَيد خروجه منها)، كما نزلت منها آيات حول غزوة بدر في المرحلة المدنية.

= برواية مقاتل في ترتيب السور فقد وضعها بعد سورة العنكبوت في نهاية العهد المكي. **تفسير الشهرستاني**، ١: ٢١. وإنَّه بالعودة إلى الكلمات القرآنية الواردة في السورة، يتبيَّن كون السورة مكية. فوضع كلمة (شكر) مقابل (كفر) لم ترد إلا في سور مكية تتخلَّل معظم مراحل العهد المكي (كالقمر والنمل ولقمان وسبأ وإبراهيم). وكلمة (كفور) لم ترد إلا في سور مكية تتخلَّل جميع مراحل العهد المكي وصولاً إلى سورتَي الإسراء والحج. وكلمة (يتيم) لم ترد مفردة إلا في العهد المكي. وكلمة (اصبر) كأمر للنبي ﷺ لم ترد إلا في سور مكية تتخلَّل جميع مراحل العهد المكي وصولاً إلى سورتَي المزَّمِّل والروم. والأمر بعبادة السجود في الليل والتسبيح في ليل طويل (بما يتناسب مع آيات سورة المزَّمِّل السابقة عن قيام الليل الطويل)، ووجود آية مشتركة بين السورتَين. لذلك، رجَّحت تغليب إجماع روايات تحديد المكي من المدني على روايات ترتيب نزول السور، واخترت لها أن تكون ضمن السُّوَر الأخيرة من العهد المكي، بعد سورة العنكبوت وقبل سورة الحج.

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الإنسان، ٨: ٢٩٤، بتصرُّف.

□ «**الحجّ**»[(١)]: وفيها أمر الناس بالتقوى وإنذارهم من يوم البعث، وعرض دلائل من حياة الإنسان والظواهر الكونية للدلالة على مجيئه. وعَرَضَت ثلاثة أصناف من الناس: المجادلون بغير علم بهدف الإضلال، والعابدون لله على حَرْف (المنافقون الذين سَبَقَت تسمِيَتُهم في سورة العنكبوت)، والذين آمنوا وعملوا الصالحات. وإثبات تحقُّق نصر الله (للمؤمنين) وأنَّه لا رادّ له. ثمَّ تنتقل السورة إلى جعل الفَصْل بين أصناف الناس حسب معتقداتهم إلى يوم القيامة[(٢)]، وهم: الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئون، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا. وتَعرِض السورة الواقع الحالي للصراع بين الخصمَين في مكة بصَدِّ المشركين للمؤمنين عن سبيل الله والمسجد الحرام، مع أنَّه تمَّت توصية إبراهيم عليه السلام أن لا يُشرِك بالله وأن يُطهِّر البيت ويؤذِّن بالحجّ، مع الإشارة إلى خَيرية وتقوى تعظيم حُرُمات الله. كما عَرَضَت السورة مقاصد المناسك لذكر الله وتوحيده والإسلام له مع الإخبات (المتحَقِّق في وَجَل القلب عند ذكر الله والصبر على المصائب والصلاة والإنفاق) والتقوى والتكبير. ثمَّ الترخيص بالقتال بُعَيد الإخراج مباشرة[(٣)] بعد الظلم الذي وقع عليهم

---

(١) هذه السورة اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الأربع (البيهقي، وابن الضريس، والزهري، وأبي عمرو الداني) ضمن السور المدنية بعد سورة النور وقبل سورة المنافقون. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد ذهبت روايات أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري إلى مدنيَّتها، فيما ذهبت روايتَي الحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس إلى مكيَّتها. مع العلم أنَّها «مكية في قول ابن عباس ومجاهد.. وقال الجمهور: السورة مختَلَطة منها مكي ومنها مدني، وهذا هو الأصح». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الحج، ١٢: ١. لذلك، أعرضها كاملة هنا، ما عدا الآيات التي نزلت وأُلحِقَت بها بعد بدر، فأعرِضها في مكانها.

(٢) عند المبارزة في غزوة بدر (٢هـ)، ستنزل الآيات [١٩ ـ ٢٢] وتُلحَق بما سبق للدلالة أنَّ النَّاس ينقسمون حقيقة إلى خصمَين اختصموا في ربِّهم.

(٣) لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أُخرِج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر رضي الله عنه: أخرجوا نبيَّهم ليهلكنّ. فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] =

وإخراجهم من ديارهم بسبب المعتقد، (وهذا الترخيص سَبَقَه[1] كونه احتمال الانتصار بعد الظلم في سورة الشورى، بعد أن لم يكن خِيارًا مطروحًا أصلاً كالعفو في سورة الأعراف). وقد وعدهم الله بالنصر على أن يلتَزِموا بالصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويتمُّ الاستدلال بآثار الأُمَم السابقة على تحقُّق إهلاك ظالميهم. ثمَّ يتمُّ توجيه النبيّ ﷺ للإنذار، مع عرض امتحان آخر للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم فيما يُلقيه الشيطان في أُمنِيَّة الأنبياء (المنطَلِقة من حِرصهم على إيمان أقوامهم)، فيَعْلَم منه الذين أوتوا العِلم أنَّه الحقّ، كما يستمرُّ الذين كفروا في شَكِّهم منه. وتَعِد الآيات الذين هاجروا في سبيل الله بالرزق

= فقال أبو بكر: لقد علمت أنَّه سيكون قتال». **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، كتاب تفسير القرآن، سورة الحج، ٥: ٣٢٥، ح: ٣١٧١، بتصرُّف. وهذه هي أول آية نزلت في القتال. الطبري، **جامع البيان**، سورة الحج، ١٨: ٦٤٤ ـ ٦٤٥، بتصرُّف. (أي: مقاتلة ظالميهم خصوصًا، بعد أن كانت آية الإسراء أول آية نزلت في القَتْل كما سبق في ص٣٣٢، مع نزول خاتمة سورة المزَّمِّل ضمن هذه المرحلة، وفيها ذِكر أنَّه سيحدث قتال في سبيل الله تعالى). وفي هذه الآية وما بعدها: الإذن بالقتال «للذين ظُلِموا ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنَّهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهَوا عن المنكر». ابن هشام، **السيرة النبوية**، نزول الأمر لرسول الله ﷺ في القتال، ١: ٤٦٨، بتصرُّف. «وهو أمر خاص بأن يُقاتِلوا مَن قاتَلَهم ومَن ظلمهم ومَن أخرجهم من ديارهم». البيهقي، **دلائل النبوة**، باب أول آية أُنزِلَت في القتال، ٢: ٥٨٠، بتصرُّف. هذا، وبعد نزولها بحوالي العام سينزل الأمر بالقِتال في سورة البقرة كما سيأتي ص٣٨٠.

(١) وقد أرَّخ المسلمون لنزول هذه الآيات السنة الرابعة عشرة من البعثة = الأولى من الهجرة، فأصبح اسمها: سنة الإذن. فقد «اعتمد المسلمون بعد الهجرة اسمًا مخصوصًا للسنوات ما بين الهجرة ووفاة النبي ﷺ، كانوا يشتقُّونه من الأحداث التي اتَّفقت للنبي ﷺ. والسنة الأولى سُمِّيَت: سنة الإذن». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. ومحمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية**، ١: ٣٣، بتصرُّف. وتكمن أهميَّة إيراد تلك التسميات في استحضار وتصوُّر المعهود الذهني للمسلمين اجتماعيًّا وحركيًّا وفكريًّا وحضاريًّا في قراءتهم ـ كشهود عيان ومشاركين في صناعة الأحداث ـ لمسار السيرة النبوية.

الحسَن وإدخالهم مُدخَلاً يرضَونه، كما تَعِد مَن بُغِيَ عليه ثانية (عند الهجرة كما تبيَّن) بعد أن سبق أن قام بالانتصار من الظالمين (تنفيذًا لخيار الانتصار في آية سورة الشورى) بأنَّ الله ناصره بعد الهجرة لأنَّ «ما نقص من حقّ المسلمين في الدفاع عن أنفسهم في مكة سيُضاف إلى ما سيحصلون عليه من النصر في المدينة»(١)، وتمَّ الاستدلال على ذلك بالظواهر الكونية(٢). وعَرْض ممارسات قريش بأنَّهم يكادون يُفرطون في السطوة والبطش(٣) على مَن يستمعون منه

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الحج، ٢: ٣٧٩، بتصرُّف.

(٢) «زعم البعض أن آية ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [**الحج**: ٦٠] نزلت في قوم من المشركين لقُوا قومًا من المسلمين لِلَيلتَين بقيتا من شهر المحرَّم، وكان المسلمون يكرهون القتال يومئذ في الأشهر الحرم، فسأل المسلمون المشركين أن يكُفُّوا عن قتالهم من أجل حُرمة الشهر، فأبى المشركون ذلك، وقاتلوهم فبغَوا عليهم، وثبت المسلمون لهم فنُصِروا عليهم، فأنزل الله هذه الآية بأنَّ مَن بُدِئ بالقتال وهو له كاره لَينصُرَنَّه الله. وفي قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [**الحج**: ٦١] يقول: يُدخِل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا، ويُدخِل ما انتقص من ساعات النهار في ساعات الليل، فما نقص من طول هذا زاد في طول هذا، وبالقدرة التي تفعل ذلك ينصر محمدًا ﷺ وأصحابه على الذين بَغَوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم... حتى يُجازى جميعهم على ما قالوا وعملوا من قول وعمل جزاءه». الطبري، **جامع البيان**، سورة الحج، ١٨: ٦٧٥، بتصرُّف. فيُصبح المعنى أنَّ «حساب الربح والخسارة في الصراع مع قريش يجب أن يكون بنظرة شمولية، فما نقص من حق المسلمين في الدفاع عن أنفسهم في مكة سيُضاف إلى ما سيحصلون عليه من النصر في المدينة». د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة الحج، ٢: ٣٧٩، بتصرُّف.

(٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب السين، ص٤١٠. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، سورة طه، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، ٨: ٤٤٠، بتصرُّف.

القرآن، مع أنَّ نار جهنَّم أشدُّ وأشقُّ عليهم، مع إثبات ضعف الأوثان التي يدعونها (فلا يُمكنها نصرهم).

وتُختَم السورة بالأمر بالركوع والسجود والعبادة وفعل الخير والجهاد في الله حقَّ جهاده، باعتبارهم مُختارين من قِبَل الله لا يُكلِّفهم إلا بما يُطيقونه، ومُنتسبين إلى ملّة أبيهم إبراهيم عليه السلام الذي أعطاهم تسمية المسلمين، ذلك ليكون الرسول ﷺ شهيدًا عليهم ويكونوا شهداء على الناس، (ومن هؤلاء الناس سكان المدينة: الوثنيين، وأهل الكتاب عند هجرتهم إليها، وفي الآخرة أيضًا شهادة). وتمَّ توجيههم لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله مولاهم وناصرهم.

حينها كان «المسلمون جميعًا قد خرجوا إلى المدينة، ولم يبقَ بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي، أو مفتون محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج»[1].

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة وتشاوروا حتى قال أبو جهل: «إنَّ لي فيه لَرأيًا، أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نُعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنَّهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعًا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فيرضوا منَّا بالعقل. فتفرَّق القوم على ذلك وهم مُجمِعون له»[2].

ذهب رسول الله ﷺ إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأخبره بالإذن في هجرته وأنَّه سيصحبه،

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر إذن رسول الله ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة، ١: ٢٢٦، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، هجرة الرسول ﷺ، ١: ٤٨٢، بتصرُّف.

واشترى منه البعير الذي سيُهاجر عليه، واستأجرا عبد الله بن أرقط ـ الذي كان مُشرِكًا ـ ليدلّهما على الطريق في الهجرة[١]. وقد رُوِيَ أنَّ النبيّ ﷺ قد هدم مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه صنم قريش ليلاً[٢] قبل خروجه مع أبي بكر إلى غار بأسفل مكة (عكس اتجاه يثرب). كما كانت «رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف ـ وهي أم مخرمة بن نوفل ـ قد حذَّرت رسول الله ﷺ فقالت: إنَّ قريشًا قد اجتمعت تُريد بياتك الليلة. فتحوَّل رسول الله ﷺ عن فراشه وبات عليه عليٌّ رضي الله عنه»[٣] الذي أوصاه أن يردَّ الودائع (الأمانات) إلى أصحابها[٤].

وهكذا، اجتمعت في هذه المرحلة رؤية التعدّدية المجتمعية مع بدايات تحويلها إلى آليات إدارية. فقد توضَّح دور الإيمان بالله واليوم الآخر عَمَليًّا في صياغة شخصية اليثربي بعيدًا عن الخِيارات القَبَلية التي فرَّقتهم من جهة، وتمييز المؤمنين من مسلمي مكة قبل

---

(١) «استأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل ثم من بني عبد بن عدي هاديًا خريتًا ـ ماهرًا بالهداية ـ قد غمسَ يمينَ حِلْفٍ في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأَمِناه فدفعا إليه راحِلَتَيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال». **صحيح البخاري**، كتاب الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام، ٢: ٧٩٠، ح: ٢١٤٤، بتصرُّف.

(٢) «تُشير رواية ضعيفة إلى كسر الرسول ﷺ وعلي رضي الله عنه لصنم نحاسي كان في أعلى الكعبة، وذلك في الليلة التي بات فيها علي في فراشه ﷺ، ومدار الرواية على نعيم بن حكيم وهو صدوق له أوهام، ومثله لا يحتج بما تفرَّد به، وقد تفرَّد بهذه الرواية». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢١٠، بتصرُّف.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، تسمية النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم، ٨: ٢٤٦.

(٤) عن علي رضي الله عنه قال: «لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة في الهجرة، أمرني أن أُقيم بعده حتى أُؤَدِّيَ ودائع كانت عنده للناس، ولذا كان يُسمَّى الأمين، فأقَمت ثلاثًا». المصدر نفسه، ذكر إسلام علي وصلاته، ٣: ٢٢.

هجرتهم من جهة أُخرى. كما أوضحت الروايات أنَّ خِيار القتال ظلَّ ممنوعًا ضمن المجتمع الواحد من أقليّة لا سلطة فيها مهما قوِيَت، سواء أكان صادرًا من أهل المجتمع أم مدعومًا من مجتمع آخر أيضًا. وقد انتهج النبيّ ﷺ مع جماعة السبعين (ممثّلي المجتمع اليثربي) عرض الموقف عليهم وشروطه، واستمع منهم، ثمَّ تمَّ انتخاب نقباء مختارون من أقوامهم (بتعداد تناسبي) يتولَّون مهمّة تبليغ رسالة النبيّ ﷺ إليهم، ويبحثون عن أحوالهم (آراء، واتجاهات) ليُعبِّروا عنها إلى النبي ﷺ. هذا، وقد تناولت الآيات أنَّ الفصل بين أصحاب المعتقدات العَقَدية هو يوم القيامة، وأنَّ تسميتهم الإبراهيمية (الجدّ المشترك مع العرب وأهل الكتاب) هي «المسلمين».



خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة:	الخامسة
	السور:	٧ سور (الملك إلى الانشقاق) + المزمل. الإسراء، الروم، العنكبوت، الإنسان، ثمَّ الحج
	الزمن:	١٢ ـ ١٣ بعثة
	الأحداث:	تنمية إيمان وفد من يثرب وبيعتا العقبة يتخلَّلهما الإسراء ثمَّ الهجرة
	الهدف:	تهيئة يثرب لاستقبال الدعوة
الفعل	الموضوع	إجابة أسئلة المشركين حول البعث وإثباته بالدلائل، وتنمية دوافع الإيمان، وأحقية نزول العذاب على مشركي مكة، والدعوة إلى الإيمان والإصلاح الاجتماعي والصلاة والإنفاق. والأمر بقيام الليل، واستعراض من تاريخ بني إسرائيل، والمسؤولية الفردية، والوصايا العشر (التوحيد والإحسان وإتيان الحقوق وعدم القتل أو مقاربة الفاحشة والوفاء)، والرَّدّ على شبهات الوثنيين، والامتناع عن تقديم معجزات، وتسلُّط إبليس على ذرية آدم غير العابدين، والتعامل الحواري مع أهل الكتاب بالَّتي هي أحسن على قاعدة الإيمان بالكتب المنزلة والإله الواحد، وإرجاء الفصل بين أصناف الناس بحسب معتقداتهم إلى الآخرة، وذكر أصل التوحيد عند إبراهيم وفي مناسك الحجّ (باعتبار دخول الموسم حينها)، والانتساب إلى إبراهيم بتسميته للمسلمين.
	الأسلوب	الإنذار...،
	الإطار	شباب آمنوا بالدعوة لتجتمع مدينتهم عليها
	المخاطَب	المؤمنين عمومًا، وأهل يثرب خصوصًا، مع المشركين للرَّدّ عليهم
	الضمانة	منعة إيمانية ببيعة
ردة الفعل	الاتجاه العام	الإيمان بالنبيّ ﷺ ونُصرة الدعوة
	الأسباب	استشعار مستتبعات الدعوة الإيجابية عليهم
	الوسائل	الوعد ثمَّ المبايعة

الاستجابة		نزول سور مشاهد القيامة
ردة فعل قريش	الاتجاه العام	تكذيب حديث الإسراء فكرة الإخراج من مكة الحرب النفسية (بعد غلبة الفرس على الروم) موجة اضطهاد محاولة اغتيال النبي ﷺ ليلة الهجرة
	الأسباب	خوف قوة المسلمين المؤدية إلى القتال
	الوسائل	الاستفزاز، الاغتيال
الاستجابة		الإعلام بأنَّ الرؤيا التي حدثت ليلة الإسراء امتحان للناس عدم الركون إلى الكافرين وتوعُّدهم بأنَّ إخراج الرسول ﷺ من بلده يستتبع هلاكهم من بعده الإعلام بأنَّ ظواهر الأمور تختلف عن بواطنها، مع الاستدلال على التوحيد والبعث من الظواهر الكونية وعلى النصر من ظواهر حياة الإنسان، والتوجيه للصبر تثبيت الإيمان وقت الفتن، والتوجيه للهجرة في الأرض الواسعة مع الوعد بالرزق
تميز مكوِّنات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي:	داخلي (ضمن المجتمع الواحد) ـ الاستفزاز للإخراج
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	المرتد (بإنكار الإسراء) المنافق (بعدم الصبر على موجة الاضطهاد) الذين في قلوبهم مرض القاسية قلوبهم
	مظاهر الاختلاف فيها:	خُلُقي (تفاضل بين الانتمائي والبيئي مقابل المصدري)
	التميز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	التميز بين المؤمنين فيمَن يؤمن بالغيب التميز بين المؤمنين فيمَن يتحمَّل الاضطهاد أو يُهاجر في سبيل الله استمساكًا بدينه التميز بين المؤمنين والذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا:	قوة
	حركة/ جمودًا:	حركة
	نوعًا/ عددًا:	هجرة لكثيرين

ملاحق الباب الأول
موضوعات في السور المكية

أولاً: أهل الكتاب:

مرَّ معنا في السور المكية أنَّ أهل الكتاب يتَّفقون مع المسلمين على أصل الرسالة ونزول الوحي على الأنبياء (سورة فاطر)، وعلى قَصص أنبيائهم (سورة يونس)، وعلى التوحيد (سورة الأنعام)، وعلى نبذ عبادة الأصنام (سورة الزخرف)، وعلى تصديق بني إسرائيل على مثل ما في القرآن، وعلى كون الرسل رجالاً وليس ملائكة (سورتَي النحل والأنبياء)، وعلى التوحيد وكون وراثة الأرض للصالحين (سورة الأنبياء). كما تمَّ الاستشهاد بمَن عنده علم من الكتاب على كون النبيّ ﷺ مُرسلاً (سورة الرعد كما بدأ سلسلة الاستشهادات بذلك في سورة الأعراف)، وعلى كون الآيات التي تمَّ تكذيبها قد أعقبها إهلاك بعد استفزاز المؤمنين من الأرض (سورة الإسراء)، وعلى وجود إله واحد (سورة العنكبوت) مع إيمان المسلمين بالكتب المنزلة.

ثانيًا: منظومة الإنفاق:

تبيَّن أنَّ المرحلة الأولى ـ التي تَوَجَّه الخطاب فيها إلى المجتمع المكي ـ أشارت إلى الاهتمام بأربع شرائح والإنفاق عليها، وهي: اليتيم بإكرامه وإطعامه، والمسكين بإطعامه (ويدخل معه أصحاب الدخل القاصر عن الكفاية لقلّة الأجر أو كثرة العيال أو ارتفاع الأسعار...)[1]، والسائل بعدم انتهاره، والرقبة بفكِّها (تحرير العبيد). وقد تبيَّن ذلك في سور الفجر والضحى والماعون وتتمة المدَّثِّر والبلد والإنسان. والمُلاحَظ أنَّه لم يتمّ ذكر الرقبة في مكة منذ انتهاء المرحلة الأولى حتى بداية المرحلة المدنية التي يتوجَّه فيها الخطاب إلى المجتمع المدني. أما اليتيم، فلم يعد يُذكر إلى ما قبل الهجرة إلى المدينة. هذا، وتُذكر الرقبة واليتيم في العهد المكي بصيغة المفرد دائمًا.

---

(١) د. يوسف القرضاوي، فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة، ٢: ٥٤٧ ـ ٥٤٨، بتصرُّف.

أما في المرحلة الثالثة، والتي يتوجَّه الخطاب فيها إلى القبائل وأهل الأسواق ـ سواء قبل الحصار أو بعده ـ فقد أشارت إلى الاهتمام بخمس شرائح والإنفاق عليها، وهي: الوالدان بالإحسان إليهما وشكرهما ومصاحبتهما بالمعروف، والسائل والمحروم (الذي لم يُوَسَّع عليه الرزق كما وُسِّع على غيره)[1] بإعطائهما حقَّهما في الأموال (والذي يُدرِكه ويفعله المتَّقون)، وذو القربى (قريب الرَّحم والنَّسب)[2] بإيتائه، والمسكين بالحضِّ على إطعامه. وقد تبيَّن ذلك في سور الأنعام ولقمان والذاريات والنحل.

أما في المرحلة الخامسة، والتي يتوجَّه الخطاب فيها إلى المسلمين بعد إيمان وفد يثرب وما تخلَّله من بيعة العقبة وإعداد المجتمع الحاضن البديل فيها، فقد أشارت إلى الاهتمام بستّ شرائح والإنفاق عليها، وهي: السائل والمحروم بإعطائهما حقَّهما المعلوم في الأموال (والذي يُدرِكه ويفعله المصلُّون)، وذو القربى والمسكين وابن السبيل (ويدخل معه المهاجرون والمشرَّدون المحرومون من المأوى واللاجئون السياسيون الذين فرُّوا من ديار الكفر أو الطغيان، وهو في كل ذلك غريب عن وطنه ومنزله)[3] بإيتائهم حقوقهم، إضافة إلى الوالدَين بالإحسان لهما. وقد تبيَّن ذلك في سور الحاقة والمعارج والإسراء والروم والعنكبوت. وذكر ذي القربى والمسكين وابن السبيل ينسجم مع بداية الهجرات الفردية إلى المدينة ممَّن تنطبق عليهم هذه الصفات، خاصة ابن السبيل الذي يُذكر في هذه المرحلة لأول مرّة. وقد انتهت هذه المرحلة ببيعة العقبة الثانية في موسم الحجّ الذي نزل فيه التوجيه في سورة الحجّ للاهتمام بالبائس الفقير والقانع (السائل الذي لا يُلحّ في السؤال ويرضى بما يأتيه)[4] والمعترّ (الغريب الفقير الذي يتعرَّض[5] دون سؤال)[6].

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الحاء، ص٢٣٠، بتصرُّف.

(٢) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب القاف، ٥ : ٨٠، بتصرُّف. والراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب القاف، ص٦٦٤، بتصرُّف.

(٣) د. يوسف القرضاوي، **فقه الزكاة**، ٢ : ٦٨٣ ـ ٦٨٤، بتصرُّف.

(٤) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب القاف، ص٦٨٥، بتصرُّف.

(٥) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب العين، ٤ : ٣٤ ـ ٣٥، بتصرُّف.

(٦) الطبري، **جامع البيان**، سورة الحج، ١٨ : ٦٣٦، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الحج، ٥ : ٤٢٨، بتصرُّف.

الباب الثاني
إدارة التعدُّدية المجتمعية في مسار التنزيل ومسيرة العهد المدني

تمهيد: خصائص العهد المدني

أولاً: تنظيم الحياة في المدينة قبل الهجرة:

يثرب[١] ـ كما كان اسم المدينة المنورة قبل الهجرة ـ «قدرها في مقدار نصف مكة، وهي في حَرَّة سبخة الأرض [واحة زراعية خصبة] ولها نخيل كثيرة ومياه»[٢]، «وتقع على الطريق التجاري بين اليمن والشام. وكما تختلف عن مكة في ظروفها الطبيعية، فتختلف عنها كذلك من حيث واقعها السكاني الذي التقت فيه ديانات وثقافات ومجتمعات مختلفة، بخلاف مكة ذات الطبيعة الواحدة والطابع الواحد والدين المشترك. ولكنَّها على شاكلة مكة في عدم وجود سور أو حائط يُحيط بها ولا خندق ليكون حائلاً أمام مَن يُريد بالمدينة سوءًا. فكان عماد أهلها بالتحصُّن في بيوتهم وبسدّ منافذ الطرق في أثناء الخطر، والأغنياء الموسِرون يعتمدون على آطامهم وحصونهم وقصورهم، يلتجؤون إليها عند الشدة. وفي يثرب شِعَب تسكنها بطون الأوس والخزرج واليهود، وكانت فيها دور مبنية بالآجُرّ [لَبِن مُحرق معدّ للبناء]. كما كانت فيها آبار احتفرها اليهود وكانوا يبيعون الماء منها بالدلاء. من

---

(١) يثرب: «قيل سُمِّيَت يثرب نسبة إلى يثرب بن قانية من أولاد سام بن نوح. وقيل: بل من التثريب من اللوم والتوبيخ. وقد غيَّر النبيُّ ﷺ اسمها لمَّا نزلها ودعاها طيبة وطابة». سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٩١، بتصرُّف.

(٢) ياقوت، **معجم البلدان**، حرف الميم، باب الميم والدال، ٥: ٨٢، بتصرُّف.

هذه الأحياء والشِّعاب المحصَّنة بالآطام كانت تكوَّن يثرب، فهي في الحقيقة مجموعة من القرى المتقاربة المتجمِّعة التي تكوَّنت منها يثرب»[١].

وبسبب طبيعة التنوُّع الماثلة في يثرب، يلزم التفصيل أكثر في شكل العلاقات بين ساكنيها: عربًا ويهودًا، من خلال استعراض بعض الأحداث من تاريخهم، لِما في ذلك من أهمية خلَّفت ظلالاً على العهد النبوي بعد الهجرة، وظهرت من خلال سياسة إدارة النبيّ ﷺ لهذا التنوُّع:

أما اليهود، فقد هاجروا إلى الحجاز فزعًا من الرومان في الشام[٢] «وسبقوا الأوس والخزرج إلى يثرب. وقد عاش فيها العديد من القبائل اليهودية، أشهرها: بنو النضير وبنو قريظة المنسوبتان إلى نبي الله هارون عليه السلام، حيث كان بنو النضير يرَون لأنفسهم

---

(١) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ٩١ ـ ٩٣، بتصرُّف.

(٢) «ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على إثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم، مما اضطرّ ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، وهو خبر يستند إلى أساس تاريخي صحيح، لأنَّ فتح الرومان لفلسطين أدَّى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يُستَبْعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين». د. جواد علي، **المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ١٢: ٩٤. ورغم اختلاف النظريات حول أصل يهود يثرب والمكان الذي هاجروا منه، والزمان الذي قدموا فيه. ولكنَّ أقواها يميل إلى أنَّ بداية نزوحهم من الشام في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول قبل الميلاد وعلى اليهود ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد، مما أدى باليهود إلى الهجرة إلى شبه جزيرة العرب التي كانت بعيدة عن سيطرة الرومان الذين أفزعوهم. وقد اشتدَّت هجرتهم بعد فشل التمرُّد اليهودي ضد الرومان عام (٧٠م)، وما بين عامَي (١٣٢ـ١٣٥م). وقد شكّل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية في المدينة والحجاز. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٢٧ ـ ٢٢٨، بتصرُّف.

الشرف على بني قريظة[١]. بالمقابل امتاز بنو قريظة على جميع القبائل اليهودية في المدينة أنَّهم من أكثرهم عددًا. وكانت منازلهما في منطقة العالية في أطراف المدينة وضواحيها. والقبيلة الثالثة المشهورة هي بنو قينقاع التي تنتسب إلى نبي الله يوسف عليه السلام، وكانت منازلهم في وسط المدينة وداخلها، وعاشوا منعزلين عن غيرهم ولم يُمارسوا الزراعة كغيرهم من اليهود، وعُرِفوا بالأموال الطائلة لاشتغالهم بالتجارة والصياغة. وكان عدد الرجال من القبائل اليهودية الثلاث نحو ألفَي رجل. ويُضاف إلى تلك القَبائل حوالي العشرين من العشائر والبطون اليهودية الصغيرة. وقد امتلك اليهود بهذا الانتشار أكثر أراضي المدينة خصوبة وأوفرها مياهاً، مما مكَّن لهم السيطرة على الموارد الزراعية للمدينة إلى جانب مواردها الاقتصادية الأُخرى، فوفَّر ذلك لهم سيطرة ونفوذًا واستغلالاً للقبائل العربية فيها»[٢]. أما فيما بينهم، فقد «تميَّزت العلاقات بين القبائل اليهودية بالتفكُّك والفتور بسبب اشتراك هذه القبائل ضدَّ بعضها في الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج (كما سيأتي)، وبسبب طغيان النزعة القَبَلية عليهم وعدم تجمُّعهم في كتلة واحدة، بل سيطرت عليهم المنفعة الشخصية فأهدروا في سبيلها كلَّ مصلحة مشتركة»[٣]. بالمقابل، فإنَّهم يرَون لأنفسهم التمايز العرقي عن العرب كما سيأتي.

وأما العرب، فقد «نزلت بطون وعشائر عربية مختلفة يثرب. ثمَّ نزلت بعدهم قبيلتا الأوس والخزرج بعد خروجهما من اليمن إثر تصدُّع سَدّ مأرب [والاضطرابات السياسية

---

(١) فقد كان إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قُتِل به، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من بني قريظة دُفِعَت عنه الدية. وكذلك وقع التمييز في الديات، فكان بنو قريظة يؤدون دية كاملة، بينما كان بنو النضير يؤدون نصف الدية. وقد سوى النبيُّ ﷺ بينهما ورفع المظالم بعد أن رُفِع إليه الأمر». د. سامي حمدان أبو زهري، **يهود المدينة في العهد النبوي أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية**، ص٦٩، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٧ ـ ٤٤، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٧ ـ ٧٠، بتصرُّف.

والتدهور الاقتصادي بعد سيطرة الرومان على البحر الأحمر وانتقال تجارة الهند عبره][(١)]. وفي يثرب أصبحت منازل الأوس في منطقة عالية (عوالي المدينة) عُرِفَت بخصوبتها، ومنازل الخزرج في منطقة سافلة (سافلة المدينة) أقل خصوبة. وكان لهذا أثره الكبير في توتُّر العلاقات بين الأوس والخزرج فيما بعد»[(٢)].

وقد «عاش الأوس والخزرج حياة قاسية بعد وصولهم إلى يثرب، بسبب استئثار اليهود بالثروة والسلطان، فعاشوا في مسالَمة وتحالف مع اليهود. ومع مرور الوقت استفاد الأوس والخزرج من حلفهم مع اليهود فازدادت أعدادهم ونَمَت ثرواتهم، فأحسَّ اليهود بذلك وأدركوا خطورة الموقف وخافوا أن تنتقل السيادة على المدينة إلى الأوس والخزرج، فانقلبوا عليهم وقطعوا حلفهم معهم، وساد التوتُّر والعداوة بين الفريقَين، ممَّا دفع الأوس والخزرج إلى البحث عن حليف من العرب ينصرهم على اليهود، حتى كانت لهم الغلبة عليهم حوالي سنة (٤٩٢م). وبتراجع دور اليهود انتقلت السيادة إلى الأوس والخزرج، وتمَّت إعادة انتشار لهما بالمدينة فتفرَّقوا من جديد فيها. كما دخلت القبائل والبطون اليهودية في أحلاف جديدة معهما، فدخلت بنو قريظة وبنو النضير في حِلف الأوس، ودخلت بنو قينقاع في حِلف الخزرج. ولكن، كان لانتقال السيادة للأوس والخزرج أثرًا في تحوُّل صراعاتهم مع اليهود إلى صراعات داخلية، فوقعت بينهم العديد من الأيام والحروب المشهورة استمرَّت أكثر من (١٢٠) سنة، ولم تتوقَّف إلا قبل الهجرة بخمس سنين (يوم بعاث). وكان مردّ أسباب الحروب إلى التنافس الاقتصادي والسياسي على الرئاسة والسيطرة بينهما، كما كان لليهود دور في إثارة الفتن والمشاحنات وتأجيج العداوة بينهما لما تسبَّبوا من كسر شوكتهم والغلبة عليهم، وعَكَس تبادل القبائل اليهودية الأدوار والتحالفات بين الأوس والخزرج سياسة مدروسة لإضعاف الفريقَين فيما يؤدي إلى زيادة نفوذهم السياسي وتعزيز السيطرة الاقتصادية والمالية في يثرب بقروضهم الربوية لهما في

---

(١) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١ : ٢٣٠، بتصرُّف.

(٢) د. سامي حمدان أبو زهري، **يهود المدينة في العهد النبوي**، ص٣٣ ـ ٣٧، بتصرُّف.

الحرب. كما أظهرت ممارساتهم في تلك الحروب نواياهم المبيَّتة التي أدَّت إلى سعي الأوس والخزرج لاحقًا لتحقيق السلام وجمع الكلمة واختيار أحد أشراف قبيلَتَيهما لتويجه ملكًا (وهو عبد الله بن أُبَيّ بن سلول) قُبَيل الهجرة النبوية التي حالَت دون ذلك، فانتقل إلى صفوف المناوِئين للمسلمين رغم تظاهره [لاحقًا] بالإسلام»[١].

وأُشير إلى أنَّ «اليهود كانوا أكثر غنى من العرب، لأنَّ العرب أَلْهتهم النزعة إلى التخاصم والتقاتُل عن الاشتغال بالزراعة وإقامة أسواق تجارية كما فعل اليهود»[٢].

أما «حول الحكم في يثرب، فلم تكن فيها حكومة [مركزية كدار الندوة في مكة] تُسيطر على الأوضاع فيها وتُنظِّم العلاقات بين سُكّانها، وبينهم وبين جيرانهم والدول المحيطة بهم، بل: صِلات وروابط اتُّخِذت أساسًا لذلك، كالحذر والاستعداد من أهل البادية، والاحترام والمنافع المتبادلة مع بقية مدن الحجاز»[٣].

ولكن، كان للقبائل العربية فيما بينهم نظام حكم رؤساء القبائل في تبعيَّة القبيلة لرأي سيِّدها في السلم والحرب كما مرَّ عند الحديث عن الحكم في مكة[٤].

وبالنسبة للقبائل اليهودية، فكان «عامة اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وسادتهم الذين هم أصحاب الحصون، فيدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه في كل سنة. كما كانت الوظائف المختلفة من دينية وسياسية تنتقل بالوراثة من السلف إلى الخلف في الأسرة الواحدة التي تنفرد بعمل من الأعمال. وكانت البطون الكبيرة أصحاب الحكم، وكل بطن يجتهد في أن ينفرد بالنفوذ»[٥].

---

(١) د. سامي حمدان أبو زهري، **يهود المدينة في العهد النبوي**، ص٤٨ ـ ٦٢، بتصرُّف.

(٢) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ١٠٢، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ١: ٩٩ ـ ١٠٠، بتصرُّف.

(٤) يُراجع تمهيد الباب الأول ص١٣٩ وما بعدها.

(٥) د. سامي حمدان أبو زهري، **يهود المدينة في العهد النبوي**، ص٧٠، بتصرُّف.

هذا، وقد «كان لوجود اليهود في يثرب أثر في سياستها على الصعيد الخارجي بالحماية من بعض الحملات العسكرية»[١].

أما حول أثر التنوّع فيما بين ساكني يثرب، فقد «ترك اليهود بعض طوابعهم عليها كما تأثَّروا بالقبائل العربية. من ذلك أن اليهود نقلوا من الشام إلى يثرب فكرة بناء الآطام، وحملوا معهم خبراتهم الزراعية والصناعية مما أثَّر في ازدهار بساتين يثرب حيث النخيل والأعناب والرمان وبعض الحبوب، كما ظهر الاهتمام بتربية الدواجن والماشية وبرزت صناعات النسيج الذي تحوكه النسوة إلى جانب الأواني المنزلية وبعض الأدوات الأخرى اللازمة للمجتمع الزراعي. كذلك أثَّر العرب باليهود فظهرت طوابع الحياة القبلية عليهم بما فيها من عصبية وكرم واهتمام بالشعر وتدريب على السلاح»[٢].

ثانيًا: شخصية النبيّ ﷺ بين البشرية والرسالة (في المدينة):

إضافة إلى ما سبق بيانه في تمهيد الباب الأول من استعراضٍ لشخصية النبيّ ﷺ في مكة، نستكمل العرض وفق مستجدات المدينة كالتالي:

سياسيًا: بنى بعد الهجرة إلى المدينة المنورة مجتمعًا بفكر سليم وقواعد شعبية مؤمنة به، تُنفِّذ النظم بإخلاص، وتُدافع عنها بتَفانٍ. سَاسَ المجتمع داخليًا بجَمْع ما أمكن من الكفاءات المخلِصة فيه، وامتصاص الحقد بالعطاء، وتطييب القلوب، والاستقرار الداخلي. وساسَهُ اقتصاديًا باستنباط ثرواته، وإقرار الملكيات الفردية دون أن تتعلَّق بنفع عام، ووجَّه نحو العمل، وعدالة الأسعار، وإعادة توزيع الثروة بعدل. وساسَهُ خارجيًا بمعرفة خصائص الشخصيات القيادية عند الخصوم، وإقناعهم بقوّة مجتمعه، واحتوائهم، مُؤْثِرًا المعالجات بالطرق السلمية مع تحاشي الصدام المسلَّح ما لم يُبتدأ بحرب، وبالمعاهدات المؤقَّتة، والتبادل الدبلوماسي.

---

(١) سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، ١: ١٠٠، بتصرُّف.

(٢) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٢٩، بتصرُّف.

وعسكريًا: كان مِثالاً للقائد في لياقته البدنية، وبُعد نظره، وسرعة اتخاذ القرار (الصحيح)، وشجاعته، ورباطة جأشه (عكس فقدان الأعصاب)، وقدرته على السيطرة على الجيش وإعادة التنظيم، ومعرفة خصائص رجال الخصم، دون استبداد برأي، ومع تحمُّل للمسؤولية، عبر إعداد الجنود ليكون الشعب كلُّه مجنَّدًا. وكان واعيًا لمقدِّمات القتال وأساليبها الإعلامية والاقتصادية والتربوية والمعلوماتية والأمنية والاستشارية، عبر تفريق الخصوم وحرب الهجوم، وكلّها شكَّلت وسائل ـ لا أهداف ـ لضمان مسيرة الدعوة إلى الله»[١].

ثالثًا: خطاب العهد المدني:

أ. **وضعية المخاطَب**: يُشكِّل المسلمون في العهد المدني مجتمعهم الذي يكون أمرهم فيه بيدهم وليس عليهم سيطرة من أحد من الناس. لذلك تتمظهر إدارة التعدّدية في نظام وسلطة قضائية، ومهمَّة النبيّ ﷺ في هذا المجتمع حسب تعبير وصف القرآن هي «الحكم بين النَّاس»، وليس حكم الناس أو التحكُّم بهم أو محض الحكم عليهم. وستتبيَّن الأبعاد التي تحقَّقت فيها تلك الإدارة عند الحديث عن صحيفة المدينة بعد غزوة بدر[٢].

ب. **نوعية الخطاب**: يتَّجه الخطاب في المجتمع المدني «إلى النبيّ ﷺ وآله، وإلى المسلمين باختلاف درجاتهم الإيمانية، سواء أكانوا من ساكني المدينة المنورة أم من خارجها (مع وجود اختلاف في مطلوب الخطاب فيها بينهما)، وإلى المشركين، وإلى أهل الكتاب اليهود والنصارى، وإلى المنافقين، وإلى الأعراب. . . ،

ج. **موضوع الخطاب**: يدور الخطاب حول «مسائل الحضارة والعمران، ومسائل المعيشة والاقتصاد، ومسائل السياسة والحكومة، ومسائل السلم والحرب، والتنقيح الكامل

---

(١) أ.د. محمد رواس قلعة جي، **دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (من خلال سيرته الشريفة)**، ص٢٠٨ ـ ٢٦٠، بتصرُّف.

(٢) يُراجع: المبحث الأول من الفصل الثاني من الباب الثاني، ص٤٣٣ وما بعدها.

لمسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وغيرها من مسائل الحياة، [بما يتناسب تمامًا مع واقعهم الجديد] في تكوينهم لمجتمع أمرهم فيه بيدهم وليس عليهم سيطرة من أحد من الناس»[١].

د. **أسلوب الخطاب**: «يُراعي الأسلوب طرائق تفكير البيئة المدنية التي فيها قبائل من أهل الكتاب اليهود، الذين يعرفون من الكتب السابقة طرائق البيانات التفصيلية في الجمل والفقرات والآيات الطوال، فيتوجَّه إليهم القرآن بآيات مطوَّلات فيها سجلٌ أحداثهم وما كان منهم مع موسى عليه السلام، وما كان منهم من معاصٍ لأنبياء بني إسرائيل. كما نزلت الآيات بمناسبة الوقائع والغزوات والأحداث الاجتماعية في بيئة العهد المدني، وتناولت ـ مع إيجازها البديع بالتفصيل، ولو عن طريق الإشارة باختيار كلمة دون مُرادفها ـ كلَّ ما ينبغي بيانه، من حكم وتوجيه وتعليم وموعظة وترهيب وأمر ونهي»[٢].



---

(١) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص١٦٨، بتصرُّف.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص٥٦، بتصرُّف.

الفصل الأول

مسيرة البناء... إدارة وإعداد (تشكيل قالبي)

المبحث الأول: إدارة مجتمع متعدِّد متضامن

تبيَّن ممَّا سبق مدى التنوُّع المطلوب إدارته في المدينة المنورة، والذي يُعاني داخليًا من تاريخ صراعات وأحقاد، وخارجيًا من تحدِّي العداء لقريش باستقبال المسلمين في يثرب للنبيّ ﷺ وقدومه إليها[١].

لقد أدرك النبيُّ ﷺ وأصحابه ـ مهاجرين وأنصارًا ـ أنَّ تدافعًا عسكريًا مع قريش سيحدث[٢]، فكان ذلك دافعًا للتماسك الداخلي في المدينة[٣]. لذلك كان على إدارة النبيّ ﷺ أن تنطلق من واقع ما بعد الهجرة، حيث توافد مُهاجرون على منطقة جديدة وعليهم أن يبدؤوا حياتهم فيها بتأمين عَيشهم[٤]، مقابل وجود أنصار يحتاجون إلى إدراك روح الإسلام ومقاصده وتعاليمه[٥]. كما يحتاج كلاهما أن تذوب العصبيات الجاهلية

---

(١) «قدم النبي ﷺ المدينة في شهر ربيع الأول، وإنَّ النَّاس أرَّخوا لأوَّل السنة». الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب يعلى بن منية رضي الله عنه، ٣: ٤٧٩، ح: ٥٧٩٠، بتصرُّف. والطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٣٩٠، بتصرُّف.

(٢) كما تبيَّن من آيات القتل والقتال التي نزلت في سورتَي الإسراء والحج، وما حدث بين نزولهما من حوارات بيعة العقبة الثانية.

(٣) وقد تبيَّن في سورة فاطر المكية قاعدة: الاتفاق على العدو المشترك هو عامل جمع مع الآخر في الداخل (البلد الواحد).

(٤) فقد ترك بعض الصحابة خلفه الأهل والأموال، وهاجر بنفسه في سبيل الله.

(٥) فقد كان هناك مسلمون في المدينة لم يُنظِّموا التزامهم الديني وفق مقاصد الإسلام وترتيب =

فتكون الحمية للإسلام دون اعتبار لفوارق النسب أو اللون. وكلُّ أهل المدينة (مسلمون ومشركون ويهود) يحتاجون معًا إلى إزالة حزازات الجاهلية والنزاعات القَبَلية، ليكون بالنتيجة مجتمعًا تتضامن جميع مكوِّناته نحو تنمية الداخل وتماسكه فتتلافى إنشاء أحلاف مع قريش في الخارج التي تنصب العداء للإسلام المُحتَضَن بالمدينة[١].

لذلك، قام النبي ﷺ بعدة إجراءات للاستجابة الإيجابية البنَّاءة للتحديات الداخلية والخارجية:

١. بناء المسجد: «حرص ﷺ على أن يجعل من الصلاة مناسبة لتلاقي المسلمين في مكان واحد، ليُتاح لهم أن يتعارفوا ويتناجَوا في شؤون حياتهم وشجونها، وأن يتبادلوا الرأي والنصح فيما يعود على جماعتهم بالنفع والخير والسداد وصالح الأعمال»[٢]. فكان إنشاء «المسجد مركز الإسلام ونادي المسلمين، الذي وضعه النبي ﷺ في إطاره السياسي والاجتماعي والفكري، إضافة إلى دوره كبيت للمال وسجن للمجرمين وقصر عدل للفصل بين الناس ومستوصفًا ومجلس نواب ودار إذاعة وإعلام وجامعة علمية»[٣]. فكان هو الساحة المشتركة لإدارة الشأن العام للمجتمع عمومًا وللمسلمين خصوصًا.

= أولوياته، كحالة أبي الدرداء رضي الله عنه حين زهد في الدنيا فلم يوفِ بحقِّ نفسه وأهله. **صحيح البخاري**، كتاب الصوم، باب مَن أقسم على أخيه ليُفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء، ٢: ٦٩٤، ح: ١٨٦٧.

(١) كما تبيَّن من وجود كتابات بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وقبل غزوة بدر من كفار قريش إلى عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومَن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، تدعوهم لمقاتلة النبي ﷺ أو إخراجه، أو تتوعَّدهم بالمقابل بمقاتلتهم واستباحة نسائهم. فلما اجتمعوا لقتال النبي ﷺ وبلغه ذلك، لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تُريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تُريدون أن تُقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟» فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرَّقوا. أبو داود سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، كتاب الخراج، باب في خبر النضير، ٣: ١٥٦، ح: ٣٠٠٤، بتصرُّف.

(٢) طه الولي، **المسجد في الإسلام**، ص١٥٠، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٩ ـ ١٦٣، بتصرُّف.

وقد كان «الذين أسلموا من أهل المدينة قبل الهجرة قد اتَّخذوا لأنفسهم بعض الأمكنة ليُقيموا فيها صلاتهم، بيد أنَّ هذه الأماكن لم تكن مساجد بالمعنى الاصطلاحي للكلمة»[١]، أي: «المكان المخصَّص للعبادة عند المسلمين»[٢]. فـ«أبو أمامة أسعد بن زرارة كان قد اتَّخذ للصلاة بأصحابه حينها مربَدًا [وهو موضع تُحبَس فيه الإبل والغنم] لتجفيف التمر يملكه غلامان يتيمان من بني النجار، وكان إلى جانبه بستان لبني النجار، وبطرفه قبور لبعض أهل الجاهلية من المشركين»[٣]. وبعد أن «بركت ناقة النبي ﷺ عند المربد، دعا رسول الله ﷺ الغلامَين فساومهما بالمربد ليتَّخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى حتى ابتاعه منهما، ثمَّ بناه مسجداً»[٤].

وكما أدار النبيُّ ﷺ تنافسًا بين متساوِيَين (الأنصار) في اختيار منزله في المدينة عبر (تأكُّد) بروك الناقة ومبادرة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه فحَسَم بذلك مكان استقباله[٥]، كذلك

---

(١) طه الولي، **المسجد في الإسلام**، ص١٨٥، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٧، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص١٨٥، بتصرُّف.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ٣: ١٤٢١، ح: ٣٦٩٤، بتصرُّف.

(٥) لما ذهب رسول الله ﷺ إلى المدينة «اعترضت القبائل له لينزل عندها، يقولون: يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، قالوا: خلوا سبيلها فإنها مأمورة ـ لناقته ـ فخلّوا سبيلها فانطلقت.. حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده ﷺ وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمَين من بني النجار ثم من بني مالك بن النجار وهما في حِجر معاذ بن عفراء سهل وسهيل بن عمرو. فلما بركت ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل وثبت، فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أول مرة. فبركت فيه ثم تحلحلت ورزمت وألقت بجرانها، فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله ﷺ». ابن هشام، **السيرة النبوية**، هجرة الرسول ﷺ، ١: ٤٩٤ ـ ٤٩٦، بتصرُّف. وهذه القصة وردت «بعدة روايات تعتضد فيما بينها لترتقي إلى الحسن لغيره». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢١٩، بتصرُّف.

أدار النبيُّ ﷺ الثقافات المتفاوتة بين المختلِفين (من خبرات قَبَليَّة مختلفة) في إجراء بناء المسجد عبر إسناد مهمّة خلط الطين إلى أحد أهالي اليمامة بدلاً من مهمّة حمل الحجارة كفِعل بقية الصحابة لخبرتهم في ذلك(١). وفي كلِّ ذلك كان النبيّ ﷺ يعمل مع الصحابة كأحدهم.

وقد تمَّ تخصيص إحدى زوايا المسجد لأهل الصفا من الفقراء بعد تغيير القِبلة.

٢. المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين: عالج النبيُّ ﷺ بنظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار تلبية حاجات المهاجرين (المادية) وحاجات الأنصار (المعنوية) دون شعور طرف بأنَّه عالة على الطرف الآخر. فكان تطبيقًا للولاء فيما بين المسلمين بالأخوّة التي تعلو على القَبَليَّة.

فبعد أن كانت «الأنصار قد اقترَعَت على سكنى المهاجرين لمَّا قَدِموا المدينة»(٢)، «آخى رسول الله ﷺ بين الأنصار والمهاجرين بعد بناء المسجد. وقيل: إنَّ المؤاخاة كانت والمسجد يُبنى بين المهاجرين والأنصار على المواساة والحقّ»(٣) (سواء أكانوا من مهاجري المدينة أم من مهاجري الحبشة الذين كانوا لا يزالون فيها)، وكانوا «يتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعون من المهاجرين، وخمسة وأربعون

---

(١) عن طلق بن علي ﷺ قال: «أتيت النبي ﷺ وهو يؤسِّس مسجد المدينة، فجعلت أحمل الحجارة كما يحملون، فقال النبي ﷺ: إنكم يا أهل اليمامة أحذق شيء بإخلاط الطين، فاخلط لنا الطين. فكنت أخلط لهم الطين ويحملونه». الطبراني، **المعجم الكبير**، ٨: ٣٣١، ح: **٨٢٣٩**. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن جابر اليمامي، ضعَّفه أحمد وغيره، واختُلف في الاحتجاج به. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب الصلاة، باب بناء المساجد، ٢: ٩، ح: ١٩٥٣، بتصرُّف.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب التعبير، باب العين الجارية في المنام، ٦: ٢٥٧٥، ح: ٦٦١٥، بتصرُّف.

(٣) ابن عبد البر، **الدرر**، ص٩٢.

من الأنصار، ويُقال كانوا مئة، خمسون من المهاجرين، وخمسون من الأنصار»[١]، واستمرَّ هذا التوارث حتى وقعة بدر.

وقد رفض النبيُّ ﷺ اقتراح الأنصار قِسمة الأراضي (مصدر العيش الزراعي) مع المهاجرين، لكنَّه وجَّههم لمشاركة التمر فيما بينهم جميعًا. فعالج الوضع المعيشي للمهاجرين باحتفاظ أصحاب الأملاك بأملاكهم ودون أن يُشغِل المهاجرين بزراعة لا يُتقنونها [كلّهم] (فيُلزَموا به دون اختيار كحالة، ويُخَفِّضوا نسبة الإنتاج الزراعي المطلوب كنتيجة)، وأمامهم أولويات أُخرى في تفرُّغهم للقتال والدعوة[٢]. وستستمرُّ هذه المشاركة إلى ما بعد غزوة خيبر.

٣. إقطاع المهاجرين الدور بحقٍّ دون محاباة: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أقطع الدور [بأن خطَّ لأصحابه في كل أرض ليست لأحد، وفيما وهبت له الأنصار من خططها. كما أقام قومًا من المسلمين لم يمكنهم البناء بقباء على مَن نزلوا عنده][٣]. وأقطع ابن مسعود فيمَن أقطع. فقال له أصحابه: يا رسول الله، نكِّبه عنَّا [أي: نحِّ عنَّا وجنِّبنا ابن مسعود][٤]. فقال رسول الله ﷺ: «فَلِمَ بعثني الله إذًا؟ إنَّ الله لا يُقدِّس أمَّة لا يُعطون الضعيف منهم حقَّه»[٥]. وكان هذا المبدأ نهجه دائمًا ﷺ لتصحيح المفاهيم والتربية على ترتيب الأولويات وفق المبادئ لا العاطفة[٦].

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر مؤاخاة رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ١: ٢٣٨.

(٢) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٤٢، بتصرُّف.

(٣) البلاذري أحمد بن يحيى، **أنساب الأشراف**، باب المؤاخاة، ١: ٢٧٠، بتصرُّف.

(٤) لأنَّ «رسول الله ﷺ خطَّ الدور، فخطَّ لبني زهرة في ناحية مؤخر المسجد، فجعل لعبد الله وعتبة ابنَي مسعود [حليف بني زهرة] هذه الخطة عند المسجد». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر ومن حلفاء بني زهرة بن كلاب من قبائل العرب، ٣: ١٥٢.

(٥) الطبراني، **المعجم الأوسط**، ٥: ١٦٢، ح: ٤٩٤٩. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب الأحكام، باب في الخصمَين يتعدان ولم يأت أحدهما، ٤: ١٩٧، ح: ٧٠١٣، بتصرُّف.

(٦) فقد «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يتقاضاه تمرًا، فاستنظره رسول الله ﷺ فأبى أن ينظره، =

٤ . موادعة اليهود: بعد أن توضَّحت العلاقة بين مؤمني أهل المدينة والنبيّ ﷺ ببنود بيعة العقبة الثانية، وتحدَّدت العلاقة بين المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة، انتقل النبيُّ ﷺ إلى اليهود. فـ«عند قدومه المدينة وَادَعَ يهودها، وكتب بينه وبينهم كتابًا، واشترط عليهم أن لا يُمالِئوا عدوَّه وأن ينصروه على مَن دهمه، وأن لا يُقاتل عنهم كما يُقاتل عن أهل الذمة[١]، [فلم يكونوا حينها خاضعين لحمايته أو لمتعلَّقات مفهوم أهل الذمة من الحقوق والواجبات]. وذلك قبل محاربة أحد، أو هجائه، أو بعث السرايا»[٢]. ثمَّ سيقوم النبيُّ ﷺ بعد غزوة بدر بكتابة كتابه الثاني بينه وبينهم وبين المسلمين عامّة فيما سيُطلَق عليه «صحيفة المدينة»[٣].

= فانتهره أصحاب رسول الله ﷺ، فقال [الرجل]: أحرج عليك أن أخرج من المدينة وأنا أطلبك منه بشيء، فإني والله لا أرجع إلى أرضي حتى تهب منها أكثر مما أطلبك به. فأرسل إلى امرأة من بني سليم يُقال لها خولة يستسلفها تمرًا، فأرسلت تمرًا فقالت: إن أردت من هذا فعندنا منه ما أردتم. قال [النبي ﷺ]: تريد من هذا؟ قال: نعم. قال: اذهب فاكتل واستوفه. ثم قال [لأصحابه]: هو كان أحوج إلى نُصرتكم مني، وأنا إلى أن تأمروني بأداء أمانتي أحوج، وقال: إنَّ الله لا يُقدِّس أمة لا يُنصَر ضعيفها، أو قال: لا يقوى ضعيفها. ابن حجر، **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، كتاب الزهد والرقائق، باب الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ١٣: ٧٠٥، ح: ٣٣٠١. وفي هذه القصة يظهر بوضوح أيضًا تصحيح للمفاهيم وتربية على ترتيب الأولويات وفق المبادئ لا العاطفة.

(١) أهل الذمة مصطلح فقهي أصبح يُراد به بعد ذلك: «أهل العهد من الإمام [الخليفة] ـ أو ممَّن ينوب عنه ـ بالأمن على النفس والمال، نظير التزام الجزية ونفوذ أحكام الإسلام». **الموسوعة الفقهية**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٧: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٧٧، بتصرُّف.

(٣) سيتبيَّن في موضعه بعد غزوة بدر ارتباط روايات الصحيفة ومضمونها بواقع ما بعد بدر، وليس بواقع ما بعد دخوله المدينة.

إلى جانب ما فعله النبيّ ﷺ من إجراءات لمعالجة التحديات الواقعية بالمدينة، نزل الوحي بانتقاد ممارسات اقتصادية خاطئة. فـ«لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسَنوا الكيل»[1].

□ «**المطفِّفين**»[2]: وفيها وصف واقع يتعلَّق بالمعيشة الاقتصادية في المدينة بعدم تحقيق مقاييس العدل في المكاييل، مع إقامة رابط بين هذه الممارسة الاقتصادية وفقدان دافع الإيمان باليوم الآخر. ثمَّ تعرض السورة مآل الفجَّار المكذِّبين (بيوم الدين وآيات الله) في الجحيم بسبب ما غلب على قلوبهم من الذنوب، ومآل الأبرار المقرَّبين في النعيم.

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة المطفِّفين، ٢٤: ٢٧٧، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة المطفِّفين، ٨: ٣٤٦، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق على ترتيبها بحسب لوائح ترتيب النزول الثلاث (البيهقي، وابن الضريس، وأبي عمرو الداني) بين سورتَي العنكبوت والبقرة. وفي لائحة ترتيب الزهري تمَّ ترتيبها بين سورتَي العنكبوت والفاتحة (باعتبارها أول ما نزل بالمدينة في ترتيبه). وقد ذهبت رواية البيهقي إلى ترتيب السورة ضمن السور المدنية، خلافًا لبقية الروايات الثلاث التي ذهبت إلى ترتيبها ضمن السور المكية. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد ذهبت جميع الروايات (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) إلى مكيَّتها. مع العلم أنَّها «مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل. ومدنية في قول الحسن وعكرمة، وهي ستّ وثلاثون آية. قال مقاتل: وهي أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا ثماني آيات؛ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ إلى آخرها، مكي. وقال جابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة المطفِّفين، ١٩: ٢٥٠. وعن مجاهد أنَّ أول سورة نزلت بعد الهجرة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب تفسير القرآن، سورة المدثر، ٨: ٦٧٨.

وتُختَم السورة بعرض نموذج من العلاقة التي جمعتهم في الدنيا باستهزاء المجرمين من المؤمنين واتِّهامهم بالضلال، مع الإعلام بمبدأ يقتضي عدم كون النَّاس حافظين مُراقِبين على أعمال بعضهم حتى يحكموا عليهم بهكذا أحكام.

٥ . اتِّخاذ سوق بديل: «اتَّخذ النبيُّ ﷺ سوقًا بديلاً للمسلمين عن سوق بني قينقاع، فحرَّرهم من احتكار اليهود وسَيطرتهم، وأسهَم في إنعاش وضع المسلمين، ومكَّن النبيُّ ﷺ من تنظيم وضع السوق وِفق قواعد جديدة أرساها الإسلام من الحرية والعدل والبُعد عن الغشّ والاحتكار وكلّ المساوئ»[(١)].

هذه الإجراءات، كان من المُزمَع لها أيضًا أن تتَّسع للمهاجرين اللاحقين بالمدينة على مدى السنوات القليلة القادمة[(٢)].

وبمرور الأشهر على الهجرة «استجمع للنبيّ ﷺ إسلام الأنصار، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا ما كان من بعض بيوت الأوس فإنَّهم أقاموا على شركهم»[(٣)]. بالمقابل، بقِيَت مجموعات من أهل المدينة على الشرك [ثمَّ أسلم بعضها لاحقًا بعد غزوة بدر على نفاق وضِغَن] كعبد الله بن أُبيّ ابن سلول من الخزرج [ومَن هو على طريقته] الذي رأى في قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة استلابًا لملكه[(٤)]. كما فارق أبو عامر عبد عمرة بن صَيفيّ من الأوس الإسلامَ والرسولَ ﷺ إلى مكة مع بضعة

(١) د. سامي حمدان أبو زهري، **يهود المدينة في العهد النبوي**، ص٢٧٩ ـ ٢٨١، بتصرُّف.

(٢) «كانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قَدِموا المدينة، ثمَّ إن المهاجرين كَثُروا بعد». **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦]، ٤ : ١٨٦١، ح: ٤٦٢٢.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، هجرة الرسول ﷺ، ١ : ٥٠٠، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، أخبار عن المنافقين، ١ : ٣٤١، بتصرُّف.

عشر رجلاً لما رأى قومه اجتمعوا على الإسلام[١]. لقد كانا شريفَين مُطاعَين في قومهما، ولكنَّ هذا الشرف قد غرَّر بهما وضرَّهما فشقِيا به. وكان رسول الله ﷺ يرفق بابن أُبيّ ابن سلول (المشرك حينها) ويعفو عنه حين يؤذيه بكلامه إدراكًا منه لظنّه استلاب النبيُّ ﷺ لمُلكه[٢]، وقد أدَّت هذه التصرُّفات الصادرة منه في المجالس العامة المشتركة «بالمسلمين والمشركين واليهود إلى الاستباب حتى كادوا يتثاورون [أي: يتواثبون]، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا»[٣].

هذا بالنسبة لواقع المشركين حينها. أما اليهود، فقد انقسمت آراؤهم، فمنهم مَن عرف الحقّ في النبيّ ﷺ وفق نبوءات دينه، فأسلم مؤمنًا بالنبيّ ﷺ، ومنهم مَن نافَقَ [بعد غزوة بدر] تعوُّذًا بالإسلام، ومنهم مَن عرف الحقّ لكنَّه كفر، ثمَّ التقى هواه مع مَن نافَقَ لاحقًا من المسلمين، ومنهم مَن بقِيَ على الحياد (السلبي) يخشى خلاف قومه.

فمن الصنف الأول «الحصين بن سلام، وكان حَبرهم وأعلمهم، فلمَّا أسلم سمَّاه رسول الله ﷺ عبد الله»[٤]. حين «بلغه مَقدِم رسول الله ﷺ المدينة أتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمُهُنَّ إلا نبيٌّ؟ ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أيّ شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أيّ شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: خبَّرني بهنَّ آنفًا جبريل. فقال عبد الله: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة. فقال رسول الله ﷺ: أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادةُ كبدِ الحوت، وأما الشَّبه في الولد؛ فإنَّ الرجل إذا غَشِيَ المرأة فسَبَقَها ماؤه كان الشَّبَه

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أخبار عن المنافقين، ٢: ٦٧، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، أخبار عن المنافقين، ١: ٣٤١، بتصرُّف.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة آل عمران، ٤: ١٦٦٣، ح: ٤٢٩٠، بتصرُّف.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عداوة اليهود، ١: ٥١٥، بتصرُّف.

له، وإذا سَبَق ماؤها كان الشَّبَه لها. قال: أشهد أنك رسول الله. ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك. فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أَعلَمُنا وابنُ أَعلَمِنا وأَخْيَرنا وابنُ أَخْيَرنا. فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فقالوا: شرُّنا وابنُ شرِّنا ووقعوا فيه»[١].

ومن الصنف الثاني مجموعة من أحبار يهود بني قينقاع، «كانوا ممَّن تعوَّذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق»[٢].

ومن الصنف الثالث تُخبرنا «صفية بنت حُيَي بن أخطب، قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء، غدا عليه أبي ـ حُيَي بن أخطب ـ وعمّي ـ أبو ياسر بن أخطب ـ فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس كسلانَين ساقطَين يمشيان الهُوَينى، وسمعت عمّي أبا ياسر يقول لأبي حُيَي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتُثبته. قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقِيت»[٣].

ومن الصنف الرابع عبد الله بن صوريا أعلم اليهود، الذي خلا به رسول الله ﷺ فسأله و«ناشده بدينه وبما أنعم الله به على اليهود وأطعمهم من المنّ والسلوى وظلَّلهم به من الغمام، [وقال له:] أتعلم أنِّي رسول الله؟ قال: اللَّهمَّ نعم، وإنَّ القوم لَيعرفون ما أعرف، وإنَّ صفتك ونعتك لمُبَيَّن في التوراة، ولكنَّهم حسدوك. قال: فما يمنعك أنت؟ قال: أكره

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ٣: ١٢١١، ح: ٣١٥١، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، المنافقون من أحبار اليهود، ١: ٥٢٧، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، عداوة اليهود، ١: ٥١٩، بتصرُّف.

خلاف قومي، وعسى أن يتبعوك ويُسلِموا فأُسلِم»(١). ومثله «يهوديان سألا النبيَّ ﷺ عن آية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، فقال النبيُّ ﷺ: لا تُشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلّا بالحقّ، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا مُحصَنة ـ أو قال: لا تَفِرُّوا من الزحف ـ وأنتم يا يهود، عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت. فقبَّلا يدَيه ورجلَيه، وقالا: نشهد أنك نبيٌّ. قال: فما يمنعكما أن تتَّبعاني؟ قالا: لأن داود عليه السلام دعا ألّا يزال من ذريَّته نبيّ، وإنَّا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود»(٢).

ويتبيَّن هنا أحد أسباب ظاهرة رفض اليهود للإيمان بالنبيّ العربي أنَّه لم يخرج من بني إسرائيل كبقية أنبيائهم. ويُضيف ابن عباس رضي الله عنهما سببًا آخر ـ مُختَصًّا بالأحبار وليس بعموم اليهود ـ بقوله: «وإنما فعلوا ذلك؛ لأنَّ الأحبار كانت لهم مأكلة تُطعِمهم إياها السَّفِلة [أسافل اليهود من غير علمائهم] لِقيامهم على التوراة، فخافوا أن يؤمن السَّفِلة فتنقطع تلك المأكلة»(٣).

وقد بدأت الجدالات بين المسلمين واليهود حول كون النبيّ ﷺ هو الذي كانوا يُخبرونهم به في الجاهلية، واليهود تنفي(٤). كما «كانت أحبار يهود هم الذين يسألون

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر علامات النبوة في رسول الله ﷺ، ١: ١٦٤.

(٢) **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، أبواب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في قبلة اليد والرجل، ٥: ٧٧، ح: ٢٧٣٣، وقال: حديث حسن صحيح. والحاكم النيسابوي، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب الإيمان، ١: ٥٢، ح: ٢٠، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) البيهقي، **دلائل النبوة**، باب ما جاء في دخول عبد الله بن سلام على رسول الله ﷺ، وصف الله عز وجل محمدًا ﷺ في التوراة، ٢: ٥٣٧.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عداوة اليهود، ١: ٥٤٧، بتصرُّف.

رسول الله ﷺ ويتعنَّتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه»[1]، وسيتمّ عرض جانب كبير منها ضمن الحديث عن آيات صدر سورة البقرة (التي ستنزل بعد غزوة بدر).



(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عداوة اليهود، ١ : ٥١٣، بتصرُّف.

المبحث الثاني: الإعداد للتدافع العسكري

تنفيذًا لما ورد في بيعة العقبة الثانية، مرورًا بالإذن بالقتال في سورة الحجّ وموادعة يهود المدينة بعدم عَون عدوِّه (قريش) ونُصرَته في المدينة، «أمر النبيُّ ﷺ بإجراء تعداد سكاني لمَن تلفَّظ بالإسلام من الناس، فبلغ تعداد المحاربين منهم ألفاً وخمس مئة رجل. وبعد هذا التعداد مباشرة بدأت السرايا والغزوات»[1] عبر إرسال النبيّ ﷺ «دوريات استطلاعية لاستكشاف الطرق المحيطة بالمدينة والمسالِك المؤدِّية إلى مكة، ولإنذار قريش»[2] بقوَّتهم وقدرتهم على قتال مَن قاتلهم وظلمهم وأخرجهم من ديارهم (كما مرَّ في حيثيات آية الإذن بالقتال في سورة الحجّ). كما كان سبب إحدى الغزوات ردًّا على اعتداء نهب على المدينة من أحد رؤساء مشركي قريش (غزوة سَفَوان)[3]. واللافت أنَّ بداية خروج السرايا كان في شهر رمضان السنة الأولى للهجرة، أي: بعد ستة أشهر فقط على دخول النبي ﷺ المدينة، وقد تشكَّلت أولى هذه السرايا من المهاجرين حصرًا[4]، وكان الانتساب إليها دون إلزام[5]، ثمَّ ما لبث بعد عام (ابتداء من شهر صفر) أن بدأ النبي ﷺ يخرج بنفسه في الغزوة للأسباب نفسها، ولعقد معاهدات مع القبائل (الأعراب) التي مساكنها على الطرق في محيط المدينة والمسالِك المؤدِّية إلى مكة[6] لكسب نصرتها له أيضًا عبر إعلان كونهم «آمنين على

---

(١) د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٣٦٦، بتصرُّف.

(٢) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص١٨٥، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة سفوان، ١: ٦٠١، بتصرُّف.

(٤) «لم يبعث رسول الله ﷺ أحداً من الأنصار مبعثًا حتى غزا بهم بدرًا، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر عدد مغازي رسول الله ﷺ، ٢: ٦.

(٥) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص١٨٥ ـ ١٨٧، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، ص١٨٥، بتصرُّف.

أنفسهم وأموالهم، وأنَّ لهم النصر على مَن ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل»،[١] وأنَّ «عليهم نصر النبيّ ﷺ وأنَّه إذا دعاهم أجابوه»[٢]. وكان النبيُّ ﷺ يؤمِّر على المدينة مكانه عند خروجه منها من نقباء الأنصار كسعد بن عبادة الخزرجي أو أبي لبابة الأوسي أو قدماء المسلمين من المهاجرين. وبعد شهر من ذلك الخروج (شهر ربيع الأول سنة ٢هـ) بدأ خروج فرديٌّ للأنصار مع النبيّ ﷺ في الغزوات (بدءًا من غزوة بُواط)[٣].

هذا، وبالإعداد العسكري وما سيتبعه من سرايا وغزوات، فإنَّ هدفها يكمن في الضغط على قريش اقتصاديًا لتغيير موقفها السياسي، فتُخلِّي بينه وبين الناس، وسيظهر هذا الهدف لدى المشركين في بدر، كما سيظهر لدى النبيّ ﷺ أيضًا عند الحديث عن صلح الحديبية. وفي المدينة كما كان في مكة، لم تحدث محاولات للتعرُّض للعنصر الثالث «الكيان الاجتماعي»، بل سيُحاول النبيُّ ﷺ تعزيزه في كثير من المناسبات[٤].

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وما كتب به رسول الله ﷺ الناس من العرب وغيرهم، ١: ٢٧٠، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وما كتب به رسول الله ﷺ الناس من العرب وغيرهم، ١: ٢٧٤، بتصرُّف.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل، ٤: ٢٣٠٤، ح: ٣٠٠٩. في هذه الرواية يظهر أنَّ جابر بن عبد الله الأنصاري وغيره من الأنصار سار مع النبيّ ﷺ في هذه الغزوة، إضافة إلى عدم وجود إشارة تحصر هذه الغزوة بالمهاجرين كسابقاتها ولاحقاتها من السرايا والغزوات.

(٤) كنهيِه ﷺ قبل الهجرة عن القيام بأعمال عسكرية لما فيها من إضعاف لتماسك قريش، وأمر الله تعالى المسلمين في مكة بعد غزوة أُحُد بالهجرة للقتال وليس قتال قريش في مكة، وكقيامه ﷺ بعد صلح الحديبية بالزواج من أم حبيبة بنت أبي سفيان (الذي أصبح سيد قريش بعد بدر)، وكندائه يوم حنين لجمع الناس من حوله بقوله «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». . .

❑ وقد نزلت بعد ذلك **آيات من سورة البقرة**(١): تعرض حُكم ترك قِبلة اليهود في

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. «وقد نزلت في مُدَدٍ شتى في المدينة. وقيل: هي أول سورة نزلت بالمدينة، إلا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فإنه آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى، وآيات الربا أيضًا من أواخر ما نزل من القرآن». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة البقرة، ١: ١٥٢. وأما في لوائح ترتيب النزول فرغم اتفاقهم على مدنيَّتها، إلا أنَّهم اختلفوا في ترتيبها بين السور، فذهب البيهقي وأبو عمرو الداني إلى كونها نزلت بين سورتَي المطففين وآل عمران، وذهب ابن الضريس إلى كونها نزلت بين سورتَي المطففين والأنفال، وذهب الزهري إلى كونها نزلت بين سورتَي الفاتحة والأنفال.

وباستعراض روايات أسباب نزول آيات سورة البقرة ومتعلِّقاتها من السيرة والصحابة، يتبيَّن إمكانية تقسيمها إلى اثنَي عشر قسمًا حسب أزمنة ترجُّح نزولها، وهي بالتقريب والإجمال: قبل غزوة بدر (٢هـ): (الآيات ١٤٢ ـ ١٨٨) تغيير القِبلة وعرض أحكام الإسلام، و(٢٠٨ ـ ٢١٨) استكمال عرض أحكام الإسلام وفرض القتال، و(٢٤٣ ـ ٢٥٣) عرض حِكَم قبل القتال. وبُعَيد بدر: (٢٥٤ ـ ٢٥٥ و٢٦١ ـ ٢٧٤) استكمال عرض أحكام الإسلام (الإنفاق)، وقد يُمكن نزول آيتَي الدَّين وختام السورة (٢٨٢ ـ ٢٨٦) في هذه المرحلة أيضًا. وبعد بدر (٢هـ): (١ ـ ١١٠) صدر السورة في المنافقين والحوار مع اليهود، و(١١١ ـ ١٤١) الحوار مع اليهود والنصارى. ومجموعة منها ما كان قبل حادثة الرجيع ٤هـ: (٢١٩ ـ ٢٤٢) استكمال عرض أحكام الإسلام بالأجوبة على أسئلة مختلفة. وبعد حادثة الرجيع (٤هـ): (٢٠٤ ـ ٢٠٧). وبعد غزوة النضير (٤هـ): (٢٥٦ ـ ٢٦٠). وعند الحديبية (٦هـ): (١٩٦ـ ٢٠٣). وفي عمرة القضاء (٧هـ): (١٨٩ ـ ١٩٥). وفي عام الوفود (٩هـ): (٢٧٥ـ ٢٨١) آيات الربا. لذلك، سأقوم بعرض هذه الأقسام في سبعة مواضع مختلفة حسب ما ترجَّح لديَّ. وهذا هو الموضع الأول للسورة، والذي يترجَّح نزوله قبل غزوة بدر، وفيه الأقسام الثلاثة الأولى، أي: الآيات (١٤٢ ـ ١٨٨) و(٢٠٨ ـ ٢١٨) و(٢٤٣ ـ ٢٥٣).

الصلاة[(١)] (بيت المقدس) والتولية شطر المسجد الحرام (الكعبة)[(٢)]. ليُمثِّل هذا الانتقال امتحانًا جديدًا للتمييز بين المسلمين[(٣)]. وتبع ذلك التحويل (الذي جعل للمسلمين قِبلة خاصة بهم اجتمعوا بها وتمايزوا عن أهل الكتاب) ذكر تمام النعمة على المسلمين بالتوجُّه إلى قِبلة الكعبة، كما تمَّت النعمة بإرسال الرسول ﷺ بتلاوة الآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة[(٤)]. ثمَّ تأمر الآيات المؤمنين بذكر الله وشكره والصبر والصلاة، وتصحيح مفهوم

---

(١) «كان رسول الله ﷺ صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يُحبُّ أن يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [البقرة: ١٤٤] فتوَّجه نحو الكعبة». **صحيح البخاري**، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١: ١٥٥، ح: ٣٩٠، بتصرُّف. وذلك يتناسب أن يكون في شهر رجب [سنة ٢ هـ]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ما نزل من البقرة في المنافقين واليهود، ١: ٥٥٠، بتصرُّف. ويُقال: في شهر شعبان [سنة ٢ هـ]. المصدر نفسه، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٠٦، بتصرُّف.

(٢) يرتبط تحويل القِبلة بدلالة «انتقال الخلافة في الأرض». د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة البقرة، ١: ٢٧ ـ ٢٨، بتصرُّف. ولكنَّها تتَّضح لاحقًا بعد نزول كامل آيات سورة البقرة، فيظهر سياق قرآني في سورة البقرة من آيات آدم الخليفة، وبني إسرائيل الذين فُضِّلوا على العالمين، وإبراهيم الإمام، إلى تحويل القبلة قبل الانتقال إلى عرض أحكام الإسلام، لتكتسب بذلك إشعارًا بانتقال الخلافة في الأرض منهم إلى أمة المسلمين.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: ليعلم «الذي يتبع محمدًا ﷺ فيما يأمره الله به، ممَّن ينقلب على عقبَيه بأن يرتدَّ عن دينه فيُنافق أو يكفر، أو يُخالِف محمدًا ﷺ في ذلك ممَّن يُظهر اتِّباعه، بعد أن دخلَته شبهة». الطبري، **جامع البيان**، سورة البقرة، ٣: ١٦٢ ـ ١٦٣، بتصرُّف.

(٤) بعد نزول كامل آيات سورة البقرة، ستوضَع هذه المعاني ضمن سياق جديد يجعلها استجابة ضِمنية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

القتل في سبيل الله بأنَّه حياة[١]، وبيان ابتلاء الله لهم (بخوفٍ وجوعٍ ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات) ولزوم الصبر لنَيل البشارة، في توازٍ مع واقع الحياة في المدينة المنورة وما ستستقبله من أحداث وتدافع، ويُمثِّل الصبر هنا (بَدَنِيًّا كان أو نفسانيًّا جانبًا مهمًّا من التزكية). ثمَّ تصحيح مفهوم وجوب نُسُك الطواف حول الصفا والمروة بسبب التحرُّج منه لِما علِق فيه من الوثنية[٢]، والتزكية العقلية ببيان خطأ التقليد الأعمى (بين اليهود وأحبارهم، وبين المشركين وآبائهم)، ثمَّ تبدأ الآيات ببيان أحكام الإسلام: البر إيمانًا وسلوكًا ماليًّا وتعبُّديًّا مع الوفاء والصبر والصدق والتقوى، والقِصاص، والوصية، والصيام، والمعاملات المالية.

كما عرضت السورة الطلب من المؤمنين الدخول في السِّلم كافَّة عبر «رفض جميع المعاني التي ليست من حُكم الإسلام [كالمتوارَثة من اليهودية لمَن أسلم منهم[٣]، بما

---

(١) «ووجه تعلُّق الآية بما قبلها كأنه قيل: استعينوا بالصبر والصلاة في إقامة ديني، فإن احتجتم في تلك الإقامة إلى مجاهدة عدوِّي بأموالكم وأبدانكم ففعلتم ذلك فتَلِفَت نفوسكم فلا تحسبوا أنكم ضيَّعتم أنفسكم، بل اعلموا أنَّ قتلاكم أحياء عندي». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة البقرة، ٤: ١٢٥، بتصرُّف. وهذا يتناسب مع بداية حملات السرايا والغزوات.

(٢) «كان [الأنصار] قبل أن يُسلِموا يُهِلُّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان مَن أهلَّ يتحرَّج أن يطوف بالصفا والمروة. فلما أسلموا، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك قالوا: يا رسول الله، إنا كنَّا نتحرَّج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]». **صحيح البخاري**، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعلها من شعائر الله، ٢: ٥٩٢، ح: ١٥٦١، بتصرُّف.

(٣) زعم عكرمة أنَّ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، نزل في نفر ممَّن أسلم من اليهود وغيرهم، استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يسبتوا. والصحيح أنَّهم أُمِروا أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام. وفي قراءة ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ بالنَّصب، تكون دعوة لمؤمني أهل الكتاب للدخول في الإسلام. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة البقرة، ١: ٥٦٥ ـ ٥٦٦، بتصرُّف.

يتناسب الإشارة إليه الآن بعد مرور زمن على إسلامهم تمَّت فيه تربيَتهم على الإسلام، وبعد إقامة تمييز مع اليهودية بتحويل القِبلة]، والعمل بجميع شرائع الإسلام، والنهي عن تضييع شيء من حُدوده»[١]، والإجابة على أسئلة من المؤمنين في المجتمع حول «ماذا يُنفقون ولمَن؟»، والأمر بالقتال[٢] (بعد الإذن الذي ورد في سورة الحجّ)، مع الإجابة على سؤال حول القتال في الشهر الحرام (جوابًا على حادثة من إحدى السرايا المكلَّفة بمهام استطلاعية

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة البقرة، ٤ : ٢٥١، بتصرُّف.

(٢) فبعد الإذن بالقتال «للذين ظُلِموا ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، الذي ورد في سورة الحج كما مرَّ، نزل الأمر بالقتال في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي: حتى لا يُفتَن مؤمن عن دينه، وحتى يُعبد الله لا يُعبد معه غيره». ابن هشام، **السيرة النبوية**، نزول الأمر لرسول الله ﷺ في القتال، ١ : ٤٦٨، بتصرُّف. وهذا الأمر يتناسب مع مُضيِّ «مدة من الهجرة، أنعم الله فيها على جماعات باتِّباع رسوله ﷺ حدثت لهم بها مع عون الله قوة بالعدد لم يكن قبلها، ففرض الله عليهم الجهاد بعد أن كان إباحة لا فرضًا». البيهقي، **دلائل النبوة**، باب إذن الله بأن يبتدئوا المشركين بقتال، ٢ : ٥٨١، بتصرُّف. أقول: لكأنَّ الآية التي أمر الله فيها بالقتال في السنة الثانية هي آية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، لِما في آية ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ وما قبلها وما بعدها في أحكام الحج والعمرة من روايات ارتبطت بعمرة القضاء (٧هـ) كما سيظهر في مكانه. ولأنَّ الأمر بالقتال مؤشِّر مفصلي، فقد اعتمد المسلمون تسمية السنة الثانية: «سنة الأمر». د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، ص٣٤، بتصرُّف. أي: «سنة الأمر بالقتال». محمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية**، ١ : ٣٤، بتصرُّف. وتكمن أهميَّة إيراد تلك التسميات في استحضار وتصوُّر المعهود الذهني للمسلمين اجتماعيًّا وحركيًّا وفكريًّا وحضاريًّا في قراءتهم ـ كشهود عيان ومشاركين في صناعة الأحداث ـ لمسار السيرة النبوية.

هذا، ويُلاحظ أمر دقيق أنَّ الأمر بالقتال خاص بالمؤمنين حول رسول الله ﷺ في المدينة ولم يُخاطَب به بقية المسلمين خارجها سواء أكانوا في مكة أم في الحبشة أم في البادية إلا مَن «تَبِعهم فلحق بهم وجاهد معهم [فيُمثِّل بذلك معهم] أمة واحدة» تمامًا كما سيرد في صحيفة المدينة.

فقط ـ سرية عبد الله بن جَحْش رضي الله عنه[١] ـ لكنَّها قتلت من قافلة قريش وأَسَرَت وغَنِمَت وهي في شهر يُمنَع فيه القتال، فبيَّنت الآية[٢] أنَّ الفتنة (الاعتداء على الحُرِّيات) أكبر من القتل

(١) وفي تأمير عبد الله بن جحش رضي الله عنه قصة مهمة، «فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، جاءته جُهَينة فقالوا: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأَوثِق لنا حتى نأتيك وتؤمِّنا. فأَوثَق لهم فأسلموا. قال: فبعثنا رسول الله ﷺ في رجب، ولا نكون مئة، وأمَرَنا أن نُغير على حيٍّ من بني كنانة إلى جنب جُهَينة، فأغرنا عليهم وكانوا كثيرًا، فلجأنا إلى جُهَينة فمنعونا وقالوا: لم تُقاتِلون في الشهر الحرام؟ فقلنا: إنما نُقاتل مَن أخرَجَنا من البلد الحرام في الشهر الحرام. فقال بعضنا لبعض: ما ترَون؟ فقال بعضنا: نأتي نبي الله ﷺ فنُخبره. وقال قوم: لا، بل نُقيم هاهنا. وقلت أنا في أُناس معي: لا، بل نأتي عير قريش فنقتطعها. فانطلقنا إلى العير وكان الفيء إذ ذاك مَن أخذ شيئًا فهو له، فانطلقنا إلى العير وانطلق أصحابنا إلى النبي ﷺ فأخبروه الخبر، فقام غضبانًا مُحمرَّ الوجه فقال: أَذَهَبتم مِن عندي جميعًا وجئتم متفرِّقين؟ إنَّما أَهلَك مَن كان قبلكم الفُرقة، لأَبعثَنَّ عليكم رجلاً ليس بخيركم، أصبركم على الجوع والعطش. فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي رضي الله عنه، فكان أول أمير أُمِّر في الإسلام». أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند باقي العشرة المبشَّرين بالجنة، مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، **٣**: ١١٨ ـ ١١٩، ح: **١٥٣٩**، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه أحمد وغيره، وفيه مجالد بن سعيد، وهو ضعيف عند الجمهور، ووثَّقه النسائي في رواية، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب أول أمير كان في الإسلام، ٦: ٦٧، ح: ٩٩٣٨. وكان ذلك في رجب سنة **٢** هـ قبل شهرَين من غزوة بدر الكبرى.

(٢) «لما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوقَّف العير والأسيرَين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أُسقِط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهرَ الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. فقال من يَرُدّ عليهم من المسلمين ممَّن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان. وقالت يهودُ تفاءلُ بذلك على رسول الله ﷺ... فجعل الله عليهم ذلك لا لهم. فلما أكثر الناس في =

(الاعتداء على الحياة)، ذلك أنَّ القتال في الشهر الحرام كبير استحلاله عند الله، ولكنَّ الصدَّ عن سبيل الله والكفر به والصدَّ عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه هو أكبر عند الله). وتأهُّل الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله لِرَجاء رحمة الله[1].

كما عَرَضَت السورة قصة الملأ من بعد موسى عليه السلام للوقوف على حِكَمٍ في التعامل مع التدافع والاستعداد له ومطلوباته الإيمانية، وما تسبق المواجهة العسكرية من امتحانات (في قصة طالوت وجنوده)[2]، فأظهرت أربع حالات مختلفة (ملأ، وجنود، والذين آمنوا، والذين يظنُّون أنهم مُلاقوا الله) مرَّ بها القوم حتى تأهَّل منهم مَن تأهَّل للوصول إلى أرض المعركة والغَلَبة فيها.

= ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٧] أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدُّوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل مَن قتلتم منهم، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ أي: قد كانوا يفتنون المسلم في دينه، حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة البقرة، ١: ٥٧٦، بتصرُّف. وفي هذا يتبيَّن أيضًا أنَّ هذه الآية نزلت بعد مدة من دخول شهر شعبان، بعودة السرية وبعد أن أكثر النَّاس، فيتناسب مكانها في السورة بعد آيات تحويل القِبلة وليس قبلها.

(١) فقد نزلت الآية (٢١٨) مرتبطة بما قبلها كما في: ابن هشام، **السيرة النبوية**، سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه، ١: ٦٠١ ـ ٦٠٤، بتصرُّف. لذلك ألحقتها بالقسم الثاني من الموضع الأول من سورة البقرة.

(٢) لما سار الجيش يومًا أو يومَين إلى غزوة بدر أمرهم رسول الله ﷺ أن يُحصوا عددهم، فإذا هم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، فسُرَّ بذلك النبي ﷺ وحمد الله وقال: «عدَّة أصحاب طالوت». الطبراني، **المعجم الكبير**، ٤: ١٧٤، ح: ٤٠٥٦. قال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده حسن. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسِّيَر، باب غزوة بدر، ٦: ٧٣ ـ ٧٤، ح: ٩٩٥٠، بتصرُّف. ممَّا يعني أنَّ خبر طالوت قد أُوحِيَ به إلى النبي ﷺ قبل غزوة بدر، وهو لم يرد في القرآن إلا في هذا الموضع.

غزوة بدر:

في السياق نفسه من السرايا والغزوات، «سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مُقبِلاً من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، فندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلَّ الله يُنفِّلكموها»(١).

أما أبو سفيان، فحين «دنا من الحِجاز علم من بعض الركبان أن محمدًا قد استنفر أصحابه، فاستأجر مَن يبعثه إلى مكة لاستنفارهم وإخبارهم»(٢)، «فتجهَّز النَّاس سراعًا وخرج جميع أشرافهم إلا أبا لهب فقد بعث غيره مكانه»(٣)، كما أخرجوا رجالاً من بني هاشم [قبيلة النبيّ ﷺ] كُرهًا وخَوفًا كي يتلبَّسوا معهم في المعركة مهما كانت النتائج(٤). فخرجوا وكانوا فيما بين التسع مئة والألف(٥). ورغم أنَّ أبا سفيان أرسل إليهم لاحقًا بنجاة العير وطلب منهم الرجوع، إلا أنَّ أغلبهم أصرَّ على المسير إلى بدر موافقة لرأي أبي جهل(٦).

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٠٦ ـ ٦٠٧، بتصرُّف.
(٢) المصدر نفسه، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٠٧، بتصرُّف.
(٣) المصدر نفسه، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٠٩ ـ ٦١٠، بتصرُّف.
(٤) «لما تفرَّقت قريش إلى بدر فكانوا بمرّ ظهران، هبَّ أبو جهل من نومه فقال: يا معشر قريش ألا تبًا لرأيكم ماذا صنعتم؟ خلَّفتم بني هاشم وراءكم، فإن ظفر بكم محمد كانوا من ذلك بنحوه [من التسلُّط عليهم والنجاة من الأسر]، وإن ظفرتم بمحمد أخذوا آثاركم منكم [أي: الثأر منهم وهم في مكة] من قريب من أولادكم وأهليكم، فلا تذروهم في بيضتكم وفنائكم، ولكن أخرجوهم معكم، وإن لم يكن عندهم غَناء. فرجعوا إليهم فأخرجوا العباس بن عبد المطلب ونوفلاً وطالبًا وعقيلاً كُرهًا». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار، ٤: ٩ ـ ١٠.
(٥) د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٣٩٦، بتصرُّف.
(٦) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٢ ـ ٦٢٣، بتصرُّف.

وقد استعرض النبيُّ ﷺ الجيش، فردَّ مَن استصغره[١]، ورفض الاستعانة في القتال بالمشركين على المشركين[٢][٣]، وفي ذلك تلاقٍ مع أوصاف جنود طالوت التي سبقت قصَّته في سورة البقرة. كما يُظهِر أنَّ التدافع الحالي (قبل فتح مكة) هو بين أهل كتاب (لأنَّ النبيَّ ﷺ سيستقبِل في أُحُد مخيريق اليهودي في جيشه) وبين مشركين بلا كتاب.

أما جيش النبيّ ﷺ، فلما سار من المدينة يومًا أو يومَين ـ لأجل العير ـ أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم، فسمع من المهاجرين كلامًا حسنًا، ولكنَّه ظلَّ يطلب المشورة حتى يتكلَّم أحد من الأنصار، لأنَّ بيعة العقبة الثانية لا تنصّ على نصرة النبيّ ﷺ في حرب خارج المدينة (هجوم) بل على منعة في داخلها (دفاع). فتكلَّم سيِّد الأوس سعد بن معاذ[٤] رضي الله عنه مُعلنًا نُصرته وتأييده للمسير إلى بدر، فسُرَّ

---

(١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ذكر وقعة بدر الكبرى، ٢: ٤٧٧.

(٢) «تجوز الاستعانة بغير المسلم بشروط تحقُّق مصلحة أو رجحانها دون أن يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها، وتحقُّق الوثوق الكافي بمَن يُستعان به، وأن يكون تابعًا للقيادة الإسلامية [عند وجود عناصرها كما في المدينة]، ووجود حاجة حقيقية لهذه الاستعانة. لذلك رفض رسول الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش إذ لا حاجة به أصلاً، ولذلك استعان ﷺ بالمشرك عبد الله بن أريقط في هجرته إلى المدينة، وقَبِل حماية عمه أبي طالب له، وقَبِل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه من الطائف، كما قَبِل الصحابة جوار مَن أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عمَّن أجاروهم منه». د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٤٤٩، بتصرُّف.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، ٣: ١٤٤٩، ح: ١٨١٧.

(٤) يُلاحظ وجود خلط بين اسمَي سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما في عدد من المواقف كجواب الثاني في المشورة قُبَيل غزوة بدر وجواب الأول في المشورة عند حديث الإفك كما سيأتي. ففي هذا الموقف، تمَّت نسبة جواب المشورة إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه في روايات محدِّثين (كما في: **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، ٣: ١٤٠٣، ح: ١٧٧٩. وغيره)، مع أنَّ المشهور من روايات كتب السِّيَر والتاريخ نسبته إلى سعد بن =

النبيُّ ﷺ بقوله ونشَّطه ذلك ثمَّ قال: «سيروا وأبشروا، فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتَين [العير كمغنم أو القوم كقتال]، والله لَكَأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم»[1].

وأمرهم رسول الله ﷺ أن يُحصوا عددهم، فإذا هم ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً [من المهاجرين والأنصار]، فسُرَّ بذلك النبيُّ ﷺ وحمد الله وقال: «عدَّة أصحاب طالوت»[2]. وكانت معهم سبعين بعيرًا، فتعاقبت كلُّ مجموعة على بعير، وكان النبيُّ ﷺ يتعاقب مثلهم ويرفض دعوتهم للتميُّز عنهم بالراحة[3]. ورغم قِلَّة عدد جيش النبيّ ﷺ مقارنة بجيش

= معاذ رضي الله عنهما (كما في روايات تفسيرَي الطبري وابن كثير وتاريخَيهما، وابن هشام وغيره من كتب السِّيَر)، لأنَّ سعد بن عبادة رضي الله عنهما كان قد تخلَّف عن غزوة بدر (الزركلي، **الأعلام**، ٣: ٨٥. وفي السيرة الحلبية: «اختُلف في عدِّه في البدريين، والصحيح أنه لم يشهد بدرًا». **السيرة الحلبية**، ٢: ٣٨٦.). وفي ذلك يقول ابن حجر رحمه الله بعد أن ينقل جواب سعد بن معاذ رضي الله عنهما قُبَيل غزوة بدر: «وقع في [صحيح] مسلم أن سعد بن عبادة رضي الله عنهما هو الذي قال ذلك، وكذا أخرجه ابن أبي شيبة من مُرسل عكرمة، وفيه نظر، لأن سعد بن عبادة رضي الله عنهما لم يشهد بدرًا، وإن كان يُعَدّ فيهم لكونه ممَّن ضُرِب له بسهمه. ويُمكن الجمع بأنَّ النبي ﷺ استشارهم في غزوة بدر مرَّتين: الأولى وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان، وذلك بيِّن في رواية مسلم، ولفظه أن النبيّ ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، والثانية كانت بعد أن خرج كما في الحديث، ووقع عند الطبراني أنَّ سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال ذلك بالحديبية، وهذا أولى بالصواب». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب قول الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، ٧: ٢٨٨، بتصرُّف.

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦١٥، بتصرُّف.

(٢) الطبراني، **المعجم الكبير**، ٤: ١٧٤، ح: ٤٠٥٦. قال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده حسن. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسِّيَر، باب غزوة بدر، ٦: ٧٣ ـ ٧٤، ح: ٩٩٥٠، بتصرُّف.

(٣) فـ«عن عبد الله بن مسعود قال: كنَّا يوم بدر كل ثلاثة على بعير قال: وكان عليٌّ وأبو لبابة زميلَي رسول الله ﷺ، وكان إذا كانت عُقبَته قلنا: اركب حتى نمشي، فيقول: «ما أنتما بأقوى منّي، وما أنا بأغنى عن الأجر منكم»». الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب المغازي والسرايا، ٣: ٢٣، ح: ٤٢٩٩، بتصرُّف، وصحَّحه.

قريش، فإنَّ النبيّ ﷺ رفض انضمام اثنَين من الصحابة إلى الغزوة تحقيقًا للوفاء بما عاهدا عليه قريشًا حين أخذوهما قُبَيل بدر وألزموهما التعهُّد بعدم القتال مع النبي ﷺ(١). كما رفض انضمام المشركين إلى الغزوة أيضًا مُشترِطًا الإيمان بالله ورسوله ﷺ(٢). وفي هذا تلاقٍ آخر مع طالوت وأصحابه.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى بدر، «نزل في أدنى ماء من بدر. فجاء الحباب بن المنذر ﷺ وسأله عن معايير اختياره لهذا المكان، «فقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أَنْزَلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب

---

(١) فعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي، فأَخَذَنا كفار قريش قالوا: إنكم تريدون محمدًا؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منَّا عهد الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال: «انصرفا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم». **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب وفاء العهد، ٣: ١٤١٤، ح: ١٧٨٧.

(٢) عن السيدة عائشة ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ قِبَلَ بدر، فلما كان بحرَّة الوَبَرَة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه. فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأُصيب معك. قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟». قال: لا. قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك». ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة. ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة: «تؤمن بالله ورسوله؟». قال: نعم. فقال له رسول الله ﷺ: «فانطلق». **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، ٣: ١٤٤٩، ح: ١٨١٧. وكذلك أتى النبيَّ ﷺ رجلان فقالا له: إنا نستحيي أن يشهد قومنا مشهدًا لا نشهده معهم. قال: «أوَ أسلمتما؟» فقالا: لا. فقال: «فإنّا لا نستعين بالمشركين على المشركين». فأسلما وشهدا معه بدرًا. أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكيين، حديث جدّ خبيب ﷺ، ٢٥: ٤٢، ح: ١٥٧٦٣، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب الجهاد، باب الاستعانة بالمشركين، ٥: ٣٠٣، ح: ٩٥٧٠.

والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإنَّ هذا ليس بمنزل، [فإنِّي عالم بها وبقُلُبها][١]. فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نُغوِّر [أي: نطُمُّ] ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حَوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. فنهض رسول الله ﷺ ومَن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه»[٢]، وبذلك تبيَّن لدى الصحابة تَفرِقَتُهم بأدب بين ما يصدر عن النبيّ ﷺ باعتباره وحيًا، وما يقوم به هو ﷺ باعتباره رأيًا. مع تقديمه الشورى كما سبق والاستفادة من الخبرات. ومع ذلك، فلم يمنع النبيُّ ﷺ بعض المشركين من أن يشربوا من الحوض[٣].

هذا، وقد كان فريق من المؤمنين يُفضِّلون موافقة عير أبي سفيان على قتال قريش بأن يلتقوا بعير أبي سفيان فيغنموا بدلاً من أن يلتقوا بجيش قريش فيُحاربوا (كما سيأتي في سورة الأنفال)، فكان من تثبيت الله عز وجل لهم أن أنزل المطر (للاستفادة منه وتثبيت الأقدام في المسير) والسكينة عليهم، وأوحى إلى نبيِّه ﷺ بأمكنة مَصارع القوم التي سيلقَون فيها حتفهم، «ويضع ﷺ يده على الأرض هاهنا وهاهنا، فما ماط [أي: بَعُدَ] أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ»[٤]. كما كان النبيُّ ﷺ يُحرِّضهم بذكر الجنة جزاء كلِّ مَن يُقتل صابرًا محتسبًا مُقبلاً غير مدبر[٥].

ولما جاء يوم المعركة، سوَّى النبيُّ ﷺ صفوف أصحابه وفي يده قدح يعدل به القوم، فمرَّ بسواد بن غزيَّة وهو مستنتِل من الصَّفّ [أي: مُتَقَدِّم]، فطعن في بطنه بالقدح وقال:

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة بدر، ٢: ١٥.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٢٠، بتصرُّف.

(٣) «لما نزل الناس، أقبل نفر من قريش حتى وردوا حَوض رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: دعوهم». المصدر نفسه، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٢٢، بتصرُّف.

(٤) **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، ٣: ١٤٠٣، ح: ١٧٧٩.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٢٧، بتصرُّف.

استوِ يا سواد. فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحقّ والعدل، فأَقِدْني [ليقتصَّ]. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: استَقِد. فاعتنقه [سواد] فقبَّل بطنه. فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير»[١]. وفي ذلك يتبيَّن بوضوح تطبيق النبي ﷺ ـ حتى في موقف قيادة جيش في معركة ـ للمبادئ التي وثَّقها بعد هجرته ـ كما سبق ـ بقوله: «إنَّ الله لا يُقدِّس أمَّة لا يُؤخذ للضعيف فيهم حقُّه»[٢]. كما يتبيَّن مدى الرابطة الإيمانية القلبية الجامعة لكثير من الصحابة بالنبيّ ﷺ.

وقُبَيل المعركة ظهرت مبادرة من عتبة بن ربيعة لتحريض قريش على الرجوع عن القتال، وحدَّد لهم سبب قتال النبيّ ﷺ لهم بقوله: «فارجعوا وخلُّوا بين محمد وبين سائر العرب»[٣]. ممَّا يؤكِّد وضوح السبب الاستراتيجي للقتال بين المسلمين وقريش عند قريش كما هو واضح عند المسلمين وهو: منع قريش لحرية الدعوة وتشويهها لها بين العرب، كما فعلت ذلك قبل الهجرة بالتعدِّي على حرية المعتقد وحرية ممارسة الشعائر الدينية للنبيّ ﷺ والمسلمين. ولكنَّ أبا جهل أفسد هذه المبادرة[٤].

بدأ القتال بالمبارزة، ثمَّ التقى الفريقان ونشبت الحرب، وبدأ يسقط الشهداء والقتلى والجرحى، والرسول ﷺ يدعو ربَّه النَّصر حتى أنزله الله بنزول الملائكة للقتال مع المؤمنين، فثبت المسلمون ووقع الرعب بالمشركين وبدؤوا بالانهزام والأسر. وكان مقتل أشراف قريش كأبي جهل[٥] وأُميَّة بن خَلَف بعد عتبة وشيبة ابنَي ربيعة والوليد بن

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٢٦، بتصرُّف.

(٢) البيهقي، **السنن الكبرى**، كتاب إحياء الموات، باب سواء كل موات لا مالك له، ٦: ٢٤١، ح: ١١٨٠١.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٢٣، بتصرُّف.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة بدر، ٢: ١٦.

(٥) «لما قُتِل أبو جهل يوم بدر قال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: قد قتل الله قاتل أمّك. وأم =

عتبة وغيرهم... وكان رسول الله ﷺ يُردِّد: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥][١].

لقد شكَّلت رابطة الإيمان الجامعة بين المؤمنين البديل عن الروابط العائلية، ممَّا أمكن الكثير من المهاجرين من قتال ذوي قراباتهم، الأمر الذي مهَّدت له سورًا مكية عبر قَصص الأنبياء وانتقال المؤمنين بهم من رابطة قومية إلى رابطة إيمانية (كما في سورتَي الشعراء وهود)، إضافة إلى معاني الآيات التي لا تجعل لرابطة النسب وحدها وزنًا يوم القيامة (كسورتَي عبس، والمؤمنون). كما تحقَّقت سُنَّة الرسل التي وردت في سورة الإسراء بهلاك (كبار رجالات) قريش بعد إخراج النبيّ ﷺ من مكة، وكان موعدهم في غزوة بدر، كما ستنزل سورة الأنفال لتستعرض الغزوة وتُشير إلى ذلك.

وفي سياق القتل والأسر، أوصى النبيُّ ﷺ بعدم قتل بني عبد المطَّلب الذي أُخرجوا كُرهًا والاكتفاء بأَسْرِهم[٢]، وأبي البَختَريّ بن هشام[٣] الذي كان أكفَّ القوم عن النبيّ ﷺ وهو بمكة وكان ممَّن نَقَضَ الصحيفة[٤] التي كتبتها قريش لحصار بني هاشم والمطَّلب كما سبق في مكانه.

= عمَّار هي سميَّة التي أسلمت قديمًا بمكة، وكانت ممَّن يُعذَّب في الله لترجع عن دينها، فلم تفعل وصبرَت، حتى مرَّ بها أبو جهل يومًا فطعنها بحربة في قلبها فماتت رحمها الله، وهي أول شهيد في الإسلام، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، تسمية النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، ٨: ٢٦٤، بتصرُّف.

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، ٣: ١٠٦٧، ح: ٢٧٥٨، بتصرُّف.

(٢) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند الخلفاء الراشدين، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ٢: ٩٧، ح: ٦٧٦، بتصرُّف. قال الهيمثي: رواه أحمد ورجال أحمد ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب ما جاء في الأسرى، ٦: ٨٥، ح: ١٠٠٠٠.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٢٩، بتصرُّف.

(٤) كان المطعم بن عدي قد مات قبل بدر. وبقي أربعة ممَّن نقض الصحيفة، اثنان منهما سيُسلمان بعد فتح مكة (هشام بن عمرو وزهير بن أبي أمية)، والثالث (زمعة بن الأسود) كان =

إنَّ كلَّ ما سبق، يؤكِّد على أن غزوة بدر لم تكن كسابقاتها من الغزوات والسرايا، بل هي مفصل جديد في السيرة كما سيظهر أيضًا في سورة الأنفال، وسيُفضَّل البدريون في المجتمع على غيرهم من المسلمين(١).

◻ وقد نزلت آيات من **سورة الحجّ** عن المبارزة التي بدأت بها غزوة بدر(٢).

وبقيت مسألة تقسيم الغنائم. كانت توجيهات رسول الله ﷺ قبل الغزوة أنَّه «مَن قتل قتيلاً فله كذا، ومَن أسر أسيرًا فله كذا»(٣)، وكان ﷺ يكره الأنفال ويقول: «ليردَّ قويُّ المؤمنين على ضعيفهم»(٤).

= في السيرة أحد المناوئين للدعوة وختم علاقته مع النبي ﷺ قبل هجرته من مكة بأن وقف على باب النبي ﷺ ليلة الهجرة لاغتياله مع بقية المجرمين. فلم يبقَ ليُعطى الأمان ممَّن حضر إلى بدر سوى أبي البَختَري بن هشام.

(١) فحين كان يتمّ أحيانًا الانتقاص من أحد المسلمين البدريين، كان رسول الله ﷺ يُذكِّر كونه من أهل بدر. كما في قصة اتِّهام حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه باستحقاق القتل عقوبة على تورُّطه في تسريب معلومات صُنِّف خيانة، قال رسول الله ﷺ: «أليس من أهل بدر؟ لعلّ الله اطّلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم». **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب فضل مَن شهد بدرًا، ٤: ١٤٦٣، ح: ٣٧٦٢، بتصرُّف.

(٢) كان أبو ذرّ رضي الله عنه يُقسِم أنَّ آية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة. **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ٤: ١٤٥٩، ح: ٣٧٥١، بتصرُّف. وربَّما يُمكن أن لا يقتصر النزول عليها، بل يتعدَّاها إلى ما بعدها حتى الآية (٢٢) لاستيفاء تعلُّق الآيات المباشر.

(٣) **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب في النفل، ٣: ٧٧، ح: ٢٧٣٨، بتصرُّف. وروى بعضه: الحاكم النيسابوي، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، ٢: ٢٤١، ح: ٢٨٧٦، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٤) أحمد بن حنبل، **المسند**، تتمة مسند الأنصار، حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، ٣٧: ٤٢٢، ح: ٢٢٧٦٢، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجال أحمد ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب [الأنفال]، ٦: ٩٢، ح: ١٠٠٣٢.

ولكن بانتهاء الغزوة، دخل المؤمنون في اختلاف حول مسألة الغنائم وكيفية قسمتها بينهم. ذلك «أن رسول الله ﷺ أمر بما في العسكر مما جمع الناس، فجُمِع، فاختلف المسلمون فيه. فقال مَن جمعه: هو لنا، وقال الذين كانوا يُقاتِلون العدوَّ يطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه، لَنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يُخالِف إليه العدوُّ: والله ما أنتم بأحقّ به منّا، والله لقد رأينا أن نقتل العدوّ إن منحنا الله تعالى أكتافه، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه مَن يمنعه، ولكنّا خفنا على رسول الله ﷺ كرَّة العدوّ فقمنا دونه، فما أنتم بأحقّ به منّا. . . [وكذلك حدث الاختلاف بين الفتيان الذين تقدَّموا للقتال والشيوخ الذين لزموا الرايات وكانوا ردءًا لهم[1]]، قال عبادة بن الصامت ﷺ: فينا أصحاب بدر نزلت [سورة الأنفال] حين اختلفنا في النَّفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء»[2]. و«لما انقضى أمر بدر، أنزل الله عز وجل فيه من القرآن الأنفال بأسرها»[3].

□ **«الأنفال»**[4]: وفيها عرض سؤال الصحابة: لمَن هي الغنائم[5]؟ والجواب عليه أنَّها

---

(١) **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب في النفل، **٣**: **٧٧**، ح: **٢٧٣٧**، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: **٦٤٢**، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، نزول سورة الأنفال تصف أحداث بدر، ١: ٦٦٦، بتصرُّف.

(٤) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. «وهي مدنية بدرية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الأنفال، ٧: ٣٦٠. وأما في لوائح ترتيب النزول فرغم اتفاقهم على مدنيَّتها، إلا أنَّهم اختلفوا في ترتيبها بين السور، فذهب البيهقي وأبو عمرو الداني إلى كونها نزلت بين سورتَي آل عمران والأحزاب، وذهب ابن الضريس والزهري إلى كونها نزلت بين سورتَي البقرة وآل عمران.

(٥) «الغنيمة: ما أصاب المسلمون عنوة بقتال». الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٣: ٥٤٦، بتصرُّف.

خالصة لرسول الله ﷺ ليس لهم فيها شيء، بل المطلوب منهم: تقوى الله وإصلاح ذات بينهم وطاعة الله ورسوله ﷺ. مع استعراض صفات المؤمنين للاتِّصاف بها (وَجَل القلب باستشعار الخوف عند ذكر الله، وازدياد الإيمان بتلاوة الآيات، والتوكُّل، وإقامة الصلاة، والإنفاق). ثمَّ تنتقل السورة إلى بيان جوانب الضعف في فريق من المؤمنين حين كرهوا لقاء القوم للقتال وفضَّلوا موافقة العير للمَغنم، وبيان تثبيت الله لهم بالمدد من الملائكة، والنوم قبل المعركة، ونزول المطر للطهارة، وثبات القلب والأقدام. كما يتمُّ عرض السلوك المطلوب عند خَوض المعارك بعدم التولِّي. ويتمُّ إعلام الصحابة والرسول ﷺ بأحداث من المعركة تُظهر أنَّ الفضل في النَّصر لله وحده، فالمطلوب «التبرؤ من الحَول والقوَّة والحثّ على التسليم لأمر الله المُثمِر لاجتماع الكلمة والنصر»[١]. وتتناول السورة الكافرين بأنَّ الفتح جاء وأنَّ الخير ما يزال مُتاحًا لهم إذا انتهَوا (عن الكفر الذي اتَّصفوا فيه، والصدِّ عن المسجد الحرام وعن سبيل الله، ومكرهم بإخراج النبيّ ﷺ من مكة، كما تُشير إلى ذلك الآيات اللاحقة كسبب لتعذيب الله لهم، وهذه الأسباب الأربعة هي ذاتها التي وردت في آية القتال في الشهر الحرام [البقرة: ٢١٧] بعد الأمر بالقتال مباشرة). وتوجِّه الآياتُ المؤمنين إلى طاعة الله ورسوله ﷺ، وتُذكِّرهم بما منَّ الله عليهم بعد الاستضعاف من إيواء ونصر ورزق. مع التحذير من خيانة الله ورسوله ﷺ[٢] والافتتان بالأموال والأولاد.

---

(١) البقاعي، **نظم الدرر**، سورة الأنفال، ٨: ٢١٤، بتصرُّف.

(٢) «خيانتهم الله ورسوله، كانت بإظهار مَن أظهر منهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين الإيمان في الظاهر والنصيحة، وهو يستسرّ الكفر والغشّ لهم في الباطن، يدلُّون المشركين على عورتهم، ويُخبرونهم بما خَفِيَ عنهم من خبرهم. وقد اختلف أهل التأويل فيمَن نزلت هذه الآية وفي السبب الذي نزلت فيه. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إنَّ الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله، وخيانة أمانته، وجائز أن تكون نزلت في [شخص معيَّن]، ولا خبر عندنا بأيّ ذلك كان يجب التسليم له بصحته. وبنحو ذلك قال أهل التأويل [أيضًا]». الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٣: ٤٨٠ ـ ٤٨٣، بتصرُّف. والصحيح أنَّ الآية عامة. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٤١، بتصرُّف.

وتستعرض السورة مكر الذين كفروا وتعنُّتهم في التعامل مع آيات الله باتِّهام كونها أساطير الأولين، والدعاء على أنفسهم بالهلاك إن كانت حقًّا من عند الله! وهنا تأتي القاعدة بأنَّ الله لا يُعذِّب قومًا فيهم نبيُّهم (في تكامل مع سُنَّة الرسل الواردة في سورة الإسراء أنَّ الهلاك واقع بقريش بعد إخراجهم النبيّ ﷺ من مكة، كما أهلك الأقوام السابقة بعد خروج الأنبياء من بينهم. مع الإشارة إلى الاختلاف في وسيلة الإهلاك عن الأنبياء السابقين بكونها أصبحت عبر قتال المؤمنين لهم). فكان العذاب عليهم في غزوة بدر للأسباب الأربعة السابقة، وبذلك يميز الله الخبيث من الطيب. ومع ذلك، تفتح الآيات لهم باب المغفرة إن انتهَوا عن ذلك، وإلا فقد مضت **سُنَّة الأولين** بنصر الأنبياء وهزيمة المكذِّبين[١]. ويأتي الأمر بالقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله، أي: «حتى لا يُفتَن مؤمن عن دينه، ويكون التوحيد لله خالصًا ليس له فيه شريك»[٢]، والله بصير بهم إذا انتهَوا، ومولى المؤمنين ونصيرهم إذا تولَّوا.

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّه قد ارتبط بمفصل **السنَّة** مباشرة الأمر الثاني بالقتال (بعد الذي ورد في سورة البقرة)، وتمَّ تعليله كما سبق بعلَّتَين: حتى لا يُفتَن مؤمن عن دينه، ويكون التوحيد لله خالصًا ليس له فيه شريك. ومع أنَّ العِلَّة الأولى هي الواضحة والمُشار إليها بالتصريح دَومًا منذ الإذن في سورة الحجّ، إلا أنَّه قد أُضيف إليها هنا التصريح بعِلَّة نشر التوحيد الخالص، الأمر الذي جعله الإسلام منذ البداية ضابطًا لقَبول التعدّدية العَقَدية حين رفض الاعتراف بالشرك. كذلك، إنَّ الآيات السابقة تذكر دعاء قريش على نفسها بالعذاب إن كان الدين الذي جاء به محمد ﷺ حقًّا، فكان عذاب بدر جوابًا لهم ودليلاً على الدين الحقّ، فأصبح واجباً عليهم الدخول فيه. وكما أنَّ الهلاك يحقُّ على القوم الذين يُعاينون الآيات المعجزات ثمَّ يُكذِّبون بها (كما سبق في سورة الإسراء)، فكذلك أصبح الهلاك يحقُّ

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٣: ١٢٢، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، نزول سورة الأنفال تصف أحداث بدر، ١: ٦٧٢، بتصرُّف. والطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٣: ٥٣٧، بتصرُّف.

على قوم النبيّ ﷺ المكذِّبين، ولكن بقتالهم من قِبَل المؤمنين(١). هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، في الآية تعبير أيضًا عن رفع سقف المطالب بعد نصر بدر بتعدِّي الخطاب إلى غير قريش أيضًا (أي: كما تمَّ رفع سقف الخطاب بعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما في مكة)، فإنَّ نصَّ هذه الآية حدَّد نطاق الدين ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، أي: خطاب القتال أصبح مع «جميع الكفار وليس فقط أهل مكة»(٢). (وقد

(١) «باستقراء تاريخ الأمم السابقة نُلاحظ ما حاق بهم من سنة إهلاك الظالمين، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذي لا يُردُّ عن القوم الكافرين، وكان عذاب استئصال. والأنبياء في هذا الوقت لم يكونوا مُطالَبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم، بل عليهم البلاغ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولَّى تأديب المخالفين، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]. إلا إذا طلب أتباع النبيّ الجهاد معه لنشر دعوته، كما حدث مع أتباع موسى عليه السلام من بعده حين طلبوا أن يُقاتِلوا في سبيل الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]». حينها أصبح «المؤمنون بكل دين في وقته، يدخلون المعارك في سبيل نصرة الدين والدفاع عنه (فليست إذًا خاصة بالمسلمين). [وأصبح القتال في سبيل الله هو الخيار في] أمة محمد ﷺ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشري. [ويدل عليه لاحقًا] قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة ١١١]، فهو وعد من الله في التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام وطالَبوا بالقتال في سبيل الله، وكذلك في الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه السلام، وأخيرًا في القرآن للذين آمنوا بمحمد ﷺ». **تفسير الشعراوي**، سورة الإسراء، الآية ٥٨، ١٤: ٨٦٢٧ وما بعدها. وسورة التوبة، الآية: ١١١، ٩: ٥٥٤٠ وما بعدها، بتصرُّف.

(٢) الكرماني محمود بن حمزة، **البرهان في توجيه متشابه القرآن**، ص٤٠، بتصرُّف. وهذا نصُّه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، و﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، لأنَّ القتال =

تكون إشارة مؤسِّسة لسرايا وغزوات قادمة ووجود خيار الإسلام ضمن خيارات دَرء الحروب، إضافة إلى كونها تتوجَّه لمحارِبين). ولكنَّ هذا لا يعني أبدًا أنَّه سيتمُّ نشر الدين بالقتال لتَعارُضِه مع حرية المعتقد وحرية ممارسة الشعائر الدينية التي عرضتهما الآيات المكية بوضوح (كما مرَّ في تتمَّة سورة العلق وسورتَي الأعراف وغافر) وستُكمِّل بهما آيات مدنية كما سيأتي.

هذا، وعرضت الآيات كيفية قسمة الغنائم (خمسة أقسام: أربعة للغانمين، وقسم لله ورسوله ﷺ يُقسم أيضًا خمسة أقسام: الأول خاصّ للرسول ﷺ، والبقية لذوي قربى النبيّ ﷺ[1]، واليتامى[2]، والمساكين، وابن السبيل)، [في إسهام للتدافع العسكري في تحقيق تكافل في مجتمع الغانمين، فتتساند الطبقات ولا تتعزَّز الطبقية] مع ربط الامتثال بهذا الحُكم بدافع الإيمان بالله[3] وما أُنزِل على الرسول ﷺ يوم الفرقان (يوم بدر) «من الآيات والملائكة والفتح»[4]. ثمَّ تنتقل الآيات إلى «الكيفية التي جرت بها المعركة والعِبَر التي

= في سورة البقرة مع أهل مكة، وفي الأنفال مع جميع الكفار، فقيَّده بقوله: ﴿كُلُّهُۥ﴾. هذا، وإنَّ تلك الآية من سورة البقرة ستنزل ضمن عمرة القضاء (٧هـ).

(١) «سهم ذوي القربى يُصرف إلى بني هاشم وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب (٧ ـ ١٠ب) غضبًا لرسول الله ﷺ وحِماية له». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٦٣، بتصرُّف. «ولأن الله حرَّم عليهم أخذ الصدقات والزكاة، فلا جَرَم أنه أغناهم من مال الله». ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، سورة الأنفال، ١٠: ٩، بتصرُّف.

(٢) إنَّ «فائدة ذكر اليتيم مع كون استحقاقه بالفقر والمَسكَنة لا باليُتم، دفع توهُّم أن اليتيم لا يستحِقُّ من الغنيمة شيئًا لأنَّ استحقاقها بالجهاد واليتيم صغير فلا يستحِقُّها». الآلوسي، **روح المعاني**، سورة الأنفال، ٥: ٢٠١، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٦٥، بتصرُّف.

(٤) الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الأنفال، ١٥: ٤٨٦، بتصرُّف.

يجب استخلاصها منها»(١). وتوجِّه الآيات المؤمنين إلى الثبات وذكر الله عند القتال مع طاعة الله ورسوله ﷺ ـ دون تنازع ـ وصبر. كما يتمُّ التحذير من مشابهة قريش في مظاهر القوّة رياء. ويتمُّ الرَّدّ على مقولات المنافقين ومرضى القلوب (من أهل مكة الذين حضروا المعركة مع الذين كفروا فنالهم ما نالهم)(٢) التي تتَّهم المؤمنين بالاغترار بدينهم، فأخذهم الله بذنوبهم كالأمم السابقة وغيَّر نعمته عليهم بسبب أنَّهم غيَّروا ما بأنفسهم. وتُشير الآيات إلى كون «الذين كفروا شَرّ الدَّوابّ عند الله فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدًا نقضوه، وهم لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام، فحُكم قتالهم هو التنكيل بهم عند الغَلَبة عليهم ليخاف مَن سواهم من الأعداء. وإنَّه لو خاف النبيّ ﷺ خيانة قوم معاهدين فعليه أن يُعلِمَهم أنَّه نقض عهدهم قبل مُحارَبتهم»(٣). أما الذين كفروا (ممَّن نجا من الغزوة)

---

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٣: ١٣٠، بتصرُّف

(٢) هم «نفر ممَّن كان قد تكلَّم بالإسلام من مشركي قريش، ولم يستحكم الإسلام في قلوبهم.. [ورغم أنَّهم] كانوا أقرُّوا بالإسلام وهم بمكة، [لكنَّهم] خرجوا مع المشركين يوم بدر وهم على الارتياب، فلما رأوا قلّة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]». الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٣: ١٢ ـ ١٤، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٧٥ ـ ٧٦، بتصرُّف. أما منافقو المدينة، فسيظهرون بعد غزوة بدر كما سيأتي.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٧٨ ـ ٧٩، بتصرُّف. وهذا التفسير يجعل الآيات (٥٥ ـ ٥٨) عامة صالحة لأن تنطبق على أقوام وفي أحداث قادمة. أما الإمام الطبري فقد ذهب في تفسيره (الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٤: ٢٠ ـ ٢١، بتصرُّف) إلى التمثيل ببني قريظة ونظرائهم في تلك الآيات ـ ممَّن كان بين النبيّ ﷺ وبينهم عهد ونقضوه في أزمنة لاحقة ـ دون ربطها بوصف الذين كفروا في الآية الأولى من تلك المجموعة رغم ارتباطها بها. كذلك، ورد أنَّ النبيّ ﷺ سار إلى بني قينقاع (بعد بدر بشهر، وقبل قريظة بثلاث سنين) بالآية الأخيرة من المجموعة، وكونها نزلت حينها. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة بني قينقاع، ٢: ٢٩، بتصرُّف. لذلك ترجَّح لديَّ أن تظلّ المجموعة بتفسيرها العام في مكانها من السورة ضمن سياق الحديث عن الذين كفروا وكيفية التعامل معهم في أحداث مختلفة، =

فهم لا يُعجِزون الله، وعلى المؤمنين الإعداد لهم ـ مع ما يستلزمه من إنفاق في سبيل الله ـ لإخافة الأعداء وإخافة آخرين من دونهم (المنافقون الجُدُد)[١] الذين لا يعلمهم المؤمنون.

هذا في حالة الحرب مع المحاربين أو المعاهِدين عند نقض العهد أو الخيانة. أما في حالة السلم، فالتوجيه كان بقَبوله من الطرف المحارِب عند المَيل إليه مع التوكُّل على الله الكافي للنبي ﷺ في حالة كون الصلح خديعة من المحارِبين. ويتمُّ الاستدلال على كفاية الله تعالى لنبيِّه ﷺ بما أيَّده به من النَّصر والمؤمنين والتأليف بين قلوبهم، مع تحريض[٢] النبيّ ﷺ المؤمنين على القتال (لتجنُّب الهلاك) وفق مقياس «ألَّا يفرّ عشرون مؤمنًا من مواجهة مئتين، ثم خفَّف الله عنهم ونسخ هذا الحكم، فلا ينبغي لمئة مؤمن أن يفرُّوا من مئتين»[٣]. أما بخصوص الأسرى، فدلَّت الآيات على «أنَّ قتل المشركين الذين أسرهم

= وهي تطبيق لقاعدة للإمام الطبري نفسه حين قال عن آيات سابقة من السورة نفسها تبدأ بالمطلع ذاته ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٢٢] أنَّها «في سياق قَصص المشركين ويتلوها الخبر عنهم بذمِّهم، فلأن يكون ما بينهما خبرًا عنهم، أولى من أن يكون خبرًا عن غيرهم». الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٣ : ٤٥٩، بتصرُّف. وقد ذهب الجابري إلى أنَّ المقصود بهم هم الأعراب خارج المدينة (بنو سليم وغطفان الذين حشدوا قواتهم لغزو المدينة بعد غزوة بدر بأيام قليلة). د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٣: ٢١ و١٣٠، بتصرُّف. وفي كلِّ حال، يكون النبيّ ﷺ قد طبَّق الآيات على أحداث قادمة معه مع قبائل من أهل الكتاب أو من الأعراب حين نقضوا عهدهم معه.

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤ : ٨٢ ـ ٨٣، بتصرُّف. فبعد أن قامت أواخر السور المكية باستعراض فئة منافقي مكة، وظهر مآلهم مع الذين كفروا (بغزوة بدر) في سورة الأنفال. فإنَّ هذا الحدث نفسه سيُشكِّل بداية ظاهرة منافقي المدينة.

(٢) «الحَرَض: هو الإشراف على الهلاك، والتحريض: الحثّ على الشيء بكثرة التزيين وتسهيل الخَطب فيه، كأنَّه في الأصل إزالة الحَرَض». الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الحاء، ص٢٢٨، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤ : ٨٧، بتصرُّف.

النبيّ ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم كان أَولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم»[١]، ووجَّهت النبيّ ﷺ لإجابة الأسرى «حين أعلنوا إيمانهم[٢] أنَّ الله سيُخلِف لهم خيرًا ممَّا

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٤ : ٥٨، بتصرُّف. ذلك أنَّ المسلمين لما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟». فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبي الله هم بنو العمّ والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهدِيَهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟». قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنِّي أرى أن تُمَكِّنَّا فنضرب أعناقهم، فتُمكِّن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتُمكِّنِّي من فلان ـ نسيبًا لعمر ـ فأضرب عنقه، فإنَّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلت. فلما كان من الغد، جئتُ فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله أخبرني مِن أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدتُ بكاء بكَيت، وإن لم أجد بكاء تباكَيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عُرِضَ على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ). وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩]، فأحلَّ الله حُكم الغنيمة لهم. **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ٣: ١٣٨٣، ح: ١٧٦٣. ويُمكن فهم سبب تقديم قتل الأسرى على أخذ الفدية أنَّه استكمال لسنَّة الرسل الواردة في سورة الإسراء، حول إهلاك القوم بعد إخراجهم الرسول من الأرض، وهو ما تمَّ عبر قتالهم في بدر، حتى ولو كانت المعركة قد انتهت، فالأصل أنَّ انتهاءها لا يُغيِّر حُكم أسراها. وهنا مكمن محتَمل للاجتهاد حوله ـ بقتل الأسرى أو فدائهم ـ قبل نزول نصّ الآية السابقة، والله أعلم.

(٢) فممَّن أسلم: العباس بن عبد المطلب، وجُبَير بن مُطعِم، والوليد بن الوليد بن المغيرة رضي الله عنهم. وورد أنَّ «العباس وابنَي أخوَيه نوفلاً وعقيلاً أُمِروا بالعودة إلى مكة ليُقيموا ما كانوا يُقيمون من أمر السقاية والرفادة والرئاسة بعد موت أبي لهب لأنَّها كانت في بني هاشم، ثمَّ هاجروا بعد إلى المدينة فقَدِموا بأولادهم وأهاليهم». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار، ٤: ١٦ ـ ١٧.

أُخذ منهم»[1] إن كانوا صادقين، وأما «إن أرادوا بذلك الخيانة والغدر فقد خالفوا الله قبل الغزوة فأمكن منهم»[2].

وخُتِمت السورة باستعراض أقسام المؤمنين وهم: مهاجرون، وأنصار، وغير مهاجرين. أما المهاجرون والأنصار فبعضهم أولياء بعض في الدين (بالنُّصرة والتوارث)[3]، ولكن ليس لهم على غير المهاجرين وِلاية (نصرة أو ميراثًا)[4] حتى يُهاجروا. بالمقابل،

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٩٣، بتصرُّف.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٤: ٧٥، بتصرُّف. «وتفسيرها على العموم أشمل وأظهر». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٩٥، بتصرُّف.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، ١٤: ٧٧ ـ ٧٩، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة الأنفال، ١٤: ٨١، بتصرُّف. «كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصَّته بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تُمَثِّلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خِلال ـ فأيَّتهنَّ ما أجابوك فاقْبَل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقْبَل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنَّهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوا أن يتحوَّلوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذى يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يُجاهِدوا مع المسلمين، فإن هم أبَوا فسَلْهُم الجزية، فإن هم أجابوك فاقْبَل منهم وكفَّ عنهم، فإن هم أبَوا فاستعن بالله وقاتِلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتُصيب حكم الله فيهم أم لا». **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيَّته إياهم بآداب الغزو، ٣: ١٣٥٧، ح: ١٧٣١.

«على المؤمنين (المهاجرين) نُصرتهم إن استنصروهم في قتال ديني إلا على قوم من الكفار بينهم وبينهم مهادنة إلى مدَّة، فلا تُنقَض العهود»[١]. ولما كان الذين كفروا أولياء بعض في النصرة والتوارث، فالواجب على المؤمنين الالتزام بما سبق من أحكام النصرة والتوارث بينهم لدرء الفتنة والفساد. ثمَّ بيَّن تعالى كون القسمَين الأوَّلَين (المهاجرين والأنصار) هم المؤمنون حقًّا، وبيَّن طريقًا للقسم الثالث (مَن آمن من بعدهم) لِلُّحوق بمنزلتهم بالهجرة والجهاد معهم، وحينها تعود لوِلاية القرابة (بالأرحام) الأفضلية بعد أن تحقَّقت وِلايتَي الإيمان والهجرة[٢].

وقد وصَّى النبيُّ ﷺ بالأسارى حين فرَّقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيرًا». ويصف أحد هؤلاء الأسارى كيفية تطبيق الصحابة لهذه الوصية معه ـ وهو المشرِك المحارِب قبل الأسر ـ فقال: كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصُّوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأَستَحيِي فأَرُدَّها على أحدهما، فيردَّها عليَّ ما يمسّها[٣].

وقد مَنَّ النبيُّ ﷺ على الأسرى الذين لا مال لهم بإطلاقهم بغير فداء[٤]، واشترط على بعضهم أن لا يُعينوا أحدًا عليه[٥] كما فعل مع أبي عزة الجُمَحي، كما شرط على غيرهم

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٩٧، بتصرُّف.

(٢) «هذا هو التفسير الصحيح المناسب لسياق الآية وغرضها وما تُقرِّره الفطرة السليمة». د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، ٢: ٧٤٠، بتصرُّف. كما أنَّه ورد في نزول الآيتَين الأخيرتَين من السورة حول الذين آمنوا وأقاموا مع المشركين: «ولو شاؤوا خرجوا إليه [أي: النبي ﷺ] وفرُّوا من المشركين إلى رسول الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٤] كلّها وما بعدها حتى انقضت السورة». البيهقي، **دلائل النبوة**، باب سياق قصة بدر عن مغازي موسى بن عقبة، ٣: ١٢٠.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٤٥، بتصرُّف.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة بدر، ٢: ١٨.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بدر الكبرى، ١: ٦٦٠، بتصرُّف.

تعليم عشرة من غلمان المدينة الكتابة لإطلاقهم[١] كإجراءٍ يصبُّ في خدمة المصلحة العامة.

كذلك، حَفِظ النبيّ ﷺ للمُطعِم بن عدي صنيعه حين أجاره بعد عودته من الطائف فقال: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتنى [أي المتَّصفين بالرائحة الكريهة ماديًا، والكفر والضلال معنويًا] لتَركتهم له»[٢].

أما عن تبعات غزوة بدر داخل المدينة، فقد شكَّلت ظهورًا للمسلمين على المشركين، وقد تنبَّه لذلك مشركو المدينة حتى «قال ابن أُبَيّ ابن سلول ومَن معه من المشركين وعَبَدة الأوثان: هذا أمر قد توجَّه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فأسلَموا»[٣]. «وأذلَّ الله بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين، فلم يبق بالمدينة منافق ولا يهودي إلا وهو خاضع عنقه لوقعة بدر. وقالت اليهود: تيقَّنَّا أنه النبيُّ الذي نجد نعته في التوراة، والله لا يرفع راية بعد اليوم إلا ظهرت»[٤].

□ هذا، وقد تخلَّلت هذه المرحلة المدنية «نزول **صدر سورة البقرة**[٥] في أخبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج»[٦]، وفيها: الإعلام بكون القرآن هدى، وذكر أوصاف

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة بدر، ٢: ٢٢.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب الخمس، باب ما منَّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يُخمس، ٣: ١١٤٣، ح: ٢٩٧٠، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، كتاب التفسير، سورة آل عمران، ٤: ١٦٦٣، ح: ٤٢٩٠، بتصرُّف.

(٤) البيهقي، **دلائل النبوة**، باب سياق قصة بدر عن مغازي موسى بن عقبة، ٣: ١٠١.

(٥) هذا هو الموضع الثاني لسورة البقرة، والذي يترجَّح نزوله بعد غزوة بدر، وفيه خمسة أقسام، أي: الآيات (١ ـ ١١٠) صدر السورة في المنافقين والحوار مع اليهود، ثمَّ الآيات (١١١ ـ ١٤١) مع اليهود والنصارى، ثمَّ الآيات (٢١٩ ـ ٢٤٢) وفيها استكمال عرض أحكام الإسلام بالأجوبة على أسئلة مختلفة، ثمَّ الآيات (٢٥٤ ـ ٢٥٥ و٢٦١ ـ ٢٧٤) وفيها استكمال عرض أحكام الإسلام (مع التركيز على الإنفاق)، ثمَّ الآيات (٢٨٢ ـ ٢٨٦) وهي آيتَي الدَّين وختام السورة.

(٦) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ١: ٥٣٠، بتصرُّف. والرواية ذكرت ١٠٠ آية، لكنَّ المعنى يتعدَّاها إلى ١١٠ آيات.

المتَّقين والذين كفروا والذين في قلوبهم مرض (كاستعراض آنيّ لمكوِّنات المجتمع المدني بعد بدر). ثمَّ يتوجَّه الخطاب إلى النَّاس عمومًا بدعوتهم إلى عبادة الله بالآيات والإنذار والبشارة.

وتبدأ السورة بعرض قصة (الخليفة) آدم عليه السلام وتعليمه وتكريمه، قبل خروجه من الجنة لبداية الحياة على الأرض بعد التوبة وفق تجربةٍ ومنهجٍ يُحدِّد مآل بني آدم بين أَمنٍ من الخوف والحَزن لمتَّبعيه، ونار للذين كفروا وكذَّبوا. وهنا، تنتقل الآيات مباشرة لمخاطبة بني إسرائيل (الذين فضَّلهم الله على العالمين) بدعوتهم إلى الإيمان بالقرآن، وعدم لُبس الحقّ بالباطل، مع أمرهم بالقيام بواجباتهم الدينية، وعَرْض دَور الإيمان باليوم الآخر في تحقيق ذلك.

وتبدأ السورة بعرض نماذج من تاريخهم مع نبي الله موسى عليه السلام حيث مَنَّ الله عليهم بالنجاة والكتاب والطعام والشراب، ولكن اتَّسم موقف الكثيرين من أسلافهم بالشرك والظلم لأنفسهم ورفض الطاعة والرضى. ثمَّ كان ما كان من انحرافهم وتعنُّتهم بعد أن أخذ الله ميثاقهم. وتأتي السورة على ذكر أسباب عدم إيمان اليهود بسبب تحريفهم المتعمَّد لفهم كلام الله، ونفاقهم، وأُمِّيَّة بعضهم، وجهلهم بالدين، وقولهم على الله ما لا يعلمون[١] لتحقيق مكاسب دنيوية. وتمَّ توضيح كونهم لا يحترمون الميثاق، بل يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض (كما تبيَّن من تاريخهم القريب مع العرب في يثرب بقتال بعضهم بعضًا ثمَّ يُفدون خصومهم من الأسرى! وكما تبيَّن من تاريخهم الديني مع الأنبياء بالإيمان بما تهوى أنفسهم).

---

(١) كانت «اليهود تقول: إنما مدّة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يُعذِّب الله الناس في النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يومًا واحدًا في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب. فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]». ابن هشام، السيرة النبوية، عداوة اليهود، ١: ٥٣٨، بتصرُّف.

وتستكمل السورة الرّدّ على اليهود وجدالاتهم مع النبيّ ﷺ والمسلمين: بكَون اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا بالنبيّ ﷺ ويتوعَّدونهم بظهوره (قبل إسلام وفد يثرب)، فلما جاءهم كتاب من عند الله مُصَدِّق لما معهم وجاءهم ما عرفوا كفروا به[1]، وباتِّخاذهم جبريل عليه السلام عدوًّا[2]، وإنكارهم للآيات البَيِّنات المُنزَلة إلى النبيّ ﷺ[3]، ولعهد الله لهم مع نكثهم له[4]، واعتبارهم سليمان عليه السلام ساحرًا[5]،

(١) «في الجاهلية علا أهل الشرك على أهل كتاب، فكانوا يقولون لهم: إن نبيًا يُبعث الآن نتَّبعه قد أظلّ زمانه، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم. فلما بعث الله رسوله ﷺ من قريش فاتَّبعه أهل المدينة كفروا به، يقول الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ أي أن جعله في غيرهم ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [البقرة: ٨٩ ـ ٩٠]». ابن هشام، **السيرة النبوية**، عداوة اليهود، ١: ٥٤٢، بتصرُّف. وهو حديث حسن. مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة البقرة، ص٢١، بتصرُّف.

(٢) قال النبي ﷺ لليهود: «إنَّ جبريل عليه السلام هو الذي يأتيني. قالوا: ولكنه يا محمد لنا عدوّ، وهو مَلَك إنما يأتي بالشدة وبسفك الدماء، ولولا ذلك لاتَّبعناك. فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]». ابن هشام، **السيرة النبوية**، عداوة اليهود، ١: ٥٤٣، بتصرُّف. وقد نقل الطبري الإجماع على نزولها في ذلك. الطبري، **جامع البيان**، سورة البقرة، ٢: ٣٧٧، بتصرُّف. فيُؤيِّد هذا الإجماع ما بالرواية من ضعف. مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة البقرة، ص١٨، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، عداوة اليهود، ١: ٥٤٧ ـ ٥٤٨، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، عداوة اليهود، ١: ٥٤٧، بتصرُّف.

(٥) «لما ذكر سليمان بن داود في المرسلين قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن سليمان بن داود كان نبيًا، والله ما كان إلا ساحرًا. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢]». المصدر نفسه، عداوة اليهود، ١: ٥٤٤، بتصرُّف.

واستهزائهم بالنبيّ ﷺ(١)، وطلبهم معجزات خارقة للإيمان بالنبيّ ﷺ(٢)، ومحاولاتهم الكَيدية لرَدِّ الناس عن الإسلام(٣)، وحَصر الخلاص الأُخروي بمِلَّتهم، وحَصر الهداية فيها(٤)، وكِتمانهم ما في التوراة(٥)، وجُمودهم على تقليد ما توارَثوه

---

(١) «كانوا يقولون: راعنا سمعك. فكان اليهود يأتون فيقولون مثل ذلك مستهزئين، فقال الله: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]». الطبري، **جامع البيان**، سورة البقرة، ٢: ٤٦١، بتصرُّف، واللفظ له. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة البقرة، ١: ٣٧٣، بتصرُّف.

(٢) قال رافع بن حريملة [من بني قينقاع] ووهب بن زيد للنبي ﷺ: «يا محمد، ائتنا بكتاب تُنزِّله علينا من السماء نقرؤه، وفجِّر لنا أنهارًا نتَّبعك ونُصدِّقك. فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]». ابن هشام، **السيرة النبوية**، عداوة اليهود، ١: ٥٤٨، بتصرُّف. وهذا اليهودي هو رافع بن حريملة.

(٣) «كان حيي بن أخطب وأخوه من أشدّ يهود للعرب حسدًا، إذ خصَّهم الله تعالى برسوله ﷺ، وكانا جاهدَين في رَدّ الناس بما استطاعا. فأنزل الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ١٠٩]». المصدر نفسه، عداوة اليهود، ١: ٥٤٨، بتصرُّف.

(٤) قال بعض اليهود للنبي ﷺ: «ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتَّبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] ثم القصة إلى قول الله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]». المصدر نفسه، عداوة اليهود، ١: ٥٤٩، بتصرُّف. وبخصوص ذكر النصارى، يُراجَع الهامش الأول في الفقرة القادمة من المتن.

(٥) سأل نفر من «الخزرج نفرًا من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إياه وأبوا أن يُخبروهم عنه، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي

=

من آبائهم[(١)]. وتمَّ توجيه النبيّ ﷺ للعفو والصفح وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لمقابَلة كيدهم[(٢)] في ردِّ المسلمين إلى الكفر الذي كان دافعه الحسد.

□ كما يُمكن ترجيح نزول **آيات أُخرى من سورة البقرة**[(٣)] في هذه المرحلة وما بعدها،

= ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]». المصدر نفسه، عداوة اليهود، ١ : ٥٥١، بتصرُّف.

(١) دعا رسول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغَّبهم فيه وحذَّرهم عذاب الله ونقمته. فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتَّبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيرًا منَّا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. المصدر نفسه، عداوة اليهود، ١ : ٥٥٢، بتصرُّف.

(٢) «كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشدّ الأذى، فأمر الله تعالى رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: ١٠٩]». البيهقي، **دلائل النبوة**، باب ما جاء في قتل كعب بن الأشرف، ٣: ١٩٦، بتصرُّف.

(٣) هذا هو القسم الثاني من الموضع الثاني لسورة البقرة، والذي يحوي الآيات (١١١ ـ ١٤١)، والتي تتعرَّض للحوار مع اليهود والنصارى. ورغم أنَّ في روايات أسباب نزول بعضها ذكر لنصارى نجران، إلا أنَّ العديد من روايات أسباب نزول هذه المجموعة يتلائم مع نهايات المجموعة الأولى في الحوار مع يهود من بني قينقاع وهم الذين أُجلوا باكرًا من المدينة (بعد غزوة بدر ٢هـ). وإنَّ إسناد هذه الحوارات إلى رافع بن حريملة من بني قينقاع الذي تعوَّذ بالإسلام نفاقًا لا يقدح في ذلك، لأنَّ نوعية حواراته هنا ليست حوارات منافقين، بل حوارات كافرين بالنبوة، فتكون متناسبة للنزول للحكاية عن أمرهم. كذلك، فإنَّ ذكر النصارى فيها لا يعني حصرهم بنصارى نجران، فقد أوردت بعض الروايات وجود حالة تنصُّر ولحوق بالشام كما سيتبيَّن في آية ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]، كما وردت روايات أُخرى حضورًا نصرانيًا باكرًا إلى المدينة المنورة من تجار الشام، بل وحدثت =

والتي تردّ على دعاوى اليهود والنصارى[(١)] باحتكار أحدهما للخلاص الأُخروي، وطلب الآيات الدالة على صدق النبوة[(٢)]، وتُقرِّر أنَّه لن ترضى اليهود ولا النصارى عن النبيّ ﷺ حتى يتَّبع ملَّتهم، وبالمقابل فمَن يتَّبع من أهل الكتاب كتابه فسيُؤمِن بالقرآن [فالكتاب السماوي ضابط التعدّدية العَقَدية هو مرجع الحوار بين أهل الكتاب والمسلمين أيضًا].

ثمَّ تنتقل الآيات إلى (الإمام) إبراهيم عليه السلام جدّ العرب وأبي أنبياء أهل الكتاب (بعد أن ذكرت هذه السورة فيما سبق منها نزولاً تجربة (الخليفة) آدم وأخبار تاريخية وحالية من ممارسات بني إسرائيل (الذين فُضِّلوا على العالمين)). فيُوجِّه الله نبيَّه إبراهيم عليه السلام إلى أنَّ الإمامة في الدين لا تكون للظالمين ولكنَّ متاع الدنيا هو الذي يكون للجميع لا يُحرَمون منه. ثمَّ يتمّ عرض قصة بنائه للكعبة مع ابنه إسماعيل عليه السلام ودعائهما بأن يبعث الله نبيًا للعرب (هو النبيّ ﷺ)، وتناقل ذريته من بعده دين الإسلام. فإن آمن اليهود والنصارى بمثل ما آمن به المسلمون فقد اهتدَوا، وإلّا فهم في شِقاق يتولَّى الله كفاية أمرهم لرسوله ﷺ. وتمَّ الرَّدّ عليهما بأنَّ الأنبياء ما كانوا هودًا ولا نصارى.

❑ كما يُمكن ترجيح نزول آيات **أُخرى من سورة البقرة**[(٣)] في هذه المرحلة وما بعدها

= حالات تبشير فردية منهم، ونزلت بسببها آيات كما سيأتي في آية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] في العام (٤هـ)، فلذا قد يكون شملهم الحوار في سورتَي البقرة وآل عمران.

(١) يُراجع الهامش السابق عن الحضور النصراني الباكر في المدينة المنورة.

(٢) تمامًا كما كان مشركو مكة يُطالبون، وقد ورد في ذلك ما قاله رافع بن حريملة [من بني قينقاع] للنبي ﷺ: «يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فليُكلِّمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، عداوة اليهود، ١: ٥٤٩، بتصرُّف.

(٣) هذا هو القسم الثالث من الموضع الثاني لسورة البقرة، والذي يترجَّح نزول بعضه قبل بعث الرجيع (٤هـ)، ويحوي مجموعة من الآيات (٢١٩ ـ ٢٤٢) التي تعرض أسئلة المجتمع.

فيها استكمال عرض أحكام الإسلام بالأجوبة على بقية أسئلة المؤمنين في المجتمع حول الخمر والميسر، وكيفية التعامل مع اليتامى، وحُرمة التزاوج مع المشركين(1)، وكيفية التعامل مع حالة المحيض للنساء وكيفية إتيانهنّ في معالجة للتعدّدية الثقافية بقَبول سلوكيّات

---

(1) هذا الحكم مستنبط من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقد نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنوي حين استأذن النبي ﷺ في الزواج بامرأة مشركة من قريش. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، ص٧٥. وقد رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب. **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، كتاب تفسير القرآن، سوة النور، ٥: ٣٢٨، ح: ٣١٧٧، وإسناد الرواية حسن. وكان مرثد يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة فالتقى بها هناك قبل عودته بالأسارى إلى المدينة وسؤاله النبي ﷺ عن ذلك. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النور، ٦: ١٠، بتصرُّف. وقد استُشهد مرثد في الرجيع. ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، الميم بعدها الراء، ٦: ٥٦، برقم: ٧٨٩٥، بتصرُّف. وذلك في السنة الرابعة من الهجرة. الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٥٣٨ ـ ٥٣٩، بتصرُّف. وقيل: في السنة الثالثة من الهجرة. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر يوم الرجيع في سنة ثلاث، ٢: ١٦٩. وابن سعد، **الطبقات الكبرى**، سرية مرثد بن أبي مرثد، ٢: ٥٥. وعليه، يكون نزول هذه الآية ـ حول حُرمة إنشاء عقد زواج مع طرف مشرك ـ سابقًا بسنوات نزول آية الأمر بمفارقة المشركات من الزوجات الحاليات والذي نزل في الحديبية في سورة الممتحنة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]. «فطلّق المؤمنون حين أُنزلت هذه الآية كل امرأة كافرة كانت تحت رجل منهم من كوافر مكة اللاتي قعدن مع الكفار». الطبري، **جامع البيان**، سورة الممتحنة، ٢٣: ٣٣١ ـ ٣٣٣، بتصرُّف. لذلك، يُمكن لهذه الآية أن تكون قد نزلت بعد بدر التي صرّحت بعلّة نشر التوحيد الخالِص، ورفعت سقف الخطاب مع المشركين جميعًا.

ورفض أُخرى بهذا الخصوص[١]، واليمين بالقَسَم، ومسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ورضاع وترمُّل.

▫ كما يُمكن في نهاية الشهر نفسه (رمضان) أن يترجَّح استكمال نزول **آيات من سورة البقرة**[٢] فيها الحثُّ على الإنفاق[٣] من الطيبات بإخلاص ولجميع الطوائف الدينية لعدم

---

(١) عن أنس ﷺ أنَّ اليهود كانوا إذا حاضَت المرأة فيهم لم يُؤاكِلوها، ولم يُجامِعوها في البيوت، فسأل الصحابة النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إلى آخر الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كلَّ شيء إلا النكاح». **صحيح مسلم**. كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها وقراءة القرآن فيه، ١: ٢٤٦، ح: ٣٠٢.

وعن ابن عباس ﷺ قال: «كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب، وكانوا يرَون لهم فضلاً عليهم في العلم فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم. وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف [أي: على جنب واحد حالة الاستلقاء] وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحي من الأنصار [في المدينة] قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش [في مكة] يشرحون النساء شرحًا منكرًا [أي: يكشفونهنَّ]، ويتلذَّذون منهنَّ مُقبِلات ومُدبِرات ومُستلقِيات. فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوَّج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نُؤتى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، حتى شرِيَ [أي: عظُمَ] أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] أي: مُقبِلات ومُدبِرات ومُستلقِيات، يعني بذلك مَوضع الولد [أي: الحَرث في الآية]. **سنن أبي داود**، كتاب النكاح، باب في جامع النكاح، ٢: ٢٤٩، ح: ٢١٦٤، بتصرُّف.

(٢) هذا هو القسم الرابع من الموضع الثاني لسورة البقرة، والذي يترجَّح نزوله بُعَيد غزوة بدر، ويحوي الآيات (٢٥٤ ـ ٢٥٥ و٢٦١ ـ ٢٧٤) وفيها استكمال عرض أحكام الإسلام (مع التركيز على الإنفاق). وألحقت به القسم الرابع، والذي يحوي الآيات (٢٨٢ ـ ٢٨٦) وهي آيتي الدَّين وختام السورة.

(٣) من آيات الإنفاق في هذه المجموعة آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ =

اشتراط الهداية لمن يتمّ الإنفاق عليه[1] مع الاهتمام بفقراء المهاجرين[2]، وعرض أحكام الدَّين. وختام السورة[3] بعرض إيمان الرسول ﷺ والمؤمنين بأركان الإيمان مع السمع

= ﴿أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، والتي نزلت حين أمر النبي ﷺ بزكاة الفطر بصاع من تمر، فجاء رجل بتمر رديء، فقال النبي ﷺ لعبد الله ابن رواحة رضي الله عنهما: لا تخرص هذا التمر. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، من سورة البقرة، ٢: ٣١١، ح: ٣١٢٢. وصحَّحه ووافقه الذهبي. والتي يُمكن ترجيح صرفها إلى فرضية صدقة الفطر أول ما فُرِضَت، والتي كانت «في شهر رمضان ٢هـ». د. محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**، ٢: ١٠٩، بتصرُّف. وذلك بقرائن الروايات.

(١) «كان النبي ﷺ يأمر بألا يُتَصَدَّق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فأمر بالصدقة بعدها على كل مَن سأل من كل دين». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة البقرة، ١: ٧٠٤. وهذه النقطة تُشبه التي تمَّ عرضها في القسم الثاني من الموضع الثاني للسورة في سياق قصة إبراهيم عليه السلام.

(٢) «هم أصحاب الصُّفة، وكانوا لا مساكن لهم بالمدينة ولا عشائر، فحثَّ الله عليهم الناس بالصدقة». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر الصُّفَّة ومَن كان فيها من أصحاب النبي ﷺ، ١: ٢٥٥. وكان النبي ﷺ قد خصَّص مكانًا لفقراء المهاجرين في مسجده بعد تغيير القِبلة في جدار القِبلة الأولى. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٥٦ ـ ٢٥٨، بتصرُّف. وستنزل آيات أُخرى تُخصِّصهم بمزيد اهتمام.

(٣) ورد أنَّه «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] اشتدَّ ذلك على أصحابه، فأتوه وقالوا: أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة [والثلاثة الأخيرة فُرِضَت في العام الثاني للهجرة، ووردت الأربعة في الموضعَين الأول والثاني من السورة]، وقد أُنزِلت عليك هذه الآية =

والطاعة، مقابل عدم تكليف الله لهم إلا بالوسع مع تحميلها المسؤولية الفردية دون النسيان أو الخطأ، مع الدعاء بالعفو والمغفرة والرحمة والنَّصر.

➢ وبذلك، تكون إدارة التعدّدية المجتمعية في هذه المرحلة قد أوصلتنا إلى النتائج التالية في أقسامها:

أما إدارة التعدّدية العَقَدية، فإنَّ المدينة قد استَوعبت وجود دين آخر (اليهود والمشركين) قبل بدر، وأدارت العلاقة معه من جانبها السياسي. وتمَّ التأكيد المتجدِّد في سورة الأنفال في هذه المرحلة بعد بدر على ضابطَي قَبول التعدّدية العَقَدية: التوحيد الخالِص والإيمان بالكُتُب السماوية، وعرَضَت سورة البقرة حُرمة إنشاء عقد زواج مع طرف مُشرِك. كذلك، تمَّت الإشارة إلى أهل الكتاب في سورة البقرة بانتقاد سلوكيَّاتهم التاريخية والمعاصرة، مع أمر النبيّ ﷺ بالعفو والصفح.

وأما إدارة التعدّدية الثقافية، فكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار آلية للأنصار

= ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابَين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ [والتي وردت في القرآن مرّتَين إحداهما في الموضع الأول من السورة]، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله فى إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فلما فعلوا ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ قال: نعم، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم. **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب قول الله تعالى ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾، ١: ١١٥، ح: ١٢٥، بتصرُّف.

لأجل تلافي بعض مظاهر الغلوّ في سلوكيَّات الالتزام الديني ليكون وفق مقاصد الإسلام وأولويَّاته. وكذلك كان لبناء المسجد دوره في التلاقي والتعارف. مع الاستفادة من أصحاب الخبرات في مواضعها. وقد شملت المرحلة أيضًا معالجة لنتائج التعدّدية الثقافية (بين مكيين ومدنيين ويهود) في سلوكيات التعامل مع الزوجة في الحالات الخاصة بقَبول بعضٍ منها ورفض البعض الآخر.

وأما إدارة التعدّدية السياسية، فقد توضَّحت بين جميع المكوِّنات بشرعاتٍ مختلفة، فمع الأنصار بيعة العقبة ببنودها، وفيما بين المهاجرين والأنصار المؤاخاة ببندَيها، ومع اليهود موادعة ببنودها. وقد وضَّحت كلُّ شرعة المطلوبات العامة من كلِّ طرف. وكان النبيّ ﷺ حريصًا على إعطاء كلِّ طرف حقَّه وعدم المطالبة بزيادة على ما يجب عليه من التزامات إلّا إن كانت عن طِيب نفس منه. كذلك، كان للمسجد دوره في تبادل الرأي مشاركةً في مسائل الشأن العام، ثمَّ يكون ﷺ كأحدهم في متابعة الإجراءات التنفيذية (كالتعاقب على وسيلة النقل مع غيره). وتمَّ التوجيه إلى أنَّ معالجة الحاجة لنقض العهود ـ كخَوف خيانة من الطرف الآخر ـ تكون بإعلامه بإنهاء العهد تلافيًا لخيانته عند مفاجأته بأمر عسكري. وقد أوضَحَت آيات سورة الأنفال أنَّ الوفاء بالعهود مُقَدَّم على نُصرة الذين آمنوا ممَّن يُقيمون خارج المجتمع.

وأما إدارة التعدّدية العرقية، فتبرز إدارتها مع اليهود من الجانب السياسي في هذه المرحلة، رغم المواقف المسبَقة لديهم (على مستوى القيادة على الأقلّ) بمعاداة النبيّ ﷺ لأسباب عرقية وطبقية.

وأما إدارة التعدّدية الطبقية، فكانت المؤخاة أيضًا بين المهاجرين والأنصار، آلية للمهاجرين لتأمين أُطُر العَيش الأولية مدّة إقامتهم الأولى ـ على الأقلّ ـ في مجتمع جديد عليهم. وقد تمَّ تأمين معالجة للوضع المعيشي لهم بالمشاركة في اقتسام إنتاج الأنصار (المزروعات)، وليس مصدر الإنتاج ومنبعه (الأرض). كذلك كان للمسجد دَور في جمع

الناس بمختلف طبقاتهم في صفٍّ واحد وراء إمام واحد. وإنَّ اتخاذ سوق بديل لَهو أوضح الأُطُر في تحرير الاقتصاد المحلي من الاحتكارات وإدارته وفق قواعد شرعية. ولقد كانت للتوجيهات القرآنية الدَّور الأبرز في صياغة شخصية المسلمين لتغليب العطاء على الأخذ، والقيام بالواجبات القلبية والسلوكية قبل المطالبة بالحقوق المالية. وتمَّ لَحظ استحقاق الشرائح الضعيفة في المجتمع من الغنائم في تحويل نتائج التدافع إلى تكافل. ولم يتمّ اقتصار قضية الإنفاق المالي في سورة البقرة على المسلمين، بل توسَّعت لتشمل جميع الطوائف الدينية.



خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة:	السادسة	السادسة
	السور:	المطففين وآيات من سورة البقرة	الأنفال (تتمة السبع للسور السِّتّ السابقة) + آيات من سورتَي الحج والبقرة
	الزمن:	١ ـ ٢ هجرة	٢ هجرة
	الأحداث:	الهجرة	غزوة بدر (٢هـ)
	الهدف:	إعداد مجتمع متعدِّد متضامن	التدافع العسكري مع قريش (بالضغط العسكري على اقتصادها لتغيير موقفها السياسي من تشويه الدعوة ومنع نشرها)
الفعل	الموضوع / الإجراء	بناء المسجد (الساحة المشتركة لإدارة الشأن العام)، ووضع نظام المؤاخاة على المواساة والحقّ (المشاركة في نتاج الأرض)، وموادعة اليهود، وانتقاد ممارسات اقتصادية خاطئة، واتخاذ سوق بديل (متحرِّر من الاحتكار ومنضبط بالعدل)، وإقطاع الدور بالحقّ، وتغيير القِبلة، وتصحيح المفاهيم، والتزكية، وتعليم الأحكام، والإنفاق	إجراء تعداد سكاني لحصر المقاتلين، والأمر (الأول) (للمؤمنين في يثرب) بالقتال، وخروج السرايا بالمتطوعين من المهاجرين (بداية)، والتزام الشورى مع التفرقة بين الوحي ورأي النبيّ ﷺ، والوفاء بالعهد
	الأسلوب	الإدارة والتربية	الإدارة والقتال
	الإطار	دعوة مجتمع بسلطة إدارته	عسكري
	المخاطَب	أهل يثرب	أهل يثرب
	الضمانة	منعة إيمانية ببيعة	منعة إيمانية ببيعة، وموادعة مع اليهود، وعهود مع أعراب خارج المدينة

ردة فعل قريش	الاتجاه العام	تشويه الدعوة ومنع حرية انتشارها، والمواجهة للمسلمين في المدينة		
	الأسباب	الحفاظ على الاقتصاد (حرية التجارة في الجزيرة)، وعلى دينهم الذي يحفظ نظامهم المتوارث		
	الوسائل	القتال		
الاستجابة			نصر بدر على الكافرين، ثمَّ دعوة الكفار إلى الانتهاء عن الكفر والصدّ والمكر لتحصيل المغفرة، والأمر (الثاني) بالقتال لنشر التوحيد (مكان الشرك) بعد وضوح الحقّ بالنصر، والتعامل مع الأسرى (الوصية بالخير، والمنّ على بعضهم)	
ردة فعل المؤمنين	الاتجاه العام		التسليم	النزاع
	الأسباب		الإيمان	الاختلاف على الغنائم
	الوسائل		القتال في سبيل الله	
الاستجابة			طلب الالتزام بالتقوى وإصلاح ذات البَين وطاعة الله ورسوله والاتصاف بأوصاف المؤمنين (وضجَل القلب، وزيادة الإيمان بتلاوة الآيات، والتوكل، وإقامة الصلاة، والإنفاق)، والإعلام بأنَّ الفضل لله وحده في النصر، وتحذير المؤمنين من خيانة الله ورسوله أو الافتتان بالأموال والأولاد، وذكر الله وطاعته دون تنازع، وعدم التشبه بالكافرين في مظاهر القوة رياء، والتنكيل بناقض العهد ليخاف غيرهم من الأعداء، وإعلام النبيّ ﷺ للمعاهدين المشكوك بخيانتهم بنقض العهد قبل حربهم، والإعداد والإنفاق للحرب، وقَبول الصلح عند مَيل الطرف المحارب له، والتزام المؤمنين (مهاجرين وأنصارًا) بأحكام النصرة والتوارث. إجابة المؤمنين على استفساراتهم. والحثّ على الإنفاق إلى جميع الطوائف الدينية مع الاهتمام بفقراء المهاجرين	

ردة فعل اليهود	الاتجاه العام		تبيُّن الحقّ وتمنّي ردّ المسلمين إلى الكفر
	الأسباب		الحسد
	الوسائل		طلب معجزات خارقة للإيمان بالنبيّ ﷺ، وادّعاء احتكار الخلاص الأخروي
الاستجابة			الدعوة العامة للناس، وتذكير بني إسرائيل بمشاهد من تاريخهم القديم والحديث ودعوتهم إلى الإيمان. وتوجيه النبيّ ﷺ للعفو والصفح. والإعلام أنَّ الإمامة في الدين لا تكون للظالمين. وكفاية الله أمر المُتولّين من أهل الكتاب، والرَّدّ بأنَّ الأنبياء ما كانوا هودًا أو نصارى.
تميز مكوِّنات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي:	داخلي	خارجي (تدافع عسكري)
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	المدينة: المؤمنون، المشركون، اليهود	مكة: الكافرون، المنافقون، مرضى القلوب المدينة: المؤمنون، المشركون، اليهود، مرضى القلوب (مشروع منافقين)
	مظاهر الاختلاف فيها	انتمائي، بيئي، مصدري، علمي ـ تحليلي، طبقي	بيئي ـ مصدري، خُلُقي
	التمييز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	تميز الإسلام عن اليهودية (تغيير القِبلة)	تميز الخبيث من الطيب (هزيمة الكافرين الذين يصدُّون عن سبيل الله)

حالة الدعوة	قوة/ ضعفاً :		قوة
	حركة / جموداً :	حركة	حركة
	نوعاً/ عدداً :	نوع	نوع وعدد



الفصل الثاني
الانتكاسات النفسية.. معالجات ونتائج

كانت معركة بدر أول لقاء مسلَّح بين المسلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصرًا حاسمًا شهد له العرب قاطبة. والذين كانوا أشدَّ استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين مُنوا بخسائر فادحة مباشرة، وهم المشركون، أو الذين كانوا يرَون عزّة المسلمين وغلبتهم ضربًا قاصماً على كيانهم الديني والاقتصادي، وهم اليهود. فمنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترِقان غَيظًا وحَنَقًا على المسلمين. وكانت في المدينة بِطانة للفريقَين [أي: مجموعة مَوثوقة لديهم، فتطَّلِع على باطن أمورهم]، دخلوا في الإسلام حين لم يبقَ مجال لعزِّهم إلا في الإسلام، وهم عبد الله بن أُبَيّ [بن سلول] وأصحابه، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقلّ غَيظًا من الأوَّلين. وكانت هناك فرقة رابعة، وهم البدو الضاربون حول المدينة، لم يكن يهمُّهم مسألة الكفر والإيمان، ولكنَّهم كانوا أصحاب سلب ونهب، فأخَذَهم القلق، واضطربوا لهذا الانتصار، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب، فجعلوا يحقِدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء[1]. وتبيَّن بهذا أن الانتصار في بدر كما كان سببًا لشَوكة المسلمين وعزِّهم وكرامتهم، كذلك كان سببًا لحقد جهات متعدِّدة، وكان من الطبيعي أن يتبع كلُّ فريق ما يراه كفيلاً لإيصاله إلى غايته»[2].

---

(١) بعد غزوة بدر بسبعة أيام فقط قام النبيُّ ﷺ بغزوة بني سُلَيم، ذلك أنَّها كانت تحشد قواتها لغزو المدينة، فباغتهم النبي ﷺ في عقر دراهم، ففرُّوا وتركوا في الوادي خمس مئة بعير استولى عليها جيش المدينة، وقسَّمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخُمُس. صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٢١٩، بتصرُّف. كما حدثت غزوات أُخرى لأعراب خارج المدينة بعد ذلك.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٨، بتصرُّف.

المبحث الأول: تدرُّج الحوار العَقَدي مع القريب (أهل الكتاب) بين نصر وانتكاسة

إذا كان يغلب على المراحل السابقة (في مكة) تدرُّج الحوار مع المشركين والاستشهاد بأهل الكتاب، فإنَّ مرحلة ما بعد نصر بدر تتَّصف بالحوار مع أهل الكتاب والاستشهاد بهزيمة المشركين بعد تحقُّقهم من كون ما جاء به النبيّ ﷺ هو الحقّ كما تبيَّن.

بدأ النبيُّ ﷺ بالحوار الديني مع أهل الكتاب بعد «يوم بدر، فجمع يهود في سوق بني قينقاع حين قدم المدينة، وقال: يا معشر يهود، أسلِموا قبل أن يُصيبكم مثل ما أصاب قريشًا. فقالوا: يا محمد، لا تغرنَّك نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنَّا نحن الناس، وأنَّك لم تأتِ مثلنا. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ إلى قوله ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٢ ـ ١٣]»[١]. لكنَّهم رغم «مُوادعتهم النبيّ ﷺ، إلا أنَّهم بعد بدر أظهروا البغي والحسد ونبذوا العهد والمدّة [أي: الميثاق]»[٢].

بالمقابل، ورد أنَّ النبيّ ﷺ لما «ظهر بالمدينة [أي: بعد بدر]، قدم عليه حبْران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبيّ ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم. قالا: وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالا: إنّا نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدَّقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني. فقالا:

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ١: ٥٥٢، بتصرُّف. والطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٦: ٢٢٧، بتصرُّف. وسنن **أبي داود**، كتاب الخراج، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، ٣: ١٥٤، ح: ٣٠٠١، بتصرُّف. «ورواية ابن إسحاق [التي نقلها عنه ابن هشام] إسنادها حسن». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، حديث بني النضير، ٧: ٣٣٢، بتصرُّف.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة بني قينقاع، ٢: ٢٩.

أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] فأسلم الرجلان وصدَّقا برسول الله ﷺ»[١].

كذلك ورد أنَّ «النبيّ ﷺ دعا اليهود إلى الإسلام، فقال له النعمان بن أدفى: هَلُمَّ يا محمد نخاصمك إلى الأحبار. فقال رسول الله ﷺ: بل إلى كتاب الله. فقال: بل إلى الأحبار. فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٣][٢]. وفي رواية أنَّ رسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الإسلام قال له نُعَيم بن عَمرو والحارث بن زَيد: على أيّ دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملّة إبراهيم ودينه. فقالا: إن إبراهيم كان يهوديًا. فقال رسول الله ﷺ: «فهلمُّوا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم». فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

☐ وقد نزلت في عموم هذه المرحلة **آيات من صدر سورة آل عمران**[٤] **ووسطها**

---

(١) الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة آل عمران، ص١٠١، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة آل عمران، ص١٠١، بتصرُّف.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٦: ٢٨٩، بتصرُّف.

(٤) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. وأما في لوائح ترتيب النزول فرغم اتفاقهم على مدنيَّتها، إلا أنَّهم اختلفوا في ترتيبها بين السور، فذهب البيهقي وأبو عمرو الداني إلى كونها نزلت بين سورتَي البقرة والأنفال، وذهب ابن الضريس والزهري إلى كونها نزلت بين سورتَي الأنفال والأحزاب.

هذا، وخلافًا للرواية المشهورة ـ التي أوردها المفسِّرون (الطبري وابن كثير) وكتَّاب السِّيَر (ابن هشام عن ابن إسحاق) ـ وغيرها عن كون صدر سورة آل عمران قد نزل في وفد نجران (أي: عام الوفود ٩هـ) إلى بضعة وثمانين آية، فإنَّ أكثر روايات أسباب نزول آياتها ـ كما سيتبيَّن ـ تُوجِّهنا إلى إمكانية تقسيمها إلى ستة أقسام: (الآيات ١ ـ ٩) من صدر السورة مقدِّمة عامة للحوار مع أهل الكتاب، و(الآيات ١٠ ـ ٣٢) عرض حوارات مع اليهود وضبط العلاقات معهم، و(الآيات ٦٤ ـ ١٢٠) استكمال الحوار مع أهل الكتاب عمومًا واليهود خصوصًا =

وخواتيمها، وفيها: مقدِّمة عامة عن الحوار مع أهل الكتاب[1] تعرض توحيد الله ووحدة الرسالات السماوية، وتُوجِّه لكيفية التعامل مع نصوص الوحي بردّ متشابهها إلى محكمها (واضح الدلالة)[2] (لفهمها في ضوئها وهو عمل الراسخين في العلم عكس مَن في قلوبهم زَيغ من الذين يبتغون الفتنة). ثمَّ تعرض الآيات الحوارات السابقة التي دارت بعد غزوة بدر

= (والحوار حول دين إبراهيم هو مشترك بين القسمَين السابقَين)، و(الآيات ١٨٠ـ ٢٠٠) استكمال الحوار مع أهل الكتاب عمومًا واليهود خصوصًا، و(الآيات ١٢١ـ ١٧٩) عرض مجريات غزوة أُحد (٣هـ)، و(الآيات ٣٣ ـ ٦٣) الحوار مع وفد نجران في السنة (٩هـ). وقد فضَّلت أن أعرض هنا الأقسام الأربعة الأولى، وتأجيل القسم الخامس إلى مكانه من غزوة أُحد (٣هـ)، والقسم السادس إلى مكانه من عام الوفود (٩هـ).

(١) مع أنَّ الروايات المشهورة تنسب هذه المقدِّمة إلى نصارى نجران، إلا أنَّه وردت بعض الروايات تنسبها أيضًا إلى اليهود، كما في: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ١: ٥٤٧، بتصرُّف. ومع أنَّ ابن كثير انتقد أحد رواة سند إحدى هذه الروايات بأنَّه «لا يُحتجّ به إذا انفرد» ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة البقرة، ١: ١٦١، بتصرُّف. لكنَّ ابن حجر أورد الآيات وذكر أنَّ مضمونها «التحذير من الإصغاء إلى الذين يتَّبعون المتشابه من القرآن، وأول ما ظهر ذلك من اليهود كما ذكره ابن إسحاق. . ثم أول ما ظهر في الإسلام من الخوارج». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب التفسير، سورة آل عمران، ٨: ٢١١. وهذا الأمر قد حدث من اليهود في تلبيسهم الحقّ بالباطل كما ورد عنهم في آيات أُخرى (من السورة نفسها في الآية ٧١، وكما سبق عنهم في الآية (٤٢) من سورة البقرة). ولأنَّ أسباب نزول الآيات التي بعدها تتناول اليهود كما سيظهر، فإنِّي لم أقسم صدر السورة أكثر من ذلك، ورجَّحت وحدتها في أهل الكتاب عمومًا.

(٢) «يُخبر تعالى أنَّ في القرآن آيات محكمات هنَّ أمّ الكتاب، أي: بيِّنات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أُخَر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمَن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحَكَّم مُحكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عَكَس انعكس». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة آل عمران، ٢: ٦، بتصرُّف.

مع اليهود للاعتبار بها، وتُحذِّرهم من زينة الحياة الدنيا التي يجب أن يُقدِّموا الجنة ونعيمها عليها. كما تردّ السورة على سؤالهم (عن أعظم شهادة في كتاب الله كما مرّ) مُقرِّرة أنَّ الدين عند الله الإسلام، ومُرجِعة سبب اختلاف الذين أوتوا الكتاب إلى الحسد فيما بينهم بعد أن جاءهم العلم[1]، وتوجِّه النبيّ ﷺ لإعلان إسلام وجهه لله ومَن اتَّبعه، والطلب منهم ومن الأُمِّيين (العرب) ـ على وجه البلاغ حصرًا ـ أن يُسلِموا لتحقيق الهداية. كما تصف السورة إعراض الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب عن الاحتكام إلى كتاب الله (التوراة)[2] (كمرجعيَّة عند الاختلاف معهم) بتبرير مفترى بغرورهم عن عدم مجازاتهم بالنار (في الآخرة) إلّا أيامًا معدودات [في تأكيد متجدِّد على أنَّ ضابط قَبول التعدّدية العَقَدية هو مرجعية الحوار بين أهل الكتاب والمسلمين]. وتوجِّه السورة المؤمنين بضبط العلاقات معهم بعدم اتِّخاذهم أولياء إلا لتجنُّب كيدهم[3]، ويُعتبر التذكير بيوم القيامة دافعًا للجميع لتقويم سلوكهم في الدنيا.

---

(١) «بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحقّ لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بُغْض البَعْض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقًّا». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة آل عمران، ٢: ٢٥، بتصرُّف.

(٢) وهو «أولى الأقوال بالصواب أن يُقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن طائفة من اليهود ـ الذين كانوا بين ظهرانَي مهاجر رسول الله ﷺ في عهده، ممَّن قد أُوتِيَ عِلمًا بالتوراة ـ أنهم دُعوا إلى كتاب الله الذي كانوا يقرؤون أنه من عند الله ـ وهو التوراة ـ في بعض ما تنازعوا فيه هم ورسول الله ﷺ». الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٦: ٢٩٠، بتصرُّف.

(٣) عن ابن عباس قال: «كان الحجاج بن عمرو [من بني النضير] حليف كعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق، وقيس بن زيد، قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر بن زنبر، وعبد الله بن جبير، وسعد بن خيثمة، لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم! فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم ولزومهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٨ ـ ٢٩]. الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٦: ٣١٤، بتصرُّف.

وتستكمل السورة الحوار مع أهل الكتاب عمومًا بالدعوة إلى كلمة سواء بتوحيد الله وعدم اتِّخاذ أرباب من دونه، والرَّدّ على دعواهم في نسبة إبراهيم (الحنيف المسلم الموحِّد) لليهودية أو النصرانية باعتبارها مُحاججة فيما ليس لهم به علم، والإعلام بأنَّ النبيّ ﷺ والمؤمنين هم أحقّ به. وفي الحوار مع اليهود خصوصًا يتمّ التحذير من محاولاتهم إضلال المؤمنين وإضلال أتباعهم من اليهود[1]. وتُنصِف السورة أهل الكتاب بأنَّ منهم الأوفياء المتَّقين في حفظ الأمانات، ومنهم الخائن بتبرير عنصري قومي ينسبه كذبًا إلى دينه ليُمَكِّنه من ظلم الأُمِّيِّين (غير اليهود) فجزاؤه العذاب في الآخرة. وتُقرِّر السورة عبودية الأنبياء والملائكة لله. ثمَّ تنتقل إلى نقض اليهود عهد إيمانهم بالرسول المصدِّق لما معهم ونصرته، وتوجِّه النبيّ ﷺ لإعلان إيمانه بالله وما أُنزِل عليه وعلى النبيين دون تفرقة. وتُقرِّر السورة أنَّ مَن يبتغِ غير الإسلام دينًا[2] فلن يُقبل منه وهو خاسر يوم القيامة[3]، فالله لا يهدي الظالمين

---

(١) قال مجاهد ومقاتل: هذا في شأن القبلة لما صُرِفَت إلى الكعبة، شقَّ ذلك على اليهود لمخالفتهم، قال كعب بن الأشرف وأصحابه: آمنوا بالذي أُنزل على محمد من أمر الكعبة، وصلُّوا إليها أول النهار، ثم اكفروا بالكعبة آخر النهار، وارجعوا إلى قبلتكم الصخرة، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم منَّا، فربما يرجعون إلى قِبلتنا. فحذَّر الله تعالى نبيَّه مكر هؤلاء، وأطلعه على سرهم، وأنزل: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة آل عمران، ص١١٢.

(٢) هذا «إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتِّباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ. فمَن لقي الله بعد بعثته ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمتقبل». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة آل عمران، ٢: ٢٥، بتصرُّف. وهذا القول المشهور عند المفسِّرين يتناسب مع مرحلة دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، كما ينسجم مع سياق هذا القسم من سورة آل عمران الذي ابتدأ بدعوتهم إلى التوحيد وعدم اتخاذ الأرباب دونه، وهو دين إبراهيم عليه السلام نفسه، ثمَّ ذكَّرهم بميثاق النبيين بالإيمان برسول مصدِّق لما معهم، وهو دين الله الذي أسلمت جميع المخلوقات له.

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ إلى قوله: =

ممَّن كفر بعد إيمانه وهو يشهد أنَّ الرسول حقّ ومعه البينات إلّا بعد توبتهم(١)، أما الضالُّون ممَّن ازدادوا كفرًا (بالمعاصي [كالإفتان بين المؤمنين](٢) والثبات على الكفر)(٣) فلا توبة مقبولة لهم. وتدعوهم السورة للإنفاق ممَّا يُحبُّون في الوقت الذي تردُّ على دعواهم في نِسبة تشريعات تحريم بعض المآكل إلى ما قبل زمن نزول التوراة (لتكون اليهودية دين إبراهيم أيضًا كما زعموا) مع كونها تحريم شخصي (وليس إلهي) مقصده تضحية بالمحبوب وهي

= ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. فأنزل الله تعالى بعد هذا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. الطبري، **جامع البيان**، سورة البقرة، ٢: ١٥٥، بتصرُّف. وبذلك تبيَّن أنَّ نزول صدر سورة آل عمران كان بعد نزول صدر سورة البقرة كما رجَّحت في ترتيب روايات نزول آياتهما بعد بدر.

(١) «أشبه القولَين بظاهر التنزيل من أن هذه الآية [﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦] معنيٌّ بها أهل الكتاب، غير أنَّ الأخبار بالقول الآخر (أي: قصة رجل لحق بأرض الروم فتنصَّر ثمَّ طلب التوبة) أكثر، والقائلين به أعلم بتأويل القرآن. وجائز أن يكون الله عز وجل أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسلام، فجمع قصَّتهم وقصَّة مَن كان سبيله سبيلهم في ارتداده عن الإيمان بمحمد ﷺ في هذه الآيات. ثم عَرَّف عباده سُنَّته فيهم، فيكون داخلاً في ذلك كل مَن كان مؤمنًا بمحمد ﷺ قبل أن يُبعث، ثم كفر به بعد أن بعث، وكل مَن كان كافرًا ثم أسلم على عهده ﷺ، ثم ارتد وهو حَيٌّ عن إسلامه. فيكون مَعنيًّا بالآية جميع هذَين الصنفَين وغيرهما ممَّن كان بمثل معناهما». الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٦: ٥٧٤ ـ ٥٧٦، بتصرُّف. فعقوبة الردة الأولى في العهد المدني أُخرويَّة، تتعلَّق بها تبِعات دنيوية تشريعية كعدم تزويج المرتد ـ إلى الشرك ـ من مسلمة.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٣: ١٤٦، بتصرُّف.

(٣) «أي: بما أصابوا من الذنوب في كفرهم ومقامهم على ضلالتهم». الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٦: ٥٨١، بتصرُّف.

مفقودة لديهم[١]، وفي هذا دليل على وجوب اتِّباعهم ملّة إبراهيم الحنيف الموحِّد الحَقَّة.

---

(١) «حين قال النبي ﷺ أنه على ملة إبراهيم، قالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الابل وألبانها؟ فقال النبي ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم، فنحن نُحِلُّه. [أصل مشترك تشريعي] فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرِّمه فإنه كان على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله عز وجل تكذيبًا لهم ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٩٣]». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة آل عمران، ص١١٨. **والسيرة الحلبية**، ٢: ٣٣١، بتصرُّف.

كما ورد أيضًا عن ابن عباس أنَّه حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلالٍ نسألك عنهن لا يعلمهنَّ إلا نبيّ. قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدَّثتكم شيئًا فعرفتموه لتُتابِعُنِّي على الإسلام. قالوا: فذلك لك. قال: فسلوني عما شئتم. قالوا: أخبرنا عن أربع خلالٍ: أخبرنا أيّ الطعام حَرَّم إسرائيل على نفسه؟... فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليُتابِعُنَّه وقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضًا شديدًا وطال سقمه، فنذر لله نذرًا لئن شفاه الله من سقمه لَيُحَرِّمَنَّ أحبّ الشراب إليه وأحبّ الطعام إليه، وكان أحبّ الطعام إليه لحمان الإبل، وأحبّ الشراب إليه ألبانها. فقالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد عليهم...». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة آل عمران، **٢: ٧٤**، بتصرُّف.

وفي رواية أُخرى «أن إسرائيل أخذه عرق النساء فصار لا يبيت بالليل، فجعل إن شفاه الله أن لا يأكل لحمًا فيه عروق. فحرَّمته اليهود، فنزلت: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ هذا كان قبل التوراة». الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران، **٢: ٣٢٠**، ح: **٣١٥٢**. وصحَّحه ووافقه الذهبي. وبذلك تبيَّن نموذج من الرَّدّ القرآني في سياق واحد ومن خلال آية واحدة على جملة أمور في الحوار مع اليهود: التدليل من كتابهم أنَّ بعض المحرَّمات لديهم هي دون سند ديني بل بتقليد موروث ممَّا يقدح في أصالة شريعتهم من جهة، ويُبيِّن عدم يهودية إبراهيم (الذي يتَّبع النبي ﷺ ملَّته) لأنَّ إبراهيم لم يتَّبع تلك التشريعات من جهة أُخرى، فيؤسِّس لوضوح اختلاف ملّة إبراهيم عن اليهودية، =

وهنا تحديدًا يتمُّ عرض تشريع الحجّ (إلى مكة: القِبلة الجديدة) باعتباره فرضًا على جميع النَّاس بدلالة مقام إبراهيم الذي هو جزء من شعائره. ولكنَّ أهل الكتاب كفروا وصدُّوا أيضًا مَن آمن منهم عن سبيل الله. لذلك جاء التحذير للمؤمنين من طاعة فريق من الذين أوتوا الكتاب كي لا يردُّوهم إلى الكفر (بما يُحدِثونه من فتن)[1] والتوجيه للاعتصام بالله وتقواه

= فيدعوهم إلى الإسلام باعتباره هو ملّة إبراهيم (بما فيه من التوجُّه إلى القِبلة كما سيأتي والذي أنكروه)، كما ينطلق من مقصد هذا التحريم الشخصي لإسرائيل بدعوتهم لتحقيقه في حياتهم بالإنفاق ممَّا يُحبُّون.

(١) «مرَّ شأس بن قيس ـ [من بني قينقاع] وكان شيخًا قد عسا [أي: كَبِر] في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدَّثون فيه. فغاظه ما رأى من جماعتهم وأُلفَتِهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم ـ إذا اجتمع ملؤهم بها ـ من قرار! [لما في تبعات جماعتهم من قوة سياسية تُقابل تفرُّق اليهود]، فأمر فتى شابًا من يهود وكان معه فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذكِّرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ـ وكان يوم بعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ـ ففعل. فتكلَّم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثَب رجلان من الحَيَّين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة [من جديد]! وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح!! موعدكم الظاهرة [الحرَّة] فخرجوا إليها. وتحاوز الناس [انقسموا]، فانضمَّت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمَن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوّهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع =

وعهده ولزوم الجماعة (نعمة الله عليهم)، والمطالَبة بتخصيص أمّة منهم يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وتُعلن السورة للمؤمنين بأنَّهم خير أمة أُخرجت للنَّاس، وتعرض قسمَي أهل الكتاب بين مؤمنين وفاسقين (وهم الأكثر)، مع طمأنينتهم بأنَّهم لن يضرُّوهم إلا أذى وأنَّهم مذلولون إلّا بحَبل من الله وحَبل من الناس (كعهد مجتمعي) بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء. بالمقابل، تعرض السورة حال مؤمنين آخرين من أهل الكتاب من أهل الاستقامة، والعبادة، والإيمان بالله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة في الخيرات. وتُحذِّر الآيات المؤمنين من اتِّخاذ بِطانة [خواصّ الناس الذين يطّلعون على السرائر] من المنافقين واليهود الساعين لإثارة الفتن والذين يفرحون لما يُصيب المؤمنين من السيئات[1].

= رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله شأس بن قيس وما صنع. فأنزل الله في شأس بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: ٩٨ـ ٩٩]. وأنزل الله عز وجل فيمَن تقاولا ومَن كان معهما من قومهما، الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس بن قيس من أمر الجاهلية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٥]». الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٧: ٥٥ ـ ٥٦، بتصرُّف. فكان دافع اليهودي عرقيًّا، وهدفه سياسيًّا، وأسلوبه إحياء الانقسامات القَبلية بذكر الحزازات التاريخية (الذاكرة الجماعية السلبية للمجتمع). فكانت المعالجة النبوية بوحدة تسميتهم الإيمانية (التي تعلو على بقية الروابط وتضبط العدل فيها)، واعتماد الذاكرة الجماعية الإيجابية للمجتمع بالاعتبار والبناء.

(١) عن ابن عباس قال: «كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل فيهم، ينهاهم عن مباطنتهم تَخوُّف الفتنة عليهم منهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١١٩]». الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٧: ١٤١، بتصرُّف.

هذا، ويتمُّ استكمال الحوار مع أهل الكتاب عمومًا واليهود خصوصًا بالرَّدّ على بخلهم(١) ونِسبتهم الفقر إلى الله(٢)، والرَّدّ على طلبهم الآيات المعجزات من النبيّ ﷺ (كدليل على نبوَّته) بكونهم قتلوا رسلهم رغم وجود تلك الآيات. وتدعو السورة المؤمنين للصبر والتقوى في امتحان الله لهم في أموالهم وأنفسهم وسماعهم الأذى من الذين أوتوا

---

(١) «قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، نزلت في الأحبار الذين كتموا صفة النبي ﷺ ونبوَّته [كما] رواه عطية عن ابن عباس، وابن جريج عن مجاهد، واختاره الزجاج». ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي، **زاد المسير في علم التفسير**، سورة آل عمران، ١: ٥١٢، بتصرُّف.

(٢) عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس، فوجد من يهود أناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فِنحاص [من بني قينقاع] وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع. فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلِم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله ـ يا أبا بكر ـ ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه [أي: ما نزل في سورة البقرة: (٢٤٥) تحديدًا من ذكر القرض والمضاعفة عليه معًا، وقد صنَّفنا نزولها ضمن الموضع الأول من نزول السورة]، ولو كان غنيًا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوّ الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولاً عظيمًا، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله فيما قال فنحاص ردًا عليه وتصديقًا لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة آل عمران، ٢: ١٧٦، بتصرُّف.

الكتاب والمشركين[١]. وبعد ذلك تعرض السورة آيات الله في السماوات والأرض وتفكُّر أولي الألباب بها وما يقتضيه من فَهْمٍ صحيح للحياة وإيمان بالنبيّ ﷺ وأدعية للنجاة من النار وتكفير السيئات وتحقيق الوعد يوم القيامة.

وتُختَم السورة بعرض أقسام النَّاس بين: مَن هاجروا وأُخرجوا في سبيله وقاتلوا وقُتلوا (بأنَّ الله استجاب لهم الدعوات)، والذين كفروا (بالتنبيه بعدم الاغترار بهم لتقلُّبهم في متاع الدنيا)، والذين اتقوا (بجزائهم في الآخرة)، ومَن أكمل إيمانه من أهل الكتاب بما أنزل الله بخشوع (بأنَّ أجرهم عند الله). وتُوَجِّه السورة في نهايتها المؤمنين للصبر والمصابرة والمرابطة.

غزوة بني قينقاع:

«ازداد اليهود من بني قينقاع جرأة، فقلَّما لبثوا أن أثاروا في المدينة قَلَقًا واضطرابًا»[٢] حتى حدث أن «قَدِمَت إحدى نساء الأنصار سوقهم وجلست إلى صائغ هناك، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ـ وكان يهوديًا ـ وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشَّرّ بينهم وبين بني قينقاع»[٣]. فكان «أكثر من كونه

---

(١) ورد أنَّ الأذى المذكور في السورة مقصود به ما صدر عن فنحاص مع أبي بكر الصديق [في الهامش السابق]، وورد أنَّه ما صدر من كعب بن الأشرف. الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٧: ٤٥٥ ـ ٤٥٦، بتصرُّف. وكلا التأويلَين يتناسبان مع نزول هذه الآيات قبل غزوة بني قينقاع ومقتل كعب بن الأشرف.

(٢) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٢٢٣، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر بني قينقاع، ٢: ٤٨، بتصرُّف. مع أنَّ «هذه الرواية ضعيفة، ولكن يُستأنس بها من الناحية التاريخية، فقد أوردتها معظم مصادر السيرة، وهي تُصوِّر تتابع الأحداث التي أدَّت إلى إجلاء بني قينقاع». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٣٠٠ ـ ٣٠١، بتصرُّف.

عملاً فردياً، بل تمالأ اليهود في السوق على الاستهزاء والقتل»[١]. فكانت نتيجة هذا العدوان أن سار إليهم النبي ﷺ بآية: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ [الأنفال: ٥٨]»[٢] [أي: ولو خاف النبيّ ﷺ خيانة قوم معاهدين فعليه أن يُعلِمَهم أنَّه أنهى عَهدهم قبل مُحارَبتهم][٣]، فحاصرهم في حصونهم «أشدّ الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ أن لرسول الله ﷺ أموالهم، وأنَّ لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكُتِّفوا، فكلَّم فيهم عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول رسول الله ﷺ وألحَّ عليه، فقال: خلُّوهم، وتَرَكهم من القتل، وأمر بهم أن يُجلو من المدينة»[٤].

هذا، وقد تبع ذلك بقليل، ظهور خيانة لفصيل يهودي آخر بعمالة لبني النضير. فقد استقبل سَلَّام بن مِشكم سيِّد بني النضير أبا سفيان في المدينة، حين جاء خُفيَة ـ بعد هزيمة قومه ببدر ـ بهدف الإغارة على المدينة بهجوم خاطِف قليل المغرَم وظاهر الأثر، يحفظ به مكانة قومه. فآواه وأخبره بعض التفاصيل الداخلية حول المدينة، فخرج وبعث رجالاً إلى المدينة فحرَّقوا وقتلوا قبل أن يلوذوا بالفرار[٥]. ورغم ما في ذلك من نقض للموادعة بينهم وبين النبيّ ﷺ بممالأة عدوِّه والتخاذل عن نصرته في داخل المدينة، فإنَّ أحداث التصفية القادمة للمحرِّضين ستكون كفيلة بضمان التزامهم بصحيفة تفصيلية، ولو إلى حين.

---

(١) د. سامي حمدان أبو زهري، **يهود المدينة في العهد النبوي**، ص١٤٧، بتصرُّف. وهذه الحادثة تردّ على الباحث اليهودي شمعون ماركوس من أن النبي ﷺ أجلى بني قينقاع عن المدينة بسبب رفضهم اتِّباعه والإيمان به. المصدر نفسه، ص١٤٨، بتصرُّف.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة بني قينقاع، ٢: ٢٩، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأنفال، ٤: ٧٨ ـ ٧٩، بتصرُّف.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة بني قينقاع، ٢: ٢٩. وقد حدث ذلك في «النصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجره». المصدر نفسه، غزوة بني قينقاع، ٢: ٢٨ ـ ٢٩.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة السويق، ٢: ٤٤ ـ ٤٥، بتصرُّف.

تصفية المحرِّضين:

قبل غزوة بني قينقاع، في نهاية «شهر رمضان (بعد أيام من غزوة بدر)، قتل عُمَير بن عديّ (الأعمى) بمبادرة منه[١] عصماء بنت مروان (اليهودية) التي كانت تعيب الإسلام وتُؤذي النبيّ ﷺ وتحرِّض عليه وتقول الشعر في ذلك. فلما أصبح ذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فجمع الناس فقال: «أنشد الله رجلاً فعل ما فعل، لي عليه حقّ، إلا قام». فقام الأعمى يتخطّى الناس وهو يتزلزل حتى قعد بين يدي النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك، فأنهاها فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتَين، وكانت بي رفيقة، فلما كانت البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذتُ المِغوَل فوضعتُه فى بطنها واتَّكأت عليها حتى قتلتها. فقال النبيُّ ﷺ: «ألا اشهدوا أنَّ دمها هدر»[٢]. وذلك لما في ذلك من نقض للعهد.

إنَّ هذا الحدث الفردي، له دلالة عظمى وأثر في تفسير حادثتَي تصفية لمحرِّضَين على الفتنة في المدينة المنورة تمَّتا بعدها. ففيه تأكيد على عُرف سياسي في اعتبار القتل جزاء نقض العهد بالتحريض القتالي. كما يُشكِّل إعلان النبيّ ﷺ السابق بهدر دماء المحرِّض من الأفراد حُكمًا قضائيًا بحدِّ ذاته وإعلامًا لكلِّ محرِّض آخر بخروجه من دائرة الأمان[٣] من

---

(١) وردت العديد من الروايات التي تحدَّثت عن حدث قتل ابنة مروان، معظمها جعله مبادرة ذاتية من عُمَير دون علم النبي ﷺ، وهي الروايات الصحيحة، وبعضها جعله أمرًا عامًّا من رسول الله ﷺ. فقدَّمت أصل الحدث الذي أجمعت عليه معظم الروايات الصحيحة على غيره.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، سرية عمير بن عدي، ٢: ٢٧، بتصرُّف. وسنن أبي داود، كتاب الحدود، باب الحكم فيمَن سبَّ النبي ﷺ، ٤: ١٢٩، ح: ٤٣٦١، بتصرُّف.

(٣) وهذا هو المعيار الفارق بينه وبين الغدر، إذ «الغدر إنما يكون بعد أمان موجود». النووي يحيى بن شرف، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى، ١٢: ١٦١. بتصرُّف.

جهة، وإنَّ رضاه ﷺ بتنفيذ ذلك الحكم عبر مبادرات من المجتمع بالوسيلة المناسبة (بما يتلافى مقتل أبرياء معه) من جهة أُخرى، يؤسِّسان لتشريع التحرُّك في حادثتَي التصفية القادمتَين كي يتمَّا بشكل سرّيٍّ (كجزء من خَدعة الحرب) يكفيه توجيه عام من النبيّ ﷺ بإعلان طلب مَن يتطوَّع لكفاية أمر المحرِّض دون تكليف لشخص بعينه، ثمَّ الإعلان الرسمي منه ﷺ بعد مقتله عن أحقيَّة ذلك الحكم، ومكافأته مَن يتطوَّع لهذه المهمّات بجزاء أُخروي.

وعندما نُقارن هذا الحكم بالمَوقف النبوي من الأعداء (ولو المحرِّضين على قتله ﷺ)، يتبيَّن أيضًا أهمية الفارق السياسي بين العهدَين المكي والمدني، أي: وجود الشَّوكة في مجتمع مستَقِلّ، كمعيار أساسي[1]. وهو أحد الضوابط التي تجعل خيار القتل مُتاحًا.

---

(١) «بَيَّنت هذه الصورة على أنَّ مواجهة الكفار أعداء الإسلام ومحاربي الدولة لا تقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنما تتعدَّى ذلك إلى كل عمل تحصل به النكاية بالأعداء، ما لم يكن إثمًا، وقد يُوَفِّر القضاء على رجل له دوره البارز في حرب المسلمين جهودًا كبيرة وخسائر فادحة يتكبَّدها المسلمون. وهذا مشروط بالأمن من الفتنة، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكة وقوة ودولة، بحيث لا يترتَّب على نوعية هذا العمل فتك بالمسلمين، واجتثاث الدعاة من بلدانهم، وإفساد في مجتمعاتهم. وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلامي، وتعجَّلوا الصدام المسلَّح، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة ولا حجة لهم فيها، لأنَّ ذلك كان بالمدينة وللمسلمين شوكة ودولة، أما هم فليس لهم دولة ولا شوكة، ثم كان ذلك إعزازًا للدين وإرهابًا للكافرين، وكانت كلها مصالح لا مفسدة معها، أما ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث، فإنها يعقبها من الشر والفساد واستباحة دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ما لا يخفى على بصير. وإن النبي ﷺ لم يقم بمحاولة تصفية لأي أحد من المشركين في مكة مع القدرة على قتل زعماء الشرك كأبي جهل وأميّة بن خَلَف وعتبة، ولو أشار إلى حمزة أو عمر بذلك أو غيرهما من الصحابة، لقاموا بتنفيذ ذلك، ولكنَّ الهدي النبوي الكريم يُعلِّمنا أنَّ فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكة وقوة، كما أن هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحة من أهلها، واستيعاب فقه المصالح والمفاسد، وهذا يحتاج إلى =

أما الحادثة الأولى من حادثتَي التصفية، فهي «سرية سالم بن عمير الذي قتل فيها أبا عفك (اليهودي)، والذي كان شيخًا كبيرًا يُحرِّض على عداوة النبيّ ﷺ في شعره، فنذر سالم بن عمير قتله وطلبه حتى قتله، وذلك بأمر النبيّ ﷺ بعد أن قال ﷺ: مَن لي بهذا الخبيث؟»[١].

وأما الحادثة الثانية، فهي سرية محمد بن مسلمة وغيره الذين قتلوا كعب بن الأشرف (اليهودي من بني النضير)، والذي كان رجلاً شاعرًا يهجو النبيّ ﷺ وأصحابه، ويُحرِّض عليهم، ويُؤذيهم حتى خرج إلى مكة بعد بدر وبكى قتلى قريش، وحرَّضهم بالشعر، ثم قدم المدينة[٢]. وعند عودته إلى المدينة شبَّب [أي: تغزَّل] بنساء المسلمين حتى آذاهم[٣]. فقال النبيّ ﷺ: مَن لي بابنِ الأشرف؟ فقد آذى الله ورسوله، و[استعلن بعداوتنا وهجائنا، وخرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا . . فيُقاتلنا معهم][٤]. فلما تطوَّع محمد بن مسلمة لقتله صمت النبيّ ﷺ ثمَّ طلب منه أن يستشير (سيِّد الأوس) سعد بن معاذ رضي الله عنه[٥]، ثمَّ تمَّ استدراجه وقتله.

= علماء راسخين، حيث تتشابك المصالح في عصرنا، وحيث للرأي العام دوره الكبير في قرارات الدول، وحيث احتمالات توسُّع الأضرار. د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٤٦٣، بتصرُّف.

(١) وقد وقعت هذه السرية في شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عوف، ٣: ٤٨٠، بتصرُّف. قبل غزوة بني قينقاع.

(٢) وقد وقعت لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، سرية قتل كعب بن الأشرف، ٢: ٣١ـ ٣٢، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مقتل كعب بن الأشرف، ٢: ٥١ ـ ٥٤، بتصرُّف.

(٤) البيهقي، **دلائل النبوة**، باب ما جاء في قتل كعب بن الأشرف، ٣: ١٩١، بتصرُّف.

(٥) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر مناقب محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه، ٣: ٤٩٢، ح: ٥٨٤١، بتصرُّف. وقد وردت القصة في عدد من كتب السنن دون الإشارة إلى طلب مشورة سعد بن معاذ كما في: أحمد بن حنبل، =

وهكذا، تحدَّدت لدينا كيفية تعامل السلطة مع خيانة العهد في المجتمع الواحد، سواء أصدَرَت من فردٍ أم من جماعةٍ.

صحيفة المدينة[(١)]:

لقد أثمرت هذه الأحداث فزع اليهود والمشركين، «فغدَوا على النبيّ ﷺ فقالوا: طُرِق صاحبنا [أي: ابن الأشرف] فقُتِل. فذكر لهم النبيّ ﷺ الذي كان يقول [أي: صنيعه وما كان يحضُّ عليهم ويُحرِّض في قتالهم ويُؤذيهم][(٢)]، ودعاهم النبيّ ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابًا [صُلحًا][(٣)] ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبيّ ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامّة صحيفة»[(٤)]، عُرِفت في التاريخ باسم «صحيفة المدينة»[(٥)] التي تُمثِّل «النظام الداخلي

= **المسند**، الملحق المستدرك من مسند الأنصار، حديث عبد الله بن كعب بن مالك عن عمِّه، ٣٩: ٥٠٥، ح: ٢٤٠٠٩/ ٦٥، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، باب السرايا والبعوث، باب قتل كعب بن الأشرف، ٦: ١٩٦، ح: ١٠٣٣١.

(١) وضعت النص الأصلي لها في المُلحَق الثالث في نهاية الكتاب.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، سرية قتل كعب بن الأشرف، ٢: ٣٣، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سرية قتل كعب بن الأشرف، ٢: ٣٣، بتصرُّف.

(٤) **سنن أبي داود**، كتاب الخراج، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، ٣: ١٥٤، ح: ٣٠٠٠، بتصرُّف. وهي «رواية صالحة للاحتجاج بها لما لها من شواهد ومتابعات». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٣٠٣ ـ ٣٠٤، بتصرُّف. ومثله في: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، سرية قتل كعب بن الأشرف، ٢: ٣٣، بتصرُّف. وأحمد بن حنبل، **المسند**، الملحق المستدرك من مسند الأنصار، حديث عبد الله بن كعب بن مالك عن عمِّه، ٣٩: ٥٠٥، ح: ٢٤٠٠٩/ ٦٥، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، باب السرايا والبعوث، باب قتل كعب بن الأشرف، ٦: ١٩٦، ح: ١٠٣٣٠.

(٥) إنَّ نصوص «الصحيفة» تجعلها أقرب إلى كونها ميثاقًا مُشترَكًا ناظِمًا ومُلزِمًا مع ضمانات من الرسول ﷺ.

لجماعة المؤمنين والمسلمين [المقيمين في المدينة حصرًا] في شؤون الجنايات والحرب خاصة من جهة، ومعاهدة حربية بين الرسول ﷺ وبين اليهود من جهة أُخرى»[١]. وأعرضها كاملة مع التعليق عليها لأهميَّتها في إدارة التعدّدية في بلد المدينة في هذا الظرف الراهن بعد تغيُّر الموازين في بدر وظهور الخيانات الداخلية (الفردية والجماعية):

➢ تنقسِم الصحيفة إلى ثلاثة أقسام:

• الأول: في تحديد المؤمنين والمسلمين في يثرب، والمنظومة الحقوقية الخاصة بهم في شؤون الجنايات والحرب (البنود ١ ـ ٢٣).

• الثاني: في تحديد اليهود في يثرب، والمنظومة الحقوقية الخاصة بهم في شؤون الحرب (البنود ٢٤ ـ ٣٨).

• الثالث: قسم عام عن إدارة النزاعات الداخلية والخارجية في يثرب (البنود ٣٩ـ ٤٧).

أما حول القسم الأول، فتمَّ في نصوصها «تحديد الطرف الأول بالتمييز بين المؤمنين (مَن إسلامهم عَقَدي) والمسلمين (مَن إسلامهم سياسي؛ اعترافًا بالدين الجديد وخضوعًا للسلطة الناظمة)، وهم مع مَن تبعهم فلَحِق بهم[٢] وجاهد معهم أمة واحدة[٣] من دون

(١) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٣: ١٤، بتصرُّف.

(٢) يُلاحَظ التشابه بين هذه الجزئية من البند وبين خاتمة سورة الأنفال التي تفتح المجال للانتساب إلى المؤمنين بالهجرة إلى المدينة.

(٣) بما يُعبِّر عن تسمية قرآنية سبقت في سور الأنبياء، والمؤمنون، والبقرة... و«هذا شيء جديد كل الجدّة في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب، إذ نقل الرسول ﷺ قومه من شعار القبلية، والتبعية لها إلى شعار الأمة». د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٣٢٧، بتصرُّف. ولكن مع الإشارة إلى أنَّ سياق «الأمة» في هذا البند من الصحيفة يختص بسكان المدينة من المسلمين والمؤمنين مع مَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، ممَّا لا يجعل لمسلمي مكة أو الحبشة أو البادية ـ الذين لم يُهاجروا ـ دَور في هذه التسمية من الصحيفة أو في الحقوق والواجبات المتوافرة لهم فيها، فلن يكونوا مُخاطَبين من الصحيفة إلا بعد أن يُصبحوا من أهلها، أهل المدينة. فهم من الأمة ديانة، وخارج التقسيم السياسي الجغرافي حالة المدينة =

النَّاس [بعد أن تمايزوا بقِبلة خاصة بهم كما مرَّ]. ثمَّ عرض النظام الداخلي الخاص بهم والقاضي بالاستمرار بالعُرف السابق (قبل الإسلام) فيما يختصّ بأخذ الديات وإعطائها، مع التزام المعاملة الحسنة للأسرى والعمل بالعدل في افتدائهم. وتمَّ تفصيل ذكرهم: المهاجرين من قريش، وعشائر الأنصار من يثرب عشيرة عشيرة. وتمَّ النصُّ على التضامن والتكافل الاجتماعي [حسب المتعارف عليه عشائريًا مع العدل بين المؤمنين]، ووحدتهم[1] على مَن بغى منهم أو ابتغى ظلمًا أو إثمًا أو عدوانًا أو فسادًا بين المؤمنين، باعتبارها وحدة قيميَّة مُقدَّمة على عصبية العشيرة. والنهي عن قتل مؤمن لمؤمن في كافر[2] أو نصر الكافر

= الراهنة. وهذا هو أحد ضوابط الإدارة السياسية. كذلك، فاليهود ـ حسب بند لاحقٍ في الصحيفة ـ هم أمة مع المؤمنين.

(١) «تهتم الصحيفة بإبراز دور للمؤمنين، فأكَّدت على المسؤولية الجماعية، واعتبرت سائر المؤمنين مسؤولين عن تحقيق العدل والأمن في مجتمع المدينة. وأهمية ذلك كبرى لأن النبي ﷺ لم يُشكِّل قوة منظَّمة كالشرطة لتعقُّب الجناة ومعاقبتهم. ونظرًا لكون الحدود على الجرائم مصدرها الله تعالى، فإن السعي إلى تطبيقها واجب ديني على المؤمنين، وهذا يُكسِب الأحكام قُدسية ويُعطيها قوة كبيرة، ويمنع ما ينشأ في نفوس بعض الناس من الرغبة في تَحَدِّيها والخروج عليها». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٥، بتصرُّف. وهذا من الأُطُر التنفيذية للإدارة السياسية.

(٢) قوله ﷺ: «ولا يُقتَل مؤمن بكافر» كجزء من حديث قاله عند فتح مكة، قد تكلَّم الناس في معنى هذا قديمًا، قال بعضهم: لا يُقتَل مؤمن بكافر كان قتله في الجاهلية. [ورأي آخر أنَّه] لا يُقاد مؤمن بذمي [غير مسلم مستأمَن بعقد الذمة]، ولكن يكون عليه الدية كاملة في ماله. ورأي أبي حنيفة وجميع أصحابه أنَّه يُقاد». ابن سلَّام القاسم الهروي، **غريب الحديث**، ٢: ١٠٤، بتصرُّف. فأصبح التقدير عند الحنفية: «ولا يُقتل مؤمن بكافر حربي». الصنعاني محمد بن إسماعيل، **سبل السلام**، كتاب الجنايات، ٣: ٢٣٥. وقد يكون المعنى الأول والأخير هما الأَولى بالتفسير هنا فيما يختص بنص الصحيفة المكتوبة بعد أقل من عامَين على الهجرة النبوية، لانسجامهما مع طبيعة الصراع الداخلي السابق في يثرب، والصراع الخارجي الحربي الحاضر مع قريش المعادية والمعتدية.

عليه، [كما لا يُقتل ذو عهد في عهده][(١)]، ولكن بالمقابل تُعتبر إجارة المسلم (ولو الضعيف فيهم [حرًّا أو عبدًا أو أمةً]) للكافر[(٢)] بتأمينه مُلزِمة لجميع المسلمين [تحقيقًا للمساواة في المعاملة والحقوق العامة فيما بينهم]، لأنَّ ذمة الله واحدة فلا يتعرَّض له أحد. [ويَرُدُّ مُشدُّهم على مُضعِفِهم، ومُتَسَرِّيهم على قاعدهم (إشارة إلى التكافل: فالقويّ والغازي يُسهِمان مع الضعيف والقاعد فيما يكسبانه من الغنيمة)][(٣)]. وكون المؤمنين بعضهم موالي بعض دون النَّاس[(٤)]. ومَن أسلم من يهود له النصر والأسوة دون ظلم. وكون سِلم المؤمنين واحدة، فالمصالحات من اختصاص الجماعة وليس الأفراد. ويكون الخروج للقتال بالتناوب بين العشائر، مع المساواة فيما بينهم باحتساب تكافؤ دمائهم (القويّ كالضعيف)، تحقيقًا للمساواة أيضًا بينهم [حتى في الدية]. ولكن لا تُقبل إجارة المشرك لمال قريش أو أنفسها. ومَن يقتل مؤمنًا دون جناية يُقتصّ منه إلا أن يعفو وليّ المقتول، ويكون المؤمنون عليه كافة بالقيام عليه. وكل مؤمن بالله واليوم الآخر أقرَّ بهذه الصحيفة لا يحلّ له إيواء مُحدث من الجناة بالمنع من الاقتصاص منه، ومَن فعلها عليه اللعنة والغضب يوم القيامة دون إمكانية التوبة أو الفدية. وخُتِم القسم الأول إلى كون مردّ أيّ اختلاف بينهم إلى الله وإلى محمد ﷺ.

---

(١) **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب في السرية تُردّ على أهل العسكر، ٣: ٨٠، ح: ٢٧٥١. وهي زيادة على الرواية السابقة. وأحمد بن حنبل، **المسند**، مسند الخلفاء الراشدين، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ٢: ٢٦٨، ح: ٩٥٩.

(٢) «إذا أجار واحد من المسلمين ـ حُرّ أو عبْد أو أمَة ـ واحدًا أو جماعةً من الكفّار وأمَّنهم، جاز ذلك على جميع المسلمين، لا يُنْقَض عليه جِواره وأمانه». ابن الأثير، **النهاية**، حرف الجيم، باب الجيم مع الواو، ١: ٣١٣، بتصرُّف.

(٣) **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب في السرية تُردّ على أهل العسكر، ٣٣: ٨٠، ح: ٢٧٥١. وهي زيادة على الرواية السابقة.

(٤) يُلاحَظ التشابه بين هذا البند أيضًا وبين خاتمة سورة الأنفال التي تجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وتُحذِّر بالمقابل من كون الذين كفروا بعضهم أولياء بعض. وهذا أدعى للولاية بين المؤمنين من دون النَّاس.

[وأما حول القسم الثاني، فتمَّ في نصوصها] تحديد الطرف الثاني وهم اليهود، الذين يتحمَّلون نصيبهم من نفقات الحرب (الدفاعية) التي يُشاركون فيها[١]، واليهود أمة مع المؤمنين (في مجال الحرب) إلا مَن ظَلَم وأَثِم فلا يضرّ حينها غير نفسه وأهل بيته[٢]، وتمَّ التفصيل أيضًا بذكر جميع عشائر اليهود [من العرب المتهوِّدين] عشيرة عشيرة إضافة إلى ما يُلحَق بهم من البطون والموالي والبِطانة. ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم. مع تقرير مبدأ: البِرّ دون الإثم، أي: أنَّ البِرّ والوفاء يلزم أن يكون حاجزًا عن ارتكاب الإثم. كذلك لا يخرج اليهود من المدينة إلا بإذن محمد ﷺ[٣]، وأن يكفّوا عن القَود إلا مَن ظُلِم فالله يرضى به، فمَن فتك فبنفسه فتك وأهل بيته. وعلى المسلمين كما على اليهود نفقتهم (في الحرب)، وإنَّ بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وبينهم النصح والنصيحة والبِرّ دون الإثم. ولا يأثم امرؤ بحليفه، والنصر للمظلوم.

ثمَّ يأتي القسم الثالث من الصحيفة في إدارة النزاعات الداخلية والخارجية في يثرب بالإقرار بأنَّ يثرب حَرام جوفها على أهل الصحيفة، أي: إحلال الأمن داخل المدينة، وتحريم القتال فيها، ومنع الحروب الداخلية أو التعرُّض لأنفس وأموال أهلها[٤]. كما أنَّ مَن أدخل إنسانًا في جواره فهو كنفسه غير مُضارّ ولا آثم، وكما لا تُجار حُرمة إلا بإذن أهلها

---

(١) واستمرَّ هذا الحكم حتى تشريع الجزية كما سيأتي ص٥٦٧.

(٢) بحسب المتَّبع عُرفًا حينها في مجتمع الجزيرة العربية، ومآلاً طبيعيًا بتأثُّر الأسرة بحال الزوج، فيُشكِّل دافعًا إضافيًا على عدم نكث العهد والالتزام به.

(٣) هذا البند يتعلَّق بالإجراءات المتناسبة مع تلافي قيام مكوِّنات في المجتمع بتحالفات مع قريش أو قبائل معادية، فكان «لعدم الخروج دون إذن من السلطة تأثير كبير في عدم السماح بذلك». د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٣٣١، بتصرُّف. كما يستهدف هذا البند «منعهم من القيام بنشاط عسكري كالمشاركة في حروب القبائل خارج المدينة، ممَّا يُؤثِّر على أَمنِها واقتصادها». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٩٠ ـ ٢٩١، بتصرُّف.

(٤) د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٣٣١، بتصرُّف.

(أولياء الحُرمة أصحاب الحقّ في حمايتها)[١]. وما كان بين أهل الصحيفة من اشتجار يُخاف فساده فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ. ولا تُجار قريش ولا مَن نصرها. بل بين المؤمنين واليهود النصر بالدفاع المشترك عن يثرب على مَن دهمها. وإذا دُعوا إلى صُلح يُصالحونه فإنَّهم يُصالحونه[٢]. وإنَّهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك (من العقود والمصالحات) فإنَّه لهم على المؤمنين إلا (مع) مَن حارب في الدين [لأنَّ حفظ الحرية الدينية وحفظ الدين غاية من القتال في سبيل الله كما تبيَّن في سورة الأنفال وستتعرَّض له آيات لاحقة من سورة البقرة]، على كلِّ أُناس حصَّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.

وتُختَم الصحيفة بإقرار أنَّ البِرّ دون الإثم، وأنَّه لا يكسب كاسب إلا على نفسه (المسؤولية الفردية)، وأنَّها لا تحول [أي: لا تمنع] دون ظالم أو آثم (مقصد العدل والبِرّ)، وأنَّ مَن خرج آمن، ومَن قعد آمن بالمدينة، إلا مَن ظلم وأثم[٣]، وإنَّ الله جارٌ لمَن برَّ واتقى ومحمداً رسول الله ﷺ»[٤].

---

(١) فكما أعطت آيات سورة الإسراء الحقّ لولي المقتول (صاحب حقّ) بوجود سلطان، أكملت الصحيفة المشهد بمنع غير صاحب الحقّ بحماية حقِّه والمطالَبة به إلا بإذن من صاحب الحقّ نفسه.

(٢) وبذلك «تمتدّ المعاهدة لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأُخرى، فشرطت على كلِّ طرف مصالحة حلفاء الطرف الآخر إلا قريشًا التي حاربت في الدين كما استثنى النص القادم فيها». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٩١ ـ ٢٩٢، بتصرُّف.

(٣) كحالة كعب بن الأشرف وأمثاله ـ قبله وبعده ـ ممَّن خرجوا بأفعالهم عن هذا الأمان.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، هجرة الرسول ﷺ، ١: ٥٠١ ـ ٥٠٤، بتصرُّف. ود. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٣: ١٠ ـ ١٤، بتصرُّف. وقد وردت نصوص الصحيفة الكاملة في عدد من الروايات بتطابق كبير فيما بينها، كما أوردت كتب الحديث مقتطفات كثيرة منها وردت من طرق صحيحة مُستَقِلَّة عن طرق الرواية لنصِّها الكامل، وإنَّ أسلوبها ينم عن أصالتها. لذلك تُعتبر وثيقة أصلية. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٢٧٣ ـ ٢٧٦، بتصرُّف.

وبمنظومة التعدّدية السياسية تلك، أصبحت المدينة المنورة بكل مكوِّناتها دولة وفاقية آمنة بأساس العدل والتكافل والوحدة القيمية والمسؤولية الفردية. وفي الوقت الذي يُدرك الفرد دوره ـ حقوقًا وواجبات ـ وتُدرك الجماعة (كلّها أو جماعة كل طرف على حِدة) دورها ـ حقوقًا وواجبات ـ ضمن إطار موضوعات الصحيفة (بتنسيق حرية الفرد مع مصلحة الجماعة)، يظهر إقرار وضمان الحرية الدينية واختيار الدوافع التي تتناسب مع التزام كل طرف بالصحيفة (الإيمان بالله واليوم الآخر للطرف الأول، والبِرّ والارتباط الأُسَري للطرف الثاني). وخُتِم قسمَي الصحيفة بتأكيد وجود «سلطة [قضائية] موحَّدة تفصل في الخلافات منعًا لأيّ اضطراب في الداخل جرَّاء تعدُّد السلطات»[1]، كما خُتِمَت الصحيفة نفسها بأنَّ الله جارٌ [مؤمِّن] لمَن برَّ (ممَّا يتناسب تمامًا[2] مع مَن التزم من الطرف الثاني) واتَّقى (ممَّا يتناسب تمامًا[3] مع مَن التزم من الطرف الأول)، وأنَّ محمدًا

---

(١) د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٣٢٩، بتصرُّف.

(٢) إنَّ كلمة «البِرّ» في وجدان اليهود وثقافتهم الدينية من خلال ورودها في كتاباتهم («التناك» التي يُسمِّها النصارى «العهد القديم») تستدعي معانٍ: «العدالة الاجتماعية بالحق والنزاهة والإنصاف، والمحافظة على الشريعة وكامل الوصايا والسلوك بما يُطابقها والنقاء، والثواب والبركة كمكافأة على العدالة والتصرُّف بوداعة وحلم، والإصلاح في تنظيم علاقات الناس فيما بينهم، وممارسة الحكمة المُرشدة إلى الاعتدال والفطنة والعدل والقوة كأربعة فضائل رئيسية تقليدية، والصدقة المكفِّرة عن الخطايا، والالتزام الإيجابي لمصلحة صاحب الحقّ بالإنعام عليه والطيبة والمحبة، والنجاة بعدل الله، والسلوك الذي يُرضي الله، والوفاء، والرحمة والأمانة والسلام». الأب فاضل سيداروس اليسوعي وآخرون، **معجم اللاهوت الكتابي**، مادة «بَرّ»، ص١٥٠ ـ ١٥٤، بتصرُّف.

(٣) إنَّ كلمة «التقوى» في الاستخدام القرآني تعني: «جعل النفس في وقاية ممَّا يُخاف بحفظها عمَّا يُؤثِم وذلك بترك المحظور». الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، حرف الواو، ص٨٨١، بتصرُّف. وقد نزلت آيات قرآنية في سورة البقرة التي ابتدأ نزولها منذ بداية العهد المدني (قبل كتابة الصحيفة وبعدها) تجعل من التقوى دافعًا في أداء الحقوق (آية ١٨٠)، =

رسول الله ﷺ مؤمِّن أيضًا له وضامن لتحقيق هذا الأمان، باعتباره رسول الله المؤمِّن لكلِّ ملتزم بالصحيفة.

بهذا التكامل تحقَّقت إدارة التعدّدية. أما عن آليات التطبيق وحساسيَّاته المتداخلة أحيانًا فستظهر تباعًا خلال أحداث العهد المدني عند التعامل مع مَن نقض الصحيفة.

➢ وبتفصيل هذا التكامل بالنظر إلى كيفية تعلُّق منظومة الحقوق والواجبات بالروابط المادية والمعنوية للفرد وللمجتمع يتبيَّن التالي:

- تمَّ جمع الجميع تحت تسمية «أهل هذه الصحيفة» (رابطة المبادئ الدستورية).

- تمَّ جمع المؤمنين والمسلمين تحت تسمية «دينية» تُعبِّر عن الإطار الجامع لهم على اختلافهم، وتفتح المجال للإضافة عليها ممَّن لحق بهم، فأصبح ضمن جغرافية المدينة (رابطة الانتماء الأرضي/الوطني) والالتزام بقراراتها.

وهذه الرابطة الأرضية تعلَّق بها اجتماع جميع أهل الصحيفة (مسلمون ويهود ومشركون) على حُرمة الاعتداء في المدينة ووجوب الدفاع المشترك عنها.

ثمَّ تمَّ ربطهم عشائريًا (رابطة الانتماء العائلي) بالواجبات الجنائية (الديات المالية) والحربية كدافع لتحقيقها حسب المتعارف عليه، مع ربطهم إيمانيًا (رابطة مصدر التلقّي الإيماني/الروحي) بالعدل كدافع لتحقيق هذا الضابط عند القيام بهذه الواجبات. وبذلك تمَّ تكييف الروابط العشائرية وفق قِيَم الإسلام.

ثمَّ تكون الرابطة الإيمانية بين المؤمنين: دافعًا لمساعدة الضعيف (الذي لا يقدر على

= ولعدم الظلم (آية ٢٨٢)، ولأداء الأمانة (آية ٢٨٣)، كما تمَّ ربطها مع البِرّ في عدد من آياتها (١٧٧، و١٨٩، و٢٢٤). كذلك ربطت بعض الآيات المدنية بين فقدان التقوى ونقض العهود كما في سورة الأنفال (الآية ٥٦)، وبين التقوى والوفاء بالعهد كما في سورة آل عمران (الآية ٧٦) اللتَين نزلتا قبل كتابة الصحيفة، وبين التقوى وإتمام العهد والاستقامة كما في سورة التوبة (الآيتان ٤، و٧) التي نزلت بعد كتابة الصحيفة.

القيام بالواجبات الجنائية)، ولتقديم تطبيق القِيَم (بردّ البغي والظلم والإثم والعدوان والفساد) على متطلَّبات الحماية القَبَلية (لمَن صدر ذلك منه)، وعلى الانتقام القَبَلي بسبب ماضي صراع وعلى التحالف مع أعداء الخارج ضدَّ الداخل. فالإيمان هو الحامي للقِيَم والدافع لتطبيقها. وهذه الرابطة الإيمانية هي التي تؤمِّن المساواة بين المؤمنين (فيكتسبوا حق تأمين غيرهم أفرادًا، ويلتزموا بالمصالحات جماعة). كما يؤمِّن الإيمان التزامهم بهذه الصحيفة.

• تمَّ جمع اليهود تحت تسميتهم الدينية، وربط إنفاق قَبائلهم بالمشاركة الحربية التي تجعلهم أمة مع المؤمنين. مع إقرار الحرية الدينية لليهود والمسلمين، وتحمُّل مسؤولية أيّ انتهاك يكون على (الفرد) المنتهِك وأهل بيته[1] دون تأثُّر القبيلة أو حلفائها بذلك. وإقرار المساواة في هذه الحقوق العامة بين جميع قبائل اليهود. ويؤمِّن البِرّ (الرابطة الأخلاقية) التزامهم بهذه الصحيفة.

• وتمَّت الإشارة لمصالح قريش (أنفس وأموال) حصرًا لاستثنائها من حقّ المشرك وحقّ اليهود في المدينة في حمايتها أو حماية مَن يُناصرها في الداخل بسبب كونها معادية. ويُمكن النظر إلى هذا البند أيضًا كعامل تماسك لأهل المدينة، بعدما تبيَّن في سورة فاطر المكية قاعدة: الاتفاق على العدوّ المشترك هو عامل جَمعٍ مع الآخر في الداخل (البلد الواحد).

• وقد أعطت الصحيفة الجماعة دورًا مسؤولاً في العديد من البنود الخاصة بالتكافل والعدل والسلم والحرب (بين مجتمعَين)، والعقوبات الجنائية والأمن (داخل المجتمع)، وكان دور رسول الله ﷺ فيها المرجع القضائي في الحكم بين النَّاس عند الاختلاف. ويُمكن النظر كذلك إلى تسمية «رسول الله» والتي لم ترد في الصحيفة إلا في النصف الثاني منها (الخاص باليهود والخاتمة) كعامل تماسك لأهل المدينة أيضًا، بعدما تبيَّن من سورة

---

(١) كدافع إضافي، وباعتبار وحدة الأسرة وتأثُّرها ماديًا ومعنويًا بعقوبة فرد منها (خاصة ربّ البيت) سواء بالموت أو الإجلاء.

فاطر قاعدة: الاتفاق مع أهل الكتاب على أصل الرسالة ونزول الوحي على الأنبياء كقَدْر أوليّ مشترك بيننا هو عامل جَمعٍ مع الآخر (من أهل الكتاب).

لقد خطَّت تلك الوثيقة خطوطًا عريضة في الترتيبات الدستورية، وهي أول وثيقة في الإسلام، تُسجَّل وتُنفَّذ في أقوام كانوا منذ قريب وقبل الإسلام أسرى العصبية القبلية، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة، والتسلُّط وبالتخَوُّض في حقوق الآخرين وأشيائهم»[1]. فأدرات شؤونهم هذه الوثيقة على نحوٍ مختلف عن بقية ساكني الجزيرة، ووجَّهتهم ونقلتهم إلى الحضارة بقِيَمها السامية.

وأما بالنسبة للمسلمين غير المقيمين في المدينة، والذين ورد ذكرهم في خاتمة سورة الأنفال، فقد ورد في عدد من الروايات تسمية النبيّ ﷺ لبيعتهم: بيعة أعرابية[2]، وهي التي

---

(١) د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٣٣٤، بتصرُّف.

(٢) فـ«عن عقبة بن عامر قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا في غنم لي أرعاها فتركتها ثم ذهبت إليه فقلت: تبايعني يا رسول الله؟ فقال: ممَّن أنت؟ فأخبرته، فقال رسول الله ﷺ: أيَّما أحبُّ إليك؟ أبيعة هجرة أو بيعة أعرابية؟ فقلت: بيعة هجرة، فبايعني». الطبراني، **المعجم الكبير**، ١٧: ٣٠٤، ح: ٨٣٩. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف، وشيخه معروف بن سويد لم أرَ مَن ترجمه. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب العلم، باب علم النسب، ١: ١٩٥، ح: ٩٤٠، بتصرُّف. وقال الطحاوي: «البيعة من المهاجر توجب عليه الإقامة بدار الهجرة عند رسول الله ﷺ ليتصرَّف فيما يصرفه فيه رسول الله ﷺ من أمور الإسلام، والبيعة الأعرابية بخلافها مما لا يوجب الإقامة على أهلها عنده». الطحاوي أحمد بن محمد، **شرح مشكل الآثار**، ٤: ٤٢٧، ح: ١٧٢٤. و«كان رسول الله ﷺ [ـ فيما بعد ـ] إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصَّته بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «... وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيَّتهنَّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنَّهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحوَّلوا منها فأخبرهم =

لا تستلزم تغيير محلّ الإقامة إلى المدينة والخضوع لصحيفتها من حيث الحقوق والواجبات. بل ربَّما استفاد النبيُّ ﷺ من هذه البيعة أن يعود المبايعون إلى قومهم ليُعلِّموهم الإسلام. وفي هذا السماح لهم بالإقامة خارج المدينة وعدم إيجاب الهجرة عليهم دلالة على أنَّ «سبب الهجرة هو لِخَوف الفتنة، وأنَّ مقتضى الحكم في ذلك يتعلَّق بمدى قدرتهم على عبادة الله»(١) في سكناهم خارج المدينة دون استضعاف بفتنة الإكراه والتعدِّي على حريَّاتهم، فإذا اضطُهِدوا وجبت الهجرة عليهم، كما ستأتي آيات من سورة النساء للدلالة على ذلك.

إذا كانت آيات سورتَي البقرة وآل عمران، وصحيفة المدينة، قد تعرَّضت للحوار العَقَدي (بالدعوة إلى الإسلام) مع أهل الكتاب، وللعلاقة السياسية ـ الحربية مع اليهود في المدينة، فإنَّ ذلك لا يختزل بُعدًا اجتماعيًا رافق العلاقة بين المسلمين واليهود في المدينة على مدى السيرة النبوية كالمجالس المشتركة(٢)، والعلاقات الأُسرية(٣)، ودعوات

= أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذى يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. . . .». **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيَّته إياهم بآداب الغزو، ٣: ١٣٥٧، ح: ١٧٣١.

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ٧: ٢٢٩، ح: ٣٦٨٧، بتصرُّف.

(٢) كما مرَّ ص٣٧١ من اللقاءات المشتركة بين المشركين والمسلمين واليهود (والتي كان لابن أُبيّ ابن سلول دور إحداث القلاقل فيها). **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة آل عمران، ٤: ١٦٦٣، ح: ٤٢٩٠، بتصرُّف.

(٣) كما في قوله تعالى عن الآخر ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وعن الزواج بأهل الكتاب: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ﴾ [المائدة: ٥].

الطعام[1]، وعيادة المرضى والعمل في خدمة الآخر[2]، والتزاور، رجالاً ونساء[3]. ممَّا يُؤكِّد بشكل قاطع وجليٍّ الفارق بين تحديد الموقف الديني من الآخر، وتحديد الموقفَين السياسي - الحربي والاجتماعي منه بالتحالف معه وإقامة علاقات التواصل والتحاور العامة.

غزوة أُحد:

بعد عامٍ من بدر، كانت قريش تتحضَّر «للثأر لقتلاها ببدر، وإنقاذ طرق التجارة إلى الشام من سيطرة المسلمين، واستعادة مكانتها عند العرب بعد أن زعزعتها موقعة بدر»[4]. حينها، «كتب العباس بن عبد المطلب ﷺ بخبرهم كلِّه إلى رسول الله ﷺ، فأخبر رسول الله ﷺ سعد بن الربيع ﷺ [أحد نقباء الخزرج] بكتاب العباس، وأرجف المنافقون

(١) فعن أنس ﷺ، أن يهوديًا دعا النبيَّ ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة، فأجابه. أحمد بن حنبل، **المسند**، ٢٠: ٤٢٤، ح: ١٣٢٠١. ومحمد بن حبان، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، ١٢: ١٠٣، ح: ٥٢٩٣. واللفظ لأحمد.

(٢) فعن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبيَّ ﷺ، فمرض، فأتاه النبيُّ ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أسلِم». فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أَطِع أبا القاسم ﷺ. فأسلَم، فخرج النبيُّ ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار». **صحيح البخاري**، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، ١: ٤٥٥، ح: ١٢٩٠، بتصرُّف. فكان يقبل النبيُّ ﷺ خدمةَ غير المسلمين له، وكان يزورهم، ولكنَّه أيضًا كان كما عهدناه طيلة سيرته ﷺ، لا ينسى مهمَّته الدعوية أنَّه رسول من الله داعيًا إلى دينه.

(٣) فقد ذكرت أمّ المؤمنين السيدة عائشة ﷺ أنَّ إحدى اليهوديات من بني قريظة كانت عندها تتحدَّث معها وتضحك. **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، ٣: ٥٤، ح: ٢٦٧١. وأحمد بن حنبل، **المسند**، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق ﷺ، ٤٣: ٣٨٣، ح: ٢٦٣٦٤. والحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب المغازي والسرايا، ٣: ٣٨، ح: ٤٣٣٤، وصحَّحه.

(٤) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٣٧٨، بتصرُّف.

واليهود بالمدينة. كما استعدَّ النبيُّ ﷺ بإرسال العيون لاستقصاء الأخبار وحِراسة المدينة»[١]. وقد رأى النبيُّ ﷺ رؤيا فقال: «إني رأيت أني في درع حصينة فأوَّلتها المدينة، وأني مردف كبشًا فأوَّلته كبش الكتيبة، ورأيت أن سيفي ذا الفقار فُلَّ فأوَّلته فَلًّا فيكم، ورأيت بقرًا تذبح، فبقر والله خير، فبقر والله خير»[٢]. وقال لأصحابه: «لو أنَّا أقمنا بالمدينة، فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم. فقالوا: يا رسول الله، والله ما دُخِل علينا فيها في الجاهلية، فكيف يُدخَل علينا فيها في الإسلام؟ فقال: شأنكم إذًا[٣]. فلبس لَأْمَتَهُ [أي: درعه]. فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه. فجاؤوا فقالوا: يا نبي الله، شأنك إذًا. فقال: إنه ليس لنبيّ إذا لبس لَأْمَتَهُ أن يضعها حتى يُقاتل»[٤].

وبذلك يتبيَّن أنَّه: كما كان النبيُّ ﷺ يُقدِّم الشورى على رأيه كما سبق في بدر، كذلك قدَّم رأي الأغلبية على رأيه (ولو كان مدعَّمًا بمرجِّح ديني كرؤيا نبوية). بل أقرَّه وحسمه بعد أن شرع بالتنفيذ رافضًا التردُّد فيه ولو تردَّدوا أدبًا. وهذه من الآليات الأساسية في إدارة التعدّدية السياسية.

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب غزوة رسول الله ﷺ أُحدًا، ٢: ٣٧، بتصرُّف.

(٢) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب قسم الفيء، ٢: ١٤١، ح: ٢٥٨٨. وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٣) «كانت تتلخَّص دوافع الراغبين في الخروج بإظهار الشجاعة أمام الأعداء، وبرغبة الذين فاتتهم المشاركة في غزوة بدر أن يشاركوا في موقعة مماثلة. أما رأي الرسول ﷺ ومَن وافقه فمبني على الإفادة من حصون المدينة في الدفاع مما يُقلِّل من خسائر المدافعين ويزيد من خسائر المهاجمين، ثم الإفادة من طاقات سائر السكان حتى الذين لا يستطيعون القتال في الميادين المكشوفة من النساء والصبيان». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٣٨٠، بتصرُّف.

(٤) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ٢٣: ٩٩-١٠٠، ح: ١٤٧٨٧. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسِّيَر، باب فيما رآه النبي ﷺ في المنام ممَّا يتعلَّق بأُحد، ٦: ١٠٧، ح: ١٠٠٥٧.

وبذلك «يتَّضح أنَّ الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التفكير في الشأن العام والتصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى لو خالفت رأيه، لأنَّه لا فائدة من مشورة لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لَامَ الرسول ﷺ أحدًا؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفَّق في رأيه»[١]. وهذا من أهمّ مظاهر الإدارة السليمة للتعدّدية السياسية.

وكما فَعَلَ النبيُّ ﷺ في بدر فَعَلَ في أُحد، فقد رَدَّ مَن استصغره [دون ١٥ عامًا][٢]، ورفض الاستعانة في القتال بالمشركين على المشركين. غير أنَّ مخيريق الحَبر العالم الغني من اليهود شارك في الغزوة وقال لقومه: «يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أنَّ نصر محمد عليكم لحقّ. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. ثمَّ أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأُحُد. وعهد إليه مَن وراءه من قومه: إن قُتِلتُ هذا اليوم فأموالي لمحمد يصنع فيها ما أراه الله. وقد قُتِل في الغزوة، وقال عنه رسول الله ﷺ: مخيريق خير يهود»[٣].

و«لما خرج النبيُّ ﷺ إلى أُحُد، رجع ناس ممَّن خرج معه»[٤]. لقد انسحب عبد الله بن أبيّ ابن سلول بثلاث مئة من المنافقين، مدَّعيًا أنه لن يقع قتال مع المشركين!! ومُعتَرِضًا على قرار الرسول ﷺ بالخروج بقوله: أطاعهم وعصاني[٥]. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ﴾ [آل عمران: ١٦٧][٦]، فكان التمييز بين المؤمنين والمنافقين الجدد قبل بداية الغزوة، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩][٧].

---

(١) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٣٨٠، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة أُحد، ٢: ٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ١: ٥١٨، بتصرُّف.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، ٤: ١٤٨٨، ح: ٣٨٢٤.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة أُحُد، ٢: ٦٤، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، غزوة أُحُد، ٢: ١١٨، بتصرُّف.

(٧) الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٧: ٤٢٤ ـ ٤٢٥، بتصرُّف.

هذا الانسحاب الذي لم تترتَّب عليه عقوبات لاحقة، هو مظهر آخر للإدارة السليمة للتعدّدية السياسية في احتفاظها للمعارَضة بحقّ الاختلاف معها، رغم لزوم التِزامها بما توافقت عليه الجماعة بحضورها، وسيظهر تِباعًا استمرار هذا التصرُّف في المنافقين. لكن، هذا الانسحاب نفسه كان له أثر على معنويات مجموعات قَبَلية من الجيش، فهمَّت بنو سلمة وبنو حارثة بالرجوع عن ضعف ووهن عن غير شَكٍّ في دينهما، فتولَّى الله دَفْعَ ذلك عنهما حتى سَلِمَتا من وهونهما وضعفهما ولَحِقتا بنبيهما ﷺ[١].

جعل النبيُّ ﷺ على الرجَّالة [أي: المُقاتِلين الذين لا خَيل لهم] ـ وكانوا خمسين رجلاً ـ عبدالله بن جبير رضي الله عنهما[٢]، وقال له: «انضَح عنَّا الخَيل بالنَّبل، لا يأتوننا من خَلفِنا، وإن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نُؤتَيَنَّ من قِبَلِك»[٣]. ووضعهم على جبل صغير مُشرِف على المعركة، يُخشى ترك حمايته فيكون ثغرة يدخل منه الأعداء لتطويق المسلمين في المعركة. «وقال [للرجَّالة]: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أُرسل إليكم. فهزموهم»[٤] أي: هزم المسلمون المشركين.

حينها، «قال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، أي قومِ الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لَنَأتينَّ الناس فلَنُصيبنَّ من الغنيمة. فلما أتَوهم [أي: أتى المشركون المسلمين] صُرِفت وجوههم

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٧: ١٦٦، بتصرُّف.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب ما يُكره من التنازع والاختلاف، ٣: ١١٠٥، ح: ٢٨٧٤.

(٣) البيهقي، **دلائل النبوة**، أبواب مغازي رسول الله ﷺ، باب كيف كان الخروج إلى أُحُد والقتال بين المسلمين والمشركين يومئذ، ٣: ٢٢٤.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب ما يُكره من التنازع والاختلاف، ٣: ١١٠٥، ح: ٢٨٧٤.

فأقبلوا منهَزمين. فذاك إذ يدعوهم الرسول في أُخراهم، فلم يبقَ مع النبيّ ﷺ غير اثنَي عشر رجلاً، فأصابوا منَّا [أي: المسلمين] سبعين»(١). وسيأتي مزيد بيان عند استعراض آيات سورة آل عمران.

لقد انكشف المسلمون بانسحاب الرماة، فأصاب فيهم العدوّ وأوجَعوا في المسلمين قتلاً ذريعًا وولَّى مَن ولَّى منهم يومئذ(٢)، فقد أصبحوا بين قتيل وجريح ومُنهَزِم جهدَته الحرب ما يدري ما يصنع(٣).

كان «الرسول ﷺ عند هذه المباغتة في مؤخرة المسلمين، فاختار ـ رغم المخاطرة بنفسه ـ أن يرفع صوته ليجمع أصحابه حوله كجبهة قوية، دون أن يختار الانسحاب بنفسه بسريَّة أو بأفرادٍ قِلَّة حوله إلى ملجأ مأمون، ولكنَّ ذلك كشف مكانه للمشركين فخَلَصوا إليه»(٤).

هنا، أُشيع مقتل النبيّ ﷺ، فتمايَزت مواقف المسلمين: فمنهم مَن أُصعد (فرارًا نحو الجبل) لا يلوون على أحد (أي: دون التفات)، ومنهم مَن استبسل في القتال للشهادة، سواء ممَّن ظنَّ مقتل النبيّ ﷺ أم ممَّن ثبت مع النبيّ ﷺ مُدافعًا عنه، ومنهم مَن لحق برسول الله ﷺ(٥) فدافعوا عنه وصعدوا معه الجبل، ثمَّ عادوا إلى المدينة.

بات النبيُّ ﷺ مساء ذلك اليوم وبات المسلمون يداوون جراحاتهم. فلمّا صلَّى رسول الله ﷺ الصبح من اليوم التالي، أَمَرَ بلالاً أن يُنادي أنَّ رسول الله يأمركم بطلب عدوّكم، ولا يخرج معنا إلا مَن شهد القتال بالأمس. وخرج الرسول ﷺ والمسلمون على ما بهم من جراحات حتى عسكروا بحمراء الأسد، وأوقد المسلمون الليالي خمس مئة نار

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب ما يُكره من التنازع والاختلاف، ٣: ١١٠٥، ح: ٢٨٧٤.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة رسول الله ﷺ أُحدًا، ٢: ٤١، بتصرُّف.

(٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٢: ٥١٤، بتصرُّف.

(٤) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٢٤٨ ـ ٢٤٩، بتصرُّف.

(٥) الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٧: ٢٥٥، بتصرُّف.

حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، فكبت الله تبارك وتعالى بذلك عدوَّهم»[١]، فلم يعمد العدوّ لاجتياح المدينة كما كان مُحتَمَلاً.

هذا، وقد كان رسول الله ﷺ في مسيره إلى حمراء الأسد قد ظفر بأبي عزّة الجمحي[٢]، وهو الأسير الوحيد له من قريش في هذه الغزوة. فقال: إنَّما أُخرِجت كُرهًا ولي بنات فامنُن عليَّ. فقال رسول الله ﷺ: أين ما أعطيتني من العهد والميثاق؟ [بعد أن كان منَّ عليه في بدر وعاهده أن لا يُعِن أحدًا عليه، ثمَّ أعان أبو عزّة قريشًا بشِعره في بني كنانة لاستنفارها وتحريضها إلى حرب النبيّ ﷺ][٣].. فقال ﷺ له: «إنَّ المؤمن لا يُلدغ من جُحْرٍ مرَّتَين»، وأمر بضرب عنقه[٤].

وكما كانت لغزوة بدر تَبِعات داخل المدينة، بخضوع المنافقين واليهود لوقعة بدر، فكذلك كانت لما حدث في غزوة أُحد تَبِعات مُخالِفة لها. فقد «أخذ المنافقون عند بكاء المسلمين في المكر والتفريق عن رسول الله ﷺ وتخذيل المؤمنين، وظهر غشّ اليهود، وفارت المدينة بالنفاق، وأظهروا النفاق والغشّ عند بكاء المسلمين ما كانوا مستخفين، وقالت اليهود: لو كان نبيًا ما ظهروا عليه، ولا أُصيب منه ما أُصيب، ولكنه طالِب مُلك تكون له الدولة مرة وعليه مرة، وكذلك أهل طلب الدنيا بغير نبوّة. وقال المنافقون نحو قولهم، وقالوا للمسلمين: لو كنتم أطعتمونا ما أصابوا الذي أصابوا منكم. أي: تحجُّجًا بآلية إدارة التعدّدية السياسية التي ذهبت نتيجتها باتجاه الخروج إلى أرض المعركة، وليس بالأخطاء التي ارتُكِبَت في أرض المعركة.

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة رسول الله ﷺ حمراء الأسد، ٢: ٤٩، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة أُحد، ٢: ١٠٤، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ٢: ٦١، بتصرُّف.

(٤) البيهقي، **السنن الكبرى**، كتاب السير، باب ما يفعله بالرجال البالغين منهم، ٩: ١١١، ح: ١٨٠٢٩، بتصرُّف.

□ وقد «أنزل الله تبارك وتعالى في يوم أُحُد من القرآن **ستُّون آيةً من آل عمران**[١] [ـ تُضاف إلى ما سبق أن نزل من السورة بعد بدر كما تبيَّن ـ] فيها صفة ما كان في يومهم ذلك، ومعاتبة مَن عاتب منهم»[٢]، وفيها: ذكر تثبيت الله عز وجل للمجموعتَين القبليَّتَين، وتذكيره المؤمنين بنصره في بدر، وإمداده بالملائكة عند الصبر والتقوى لتحقيق القتل أو الخيبة عند الذين كفروا، مع استمرار وجود احتمالَي التوبة عليهم أو تعذيبهم على ظلمهم. ثمَّ نهى الله الذين آمنوا عن أكل الربا الفاحش (الناشئ عن مضاعفة الديون في العادة) باعتباره «زيادة في الأعراض الدنيوية التي هي معنى الربا في اللغة، وهو بذلك يُشكِّل مقتضى الخذلان في أُحُد بسبب إقبالهم على الغنائم، مع أنَّ المطلوب من المؤمنين بذل المال وليس الإقبال عليه»[٣]. ووجَّهتهم الآيات إلى التقوى، وطاعة الله ورسوله، والمسارعة إلى المغفرة والجنة بالإنفاق في السراء والضراء (مقابل طلبهم للغنائم)، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، والاستغفار دون إصرار على الذنوب.

وتبدأ الآيات بمواساة المؤمنين فيما حدث لهم بكونه من **السنن** في التدافع بين المؤمنين والمكذِّبين الذي ينتهي بهلاك المكذِّبين. وعلى المؤمنين أن لا يهنوا أو يحزنوا، بل يعلموا أنَّهم الأعلون عند إيمانهم، وأنَّها مُداوَلة بين النَّاس لتمييز المؤمنين، واتِّخاذ

---

(١) هذا هو الموضع الثاني لسورة آل عمران، والذي يحوي القسم الخامس في عرض مجريات غزوة أُحد (٣هـ)، وهي الآيات (١٢١ ـ ١٧٩).

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر ما أنزل الله في أُحُد من القرآن، ٢: ١٠٦. وقد عرضها ابن هشام مع التعليق عليها من الآية (١٢١) حتى الآية (١٧٩). وقد وردت إشارات حول آياتها بأنَّها وصف لما حدث يوم أُحد كما أشار ابن عباس رضي الله عنهما، ورجَّحه الطبري. الطبري، **جامع البيان**، سورة آل عمران، ٧: ١٥٩ ـ ١٦١، بتصرُّف.

(٣) البقاعي، **نظم الدرر**، سورة آل عمران، ٥: ٦٣، بتصرُّف.

الشهداء منهم، واختبارهم في الجهاد والصبر، ومَحقًا للكافرين. وتَعرِض الآيات اختلاف موقفهم عند إشاعة مقتل النبيّ ﷺ مُعلِنة أنَّها لا تقتضي انقلابًا على أعقابهم، كما وتُثني الآيات بالمقابل على الصحابة الذين صبروا مع النبيّ ﷺ وطلبوا من الله المغفرة والثبات والنصر دون وَهَن أو ضعف أو استكانة. وتنهى الآيات المؤمنين عن طاعة الذين كفروا المؤدِّية بهم إلى الرِّدَّة والخسارة، وتُعلِمهم بأنَّه سيُلقي في قلوب الذين كفروا الرعب كوعد قادم، مقابل تحقُّق وعد سابق لهم بقتلهم المشركين في الغزوة.

وتستكمل الآيات عرض التمايز في المواقف الذي تمَّ بينهم بعد معصية الرماة للأمر النبوي ونزولهم من الجبل، بأنَّها أظهرت اختلاف إراداتهم بين دنيا (الغنيمة) وآخرة (القتال)، وما تبعه بعد إشاعة مقتله ﷺ من صعودهم إلى الجبل دون التفات، فكان جزاؤهم كربًا ثانيًا (بظنِّهم مقتل النبيّ ﷺ) ليغلب على كربهم الأول (بحزنهم على حرمان الغنيمة والنصر وما أصابهم من القتل والجراح)، فهان الكرب الأول عندهم أمام عِظَم موضوع الإشاعة.

ثمَّ أنزل الله على المؤمنين منهم أَمَنَة النعاس، وبقيت مجموعة ممَّن كان معهم (أهمَّتهم أنفسهم) فشكَّكوا ـ خُفية فيما بينهم ـ في تحقُّق وعد الله بالنصر، فكان اختبارًا لحقيقة ما في صدورهم.

ثمَّ تنتقل الآيات إلى الذين تولَّوا من الجيش وعادوا أدراجهم فارِّين بأنَّ الله عفا عنهم.

ويأتي الإعلام بأنَّ ما قدَّره الله من القتل أو الموت في هذا اليوم واقع لا محالة، فنهى المؤمنين عن التشبُّه بالكفار في التحسُّر على ما حدث. وتعود الآيات إلى النبيّ ﷺ لتأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم واستمرار مشاورتهم (كآلية صحيحة في إدارة التعدّدية السياسية لا تتعلَّق بها نتيجة المعركة)، مع التوكُّل على الله بعد العزم. والإعلام بأنَّ النَّصر من الله وحده، وأنَّ عليهم تجنُّب «موجبات الخذلان»[1] (الخيانة في الغلول من الغنائم)،

---

(١) البقاعي، **نظم الدرر**، سورة آل عمران، ٥: ١٠٩، بتصرُّف.

لأنَّه لا مساواة بين مَن يتَّبع رضوان الله ومَن باء بسخطه. فعليهم بالتالي الالتزام بهدي النبيّ ﷺ في تلاوته الآيات عليهم وتزكيتهم وتعليمهم الكتاب والحكمة (وهي نِعمة مَنَّ الله عليهم بها).

ثمَّ ذكر الله تمايزًا آخر حدث في غزوة أُحد، وهو تمايز الذين نافقوا عن المؤمنين، والذين برَّروا انسحابهم من الجيش بعدم وجود قتال، فأصبحوا بكذبهم ذلك أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان.

وأعلم الله نبيَّه ﷺ جزاء الشهداء في كونهم أحياء عند ربِّهم يُرزقون، فرحين مُستبشرين.

واستكملت الآيات خبر مَن خرج في غزوة حمراء الأسد بكونهم استجابوا لله والرسول من بعد الجراحات، وأنَّ جزاء مَن أحسن منهم واتَّقى عظيم، وهم مَن ازدادوا إيمانًا وقالوا: حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل، عندما علموا بخبر الاجتياح الممكن. ثمَّ انقلبوا بنعمة من الله وفضل واتَّبعوا رضوان الله، ولم يخافوا إلا الله.

وتُختَم الآيات بالتوجُّه إلى النبيّ ﷺ بعدم الحزن على مَن يُسارعون في الكفر (من المنافقين الجدد)، وكونهم لن يضرّوا الله شيئًا، بل هم الخاسرون في الآخرة لاستبدالهم الإيمان بالكفر. وفي هذا الواقع تمييز للخبيث من الطَّيِّب (في خطابٍ مُشابه لنوعية الخطاب عند بداية ظهور منافقي مكة في سورة العنكبوت).

➢ وهكذا، أوصلتنا إدارة التعدّدية المجتمعية في نهاية هذه المرحلة من العهد المدني إلى النتائج التالية:

• **أما التعدّدية العَقَدية**: فبدأ الحوار مع أهل الكتاب على قاعدة التوحيد ووحدة الرسالات السماوية بهدف دعوتهم إلى الإسلام، وبالتوازي تمَّ إقرار الحرية الدينية للجميع.

• وأما **التعدّدية الثقافية**: فتظهر في اختلاف دوافع جيش المدينة بين الدنيا والآخرة، سواء من المنافقين أم من بعض المسلمين. ثمَّ كانت الانتكاسة مآل الثقافة الخاطئة (افتقاد أو ضعف الإيمان).

• وأما **التعدّدية السياسية**: فلم تتمّ خيانة العهد مع الطرف المثير للقلق، بل تمَّ الإعلان المسبق بإنهاء العهد. وتمَّ تنفيذ أحكام القتل الفردي لكلِّ ناقض لعهده، مع وجود إعفاءات جماعية مع الإجلاء. كذلك، تمَّ وضع منظومة وفاقية متكاملة تجمع جميع مكوِّنات المدينة حول حقوقهم وواجباتهم ودورهم في إدارة النزاعات الداخلية والخارجية، حيث تمَّ الانطلاق من الدوافع الإيمانية (للمسلمين ولأهل الكتاب) ضمانة لتنفيذ الجماعات أدوار التكافل والعدالة فيما بينهم والحماية لبلدهم من العدوّ الخارجي (عامل الجمع مع الآخر في الداخل) والالتزام بالتحالفات المتجانسة مع مقاصد المنظومة. وتمَّ تنسيق حرية الفرد مع مصلحة الجماعة، في الوقت الذي تحفَظ للفرد حقَّه بالمشاركة. وتمَّ انضباط هذه الإدارة بحدود المجتمع نفسه. وقد أكَّدت الآيات على الفصل بين آلية الشورى الصحيحة في المشاركة وأخذ القرار بالأغلبية، وبين النتائج السلبية المحتَمَلة من القرار، مع احتفاظ المعارضة بحقِّها في الاختلاف بالرأي.

وأما **التعدّدية العرقية**: فكانت أحد أسباب عدم الإيمان بالنبيّ العربي. وقد تمَّ التعامل مع اليهود في الصحيفة من جانبهم الديني من جهة، والتأكيد على التأصيل الشرعي من الأب المشترك بين المسلمين واليهود (إبراهيم عليه السلام) في الحوارات الدعوية من جهة أُخرى. ويُلحَق بالتعدّدية العرقية التعددية القَبَلية باعتبار الانتماء، فقد حدثت محاولات يهودية، دافعها عرقيّ، وهدفها سياسيّ، أسلوبها إحياء الانقسامات القَبَلية بذكر الحزازات التاريخية (الذاكرة الجماعية السلبية للمجتمع). فكان التوجيه النبوي بوحدة تسمِيَتهم الإيمانية (التي تعلو على بقية الروابط وتضبط العدل فيها)، واعتماد الذاكرة الجماعية الإيجابية للمجتمع بالاعتبار والبناء.

وأما **التعدّدية الطبقية**: فإنَّ المنظومة الوفاقية أكَّدت على دور التكافل لجماعات المجتمع فيما بينها، الأمر الذي يُحقِّق تساند الطبقات. وأشارت آيات «آل عمران» إلى منع الغلول والربا (دفعًا للأنانية والاستغلال).



خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة:	السابعة	السابعة
	السور:	آيات من سورة آل عمران	آيات من سورة آل عمران
	الزمن:	٢ هجرة	٣ هجرة
	الأحداث:	دعوة أهل الكتاب وبداية ظهور النفاق بعد نصر بدر	غزوة أحد (٣هـ)
	الهدف:	دعوة أهل يثرب (ومعهم أهل الكتاب)	استكمال التدافع العسكري مع قريش
الفعل	الموضوع / الإجراء	الاستشهاد بهزيمة المشركين عند دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وتقديم نعيم الجنة على زينة الدنيا، إقرار الإسلام دين الله، ودعوتهم إلى كلمة سواء بتوحيد الله وعدم اتخاذ الأرباب من دونه	التزام الشورى بحرية التعبير في الشؤون العامة وتقديم رأي الأغلبية بحَسم
	الأسلوب:	الحوار	الحوار مع الداخل والقتال مع الخارج
	الإطار:	مجتمع بسلطة إدارته (دولة وشوكة)	عسكري
	المخاطَب	أهل يثرب	أهل يثرب
	الضمانة	منعة إيمانية ببيعة وموادعة مع اليهود وعهود مع أعراب خارج المدينة	منعة إيمانية ببيعة وصحيفة مع المسلمين واليهود وعهود مع أعراب خارج المدينة
ردة فعل قريش	الاتجاه العام		تشويه الدعوة ومنع حرية انتشارها، واستكمال التحضير لمواجهة المسلمين في المدينة
	الأسباب		الحفاظ على الاقتصاد (حرية التجارة في الجزيرة)، وعلى دينهم الذي يحفظ نظامهم المتوارث، والانتقام لقادتهم المقتولين في غزوة بدر (٢هـ)
	الوسائل		القتال

الاستجابة				التجهيز للقتال والخروج إلى الغزوة	
ردة فعل مرضى القلوب/ المنافقين	الاتجاه العام			رفض الخروج من يثرب	
	الأسباب			عدم وجود دافع إيماني للقتال	
	الوسائل			الانسحاب قبل الوصول إلى أرض المعركة	
الاستجابة				تثبيت الله للمجموعتَين القبليَّتَين من المؤمنين اللَّتَين فكَّرتا بالانسحاب	
ردة فعل المؤمنين	الاتجاه العام			الانهزام في الغزوة	عدم وحدة الأفعال الصادرة من المؤمنين
	الأسباب			اختلاف الإرادات بين الرغبة في الدنيا (الغنيمة) أو الرغبة في الآخرة (القتال)	إشاعة مقتل النبيّ ﷺ
	الوسائل			معصية الرماة	الاختلاف بين صعود الجبل، والاستبسال في القتال، والثبات مع النبي ﷺ، واللحاق به
الاستجابة				التذكير بنصر الله في بدر، والأمر بالتقوى وطاعة الله ورسوله ﷺ والمسارعة إلى المغفرة والجنة بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو والاستغفار دون إصرار على الذنوب، ومواساة المؤمنين وكونهم الأعلون	الثناء على مَن صبر مع النبيّ ﷺ وطلب المغفرة والثبات، والنهي عن طاعة الذين كفروا، والوعد بإلقاء الرعب في قلوبهم، والعفو عن الفارّين طلب عدم التحسُّر على ما حدث، وأمر النبيّ ﷺ بالعفو عنهم والاستغفار لهم واستمرار مشاورتهم، والتوكل على الله والإعلام بأن النصر منه، وتجنب موجبات الخذلان بالخيانة، والالتزام بالهدي النبوي، والتبشير بجزاء الشهداء، وأمر النبيّ ﷺ لمَن شارك معه في الغزوة بالخروج في اليوم التالي إلى ميدان المعركة (لمواجهة الهزيمة النفسية)

ردة فعل اليهود	الاتجاه العام	عدم الإيمان بالنبي ﷺ	
	الأسباب	الحسد والغرور	
	الوسائل	الإعراض عن الاحتكام إلى التوراة لبيان الحق والإسلام، ونسبة إبراهيم عليه السلام إلى اليهودية، والسعي لإثارة الفتن والرفح بما يُصيب المؤمنين من السيئات، واعتداء (بني قينقاع) على المؤمنات والمؤمنين، وعمالة (بني النضير) لقريش، التحريض الفردي على النبي ﷺ وشتمه	
الاستجابة		عدم اتخاذ اليهود أولياء إلا لتجنُّب كيدهم وعدم طاعتهم أو اتخاذهم بِطانة، وتذكير الجميع بيوم القيامة لتقويم السلوك في الدنيا، والإعلام بأحقية النبيّ ﷺ والمؤمنين بإبراهيم، والتحذير من محاولات إضلالهم، وإنصاف اليهود بأنَّ منهم الأوفياء ومنهم الخونة بتبرير عنصري قومي، والاعتصام بالله وتقواه وعهده ولزوم الجماعة، وتخصيص أمة منهم للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطمأنة المؤمنين بأن اليهود لن يضرُّوهم إلا أذى، والرَّدّ على بخلهم ونسبتهم الفقر إلى الله، ورفض طلبهم المعجزات بكونهم قتلوا رسلهم، وأمر المؤمنين بالصبر والتقوى على امتحان الله لهم في الأموال والأنفس وسماع الأذى، وإجلاء بني قينقاع بعد حصارهم، وإهدار دم مَن قُتِل من المحرِّضين لنقضه العهد بإعلان خروجه من دائرة الأمان، ثمَّ الطلب العام لَمن يتطوَّع لكفاية أمر المحرِّض، ثمَّ كتابة صحيفة الصلح (النظام داخلي في شؤون الجنايات والحرب والمعاهدة حربية) عبر اعتماد: رابطة دستورية للجميع، ودينية وفق الإقامة للمجموعات، وانتمائية للواجبات الجنائية، والإيمانية الأخلاقية كدافع للالتزام، والاتفاق على العدوّ المشترك في الخارج وعلى المبادئ المشتركة في الداخل، ودور الجماعة بالمسؤولية، ودور السلطة بالقضاء بين الناس.	

تميز مكونات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي :	داخلي	خارجي (تدافع عسكري)
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة) :	المدينة : المؤمنون، المشركون، اليهود، مرضى القلوب (مشروع منافقين)	المدينة : المؤمنون (بين إرادة دنيا وآخرة)، والذين نافقوا
	مظاهر الاختلاف فيها	انتمائي، خُلُقي	خُلُقي
	التميز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث) :	التميز في الاستجابة للدعوة بعد نصر بدر	التميز بين المؤمنين والمنافقين الجدد تميز المؤمنين بإظهار اختلاف إراداتهم بين دنيا وآخرة
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا :	قوة	ضعف
	حركة/ جمودًا :	حركة	حركة
	نوعًا/ عددًا :	نوع وعدد	نوع



المبحث الثاني: التنظيم الداخلي عند التدافع النفسي

كان لمأساة أُحُدٍ أثر سَيِّئ على سُمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هَيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية علهم، وأحاطَت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشَف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمَّت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت في أن تقضي عليهم وتستأصل شَأْفَتهم[1]. إضافة إلى ما سبق، بدأ النبيُّ ﷺ بعد غزوة أُحُد يستقبل الشكاوى في قضايا الأحوال الشخصية والمواريث، فيُنظِر أصحاب القضايا بعد الاطّلاع عليها حتى ينزل عليه الوحي بتغيير الأعراف الخاطئة التي تهضم حقوق المستضعفين في المجتمع.

❏ في هذه المرحلة المدنية، نزلت **آيات من سورة النساء**[2] وفيها دعوة جميع الناس

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٢٧٤، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري وأبي جعفر النحاس والحارث المحاسبي) على كونها مدنية. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) أنَّها نزلت بين سورتَي الممتحنة والزلزلة.

ولكن، تُوجِّهنا دراسة روايات أسباب نزول آياتها ـ كما سيتبيَّن ـ إلى بداية نزول آياتها بعد غزوة أُحد (٣هـ)، وإمكانية تقسيمها إلى عشرة أقسام: (الآيات ١ ـ ٢٢) صدر السورة في أحكام اليتامى والمواريث بعد غزوة أُحد (٣هـ)، و(الآيات ٢٩ ـ ٥٨) استكمال المواريث والحوار مع اليهود، و(الآيات ٦٠ ـ ١٠٠) عرض أحوال المستبطِئين في اللحاق برسول الله ﷺ من منافقي المدينة ومكة والتأكيد على الطاعة والتسليم ـ لجبر سبب الضعف في أُحد (٣هـ) ـ والتوجيه لكيفية التعامل معهم، و(الآيات ١٠٤ ـ ١٧٠) استكمال الحديث عن المنافقين والرَّدّ عليهم وعلى اليهود، و(الآيات ١٧١ ـ ١٧٣) الرَّدّ على غلوّ أهل الكتاب، و(الآيات ١٧٤ـ ١٧٦) استكمال آيات الأحكام، و(الآيات ١٠١ ـ ١٠٣) أحكام صلاة الخوف (٦هـ)،

=

لتقوى الخالق، والأمر للأوصياء بإيتاء اليتامى أموالهم وإيتاء النساء مهورهنَّ[١]، وحِفظ المال من السفهاء. وتؤسِّس الآيات لاستحقاق الرجال والنساء نصيبًا من الميراث[٢]،

= و(الآيات ٢٣ ـ ٢٨) بعد غزوة حنين (٨هـ)، و(الآية ٥٩) حول إحدى سرايا عام (٩هـ). وقد فضَّلت أن أعرض هنا (في الموضع الأول من السورة) القسمَين الأول والثاني، وتأجيل بقية الأقسام إلى أمكنتها من السرايا والغزوات والحوارات. ومع إمكانية إلحاق الأقسام الثالث والرابع والخامس والسادس بالقسمَين الأول والثاني، إلا أنَّ مجموعة من العوامل ـ أعرضها في هامش الموضع الثاني لسورة النساء ـ رجَّحت الفصل بينهما بسورة الحشر التي تتناول غزوة بني النضير (ربيع الأول ٤هـ). لذلك وضعت الموضع الأول للسورة بين آيات سورة آل عمران التي تتناول غزوة أُحد (شوال ٣هـ)، وبين سور الطلاق والبينة والحشر.

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: «النساء كاليتامى في الضعف والعجز». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة النساء، ص١٤٧، بتصرُّف.

(٢) «إن أوس بن ثابت الانصاري تُوفي (في غزوة أُحد) وترك امرأة يقال لها أم كجّة وثلاث بنات له منها، فقام ابنا عمّ الميت ووصياه، فأخذا ماله ولم يُعطِيا امرأته شيئًا ولا بناته، وكانوا في الجاهلية لا يُوَرِّثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرًا، إنما يُوَرِّثون الرجال الكبار، وكانوا يقولون: لا يُعطى إلا مَن قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة. فجاءت أم كجّة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أوس بن ثابت مات وترك عليَّ بنات، وأنا امرأة وليس عندي ما أُنفِق عليهِنّ، وقد ترك أبوهنّ مالاً حَسَنًا، وهو عند سويد وعرفجة لم يُعطِياني ولا بناته من المال شيئًا وهنَّ في حجري، ولا يُطعِماني ولا يَسقياني ولا يَرفعان لهنّ رأسًا. فدعاهما رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرسًا، ولا يحمل كلًّا، ولا يُنكي عدوًّا، فقال رسول الله ﷺ: انصرفوا حتى أنظر ما يُحدِث الله لي فيهِنَّ. فانصرفوا، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧]». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة النساء، ص١٤٨، بتصرُّف. وابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، باب الألف بعدها الواو، ١: ٢٩٢، برقم: ٣١٧.

وتعرض الآيات قسمته بين الأولاد: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١][١]. كما تعرض الآيات حكمًا أوليًا للزنا بالإشهاد والسجن في البيوت والإيذاء مع التوبة (قبل أن يُصبح الحكم بالجلد مع نزول سورة النور (٥هـ) والرَّجم للمُحصَن في الحديث النبويّ). وتأمر

---

(١) «عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى جئنا امرأة من الأنصار في الأسواق، فجاءت المرأة بابنتَين لها فقالت: يا رسول الله، هاتان بنتا ثابت بن قيس، قُتِل معك يوم أُحُد، وقد استفاء عمَّهما مالهما وميراثهما كلّه، فلم يَدَع لهما مالاً إلا أخذه، فما ترى يا رسول الله؟ فوالله لا تُنكحان أبدًا إلا ولهما مال. فقال رسول الله ﷺ: يقضي الله في ذلك. قال: ونزلت سورة النساء ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]. فقال رسول الله ﷺ: ادعوا لي المرأة وصاحبها. فقال لعمِّهما: أعطِهما الثلثَين، وأعطِ أمّهما الثُّمن، وما بقي فَلَك. قال أبو داود: أخطأ بشر فيه، إنما هما ابنتا سعد بن الربيع، وثابت بن قيس قُتِل يوم اليمامة». **سنن أبي داود**، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الصلب، ٣: ١٢٠، ح: ٢٨٩١.

الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة النساء، ص١٥٠، بتصرُّف. وابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، باب السين بعدها العين، ٣: ٤٩، برقم: ٣١٦٠.

ومع أنَّه وردت روايات في الصحيحَين عن نزول هذه الآية أو آية الكلالة من راوي الرواية السابقة (جابر بن عبد الله)، ولكن «لا تنافي بين القصَّتَين، فيحتَمَل أنَّها نزلت فيهما معًا». مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة النساء، ص٦٥، بتصرُّف. وقال ابن حجر: «الظاهر أنَّ آية الميراث أو آية الفرائض هي ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما صُرِّح به في رواية ابن جريج، وأما مَن قال إنها ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] فعُمدته أنَّ جابرًا لم يكن له حينئذ ولد، وإنما كان يورَث كلالة، فكان المناسب لقصَّته نزول الآية الأخيرة، لكن ليس ذلك بلازم لأن الكلالة مختَلَف في تفسيرها.. وقد احتجّ البعض فقال: إنها لم تنزل في قصة جابر إنما نزلت في قصة ابنتَي سعد بن الربيع، وليس ذلك بلازم، إذ لا مانع أن تنزل في الأمرين معًا. ويُحتَمَل أن يكون نزول أولها في قصة البنتَين وآخرها ـ وهي قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [النساء: ١٢] ـ في قصة جابر». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب التفسير، باب ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، ٨: ٢٤٤، ح: ٤٥٧٧، بتصرُّف.

الآيات الأزواج بالمعاشرة بالمعروف بلا إكراه[١]؛ لتحقيق مصالح شخصية. وتنهى الآيات عن نكاح زوجة الأب[٢].

وتنتقل السورة للحديث عن النهي عن أكل الأموال بالباطل إلا في تجارة بالتراضي. واستكملت الآيات عرض استحقاق المدَّعين إلى النسب وصية وليس ميراثًا[٣]، (في تمهيد

(١) «تُوُفِّي أبو قيس ابن الأسلت الأنصاري وترك امرأته، فورث ابنه نكاحها ثم تركها، فلم يقربها ولم يُنفق عليها، يُضارّها لتَفتَدِيَ منه بمالها، فأتت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس تُوُفِّيَ، وورث ابنه نكاحي، وقد أضرَّني وطَوَّل عَلَيَّ، فلا هو يُنفِق عَلَيَّ، ولا يدخل بي، ولا هو يُخلِّي سبيلي، فقال لها رسول الله ﷺ: اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله. فانصرفت وسمعت بذلك النساء في المدينة، فأتَين رسول الله ﷺ وقُلن: ما نحن إلا كهيئتها. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ [النساء: ١٩]». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة النساء، ص١٥١، بتصرُّف. والطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٨: ١٠٦، بتصرُّف.

هذا، وقد مات أبو قيس «على رأس عشرة أشهر من الهجرة». ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، باب الكنى، حرف القاف، ٧: ٢٧٩، برقم: ١٠٤٣٤. فإذا حسبنا عُرف العِدَّة للمُتَوَفَّى عنها زوجها في بداية العهد المدني وهو حول كامل ـ (قال ﷺ: «قد كانت إحداكُنَّ تكون في شَرّ بيتها في أحلاسها، أو في شَرّ أحلاسها في بيتها حَولاً» **صحيح مسلم**، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدَّة المُتَوَفَّى عنها زوجها، ٢: ١١٢٥، ح: ١٤٨٨) ـ وتُبَيِّن لنا من الرواية أنَّه طوَّل عليها، فيقترب زمن الرواية من نهاية السنة الثالثة للهجرة، وهو الزمن المختار لبداية نزول آيات السورة.

(٢) وردت رواية في العائلة المذكورة في الهامش السابق أنَّ ابنه أراد أن يتزوَّجها، فنزلت الآية لتحريم الزواج من زوجات الأب. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النساء، ٢: ٢٤٥، بتصرُّف.

(٣) «عن سعيد بن المسيب: أُنزلت هذه الآية [﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾ [النساء: ٣٣] في الذين كانوا يتبنَّون رجالاً غير أبنائهم، يورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيبًا في الوصية، وردَّ الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعصبة، وأبى الله للمدَّعين ميراثًا ممَّن ادَّعاهم وتبنَّاهم، ولكن جعل لهم نصيبًا من الوصية». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النساء، ٢: ٢٩١، بتصرُّف.

لمنع التبنِّي الذي سيرد في سورة الأحزاب ٤هـ). وتمَّ تنظيم شكل الأسرة بقوامة الرجال على النساء بمعيارَي: تفضيل الله بعضهم على بعض، وإنفاقهم من أموالهم.

وعَرَضَت السورة كيفية التعامل المتدرِّج مع نشوز الزوجة بالموعظة، والهجر في المضاجع، والضرب (غير المبرِّح).

وعرضت السورة عشر وصايا: بعبادة الله، والإحسان إلى الوالدَين، وذي القربى، واليتامى، والمساكين، والجار، والصاحب في السفر، وابن السبيل، وما ملكت الأيمان (من العبيد).

ثمَّ انتقلت الآيات للحوار مع اليهود الذين يبخلون أو يُنفقون أموالهم رئاء الناس بلا إيمان[1]. ونهَت الآيات المؤمنين عن الاقتراب من الصلاة (عبادة أو مكانة إقامتها) حالة السُّكْر أو الجنابة (قبل التحريم الكامل للخمر لاحقًا كما سيأتي في العام ٧هـ). وتستكمل الآيات الرَّدّ على اليهود (ممَّن أوتِيَ نصيبًا من الكتاب) في تضليلهم، وعداوتهم[2] ـ التي يكفيها الله المؤمنين بوِلايته ونصره ـ، وتزكيتهم أنفسهم، وافترائهم على الله الكذب، وإيمانهم بالجبت والطاغوت[3]، باعتبارهما فيما يقولونه للذين كفروا أنَّهما أهدى من سبيل

---

(١) «عن مجاهد في قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٧ ـ ٣٩] ما بين ذلك في يهود». الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٨: ٣٥٢، بتصرُّف.

(٢) ورد أنَّ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] نزلت في رفاعة بن زيد بن التابوت. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر ما نزل في سورة البقرة في المنافقين ويهود، ١: ٥٦٠. كما ورد أنَّ رفاعة مات في المدينة قُبَيل عودة النبي ﷺ من غزوة المريسيع التي غزاها في شعبان (٥هـ)، وعاد بعدها المدينة بعد نحو شهر. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر مَن أسلم من أحبار يهود نفاقًا، ١: ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(٣) «الصواب من القول في تأويل: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، أن يُقال: يُصدِّقون بمعبودَين من دون الله، يعبدونهما من دون الله، ويتَّخذونهما إلهَين. وذلك أن«الجبت» و«الطاغوت»: اسمان لكل معظَّم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع له، =

المؤمنين[(١)]، وذلك بسبب حسدهم، وهو ما يقترب من إطار سورة البيِّنة الآتية في اتحاد موقف أهل الكتاب مع المشركين. كما تعرض السورة ممارسات بعضهم في التحريف والمعصية والطعن في الدين. وتوجِّههم الآيات للإيمان بالوحي المصدِّق لما معهم.

وتَختِم السورة هذا القسم بعرض ألوان من عذاب النار مقابل ألوان من نعيم الجنة. ويتمُّ التوجيه بتأدية الأمانات إلى أهلها، والحكم بين النَّاس بالعدل[(٢)].

➢ هذا، وقد يترجَّح نزول سورتَي الطلاق والبَيِّنة في هذه المرحلة بعد سورة النساء:

= كائنًا ما كان ذلك المعظم، من حجر أو إنسان أو شيطان. وإذ كان ذلك كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها، كانت معظَّمة بالعبادة من دون الله، فقد كانت جبوتًا وطواغيت. وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تُطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله. وكذلك الرؤوس المطاعين في أهل ملَّتهم ـ وهما كعب بن الأشرف وحييّ بن أخطب (من يهود بني النضير) ـ في معصية الله والكفر به وبرسوله». الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٨: ٤٦٥، بتصرُّف.

(١) وردت روايات تُفيد أنَّ تزكية اليهود من بني النضير لدين قريش على دين الإسلام حدثت بعد وقعة أُحد (٣هـ) في الموسم. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة النساء، ص١٦١، بتصرُّف. كما وردت روايات أُخرى تذكر لقاءً آخَر حدث مع مَن حزَّبوا الأحزاب من بني النضير مع قريش في سنة (٤هـ) بعد غزوة بني النضير. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النساء، ٢: ٣٣٤، بتصرُّف.

(٢) مع أنَّه وردت روايات مشهورة تربط الآية (٥٨) من سورة النساء بفتح مكة (٨هـ)، إلا أنَّه لم تصح رواية في كون تلك الآية نزلت يوم الفتح، ولكنَّ النبي ﷺ قرأها فقط. وما ورد في ربط نزولها بيوم الفتح حديث مُرسَل وإسناده ضعيف. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة النساء، ص١٥٨، بتصرُّف. وفيها ذكر أنَّ عثمان بن طلحة المسؤول عن مفتاح الكعبة قد أسلم يوم الفتح، والخبر مُنكَر، فقد أسلم عثمان وهاجر مع عمرو بن العاص وخالد بن الوليد. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، ص١٦١، بتصرُّف. لذلك رجَّحت بقاء الآية في مكانها من السورة حسب المنهج المعتمد.

□ «**الطلاق**»[١]: وفيها بيان موعد تطليق الزوجة (وهي في طُهر لا جماع فيه)، وآداب وأحكام التعامل معها والإنفاق عليها أثناء العِدَّة (عدم الإخراج من بيتها إلا بسبب ارتكابها فاحشة)، وبعد انتهائها (إمساك أو مفارقة بمعروف). كما تمَّ بيان عِدَّة اللآئي يئسن من المحيض واللآئي لم يَحِضْن (ثلاثة أشهر)، وأُولات الأحمال (وضع الحمل). وقد تخلَّل عرض تلك الأحكام التوجيه المستمرّ للتقوى ومآلها من جعل الله للمُتَّقِي المَخرَج، والرزق، وتَيْسير الأمر، وتكفير السيئات، وإعظام الأجر.

وقد تَبع تلك الآيات بيان عصيان كثير من القُرى أوامر الله ورسله، فكان مآلها الحساب والعذاب، وكانت عاقبتها الخسران. لذلك تمَّ توجيه أُولي الألباب ـ الذين آمنوا ـ للتقوى أيضًا، والاهتمام بالذِّكر المُنزَل والمُتَمَثِّل في الأُسوة برسول الله ﷺ، ليُخرِج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور.

□ «**البينة**»[٢]: وفيها عرض حالة التحالف بين الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد والحارث المحاسبي وابن الأنباري وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. وكذلك في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي الإنسان والبيِّنة. ولكن، بالنظر إلى ما سبقها من سور في جميع تلك اللوائح وهي (النساء والزلزلة والحديد ومحمد والرعد والرحمن والإنسان)، فقد تمَّ سابقًا ترجيح مكية سور الرعد والرحمن والإنسان، وتمَّ ترجيح تأجيل نزول سور الزلزلة والحديد ومحمد إلى ما بعد العام الخامس الهجري كما سيتبيَّن في موضعه، فتُصبح سورة الطلاق لاحقة لسورة النساء، وقبل سورة البينة.

(٢) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية خلافًا لابن الأنباري الذي جعلها مكية. وهي «مكية في قول يحيى بن سلام، ومدنية في قول ابن عباس والجمهور». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة البينة، ٢٠ : ١٣٨. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي الطلاق والحشر.

قبل مجيء البَيِّنة المُتَمَثِّلة في رسول ﷺ الذي يتلو الصحف المُطَهَّرة، (كما تَمَثَّل الذِّكر في سورة الطلاق بالرسولﷺ). ثمَّ اختلاف مواقف أهل الكتاب منه (بين كفر وإيمان)، رغم اقتصار أوامر الوحي لهم بعبادة الله بإخلاص الدين له وحنيفية (دين إبراهيم عليه السلام) وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وتعرض السورة مآل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في الخلود في نار جهنَّم وكونهم شرّ البرية (الخليقة)، مقابل الذين آمنوا وعملوا الصالحات خير البرية ومآلهم الخلود الأبدي في الجنات، ورضى الله عنهم ورضاهم عنهم (في تدبيره وقدره).

وتُختَم السورة بكون جزاء النعيم يتأهَّل له مَن خشي ربَّه، كدافع للإيمان والعمل الصالح وصحَّتهما.

إنَّ تناول سورة البَيِّنة قبل سورة الحشر يُفيدنا بإطارٍ لفهمها[1]، فهي تستعرض في بدايتها اتِّحاد موقف الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين قبل البعثة، ثمَّ اختلافهم بعدها، ثمَّ اجتماعهم في نار جهنَّم بما كسبوا. وهذه الآيات بالنظر إلى مسار السيرة تُنبئ عن حالة تحالف بين مشركي مكة ويهود المدينة، ظهرت قديمًا، واستمرَّت بعد الهجرة، ولمسناها في تحريض كعب بن الأشرف بعد بدر، والرسائل بينهما قبل بدر وبعدها، وسيأتي تطبيق يهود بني النضير للغدر عند الحديث عن غزوة بني النضير، ثمَّ التحالف الأوضح بينهما في غزوة الأحزاب.

وبالعودة إلى السيرة وواقع نهاية العام الثالث الهجري، فقد جهَّز النبيُّ ﷺ ـ منذ بداية العام الرابع الهجري ـ السرايا والغزوات عندما تصله معلومات عن تجهُّز قبائل لدهمه، فيُرسلهم في مجموعات للقتال[2]، أو يخرج معهم للقتال ويُقيم أيضًا المعاهدات[3]، أو

---

(١) وقد اقترب من ذلك المعنى: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، سورة البينة، ٣٠: ٤٧٢. والجابري، **فهم القرآن الحكيم**، سورة البينة، ٣: ٢٧٧.

(٢) كما في سرية أبي سلمة رضي الله عنه. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٤: ٧٠.

(٣) كما في غزوة دومة الجندل. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة رسول الله ﷺ دومة الجندل، ٢: ٦٢.

يُرسل أفرادًا فقط للقيام بعمليات تصفية فردية للمحرِّضين أو قَصاصًا لقتلة المسلمين[(١)]، ثمَّ كانت مكافأة النبيّ ﷺ لهم أُخروية[(٢)].

كما تخلَّل تلك المرحلة وقوع مآسي بعث الرجيع وبئر معونة باستدراج مجموعات من المسلمين إلى بعض القبائل بحجّة تعليمها الإسلام ثمَّ الغدر بهم بقتلهم أو بيعهم لقريش لتقوم بالثأر لقتلاها في بدر منهم. هنا، «قال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذي هلكوا، لا هم قعدوا في أهليهم ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم. فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك النفر [في الرجيع] من الخير بالذي أصابهم فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[(٣)] [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٧].

□ **آيات من سورة البقرة**[(٤)]: وفيها ذكر وجود مَن يُظهر الإسلام وهو خصم لَدودٌ يسعى بالفساد وتأخذه العزَّة بالإثم ومآله في جهنَّم، مقابل مَن «شرى نفسه لله بالجهاد وفي سبيله حتى هلكوا على ذلك»[(٥)].

غزوة بني النضير:

بعد أن كان من بني النضير بعد غزوة بدر عمالة لقريش وإيواء لأبي سفيان، ثمَّ تحريض كعب ابن الأشرف النضري لقريش على حرب المسلمين (وعدم مؤاخذة النبيّ ﷺ لبني النضير فيه)، فقد حاولت بدورها بعد غزوة أُحُد الغدر برسول الله ﷺ،

---

(١) كما في سرية عبد الله بن أُنَيس رضي الله عنه، وسرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر جملة السرايا والبعوث، ٢: ٦١٩ وغيرها.

(٢) د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٥٢٩ ـ ٥٣٠، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر يوم الرجيع، ٢: ١٧٤.

(٤) هذا هو الموضع الثالث لسورة البقرة، والذي يترجَّح نزوله بعد حادثة الرجيع (٤هـ)، وهي الآيات (٢٠٤ ـ ٢٠٧).

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر يوم الرجيع، ٢: ١٧٥.

سواء عندما كان عندهم للاستعانة بهم على دفع دية رجلَين مُعاهدَين قُتِلا خطأً في أعقاب حادثة بئر معونة، أم حاولوا استدراجه بحجّة الحوار معه للإيمان به[1].

---

(١) تُشير الرواية الأولى إلى أنَّ يهود بني النضير ـ والرسول ﷺ عندهم ـ «خلا بعضهم ببعض وقالوا: إنَّكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيُلقي عليه صخرة فيُريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش أحدهم فقال: أنا لذلك. فصعد ليُلقِيَ عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة. فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا بطلبه، فلقَوا رجلاً مُقبِلاً من المدينة، فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر ﷺ بالتهيُّؤ لحربهم والسَّير إليهم». ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر إجلاء بني النضير، ٢: ١٩٠، بتصرُّف.
وتُشير الرواية الثانية أنَّ بني النضير أرسلوا إلى رسول الله ﷺ [أن] اخرُج إلَينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليَخرُج مِنَّا ثلاثون حَبرًا، حتى نلتقي بمكان المَنصَف فيسمعوا منك، فإن صدَّقوك وآمنوا بك آمنَّا بك، فقصَّ خبرهم [بالغدر وسيأتي تفصيله]، فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: «إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تُعاهِدوني عليه»، فأبَوا أن يُعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يُعاهِدوه، فعاهَدوه، فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتَلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير». **سنن أبي داود**، كتاب الخراج، باب في خبر النضير، ٣: ١٥٦، ح: ٣٠٠٤، بتصرُّف. وفي تفصيل قصة الغدر في رواية أُخرى أنَّهم «أرسلوا إلى النبي ﷺ [أن] اخرُج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتَّبعناك، ففعل. فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مُسلم تُخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبيَّ ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع وصبَّحهم بالكتائب». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، ٧: ٣٣١، بتصرُّف. «ورغم أنَّ رواية
=

وكانت بنو النضير قد «أجمعت بالغدر بعد أن وصلها كتاب من قريش بذلك»[(١)].

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عدوّ الله [المنافق] عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنَّعوا فإنَّا لن نُسلِمكم، إن قوتِلتُم قاتَلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فتربَّصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم ويكفَّ عن دمائهم على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة [السلاح]، ففعل. فاحتملوا من أموالهم ما استقلَّت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر كسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن أبي الحقيق وحُيَي بن أخطب، فلما نزلوها دَانَ لهم أهلها. ومنهم مَن سار إلى الشام.. ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها[(٢)]. وقد أسلم «يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب [حين] قال

= عبد الرزاق [أي: الثانية] أقوى سندًا من رواية ابن إسحاقِ [أي: الأولى]، ولكن الأخيرة حظِيَت بقَبول كتَّاب السيرة، وكلتا الروايتَين تعزو حصار المسلمين لبني النضير إلى محاولتهم قتل الرسول ﷺ غدرًا». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٣٠٧، بتصرُّف.

(١) **سنن أبي داود**، كتاب الخراج، باب في خبر النضير، ٣: ١٥٦، ح: ٣٠٠٤، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر إجلاء بني النضير، ٢: ١٩١ ـ ١٩٢، بتصرُّف. وقد اختُلِف في تاريخ غزوة بني النضير. فقد «وردت روايتان صحيحتا الإسناد تدلان على أن غزوة بني النضير كانت بعد غزوة بدر الكبرى. أما ابن إسحاق فذكر أنها كانت في سنة أربع من الهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد دون إسناد أنها كانت في شهر ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهرًا من الهجرة، ووافقهم ابن هشام في أنها كانت في ربيع الأول. وقد تابع جلّ كتّاب السيرة ابن إسحاق في تحديد تاريخ الغزوة. وقطع ابن القيِّم في ترجيح رواية كونها بعد غزوة أُحد. أما ابن حجر فقد رأى أنَّ الروايات الصحيحة التي تجعل الغزوة بعد بدر أقوى ممَّا ذكره ابن إسحاق من حيث الصحة الحديثية، مع إمكانية صحة ما ذهب إليه ابن إسحاق، ثمَّ لم يجزم ابن حجر برأي قاطع في الأمر». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٣٠٤ـ ٣٠٦، بتصرُّف.

أحدهما لصاحبه: والله إنَّا لنعلم إنه لرسول الله، فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا؟ فنزلا من الليل فأسلما وأحرزا أموالهما»[١].

□ «**الحشر**»[٢]: وفيها ذكر إخراج الله تعالى الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم، وعقابهم الجلاء (بديلاً عن التعذيب في الدنيا) بسبب كونهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. والإعلام بأنَّ ما حدث في الغزوة من المسلمين من تَعَدٍّ على الشجر (لدواعٍ حربية) فهو بأمر الله لا تخرج عن مقصد الإصلاح. وقِسمة الفيء (أي: ما صولح عليه المسلمون بغير قتال)[٣] الناتج عن الغزوة ليكون لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل من الفقراء المهاجرين خصوصًا دون الأنصار. وبذلك يتحقَّق مقصد اقتصادي بعدم تداول المال بين الأغنياء فحسب، وتتمّ كفاية فقراء المهاجرين الذين أُخرِجوا من ديارهم وأموالهم. وأظهر الله حبَّ الأنصار للمهاجرين وإيثارهم لهم على أنفسهم (فلن يعترضوا على الحكم).

---

(١) الأصبهاني، **دلائل النبوة**، خروج النبي ﷺ في نفر من أصحابه إلى بني النضير، ١: ٤٩٠، ح: **٤٢٧**، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية، خلافًا لرواية الحارث المحاسبي فهي مكية عنده. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) أنَّها نزلت بين سورتَي البينة والنصر. وبالاستئناس بروايتَي ابن عباس ومقاتل في ترتيب السور فقد وضعاها بين سورتَي آل عمران والأحزاب في هذه المرحلة المدنية. **تفسير الشهرستاني**، ١: **٢٢**. لذلك كلِّه، وبالجمع بين نتائج هذا الهامش وما سبقه، رجَّحت تغليب روايات كونها بعد أشهر من غزوة أُحد. ولما رجَّحت نزول سور النساء والطلاق والبينة بعد آل عمران (غزوة أُحد)، كانت بعدها. أما سورة النصر التي هي بعدها في جميع اللوائح (عدا ابن عباس ومقاتل)، فقد رجَّحت تأخيرها لتكون آخر ما نزل لما سيتبيَّن في موضعه، وجعلت مكانها آيات من سورة الأحزاب كما سيتبيَّن في وضعه. هذا، وقد أخَّرت تتمة آيات من سورة النساء بعد سورة الحشر لما سيتبيَّن في موضع تتمة آياتها أيضًا.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأنفال، **١٣**: **٥٤٦**، بتصرُّف.

وانتقلت الآيات إلى ذكر الذين نافقوا (المنافقين الجدد) وما قالوه لأهل الكتاب من تثبيت لهم ظَهَر كَذِبه بسبب رهبتهم للمسلمين وتشتُّتهم لاعتمادهم على أهوائهم وليس عقولهم. وشبَّه الله حال بني النضير ببني قينقاع، كما شبَّه حال المنافقين مع بني النضير بحال الشيطان مع الإنسان في دفعه للكفر ثمَّ التبرُّؤ منه. ثمَّ تتوجَّه الآيات إلى الذين آمنوا لتحقيق التقوى دون نسيان الله الذي أنزَل القرآن ـ المقتضي للخشوع ـ فيهم، لأنَّه لا يستوي أصحاب النار مع أصحاب الجنة الفائزين.

وتُختَم السورة كما بدأت بالثناء على الله وعرض أسمائه.

□ كما نزلت **آيات من سورة البقرة**(١) في أبناء المسلمين، سواء المتهوِّدين (من بني النضير)(٢) أو المتنصِّرين (ممَّن لَحِقَ بالشام)(٣)، فيها إقرار الحرية الدينية(٤)، وذلك بسبب تبيُّن الرشد من الغيّ.

---

(١) هذا هو الموضع الرابع لسورة البقرة، والذي يترجَّح نزوله بعد غزوة بني النضير (٤هـ)، وهي الآيات (٢٥٦ ـ ٢٦٠).

(٢) «كانت المرأة لا يعيش لها ولد، فتجعل عليها إن بقي لها ولد لتهوِّدنَّه. فلما أُجلِيَت بنو النضير كان فيهم منهم، فقالت الأنصار: كيف نصنع بأبنائنا؟ فنزلت هذه الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] مَن شاء أن يُقيم أقام، ومَن شاء أن يذهب ذهب». الطبري، **جامع البيان**، سورة البقرة، ٥: ٤٠٨، بتصرُّف.

(٣) «كان لرجل من الأنصار ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت. فلما باعوا وأرادوا أن يرجعوا أتَوهم، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصَّرا فرجعا إلى الشام معهم. فأتى أبوهما إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنَّ ابنَي تنصَّرا وخرجا، فأطلبهما؟ فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾». المصدر نفسه، سورة البقرة، ٥: ٤١٠، بتصرُّف.

(٤) انطلاقًا من ضابط قَبول التعدّدية العَقَدية المقتضي عدم الاعتراف بالشرك كما تبيَّن بوضوح في سور كثيرة سابقة، تُبيِّن المحدَّدات اللاحقة لهذا الحكم في سورة التوبة، أنَّ هذه الحرية الدينية هي «لأهل الكتابَين والمجوس وكلّ مَن جاء إقراره على دينه المخالِف دين الحق، وأخذ الجزية منه [كما سيأتي ص٥٦٧].. ورضاه بحكم الإسلام». المصدر نفسه، سورة البقرة، =

❐ هذا، وفي هذه المرحلة المدنية بأجواء الحرب والتجهيز والحذر (كنتائج متواصلة لما حدث في أُحُد)، نزلت **آيات من سورة النساء**[1] وفيها: الحديث عن المنافقين الذين

= ٥: ٤١٤ ـ ٤١٥، بتصرُّف. أما المشرِك، فيبقى داخلاً في الآية حالة كونه معاهِدًا للمسلمين ولم يُعِن أحدًا في مُحارَبَتِهم. وبالمقابل، يخرج من عموم الآية المشرِكُ المعادي بتعذيب المسلمين وردِّهم عن دينهم. د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم**، ٢: ٥١١، بتصرُّف.

(١) هذا هو الموضع الثاني لسورة النساء، والذي يحوي الأقسام الثالث والرابع والخامس والسادس، وتحوي: (الآيات ٦٠ ـ ١٠٠) عرض أحوال المستبطئين في اللحاق برسول الله ﷺ من منافقي المدينة ومكة والتأكيد على الطاعة والتسليم ـ لجبر سبب الضعف في أُحد (٣هـ) ـ والتوجيه لكيفية التعامل معهم، و(الآيات ١٠٤ ـ ١٧٠) استكمال الحديث عن المنافقين والرَّدّ عليهم وعلى اليهود، والآيات (١٧١ ـ ١٧٣) في الرَّدّ على غلوّ أهل الكتاب، و(الآيات ١٧٤ـ ١٧٦) استكمال آيات الأحكام.

وقد رجَّحَت مجموعة من العوامل وضع سورة الحشر بين موضعَين من سورة النساء، وتحديدًا بين القسمَين الأوَّلَين والأقسام الثلاثة التالية لهما، وهذه العوامل هي: انتهاء القسم الثاني من سورة النساء بالحوار مع اليهود والرَّدّ عليهم (وهم من بني النضير)، وذكر التحريم الجزئي للخمر، وقد ورد في الروايات ذكر تحريم للخمر في وقت حصار بني النضير. ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر إجلاء بني النضير في سنة أربع، ٢: ١٩١. كذلك، فإنَّ القسم الثالث وما بعده تكرَّر فيه ذكر المنافقين (تسمية اسمية) يدخل فيها منافقو المدينة مع منافقي مكة، وفي هذا تحوُّل جديد في الخطاب القرآني عند تناول المنافقين، فقد كانت تسمية «المنافقين» الاسمية خاصة بمنافقي مكة كما وردت في سورتَي العنكبوت والأنفال، ثمَّ ما لبث أن ظهرت تسمية «الذين نافقوا» في سورتَي آل عمران والحشر للحديث عن منافقي المدينة (أي: المنافقين الجدد). ولكن، أن تُصبح تسميتهم «المنافقين»، فهذا انتقال في وصفهم من الفعلية إلى الاسمية، لأنَّ «الفعلية تدل على التجدُّد والحدوث، فيما الاسمية تدلُّ على الدوام والاستمرار». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الذاريات، ٢٨: ١٧٥. لذلك، قدَّمت من سورة النساء ما تناسب مع زمن النزول (٣هـ) حتى الموضع المتناسب مع غزوة بني النضير، وأخَّرت منها ما بعد ذلك ممَّا ورد فيها التسمية الاسمية للمنافقين (بعد أن وردت التسمية الفعلية في سورة الحشر التي وضعتها بين الموضعَين الأوليَين من سورة النساء).

يزعمون الإيمان وتُكذِّب أفعالهم أقوالهم في الاحتكام إلى الطاغوت، فعلى النبيّ ﷺ أن يُعرِض عنهم ويعظهم. وتُعلِم الآيات وجوب طاعة الرسول ﷺ بإذن الله والاحتكام إليه مع التسليم (في تناسب مع معالجة مكمن الخلل في غزوة أُحُد)، وبذلك يتأهّلون لجزاء المنعَم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وتوجِّه السورة المؤمنين لأخذ حذرهم في القتال، والتنبيه من سلوك مَن يستبطء من المنافقين بسبب انتسابه المصلحي إلى المؤمنين لنَيل نصيب من مكاسبهم. وتُوَجِّه الآيات للقتال في سبيل الله بدافع الآخرة والأجر العظيم و«استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان»[١] الذين يُصدِّق قولهم رغباتهم في الخروج من القرية الظالم أهلها. وتُذكِّر الآية المؤمنين بموقفهم في مكة بكفِّ اليد، والصلاة، والزكاة، وتُقابله بخشية فريق منهم من (قتال) الناس لَمَّا كُتِب عليهم القتال في المدينة. وتمَّ إعلام المنافقين المرتابين إلى كون جميع الأقدار[٢] من عند الله، وأنَّ مصدر الحسنة من الله وسبب الإصابة بالسيئة جراء ما يكتسب الإنسان بنفسه من الذنوب[٣]، (فانتكاسة أُحُد بقدر الله، ولكنَّ سببها كان بيد الإنسان نفسه عند معصيته الله ورسوله ﷺ). لذلك، كانت طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله، وليس النبيُّ ﷺ حفيظًا على مَن تولَّى، وعليه أن يُعرض عن طائفة المنافقين التي تُبيِّت مخالفة ما تُظهِر من الطاعة. وتُوَجِّههم الآيات لتدبُّر القرآن، [وردّ الأمور السياسية (أمنًا أو خوفًا) إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم من أهل

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النساء، ٢: ٣٥٨، بتصرُّف.

(٢) قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وقد «قال ابن عباس [عن هذه الآية]: لما استشهد الله من المسلمين مَن استشهد يوم أحُد، قال المنافقون الذين تخلَّفوا عن الجهاد: لو كان إخواننا الذين قُتلوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا. فأنزل الله تعالى هذه الآية». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة النساء، ص١٧١، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النساء، ٢: ٣٦٢ـ٣٦٣، بتصرُّف.

الاختصاص بدلاً من إذاعة الأخبار والشائعات والإرجاف في المدينة (وستتعرَّض آيات سورة الأحزاب لذلك أيضًا)][(١)].

وجاء الأمر إلى النبيّ ﷺ للقتال في سبيل الله وتحريض المؤمنين لمواجهة الذين كفروا، ولمَن يُسهم مع المؤمنين فله نصيبه (من الأجر والغنائم)، ولمَن يُسهم مع الذين كفروا عليه كِفْله (من الوزر والعقوبة)[(٢)]، (ممَّا يُفسِّر غايات حركة السرايا في العام ٤هـ ومتعلَّقاتها). ثمَّ عَرَضَت الآيات حُكم الله في التعامل مع المنافقين في مكة والمدينة[(٣)] في أجواء الحرب بعد

(١) وردت رواية في الصحيح تُفيد تأخُّر نزول قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣] إلى حدث اعتزال النبي ﷺ نساءه. **صحيح مسلم**، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، ٢: ١١٠٥، ح: ١٤٧٩. وهو الحدث الذي يُمكن تحديده بالعام [٨هـ] (الحادثة التي نزلت حولها آيات سورة التحريم كما تُشير الرواية ذاتها). لكن، وردت روايات أُخرى ربطتها بالسرايا والحروب أنَّه «إذا غزت سرية من المسلمين تخبر الناس بينهم فقالوا: أصاب المسلمون من عدوّهم كذا وكذا، وأصاب العدوّ من المسلمين كذا وكذا. فأفشَوه بينهم، من غير أن يكون النبي ﷺ هو الذي أخبرهم» ويعضد ذلك رواية ابن زيد أنَّ الذين أذاعوا منافقون أو آخرون ضعُفوا. وهو اختيار الطبري لأنَّه ينسجم مع سياق الخبر عن الطائفة التي تُبيِّت غير قول الرسول ﷺ. الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٨: ٥٦٨ـ ٥٧٣، بتصرُّف. ولأنَّ هذا الأمر مهمّ في الضبط الإعلامي لأجواء ما بعد أُحُد وما تتَّصف به من إشاعات تستهدف الإنهاك النفسي للمسلمين، أبقيت ذكر التعليق على الآية ضمن الآيات النازلة في هذه المرحلة من السيرة.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٨: ٥٨٠ ـ ٥٨١، بتصرُّف.

(٣) «عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: لما خرج النبي ﷺ إلى أُحُد، رجع ناس ممَّن خرج معه. وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتَين، فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم. فنزلت ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ [النساء: ٨٨]». **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة أُحُد، ٤: ١٤٨٨، ح: ٣٨٢٤. «وقال آخرون أنَّ الآية نزلت في اختلاف كان بين أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا قدموا المدينة من مكة، فأظهروا للمسلمين أنهم مسلمون، ثم =

أُحُد [أي: التعاطي مع معارَضة سياسية مُمالِئة في الظاهِر للطرَفين، في مجتمع أو بين مجتمعَين]، بتحديد معايير الاعتزال ومعايير القتل (أي: عدم حُرمة هذه النَّفس في أجواء حالة الحرب القائمة)، عبر: قتل مَن تولَّى منهم «عن الهجرة من الكفر ودار الحرب إلى الإسلام ودارها وأظهر كفره»(١)، إلا إن ارتبط بقومٍ مُعاهِدين للمؤمنين واعتزل القتال وألقى السَّلَم (استسلامًا وصلحًا)(٢). كذلك هناك صنف آخر من المنافقين ممَّن يُريد تحقيق الأمان له في كل الأحوال، فيُظهر الإسلام للمسلمين والشرك للمشركين لتحقيق مصالحه، فهذا يُقتَل إن لم يعتزل القتال ويُلقي السَّلَم ويكفّ يده(٣). ثمَّ توجِّه الآيات المؤمنين إلى حُرمة قتل المؤمن للمؤمن إلا عن طريق الخطأ، وعليه كفَّارة بتحرير رقبة مؤمنة وتسليم دية (سواء أكان يسكن مع المؤمنين أم مع قومٍ مُعاهِدين لهم)، أما مَن يسكن مع قوم أعداء فكفَّارته تحرير رقبة مؤمنة فقط (لأنَّ دار الحرب تُسقط حُرمة النَّفس بغير الكفَّارة، لأنَّها دار إباحة فيُعَدُّ من بينهم خطأ)(٤).

= رجعوا إلى مكة وأظهروا لهم الشرك. وقال آخرون: بل كان اختلافهم في قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الإسلام بمكة، وكانوا يُعينون المشركين على المسلمين. ومع أنَّ الطبري ذهب إلى أنَّ أولى الأقوال بالصواب مَن جعلهم منافقي أهل مكة، بسبب قول الله تعالى في سياق الآيات: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [النساء: ٨٩]». الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٩: ٩ ـ ١٤، بتصرُّف. إلا أنَّ البقاعي ارتأى الجمع بين القولَين في كون الآيات تُخاطِب منافقي مكة والمدينة، ويُصبح معنى الهجرة: «هجران دار الحرب لأهل مكة بتركها، وترك موادّة الكفرة والموافقة لهم في أقوالهم وأفعالهم وهجرتهم في جميع ذلك بمواصلة المؤمنين في جميع أقوالهم وأفعالهم، فالهجرة العامة هي ترك ما نهى الله ورسوله ﷺ عنه». البقاعي، **نظم الدرر**، سورة النساء، ٥: ٣٥٦، بتصرُّف.

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٩: ١٨، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة النساء، ٩: ٢٣، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة النساء، ٩: ٢٦ ـ ٢٩، بتصرُّف.

(٤) البقاعي، **نظم الدرر**، سورة النساء، ٥: ٣٦٢، بتصرُّف.

كما وتوجِّه الآيات المؤمنين بأنَّ واقع دار الحرب (بعد الأمر بقتال جميع الكفار في سورة الأنفال) يفرض عليهم أن يتبيَّنوا ولا يتسرَّعوا بالقتل طلبًا للغنيمة، فهناك مَن يستخفي بإيمانه كما كان المؤمنون حالة ضعفهم يستخفون بإيمانهم[1]، (وبذلك تتمُّ التوعية بعدم الالتباس مع المنافق السابق ذكره الذي يُريد أن يأمن الطرفَين ويُحوِّل إيمانه مع مصالحه).

وأعلنت الآيات أنَّ المؤمنين لا يستوون عند الله، بل المجاهدون بأموالهم وأنفسهم مُفضَّلون عنده على القاعدين (لغير ضرر بهم). واستكملت الآيات بعرض واقع مَن مات من مسلمي مكة بأنَّ منهم مَن مآله إلى النار لمشاركته الكفار في الحروب وتحجُّجه باستضعافه عن الهجرة[2]، ومنهم مَن قد يتأهَّل لعفو الله من المستضعفين الفعليين عن الهجرة من

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النساء، ٢: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، بتصرُّف. وقد وردت العديد من الروايات في شأن الحادثة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾ [النساء: ٩٤]. فقد وردت مُطلَقة دون تحديد تاريخ في رواية ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تلك الغنيمة. وسند الرواية صحيح. كما وردت في رواية أُخرى عن قصة أُخرى هي سرية ابن أبي حدرد إلى بطن إضم التي حدثت في رمضان (٨هـ) حين قتل محلِّم بن جثَّامة رجلاً ألقى السلام على المسلمين. ورجال الرواية ثقات. مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة النساء، ص٧٣ ـ ٧٤، بتصرُّف. كما وردت في رواية ثالثة عن ابن عباس أنَّ المقداد بن الأسود قتل رجلاً أعلن الشهادتَين. البزار أحمد بن عمرو، **مسند البزار المسمَّى البحر الزخار**، مسند ابن عباس رضي الله عنهما، ١١: ٣١٧، ح: ٥١٢٧. قال الهيثمي: رواه البزار وإسناده جيد. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، سورة النساء، ٧: ٨، ح: ١٠٩٤٣.

(٢) «عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ﴾ [النساء: ٩٧]، قال: من قتل من ضعفاء كفار قريش يوم بدر». الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٩: ١٠٩، بتصرُّف.

الرجال والنساء والولدان، وفي ذلك حثٌّ لهم على الالتحاق بالمهاجرين في واقع ما بعد أُحد (تكثير المسلمين وتقليل محضَن المشركين).

وتنتقل الآيات لتناول مسألة العدالة مع التعدّدية المجتمعية، بالتأكيد على النبيّ ﷺ دوره في الحكم بين الناس دون انحياز لأيٍّ من الطرفَين (عن حُسن نيَّة، وذلك في قضية تبيَّنت فيه براءة يهودي وتورُّط منافق متظاهر بالإسلام)[١].

وتستكمل الآيات ببيان عاقبة العذاب لمَن يُشاقق الرسول ﷺ بعد تبيُّن الهدى ويتَّبع غير سبيل المؤمنين، مع عرض حالتهم في الدنيا في تسفيه معبوداتهم الشركية وتوليتهم الشيطان. بالمقابل، تعرض الآيات جزاء نعيم الخلد لمَن آمن وعمل صالحًا من ذكر أو أنثى. وهذا أحسن دين بإسلام الوجه لله بإحسان واتِّباع ملَّة إبراهيم.

وتستكمل السورة بالإجابة على الاستفتاءات حول التعامل مع المستضعفين في مجتمع المدينة (يتامى النساء والولدان) بإيتائهم الحقّ والقسط معهم. مع الدعوة للإصلاح بين الزوجَين بالإحسان والتقوى. وعدم الميل في القسامة بين الزوجات، بل بالإصلاح والتقوى. وتوصي الآيات المؤمنين وصية أهل الكتاب قبلهم بالتقوى. وتوجِّه الآيات المؤمنين للقوامة بالقسط عند الشهادة، دون الميل لأحد المتخاصمَين (ولو كان ضعيفًا كفقير مقابل غنيّ)، كي لا يحدث الميل بهوى لناحية الضعيف على حساب ميزان العدل. وتُبشِّر الآيات المنافقين بالعذاب بسبب اتِّخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين بهدف تحقيق العزّة. وتأمر الآيات بعدم الجلوس في مجالس يتمّ فيها الكفر بآيات الله والاستهزاء بها كي

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٩: ١٨٠ ـ ١٨٣، بتصرُّف. وقد ورد في تلك الرواية شك أحد الصحابة في صحة إيمان عمِّه، ممَّا يتبيَّن أنَّها بعد غزوة بدر ٢هـ التي أسلم بعدها المنافقون. وأفادت روايات أُخرى كون المنافق في القضية التي نزلت فيها الآية قد لحق بمكة ثمَّ عاد إلى المدينة في شهر ربيع ٤هـ. السيوطي، **لباب النقول**، سورة النساء، ص٧٢، بتصرُّف. وبذلك تتم تزكية حدوث القصة بين نهايات ٢هـ وبدايات ٤هـ، وهو ما يتناسب مع ترجيح نزول آيات سورة النساء في هذه المرحلة.

لا يُماثلوهم. وتستكمل الآيات الحديث عن متابعة المنافقين لمصالحهم وخداعهم (ادّعائهم للمؤمنين مشاركتهم لهم في الحروب عند الفتح لتحصيل الغنائم، وادّعائهم للكافرين حمايتهم عندما يكون لهم نصيب)، وكسلهم وريائهم في الصلاة وتذبذبهم. وتنهى الآيات المؤمنين عن اتِّخاذ الكافرين أولياء.

وتفتح الآيات باب التوبة للمنافقين بالإصلاح والاعتصام بالله وإخلاص الدين له. وتردّ الآيات على أهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض الرسل دون بعضهم، ويطلبون الآيات (المعجزات) الدالّة على صدق النبيّ ﷺ بتشبيههم بمَن سألوا موسى عليه السلام أيضًا الآيات، وما كان من كفرهم ونقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء واتِّهامهم السيدة مريم بهتانًا، (وقد يُلمَح التمهيد النفسي لما سيحدث من المنافقين تجاه السيدة عائشة من اتِّهامات في قصة حديث الإفك ٥هـ)، وقولهم أنَّهم قتلوا المسيح رسول الله. وتردّ الآيات عليهم بأنَّهم ما قتلوه وما صلبوه بل رفعه الله إليه. وتعرض الآيات عاقبة معاصيهم ـ إضافة إلى الصَّدّ عن سبيل الله وأخذ الربا المحرَّم عليهم وأكل أموال الناس بالباطل ـ بتحريم الله الطيبات عليهم في الدنيا والعذاب يوم القيامة.

وتعرض الآيات ـ بمقابل موقف أهل الكتاب ـ موقف الراسخين في العلم والمؤمنين بالإيمان بما أُنزل إلى النبيّ ﷺ وما أُنزل من قبله، وهؤلاء الأنبياء المرسلين من لدن نوح عليه السلام مرورًا بأنبياء بني إسرائيل هم مُبَشِّرون ومُنذِرون كي لا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل، وتكفي شهادة الله. أما مَن كفر وصدَّ عن سبيل الله وظلم فمآلهم جهنَّم.

كما قد يترجَّح أن تكون قد نزلت في هذه المرحلة أيضًا **آيات من سورة النساء**[1] في

---

(١) هذا القسم في الرَّدّ على غلوّ أهل الكتاب، وهي الآيات (١٧١ ـ ١٧٣)، وردت فيه روايات بلا إسناد في كونها نزلت في نصارى نجران أو طوائف من النصارى. ولما لم يُمكن إثبات ذلك، فضَّلت إبقاءها ضمن مجموعة الآيات التي نزلت بعد أُحد (٣هـ). ولا سيَّما أنَّه ورد ذكر حضورٍ نصرانيٍّ في المدينة (يُراجَع التعليق على سورة البقرة، الآية ١١١ في ص٤٠٥ ـ ٤٠٦، والآية ٢٥٦ في ص٤٧١).

دعوة أهل الكتاب لعدم الغلوّ في دينهم والقول على الله غير الحقّ، وحصر كون المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، فعليهم الإيمان بالله ورسله ولا يقولوا ثلاثة، بل الله إله واحد منزَّه عن الولد. ثمَّ تُخبِرهم الآيات أنَّ المسيح لن يستكبر عن عبوديَّته لله والملائكة كذلك، وأنَّ المآل إلى الله، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فتتمّ توفية أُجورهم مع زيادة، وأما المستكبرين فعذابهم سيكون أليمًا.

وتُختَم السورة بدعوة النَّاس للإيمان بالرسول ﷺ، فقد جاءهم البرهان من ربِّهم والنور المبين، فعليهم الإيمان بالله والاعتصام به للتأهُّل لرحمة الله وفضله والهداية إلى الصراط المستقيم. هذا، وقد تناولت آخر آية من السورة جوابًا على استفتاء حول ميراث مَن لا ولد له لاستكمال أحكام المواريث وتحقيق بيان الله للمؤمنين كي لا يضلُّوا.

□ هذا، وقد تخلَّل هذه المرحلة المدنية نزول آيتَين من **سورتَي العنكبوت والنحل**. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأُصيب بعضهم وقُتل بعض [كما سبق وأشارت آية من سورة الأنفال: ٤٩]، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرِهوا فاستغفروا لهم. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] قال: وكتب إلى مَن بقي بمكة من المسلمين هذه الآية «لا عذر لهم». فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]. فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير. ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]. فكتبوا إليهم بذلك «إنَّ الله قد جعل لكم مَخرجًا». فخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم، ثم نجا مَن نجا وقُتِل مَن قُتِل[١].

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة النحل، ١٧: ٣٠٨، بتصرُّف. قال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك وهو ثقة». الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، باب سورة النساء، ٧: ٩ ـ ١٠، ح: ١٠٩٤٨، بتصرُّف.

وبالعودة إلى أحداث العام الرابع الهجري، زوَّج الله نبيَّه ﷺ ـ في شهر ذي القَعدة ـ من زينب بنت جحش (بعد أن كانت زوجة ابنه بالتبنِّي زيد بن حارثة)، فكان تشريعًا لإلغاء متعلَّقات التبنِّي، كما نزلت فرضية الحجاب أيضًا في الشهر نفسه[١].

□ **ونزلت آيات من سورة الأحزاب**[٢] فعرضت هذَين الحدثَين في سياق يُركِّز على تنظيم

---

(١) إنَّ فرضية «الحجاب في قول أبي عبيدة وطائفة كان في ذي القَعدة سنة ثلاث، وعند آخرين فيها سنة أربع وصحَّحه الدمياطي، وقيل: بل كان فيها سنة خمس». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب تفسير القرآن، سورة النور، ٨: ٤٦٢، ح: ٤٤٧٣، بتصرُّف. وبدراسة هذه الأقوال واستبعاد ما يتناقض مع غير ذلك من الروايات وفق ترتيب الأحداث يتبيَّن أنَّه «لا يبقى إلا سنة أربع». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٠٣، بتصرُّف. وقد نزلت آية الحجاب «لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش [و]دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدَّثون، وإذا هو كأنَّه يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام. فلما قام قام مَن قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا. [قال أنس بن مالك:] فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]». **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة الأحزاب، ٤: ١٧٩٩، ح: ٤٥١٣، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. وأما في لوائح ترتيب النزول فرغم اتفاقهم على مدنيَّتها، إلا أنَّهم اختلفوا في ترتيبها بين السور، فذهب البيهقي وأبو عمرو الداني إلى كونها نزلت بين سورتَي الأنفال والمائدة، وذهب ابن الضريس والزهري إلى كونها نزلت بين سورتَي آل عمران والممتحنة. وبالاستئناس بروايتَي ابن عباس ومقاتل في ترتيب السور فقد وضعاها بين سورتَي الحشر والنور في هذه المرحلة المدنية. **تفسير الشهرستاني**، ١: ٢٢.

هذا، وإنَّ روايات أسباب نزول آياتها ـ كما تبيَّن وسيتبيَّن ـ تُوجِّهنا إلى إمكانية تقسيمها إلى ثمانية أقسام: (الآيات ١ ـ ٨) من صدر السورة مقدِّمة عامة متناسبة مع قسم لاحق نزل عام ٤هـ، و(الآيات ٣٦ ـ ٤٨) استكمال موضوع التبنِّي وإلغاؤه (٤هـ) وختامه كما بدأ صدر =

وإدارة العلاقات في المجتمع، وفيها: توجيه النبيّ ﷺ للتقوى وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين (في شؤون عَقَدية مُخالِفة[1] أو أعراف اجتماعية مخالفة للتشريع الإلهي[2] أو في مطالبهم[3]

= السورة، و(الآيات ٥٣ ـ ٥٥) استكمال حدث زواج النبي ﷺ بزينب وفرض الحجاب (٤هـ)، و(الآيات ٥٦ ـ ٥٩) حول إيذاء الرسول ﷺ والمؤمنين وفرض الحجاب على نساء المؤمنين بما يتناسب مع استكمال الحديث عن الإيذاء والحجاب، و(الآيات ٦٠ ـ ٧٣) توعُّد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين بما يتناسب مع موقفهم خلال غزوة الخندق (٥هـ)، و(الآيات ٩ ـ ٢٧) عرض غزوة الخندق ٥هـ، و(الآيات ٢٨ ـ ٣٥) تخيير زوجات النبي ﷺ (٩هـ)، و(الآيات ٤٩ ـ ٥٢) استكمال تنظيم العلاقة مع زوجات النبي ﷺ (٩هـ). وقد فضَّلت أن أعرض هنا (في الموضع الأول من السورة) الأقسام الثلاثة الأولى، يتبعها القسم الرابع، وتأجيل القسمَين الخامس والسادس إلى مكانهما من غزوة الخندق (٥هـ)، والقسمَين السابع والثامن إلى مكانهما من العام (٩هـ).

(١) ورد أنَّها «نزلت في مجموعة من كفار مكة قدموا المدينة بعد قتال أُحد، فنزلوا على عبد الله بن أبيّ وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يُكلِّموه، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أرفض ذكر آلهتنا اللات والعزّى ومناة وقل إنَّ لها شفاعة ومنفعة لمَن عبدها وندعك وربك. فشقَّ على النبي ﷺ قولهم، فقال عمر: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم. فقال: إني قد أعطيتهم الأمان. فقال عمر: أُخرجوا في لعنة الله وغضبه. فأمر رسول الله ﷺ أن يُخرِجهم من المدينة». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة السجدة، ص٣٦٤، بتصرُّف.

(٢) فيها الرَّدّ على ما تمَّ «نشره من دعاية حول مخالفة النبيّ ﷺ بزواجه من السيدة زينب بنت جحش، أعراف العرب بعدم جواز زواج المرء من زوجة متبنَّاه». صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٢٨٨، بتصرُّف.

(٣) ورد في إحدى المخطوطات نصّ كتاب من أبي سفيان إلى النبي ﷺ قبل غزوة الخندق يُطالبه فيه بنصف نخل المدينة ويُهدِّده باجتماع القبائل والعشائر عليه. كتاب السيرة لمحمد بن جرير الطبري، رواية الشيخ أبي الحسن البكري، «مخطوطة آيا صوفيا رقم ٣٢٤٨»، نقلاً عن: محمد حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، ص٧٢، بتصرُّف. وقد نقد صحَّته قائلاً: «لم نر أثرًا لهذا المكتوب في الكتب المتداولة، ولا يكاد يصح، نظرًا إلى أسلوبه».

ونصائحهم[١]). ثمَّ نفت الآيات جملة من المظاهر الاجتماعية الخاطئة ومنها نسبة المتبنَّى للمتبنِّي، وأعلنت كون النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم (وِلاية[٢] وطاعة)، وكون أزواجه ﷺ أمَّهات المؤمنين (في التقدير والحُرمة)، والتذكير بكَون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض (كما ورد في ختام سورة الأنفال من أفضلية وِلاية القرابة (الأرحام) بعد تحقُّق ولايتَي الإيمان والهجرة). وعلى النبي ﷺ مثل بقية الأنبياء التبليغ الذي سيُسأل عنه النَّاس[٣].

وتنتقل الآيات (بعد بيان وِلاية النبيّ ﷺ لهم) إلى إعلام مقابل لكل مؤمن ومؤمنة في المجتمع أنَّه لا يجوز أن «يكون له وليٌّ غير النبيّ»[٤]. وتعرض السورة إلغاء متعلَّقات التبنِّي عبر تزويج الله نبيّه ﷺ من زوجة متبنَّاه زيد بعد أن قام بمفارقتها[٥]. علمًا أنَّ النبيّ ﷺ كان هو الذي زوَّج مولاه ثمَّ متبنَّاه زيدًا من زينب القرشية، في تطبيق آخر لنبذ العصبية القَبَلية

---

(١) فالمنافقون «يُظهِرون الإيمان بالله والنصيحة لنبيِّه ﷺ، وهم لا يألونه وأصحابه ودينه خبالاً [كما تبيَّن في سورة آل عمران]، فيجب أن لا يقبل منهم رأيًا، ولا يستشرهم مُستَنصِحًا بهم». الطبري، **جامع البيان**، سورة الأحزاب، ٢٠ : ٢٠٢، بتصرُّف.

(٢) فبعد أن كانت الآيات في سور سابقة (كما ستكون في سور قادمة) تنهى عن اتِّخاذ الكافرين أولياء، فقد وجَّهت هذه السور بالمقابل إلى اتِّخاذ النبي ﷺ وليًا. وقد نتج عن تلك الوِلاية مستتبعات اجتماعية. فقد قال النبي ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، فأيّما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته مَن كانوا، ومَن ترك دَينًا أو ضياعًا فليأتني فأنا مولاه». **صحيح البخاري**، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على مَن ترك دَينًا، ٢ : ٨٤٥، ح: ٢٢٦٩.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأحزاب، ٢٠ : ٢١٣، بتصرُّف. وابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ﴾، ١٣ : ٤٩٥، ح: ٧٠٨٢، بتصرُّف.

(٤) البقاعي، **نظم الدرر**، سورة الأحزاب، ١٥ : ٣٥٤.

(٥) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأحزاب، ٦ : ٤٢٥، بتصرُّف.

والطبقية. وهذا الأمر بالتزويج هو من **سُنَّة الله** في الأنبياء ـ الذين لا يخشَون أحدًا إلا الله ـ أنَّه «لم يكن لِيَأْمُرهم بشيء وعليهم بذلك حرج»[١].

وتستكمل الآيات بنفي الحَرَج عن هذا الموضوع الذي كَثُر الكلام السلبي فيه بالإعلام بأنَّ محمدًا هو رسول الله وخاتم النبيين، وليس أبا أحد من رجالهم[٢]. وتمَّ توجيه الذين آمنوا لذكر الله ـ الذي يُخرجنا من الظلمات إلى النور ـ وتسبيحه. مع الإعلام بمهامّ الرسالة للرسول ﷺ في الشهادة (لله بالتوحيد، وعلى الناس بتبليغ الرسالة)[٣] والتبشير والإنذار والدعوة إلى الله، فعليه بتبشير المؤمنين وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين، مع دعوته للإعراض عن أذاهم[٤] والتوكُّل على الله.

وتنتقل الآيات بتنظيم علاقات الصحابة ببيت النبيّ ﷺ وزوجاته عبر: الاستئذان قبل الدخول، وعدم أذية النبي ﷺ بإطالة المكوث عنده، وفرض وجود حجاب بينهم وبين زوجات النبيّ ﷺ لكونه أطهر للقلوب، والإعلام بعدم جواز نكاح زوجات النبيّ ﷺ من بعده. كما أشارت الآيات إلى عدم فرضية وجود هذا الحجاب على محارِم الزوجة ومَن يُلحَق بهم (الأب، الابن، الأخ وأبنائه، بقية النساء، ملك اليمين[٥]).

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأحزاب، ٦: ٤٢٧، بتصرُّف.

(٢) «إن رسول الله ﷺ لما تزوجها [زينب] قالوا: تزوَّج حليلة ابنه. فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]». **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، كتاب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، ٥: ٣٥٢، ح: ٣٢٠٧، بتصرُّف. وكان ذلك سنة أربع كما سيأتي. ورغم ضعف هذه الرواية، فقد اشتهر لدى المفسِّرين وكتَّاب السِّيَر الربط بين الآية وزواج النبي ﷺ من السيدة زينب، كما في: الطبري، جامع البيان، سورة الأحزاب، ٢٠: ٢٧٨، بتصرُّف. وفي: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب ذكر زيد الحِبّ بن حارثة رضي الله عنه، ٣: ٤٢، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأحزاب، ٦: ٤٣٩، بتصرُّف.

(٤) الطبري، **جامع البيان**، سورة الأحزاب، ٢٠: ٢٨٢، بتصرُّف.

(٥) على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بحديث أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه =

بعدما ضُرِب الحجاب، لم يكن بعض زوجات النبيّ ﷺ يسلَمن من أذى المنافقين، لذا كان يُصرُّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أن يحجب النبيُّ ﷺ نساءه، فنزلت آية الحجاب الأخرى من السورة[1].

= لها وعلى فاطمة رضي الله عنها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلَيها، وإذا غطَّت به رجلَيها لم يبلغ رأسها. فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك». **سنن أبي داود**، كتاب اللباس، باب في العبد ينظر إلى شعر مولاته، ٤: ٦٢، ح: ٤١٠٦، بتصرُّف. وحديث أمّ سلمة أن النبي ﷺ قال: «إذا كان لإحداكنّ مكاتب، فكان عنده ما يُؤَدِّي [أي: فسيُعتِق رقبته]، فلتُحْجَب منه». المصدر نفسه، كتاب العتق، باب في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت، ٤: ٢١، ح: ٣٩٢٨. وأحمد بن حنبل، **المسند**، مسند النساء، حديث أمّ سلمة رضي الله عنها زوج النبيّ ﷺ، ٤٤: ٧٣، ح: ٢٦٤٧٣، واللفظ لأحمد. وقال آخرون: من النساء فقط. الطبري، **جامع البيان**، سورة الأحزاب، ٢٠: ٣١٩، بتصرُّف.

(١) «كان نساء نبي الله ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهنَّ، وكان ناس من المنافقين يتعرَّضون لهنَّ فيؤذَين، فشكَوا ذلك فقيل ذلك للمنافقين. فقالوا: إنما نفعله بالإماء. فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]». ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر ما كان قبل الحجاب، ٨: ١٧٦، بتصرُّف. وتفصيل القصة: عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت سودة بعد ما ضُرِب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على مَن يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ياسودة أما والله ما تخفَين علينا فانظري كيف تخرجين. قالت: فانكفأتُ راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق. فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إليه ثم رُفِع عنه وإنَّ العرق في يده ما وضعه فقال: «إنه قد أُذِن لكنَّ أن تخرجن لحاجتكنّ». **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة الأحزاب، ٤: ١٨٠٠، ح: ٤٥١٧. و«عن عائشة أن أزواج رسول الله ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرَّزن، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لرسول الله ﷺ: احجِب نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل. فخرجت زوج النبي ﷺ سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد =

□ لذا، قد يترجَّح أنَّه في هذه المرحلة المدنية نزلت **آيات أُخرى من سورة الأحزاب**(١) فيها الأمر للمؤمنين بالصلاة على النبيّ ﷺ. والإعلام بعاقبة إيذائه ﷺ باللعن والعذاب، وتوصيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات بالبهتان والإثم. وتأمر الآيات النبيَّ ﷺ أن يقول لأزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يُدنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ كي يُعرَفن فلا يُؤذَين(٢).

= عرفناك يا سودة. حرصًا على أن ينزل الحجاب. قالت عائشة: فأنزل الله عز وجل الحجاب. **صحيح مسلم**، كتاب السلام، باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الإنسان، ٤: ١٧٠٩، ح: ٢١٧٠، بتصرُّف. «والمراد بآية الحجاب في بعضها قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب خروج النساء إلى البراز، ١: ٢٤٩، ح: ١٤٦، بتصرُّف.

(١) هذا هو الموضع الثاني لسورة الأحزاب، والذي يحوي القسم الرابع منها، والذي قد يترجَّح نزوله في سياق استكمال الحديث عن الإيذاء والحجاب، وهي الآيات (٥٦ ـ ٥٩).

(٢) «قوله ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، أي: إذا فعلن ذلك عُرِفن أنَّهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر، قال السدي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ قال: كان ناس من فسَّاق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة، يتعرَّضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيِّقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهنَّ، فكان أولئك الفسَّاق يبتغون ذلك منهنَّ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب [أي: مُلاءة واسعة تشتمل بها المرأة فوق ثيابها] قالوا: هذه حرة، كفّوا عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا: هذه أمة. فوثبوا إليها. وقال مجاهد: يتجلببن فيُعلَم أنَّهنَّ حرائر، فلا يتعرَّض لهنَّ فاسق بأذى ولا ريبة». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الأحزاب، ٦: ٤٨٢، بتصرُّف.

غزوة المريسيع[١]:

استكمل النبيُّ ﷺ في العام الخامس غزواته التي بدأها في العام السابق للرَّدّ العسكري على القبائل التي تتجهَّز لدهمه، فخرج إلى بني المصطلق واقتتلوا وانهزموا أمام المسلمين[٢].

➢ ولكن، جرت أحداث أُخرى في الغزوة ومسيرها، كانت في تفاعلها أسباب نزول آيات سورتَي المنافقون والنور:

أما الحدث الأول، فقد «اقتتل غلامان، غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا لَلمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا لَلأنصار. فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا، دعوى أهل الجاهلية؟» قالوا: لا يا رسول الله، إلا أنَّ غلامَين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر. قال: «فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا. إن كان ظالمًا فلينهه فإنَّه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره»[٣]. «فغضب عبدالله ابن أُبَيّ ابن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حَدَث، فقال: أَوَقَد فعلوها؟

---

(١) زمن «غزوة بني المصطلق من خزاعة وهي غزوة المريسيع: قال ابن إسحاق: سنة ستّ في شعبان، وبه جزم خليفة والطبري. وروى البيهقي من رواية قتادة وعروة وغيرهما أنها كانت في شعبان سنة خمس. وكذا ذكرها أبو معشر قبل الخندق. وقال موسى بن عقبة: سنة أربع، كذا ذكره البخاري، وكأنه سبق قلم أراد أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع. والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدّة طرق أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري والبيهقي في الدلائل وغيرهم سنة خمس... ويظهر أن المريسيع كانت سنة خمس من شعبان لتكون قد وقعت قبل الخندق وبعد فرض الحجاب... ويُرجِّح ذلك». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ٧: ٤٣٠، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بني المصطلق، ٢: ٢٩٠، بتصرُّف.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، ٤: ١٩٩٨، ح: ٢٥٨٤، بتصرُّف.

قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدُّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يَأْكلك، [لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا][1]، أما والله لئن رجعنا إلا المدينة ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب. فقال: مُر به عبَّاد بن بشر [الخزرجي] فليقتله. فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن، أذِّن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها. فارتحل الناس، [وبذلك] شَغَلَهم النبيُّ ﷺ عن الفتنة وحديث عبد الله بن أُبيّ، بأن مشى بهم يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس. ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نيامًا. أما ابن أُبَيّ، فقد مشى إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أنَّ زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قال ولا تكلَّم به، وكان في قومه شريفًا عظيمًا. فقال مَن حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل»[2]. فوقع على زيد الغمُّ، فبينا يسير مع رسول الله ﷺ عرك أذنه وضحك في وجهه وقال له: أبشر. فلما أصبح النَّاس قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ حتى بلغ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ حتى بلغ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٨]»[3].

هذا، واستمرَّ رسول الله ﷺ على موقفه من ابن سلول فقد قال عنه: «بل نترفَّق به ونُحسِن صحبته ما بَقِيَ معنا» (كضابط مجتمعي). وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، سورة المنافقين، ٢: ٥٣١، ح: ٣٨١٢، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بني المصطلق، ٢: ٢٩٠ ـ ٢٩١، بتصرُّف.

(٣) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، سورة المنافقين، ٢: ٥٣١، ح: ٣٨١٢، بتصرُّف، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

قومه هم الذين يُعاتبونه ويأخذونه ويُعَنِّفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت اقتله، لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقَتْله لقَتَلَته. قال عمر: قد والله علمت لأَمْرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري»[١].

□ «**المنافقون**»[٢]: وفيها تكذيب الله للمنافقين، وتوصيف ظاهرة النفاق المَدَنية، وكشف أسباب خداعهم للصدِّ عن سبيل الله، والظنّ السوء بما حولهم[٣]، وكونهم هم العدوّ المطلوب الحذر منه، واستكبارهم، وعدم فتح باب التوبة لهم لِفِسقهم (بعد أن كفروا بعد إيمانهم)، وعرض نماذج من أقوالهم (التي وردت في غزوة بني المصطلق) بمحاولاتهم الصدّ عن الإنفاق على المسلمين لإخراجهم من المدينة. لذلك، خُتِمت السورة بتوجيه الذين آمنوا للإنفاق مع التذكير بالموت كدافع لعدم التلهِّي - بالأموال والأولاد في الدنيا - عن ذكر الله تعالى.

وأما الحدث الثاني[٤]، فقد كانت السيدة عائشة زوج النبيّ ﷺ معه في الغزوة، وفي

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بني المصطلق، ٢: ٢٩٣، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح ترتيب النزول (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وكونها نزلت بين سورتَي الحج والمجادلة. أما في لوائح تحديد المكي من المدني، فقد اختلفوا، فذهب ابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبو جعفر النحاس إلى مدنيَّتها، فيما ذهب أبو عمرو الداني وأبو عبيد إلى مكيَّتها، رغم نقل القرطبي إلى كونها «مدنية في قول الجميع». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة المنافقون، ١٨: ١٢٠. هذا، وبالعودة إلى الروايات التي تمَّ عرضها في مسار السيرة، فقد تبيَّن ترجيح نزولها بين سورتَي الأحزاب (حيث روايات الزواج بالسيدة زينب وفرضية الحجاب) والنور (حديث الإفك الآتي والمتعلِّق بمستتبعات لغزوة بني المصطلق).

(٣) الطبري، **جامع البيان**، سورة المنافقون، ٢٣: ٣٩٥، بتصرُّف.

(٤) «قال النعمان بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع». **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق، ٤: ١٥١٥، بتصرُّف.

أثناء مبيتٍ سَبَق الوصول إلى المدينة، تخلَّفت السيدة عائشة عن الرَّكب لطول انشغالها بسبب ضياع عِقْدٍ منها بعد أن خرجت لبعض حاجتها. فانتظرت عودتهم حتى نامت، فوجدها صفوان رضي الله عنه ـ أحد الصحابة الذين كانوا يتخلَّفون وراء الجيش ـ فقرَّب لها البعير وانطلق بها إلى الجيش. وحينها قال أهل الإفك ما قالوا»[١] باتِّهامها معه! وانقسم المجتمع تجاه تلك الشائعة أقسام: فمنهم مَن ظَّن بالمؤمنين (صفوان وعائشة) الخير فزكَّاهما على نفسه، ومنهم مَن زكَّاها بالعموم، ومنهم مَن كان يمشي بالتُّهم للاستفادة من هذه الشائعة لتحقيق أهداف اجتماعية (انتشار الفساد في المجتمع، أو تقوية طرف على آخر...) كما فعل عبد الله ابن أبيّ بن سلول وحمنة بنت جَحْش (أخت زينب زوج النبيّ ﷺ باعتبار أنَّ حمنة تنصُر أُختها على «ضَرَّتها» بمبادرة منها)[٢].

حينها، كانت السيدة عائشة مريضة، فلما تعافت بعد أقلّ من شهر وعلمت بالموضوع انتقلت إلى بيت أبوَيها حيث انهارت بالبكاء وحاول أهلها مواساتها[٣].

أما رسول الله ﷺ فقد استشار بعض أصحابه ونسوة أهل بيته[٤] قبل أن يخطب بالناس طالبًا مَن يعذره من عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول [أي: بالإنصاف والانتصار منه]، مُعلنًا أنَّه ما علم من أهله أو الرجل المتَّهم إلا خيرًا. ولكنَّ النتيجة كانت عكسية بأن تشاجر الأوس والخزرج فيما بينهم (لدواعٍ عصبية) فقام ﷺ بتخفيضهم وإسكاتهم[٥]. ثمَّ «دخل ﷺ بيت أبي بكر رضي الله عنه فقال لزوجه عائشة: إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيُبَرِّئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، خبر الإفك في غزوة بني المصطلق، ٢: ٢٩٨، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، خبر الإفك في غزوة بني المصطلق، ٢: ٣٠٠، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، خبر الإفك في غزوة بني المصطلق، ٢: ٢٩٩ ـ ٣٠١، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، خبر الإفك في غزوة بني المصطلق، ١: ٣٠١، بتصرُّف.

(٥) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق، ٤: ١٥١٧، ح: ٣٩١٠، بتصرُّف.

عليه. فقالت (بعد أن استشارت أبوَيها أن يتكلَّموا قبلها فلم يكن لديهم جواب): إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتم به. فلئن قلت لكم: إني بريئة، لا تُصدِّقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتُصدِّقُنّي. فوالله لا أجد لي ولكم مَثَلاً إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه حتى أُنزِل عليه، فسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك وقال: يا عائشة أما والله فقد برأك. وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] العشر الآيات، ثم أنزل الله هذا في براءتي»[١].

أما رسول الله ﷺ فقد «خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن، ثمَّ أمر بمسْطَح وحسَّان بن ثابت وحمنة بنت جحش ممَّن كانوا أفصح بالفاحشة فضُربوا حدَّهم»[٢]. وقد «أراد والدها أبو بكر أن يتوقَّف عن الإنفاق على أحد الذين تكلَّموا في حديث الإفك، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر: بلى والله، إني لأُحبّ أن يغفر الله لي، فأرجع النفقة التي كان يُنفقها عليه»[٣].

هذا، وتضمَّنت «الآيات المُنزَلة في قضية الإفك حُكم حَدِّ [أي: العقوبة المقرَّرة على ذنب وجبت حقًّا لله تعالى] القذف [أي: الرَّمي بالزِّنا] لمَن تكلَّم على العفائف من حرائر المسلمين فرمَوهم بالزنا»[٤] صراحةً. فلما سمع سيِّد الخزرج سعد بن معاذ هذه الآيات (والتي تُطالِب بوجود أربعة شهود على حادثة الزنا، وإلا كان قذفًا يُعاقَب عليه) سأل عن

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق، ٤: ١٥١٧، ح: ٣٩١٠، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، خبر الإفك في غزوة بني المصطلق، ٢: ٣٠٢، بتصرُّف.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق، ٤: ١٥١٧، ح: ٣٩١٠، بتصرُّف.

(٤) الطبري، **جامع البيان**، سورة النور، ١٩: ١٠٢، بتصرُّف.

حُكم الزوج حين يشهد ذلك من زوجته. ثمَّ «ما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء رجل إلى الرسول ﷺ يشهد على زوجته بالزنا... فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ [النور: ٦]»[(١)].

كذلك، يظهر أنَّه كان لنزول حُكم عقوبة الزنا عمومًا وبالنسبة للزانية خصوصًا، (الأمر الذي لم يرد في سور سابقة رغم تحريم الزنا في سورتَي الفرقان والإسراء، ونزول عقوبة مبدئية بحبس مَن تأتي فاحشة الزنا من نساء المؤمنين في سورة النساء) أثر في رفض بعض الإماء لممارسته. فقد «كانت لعبد الله ابن أُبَيّ جارية تزني في الجاهلية، فلما أُعلِن حدُّ الزنا [بعد سبق تحريمه في سور مكية] قالت: لا والله لا أزني أبدًا. فنزلت: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾»[(٢)] [النور: ٣٣].

□ **آيات من سورة النور**[(٣)]: وفيها حَدُّ الزنا بالجَلد مئة جلدة، وحَدُّ القذف عند عدم

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النور، ٦: ١٥، بتصرُّف.

(٢) السيوطي، **لباب النقول**، ص١٤٥، بتصرُّف. وقال: أخرجه البزار والطبراني بسند صحيح.

(٣) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح ترتيب النزول (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وكونها نزلت بين سورتَي النصر والحج. كذلك اتَّفقت جميع لوائح تحديد المكي من المدني (ابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس وأبي عمرو الداني وأبي عبيد) على مدنيَّتها. وبالاستئناس بروايتَي ابن عباس ومقاتل في ترتيب السور فقد وضعاها بين سورتَي الأحزاب والممتحنة في هذه المرحلة المدنية. **تفسير الشهرستاني**، ١: ٢٢. هذا، وبالعودة إلى الروايات التي تمَّ عرضها في مسار السيرة، فقد تبيَّن ترجيح نزولها بين سورتَي المنافقون (مستتبعات غزوة المريسيع) وتتمة الأحزاب (غزوة الأحزاب الآتية كما سيتبيَّن).

هذا، وإنَّ روايات أسباب نزول آياتها ـ كما تَبيَّن وسيَتَبيَّن ـ تُوَجِّهنا إلى إمكانية تقسيمها إلى خمسة أقسام: (الآيات ١ ـ ٢٦) من صدر السورة مقدِّمة عامة حول حدود الزنا والقذف واللعان وقصة الإفك ومستتبعاتها، و(الآيات ٢٧ ـ ٣٣) تشريع أحكام الاستئذان في العلاقات الاجتماعية (بعد تشريعه في بيت النبي ﷺ كما مرَّ في آيات سورة الأحزاب)، و(الآيات ٥٨ ـ ٦١) استكمال أحكام الاستئذان، و(الآيات ٣٤ ـ ٥٧) مقدِّمة في بيان طرق =

وجود أربعة شهداء بالجَلد ثمانين جلدة، وحُكم اللِّعان بين الزوجَين عند رَمْي الزوج لزوجته بالزنا دون شهود غيره. ثمَّ تعرض السورة قصة الإفك واختلاف مواقف المؤمنين، والتوجيه لإحسان الظن ورفض الكلام في البهتان، بدل نقل الكلام دون علم. وتردّ الآيات على عبد الله بن أُبيّ الذي كان له الدور الأبرز في تحريك الشائعة فتَعِده وتَعِد مُحِبِّي إشاعة الفاحشة في المجتمع بالعذاب. ثمَّ نهت الآيات عن اتِّباع خطوات الشيطان، كما نَهَت أبا بكر عن الامتناع عن الإنفاق على أحد القاذفين لابنته وطالبته بالعفو والصفح. وأعلَنَت الآيات براءة المتَّهمين بالزنا في القصة ممَّا نُسِب إليهم.

□ قد يترجَّح أنَّه في هذه المرحلة المدنية قد نزلت **آيات أُخرى من سورة النور** فيها تشريع أحكام الاستئذان في العلاقات الاجتماعية، وأحكام غَضِّ البصر للمؤمنين والمؤمنات مع حفظ الفروج، إضافة إلى عدم إبداء المؤمنات لزينتهنَّ، وأن يضربن بخمرهنَّ على جيوبهنَّ[1]. كما أشارت الآيات إلى مَن يجوز لهم الاطّلاع على زينتهنَّ (الزوج وابنه

= الهداية في تشريعات الله الخالق تتبعها آيات حول تعاطي المتظاهرين بالإيمان مع أحكام الله مع التعريض بأجواء غزوة الخندق الآتية، و(الآيات ٦٢ ـ ٦٤) استكمال التعريض بأجواء غزوة الخندق. وقد فضَّلت أن أعرض هنا (في الموضع الأول من السورة) القسمَين الأول والثاني والثالث، وتأجيل القسمَين الرابع والخامس إلى مقدِّمات غزوة الخندق.

(١) «قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، يعني: المقانع يعمل لها صنفات ضاربات على صدور النساء، لِتُواري ما تحتها من صدرها وترائبها؛ ليُخالِفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنَّهن لم يكنَّ يفعلن ذلك، بل كانت المرأة تمرّ بين الرجال مسفحة بصدرها، لا يُواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها. فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخُمُر: جمع خمار، وهو ما يُخمَّر به، أي: يُغَطَّى به الرأس، وهي التي تُسَمِّيها الناس المقانع. قال سعيد بن جُبَير: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾: وليَشدُدن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، يعني: على النحر والصدر، فلا يُرى منه شيء». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النور، ٦: ٤٦، بتصرُّف.

وأبيه، والأب، والابن، والأخ وأبنائه، وبقية النساء، وملك اليمين، وغير ذوي الرغبة الجنسية كالمغفَّل والأَبْلَه والمخنَّث[١]، والطفل). وأَمَر الله تعالى بتزويج الأيامى (مَن لا زوج له/لها) والصالحين من العباد والإماء، مع أمر مَن لا يجد النكاح بالعِفَّة، ومُكاتَبة العبد الذي يُريد حُرِّيَّته (عند تمكُّنه من أداء المكاتبة)، ونهى الله عن إكراه الفتيات على البغاء.

□ كذلك، قد يترجَّح أنَّه في هذه المرحلة المدنية قد نزلت **آيات أُخرى من سورة النور** فيها الأمر للمؤمنين بأن يستأذن عليهم الذين ملكت أيمانهم والذين لم يبلغوا الحُلُم منهم عند الدخول في ثلاثة مواعيد (قبل الفجر، وحين الظهيرة، وبعد العشاء). أما البالغين فيستأذنوا في كل الأوقات. وسمحت الآيات للقَواعد من النساء (اللاتي كَبِرن في السِّنّ) بعدم التستُّر الكامل أمام غير المحارم، مع تفضيل الاستعفاف في كل حال. كما سمحت الآيات بالأكل من بيوت الأقرباء (آباء وأمهات، وإخوة، وأعمام، وأخوال)، أو البيوت المُستَأمَنة (باستلام مِفتاحها)، أو بيوت الأصدقاء، وكذلك سمحت للضعفاء في المجتمع أيضًا (الأعمى، والأعرج، والمريض).

غزوة الخندق[٢]:

لم يضع جلاءُ بني النضير في العام الرابع الهجري ـ كعقوبة مخفَّفة عن القتل ـ نهايةً

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة النور، ٦: ٤٨، بتصرُّف.

(٢) «جرت غزوة الأحزاب [الخندق] في شوال سنة خمس، وهو قول جمهور العلماء منهم ابن إسحاق والواقدي ومَن تابعهم. ونقل عن الزهري ومالك بن أنس وموسى بن عقبة أنها سنة أربع، ولا اختلاف بين القَولين في الحقيقة، لأن القائلين أنها سنة أربع كانوا يعدّون التاريخ من المحرّم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي قبل ذلك إلى ربيع الأول، فتكون غزوة بدر عندهم في السنة الأولى، وأُحُد في الثانية، والخندق في الرابعة، وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرّم سنة الهجرة. فإذًا، لا اختلاف بين المؤرِّخين في أن الخندق في السنة الخامسة». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤١٨.

لمكيدتهم برسول الله ﷺ وبالمسلمين. فقد ذهبوا إلى خيبر، ومن هناك بدؤوا اتصالاتهم بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والعودة إلى أرضهم وأموالهم في المدينة، ثمَّ خرج العديد من رجالاتهم، منهم سلام ابن أبي الحقيق النضري وحُيَي بن أخطب النضري وكنانة بن أبي الحقيق النضري وهوذة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي في نفرٍ من بني النضير ونفرٍ من بني وائل، إلى قريش وقالوا: إنَّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أَولى بالحقّ منه. فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي النبوة ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[١] [النساء: ٥١ ـ ٥٥]. فلما قالوا ذلك لقريش سرَّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتَّعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم الى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأنَّ قريشًا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه[٢]، وقد وعد وفد اليهود غطفان بنصف تمر خيبر؛ لإغرائها بالمشاركة في التحالف[٣]. ثمَّ خرجوا جميعًا إلى المدينة فكانوا عشرة آلاف (الأحزاب) ملاكهم إلى أبي سفيان[٤].

---

(١) يُلاحظ أنَّ القسم الأول من الآيات سبق أن تناولته عند الحديث عمَّا نزل من آيات سورة النساء قبل غزوة بني النضير، وأشرت حينها إلى تعدُّد روايات نزولها بين كونها نزلت بعد أُحُد في موسم حجّ أو عند تحزيب الأحزاب، في هامش ص٤٦٤.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة الخندق، ٢: ٢١٤، بتصرُّف.

(٣) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤١٩، بتصرُّف.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب غزوة رسول الله ﷺ الخندق، ٢: ٦٦، بتصرُّف.

فلما بلغ رسول الله ﷺ وصولهم من مكة، ندب الناس وأخبرهم خبر عدوِّهم وشاورهم في أمرهم. فأشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بالخندق. فأعجب ذلك المسلمون، وعسكر بهم رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف، واستخلف على المدينة عبد الله بن أمّ مكتوم، ثم خندق على المدينة. وجعل المسلمون يعملون مستعجِلين يُبادرون قدوم عدوِّهم عليهم، وعمل رسول الله ﷺ معهم بيده لينشط المسلمين، ووكَّل بكل جانب منه قومًا. فكان المهاجرون يحفرون من ناحية، وكانت الأنصار يحفرون من ناحية»[(١)]، «وقطع لكل عشرة [منهم] أربعين ذراعًا»[(٢)] يحفرونها.

وأبطا عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسلَّلون الى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن. وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بدّ له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابًا له.

فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم قال تعالى يعني المنافقين: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب غزوة رسول الله ﷺ الخندق، ٢: ٦٦، بتصرُّف.

(٢) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه، ٣: ٦٩١، ح: ٦٥٤١، بتصرُّف، وقد ضعَّف سنده الذهبي. والطبراني، **المعجم الكبير**، ٦: ٢١٢، ح: ٦٠٤٠. قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعَّفه الجمهور وحسَّن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسِّيَر، باب غزوة الخندق وقريظة، ٦: ١٣٠، ح: ١٠١٣٧.

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٢ ـ ٦٣]»[١]. «وقد فرغوا من حفره في ستّة أيام. ورفع المسلمون النساء والصبيان في الآطام»[٢].

□ وقد يترجَّح أنَّه في هذه المرحلة المدنية نزلت **آيات من سورة النور**[٣] فيها التعريض بتلك الأجواء التي سبقت غزوة الخندق، مهَّد الله فيها بذكر آياته المبيِّنات والأمثال والمواعظ في تدبيره وتنويره للسماوات والأرض، واختلاف مواقف الرجال الذاكرين لله في المساجد بدافع خوف يوم القيامة، بمقابل الذين كفروا الذين لن تُثمِر أعمالهم، ويتمُّ ضرب الأمثال من الظواهر الكونية للاعتبار. ثمَّ تنتقل الآيات إلى ذكر مُدَّعي الإيمان والطاعة في تَوَلِّي بعضهم وإعراضهم عن الاحتكام إلى الله ورسوله ﷺ فكانوا ظالمين، رغم أنَّ ما يقتضيه الإيمان هو السمع والطاعة عند الاحتكام إلى الله ورسوله ﷺ ليكونوا مفلحين، وفائزين بخشية الله وتقواه. ثمَّ تستعرض الآيات مواقف مُدَّعي الإيمان والطاعة في قَسَمه بكونه طائعًا، وترد عليهم بأنَّ عليهم طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وأنَّ في تلك الطاعة الهداية، وما الرسول ﷺ لهم إلا مُبَلِّغٌ. ثمَّ يَعِد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم وتبديل خَوفهم بالأمن[٤]، فيكون مآل ذلك عبادته

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة الخندق، ٢: ٢١٦، بتصرُّف.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب غزوة رسول الله ﷺ الخندق، ٢: ٦٧، بتصرُّف.

(٣) هذا هو الموضع الثاني لسورة النور، ويحوي القسمَين الرابع والخامس منها، والذي يُعرِّض بأجواء غزوة الخندق ٥هـ، وهي الآيات (٣٤ ـ ٥٧) و(٦٢ ـ ٦٤).

(٤) «عن أُبَيّ بن كعب ﵁ قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يُصبِحون إلا فيه. فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مُطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]». الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب التفسير، سورة النور، ٢: ٤٣٤، ح: ٣٥١٢، بتصرُّف، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وتوحيده، ووجَّههم الله لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ للتأهُّل للرحمة. أما مآل الذين كفروا فالعقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وانتقلت الآيات للحديث عن أجواء حفر الخندق واختلاف مواقف مدَّعي الإيمان والطاعة عن المؤمنين فأما المؤمنون فهم يستأذنون الرسول ﷺ في الأمر الجامع ـ قبل انصرافهم المؤقَّت ـ فينالون استغفاره، وأما المدَّعون فقد حذَّرتهم الآيات من دعاء النبيّ ﷺ عليهم[١]؛ لأنَّهم الذين يتسلَّلون خفية (دون استئذان)، وحذَّرتهم من أن تُصيبهم فتنة أو عذاب أليم.

لما وصل جيش الأحزاب ولم يستطع اختراق الخندق، «دسَّ أبو سفيان حُيَيَّ بنَ أخطب إلى بني قريظة يسألهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ويكونوا معهم عليه، فامتنعوا من ذلك، ثم أجابوا إليه، وبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال: حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل. ونجم النفاق وفشل الناس وعظم البلاء واشتدَّ الخوف وخيف على الذراري والنساء»[٢].

□ قد يترجَّح أنَّه في هذه المرحلة المدنية قد نزلت **آيات أُخرى من سورة الأحزاب**[٣] تتوعَّد المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجِفين في المدينة بأن يُغري الله بهم رسوله ﷺ (بالتسلُّط عليهم)، ثمَّ لا يُجاورونه في المدينة إلا قليلاً ويكونون ملعونين ومحكوم عليهم بالقتل. وهذه **سُنَّة الله**. وتنتقل الآيات للحديث عن عذاب الكافرين في الآخرة. وتنهى الآيات المؤمنين عن أن يتشبَّهوا بمَن آذى موسى عليه السلام، بل عليهم بالتقوى والقول السديد؛ تحقيقًا لإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب.

وتَختِم الآيات بأنَّ الإنسان مُؤتمَن أمام الله، لذلك يستحقّ أهل النفاق والشرك العذاب، كما يتأهَّل أهل الإيمان للتوبة.

أرسل النبيُّ ﷺ الرسل ليتأكَّد من خبر نقض يهود بني قريظة عهدهم معه في الوقت الذي

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة النور، ١٩: ٢٢٩، بتصرُّف.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب غزوة رسول الله ﷺ الخندق، ٢: ٦٧، بتصرُّف.

(٣) هذا هو الموضع الثالث لسورة الأحزاب، ويحوي القسم الخامس منها، والذي قد يترجَّح نزوله في توعُّد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين، وهي الآيات (٦٠ ـ ٧٣).

حرص فيه على رفع الروح المعنوية للمسلمين[١]، ثمَّ حاول تخفيف الضغط عليهم بإعطاء قادة غطفان (أحد مجموعات الأحزاب) ثلث ثمار المدينة (في توازٍ مع وعد اليهود لهم نصف ثمار خيبر)، لكنَّه عدل عن ذلك بعدما استشار سيِّدَي الأوس والخزرج، فرفضاه بعد تدقيقهما في كونه رأيًا من النبيّ ﷺ لمساعدتهم وليس وحيًا[٢].

لكنَّ اليهود حوَّلوا نقضهم العهد ـ الذي كان يوجِب عليهم الدفاع المشترك عن المدينة ـ إلى ممارسات عملية في الاتجاه المعاكِس. ذلك أن «لم يكن بين حصن النساء والصبيان وبين يهود بني قريظة أحد يدفع عنهم. فمرَّ رجل من يهود ـ وقد حاربَت بنو قريظة وقطعَت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ـ فجعل يطيف بالحصن، فتنبَّهت عمَّة النبيّ ﷺ صفيَّة بنت عبد المطَّلب له، فلم تأمَنه أن يدلَّ على مكامن الضَّعف في الحرب، فيدلّ مَن وراءه من بني قريظة، فأخذت عمودًا، ثمَّ نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته»[٣].

في هذه الأيام الشديدة، أسلم أحد رجال غطفان سرًّا، فأمره النبيُّ ﷺ بالتخذيل عن المسلمين، فأوقع عدم الثقة بين قريش وبني قريظة، فلم يجتمعا في قتال مشترك ضدّ المسلمين[٤]. وأرسل الله الريح (كما سيرد في آيات سورة الأحزاب) فحمل ذلك القوم على الرحيل، وانتهى بذلك الحصار. فقال رسول الله ﷺ مُستشرِفًا المرحلة القادمة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[٥].

وقد كان رسول الله ﷺ قد طلب مَن يتطوَّع في تقصِّي خبر القوم (بالانتقال سرًّا من المدينة إلى خارجها)، ثمَّ اختار حذيفة رضي الله عنه وأمره أن لا يُحدث فيهم شيئًا. وكان مُبادرًا بسرعة بديهة طائعًا لرسول الله ﷺ، فنفَّذ المهمّة دون أن ينكشف أمره، وجاء بخبر القوم

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة الخندق، ٢: ٢٢١ ـ ٢٢٢، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، غزوة الخندق، ٢: ٢٢٣، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، غزوة الخندق، ٢: ٢٢٣، بتصرُّف.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب غزوة رسول الله ﷺ الخندق، ٢: ٦٩، بتصرُّف.

(٥) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٤: ١٥٠٩، ح: ٣٨٨٤، بتصرُّف.

دون أن يُحدِث فيهم شيئًا (كقتل أحد أشرافهم) يجعلهم يعدلون عن قرار الرحيل[١].

هنا، كما لمحنا دور الطرف الثالث في إنهاء إيقاف أمد التضييق من طرف على آخر (كما حدث في حصار الشِّعَب في مكة)، نلمح هدفًا نبويًّا في التعامل مع هذا النوع من الغزوات بأنَّه كان دفاعيًا تخذيليًّا، لا يسعى أبدًا إلى التصعيد (في قتال لا أُفق من ورائه).

غزوة بني قريظة:

هذا في التعامل مع الأحزاب، وبَقِيَت محاسبة مَن نقض العهد من بني قريظة وتواطأ مع العدوّ الخارجي. فأرسل النبيُّ ﷺ أصحابه قائلاً لهم: «لا يُصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قريظة». فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نُصلِّي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نُصلِّي، لم يُرِد منَّا ذلك، فذُكِر ذلك للنبيّ ﷺ فلم يُعنِّف واحدًا منهم[٢].

وقد حاصر النبيُّ ﷺ بني قريظة، وحدثت مناوشات وقتال، فقال لهم سيِّدهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، تابِعوا الرجل، فوالله إنه النبيُّ، وقد تَبَيَّن لكم أنَّه نبيٌّ مُرسَل، وأنَّه الذي كنتم تجدونه في الكتب، [فتأمَنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم][٣]، وإنَّكم لَتعرفون صفته، قالوا: هو به، ولكن لا نُفارق حُكم التوراة[٤]. ولكنَّ ثلاثة شباب أحداث من بني بهدل (بنو عمّ القوم) نزلوا وأسلموا وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم[٥].

فلما اشتدَّ عليهم الحصار طلبوا أن ينزلوا على حُكم حليفهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فتقدَّم سعد قبل أن ينطق بحكمه قائلاً: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنَّ الحكم فيهم لِما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى مَن ها هنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة الخندق، ٢: ٢٣٢ - ٢٣٣، بتصرُّف.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ٤: ١٥١٠، ح: ٣٨٩٣، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بني قريظة، ٢: ٢٣٥، بتصرُّف.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر علامات النبوة في رسول الله ﷺ، ١: ١٦٤، بتصرُّف.

(٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، إنذار يهود برسول الله ﷺ، ١: ٢١٣، بتصرُّف.

مُعرِض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال سعد: فإني أحكُم فيهم أن تُقتَل الرجال، وتُقسَم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله ﷺ لسعد: لقد حكمت فيهم بحُكم الله[1]. «ولم تكن العقوبة الشديدة إلا جزاء للخيانة العظمى التي ارتكبتها بنو قريظة عندما غدرت بالمسلمين وتبرَّأَت من حِلفهم بدلاً من أن تشترك معهم في الدفاع عن المدينة المنورة، بموجب نصوص المعاهدة بين الطرفين»[2]، حتى قامت بإجراءات عمليَّة لتحقيق أهداف الأحزاب.

ونُفِّذ ذلك الحكم، وكان خاصًّا بمَن نقض العهد ثمَّ رفض الخضوع لَمَّا علم من الحقّ بالإسلام (الذي يأمَن به حينها). أما غير البالغين أو مَن وفَّى بعهده فلم يمسسه سوء، كعمرو بن سعدي القرظيّ، فقد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم، وقال عنه رسول الله ﷺ: «هذا رجل نجَّاه الله بوفائه»[3].

□ وأنزل الله **آيات من سورة الأحزاب**[4]: وفيها تذكير الله للمؤمنين بنعمته بإرسال الريح والملائكة على الجنود (قريش وغطفان وبني قريظة)، وتصف الآيات الموقف بحصار واستعداد لقتال مشتَرَك من الجانبَين: بنو قريظة من فوقهم، وقريش وغطفان من أسفل منهم، فكان ابتلاء للمؤمنين وزلزالاً شديدًا. ويفضح الله مقولات المنافقين والذين في قلوبهم مرض في التشكيك بوعد الله وفرارهم من أرض الدفاع أمام الخندق، وتصفهم باستعدادهم للعودة إلى الشرك إذا غَلَبَت الأحزاب على المدينة رغم عهودهم بالثبات. فردَّ الله عليهم أنَّه لن ينفعهم الفرار من الموت أو القتل ولا عاصم من الله. وتصفهم الآيات أيضًا بكَونهم مُعَوِّقين (مثبِّطين) للنَّاس عن النصرة حال كونهم بخلاء بأنفسهم وأموالهم عن

---

(١) المصدر نفسه، غزوة بني قريظة، ٢: ٢٤٠، بتصرُّف.

(٢) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ٣١٧.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بني قريظة، ٢: ٢٣٨، بتصرُّف.

(٤) هذا هو الموضع الرابع لسورة الأحزاب، ويحوي القسم السادس منها، والذي نزل بعد غزوة الخندق (٥هـ)، وهي الآيات (٩ ـ ٢٧). كما ورد في: المصدر نفسه، غزوة بني قريظة، ٢: ٢٤٥ ـ ٢٥٠، بتصرُّف.

المشاركة في الغزوة، وهم عند خَوفهم مُرتعبون، وعند زوال الخَوف يُؤذون المسلمين بكلامهم وهم يُطالِبون بالغنائم. ثمَّ تتوجَّه الآيات إلى المؤمنين بأن يقتدوا برسول الله ﷺ (بدافع رجاء الله واليوم الآخرة وكثرة ذكر الله)، والموقف المطلوب منهم تصديق وعد الله ورسوله والإيمان والتسليم، وقدَّمت السورة وجود نماذج واقعية منها مَن استشهد، ومنها مَن ينتظر الوعد بالنصر أو الشهادة دون تردُّد في دينهم أو رغبةً باستبداله، ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾. أما الكافرون، فقد ردَّهم الله بغيظهم دون أن يُحقِّقوا أهدافهم ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾. وأما الذين ظاهَروهم من أهل الكتاب (بني قريظة) فقد أنزلهم الله من حصونهم وقذف في قلوبهم الرعب وحكم فيهم بقتل الرجال، وسبي الذراري والنساء، وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضًا لم يطؤوها بعد (يعني خيبر)[1].

➢ وهكذا، أوصلتنا إدارة التعدّدية المجتمعية في هذه المرحلة إلى النتائج التالية:

• **أما التعدّدية العَقَدية**: فتستكمل الآيات الحوار مع اليهود في المدينة ردًّا على تضليلهم وعداوتهم وافتراءاتهم في تفضيل المشرك (الذي ليس له كتاب) على المسلمين (أهل الكتاب). وتمَّ تأكيد إقرار الحرية الدينية. ودعوة النصارى لعدم الغلوّ في الدين والقول على الله غير الحقّ.

• **وأما التعدّدية الثقافية**: فقد تمَّ تشريع أحكام تهدف إلى تصحيح أوضاع المستضعفين الحقوقية، وانضباط العلاقات الاجتماعية إدارة وتنظيمًا، في الأحوال الشخصية والمواريث أحدثت تغييرًا في أنماط العيش المعتادة، من حيث توريث المرأة، وتحديد المحرَّمات في زواجهنَّ، والتعامل مع نشوز الزوجة، وتطويق حالات السُّكْر، وأحكام الطلاق والعِدَّة، وإيتاء النساء واليتامى حقوقهم بالقسط، والإصلاح بين الزوجَين، وعدم الميل في القسامة بينهنَّ عند تعدُّدهنَّ، وأحكام الكلالة (ميراث مَن لا ولد له)، وإلغاء التبنّي، وفرض الحجاب، وأحكام حدود الزنا والقذف، وأحكام الاستئذان، والأمر بتزويج الأيامى، ومكاتبة طالب الحرية من العبيد. كما يتمّ التوجيه بمفارقة مجالس الكفر والاستهزاء بالآيات.

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة بني قريظة، ٢: ٢٤٥ ـ ٢٥٠، بتصرُّف.

• **وأما التعدّدية السياسية**: فقد تمَّ تشريع أحكام تهدف إلى توضيح معايير التعامل مع المكوِّنات الداخلية والخارجية، مع القيام بعمليات تصفية فردية للمُحرِّضين من الخارج على اجتياح المدينة، وإجلاء ناقضي العهود في الداخل. وتتمّ الاستجابة لتحدّي المنافقين (من جانب كونها معارضة سياسية خفية مُمالِئة للمُحارِبين للمجتمع وناقضي العهود) إلى الإعراض عنهم ووعظهم مع استمرار فتح باب التوبة لهم. وتمَّ التعاطي مع المعارَضة السياسية المُمالِئة في الظاهِر للطرَفَين المتحاربَين، في مجتمع أو بين مجتمعَين، بتحديد معايير اعتزالها (عند اعتزال القتال والمُصالحة، أو الارتباط بمعاهِدين) ومعايير القتل بعدم وجود حُرمة لنفسها (عند التولّي عن هجرة دار الحرب وعدم اعتزال القتال وإقامة مُصالحة)، على أن يتمّ التبيُّن وعدم التسرُّع في القتل منعًا للالتباس. وتمَّ توجيه مسلمي مكة للهجرة إلى المدينة (تكثيرًا للمسلمين، وتقليلاً لمَحضَن المشركين). والتأكيد على منع الانحياز عند القضاء في مجتمع تعدّدي. وتكرَّر التوجيه لتخفيف أسباب الكيد في حصار الأحزاب، مع انتهاج موقف الدفاع لا الهجوم في قتال لا أُفق من ورائه. والحكم بقتل ناقضي العهود من العملاء لمحاربي المجتمع من الخارج بدل الدفاع عنه، وممَّن قتل أيضًا منهم.

وأما التعدّدية العرقية: فيُلحَق بها التعدّدية القَبَلية التي ظهرت أيضًا بين المهاجرين والأنصار في هذه المرحلة في أكثر من موضع، كحالة داعية للانقسام، وقد كان التوجيه النبوي دَومًا بنبذها باعتبارها دعوى أهل الجاهلية، وأنَّ المراد هو بالعدل لا بالنسب. ثمَّ كانت المعالجة العملية بإشغال الناس عن الفتنة وعن نقل الأحاديث المشجِّعة على الانقسام. وظلَّ الموقف النبوي بالترفُّق وإحسان صُحبة المنافقين (المعارضة الخفية المثيرة للنعرات) بسبب استمرار مكوثها في المجتمع نفسه. بالمقابل، في حَدَث تزويج النبي ﷺ لمولاه زيد من السيدة زينب القرشية دلالات عملية على عدم اعتبار عصبيات الاستعلاء القبلية بين المؤمنين.

• **وأما التعدّدية الطبقية**: فتمَّت زيادة مشاركة شرائح اجتماعية في الإنفاق عليها، إحسانًا أو رزقًا من التركة. واقتصار توزيع الفيء على المهاجرين خصوصًا لتحقيق انعدام تداول المال بين الأغنياء فحسب. والتأكيد على عدم المَيل بين المتخاصمَين عند اختلاف طبقاتهما الاقتصادية. وربطت الآيات بين الإنفاق والمغفرة لتجنُّب منعه على مَن طرأت خصومة معه.

خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة:	السابعة	السابعة
	السور:	آيات من سورة النساء، وآيات من سورتَي العنكبوت والنحل، وسور الطلاق والبينة والحشر وآيات من سورتَي البقرة و**الأحزاب**، وسورة المنافقون، وآيات من سورة النور	آيات من سورتَي النور **الأحزاب**
	الزمن:	**٣ ـ ٥ هجرة**	**٥ هجرة**
	الأحداث:	مستجدات المدينة بعد انتكاسة أُحُد من حيث البنية الاجتماعية الداخلية وتعدّي الخارج والداخل على المؤمنين	غزوة الأحزاب (٥هـ)
	الهدف:	التنظيم الداخلي: تصحيح أوضاع المستضعفين الحقوقية، وانضباط العلاقات الاجتماعية، وتوضيح المعايير في التعامل مع المكوِّنات الداخلية والخارجية	تثبيت المؤمنين مع تحويل الحرب إلى حرب دفاعية نفسية دون قتال، وانتهاج ما يُنَمّي أسباب انتهاء هذا التدافع (التخذيل عن المسلمين بدل قتال لا أُفق لهم من ورائه)
الفعل	الموضوع / الإجراء	التقوى، وإيتاء اليتامى والنساء حقوقهم، وبيان إرادة الله التخفيف على المؤمنين لضعفهم مقابل إرادة متَّبعي الشهوات ميلهم، وبيان قوامة الرجل على النساء. والأمر بتوحيد الله والإحسان إلى الوالدين وشرائح من المجتمع. والأمر بتأدية الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل. وعرض أحكام وآداب الطلاق، والتوجيه المستمرّ للتقوى ومآلها المخرج والرزق والتيسير وتكفير السيئات وإعظام الأجر، والتأسّي برسول الله ﷺ. إعطاء الفقراء من المهاجرين (جزاء إخراجهم من ديارهم) نصيبهم من فَيء غزوة بني النضر دون الأنصار (بسبب عدم وجود قتال). والطلب من المؤمنين أخذ الحذر في القتال، وتحريض المؤمنين على القتال في سبيل الله. والأمر عند الحكم بين الطرفَين بعدم الميل إلى أحدهما لسبب دينه أو قوَّته أو ماله. / والإعلام بولاية النبيّ ﷺ للمؤمنين وتشريع إلغاء مظاهر اجتماعية خاطئة (كالتبنِّي ومتعلَّقاته)، وفرضية الحجاب، وتنظيم علاقة الصحابة ببيت النبيّ ﷺ وأزواجه.	الشورى في شأن هجوم قريش وغطفان (أعراب) (واليهود) على المدينة وإقرار حفر خندق حولها لتحويل الحرب إلى حرب دفاعية نفسية دون قتال، وأمر الله للمؤمنين بالاقتداء برسول الله ﷺ

الفعل	الأسلوب	التشريع	الحوار
	الإطار	مجتمع بسلطة إدارته (دولة وشوكة)	دفاعي ـ نفسي
	المخاطَب	أهل يثرب	أهل يثرب
	الضمانة	منعة إيمانية ببيعة وموادعة مع اليهود وعهود مع أعراب خارج المدينة	منعة إيمانية ببيعة وموادعة مع اليهود وعهود مع أعراب خارج المدينة
ردة فعل قريش	الاتجاه العام		تشويه الدعوة ومنع حرية انتشارها، واستكمال التحضير لمواجهة المسلمين في المدينة واستئصالهم
	الأسباب		الحفاظ على الاقتصاد (حرية التجارة في الجزيرة)، وعلى دينهم الذي يحفظ نظامهم المتوارث، والانتقام لقادتهم المقتولين في غزوة بدر (٢هـ)
	الوسائل		تزعُّم (١٠،٠٠٠) مقاتل من قريش والأعراب واليهود لقتال أهل المدينة
الاستجابة			تحويل الحرب إلى حرب دفاعية نفسية، وعدم إحداث أمر فيهم (كالاغتيالات)، وردّهم الله بغيظهم دون أن يُحقِّقوا أهدافهم
ردة فعل مرضى القلوب/ المنافقين	الاتجاه العام	الخصومة والعداوة، زعم الإيمان رغم الاحتكام إلى الطاغوت، والريبة من قَدَر استشهاد المؤمنين في أُحُد، واتخاذ الكافرين أولياء	
	الأسباب	(لا يشرون الحياة الدنيا بالآخرة)، وطلب العزّة من الكافرين	
	الوسائل	السعي بالفساد، وموالاة اليهود (دون نصرتهم فعليًّا)، والتباطؤ في تنفيذ أوامر القتال، والانتساب المصلحي إلى المؤمنين، وإذاعة الشائعات للإرجاف في المدينة، واستثمار الأحداث لترويج الشقاق ونشر الفساد، والصّدّ عن الإنفاق على المسلمين	الفرار: عدم الإسهام في حفر الخندق، والتسلُّل خفية دون استئذان، والتشكيك بوعد الله، والاستعداد للعودة إلى الشرك، والتثبيط عن النصرة، والبخل بالنفس والمال في المشاركة الدفاعية، ثمَّ المطالبة بالغنائم بعد انتهاء الغزوة

الاستجابة		الإعراض عنهم والوعظ، ووجوب طاعة الرسول ﷺ والاحتكام إليه مع التسليم، والإعلام بأن جميع الأقدار من عند الله؛ فالحسنة من الله وسبب الإصابة بالسيئة من ذنوب الإنسان، وتدبُّر القرآن، وردّ الأمور السياسية في الأمن أو الخوف إلى الرسول ﷺ. التعامل مع منافقي مكة والمدينة بتحديد معايير الاعتزال (ارتباط بمعاهد أو اعتزل القتال وطلب الصلح) ومعايير القتل (للمتولِّي عن الهجرة وأظهر الكفر، أو صاحب الوجهَين لتحقيق مصالحه ولم يعتزل القتال). حثّ المستضعفين في مكة على الهجرة منها إلى المدينة (تكثير المسلمين وتقليل محضن المشركين). فتح باب التوبة للمنافقين عند الإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص. إطفاء ما قد تستتبع بعض الأحداث من الشقاق والاختلاف وإشغال الصحابة عن ذلك، وأمر الله بعدم التلهّي بالأموال والأولاد عن ذكر الله، وفضح الله للمنافقين بكونهم هم العدوّ للحذر منهم، مع ترفُّق النبيّ ﷺ بهم وإحسان صحبتهم ما بقَوا معه (في كيان واحد)، وتبرئة الله تعالى المتَّهمين ظلمًا في تلك الأحداث، ونزول حدّ الزنا والقذف وأحكام الاستئذان وغضّ البصر وتزويج الأيامى والصالحين، وتوجيه المؤمنين لإحسان الظن ورفض الكلام في البهتان واتباع خطوات الشيطان.	توعُّد الله للمنافقين ومرضى القلوب والمرجفين في المدينة بالتسلُّط عليهم ثمَّ خروجهم منها والحكم عليهم بالقتل حينها

ردة فعل المؤمنين	الاتجاه العام	حبّ الأنصار للمهاجرين وإيثارهم على أنفسهم	رغبة فريق من المؤمنين تأخير الأمر بالقتال	حدوث تسرُّع بالمقابل في قتل أحدهم للاشتباه في تحقيق معيار القتل دون تبيُّن	السمع والطاعة عند الاحتكام إلى الله ورسوله ﷺ، والتصديق بوعد الله والإيمان والتسليم
	الأسباب	تبوُّء الأنصار الدار والإيمان، ووقاية شُحّ النفس	خشية هذا الفريق الناس	استخفاء الرجل، وطلبهم الغنيمة	خشية الله وتقواه وتوحيده والإيمان به وبرسوله ﷺ
	الوسائل	عدم مطالبة الأنصار بفَيء غزوة بني النضير	تمنّي تأخير الأمر بالقتال	القتل دون تبيُّن	الالتزام بحفر الخندق، واستئذان الرسول ﷺ عند حاجة الانشغال عنه بغيره
الاستجابة		التبشير بفلاحهم، واستغفار التابعين لهم من بعدهم	التذكير بطلبهم القتال في مكة، والتذكير بالمتاع القليل في الدنيا وخيرية الآخرة وكون هذا الأمر لا يظلمهم، وقُرب الموت	الأمر بالتبيُّن وعدم التسرُّع، والتذكير بموقف تخفّي المؤمنين من قبل	الوعد بالاستخلاف والتمكين وتحويل الخوف إلى أمن، والتوجيه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ للتأهُّل للرحمة، واستغفار النبي ﷺ لهم. وكفاية الله المؤمنين القتال

ردة فعل اليهود	الاتجاه العام	العداوة والشقاق	التواطؤ مع العدوّ الخارجي (الخيانة العظمى)
	الأسباب	الإيمان بالجبت والطاغوت (تعظيم غير الله: تعظيم رؤوس ملَّتهم وكبرائهم)، والحسد	المراودة على تحيُّن الفرصة
	الوسائل	البخل والأمر به أو الإنفاق رئاء الناس، والتضليل، وتزكية النفس، وافتراء الكذب على الله، والتحريف، والمعصية، والطعن في الدين. والتحالف مع مشركي مكة. محاولة (بني النضير) اغتيال النبيّ ﷺ (ثمَّ إسلام بعضهم). الإيمان ببعض الرسل دون بعض، وطلب المعجزات	نقض اليهود (بني قريظة) لعهدهم مع النبيّ ﷺ
الاستجابة		كفاية الله للمؤمنين أمرهم بولايته ونصره إجلاء بني النضير بعد أن قذف الله الرعب في قلوبهم إقرار الحرية الدينية (بعدم إجبار متهوِّدي العرب منهم على الإسلام) التذكير بمطالب اليهود من موسى عليه السلام وكفرهم ونقضهم الميثاق وقذفهم السيدة مريم وادّعائهم قتل المسيح عليه السلام. وتعداد معاصيهم بالصَّدّ عن سبيل الله وأخذ الربا المحرَّم عليهم وأكل أموال الناس بالباطل. بالمقابل يتمّ تبشير الراسخين في العلم منهم المؤمنون بجميع الأنبياء ورسالتهم.	رفع الروح المعنوية للمؤمنين، والتأكد من خبر نقضهم للعهد، ثمَّ حصارهم لمحاسبتهم بعد انتهاء غزوة الأحزاب، وتأمين مَن أسلم منهم وأموالهم وأهاليهم، وتنفيذ حكم الخيانة بناقضي العهد فقط بقتل الرجال وقسمة الأموال وسبي النساء والذراري، وقد أورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضًا لم يطؤوها
ردة فعل الأعراب/ العرب	الاتجاه العام	العداوة	العداوة
	الأسباب	خوف أثر قوة الكيان في المدينة على أعمال السلب والنهب الخاصة بهم	خوف أثر قوة الكيان في المدينة على أعمال السلب والنهب الخاصة بهم
	الوسائل	التجهيز لقتال المؤمنين في المدينة، الغدر بالمسلمين بدعوتهم ثمَّ قتلهم أو بيعهم لقريش للانتقام منهم	مشاركة غطفان مع الأحزاب في التحضُّر لقتال أهل المدينة

الاستجابة		التجهيز بإرسال السرايا والغزوات إليهم، وتصفية كبار المحرِّضين فيهم، والقصاص من قتلة المسلمين	تحويل الحرب إلى حرب دفاعية نفسية، وعدم إحداث أمر فيهم (كالاغتيالات) محاولة تخفيف الضغط بإعطائهم من ثمار المدينة بشرط موافقة سيِّدَي الأوس والخزرج (اللذَين رفضا). أمر النبي ﷺ لَمن أسلم من غطفان بالتخذيل عن المسلمين (فأوقع عدم الثقة بين قريش واليهود ناقضي العهد) ردَّهم الله بغيظهم دون أن يُحقِّقوا أهدافهم
تمييز مكوِّنات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي:	داخلي/ خارجي (تدافع عسكري)	داخلي (تدافع نفسي)/ خارجي (تدافع نفسي)
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	المدينة: المؤمنون، اليهود، مرضى القلوب (مشروع منافقين)، المنافقون	المدينة: المؤمنون، اليهود، المنافقون، مرضى القلوب
	مظاهر الاختلاف فيها	انتمائي، مصدري، خُلُقي	مصدري، خُلُقي
	التمييز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	تمييز المنافقين من المؤمنين في مكة والمدينة	تمييز المنافقين عن المؤمنين في المدينة
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا:	ضعف	ضعف
	حركة/ جمودًا:	جمود	جمود
	نوعًا/ عددًا:	نوع وعدد	نوع وعدد



الفصل الثالث
استكمال مسيرة البناء.. إدارة وإعداداً (تأسيس قلبي)

المبحث الأول: إدارة المجتمع المتضامن المتعدّد

بعد غزوة الأحزاب، تُدخِلنا السيرة في مرحلة جديدة شعارها قول النبيّ ﷺ: «اليوم نغزوهم ولا يغزوننا» كما سبق.

فبدأت حركة سرايا نشطة بداية من العام السادس للهجرة، حتى وصلت إلى غزوة وخمس عشرة سرية قبل إقامة صلح الحديبية (الذي يُعلِّق حالة الحرب القائمة بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة). «وهذه الأعمال والتحرّكات قُصِد منها المزيد من إنهاك قوى قريش وإحكام الحصار، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كل ما يمدّها بالقوّة من حلفائها، في استثمار لما تحقَّق من نجاح في صدِّ الأحزاب وإفشال خططهم، فباشروا نشاطًا واسع النطاق ضدّ خصومهم على جميع الجبهات، فقد ضيَّقوا الخناق الاقتصادي على قريش من جديد، كما نفَّذوا العديد من السرايا لمعاقبة المشاركين في الأحزاب، أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة، أو ناصبت العداء»[1].

وفي هذه المرحلة، ضاقَت المدينة بسكّانها المتزايدين وما يحتاجونه من القوت والمسكن، فطلب الرسول ﷺ من بعض المهاجرين بعد الخندق العودة إلى ديارهم قائلاً: «هِجرَتكم في رِحالكم»، إذ لم تعد ثَمَّة حاجة لإقامتهم في المدينة، بل صار بقاؤهم في قبائلها أجدى لقيامهم بالدعوة إلى الإسلام خارج المدينة وتوسيع انتشار الإسلام[2]. هذا،

---

(١) د. علي الصلابي، السيرة النبوية، ص٦٣٦ ـ ٦٣٧، بتصرُّف.

(٢) د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١: ٢٣٨.

وستستقبل المدينة مع ذلك مهاجرين قُرشيِّين في حِرص على استيعابهم هجرةً وجهادًا قبل الحديبية وبعدها كما سيظهَر.

➢ هذا، وقد نزلت في هذه المرحلة سبع سور تنتهي بسورة الفتح عند صلح الحديبية:

❑ «**الزلزلة**»(١): وفيها عرض مشاهد من يوم القيامة حين تزلزل الأرض، وتُخرِج الموتى منها، وتشهد على النَّاس بأعمالهم عليهم بوحي من الله لها، حينها يعود النَّاس متفرِّقين، فمَن يعمل مثقال ذرَّة من خيرٍ يَرَهْ، ومَن يعمل مثقال ذرَّة من شر يَرَهُ. وعقَّب النبيّ ﷺ على ذلك ببيانه أنَّ «الكافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عنده خير، والمؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس عنده شيء»(٢).

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري) على كونها مدنية، خلافًا لروايتَي الحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس فهي مكية عندهما. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي النساء والحديد. وبعد تقديم سورة النساء بأقسامها (وهي في لوائح تأتي بعد سورة الأحزاب كما في لوائح ترتيب النزول عند تأجيل سورتَي المائدة والممتحنة إلى مكانهما بعد صلح الحديبية). فتُصبح سورة الزلزلة تالية لسورة الأحزاب.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة الزلزلة، **٢٤: ٥٤٧ ـ ٥٥٣**، بتصرُّف. لما «نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] قال أبو بكر: يا رسول الله، إني أُجزى بما عملت من مثقال ذرّة من شرّ، فقال: يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذَرّ الشَّرّ، ويدَّخر لك الله مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة. المصدر نفسه، **٢٤: ٥٥١**، تصرُّف. وبذلك يتناسب مع أجواء ما بعد أُحُد التي نال الصحابة فيها ما نالهم من الأذى.

□ «**الحديد**»[(١)]: وفيها الثناء على الله بتنزيهه وعرض أسمائه وأفعاله في مُلكه (فيولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، كظاهرة كونية متناسبة مع الانتقال بين حالات الانتصار والانكسار). وتُوَجِّه الآيات للإيمان والإنفاق بدافع الأجر والوفاء بالميثاق (بيعة العقبة وصحيفة المدينة المُلزِمَتان للحماية والإنفاق في الحروب)[(٢)]. وتُشير الآيات إلى عدم التساوي بين الإنفاق والقتال قبل الفتح وبعده (بين المؤمنين أنفسهم). ثمَّ تعرض السورة مشاهد القيامة وحال المؤمنين والمؤمنات فيها بأنوارهم والجنات والرحمة من جهة، وحال المنافقين والمنافقات فيها بالعذاب والنار من جهة أُخرى، بسبب انحرافهم وتربُّصهم وارتيابهم وأمانيِّهم واغترارهم بالله، مع كون المجموعتَين منعزلتَين عن بعضهما. (وبذلك يتبيَّن بدقَّة تحقُّق تمييز الخبيث من الطيب الذي ذكره الله في سورة آل عمران كمآل للانتكاسة في غزوة أُحُد). ثمَّ تتوجَّه الآيات إلى الذين آمنوا (عمومًا، وكصنف ممَّن تلبَّس بخصلة من

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبو عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي الزلزلة ومحمد. ومع أنَّه وردت رواية صحيحة عن ابن مسعود ﵁ يقول فيها: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] إلا أربع سنين. **صحيح مسلم**، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، ٤: ٢٣١٩، ح: ٣٠٢٧. لكن كونها مدنية في قول الجمهور. الماوردي، **النكت والعيون**، سورة الحديد، ٥: ٤٦٨، بتصرُّف. وموضوعاتها التي تتناول الحثّ على الإنفاق والقتال لتحقيق النصر، وعرض مآل المنافقين والمنافقات يوم القيامة بسبب تربُّصهم وارتيابهم، وانتقاد بعض ممارسات أهل الكتاب... وكلُّها من موضوعات القرآن المدني، بل قد يتناسب مع إمكانية نزولها في المدة بين العام الرابع الهجري (وليس للبعثة) حتى العام السادس منه (قبل صلح الحديبية)، وهو ما يتناسب مع ترجيح بقائها في هذا الترتيب وفي هذا المسار من السيرة.

(٢) د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، ٣: ٢٥٩، بتصرُّف.

خِصال المنافقين في مكة أو المدينة خصوصًا حين استبطؤوا عن هجر ما نهى الله عنه أو الهجرة، لتستكمل السورة المسار الذي عرضته سورة النساء)[١]، بأنَّه حان الوقت لتخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ، بمقابل أهل الكتاب الذين قست قلوبهم بطول الزمن، وتمَّ عرض ظاهرة إحياء الله الأرض بعد موتها (ظاهرة كونية) للدلالة على أنَّ خشوع قلوبهم ممكن كحياة الأرض الميتة، مع عرض حقيقة الدنيا في زوال متاعها، فعلى المؤمنين المسارعة إلى المغفرة والجنات.

وعرضت السورة سبق تقدير الله للأقدار وما فيها من مصائب كي لا يحزن المؤمنون على ما فاتهم ولا يفرحوا بما آتاهم. كما أظهر الله الغاية من إرسال الرسل لتحقيق القسط في العلاقات بين الناس. فعلى المؤمنين نصرة الدين (كموقف إيجابي في التغيير، والعمل بالإنفاق والقتال لتحقيق تلك الغاية) خلافًا لموقف أهل الكتاب بابتداع الرهبانية وعدم رعايتهم لها، وكون الله قد آتى الذين آمنوا منهم أجرهم. ويتمّ توجيه الذين آمنوا[٢] بالتقوى والإيمان بالرسول ﷺ. وبذلك، يتبيَّن لأهل الكتاب أنَّ فضل الله (في نبوَّة محمد ﷺ وهو ليس من بني إسرائيل) هو بيد الله يؤتيه مَن يشاء.

بعدما عرضت سورة الزلزلة رؤية عمل الخير والشَّرّ في سياق يجعلها في الآخرة، وبتعقيب نبويّ يُطلعنا بما يكون من هذه الرؤية في الدنيا، كانت سورة الحديد عن أعمال المؤمنين (الإنفاق والقتال وعاقبتهم النور والرحمة) والمنافقين (الفتنة والتربُّص، وعاقبتهم

---

(١) «قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية. قال مقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عمّا في التوراة فإن فيها العجائب، فنزلت هذه الآية. وقال غيرهما: نزلت في المؤمنين». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، ص٤٢٦. وما أثبته أعلاه يجمع بين القَولَين، ويتناسب مع سياق الآيات في السورة، ومع سياق المعنى المستمرّ منذ سورة النساء في أصناف مسلمي مكة ودعوتهم للهجرة وانقسام أصناف المنافقين.

(٢) «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [**الحديد**: ٢٨] المراد به أولئك، أي: الذين آمنوا من قوم عيسى عليه السلام». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة الحديد، ٢٩:٤٧٥، بتصرُّف.

العذاب والنار) وأهل الكتاب (في ابتداع الرهبانية ـ ولو لرضوان الله ـ المقابِلة للقتال). ثمَّ جاءت سورة محمد عن أعمال المؤمنين والكافرين ومرضى القلوب، في سياق يستحضر الأمر بالقتال ومآله بالنسبة إلى كلٍّ منهم، خاصة بعد عدم تحقُّق أهداف الأحزاب بغزوة الخندق.

□ «**محمد**»[١]: وفيها إعلان إضلال أعمال الذين كفروا (كيدهم ومكرهم في الدنيا كما حدث في فشلهم في غزوة الخندق، وجزاءهم وثوابهم على صالحاتهم في الآخرة)[٢] وصدُّوا عن سبيل الله (من مشركي مكة)[٣] لأنَّهم اتَّبعوا الباطل، بالمقابل تذكر السورة

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي الحديد والرعد. ورغم أنَّنا اعتمدنا روايات ترجيح مكية سورة الرعد، إلا أنَّ هذه السور الثلاث (الزلزلة والحديد ومحمد) ترد متلاحقة في الروايات الأربعة.

(٢) قال الضحاك بأنَّ الله أبطل كَيدهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ وجعل الدائرة تدور عليهم. الثعلبي أحمد بن محمد، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، سورة محمد، ٩: ٢٨، بتصرُّف. والبغوي الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، سورة محمد، ٤: ٢٠٨، بتصرُّف. والخازن، **لباب التأويل**، سورة محمد، ٤: ١٣٩، بتصرُّف. أو تعني: إبطال أعمالهم وإذهابها دون جزاء ولا ثواب. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة محمد، ٧: ٣٠٦، بتصرُّف.

فإذا علمنا أنَّ الآيات قد نزلت في مشركي مكة تحديدًا كما تبيَّن، وفي مدّة ما بعد غزوة الأحزاب بعد إنهاك قريش بالحرب الذي سيُشير إليه النبي ﷺ بعد خروجه إلى مكة في العام السادس عند علمه بتجمُّع قريش له كما سيأتي. فسيتبيَّن استقامة معنى إضلال أعمالهم في الدنيا بهذا المعنى.

(٣) كما روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما. الطبري، **جامع البيان**، سورة محمد، ٢٢: ١٥٢، بتصرُّف.

إصلاح أحوال[1] الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد ﷺ[2]؛ لأنَّهم اتَّبعوا الحقَّ من ربِّهم. (وكما خُتِمت سورة الحديد بالطلب من الذين آمنوا (بعيسى عليه السلام) الإيمان بالرسول ﷺ، فكذلك افتُتِحَت سورة محمد بالطلب من الذين آمنوا ـ من المسلمين ـ الإيمان به ﷺ). وفي ذلك «بيان لمآل أعمالهم وما يصيرون إليه»[3] (في انسجام مع رؤية الأعمال الواردة في التعقيب النبوي على سورة الزلزلة). ثمَّ بيَّنت السورة وصايا المعارك (ضرب الرقاب، الأَسْر[4] ثمَّ التحرير بمنٍّ أو فداء) حتى تضع الحرب أوزارها (بالإسلام فلا يبقى شرك، أو المسالمة بصلح في تمهيد لما سيحدث في الحديبية)[5]. فعلى

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة محمد، ٧: ٣٠٦، بتصرُّف.

(٢) «قوله تعالى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢] هو في مقابلة قوله في حق الكافر ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١]». الرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة محمد، ٢٨: ٣٥، بتصرُّف.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة محمد، ٧: ٣٠٦، بتصرُّف.

(٤) عند المقارنة بين ما ورد في سورة الأنفال عن الأسرى قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وما ورد في سورة محمد عنهم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]، نجد رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول عن الأولى (سورة الأنفال): «ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتدّ سلطانهم، أنزل الله تعالى هذا في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾، فجعل الله النبيّ ﷺ والمؤمنين بالخيار في أمر الأسارى، إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادوهم». البيهقي، **السنن الكبرى**، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في استعباد الأسير، ٦: ٥٢٦، ح: ١٢٨٥٧. وبذلك يتبيَّن مناسبة سورة محمد للمرحلة التي تمَّ اختيارها لها، والتي كانت أكثر المراحل التي حدثت فيها سرايا.

(٥) ذهب معظم المفسِّرين في كون المقصود من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ نقلاً عن مجاهد وقتادة: إسلام كلِّ صاحب مِلَّة بنزول عيسى عليه السلام وظهور الإسلام على الدين كلِّه، فلا يكون شرك بعد ذلك. الطبري، **جامع البيان**، سورة محمد، ٢٢: ١٥٧، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة محمد، ٧: ٣٠٧ ـ ٣٠٨، بتصرُّف. والرازي، **مفاتيح الغيب**، سورة محمد، ٢٨: ٣٩، بتصرُّف. ولكن، ذهب آخرون في تفسير تلك الآية نقلاً عن =

المؤمنين نصر الله بالقتال في سبيل الله للتأهُّل للنصر والتثبيت، مقابل إحباط الله لأعمال الذين كفروا وكَرِهوا ما أنزل الله. ويتمّ الاستشهاد بتدمير الله للقوم السابقين أنَّها عاقبة للكافرين (مشركي مكة).

وكما بدأت السورة بالمقارنة بين طرفَين (الذين كفروا ومآلهم، والذين آمنوا ومآلهم)، تُبيِّن الآيات أوجهًا أُخرى في المقارنة، فالذي آمنوا لهم الله مولاهم، ويدخلون الجنات، ورسول الله ﷺ على بيِّنة من ربِّه. بالمقابل، الذين كفروا لا مولى لهم، ويتمتَّعون في الدنيا كالأنعام والنار مثواهم، واتَّبعوا أهواءهم. وتضرب الآيات الأمثلة عن الجنة والنار للمقارَنة بينهما.

ثمَّ تنتقل السورة إلى انتقاد موقف مرضى القلوب في المدينة، بكونهم يستمعون الوحي دون وعي وفَهْمٍ بسبب التهاون والتغافل[1]، فطبع الله على قلوبهم بسبب اتِّباعهم أهواءَهم (تمامًا مثل الذين كفروا كما مرّ)، ولن تنفعهم توبتهم إذا حانت الساعة (القيامة) التي جاءت مقدِّماتها وعلاماتها. بالمقابل، يزيد الله الذين اهتدَوا هدى ويُؤتيهم تقواهم.

ثمَّ وجَّهت الآيات لسبيل المعالجة من الأهواء السابقة بالتوحيد والاستغفار. وتعرض

= الفراء بـ«الإمساك عن الحرب حتى يُسلموا أو يُسالموا». الثعلبي، **الكشف والبيان**، سورة محمد، ٩: ٣٠، بتصرُّف. والبغوي، **معالم التنزيل**، سورة محمد، ٤: ٢١٠، بتصرُّف. والخازن، **لباب التأويل**، سورة محمد، ٤: ١٤١، بتصرُّف.

فإذا علمنا أنَّ الآيات قد نزلت في مشركي مكة تحديدًا كما تبيَّن، وأنَّ الحرب في الإسلام «ما شُرِعَتْ ليُرغَم الناس على الدين، لكن ليحمي اختيارهم للدين» **تفسير الشعراوي**، سورة الأحزاب، الآية: ٥٠، ١٩: ١٢١١١. وقد كان ذلك السبب واضحًا في آيات الأمر بالقتال ص٣٨٠، وفي مداخلة عتبة بن ربيعة قُبَيل غزوة بدر كما سبق ص٣٨٨. لذلك، فلا غرابة أن تضع الحرب أوزارها (مع مشركي مكة) بمسالمة صلح الحديبية الذي سيُمكِّن النبيّ ﷺ من دعوة النَّاس دون وقوف قريش بينه وبينهم.

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة محمد، ٢٢: ١٦٩، بتصرُّف

الآيات موقف الذين آمنوا في المطالبة بنزول آيات القتال، مقابل موقف مرضى القلوب في الخوف منه بدل الطاعة وصِدقهم الله بإخلاصهم، ولكنَّهم بتولِّيهم عن ذلك يُعرِّضون أنفسهم للإفساد في الأرض وقطع الأرحام (وهو سبيل الإنسان الذي يسير بلا منهج إلهي يضبط حركته، فمُعرَّض للإفساد والقتال الجاهلي)، فيُصبح جزاؤهم اللعن من الله. وتُوَجِّههم الآيات لتدبُّر القرآن (أي: الوحي والسورة المذكورين سابقًا، فيفهمونه ويكون لهم دافعًا للتصدِّي لأهوائهم)[١]، بدلاً من مطاوعة الشيطان بالردَّة بعد الهدى.

ثمَّ تنتقل الآيات إلى ذكر الحِلف السري بين مرضى القلوب والذين كرهوا ما نزَّل الله (أي: الذين كفروا كما مرّ)، بطاعتهم لهم في بعض الأمر (في عداوة النبيّ ﷺ)[٢]. فَهُم أيضًا سيُحبِط الله أعمالهم بسبب اتِّباعهم ما أسخط الله وكَرِهوا رضوانه. وتنتقل الآيات للحديث عن تشريع الجهاد في كونه ابتلاء ليتبيَّن المجاهدون والصابرون وتنكشف أحوال المسلمين. وتُوَجِّه الآيات المؤمنين لطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وعدم إبطال أعمالهم، وعدم الدعوة إلى السَّلم (ضعفًا أو جبنًا)[٣]، وهم الأعلَون (كوضعية مادية بعد غزوة الأحزاب)[٤] ولن تضيع أعمالهم، والإنفاق في سبيل الله الغني.

وتُختَم السورة بأنَّ مَن يتولَّى يستبدل الله بهم قومًا غيرهم ليسوا أمثالهم.



---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة محمد، ٢٢ : ١٧٩، بتصرُّف

(٢) البغوي، **معالم التنزيل**، سورة محمد، ٤ : ٢١٧، بتصرُّف. والخازن، **لباب التأويل**، سورة محمد، ٤ : ١٤٨، بتصرُّف.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، سورة محمد، ٢٢ : ١٨٧، بتصرُّف

(٤) المصدر نفسه، سورة محمد، ٢٢ : ١٨٨، بتصرُّف

المبحث الثاني: الإعداد بتحمُّل المسؤولية

➢ استُكمِلت المرحلة بنزول مجموعة أُخرى من السور:

▫ «**المجادلة**»[١]: وفيها حكم الذين يُظاهِرون من نسائهم ثمَّ يعودون لزوجاتهم (تحرير رقبة، أو صيام شهرين مُتتابعَين لمَن لم يجد، أو إطعام ستّين سكينًا لمَن لم يستطع). ويتمّ الرَّدّ على الذين يُحادّون الله ورسوله (يُشاقُّون ويُعاندون[٢] ويمنعون[٣]) بكونهم كُبِتوا (ذُلّوا[٤] وأُخزوا وأُهينوا[٥]) كما حدث لمَن قبلهم، والإعلام بأنَّ للكافرين بآيات الله عذاباً مهيناً في الآخرة حين ينبِّئهم الله بأعمالهم التي أحصاها لهم، لأنَّه عز وجل مطَّلع على نجواهم. ثمَّ

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية خلافًا لأبي عمرو الداني فقد جعلها مكية. وهي «مدنية في قول الجميع، إلا رواية عن عطاء أن العشر الأول منها مدني وباقيها مكي». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة المجادلة، ١٧ : ٢٦٩. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي المنافقون والحجرات. وبعد أن تمَّ ترجيح تأجيل سور الزلزلة والحديد ومحمد إلى ما بعد العام الخامس الهجري (بسور المنافقون والنور وتتمة الأحزاب)، فقد وضعتُها بعدها. أما السور التي وردت في اللوائح بعدها وهي الحجرات والتحريم والجمعة والتغابن والصَّفّ (على اختلاف بسيط في الترتيب بين اللوائح)، فقد قُمت بترجيح تأجيلها مع سورتَي التحريم والجمعة إلى ما بعد صلح الحديبية كما سيتبيَّن في موضعه، فأصبحت سورة المجادلة سابقة لسورتَي التغابن والصَّفّ.

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة المجادلة، ٨ : ٤١، بتصرُّف.

(٣) «أي: يُمانعون: إمّا اعتبارًا بالممانعة، وإمّا باستعمال الحديد». الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الحاء، ص٢٢٢.

(٤) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، باب الكاف والباء وما يثلثهما، ٥ : ١٥٢.

(٥) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة المجادلة، ٨ : ٤١، بتصرُّف.

تردّ الآيات على اليهود في تحيَّتهم الماكرة في الدعاء على النبيّ ﷺ[١] . وتمَّ توجيه الذين آمنوا إلى عدم التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، والتناجي بالمقابل بالبر والتقوى، وتمَّ إعلام المنافقين منهم بذلك بسبب كون تلك المناجاة من الشيطان ليَحزُن الذين آمنوا[٢] . ثمَّ تمَّ توجيه الذين آمنوا إلى التفسُّح في المجالس (مجالس العلم أو القتال)[٣] . وتستكمل الآيات موضوع تنظيم المجالس بتوجيه المؤمنين إلى تقديم صدقة قبل مناجاة النبيّ ﷺ، ثمَّ تمَّ نسخ هذا الحكم، وتمَّ توجيههم للصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ[٤] .

---

(١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنَّ اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليك، ثم يقولون في أنفسهم، لولا يُعذِّبنا الله بما نقول. فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨] إلى آخر الآية. مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة المجادلة، ص٢٠٤، بتصرُّف.

(٢) «عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠]: كان المنافقون يتناجَون بينهم، وكان ذلك يغيظ المؤمنين، ويكبر عليهم، فأنزل الله في ذلك الآية». الطبري، **جامع البيان**، سورة المجادلة، ٢٣: ٢٤١، بتصرُّف. وقد ورد في رواية أُخرى بدون إسناد فحوى موضوع المناجاة بأنَّهم «كانوا يتناجَون فيما بينهم دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويُحزِنهم، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن لا يتناجَوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم». الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة المجادلة، ص٤٣٠.

(٣) الطبري، **جامع البيان**، سورة المجادلة، ٢٣: ٢٤٥، بتصرُّف.

(٤) «عن قتادة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢] قال: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فوعظهم الله بهذه الآية، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبي الله ﷺ، فلا يستطيع أن يقضِيَها، حتى يُقَدِّم بين يدَيه صدقة، فاشتدّ ذلك عليهم، فأنزل الله عز وجل الرخصة بعد ذلك ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾». المصدر نفسه، سورة المجادلة، ٢٣: ٢٤٨ ـ ٢٤٩، بتصرُّف.

وتنتقل الآيات للرَّدّ على المنافقين (حزب الشيطان) الذين تولَّوا اليهود (المغضوب عليهم)، ويحلفون كذبًا بإنكار ذلك عند مواجهتهم[١] ليستتروا في صدِّهم عن سبيل الله، فمآلهم العذاب الشديد الذي لن يحميهم منه الحَلِف يوم القيامة. وتنتقل الآيات للرَّدّ على الذين يُحادُّون الله ورسوله بكَونهم في الأذَلِّين، وبأنَّ الله قدَّر الغلبة له ولرسله.

وتُختَم السورة بتوصيف مَن يؤمن بالله واليوم الآخر بأنَّه لا يوادّ مَن حادّ الله مهما كان شكل القرابة بينهما، فأولئك المؤمنون الذين يتأهَّلون للتأييد والجنة ورضوان الله، فهم حزب الله المفلحون.

□ «**التغابن**»[٢]: وفيها تسبيح الله والثناء عليه، وعرض انقسام النَّاس بين كافر به ومؤمن به. وتستعرض السورة عاقبة الذين كفروا مِن قَبل لما تولَّوا. وتؤكِّد الآيات على البعث وما فيه من إخبارٍ بالأعمال. وتستكمل السورة بالطلب منهم الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله، (في سياق يستكمل ما في سورة الطلاق من كونه ذِكرًا تَمَثَّل في رسول، وفي سورة البينة من كَون الرسول ﷺ يتلو صُحُفًا مُطَهَّرة). وتتمّ تسمية يوم القيامة بيوم الجَمْع ويوم التغابن حيث الشعور بالغَبْن[٣] ممَّن لم يُحقِّق مُتَطَلَّبات جزاء النعيم الأُخروي. ويتمّ عرض

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة المجادلة، **٢٣**: **٢٥٢ ـ ٢٥٣**، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي) على كونها مدنية، خلافًا لأبي جعفر النحاس فقد جعلها مكية. وهي «مدنية في قول الأكثرين. وقال الضحاك: مكية. وعن ابن عباس أنَّ سورة التغابن نزلت بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة التغابن، ١٨: ١٣١. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي الجمعة والصَّفّ. وعند البيهقي أنَّها نزلت بين سورتَي الجمعة والفتح. وبعد أن تمَّ ترجيح تأجيل سورة الجمعة كما سيتبيَّن فقد وضعتها بعد سورة المجادلة، وقبل سورة الصَّفّ.

(٣) «الغَبْنُ: أن تبخس صاحبك في معاملةٍ بينك وبينه بِضَرْبٍ من الإخفاء. ويوم التَّغَابُنِ: يوم القيامة لظهور الغَبْنِ في المبايعة المشار إليها بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ =

جزاء مَن يؤمن بالله ويعمل صالحًا بتكفير السيئات والخلود الأبدي في الجنات، مقابل خلود النار للذين كفروا وكذَّبوا بالآيات.

وتتناول الآيات أنَّ ما ينزل من المصائب هو بإذن الله وهداية القلب في التعامل معها يكون بالإيمان بالله، وطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ والتوكُّل عليه. وتتوجَّه الآيات إلى مسلمي مكة لمعالجة موانع بطء الهجرات منها إلى المدينة للجهاد مع رسول الله ﷺ، (بعد أن بدأت سورة النساء وما تلاها بدعوتهم إلى الهجرة)[1] بسبب الارتباط بالزوجات والأولاد، فعليهم الحذر مع العفو والصفح والمغفرة في التعامل معهم (وليس عقابهم)، ويتمّ التنبيه إلى كونهم فتنة، وأنَّ على المؤمنين تقوى الله ما استطاعوا مع السمع والطاعة والإنفاق بالتغلُّب على مَيل النفس إلى البخل.

□ «**الصَّفّ**»[2]: وفيها تنزيه الله والثناء عليه، ثمَّ تنتقل مباشرة إلى عتاب الذين آمنوا

= مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١]، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧]، فعلموا أنّهم غُبِنُوا فيما تركوا من المبايعة، وفيما تعاطَوه من ذلك جميعًا. وسُئِل بعضهم عن يوم التَّغَابُنِ فقال: تبدوا الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدّنيا». الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب**، كتاب الغين، ص٦٠٢، بتصرُّف.

(١) قوله تعالى في الآية: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] نزلت في عوف بن مالك الأشجعيّ، كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورقَّقوه، فقالوا: إلى مَن تَدعنا؟ فيرقّ ويقيم، فنزلت. وعن مجاهد، في قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال: إنهما يحملانه على قطيعة رحمه، وعلى معصية ربّه، فلا يستطيع مع حبّه إلا أن يقطعه. وعن قتادة، قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، قال: منهم مَن لا يأمر بطاعة الله، ولا ينهى عن معصيته، وكانوا يُبَطِّئون عن الهجرة إلى رسول الله ﷺ وعن الجهاد». الطبري، **جامع البيان**، سورة التغابن، ٢٣: ٤٢٤، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد =

بسبب طلبهم معرفة أحبّ الأعمال إلى الله (القتال في سبيله صفًّا مرصوصًا) ثمَّ تقصيرهم في فعل ذلك[(١)]. وتنتقل السورة للحديث عن وجوب التسليم للرسالات بدل التقاعس عنها، وعرضت السورة مواقف أقوام سابقة بإيذاء قوم رسول الله موسى عليه السلام له وزَيغهم

= وابن الأنباري والحارث المحاسبي) على كونها مدنية، خلافًا لأبي جعفر النحاس فقد جعلها مكية. وهي «مدنية في قول الجميع، فيما ذكر الماوردي. وقيل: إنها مكية». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الصف، ١٨: ٧٧. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبو عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وأنَّها نزلت بين سورتَي التغابن والفتح. وعند البيهقي أنَّها نزلت بين سورتَي التحريم والجمعة. وقد وردت في نزولها روايات عامة صحيحة: «عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفر من أصحاب النبيّ ﷺ وقلنا: لو نعلم أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله تبارك وتعالى عملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ١ - ٤] إلى آخر السورة، فقرأها علينا رسول الله ﷺ». وإسناد الرواية صحيح. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة الصف، ص٤٢٦. بالمقابل، ورد في إحدى الروايات كونها نزلت بعد غزوة أُحد (٣هـ) وهي: «كان المسلمون يقولون: لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله تعالى لَبَذَلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فدلَّهم الله تعالى على أحبِّ الأعمال إليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ الآية، فابتُلوا يوم أُحُد بذلك، فوَلَّوا مدبرين. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. إلا أنَّ إسنادها فيه انقطاع. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة الصف، ص٤٤٧. لذلك، ولأنَّ جميع روايات ترتيب النزول أوردت السورة بعد سور العام الخامس الهجري (الأحزاب، المنافقون، النور)، فإنَّه يُمكن تأويل التقصير في تحقيق الأمر بالقتال بأنَّه الأمر الذي ورد في سورة محمد بطلبهم (كما تُشير الرواية الصحيحة)، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠]. وبذلك تتناسب الرواية الصحيحة مع ترتيب السورة.

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الصف، ٢٣: ٣٥٥ - ٣٥٦، بتصرُّف.

(مَيلهم)، واتِّهام بني إسرائيل لرسول الله عيسى عليه السلام بالسحر بعد أن جاءهم بالبينات وبالبشارة بالرسول أحمد من بعده[١]. فكان في افتراء الكذب ظلم لمَن يُدعَى إلى الإسلام، وإرادة منه لإطفاء نور الله، ولكنَّ الله مُتِمّ نوره رغم كُره الكافرين. ولذلك أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظهِره على الدين كلِّه رغم كُره المشركين. ثمَّ تنتقل السورة إلى الذين آمنوا لتدُلَّهم على تجارتهم التي تُنجيهم من العذاب الأليم وتكفل مغفرة الذنوب ودخول الجنات والنصر من الله والفتح القريب، (كإعادة للصفقة التي سيشعر فيها غير مُحَقِّقيها بالغَبْن يوم القيامة كما ورد في سورة التغابن) وبنود التجارة من جهتهم هي: الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس.

وتُختَم السورة بدعوة المؤمنين ليكونوا أنصار الله كما فعل الحواريون مع عيسى عليه السلام، فيتأهَّلوا لتأييد الله على عدوِّهم ـ كما حدث مع الذين آمنوا من الحواريين ـ فأصبحوا ظاهرين.



---

(١) البقاعي، **نظم الدرر**، سورة الصف، ٢٠: ٩ ـ ٢٨، بتصرُّف.

المبحث الثالث: التزام أنصار الله (المؤمنين الخُلَّص) ووحدتهم سبيل الفتح بالنصر

أمر الحديبية[١]:

بعد مجموعة السرايا التي وقعت في العام السادس الهجري، وبعد رؤيا رآها النبيُّ ﷺ عن دخوله مع المؤمنين إلى مكّة معتمرين[٢]، خرج بأصحابه إلى مكة. «وفي ذلك إظهار لحقيقة مشاعر المسلمين نحو البيت العتيق وتعظيمهم له، وإبطال لدعاية قريش المعادية التي تريد إظهارهم وكأنهم لا يعترفون بحُرمة الكعبة. ولا يخفى أن هذه التظاهرة الإسلامية تُبرِز قوّة المسلمين في أرجاء الجزيرة العربية، خاصة بعد فشل غزوة الأحزاب، وكانت قريش تفطن لهذه المعاني عندما منعت المسلمين من دخول مكة وأداء العمرة. وكان الرسول ﷺ يتوقَّع أن تصُدَّه قريش وقد تقاتله، لذلك أراد أن يخرج بأكبر عدد من المسلمين، فاستنفر أهل البوادي من الأعراب فأبطؤوا عليه [خَوف المواجهة المحتَمَلة مع قريش]، فخرج بمَن معه من المهاجرين والأنصار»[٣]. كذلك، كانت المدينة تستشعر وجود «تحالف عسكري بين قريش في جنوب المدينة وخَيبر في شمالها (التي بدأت تُظهر العداء للمسلمين منذ نزل فيها زعماء بني النضير كما تبيَّن)[٤]، وكان هدف هذا التحالف جعل المدينة بين طرفَي الكمّاشة، فحان الوقت لكسر ذلك التحالف سياسيًّا»[٥].

وصل الخبر إلى قريش فتجهَّزت، فلما علم النبيُّ ﷺ بذلك قال: «يا ويح قريش، لقد

---

(١) «أجمع أهل العلم على تاريخها في مستهلّ شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٣٤، بتصرُّف.

(٢) د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٦٥٧، بتصرُّف.

(٣) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٣٤.

(٤) د. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٦٩٦، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٥٧، بتصرُّف.

أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلُّوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوّة، فماذا تظنّ قريش، والله إني لا أزال أُجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يُظهِرَه الله له أو تنفرد هذه السالفة [أي: بموته ﷺ]»[(١)].

واستشار النبيُّ ﷺ كعادته أصحابه، فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ نقاتل أحدًا، ولكن مَن حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فأمرهم النبي ﷺ بالمسير[(٢)]. ثم أمر الناس، فسلكوا طريقًا تُخرِجه على ثنية المرار والحديبية ليتجنَّب المواجهة في سَلك الطريق الرسمية المعروفة حتى يصل إلى الحرم دون قتال.

□ فلما مرَّ ﷺ بعسفان استقبلهم المشركون، وحاولوا أن يهجموا عليهم عندما يحين وقت صلاتهم، فنزلت حينها آيات تشريع صلاة الخوف من **سورة النساء**[(٣)].

---

(١) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند الكوفيين، حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم، ٣١: ٢١٢، ح: ١٨٩١٠، بتصرُّف. و«إسناد الرواية حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٣٩، بتصرُّف.

(٢) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند الكوفيين، حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم، ٣١: ٢٤٤، ح: ١٨٩٢٨، بتصرُّف.

(٣) هذا هو الموضع الثالث لسورة النساء، والذي يحوي القسم السادس قبل الحديبية (٦هـ)، وهي الآيات (١٠١ ـ ١٠٣). فعن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة. فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحبّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٢]. قال: فحَضَرَت [أي: الصلاة]، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفَّين، ثم ركع ﷺ فركعنا جميعًا، ثم رفع فرفعنا جميعًا، ثم سجد النبيّ ﷺ بالصَّفّ الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدَّم هؤلاء إلى =

ولما وصل النبيُّ ﷺ إلى الحديبية قال: والله لا تدعونني قريش اليوم إلى خُطَّة [أي: خصلة وهي كناية عن الصلح]، يسألوني فيها صِلة الرحم إلا أعطيتُهم إياها. وأعلن نيَّته بالعمرة للوفود التي كانت تأتيه من طرف قريش، ولكنَّ قريشًا رفضت دخولهم عليها عنوة. فقد أرسلوا له بداية وفدًا فيه حلفاء له من خزاعة فأخبرهم بنِيَّته، ثمَّ أرسلوا إليه رجلاً غادرًا فأخبره بنِيَّته، ثمَّ أرسلوا له رجلاً من الأحابيش الذين يُعظِّمون البيت فسيَّر هَدْي العمرة أمامه ضمانة لكسب تعاطفه، ثمَّ أرسلوا له رجلاً غليظًا حاول زعزعة ثقة النبيّ ﷺ بأصحابه في حال حدث قتال، فتوضأ النبيُّ ﷺ أمامه فرأى تعظيم الصحابة له وتبرُّكهم بآثاره. ثمَّ أرسل النبيّ ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه ليُؤَكِّد نيَّته بالعمرة دون حرب، فحبسوه عندهم مدة. [حينها اختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، وحدثت معركة صغيرة، كفَّ الله فيها أيدي الطرفَين عن بعضهما، وعفا النبيُّ ﷺ عمَّن أَسَر منهم، وخلَّى سبيلهم دون عهد لهم يفرض ذلك عليه[1]، فكان ذلك بادرة عملية لحُسن النية بالصلح]. ولما خرجت شائعة بمقتل عثمان، [كان ذلك سببًا في التداعي بين المؤمنين للمبايعة (بيعة الرضوان) بعدم الفرار عند المواجهة. وأمام هذا التصعيد وافقت قريش على الصلح بشروط]. فلما قَدِم وفد إبرام

= مصافّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصافّ هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعًا، ثم رفع فرفعوا جميعًا، ثم سجد النبيّ ﷺ والصَّفّ الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلس جلس الآخرون، فسجدوا ثم سلّم عليهم ثم انصرف». أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المدنيين، حديث أبي عياش الزرقي، ٢٧: ١٢٠ ـ ١٢١، ح: ١٦٥٨٠، بتصرُّف، وإسناده صحيح. والحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، كتاب المغازي والسرايا، ٣: ٣٢، ح: ٤٣٢٣، وصحَّحه ووافقه الذهبي. و«إسناد الرواية جيد». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٣٧، بتصرُّف.

(١) **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب في صلح العدو، ٣: ٨٥، ح: ٢٧٦٥. وقد أخرجه مختصرًا، وتفصيله في: ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر الحديبية في آخر سنة ستّ وذكر بيعة الرضوان والصلح، ٢: ٣١٤. ود. علي الصلابي، **السيرة النبوية**، ص٦٦٩، بتصرُّف.

الصلح، اتفق الطرفان (النبيّ ﷺ والوفد) على وضع الحرب عشر سنين، وأن يُخلّوا بينه وبين العرب، فمَن أحبّ أن يدخل في عقد النبيّ ﷺ وعهده دخل فيه. وقد اشترط الوفد على النبيّ ﷺ بالمقابل عودته إلى المدينة دون الدخول إلى مكة وإتمام العمرة حتى العام القادم، كما اشترط عليه أن يردَّ مَن جاءه مسلمًا من قريش بلا إذن أوليائه. وقد أصرَّ الوفد على أن تكون ديباجة الصلح مبدوئة بـ«باسمك اللّهمَّ» بدل كامل البسملة «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم»، وأن يُذكَر النبيُّ ﷺ فيها باسمه واسم أبيه فقط «محمد بن عبد الله»[١].

□ وأثناء مكوثه ﷺ بالحديبية نزلت **آيات من سورة البقرة**[٢]، فيها عرض أحكام الحجّ والعمرة.

قام رسول الله ﷺ مُطبِّقًا شروط صلح الحديبية للتحلُّل دون إتمام العمرة فقال لأصحابه: «يا أيها الناس، انحروا واحلقوا». ولكن، ما قام أحد ممَّا بهم من الحُزن لعدم إتمام العمرة. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على زوجه أمِّ سلمة التي نصحته أن يُبادر بنفسه بتطبيق أمره فيتأسَّى به الناس، وهكذا كان. حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط طريق العودة، نزلت سورة الفتح[٣].

---

(١) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند الكوفيين، حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم، ٣١: ٢١٢ ـ ٢١٨، ح: ١٨٩١٠، بتصرُّف. و«إسناد الرواية حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٣٩، بتصرُّف.

(٢) هذا هو الموضع الخامس لسورة البقرة، والذي يترجَّح نزوله عند الحديبية (٦هـ)، وهي الآيات (١٩٦ ـ ٢٠٧). فقد «تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أن آية الفدية [١٩٦] نزلت عليه بسبب كعب بن عجرة رضي الله عنه، إذ شكا كثرة أذى برأسه، وذلك عام الحديبية». الطبري، **جامع البيان**، سورة البقرة، ٤: ٥٨، بتصرُّف. أما بقية الآيات التي تعرض أحكام الحجّ المذكور في صدر آية الفدية فقد ألحَقْتُها بها.

(٣) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند الكوفيين، حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم، ٣١: ٢٢٠، ح: ١٨٩١٠، بتصرُّف. و«إسناد الرواية حسن». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٣٩، بتصرُّف.

□ «**الفتح**»[1]: وفيها تسمية صلح الحديبية فتحًا، مآله للنبيّ ﷺ الغفران وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، وللمؤمنين إنزال السكينة في قلوبهم وإدخالهم الجنات وتكفير السيئات، وللمنافقين والمشركين العذاب والهزيمة والغضب واللعن على ظنِّهم ظنَّ السَّوء بهزيمة المسلمين في مواجهة قريش. ثمَّ تعرض السورة مهامَّ الرسالة للرسول ﷺ بالشهادة على مَن أُرسِل إليهم والتبشير والإنذار ليتحقَّق لهم الإيمان والتعظيم لله وعبادته. وكون بيعة الرضوان في الحديبية بيعةً لله. ثمَّ يتمّ التعرُّض للمتخَلِّفين من الأعراب عن الذهاب إلى مكّة مع النبيّ ﷺ بِرَدِّ مُبرِّراتهم وإظهار حقيقة تخلُّفهم بظنِّهم هزيمة المسلمين، فمآل مَن لم يؤمن بالله ورسوله منهم السعير. ثمَّ تنتقل الآيات إلى التغيير الذي سيكون في خطاب المتخَلِّفين عند انطلاق المؤمنين إلى غنائم (في المستقبل، وكانت خيبر)[2] بالإصرار على مشاركتهم وتبريرهم حكم الله - باقتصارها على المشاركين في الحديبية - حسدًا. ومع ذلك، تفتح الآيات لهم باب الأجر إذا أطاعوا دعوة قتال لاحقة (وكانت حروب الرِّدّة التي يقتصر فيها الحكم على: قتال المرتدِّين أو إسلامهم[3]، وهذا

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. وهي «مدنية بإجماع، ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحديبية». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الفتح، ١٦ : ٢٥٩. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها، ولكنَّهم اختلفوا في رتبتها، فذهب ابن الضريس والزهري إلى أنَّها نزلت بين سورتَي الصَّفّ والمائدة، وذهب البيهقي إلى نزولها بين سورتَي التغابن والتوبة، وذهب أبي عمرو الداني إلى نزولها بين سورتَي الصَّفّ والتوبة.

(٢) الطبري، **جامع البيان**، سورة الفتح، ٢٢ : ٢١٥، بتصرُّف.

(٣) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الفتح، ٧ : ٣٠٨، بتصرُّف.

الحكم هو بسبب عودة المرتدّ إلى الشرك المرفوض قَبوله من التعدُّدية العَقَدية، تزامنًا مع تحوُّل المرتدّ في كثير من الأحيان إلى مُقاتِل).

وبالعودة إلى المؤمنين فقد رَضِي الله عن المبايعين منهم بيعة الرضوان، وأثابهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة، وكفّ أيدي الناس عنهم بالصلح الذي أصبح آية لهم، ووَعَدَهم مغانم أُخرى لم يقدروا عليها حينها للصلح. مع الإعلام بأنَّ الصلح لم يكن عن ضعف موقفهم، فلو حدث قتال في الحديبية لكان النصر للمؤمنين؛ **لأنَّه سُنَّة الله التي قد خلت من قَبْل**. وذكرت الآيات أنَّ الله هو الذي كفَّ أيدي الطرفَين عن بعضهما، رغم شرعية قتالهم بسبب كفرهم وصدِّهم عن المسجد الحرام، وهو قادر على تعذيب الذين كفروا بهم لولا وجود مؤمنين ومؤمنات وسط المشركين مجهولين بالنسبة إليهم ولا يُمكن تمييزهم عنهم، فكانوا سببًا في رحمة الله على بعض الذين كفروا بإسلامهم قبل فتح مكة[١]. وتصف الآيات عصبية الذين كفروا (حَمِيَّة الجاهلية) في سلوكِيَّاتهم مع المؤمنين، مقابل إنزال الله السكينة على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين (فلم ينسَحِبوا من لقاءات تحضير الصلح)[٢].

وتُختَم السورة بذكر أنَّ الله صَدَق رسوله الرؤيا بالحقّ عن دخولهم المسجد الحرام آمنين، فهو الذي أرسله بالهدى ودين الحقّ ليُظهِرَه على الدين كلِّه. وهو محمد رسول الله (العبارة التي حُذِفَت من ديباجة الصلح)، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، عابدون لله بإخلاص تظهر آثاره موافِقة لِمَثَلهم في التوراة، ومَثَلهم في الإنجيل مَثَل الزرع في نموِّه وقوَّته حتى استوائه.

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة الفتح، **٢٢: ٢٥٠**، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة الفتح، **٢٢: ٢٥١ ـ ٢٥٣**، بتصرُّف.

➢ وهكذا، أوصلتنا إدارة التعدُّدية المجتمعية في هذه المرحلة إلى النتائج التالية:

• **أما التعدّدية العقَدية**: فيتمّ تأكيد كون رابطة الإيمان هي الجامعة بين المؤمنين وليس القرابات، وأنَّ على مسلمي مكة الهجرة منها وعدم تقديم القرابات على ذلك.

• **وأما التعدّدية الثقافية**: فتمَّ ضبط بعض العادات الاجتماعية الخاطئة وتوجيهها (الظهار). كما تمَّت الإشارة إلى الرهبانية (كسلوك وخيار في المجتمع) من جانب سلبي كونه لا يُشكِّل موقفًا إيجابيًا مؤثِّرًا في تغيير الباطل في المجتمع ولو كان لرضوان الله تعالى (في مقابَلة التغيير بالعمل العسكري). كما تمَّت الإشارة إلى مرض الخوف والتولِّي عن الطاعة (بالقتال) المُفضي إلى الإفساد. كما تنبِّه من ممارسات اليهود في تحياتهم الماكرة بالدعاء على النبيّ ﷺ. وتُوجِّه المؤمنين لعدم التناجي بالإثم والعدوان والمعصية، مع طلب التفسُّح في المجالس. وتمَّت الاستفادة من ثقافات وفود قريش قبل المصالحة معها لكسب تعاطفها أو دفع تحريضها، ومقابَلة المؤمنين لعصبية قريش في المفاوضات بالسكينة، كما وافق النبيُّ ﷺ على حذف ذكر البسملة والنبوّة من وثيقة المصالحة؛ لتحقيق هدفه منه بنشر الدعوة بين العرب.

• **وأما التعدّدية السياسية**: فرغم ما فعلته قريش، إلا أنَّه لم يتمّ الأمر بقتالها في الحَرَم بسبب وجود مؤمنين بينهم غير متمايزين، فاقتصر الأمر على خيار المصالحة. هذه المصالحة مع قريش تُحقِّق الاعتراف الخارجي بالمدينة المنوَّرة، وتُجيز وجود تعدّدية سياسية خارج إطار قريش، الأمر الذي سيُشجِّع العرب للتواصل مع المدينة. أما المنافقون، فقد بدأ نجمهم يضعف بعد غزوة الخندق، واستمرَّت آيات الوعيد الأُخروي لهم جزاء فتنهم الدنيوية في المجتمع، مع إمكانية معالجتهم أنفسهم بالتوحيد والاستغفار.

• **وأما التعدّدية العرقية**: فقد وافق النبيُّ ﷺ على بند في صلح الحديبية يجعل لقريش مكانة مُعارِضة لبقية العرب (بردِّ النبيّ ﷺ لمسلمي قريش الجدد فقط إليها، وقد وفَّى ﷺ

بهذا البند)، ولكنَّه كان بمنزلة التكتيك الذي تتحقَّق مقابله استراتيجية تنازل قريش عن إصرارها الممانع من انتشار الدعوة، وهو أمر مرحلي غير واقعي كما أثبت التطبيق.

- **وأما التعدّدية الطبقية**: فتستمرّ الآيات بالتوجيه للإنفاق على العمل العسكري لتحقيق العدل في العلاقات بين الناس، كما تمَّ تحديد كفَّارات لمعالجة ممارسات اجتماعية خاطئة بالتحرير للعبيد أو الإطعام للمساكين.



خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة :	الثامنة
	السور :	٧ سور (من الزلزلة إلى **الفتح**) وآيات من سور النساء والبقرة
	الزمن :	**٦ هجرة**
	الأحداث :	إرسال السرايا وصلح الحديبية
	الهدف :	معاقبة المشاركين في الأحزاب والغادرين بالمسلمين المصالحة مع قريش لتأمين حرية انتشار الدعوة عالميًا بلا تشويه
الفعل	الموضوع / الإجراء	حركة نشطة للسرايا لإنهاك قوى قريش وإحكام الحصار، واقتطاع ما يمدّها بالقوّة من حلفائها، ومعاقبة المشاركين في الأحزاب، والثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالمسلمين وناصبت العداء. الطلب من المؤمنين من بعض القبائل العودة إلى ديارهم (بعد انتهاء استهداف المدينة وكثافة سكانها). التوجيه للإيمان والإنفاق والقتال قبل الفتح، وبيان حال المؤمنين والمنافقين في الآخرة. طلب خشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحقّ، والمسارعة إلى المغفرة والجنات، بلا حزن على ما فات، أو فرح بما أوتوا. تشريع اتّخاذ الأسرى ثمّ المنّ أو الفداء. استكمال التشريعات لتنظيم الوضع الاجتماعي. معالجة موانع هجرة مؤمني مكّة بسبب الارتباط بفتنة الأزواج والأولاد، فعليهم الحذر مع العفو والصفح والمغفرة في التعامل معهم. الخروج إلى مكة لطلب أداء العمرة
	الأسلوب	
	الإطار	مجتمع بسلطة إدارته (دولة وشوكة) لن يُغزى من الخارج
	المخاطَب	أهل يثرب
	الضمانة	منعة إيمانية ببيعة وموادعة مع اليهود وعهود مع أعراب خارج المدينة

ردة فعل قريش	الاتجاه العام	صدّ النبيّ ﷺ عن دخول المسجد الحرام
	الأسباب	رفض دخول النبيّ ﷺ عنوة عليهم
	الوسائل	إرسال كتيبة لقتاله، ثمَّ إرسال الوفود غير الجادَّة، ثمَّ حبس عثمان بن عفان رضي الله عنه المرسَل من النبيّ ﷺ مدّة، ثمَّ تدافع عسكري صغير، ثمَّ إرسال وفد المصالحة وإتمام صلح الحديبية بشروطه مع اتصافهم بحمية الجاهلية (عصبية)
الاستجابة		تشريع صلاة الخوف، التفاعل مع الوفود حسب طبيعتها (عامة، غدر، تعاطف مع شعائر الله، غلظة)، وإرسال عثمان بن عفان رضي الله عنه إليهم للتفاوض، ثمَّ العفو عن المقاتلين في التدافع وإرسالهم إلى قريش (بادرة حُسن نيَّة)، ثمَّ بيعة الرضوان بعدم الفرار من المواجهة (عند انطلاق شائعة بمقتل عثمان)، والموافقة على شروط الصلح مع الاتصاف بالسكينة (ومن الشروط: حرية نشر الدعوة). ولم يتمّ تشريع قتال مشركي مكة بسبب وجود مؤمنين ومؤمنات مجهولين للمقاتلين لم يتمايزوا عنهم

ردة فعل مرضى القلوب/ المنافقين	الاتجاه العام	الانحراف، الارتياب	الصّدّ عن سبيل الله	عدم اللحاق بالنبيّ ﷺ في العمرة
	الأسباب	الأماني، الاغترار بالله	التهاون، التغافل، اتباع الأهواء	خوف المواجهة المحتملة مع قريش (ظنّ السّوء)
	الوسائل	التربُّص، الإفساد، قطع الأرحام	طاعة الكفار وتولِّي اليهود في عداوة النبيّ ﷺ	الإبطاء
الاستجابة		التوعُّد بالعذاب يوم القيامة	الطبع على قلوبهم واللعن من الله	التوعُّد الإلهي لهم بالعذاب والهزيمة والغضب واللعن
ردة فعل المؤمنين	الاتجاه العام	في المدينة: التجهُّز للعمرة	المبايعة على الموت	بعد الصلح: الحزن
	الأسباب	الرغبة في أداء العمرة	إشاعة مقتل عثمان	الرغبة في أداء العمرة
	الوسائل	الذهاب مع النبيّ ﷺ إلى مكة للعمرة	البيعة على الاستعداد للقتال	عدم المبادرة لتنفيذ أمر النبيّ ﷺ بالتحلُّل
الاستجابة				المبادرة العملية من النبيّ ﷺ بالتحلُّل فتبعه المؤمنون
		إنزال السكينة في قلوبهم، ورضى الله عن المبايعين والإثابة بالفتح والمغانم وكفّ أيدي الناس عنهم وجعل الصلح آية		

ردة فعل اليهود	الاتجاه العام	
	الأسباب	
	الوسائل	
الاستجابة		
ردة فعل الأعراب/ العرب	الاتجاه العام	عدم اللحاق بالنبيّ ﷺ في العمرة
	الأسباب	خوف المواجهة المحتملة مع قريش (ظنَّ السَّوء)
	الوسائل	الإبطاء
الاستجابة		رَدّ مبرِّراتهم وإظهار حقيقة دوافعهم، والإعلام بحرمانهم من غنائم الغزوة اللاحقة (خيبر)، مع فتح باب الأجر عند الطاعة في قتال لاحق (حروب الرِّدّة)
تمييز مكوِّنات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي:	داخلي / خارجي (تدافع عسكري)
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	المدينة: المؤمنون، اليهود، المنافقون، مرضى القلوب
	مظاهر الاختلاف فيها	انتمائي، مصدري، خُلُقي
	التمييز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	تميز حزب الله (ممَّن لا يُوادّ مَن حادَّ الله ورسوله ﷺ) والمجاهدين والصابرين ومَن يُحسن الظنَّ بنصر الله عن غيرهم
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا:	قوة
	حركة/ جمودًا:	حركة
	نوعًا/ عددًا:	نوع

الفصل الرابع
تحدِّيـــات ما بعـــد الفتـــح

المبحث الأول: تشكيل الائتلاف الكبير على مقاصد الدين

بعد أن عاد النبيُّ ﷺ من الحديبية (الفتح) إلى المدينة، بدأ بإرسال الرسل من أصحابه إلى ملوك العجم (النجاشي عظيم الحبشة، وهِرَقل عظيم الروم، وكِسرى عظيم فارس، والمُقَوقِس عظيم القِبط)، وملوك العرب (من الغساسنة، وبني حنيفة، وفي عُمان، وفي البحرَين) يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كُتُبًا مختومة على وفق الأعراف الدولية حينها. (كما أرسل كتابًا إلى يهود خيبر)(١). وقد أثمرت تلك الكتب أن اختلفت مواقفهم من الدعوة بين معادٍ لها ومؤمن بها ومحايد في التعامل معها(٢).

هذا، وقد تبع تنفيذ صلح الحديبية حدثان مستجِدَّان عالجهما النبيُّ ﷺ بوفاء وحكمة:

الأول: «لمَّا قَدِم رسول الله ﷺ المدينة أتاه أبو بصير وكان ممَّن حُبِس بمكّة، فقَدِم شخصان من قريش لاستلامه تنفيذًا لبنود الصلح، فقال له رسول الله ﷺ: يا أبا بصير، إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعلٌ لك ولمَن معك من المستضعَفين فَرَجًا ومَخرَجًا، فانطلِق إلى قومك. فانطلَق أبو بصير معهما، ثمَّ قتل أحدهما وعاد إلى النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله، وَفَت ذِمَّتُك، وأدَّى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أُفتَن فيه. فقال رسول الله ﷺ عنه: ويل أُمِّه مِحَشُّ [أي: مِسْعَر] حربٍ لو كان معه رجال. ثم خرج أبو بصير حتى نزل ناحية على ساحل البحر،

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، كتابه ﷺ إلى يهود خيبر، ١: ٥٤٤ ـ ٥٤٥، بتصرُّف. وقد ورد في الرواية الاستشهاد بآخر آية من سورة الفتح، مما يدلّ إلى أنَّ إرسال الكتاب كان بعد الحديبية.

(٢) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٣٢٩ ـ ٣٤٠، بتصرُّف.

بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبي بصير: ويل أمِّه، مِحَشُّ حربٍ لو كان معه رجال!، فخرجوا إلى أبي بصير واجتمع إليه منهم قريبًا من سبعين رجلاً، وكانوا قد ضيَّقوا على قريش، لا يظفَرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرُّ بهم عيرٌ إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأل بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم. فآواهم رسول الله ﷺ فقَدِموا عليه المدينة»[(١)].

والثاني: «صَمَّمت مجموعة من النساء المستضعفات في مكّة على الهجرة من مكّة إلى المدينة، وفي مُقَدِّمة هؤلاء النساء أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط، فقد هاجرت إلى رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية، فأراد كفار مكة أن يردوهنَّ. وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردُّوا النسوة المهاجرات بدينهنّ إلى أوليائهنّ، إمَّا لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب، أو لأنهم خشَوا على النساء اللاتي أسلمن، أن يضعُفْن أمام التعذيب والإهانة، وهنَّ لا يستطِعن ضربًا في الأرض، ورَدًّا للكيد كما فعل أبو بصير وأصحابه. وأيًا كان الأمر، فإنَّ احتجاز مَن أسلم من النساء تمَّ بتعليم القرآن»[(٢)] الذي طرح مبادرة تبادلية بين مسلمات مكة زوجات المشركين الراغبات في الهجرة، وبين مشركات مكة زوجات المؤمنين المهاجرين في المدينة الراغبات في البقاء في مكة، وذلك في آيات من سورة الممتحنة[(٣)].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ما جاء عليه أمر قوم مستضعفين بعد الصلح، **٢: ٣٢٣ ـ ٣٢٤**، بتصرُّف.

(٢) د. علي الصلابي، **السيرة النبوي**، ص٦٨٦، بتصرُّف.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، **٢: ٩٧٤**، ح: **٢٥٨١**، بتصرُّف. والمصدر نفسه، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام، **٢: ٩٦٧**، ح: **٢٥٦٤**، بتصرُّف. ومع أنَّ ظاهر الرواية الأولى أنَّهنَّ جِئن إليه وهو بالحديبية، ولكنَّه ليس كذلك، وإنما جِئن إليه بعدُ في أثناء المدّة [أي: الهدنة]. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، **٥: ٣٤٨**، بتصرُّف.

□ **آيات من سورة الممتحنة**(١): وفيها الأمر للمؤمنين بامتحان المؤمنات المهاجرات(٢) أنَّهنَّ «خرجن حُبًّا لله ورسوله والإسلام، وليس لأسباب شخصية كزوج ومال»(٣)، وعدم إعادتهنَّ إلى الكفَّار إذا تَبيَّن إيمانهنَّ لأنَّهنَّ لا يَحِلُّون لهم. بل عليهم تسليم مبالغ المهور إلى أزواجهنَّ بدلاً عن ذلك. بالمقابل، نَهَت الآيات المؤمنين عن التمسُّك بعقود نكاحهم مع الكوافر(٤)، وعليهم أخذ ما دفعوا لهنَّ من المهور بدلاً عن ذلك، فإن لم يستَوفوا المهور

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية، خلافًا لأبي عمرو الداني فقد جعلها مكية. وهي «مدنية في قول الجميع». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الممتحنة، ١٨: ٤٩.
وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبو عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها ولكنَّهم اختلفوا في رتبتها، فذهب البيهقي وأبو عمرو الداني إلى أنَّها نزلت بين سورتَي المائدة والنساء، وذهب ابن الضريس والزهري إلى نزولها بين سورتَي الأحزاب والنساء. ولكن روايات أسباب نزول بعض آياتها يجعلانها بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، وهو ما يتناسب أن تكون نزلت بعد سورة الفتح.
وباستعراض روايات أسباب نزول آياتها، يتبيَّن إمكانية تقسيمها إلى قسمَين: بعد صلح الحديبية (٦هـ): (الآيات ١٠ ـ ١٢) أحكام المهاجرات المسلمات من زوجات المشركين والزوجات المشركات للمسلمين اللواتي لم يُهاجِرن. قبل فتح مكة (٨هـ): (١ ـ ٩) الولاء والبراء في التعامل بين المؤمنين والكافرين، (١٣) مُلحَقَة بحكم منع تَوَلِّي الكافرين. لذلك، سأقوم بعرض هذه الأقسام في موضعَين. وهذا هو الموضع الأول للسورة.

(٢) يُلاحظ أنَّ هذا الإجراء الجديد (امتحان الإيمان) يتناسب مع هجرة إلى بلد معترف به رسميًا بعد صلح الحديبية خلافًا للهجرات السابقة.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، تسمية النساء المسلمات المبايعات من قريش، أم كلثوم بنت عقبة، ٨: ٢٣٠، بتصرُّف.

(٤) سبق أن تناولتُ في التعليق على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] ـ ص٤٠٧ ـ بداية تحريم العلاقة الزوجية بين طرف مؤمن وطرف مشرك بمنع إنشاء عقد جديد، وهنا استكمال التحريم بالنهي عن التمسُّك بالعقود الحالية بين طرف مؤمن وطرف مشرك.

=

منهنَّ فيُمكنهم أخذها من غنائم قادمة عند غزوهم[١]. ثمَّ تأمر الآيات النبي ﷺ أن يُبايع المؤمنات على عدم الشرك أو السرقة أو الزنا أو قتل الأولاد أو الإتيان ببهتان (أي: إلحاق بأزواجهنَّ غير أولادهنَّ) أو المعصية في معروف.

بعد أن تحقَّق للنبي ﷺ تحييد قريش بصلح الحديبية، فقد عمل على استثماره دون التوقُّف عنده، بأن أكمل باتجاه الطرف الثاني من التحالف السياسي على المدينة بعد قريش، فكانت غزوة خيبر بعد عودته من الحديبية في بدايات العام (٧هـ). وقد خرج إليها بمَن شهد معه صلح الحديبية حصرًا كما كان الوعد في سورة الفتح. وقد انتهت المفاوضات بعد الغزوة بمصالَحة اليهود فيها على حقن دمائهم، وترك الذرية لهم، والاحتفاظ بحقِّ

= هذا، ولم يحكم النبيُّ ﷺ بتعجيل الفرقة في قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فقد روى مالك عن ابن شهاب أنَّه: كان بين إسلام صفوان بن أمية، وبين إسلام امرأته بنت الوليد بن المغيرة نحوٌ من شهر، أسلمت يومَ الفتح، وبَقِيَ صفوانُ حتى شهد حُنينًا والطائف وهو كافر، ثم أسلم، ولم يُفرِّق النبيُّ ﷺ بينهما، واستقرَّت عنده امرأته بذلك النكاح. وقال ابنُ عبد البرّ: وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده. وقال ابنُ شهاب: أسلمت أُمُّ حكيم يومَ الفتح، وهرب زوجُها عكرمة حتى أتى اليمن، فدعته إلى الإسلام، فأسلم وقدم، فبايعَ النبيَّ ﷺ، فبقيا على نكاحهما. ومن المعلوم يقينًا أن أبا سفيان بن حرب خرج، فأسلم عام الفتح قبل دخولِ النبيّ ﷺ مكة، ولم تُسلم هند امرأته حتى فتح رسول الله ﷺ مكة، فبقيا على نكاحهما، وأسلم حكيمُ بنُ حِزام قبل امرأته، وخرج أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية عامَ الفتح، فلقيا النبيَّ ﷺ بالأبواء، فأسلما قبل منكوحتَيهما، فبقيا على نكاحهما، ولم يُعلَم أن رسول الله ﷺ فرَّق بين أحد ممَّن أسلم وبين امرأته. ابن قيّم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ٥: ١٣٨.

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ٢: ٩٨٠، ح: ٢٥٨٢، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الممتحنة، ٨: ٩٥، بتصرُّف.

إجلائهم منها، لكنَّ النبي ﷺ تركهم فيها يعملون في زراعة أرضها مقابل دفعهم نصف ثمارها، [وهو المقدار نفسه الذي كانوا سيدفعونها لغطفان بعد غزوة الأحزاب]. وقد نتج عن فتح خيبر أن ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائِحَهم التي كانوا يتشاركونها بعد الهجرة فيما بينهم، وذلك بسبب الاستغناء بمقاسم خيبر(١).

ثمَّ كان الحدث الأبرز مباشرة بعد الغزوة، قدوم المسلمين من الحبشة(٢) ـ ومعهم مجموعة من النصارى ـ كما طلب ذلك النبي ﷺ من النجاشي في كتابه إليه. كما قَدِم وفد الأشعريين من اليمن.

وقد استكمل النبيُّ ﷺ صلح الحديبية وغزوة خيبر بغزوة ذات الرقاع ـ تبعتها بعض السرايا(٣) ـ التي شكَّلت حملة تأديبية على الأعراب والبدو جزاء أعمال السلب والنهب واستعدادهم الإغارة على أطراف المدينة(٤). وقد تخلَّل تلك الغزوة التأكيد على الرحمة بالضعفاء من المخلوقات(٥).

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٣٤٢ ـ ٣٥٣، بتصرُّف.

(٢) وقد ورد أنَّ النبيَّ ﷺ استمع من المسلمين العائدين من الحبشة بعض أخبار المجتمع فيها وعقَّب على حادثة من حوادث التعدِّي فيه بقوله: «كيف يُقدِّس الله أمة لا يُؤخذ لضعيفهم من شديدهم». ابن ماجه محمد بن يزيد، **سنن ابن ماجه**، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٢: ١٣٢٩، ح: ٤٠١٠.

(٣) في إحدى هذه السرايا قتل أسامة بن زيد ﵄ رجلاً بعد أن قال: لا إله إلا الله، [ظَنًّا منه أنَّه قالها خَوف المعركة]. فقال له النبيُّ ﷺ معاتبًا منبِّهًا: «هلّا شققت عن قلبه؛ فتعلم أصادق هو أم كاذب؟» [لأنَّ الإسلام يحكم على الإنسان من خلال الظاهر ولا حُكم له على البواطن]. صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٣٦١، بتصرُّف. وهذا هو ضابط الأمان في الإسلام.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٥٨ ـ ٣٦١، بتصرُّف.

(٥) عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر [هي غزوة ذات الرقاع كما ستُشير إليه الرواية القادمة]، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة [طائر صغير] معها =

كذلك، أقام النبيُّ ﷺ أمر الله في شريعة اليهود بالعدل بين الشريف والضعيف فيهم. ذلك أنَّه مرَّ على رسول الله ﷺ بيهودي محمَّمًا [أي: مسوَّد الوجه من الفحم] مجلودًا، فدعاهم، فقال: «هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم قال له: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم»، فقال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أُخبِرك، نجده الرجم، ولكنه كَثُر في أشرافنا، فكُنَّا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فقلنا: تعالَوا فلنجتمع على شيء نُقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهمَّ إني أول مَن أحيا أمرك إذ أماتوه»، فأمر به فرُجِم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١] إلى قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١] يقول: ائتوا محمدًا ﷺ، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]

= فرخان، فأخذنا فرخَيها، فجاءت الحُمَّرة، فجعلت تُفرِّش [تُرَفْرِف]، فجاء النبيُّ ﷺ فقال: «مَن فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها». **سنن أبي داود**، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، ٣: ٥٥، ح: ٢٦٧٥، وإسناده صحيح. وعن جابر بن عبد الله قال: خَرَجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع... ثمَّ ذكر قصة الطير... ثمَّ قال: جاء جمل يُرقل [يُسرع] فقال ﷺ: «أتدرون ما قال هذا الجمل؟ جاء يستعديني على سيده، يزعم أنَّه كان يحرث عليه منذ سنين حتى إذا أجربه وأعجفه وكَبِر سنُّه أراد أن ينحره»... فلما حضر صاحب الجمل بين يدي النبيّ ﷺ أقرَّ بذلك، فاشتراه النبيّ ﷺ وسيَّبه في الشجر. الطبراني، **المعجم الأوسط**، ٩: ٥٢، ح: ٩١١٢. قال الهيثمي: في الصحيح بعضه، ورواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الحكيم بن سفيان، ذكره ابن أبي حاتم ولم يُجرِّحه أحد، وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب علامات النبوة، باب في معجزاته ﷺ في الحيوانات والشجر وغير ذلك، ٩: ٧ ـ ٩، ح: ١٤١٦٥، بتصرُّف.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلّها[١]، يعني هذه الآيات.

كذلك، قام النبيُّ ﷺ بتصحيح أوضاع اليهود. فقد كان إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قُتِل به، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من بني قريظة دُفِعَت عنه الدية. كذلك كان يقع التمييز بينهم في الديات، فكان بنو قريظة يُؤَدُّون دية كاملة، بينما كان بنو النضير يُؤَدُّون نصف الدية. لذلك لمَّا رُفِع إليه الأمر، سوّى بينهما ورَفَع المظالم[٢]»[٣].

وانتهى العام السابع بذهاب النبيّ ﷺ مع المؤمنين إلى مكة لعمرة القضاء (بدل عمرة العام السادس، كما تمَّ الاتفاق على ذلك ضمن بنود صلح الحديبية). وقد حاول النبيّ ﷺ تأليف قريش بزواجه من ميمونة بنت الحارث ﵂، بعد أن أظهر النية الحسنة في أول الصلح بخطبته في بداية السنة السابعة أمّ حبيبة بنت أبي سفيان [سيّد قريش] والتي كانت ما تزال مُهاجِرة حينها إلى الحبشة[٤]، ثمَّ زواجه منها، الأمر الذي كان أقوى رسالة لانَ لها والدها. وفي ذلك تأكيد لما كان عتبة بن ربيعة يقوله في مكة عن النبيّ ﷺ أنَّ عزَّه عزّ

---

(١) **صحيح مسلم**، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، ٣: ١٣٢٧، ح: ١٧٠٠، بتصرُّف.

(٢) لحديث ابن عباس ﵄ قال: «كان قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قُتِل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فُودِيَ بمئة وسق من تمر، فلما بُعِث النبيُّ ﷺ، قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا نقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبيّ ﷺ، فأتوه، فنزلت: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، والقسط: النفس بالنفس، ثم نزلت: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]». **سنن أبي داود**، كتاب الديات، باب النفس بالنفس، ٤: ١٦٨، ح: ٤٤٩٤، بتصرُّف.

(٣) د. سامي حمدان أبو زهري، **يهود المدينة في العهد النبوي**، ص٦٩، بتصرُّف.

(٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر بعثة رسول الله ﷺ بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ١: ٢٥٨، بتصرُّف.

لقريش. فكانت تلك الزيجة دليل لهم أنَّ ظهوره ﷺ بعد الصلح عليهم لا يجب أن يُعدُّ بالنسبة لهم ـ كقبائل ـ انكسارًا.

□ وقد نزلت في هذه المرحلة المدنية **آيات من سورة البقرة**[١] فيها عرض البِرّ (مقاصد وليس شكلِيَّات)، والأمر بقتال كفار مكة إذا قاتلوهم، والحثّ على الإنفاق في سبيل الله (والتي ارتبطت بعمرة القضاء ومتعلَّقاتها ٧هـ).

كما نزلت في استعراض ما سبق من هذه المرحلة آيات من سورة المائدة، خاصة في الحوار مع أهل الكتاب وفق تلك المعطيات المستجدّة وموقفهم من الدعوة بعد صلح الحديبية، وما تبعه من بداية الدعوة العالمية بإرسال النبيّ ﷺ الرسائل إلى ملوكهم وزعمائهم. كذلك، احتَوت السورة على ذكر «مقاصد الشريعة الكبرى: حِفظ الدين من الرِّدّة، وحِفظ النفس من القتل، وحِفظ العقل من الإذهاب، وحِفظ العِرض في ضوابط من العلاقات بين الجنسَين، وحِفظ المال من السرقة»[٢].

□ «**المائدة**»[٣]: وفيها الأمر بالوفاء بالعقود، وأحكام الإحرام والبيت الحرام، دون التعدِّي على المُحرِمين من غير المسلمين أو عدم العدل مع من صدَّ عن المسجد الحرام

---

(١) هذا هو الموضع السادس لسورة البقرة، والذي يترجَّح نزوله في عمرة القضاء (٧هـ)، وهي الآيات (١٨٩ ـ ١٩٥). فعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] قال: هم المشركون، حَبَسوا محمدًا ﷺ في ذي القَعدة [٦هـ]، فَرَجَعه الله في ذي القَعدة [٧هـ] فأدخله البيتَ الحرام، فاقتصَّ له منهم. ومثله عن مجاهد وقتادة. الطبري، **جامع البيان**، سورة المائدة، ٣: ٥٧٥ ـ ٥٧٦، بتصرُّف.

(٢) د. عمرو خالد، **خواطر قرآنية**، سورة المائدة، ص٩٥، بتصرُّف.

(٣) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وأبي عبيد وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية. وهي «مدنية بإجماع، ورُوِي أنها نزلت مُنصَرَف رسول الله ﷺ من الحديبية». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة المائدة، ٦: ٣٠. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبو عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها ولكنَّهم اختلفوا في رتبتها، فذهب البيهقي =

انتقامًا[(١)]. واستكملت الآيات استعراض المحرَّم من الطعام إلا عند الضرورة، وتحليل الطيبات وطعام أهل الكتاب والزواج منهم. ويتمّ عرض أحكام الوضوء والتيمم[(٢)]، والتذكير بنعمة الله على المؤمنين والميثاق، . . . .

= وأبو عمرو الداني إلى أنَّها نزلت بين سورتَي الأحزاب والممتحنة، وذهب ابن الضريس والزهري إلى نزولها بين سورتَي الفتح والتوبة. وباستعراض روايات نزول آياتها يُمكن تزكية نزولها في العام السابع للهجرة بعد سورة الفتح وما نزل من آيات سورة الممتحنة. ويُمكن تقسيمها ستة أقسام تتعلَّق بتراكم الأحداث في السيرة في هذه المرحلة، وهي: الآيات (١ ـ ١٠) أحكام ترتبط بالحديبية وما بعدها بالوفاء والأحكام والمنَّة، والآيات (١١ ـ ٣٢) تتناول أهل الكتاب، والآيات (٣٣ ـ ٤٠) فاصل عن حَدِّ قُطَّاع الطرق والسرقة، والآيات (٤١ ـ ٨٦) تستكمل الحديث عن أهل الكتاب مع التوجيه لقطع الموالاة معهم مع ظهور للحوار مع النصارى، والآيات (٨٧ ـ ١٠٩) تعرض أحكام كفارة اليمين والخمر والصيد حال الإحرام والأسئلة والوصية، والآيات (١١٠ ـ ١٢٠) تستكمل ما يتعلَّق بالنصارى من خلال عرض موقف المسيح يوم القيامة. ويُمكن أن يتمّ استعراضها جميعًا في مكان واحد من الكتاب.

(١) ارتبطت روايات أسباب نزول الآية الثانية من السورة بعامَي الحديبية والقضاء، غير أنَّها وردت بدون إسناد. ولكن، قد يشهد لها نصّ الآية نفسها على الصَّدّ عن المسجد الحرام بصيغة الفعل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ **[المائدة: ٢]**، وهذا النظم لم يرد إلا في سورتَي الفتح (٦هـ) والمائدة (٧هـ). ممَّا يُشير إلى حَدَث مُعَيَّن تمَّ فيه الصَّدّ عن المسجد الحرام، وليس عموم أفعال المشركين التي تصدُّ عن المسجد الحرام كما وردت بصيغة المضارع في سورتَي الحجّ والأنفال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الحج: ٢٥]، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ **[الأنفال: ٣٤]**. وقد ذهب إلى تفسير الآية بكونها تنطبق على صدِّ المشركين للمسلمين عن المسجد عام الحديبية بعض المفسِّرين، مثل: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة المائدة، ٢ : ١٢.

(٢) ارتبط نزول الآية السادسة من السورة بأحكام الوضوء والتيمم التي نزلت في غزوة ذات الرقاع بعد خيبر في العام (٧ هـ). وتفصيل ذلك كالتالي: روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: =

وكون الله قد كفَّ أيدِيَ قوم عنهم(١).

ثمَّ انتقلت الآيات للحديث عن أهل الكتاب بدءًا من ميثاق الله على بني إسرائيل بالصلاة والزكاة والإيمان بالرسل، وكونهم قاموا بنقضه وتحريف الكلم عن مواضعه ونسيان

= سقطت قلادة لي بالبيداء [بين المدينة وخيبر] ونحن داخلون المدينة، فأناخ النبيُّ ﷺ، ونزل فثنى رأسه في حجري راقدًا، أقبل أبو بكر فَلَكَزني لَكْزة شديدة، وقال: حبست الناس في قلادة. . . ثم إن النبيّ ﷺ استيقظ وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] الآية. **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾، ٤: ١٦٨٤، ح: ٤٣٣٢، بتصرُّف. وفي رواية الطبراني عن عائشة رضي الله عنها أيضًا قالت: لمَّا كان من أمر عقدي ما كان وقال أهل الإفك ما قالوا، خرجت مع النبيّ ﷺ في غزوة أُخرى فسقط أيضًا عقدي، حتى حبس التماسه الناس، واطلع الفجر، فلقيت من أبي بكر ما شاء الله، وقال لي: يا بُنَيَّة في سفر تكونين عناء وبلاء وليس مع الناس ماء، فأنزل الله الرُّخصة بالتيمُّم، فقال أبو بكر: أما والله يا بنية إنك لما علمت مباركة. الطبراني، **المعجم الكبير**، ٢٣: ١٢١، ح: ١٥٩. قال ابن حجر: وهذا يُشعر بأنَّ هذه القصة كانت بعد قصة الإفك فيُقَوِّي قَول مَن ذهب إلى تعدُّد ضياع العقد، وممَّن جزم بذلك محمد بن حبيب الأخباري فقال: سقط عقد عائشة في غزوة ذات الرقاع وفي غزوة بني المصطلق. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب التيمم، ١: ٤٣٤.

(١) اختلف المفسِّرون في تحديد هؤلاء القوم، فمنهم مَن رأى أنَّهم اليهود حين همُّوا بقتل النبيّ ﷺ، ومنهم مَن رأى أنَّهم المشركون حين همُّوا بالانقضاض على المسلمين في إحدى الغزوات التي صلَّى فيها صلاة الخوف. أما أن يُقصَد بها اليهود فقد رجَّح ذلك الطبري اعتبارًا للسياق وما تلاها من آيات في اليهود. الطبري، **جامع البيان**، سورة المائدة، ١٠: ١٠٤-١٠٧، بتصرُّف. وأما أن يُقصَد بها المشركون، فإنَّه يشهد لذلك أنَّه قد حدثت إغارة منهم على لقاح النبيّ ﷺ وقتلوا رجلاً فكان ذلك سبب غزوة ذي قرد في السنة السابعة قبل خيبر، وقد صلى النبي ﷺ حينها صلاة الخوف بأصحابه، وقد عنوَن لها البخاري قائلاً: وهي الغزوة التي أغاروا على لقاح النبيّ ﷺ قبل خيبر بثلاث. **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة ذي قرد، ٤: ١٥٣٦. وأورد صلاة الخوف فيها أيضًا. المصدر نفسه، كتاب المغازي، غزوة ذات الرقاع، ٤: ١٥١٢، ح: ٣٨٩٨، بتصرُّف.

جزء منه والخيانة من أكثرهم، والمطلوب العفو عنهم والصفح. وتعرض الآيات ميثاق الله على النصارى ونِسيانهم جُزءًا ممَّا ذُكِّروا به وواقع العداوة والبغضاء المستَمِرّ فيما بينهم. ثمَّ تتمّ دعوة أهل الكتاب لاتِّباع رضوان الله والإيمان بالرسول ﷺ، مع تنبيههم بكُفر مقولة أنَّ الله هو المسيح، وبطلانها بدليل قدرة الله على المسيح وأمّه ومَن في الأرض. ثمَّ يتمّ الرَّدّ على اليهود والنصارى في زعمهم أنَّهم أبناء الله وأحباؤه بدليل كونه تعالى يُعذِّبهم بذنوبهم[1].

وتنتقل الآيات لاستعراض قصة موسى عليه السلام حين ذَكَّر قومه بنعمة الله عليهم أن جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكًا، وحين طلب منهم دخول الأرض المقدَّسة المكتوبة لهم دون الرِّدّة بسبب مَن فيها من الجبّارين، وحين قال لهم رجلان صالحان أن غَلَبَتَهم عليهم ستكون بمجرَّد دخولهم، لكنَّ أغلبيَّتهم تخاذلوا وطلبوا من موسى أن يُقاتِل مَن فيها مع ربّه أولاً[2]، فحرَّمها الله عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض. وانتقلت الآيات إلى قصة ابنَي آدم عليه السلام لأخذ العبرة من حادثة تقديمهما القُربان وتقبُّل الله من أحدهما دون الآخر، فقتل الثاني أخاه الذي رفض أن يعتَدِيَ هو عليه خَوفًا من الله. فكان ذلك سبباً لكَتب الله على

---

(١) قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ [المائدة: ١٨] أي: «إن صحّ أنكم أبناء الله وأحباؤه، فلم تُذنبون وتُعذَّبون بذنوبكم فتُمسَخون وتمسَّكم النار أيامًا معدودات على زعمكم؟ ولو كنتم أبناء الله، لكنتم من جنس الأب، غير فاعلين للقبائح ولا مستوجِبين للعقاب. ولو كنتم أحباؤه، لما عصيتموه ولما عاقَبَكم. بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ من جملة مَن خَلَق من البشر، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وهم أهل الطاعة، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وهم العصاة». الزمخشري محمود بن عمرو، **الكشاف**، سورة المائدة، ١: ٦١٨.

(٢) وردت عدة روايات في كتب السير والتفسير والحديث حول الاستشهاد بقوله تعالى حكاية عن قوم موسى له ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] بأنَّ أحد الصحابة ذكرها لرسول الله ﷺ - في مَعرِض عَدم الاقتداء بفعل قوم موسى عليه السلام - قُبَيل غزوة بدر، أو قالها له عند الحديبية، أو قالها في موقف عام لم يرتبط بحدث.

بني إسرائيل أنَّ قتل النفس بغير حقّ كقتل الناس جميعًا، وأنَّ إحياءها كإحياء الناس جميعًا.

ثمَّ انتقلت الآيات لعرض حدِّ قُطَّاع الطُّرُق(١) بالتقتيل أو الصلب أو قطع الأيدي والأرجل من خِلاف أو النفي إلا إن تاب قبل القدرة عليه، كما تمَّ عرض حَدِّ السرقة بقطع اليد(٢).

ثمَّ انتقلت الآيات للحديث عن مواقف من المنافقين ومن أهل الكتاب في سماع الكذب والتحريف وأكل السحت. وتمَّ توجيه النبيّ ﷺ للحُكم بينهم إن طلبوا ذلك منه. مع

---

(١) وسبب نزول هذا الحدّ هو أنَّ «نفرًا قدموا على رسول الله ﷺ، فاستوبؤوا، فقال لهم رسول الله ﷺ: لو خرجتم إلى اللقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها، فخرجوا إليها. فلما صحّوا وانطوَت بطونهم، عَدَوا على راعي رسول الله ﷺ يسار، فذبحوه وغرزوا الشوك في عينَيه، واستاقوا اللقاح. فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم كرز بن جابر، فلحقهم، فأتى بهم رسول الله ﷺ مرجعه من غزوة ذي قرد [٧هـ]، فقطَّع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم». ابن هشام، **السيرة النبوية**، سرية كرز بن جابر لقتل البجليين الذين قتلوا يسارًا، ٢: ٦٤١، بتصرُّف. وفي رواية أبي داود أنَّه لما «أُتِيَ بهم أنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] الآية». **سنن أبي داود**، كتاب الحدود، باب ما جاء في المحاربة، ٤: ١٣١، ح: ٤٣٦٦، بتصرُّف.

(٢) ربط الكلبي نزول قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] بقصة طعمة بن أُبيرق سارق الدرع، الذي وردت فيها رواية في نزول الآية (١٠٥) من سورة النساء. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، ص١٩٥. كما ربطت رواية حديثية بين قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ [المائدة: ٣٩] بقصة المرأة التي سرقت في أيام الفتح للدلالة على قَبول توبتها. أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ١١: ٢٣٧ ـ ٢٣٨، ح: ٦٦٥٧. قال الهيثمي: روه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب الحدود والديات، باب ما جاء في السرقة وما لا قطع فيه، ٦: ٢٧٦، ح: ١٠٦٦٠، بتصرُّف. وباعتبار الارتباط بين الآيتَين ضمن السياق، وعدم كون تلك الروايات دليلاً على النزول المتفرِّق للآيتَين في السيرة، فإنَّه يُمكن ترجيح الإبقاء على مكانهما ضمن السورة في زمن نزولها (٧هـ)، فتكون الرواية الأولى لربط المعنى بها، وتكون الرواية الثانية للاستشهاد بها.

الإشارة إلى أن يحكموا بالتوراة التي عندهم، وأنَّه فيها حُكم الله الذي يحكم به النبيون لِلَّذين هادوا والربَّانِيُّون والأحبار، وأنَّ فيها أحكام القِصاص، وأن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه. ولأنَّ القرآن المنزَل على النبيّ ﷺ مُصَدِّقٌ لما بين يدَيه ومُهَيمِنٌ عليه، فعليه بالحكم بينهم بما أنزل الله دون اتِّباع أهوائهم، (فضابط قَبول التعدُّدية هو الكتاب وليس الأهواء كما مرَّ في سور سابقة)، مع الإعلام بأنَّ الله جعل لكلٍّ شرعة ومنهاجًا، وأنَّ الاختلاف ابتلاء، مرجع الحُكم فيه إلى الله يوم القيامة. وعلى النبيّ ﷺ الحذر من إفتانِهم له؛ لأنَّ حُكم الجاهلية مرفوض، وحُكم الله هو الأحسن للموقنين. وتنهى الآيات المؤمنين عن اتِّخاذ اليهود والنصارى أولياء، وتعرض موقف الذين في قلوبهم مرض ممَّن يُسارعون فيهم خشية الدوائر، وأنَّ الفتح القادم سيُحوِّلهم إلى نادمين. وتُعلِم الآيات أنَّ مَن يرتدَّ عن دينه من المؤمنين فسيتمُّ استبداله بقوم يُحِبُّهم الله ويُحِبُّونه[1]، أذِلَّة على المؤمنين أعِزَّة على الكافرين، يُجاهدون في سبيله، فيُشكِّلوا بوِلايتهم لله حزب الله. ويتمُّ توجيه النبيّ ﷺ لمخاطَبة أهل الكتاب بالسؤال عن سبب نقمتهم من المؤمنين، وإنبائهم بمَن هو شرٌّ مرتبة عند الله بدلائل من تاريخهم (اللعن والغضب والمسخ بقردة وخنازير وعَبَد الطاغوت)، وحاضرهم (نفاقهم ومُسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، دون نهيٍ لهم من الربانيين والأحبار. واستعرَضَت السورة أقوال اليهود على الله وعاقبتها إلقاء العداوة والبغضاء المستمرَّة فيما بينهم، وإطفاء الله للنار التي يوقدونها وسعيهم بالفساد في الأرض). وتعرض الآيات جزاء أهل الكتاب لو آمنوا واتَّقَوا بتكفير السيئات وإدخال الجنات وسَعَة الرزق، ولكنَّهم انقسموا في واقعهم بين أمة مُقتَصِدة (دون غلوّ) وكثيرٌ منهم

---

(١) أشار النبيّ ﷺ إلى تحقُّق قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] في قوم اليمن. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ٢: ٣٤٢، ح: ٣٢٢٠، وصحَّحه ووافقه الذهبي. وقد وفدوا على رسول الله ﷺ في العام السابع للهجرة كما سبق.

مسيؤون. ومن جهة النبيّ ﷺ، عليه أن يُبلِّغ ما أُنزِل إليه، والله عاصمه من الناس[١]، وأن يُعلِم أهل الكتاب أنَّهم ليسوا على شيء حتى يُقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربِّهم، مع أنَّ هذه الدعوة ستزيد كثيرًا منهم طغيانًا وكفرًا.

وتستعرض الآيات اختلافات الفِرَق الدينية وتُحدِّد أنَّ مَن آمن بالله واليوم الآخر وعَمِل صالحًا فلا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. ويتمّ استعراض تاريخ بني إسرائيل، وفيه نقض المواثيق بالتكذيب والقتل للأنبياء والعمى والصَّمَم. ويتمُّ توجيه أهل الكتاب إلى كُفر مَن قال إنَّ المسيح هو الله، أو: إنَّ الله ثالث ثلاثة، وأنَّ عاقبتها العذاب، والاستدلال على بُطلانها ببشرية المسيح وأمِّه وعدم قدرتهم الضُّرّ أو النفع. وتُوَجِّه الآيات أهل الكتاب لعدم الغلوّ في دينهم، وعدم اتِّباع أهواء الضالّين، وتُعلِمُهُم بلعن الذين كفروا منهم على لسان داود وعيسى بسبب عدم التناهي عن المنكرات وَولائهم للذين كفروا، الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بالله والنبيّ وما أُنزِل إليه.

ويُختَم الحديث عن أهل الكتاب باستعراض اختلاف موقف اليهود والنصارى من الذين

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزِلاً، نظروا أعظم شجرة يرَونها فجعلوها للنبيّ ﷺ، فينزِل تحتها، وينزل أصحابه بعد ذلك في ظِلِّ الشجر. فبينما هو نازل تحت شجرة وقد علَّق السيف عليها، إذ جاء أعرابي فأخذ السيف من الشجرة، ثم دنا من النبيّ ﷺ وهو نائم فأيقظه فقال: يا محمد، مَن يمنعك منّي الليلة؟ فقال النبيُّ ﷺ: «الله». فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]. الهيثمي، **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**، كتاب التفسير، سورة المائدة، ص٤٣٠، ح: ١٧٣٩. «وهذا حديث حسن». مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة المائدة، ص٨٧. وقد ارتبطت رواية أُخرى في الصحيح للحادثة بغزوة ذات الرقاع التي حَدَثَت بعد خيبر من العام السابع الهجري، دون أن يَرِد فيها ذكر للآية. **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، ٤: ١٥١٥، ح: ٣٩٠٥.

آمنوا بكون النصارى أقربهم مَوَدَّة بسبب تواضعهم، وكون أعينهم تفيض من الدمع عند استماع الآيات ممَّا عرفوا من الحقّ وإيمانهم(١).

وتنتقل الآيات لعرض أحكام كفَّارة اليمين، بإطعام عشرة مساكين أو كِسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام ثلاثة أيام عند عدم توافر ما سبق. وتحريم الخمر(٢) والمَيْسِر، وكونهما سبب

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] قال: إنهم كانوا نَوَّاتين - يعني مَلَّاحين - قَدِموا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة [أي: في العام السابع الهجري]، فلما قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله ﷺ: «لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم عن دينكم»، قالوا: لن ننقلب عن ديننا، فأنزل الله ذلك في قولهم. الطبراني، **المعجم الكبير**، ١٢: ٥٥، ح: ١٢٤٥٥. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه العباس بن الفضل الأنصاري وهو ضعيف. ولهذا الحديث طرق بنحوه في الصلاة على الغائب، وفي مناقب النجاشي. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، سورة المائدة، ٧: ١٧-١٨، ح: ١٠٩٨٣، بتصرُّف.

وتذكر رواية صحيحة أن القسيسين والرهبان الذين حضروا مجلس النجاشي وسمعوا القرآن انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحقّ فأنزل الله الآية. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ١: ١٧٤. وباعتبار أنَّ سورة المائدة مدنية بالإجماع، فإنَّه يُمكن الجمع بين الروايات بكونه الوفد الذي أرسله النجاشي إلى النبيّ ﷺ في المدينة ثمَّ عاد إليه.

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فقيل: حُرِّمت الخمر، فقيل: يا رسول الله، دعنا ننتفع بها كما قال الله عز وجل، فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]، فقيل: حُرِّمت، فقالوا: لا يا رسول الله، إنا لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم، ثم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية، فقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمت الخمر». الطيالسي سليمان بن داود، **مسند أبي داود الطيالسي**، ٣: ٤٦٢، ح: ٢٠٦٩. فإذا تبيَّن أنَّ نزول الآية الأولى كان بعد غزوة بدر (٢هـ) وقبل حادثة الرجيع (٤هـ)، وأنَّ نزول الآية الثانية كان في وقت حصار بني النضير (٤هـ) رغم كون الرواية التي نقلت التحريم عامة، يبقى نزول الآية الثالثة، وهي التي ارتبطت بسورة المائدة التي نزلت في =

العداوة والبغضاء بين المؤمنين. وحُرمة صيد البَرِّ حالة الإحرام، وكفَّارته هَدْيٌ أو إطعام مساكين أو صيام. والنهي عن السؤال عن أمور تسوء معرفتها. وتمَّ إلغاء تشريعات من عادات الوثنية في التعامل مع الأنعام. وذكر أحكام الشهادة على الوصية عند الموت، والتفاضل بين شهادات الغرباء والأقرباء في ذلك.

وتنتقل الآيات لذكر مشهد من يوم القيامة، حين يتمّ الطلب من المسيح عليه السلام أن يذكر نِعَم الله عليه من المعجزات، وما رافقها من عهود مُلزِمة للحواريين وطالبي نزول المائدة.

= العام السابع من الهجرة. وقد يشهد لذلك مؤشِّرات من عدة روايات أصحُّها: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف - أو من دوس - فلقِيَه بمكة عام الفتح [٨هـ] براوية خمر يُهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا فلان، أما علمت أن الله حرَّمها؟». فأقبل الرجل على غلامه، فقال: اذهب فبعها، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا فلان، بماذا أمرته؟» قال: أمرته أن يبيعها. قال: «إنَّ الذي حرَّم شربها، حرَّم بيعها». فأمر بها فأُفرِغت في البطحاء. **صحيح مسلم**، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع الخمر، ٣: ١٢٠٦، ح: ١٥٧٩. وأحمد بن حنبل، **المسند**، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ، ٣: ٤٨٠ - ٤٨١، ح: ٢٠٤١، واللفظ لأحمد. ممَّا يدلُّ على أنَّ تحريمها كان قبل الفتح (٨هـ) بمدة ليست بالطويلة (لا تستَوْعب سنين)، وقصيرة (لم يكن الخمر بعد قد انتشر تحريمه في الإسلام بين القبائل العربية). وإلى ذلك ذهب ابن حجر فقال: «والذي يظهر أن تحريمها كان عام الفتح سنة ثمان لما روى أحمد (الرواية السابقة) وأخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي وعلة نحوه، لكن ليس فيه تعيين الوقت. وروى أحمد من طريق نافع بن كيسان الثقفي عن أبيه أنه كان يتَّجر في الخمر، وأنه أقبل من الشام، فقال: يا رسول الله، إني جئتك بشراب جيد، فقال: «يا كيسان إنها حُرِّمت بعدك»، قال: فأبيعها؟ قال: «إنها حُرِّمَت وحُرِّم ثمنها». وروى أحمد وأبو يعلى من حديث تميم الداري أنه كان يُهدِي لرسول الله ﷺ كل عام راوية خمر، فلما كان عام حُرِّمت جاء براوية فقال: أشعرت أنها قد حُرِّمَت بعدك؟ قال: أفلا أبيعها وأنتفع بثمنها؟ فنهاه. ويُستفاد من حديث كيسان تسمية المبهم في حديث ابن عباس، ومن حديث تميم تأييد الوقت المذكور». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المائدة، ٨: ٢٧٩، ح: ٤٣٤٤. فـ«الوقت الذي نزلت فيه الآية المذكورة كان في عام الفتح قبل الفتح». المصدر نفسه، كتاب الأشربة، ١٠: ٣١.

وتُختَم السورة بذكر موقف المسيح من الناس بأنَّه مُوَحِّد، دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله، وليس إلى اتِّخاذه وأمِّه إلهَين من دون الله، فإن يُعذِّبهم الله فهم عباده، وإن يغفر لهم فهو العزيز الحكيم. وفي يوم القيامة ينفع الصادقين صدقهم بالجنات والرضوان.

وفي بداية العام الثامن للهجرة، أسلم من قادة شباب مكة عمرو بن العاص وخالد بن الوليد. وقد استعملهما رسول الله ﷺ في الغزوات، وجعلهما أُمراء لكفاءتهم في الحرب رغم حداثة إسلامهم ـ لأنَّ الإدارة السياسية تعتَمد على الكفاءة وليس على الأقدمية ولو لأسباب تربوية ـ فأصبحوا قادة على جيوش فيها مَن سبقهم من الصحابة:

أما خالد بن الوليد، فقد استعمله جنديًا في غزوة مؤتة في جمادى الأولى سة (٨هـ)، والتي كانت لقتال القوم الذين اعتدَوا على رسول رسول الله ﷺ وقتلوه. وعيَّن ﷺ ثلاثة قادة للجيش يتوَلَّون أمره تِباعًا حين يُقتل أحدهم (وكان زيد بن حارثة المولى الأمير الأول بينهم على الأشراف من المهاجرين والأنصار في الجيش). فلما استُشهدوا اختار الجيش خالد بن الوليد قائدًا لهم[١] لِعِلْمه بالقتال[٢]. وتتميَّز غزوة مؤتة بأنَّ وجهتها الروم ونصارى العرب.

وأما عمرو بن العاص، فقد أمَّره ﷺ في غزوة ذات السلاسل في بلاد بَلِيٍّ في جمادى الآخرة سنة ٨هـ لِعِلْمه بالحرب، ومُستفيدًا من قرابته لبني بلِيّ[٣]. وذلك ليكون سببًا في ائتلاف القوم، بعد أن تبيَّن في غزوة مؤتة أنَّ موقف هؤلاء الأعراب كان يميل للتحالف مع الرومان[٤].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر غزوة مؤتة، باب ابن الوليد وانصرافه بالناس، ٢: ٣٧٩ ـ ٣٨٠، بتصرُّف.

(٢) الطبراني، **المعجم الأوسط**، ٢: ١٧٩، ح: ١٦٤٥. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو حمزة الثمالي وهو ضعيف. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب المغازي والسير، باب غزوة مؤتة، ٦: ١٥٧، ح: ١٠٢١٩، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٢: ٦٢٣، بتصرُّف.

(٤) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، ص٣٧٠، بتصرُّف.

فتح مكة:

بعد مرور عامَين تقريبًا على صلح الحديبية، اعتدى حلفاء لقريش (بني بكر) على حلفاء للنبيّ ﷺ (خزاعة)، ممَّن كانوا اختاروا هذه التحالفات ضمن بنود صلح الحديبية، وحدث هذا الاعتداء بدعم رجال من قريش.

أمر النبيُّ ﷺ الناس بالجهاز، ثمَّ أعلم الناس أنَّه سائرٌ إلى مكة[1]. وهنا، كتب حاطب ابن أبي بَلْتعة رضي الله عنه كتابًا إلى قريش يُخبرهم بذلك، فأتى النبيَّ ﷺ الخبرُ من السماء بهذا الكتاب وتمَّ ضبطه. فلما سأل النبيُّ ﷺ حاطبًا عن ذلك أجاب: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً مُلصَقًا في قريش (أي: حليفًا)، ولم أكن من أنفسها، وكان مَن معك من المهاجرين مَن لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتَّخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رِضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم». فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يُدريك لعلَّ الله اطَّلع على مَن شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؛ فأنزل الله السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]»[2].

□ **آيات من سورة الممتحنة**[3]: وفيها توجيه المؤمنين لعدم اتِّخاذ عدوّ الله وعدوِّهم

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان، تجهيز الرسول ﷺ لفتح مكة، ٢: ٣٩٧، بتصرُّف.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، ٤: ١٥٥٧، ح: ٤٠٢٥، بتصرُّف.

(٣) هذا هو الموضع الثاني لسورة الممتحنة، والذي يحوي القسم الثاني قُبَيل فتح مكة (٨هـ)، وهي الآيات (١ ـ ٩) مُلحَقة بها الآية (١٣).

أولياء وموِدَّتهم بعد كفرهم وبعد ما فعلوه بالرسول ﷺ وبهم. وتُخبرهم الآيات أنَّ الذين كفروا إن قدروا عليهم ظهرت عداوتهم، ولن تنفعهم الأرحام حينها. وتُوَجِّههم الآيات إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معه حين تبرَّؤوا من قومهم ومعبوداتهم وبَدَت العداوة والبغضاء بينهم، ثمَّ توكَّلوا على الله ودعَوه أن لا يُسلِّط الكافرين عليهم بالافتتان. وهذه القدوة هي لمَن يرجو الله واليوم الآخر. وتُخبر الآيات بأن عسى الله أن يجعل بين المؤمنين وأعدائهم مودَّة، كما أن الله لا ينهى المؤمنين عن البِرّ والقِسط مع الذين لم يتورَّطوا معهم في قتال أو إخراج من الديار.

وتُختم السورة بالتوجُّه إلى المؤمنين أن لا يتولَّوا قومًا غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة.

خرج النبيُّ ﷺ من المدينة في رمضان سنة (٨ هـ) متوجِّهًا إلى مكة، حتى وصل إلى منطقة مرّ الظهران وقريش لا تشعر به. هنا، كان العباس ﷺ عمُّ النبيّ ﷺ قد التحق بالجيش، وكان يسعى لأن يدخل النبيّ ﷺ مكة بعد أن يستأمن أهلها منه. فأتى بزعيم قريش أبي سفيان إلى النبيّ ﷺ، وأقنعه بخطورة الأمر وبأن يستأمن النبيّ ﷺ. فلما رآه ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، أَلَم يَأْنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمَك وأكرمَك وأوصلَك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عنّي شيئًا بعدُ. قال: ويحك يا أبا سفيان! أَلَم يَأْنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمَك وأكرمَك وأوصلَك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا. فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تُضرَب عنقك. قال: فشهد شهادة الحقّ، فأسلم، قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان، رجل يحبُّ هذا الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن. فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عبّاس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله

فيراها. [وفعلاً، تحقَّقت بتلك الرؤية الهزيمة النفسية لأبي سفيان، حتى يتمّ حفظ دماء أهل مكة من جهة، والقناعة التي كانت تنقصه بالإيمان بالنبوة من جهة أُخرى]، حتى قال للعبّاس: قد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيمًا، قال: يا أبا سفيان، إنها النبوّة. قال أبو سفيان: فنعم إذن[١].

تأمَّنت الأجواء للعفو العام بما سبق، مع إعلان منع التجوُّل في الدعوة لارتباط الأمان بدار أبي سفيان والبيوت والمسجد ـ وليس بالساحات العامة ـ ضمانة في الانضباط. أما رسول الله ﷺ، فدخل مكة خاشعًا متواضعًا، مؤكِّدًا على أنَّه يوم رحمة وتعظيم للكعبة، ولم تكن هناك مقاومة تُذكر.

وهنا، قام النبيُّ ﷺ بعَّدة إجراءات: إعلان العفو العام لأهل مكة رغم ما صدر منهم في الماضي، «مع استثناء بضعة عشر رجلاً أُهدِرَت دماؤهم بسبب عِظَم جرائمهم من جهة، ولخشية إثارتهم للفتن بين الناس بعد الفتح من جهة أُخرى، فمنهم مَن قُتِل، ومنهم مَن جاء مسلمًا تائبًا فقُبِل وعُفِيَ عنه. والإباحة لخزاعة أن تثأر من بني بكر (السبب المباشر لفتح مكة). وبيان حُرمة مكة وأنَّها لا تُغزى بعد الفتح. والإعلاء من مكانة قريش بأن لا يُقتل قرشيّ صبرًا بعد يوم الفتح[٢]. والأمر بتحطيم الأصنام وتطهير البيت الحرام منها. وإبقاء

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ذكر فتح مكة في شهر رمضان سنة ثمان، تجهيز الرسول ﷺ لفتح مكة، ٢: ٤٠٢ ـ ٤٠٤، بتصرُّف.

(٢) قوله ﷺ: «لا يُقتل قرشيّ صبرًا بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة» قال العلماء: معناه الإعلام بأن قريشًا يُسلمون كلُّهم ولا يرتدّ أحد منهم كما ارتدّ غيرهم بعده ﷺ ممَّن حورب وقُتِل صبرًا، وليس المراد أنهم لا يُقتلون ظلمًا صبرًا». النووي يحيى بن شرف، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، ١٢: ١٣٤، ح: ١٧٨٢. والقتل صبرًا هو أن يُحبَس حيًّا ويُرمى حتى يموت.

مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة ليظَلَّ في قبيلته كما كان قبل الفتح حسب عُرف تقسيم المهمّات في قريش بين القبائل[١]. وإلغاء مآثر الجاهلية وثأراتها وإبطال أحلافها إلا ما كان على الخير ونصرة الحقّ وصلة الأرحام. وانتهاء الهجرة بالفتح واستبدالها بالجهاد والنية»[٢]، فبدأ بعدها زمن التابعين بإحسان[٣].

□ وقد تخلَّل يوم الفتح نزول آيات من **سورة النحل**. ذلك أنَّه لما كان يوم أُحُد أُصيب من الأنصار أربعة وستّون رجلاً، ومن المهاجرين ستّة منهم حمزة، فمثَّلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنربِيَنَّ عليهم. فلمّا كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] [وما بعدها إلى خواتيم السورة (ثلاث آيات) للدعوة إلى:

---

(١) مع أنَّه وردت روايات مشهورة تربط الآية (٥٨) من سورة النساء بفتح مكة (٨هـ) وتسليم المفتاح إلى عثمان بن طلحة، إلا أنَّه لم تصح رواية في كون تلك الآية نزلت يوم الفتح، ولكنَّ النبيّ ﷺ قرأها فقط. وما ورد في ربط نزولها بيوم الفتح حديث مرسل وإسناده ضعيف. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، سورة النساء، ص١٥٨، بتصرُّف. وفيها ذكر أنَّ عثمان بن طلحة المسؤول عن مفتاح الكعبة قد أسلم يوم الفتح، وهو منكرَ، فقد أسلم عثمان وهاجر مع عمرو بن العاص وخالد بن الوليد. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، ص١٦١، بتصرُّف. لذلك رجَّحت بقاء الآية في مكانها من السورة في ترجيح زمن نزول صدرها حسب المنهج المعتمد.

(٢) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٧٩ ـ ٤٨٥، بتصرُّف.

(٣) لحديث مجاشع أنَّه أتى النبيّ ﷺ بابن أخ له يُبايعه على الهجرة، فقال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ويكون من التابعين بإحسان». أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المكيين، ٢٥: ١٧٦، ح: ١٥٨٤٧. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن إسحاق وهو ثقة. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الهجرة، ٥: ٢٥٠، ح: ٩٢٧٦.

الصبر وعدم الشعور بالضيق من المكر، والتحلّي بالتقوى والإحسان للتأهُّل لمَعِيَّة الله][١]. فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «كفُّوا عن القوم إلا أربعة»[٢].

---

(١) قد أشرتُ إلى نزول خواتيم سورة النحل، وهي ثلاث آيات كاملة، بدلاً من إثبات نزول آية واحدة منها عملاً بالرواية التي أخرجها: ابن سعد والبزار وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصحَّحه والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبّي ﷺ وقف على حمزة حين استُشهد، فنظر إلى منظر لم يرَ شيئًا قط كان أوجع لقلبه منه، ونظر إليه قد مُثِّل به، فقال: رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك لسرَّني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى، أما والله لأُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم مكانك. فنزل جبريل والنبّي ﷺ واقف بخواتيم النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ الآية، فكفَّر النبيُّ ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر. والرواية التي أخرجها: ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة يوم أُحُد حيث قُتِل حمزة ومُثِّل به، فقال رسول الله ﷺ: لئن ظهرنا عليهم لَنُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثِّلنَّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قطّ؛ فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾ إلى آخر السورة. السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، سورة النحل، ٥ : ١٧٩. مع إبقائها ضمن أحداث الفتح عملاً بالرواية المثبَتَة في المتن.

(٢) «هذا حديث حسن غريب من حديث أُبَيّ بن كعب. وهو في مسند أحمد من زوائد عبد الله، وابن حبان، والطبراني في الكبير، والحاكم، وقال في الموضعَين: صحيح الإسناد، وأقرَّه الذهبي». مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة النحل، ص ١٢٦ـ ١٢٧، بتصرُّف.

وقد كان الصحابة يُعطون الأمان للمشركين، وقد قَبل النبُّي ﷺ تأمين عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية قبل إسلامهما، واستقبلهما باستبشار وصبر. وبذلك بدأت المصالَحة مع المجتمع.

هذا، وقد حدث أن سرقت امرأة من بني مخزوم في أيام الفتح، فأمر النبيُّ ﷺ بقطع يدها، وغضب من أسامة بن زيد رضي الله عنهما؛ لأنه شفع لها، وقال: «إنما أهلك الناس قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[١]. فكان حكمًا حاسمًا بمساواة الناس أمام تطبيق الأحكام، وإعلامًا بأنَّ العدل هو ضابط التعدُّدية الطبقية.

استتبع فتح مكة «هدم الأصنام التي حول الكعبة، ودعوة مَن يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يكسر ما في بيته من الأصنام»[٢]، وإرسال البعوث والسرايا إلى خارج مكة لهدم الأصنام الكبرى التي في الأماكن العامة والدعوة، «منها ما كان في ديار هوازن وثقيف»[٣].

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب مَن شهد الفتح، ٤: ١٥٦٦، ح: ٤٠٥٣، بتصرُّف.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، باب غزوة رسول الله ﷺ عام الفتح، ٢: ١٣٧، بتصرُّف.

(٣) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، غزوة حنين، ٢: ٤٩٤، بتصرُّف.

غزوة حنين وحصار الطائف:

نتيجة لما سبق، تحوَّل ثقل العداوة من قريش إلى قبيلتَي هوازن وثقيف اللتَين سارعتا لملء الفراغ وقيادة المشركين لحرب الإسلام، وعزموا على مهاجمة المسلمين في معركة فاصلة[(١)]، فكانت غزوة حنين وحصار الطائف.

في تلك الغزوة، بدأت تظهر في صفوف المسلمين مُستَجِدَّات من الضعف. فقد «كان لوجود الطُّلَقاء [من أهل مكة] في جيش المسلمين آثار سلبية، فقد كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يتخلَّصوا من كلِّ الرواسب الجاهلية المستقرّة في أعماقهم وحياتهم، ولم يكن لديهم بَعْدُ وضوح تصوُّر للتوحيد الخالص رغم إسلامهم، وكان النبيُّ ﷺ يُبيِّن لهم التوحيد دون معاقبة أو تعنيف؛ لعلمه بحَدَاثة عهدهم بالإسلام»[(٢)]. بل كان ممَّن خرج معه، هدفه استبقاء رفعة قريش على بقية العرب[(٣)]، أو الثأر من المسلمين بقتل النبيّ ﷺ أثناء المعركة غيلة[(٤)]. كذلك، أُعجِب البعض بكثرتهم فابتدأت الغزوة بانتكاسة. هذه الانتكاسة، واجهها النبيُّ ﷺ بثباته في الغزوة واختياره لشعاراته فيها: «أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب»[(٥)] ومناداة الناس للعودة بتخصيص الأنصار وأصحاب بيعة الشجرة يوم

---

(١) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، غزوة حنين، ٢: ٤٩٤، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، غزوة حنين، ٢: ٤٩٦، بتصرُّف.

(٣) كما قال صفوان عندما عاين الجولة الأولى عند الانتكاسة: «لأن يَرُبَّني رجل من قريش أحبّ إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن». ابن هشام، **السيرة النبوية**، شماتة أبي سفيان وغيره بالمسلمين، ٢: ٤٤٤.

(٤) المصدر نفسه، شماتة أبي سفيان وغيره بالمسلمين، ٢: ٤٤٤، بتصرُّف.

(٥) **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب مَن قاد دابة غيره في الحرب، ٣: ١٠٥١، ح: ٢٧٠٩، بتصرُّف.

الحديبية وغيرهم[١]، فاستعاد ﷺ زمام المبادرة مجدَّدًا وانتصر. ونلحظ هنا أيضًا مبدأ الاتفاق مع المكوِّنات المختلفة في الداخل (قريش ومكة) على العدوّ المشترك في الخارج، كعامل إضافي يستقطب التماسك في مجتمع المسلمين الجدد بعد المصالحة بالعفو والصبر. وأمر النبيُّ ﷺ بتعقُّب الفارِّين وقتلهم ثمَّ حصار الطائف لإضعاف شوكتهم حتى لا يعودوا إلى الاجتماع والقتال، ثمَّ كان ﷺ حريصًا على إسلامهم[٢].

ولما جاء دور الغنائم، قدَّم ﷺ الطلقاء من قريش على غيرهم في الأعطيات تأليفًا لقلوبهم وحرصًا على هدايتهم، زعماء وأتباعًا، ثمَّ حسُن إسلامهم فيما بعد، فنتج عن ذلك حرمان الأنصار الذين تفهَّموا ورضوا[٣]. ثمَّ حضر وفد من هوازن مُعلنًا إسلامه ومُطالبًا بإعادة السبي من أهاليهم إليهم، فحضَّ النبيُّ ﷺ أصحابه على التنازل عنها عن طيب نفس منهم أو تعويضهم لاحقًا بدلاً منها إن وافقوا، وأخذ الموافقات عبر عرفاء الأقوام[٤].

◻ وفي متعلَّقات غزوة حنين نزلت **آيات من سورة النساء**[٥] فيها أحكام النكاح (المحرَّم

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، شماتة أبي سفيان وغيره بالمسلمين، ٢: ٤٤٥، بتصرُّف.

(٢) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، غزوة حنين، ٢: ٥٠٢ و٥١٠، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، غزوة حنين، ٢: ٥١٢ ـ ٥١٣، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، غزوة حنين، ٢: ٥١٦، بتصرُّف.

(٥) هذا هو الموضع الرابع لسورة النساء، والذي يحوي القسم السابع بعد غزوة حنين (٨هـ)، وهي الآيات (٢٣ ـ ٢٨). رغم أنَّه وردت رواية عن كونها نزلت يوم خيبر. الطبراني، **المعجم الكبير**، ١٢: ١١٥، ح: ١٢٦٣٧. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورزين الجرجاني لم أعرفه. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، سورة النساء، ٧: ٣، ح: ١٠٩١٩، بتصرُّف. ولكن وردت رواية في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «أنَّ رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشًا إلى أوطاس، فلقوا عدوًا، فقاتلوهم فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ تحرَّجوا من غشيانهنّ من أجل أزواجهنّ من المشركين، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ =

والجائز)، وإباحة نكاح الفتيات المؤمنات (من الإماء) بإذن أهلهنَّ مع إيتائهنَّ مهورهنَّ بالمعروف، مع كون عقابها عند الفاحشة نصف عقاب غيرها. وفي هذا بيان وهداية لسنن الذين من قبلنا لتتحقَّق إرادة الله في التوبة والتخفيف علينا حالة ضعفنا مُقابِل إرادة الذين يتَّبعون الشهوات بمَيلنا بالجور والمعاصي[1].



= أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، أي: فهنّ لكم حلال إذا انقضت عدتهنّ». **صحيح مسلم**، كتاب النكاح، باب جواز وطء المسبية بعد الاستبراء، ٢: ١٠٧٩، ح: ١٤٥٦. وقد ألحَقت الآيات (٢٥ ـ ٢٨) بهذا القسم بسبب مناسبة ذكر وجود عقاب على الفاحشة (بعد نزول سورة النور ٥هـ) من جهة، واستكمالاً لسياقها الموصِل إلى التصريح بمِفصَل «السنَّة» المتناسِب بعد كسر شوكة الشرك في الجزيرة العربية، وقبل بداية توجُّه النبيّ ﷺ في غزوة تستهدف الروم ونصارى العرب عند أمر الله له بقتال أهل الكتاب من جهة أُخرى.

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة النساء، ٨: ٢١٢، بتصرُّف.

المبحث الثاني: منهج الاستقامة في التعامل مع مختلف مكوِّنات المجتمع: علاج وضعيات ومواقف خاطئة

ضمن مُستَجِدَّات الضعف، بدأ ظهور المارقين عند توزيع غنائم تلك الغزوة. فبينا النبُّي ﷺ يقسم، جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «ويلك، ومَن يعدل إذا لم أعدل». قال عمر بن الخطاب ﷺ: دعني أضرب عنقه. قال: «دَعْهُ، فإنَّ له أصحابًا، يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدِّيْن كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة. . . ، آيتهم رجل إحدى يدَيه، أو قال: ثديَيه، مثل ثدي المرأة، أو قال: مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس». قال أبو سعيد [راوي الحديث]: أشهد سمعت من النبّي ﷺ، وأشهد أن عليًا قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبيُّ ﷺ، قال: فنزلت فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨][(١)].

كما ورد أنَّه «أنزل الله عز وجل في يوم حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦]»[(٢)].

وقد أمَّر النبيُّ ﷺ على مكة عتَّاب بن أُسَيد من بني أمية [عائلة أبي سفيان السيد السابق عليها]، وقد أسلم يوم الفتح وهو في العشرينات من عمره، وحجَّ بالمسلمين، كذلك فقد حجَّ الناس سنة ثمان (فتح مكة) على ما كانت العرب تحجّ عليه[(٣)].

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب استبابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب مَن ترك قتال الخوارج للتألف وأن لا يُنفِّر الناس عنه، ٦: ٢٥٤٠، ح: ٦٥٣٤.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، غزوة حنين، ٢: ٤٥٩، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، عمرة الرسول ﷺ من الجعرانة واستخلافه عتاب بن أسيد على مكة وحج عتاب بالمسلمين سنة ثمان، ٢: ٥٠٠، بتصرُّف.

◻ وقد يترجَّح أنَّه قد نزلت في هذه المرحلة **آيات من سورة التوبة**[1]: وفيها تأكيد

---

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس وأبي عبيد) على كونها مدنية، وذهب النحاس إلى كونها آخر ما نزل بالمدينة. وقد «نزلت في غزوة تبوك». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة التوبة، ٨: ٦١. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبو عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وكونها آخر ما نزل من السور، مع اختلافهم في السورة التي سبقتها بين كونها الفتح (البيهقي وأبي عمرو الداني) أو المائدة (ابن الضريس والزهري).

هذا، وإنَّ روايات أسباب نزول آياتها ـ كما تبيَّن وسيتبيَّن ـ تُوجِّهنا إلى إمكانية تقسيمها إلى أحد عشر قسمًا: (الآيات ٢٣ ـ ٢٧) وفيها بيان الولاية وذكر غزوة حنين (٨هـ)، و(الآيات ٢٨ ـ ٣٥) وفيها النهي عن دخول المشركين المسجد الحرام والأمر بقتال أهل الكتاب وتشريع الجزية وذلك قبل غزوة تبوك ٧/ ٩هـ، و(الآيات ٣٦ ـ ٣٧) وفيها تحديد الأشهر الحُرُم وأحكامها والتوجيه لقتال المشركين كافة، ويُمكن إلحاقها بغزوة تبوك التي كانت في شهر رجب المحرَّم حسب نسيئة الشهر، و(الآيات ٣٨ ـ ٤٨) وفيها الحثّ على غزو الروم (تبوك بعد مؤتة)، و(الآيات ٤٩ ـ ٦٣) وفيها ذكر تربُّص المنافقين ولمزهم والأمر بالصدقات ولها ارتباط في الروايات بغزوتَي حنين وتبوك، و(الآيات ٦٤ ـ ٨٣) وفيها ذكر ما حدث في تبوك وما بعد الأمر بالصدقة وقبل العودة إلى المدينة ضمن شهرَي ٨ ـ ٩/ ٩هـ، و(الآيات ٨٧ ـ ١١٠) وفيها ذكر اعتذارات المنافقين وردِّها وبيان مغفرة لبعض الصحابة وإرجاء ثلاثة منهم بعد العودة من تبوك، و(الآيات ٨٤ ـ ٨٦) وفيها النهي عن الصلاة على مَن مات من المنافقين وذلك في شهر ١١/ ٩هـ بعد العودة من تبوك، و(الآيات ١١١ ـ ١٢٢) وفيها بيان المغفرة للثلاثة المخلَّفين من الصحابة في شهر ١١/ ٩هـ بعد (٥٠) يومًا من عودة النبيّ ﷺ من تبوك، و(الآيات ١٢٣ ـ ١٢٩) وفيها الأمر بقتال الأقرب من الكفار بغِلظة وفضح الذين في قلوبهم مرض، و(الآيات ١ ـ ٢٢) من صدر السورة وفيها إعادة النظر في العهود القائمة وتأقيتها والنهي عن إعمار المشركين المسجد الحرام حالة شهودهم بالكفر وذلك في الحج ١٢/ ٩هـ.

وقد فضَّلت أن أعرضها في أربعة مواضع، وأعرض هنا (في الموضع الأول من السورة) =

الآيات أنَّ المطلوب هو أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحبَّ إلى الذين آمنوا من الأهل والأموال والمساكن، فلا يتَّخذوا الكفار من الآباء والإخوان أولياء. وتمَّ الاستشهاد بغزوة حُنَين على أنَّ النصر ليس بالكثرة.

عمَّال وسرايا ووفود:

وفي بداية العام التاسع للهجرة بدأ النبُّي ﷺ بـ«بعث العمَّال إلى القبائل [لدعوتهم إلى الإسلام، ثمَّ استلام الصدقات من أغنيائهم وإعطائها إلى فقرائهم، والحكم فيما بينهم، مع بقاء كلِّ ذي مُلك في مُلكه]. كما أرسل عددًا من السرايا لردع المعتدين والمقاتِلين من القبائل»(١). وكذلك استقبل عددًا من وفود القبائل المُسلِمة والمبايعة له ﷺ. ذلك أنَّ «العرب والأعراب كانت تنتظر مصير المعركة لتتَّخذ موقفها الأخير من الإسلام، فلما هُزِمت هوازن أقبلت الوفود تعلن الدخول في الدين الجديد»(٢).

= القسم الأول، وأقوم بتأجيل القسم الثاني إلى العام التاسع الهجري، والأقسام الثمانية التالية إلى ما قبل غزوة تبوك وقبل العودة منها وإلى ما بعد العودة منها، والقسم الحادي عشر إلى حجة أبي بكر ﵁. فيكون آخر مَوضع لنزولها هو من أواخر ما نزل فعلاً في حجة أبي بكر ﵁ بعد غزوة تبوك كما أشارت روايات النزول.

(١) صفي الرحمن المباركفوري، **الرحق المختوم**، ص٤٠٠ ـ ٤٠٤، بتصرُّف.

(٢) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، غزوة حنين، ٢: ٥٠٥، بتصرُّف. وورد في الصحيح أنَّه «كانت العرب تَلَوَّم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه [النبي ﷺ] وقومه، فإنَّه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح [فتح مكة]، بادر كل قوم بإسلامهم». **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب مَن شهد الفتح، ٤: ١٥٦٤، ح: ٤٠٥١. «ذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام، وقادة العرب لا يُنكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحربه ولا عداوته، دخلوا في دين الله أفواجًا يضربون إليه من كل وجه». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٤٨٤ ـ ٤٨٥، بتصرُّف.

وفي بداية سنة تسع أيضًا، قَدِم وفد بني تميم (بعد سرية عيينة بن حصن في شهر محرَّم)[١]، وقد وقعت أحداث خلال ذلك وبعده، نزلت بشأنها آيات سورة الحجرات، للدعوة إلى أدب العلاقات ومكارم الأخلاق لبناء مجتمع متماسك[٢] وفي ذلك إدارة للتعدُّدية الثقافية:

□ «**الحجرات**»[٣]: وفيها عرض آداب التعامل مع النبيّ ﷺ: بعدم القضاء في أمرٍ دونه، أو رفع الصوت في حضرته فوق صوته[٤]، أو مناداته باسمه. والتفتَت السورة إلى

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، ٢: ١٦٠، بتصرُّف. وابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب العتق، باب مَن ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية، ٥: ١٧٣، بتصرُّف. والمصدر نفسه، كتاب التفسير، سورة الحجرات، ٨: ٥٩٠، بتصرُّف.

(٢) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الحجرات، ٧: ٣٣٤، بتصرُّف.

(٣) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية، خلافًا لأبي عبيد فقد جعلها مكية. وهي «مدنية». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الحجرات، ٣: ٢٥٦. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبو عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وكونها نزلت بين سورتَي المجادلة والتحريم. وبالعودة إلى أسباب نزول آياتها، يتبيَّن نزولها في بداية العام (٩هـ) كما سيتبيَّن من أسباب نزول بعض آياتها.

(٤) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنّه قدم ركب من بني تميم على النبيّ ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، قال عمر رضي الله عنه: بل أمِّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ [**الحجرات**: ١] حتى انقضت. **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب وفد بني تميم، ٤: ١٥٨٧، ح: ٤١٠٩، بتصرُّف. وفي رواية أُخرى له: فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ [**الحجرات**: ٢]. المصدر نفسه، كتاب التفسير، سورة الحجرات، ٤: ١٨٣٣، ح: ٤٥٦٤، بتصرُّف.

الذين نادَوا الرسول ﷺ من وراء الحجرات[1] بكَون أكثرهم لا يعقلون، وأنَّ الأَولى أن ينتظروا خروج النبيّ ﷺ إليهم. ثمَّ انتقلت الآيات لبيان مناهج التعامل بين المؤمنين بما يحفظ استقرار المجتمع عبر: التبيُّن من الأخبار التي ينقلها الفاسق[2]، والإصلاح بين

---

(١) ورد أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [**الحجرات**: ٤] نزلت في وفد بني تميم. فإنَّهم حين قدموا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ٢: ٥٦١ ـ ٥٦٧، بتصرُّف. وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الحجرات، ٧: ٣٦٩، بتصرُّف. والطبراني، **المعجم الكبير**، ٥: ٢١٠، ح: ٥١٢٣. قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه داود بن راشد الطفاوي وثَّقه ابن حبان وضعَّفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، سورة الحجرات، ٧: ١٠٨، ح: ١١٣٥٠، بتصرُّف.

(٢) ورد أنَّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [**الحجرات**: ٦] نزلت في الوليد بن عقبة حين بعثه رسول الله ﷺ إلى الحارث [من بني المصطلق] ليقبض مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع، فأتى رسول الله ﷺ فقال: [يا رسول الله] إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه، إذ استقبل البعث وفصل من المدينة فلقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد ابن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحقّ ما رأيته ألبتّة ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟»، قال: لا، والذي بعثك بالحقّ ما رأيته بتّة، ولا أتاني، وما احتبست إلا حين احتبس عليَّ رسولُ رسول الله ﷺ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله، قال: فنزلت الحجرات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ إلى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [**الحجرات**: ٦ ـ ٨]. أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند الكوفيين، ٣٠: ٤٠٣ ـ ٤٠٥، ح: ١٨٤٥٩. قال الهيثمي: رواه أحمد ورجال أحمد ثقات. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب التفسير، سورة الحجرات، ٧: ١٠٨ ـ ١٠٩، ح: ١١٣٥٢، بتصرُّف.

الطوائف المتقاتلة بالعدل، وقتال الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، والإصلاح بين المؤمنين باعتبارهم إخوة، وعدم السخرية من بعضهم أو الطعن في بعضهم أو التنابز بالألقاب (مناداة بما يعيب)، واجتناب الظن، وعدم التجسُّس، وعدم الغيبة. وتُوَجِّه الآيات إلى كَون الله قد خلق الناس سواسية، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، وأنَّ معيار التفاضل هو بالتقوى. ثمَّ تعود الآيات لتتناول ظاهرة سلوكيات الأعراب، فتُوَجِّههم إلى أن يعتبروا أنفسهم أسلموا (بدل آمنوا)، وأنَّ طاعتهم لله ورسوله سوف لن تحرمهم من أجورهم، وأنَّ صفات المؤمنين (التي عليهم التحلّي بها ليتسمَّوا بها) هي الإيمان بالله ورسوله بلا ريبة، وأن يُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فيكونوا صادقين. وتنهاهم الآيات عن تصرُّفات المَنّ بالإسلام التي يقومون بها[1]، وتُخبرهم أنَّ الله هو الذي مَنَّ عليهم أن هداهم للإيمان.

□ بالمقابل، نزلت **آيات من سورة الرعد** [الآيات ٨ ـ ١٣ في حفظ الله للنبيّ ﷺ] في وفد بني عامر (٩هـ)، حين همَّ عامر بن الطفيل وأربد بن القيس بالغدر برسول الله ﷺ، فعصمه الله تعالى منهما، وانتقم منهما بموت الأول بالطاعون وإحراق الثاني بصاعقة[2].

وفيها: الإعلام بعلم الله للغيب والشهادة المستلزِم لعلمه بمحاولات التآمر على النبيّ ﷺ.

---

(١) ورد أنَّ قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾ [**الحجرات**: ١٧] نزلت في بني أسد الذين قدموا على رسول الله ﷺ في أول سنة تسع، فقال أحدهم: أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثًا، فنزلت فيهم. ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر وفادات العرب على رسول الله ﷺ ـ وفد أسد، ١: **٢٩٢**، بتصرُّف.

(٢) هذا هو الموضع الثاني لنزول سورة الرعد. وقد وردت قصة وفادة بني عامر ونزول الآيات في بعض أفراد الوفد في: ابن هشام، **السيرة النبوية، ٢: ٥٦٩**، بتصرُّف. والطبراني، **المعجم الكبير، ١٠: ٣١٢**، ح: ١٠٧٦٠. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير وفي إسناده عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٧: ٤١ـ ٤٢**، ح: ١١٠٩١، بتصرُّف.

▢ وعلى صعيد آخر، نزلت **آيات من سورة النساء**[١] فيها أمر المؤمنين بطاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر من الأمراء وقادة الجيوش، ورَدّ الأمر إلى الله والرسول ﷺ عند التنازع.

▢ وقد يترجَّح أنَّه نزلت في هذه المرحلة أيضًا **آيات من سورة التوبة**[٢]: وفيها إعلان منع المشركين من مقاربة المسجد الحرام بعد العام التاسع مع الوعد بالغنى لمَن خشِيَ الفقر عند ذلك. ويتمُّ توجيه الأنظار إلى قتال كفار أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحقّ، وأخذ الجزية[٣]

---

(١) هذا هو الموضع الخامس لسورة النساء، والذي يحوي القسم الثامن (سرية عبد الله بن حذافة ٩هـ)، وهي الآية (٥٩). **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، سورة النساء، **٤: ١٦٧٤**، ح: **٤٣٠٨**، بتصرُّف. وقد ورد أنَّ تلك السرية كانت في ربيع الآخر (٩هـ). ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب المغازي، باب سرية عبد الله بن حذافة، **٨: ٥٩**، بتصرُّف. والمصدر نفسه، كتاب التفسير، **٨: ٢٥٤**، بتصرُّف.

(٢) هذا هو الموضع الثاني لسورة التوبة، ويحوي القسم الثاني، وهي الآيات (٢٨ ـ ٣٥). فالسياق متَّصل فيما بينها من جهة، وقد نزلت آية الجزية قبل وفد نجران من جهة ثانية كما قال الزهري عن نصارى نجران: «هم أول مَن بذل الجزية، ولا خلاف في أنَّ آية الجزية نزلت بعد الفتح». ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة آل عمران، **٢: ٥٦**، بتصرُّف. كما نزلت الآية قبل غزوة تبوك من جهة ثالثة كما سيأتي ذكرها فيها، وكما نزل ذكر الكنز وعذابه قبل تشريع الزكاة [**في الآية ٦٠ من سورة التوبة**] من جهة رابعة، فعن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما فقال أعرابي أخبرني قولَ الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [**التوبة: ٣٤**]. قال ابن عمر رضي الله عنهما: مَن كنزها فلم يُؤدِّي زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أُنزِلَت جعلها الله طُهرًا للأموال. **صحيح البخاري**، كتاب الزكاة، باب ما أدَّى زكاته فليس بكنز، **٢: ٥٠٩**، ح: **١٣٣٩**.

(٣) الجزية هي: «ما يُؤخَذ من أهل الذمة من مال جزاء إسكانه في دار الإسلام وعصمته دمًا ومالاً وعِيالاً، وعِوَضًا عن قِيامه بالقتال لحماية دار الإسلام (الذي هو بطابعه ودوافعه ديني)، سواء أكان موجبها القهر والغَلَبة وفتح الأرض عنوة، أم كان موجبها عقد الذمة الذي نشأ بالتراضي. =

= مع إعلامه بأنَّه لن يُفتَن عن دينه. وقد شُرِعَت عند أمر الله تعالى مقاتلة أهل الكتاب، وفي أثناء تجهيز النبيّ ﷺ لقتال الروم، بعدما تمهَّدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجًا واستقامت جزيرة العرب. وتُعتبر الجزية علامة خضوع وانقياد لحكم المسلمين، ووسيلة هداية لأهل الذمة، ووسيلة التخلُّص من الاستئصال والاضطهاد، ومورد مالي للدولة في الإنفاق على المصالح العامة والحاجات الأساسية للمجتمع. والجزية تُضرَب سنويًا على الذكور البالغين العاقلين الأحرار المستطيعين ـ من غير الرهبان المنقطِعين للعبادة ـ ممَّن هو أهلٌ للقتال. وتسقط الجزية بالإسلام أو الموت أو الإعسار أو الرهبنة أو الجنون أو الشيخوخة أو عند تقصير المسلمين في حماية أهل الذمة أو اشتراك أهل الذمة بالقتال مع المسلمين». **الموسوعة الفقهية، ١٥ : ١٤٩ ـ ٢٠٦**، بتصرُّف.

ومصطلح الجزية معروف في تاريخ أهل الكتاب، فهو عندهم «مال يُدفَع للحُكَّام إيذانًا بالخضوع لهم وقيامًا بنفقاتهم. وكانت الشريعة الموسوية تفرِض على كلِّ معدود نصف شاقل (عملة كنعانية كان يتعامل بها في فلسطين) يُنفَق في سبيل خدمة خيمة الاجتماع». د. جورج بوست، **قاموس الكتاب المقدَّس، ١ : ٣٢٦**، بتصرُّف. «والجزية هي جُزء من النظام الضريبي على الثروة في أشكالها المختلفة نتيجة التطوُّر الاجتماعي وظهور الملكية الفردية، بهدف الصالح العام. وأول إشارة لها في الكتاب المقدَّس هي عندما هزم بنو إسرائيل الكنعانيين وجعلوا منهم عبيدًا تحت الجزية (يش ١٦ : ١٠، ١٧ : ١٣، قض ١ : ٢٨ ـ ٣٥)، فالجذور الرئيسية للجزية هي التقاليد التي كانت مرعية قديمًا من تقديم الهدايا الاختيارية للسادة والحُكَّام، ثمَّ التي كان يفرضها الغزاة على الشعوب المهزومة. بل كان من تصرُّفات ملوك إسرائيل أنَّ الملك يأخذ كلَّ احتياجاته العامة والخاصة من جهد وموارد شعبه، وكان ذلك تعبيرًا عن الولاء، واعتُبِر رفض تقديم الهدايا عملاً من أعمال الخيانة العُظمى. وفي حكم الغزاة لإسرائيل كان على كلِّ رجل خمسين شاقل بما سلب الشعب ثروته. وفي أيام حُكم الفُرس لإسرائيل كانت تُجبى ثلاث ضرائب: الجزية كضريبة على الممتلكات، والخراج كضريبة على البضائع والمنقولات، والخفارة كضريبة على المرور على الطرق. ومن =

منهم[١]. وتستعرض الآيات اعتقاد الشرك عند اليهود والنصارى، واتّخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا، وإرادتهم إطفاء نور الله، وأكل كثير منهم أموال الناس بالباطل، وصدِّهم عن سبيل الله، مع الإعلام بعاقبة كنز المال ـ بدل الإنفاق ـ من العذاب.

هذا وفي هذا العام بعد تشريع الجزية وقبل غزوة تبوك، قَدِمَ وفد نصارى نجران[٢] إلى

= نماذج الجزية: ثلث الزروع ونصف ثمار الشجر. ثمَّ تحت حكم الرومان كانت الجزية تُجمَع من اليهود ضرائب باهظة جدًّا وتذهب مباشرة إلى خزينة القيصر. د. القس صموئيل حبيب وآخرون، **دائرة المعارف الكتابية**، ٢: ٥٣٩ ـ ٥٤٣، بتصرُّف.

(١) «شَرَط النبيُّ ﷺ على اليهود النفقة في الحروب [في صحيفة المدينة]، وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين. وإنَّما كتب رسول الله ﷺ هذا الكتاب قبل أن تُفرض الجزية، إذ كان الإسلام ضعيفًا». السهيلي، **الروض الأنف**، كتاب الموادعة لليهود، تفسير على ربعاتهم، ٤: ٢٩٥ ـ ٢٩٦، بتصرُّف. وهنا، لا بدَّ أن يُلاحَظ أنَّ انتهاء هذا الضَّعف المذكور الذي نقل العلاقة مع أهل الكتاب من مشاركة قتالية فقط إلى خيار جزية التأمين أيضًا لم يكن بسبب الخروج من غزوة الخندق (الذي أنهى مرحلة الاستهداف) أو بعقد صلح الحديبية (الذي أسَّس للاعتراف الدولي بالمدينة المنورة)، بل كان عندما أصبحت السلطة المركزية للجزيرة العربية في المدينة المنورة بعد فتح مكة وانكسار شوكة الطائف.
هذا، وإنَّ آية الجزية في سورة التوبة قد ذُكِرَت قبلها مباشرة آية منع المشركين من دخول المسجد الحرام والخَوف من الفاقة لانقطاع التجارة بذلك، وبعدها آية تصف كثيرًا من الأحبار والرهبان بأخذ أموال الناس بالباطل والصدِّ عن سبيل الله وكنزها. من هنا، يُمكن ـ إضافة لما تمَّ عرضه من موجبات وحِكَم الجزية في الهامش السابق وبناء عليه ـ استنباط جانبَين يتعلَّقان بأهل الكتاب أنفسهم باعتبار أنَّ للجزية بُعْدَين: سياسي يُناقِض الصدّ عن سبيل الله، واقتصادي يُناقض الكنز للمال. كما يلفت النظر أنَّ تاريخ الجزية عند أهل الكتاب بدأ بهدف الإنفاق على بيت الله، وهو المذكور في الآية التي تسبقها كما مرّ.

(٢) كانت وِفادتهم في سنة تسع، لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول مَن أدَّى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما أُنزِلَت بعد الفتح، وهي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ =

المدينة. ولمَّا «حانت صلاتهم، قاموا في مسجد رسول الله ﷺ يُصلُّون، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فصلّوا إلى المشرق. فلما كلَّمه الحبران منهم، قال لهما رسول الله ﷺ: أسلما. قالا: قد أسلمنا. قال: إنَّكما لم تُسلما. قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدًا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالا: فمَن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما رسول الله ﷺ فلم يُجبهما. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كلِّه، صَدْرَ سورة آل عمران[1].

□ **آيات من سورة آل عمران[2]**: وفيها الحوار مع وفد نجران بعرض قصة آل عمران وهم: امرأته حين نذرت ما في بطنها محرَّرًا فولدت أُنثى. وابنته مريم التي تقبَّلها ربها بقَبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، وكفَّلها زكريا، (ثمَّ دعوة زكريا لله أن يهب له ذرية واستجابة الله له). وحفيده المسيح الذي كان نتيجة اصطفاء الله لمريم على نساء العالمين، وكونه وجيهًا

= ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة آل عمران، ٢: ٥٤، بتصرُّف. وكذلك حدَّد هذا العام لوفادتهم ابنُ حجر. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، باب بدء الوحي، ١: ٣٩، بتصرُّف.

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر السيد والعاقب وذكر المباهلة، ١: ٥٧٤ ـ ٥٧٦، بتصرُّف. هذا، وكما تبيَّن من هامش الموضع الأول من سورة آل عمران، فقد تحدَّد الصدر بالآيات (٣٣ ـ ٦٣). وفي رواية ابن كثير: قال رسول الله ﷺ: «ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول لي ربي في عيسى». فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦١]. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة آل عمران، ٢: ٥٤، بتصرُّف.

(٢) هذا هو الموضع الثالث لسورة آل عمران، والذي يحوي القسم السادس في الرّدّ على نصارى نجران (٩هـ)، وهي الآيات (٣٣ ـ ٦٣).

في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين، وعلَّمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وكان رسولاً إلى بني إسرائيل بمعجزات الإبراء والإحياء بإذن الله، ثمَّ مَكَر قومه به لقتله، وتوفية الله له ورفعه، وجعل متَّبعيه من المؤمنين فوق الذين كفروا [ثمَّ أصبح أتباعهم من أهل الكتاب يُقَدَّمون رُتبة على الذين كفروا لاتِّباعهم رسولاً وكتابًا]، ومآل الذين كفروا العذاب، ومآل الذين آمنوا وعملوا الصالحات توفية الأجور. وتذكر الآيات كَون المسيح في خَلْقه كمَثَل آدم الذي خَلَقَه الله من تراب. ويتمُّ توجيه النبيّ ﷺ ـ عند استمرار محاجة وفد نجران في المسيح ـ للمباهَلة معهم عبر التضرُّع في الدعاء لنزول لعنة الله على الكاذبين.

وقد أراد الوفد «الاستجابة إلى الملاعنة، ثم عدل عن ذلك؛ خَوف أن تُصيبهم اللعنة، وطلبوا منه المصالَحة على أن يدفعوا الجزية، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه لتحصيلها. ولا شك أنَّ مصالحة أهل نجران على الجزية ربطتهم بدولة الإسلام، وقطعت الأواصر بينهم وبين الروم، فكان ذلك تأمينًا لظهر المسلمين وهم يُخطِّطون لمواجهة كبيرة مع الروم في الشام»(١).

بالمقابل، كان ممَّن استجاب للإسلام ملك البحرَين (الذي أرسل إليه النبيُّ ﷺ العلاءَ ابنَ الحضرمي في رجب ٩هـ)(٢)، فكتب إلى رسول الله ﷺ «بإسلامه وتصديقه [وقال:] إني قد قرأت كتابك على أهل هجر، فمنهم مَن أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم مَن كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدِث إليَّ في ذلك أمرك. فكتب إليه رسول الله ﷺ: «إنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومَن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»(٣).

---

(١) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٥٤٣، بتصرُّف.

(٢) ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، باب العين بعدها الألف، ٣: ٤٧١، برقم: ٤٤٠٨، بتصرُّف.

(٣) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وما كتب به رسول الله ﷺ لناس من العرب وغيرهم، ١: ٢٥٨، بتصرُّف.

هذا، وقد كان للتوسُّع في الإدارة والدعوة في العام التاسع أثره أيضًا على البيت النبوي. فقد ورد «أنَّ أزواج النبيّ ﷺ سألنه شيئًا من عَرَض الدنيا، وطلَبْن منه زيادة النفقة، وآذَينه بغيرة بعضهنَّ على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهنَّ شهرًا وصعد إلى غرفة له فمكث فيها، فنزلت آيات التخيير في سورة الأحزاب»(١)، كما نزلت سورة التحريم(٢).

---

(١) د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، سورة الأحزاب، ٦: ١٠٤ ـ ١٠٥، بتصرُّف.

(٢) لِما تجمع الروايات في الصحيح بينهما، فقد سأل ابن عباس رضي الله عنهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن المرأتين من أزواج النبيّ ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [**التحريم**: ٤] فقال: هما عائشة وحفصة. ثمَّ استقبل عمر الحديث يسوقه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهم من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبيّ ﷺ، فينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك، وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصخبت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليُراجِعنَه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني ذلك وقلت لها: قد خاب مَن فعل ذلك منهنّ، ثم جمعت عَلَيَّ ثيابي، فنزلت، فدخلت على حفصة فقلت لها: أي حفصة، أتُغاضِب إحداكُنَّ النبيّ ﷺ اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم. فقلت: قد خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكي؟ لا تستكثري النبي ﷺ ولا تُراجعيه في شيء ولا تهجريه، وسليني ما بدا لك، ولا يغرنَّك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحبّ إلى النبيّ ﷺ ـ يريد عائشة ـ قال عمر: وكنا قد تحدَّثنا أن غسان تنعل الخيل [تتهيَّأ] لغزونا، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته، فرجع إلينا عشاء فضرب بابي ضربًا شديدًا، ففزعت فخرجت إليه، فقال: اعتزل النبيّ ﷺ أزواجه، فقلت: خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون، فجمعت عَلَيَّ ثيابي، فصلَّيت صلاة الفجر مع النبيّ ﷺ، فدخل النبيّ ﷺ مشربة له فاعتزل فيها. . . ، فجئت المشربة التي فيها النبيّ ﷺ، فقلت لغلام له: استأذن لعمر، فدخل ثم رجع إليّ فقال: . . . قد أذن لك النبيّ ﷺ، فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، مُتَّكِئًا على وسادة من أدم =

□ «**التحريم**»[(١)]: وفيها نَهْيٌ للنبيّ ﷺ أن يُحرِّم على نفسه ما أحلَّ الله له ابتغاء مرضاة أزواجه، بل عليه أن يُكفِّر عن يمينه (في هذا التحريم). وتذكر السورة ما حدث من إسرار النبيّ ﷺ لحديث إلى زوجته ثمَّ إفشائها له إلى زوجة أُخرى، ثمَّ إظهار الله هذا الإفشاء للرسول ﷺ، ثمَّ إعلامه ﷺ لزوجته ببعض ما أفشته. وتتوجَّه الآيات إلى زوجتَيه أنَّ عليهما التوبة وعدم الثبات على موقفهما ضدَّ رغبات النبيّ ﷺ المباحة[(٢)]، مع توعُّد الزوجات

= حَشْوُها ليف، فسلَّمت عليه، ثم قلت وأنا قائم: يا رسول الله، أطلَّقت نساءك؟ فرفع إلي بصره فقال: «لا». . . فرفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت في بيته شيئًا يرد البصر، غير أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادْعُ الله فليُوَسِّع على أُمَّتك، فإن فارس والروم قد وَسَّع عليهم وأُعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، فجلس النبيّ ﷺ وكان مُتَّكِئًا، فقال: «أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب، إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا». فقلت: يا رسول الله استغفر لي. فاعتزل النبيّ ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعًا وعشرين ليلة، وكان قال: «ما أنا بداخل عليهنَّ شهرًا» من شدة موجدته عليهنّ حين عاتبه الله، فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة: يا رسول الله، إنك كنت قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهرًا، وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدّها عدًّا، فقال: «الشهر تسع وعشرون ليلة»، فكان ذلك الشهر تسعًا وعشرين ليلة، قالت عائشة: ثم أنزل الله تعالى آية التخَيُّر [أي: من سورة الأحزاب]، فبدأ بي أول امرأة من نسائه فاخترته، ثم خيَّر نساءه كلَّهنّ فقُلن مثل ما قالت عائشة». **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، ٥: ١٩٩١، ح: ٤٨٩٥، بتصرُّف.

(١) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس وأبي عبيد) على كونها مدنية. وهي «مدنية». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة التحريم، ١٨ : ١٧٧. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقت روايات (أبي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وكونها نزلت بين سورتَي الحجرات والجمعة، وذهب البيهقي إلى كونها نزلت بين سورتَي الحجرات والصف. وبالعودة إلى أسباب نزول آياتها، يتبيَّن نزولها في العام ٩ هـ قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك بمدة يسيرة، كما يظهر من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه السابق عن تحدُّث الصحابة فيما بينهم أنَّ غسَّان تتهيَّأ للقتال (وهو من أسباب غزوة تبوك).

(٢) عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «إن النبيّ ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش رضي الله عنها، ويشرب =

بأنَّ الله قادر على إبدال النبيّ ﷺ أزواجًا خيرًا منهنَّ يتَّصفن بالإسلام، والإيمان، والقنوت، والتوبة، والعبادة، والسياحة (الصيام أو الهجرة)[(١)]، من الثيبات أو الأبكار[(٢)]. ثمَّ تنتقل الآيات إلى المؤمنين ليثبتوا على المواقف التي تقي أنفسهم وأهليهم النار، وأنَّ عليهم التوبة لتكفير السيئات ودخول الجنات واكتساب النور يوم القيامة، كما تتوجَّه الآيات إلى الكافرين أنَّه لن يُقبَل اعتذارهم يوم القيامة عن أفعالهم. ويتمّ توجيه النبيّ ﷺ بمجاهدة الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم وأنَّ مأواهم جهنَّم.

وتُختَم السورة بضَرْب مَثَلٍ للذين كفروا بامرأتَي نوح ولوط اللتَين خانتا زوجَيهما فلم يُغنيا عنهما من الله شيئًا، وضَرْب مَثَلٍ للذين آمنوا بامرأة فرعون التي توجَّهت إلى الله بالتبرؤ من فرعون وعمله والالتجاء إلى الله، وأيضًا بمريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها وصدَّقت بكلمات ربّها وكُتُبه وكانت من القانتين.

❑ **وآيات من سورة الأحزاب**[(٣)]: وفيها التوجُّه إلى النبيّ ﷺ لتخيير زوجاته بين الدنيا

= عندها عسلاً، فتواصَيت أنا وحفصة أنَّ أيَّتنا دخل عليها النبيّ ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له. فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [التحريم: ٤] لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]. لقوله: بل شربت عسلاً. وقال لي إبراهيم بن موسى: عن هشام: ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تُخبري بذلك أحدًا». **صحيح البخاري**، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حرَّم طعامه، ٦: ٢٤٦٢، ح: ٦٣١٣، بتصرُّف.

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة التحريم، ٨: ١٦٥، بتصرُّف.

(٢) عن عمر رضي الله عنه قال: «بلغني معاتبة النبيّ ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهنّ، قلت: إن انتهَيتُنّ أو ليُبدلَنَّ الله رسوله ﷺ خيرًا منكنَّ، حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه، حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥]». **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، ٤: ١٦٢٩، ح: ٤٢١٣، بتصرُّف.

(٣) هذا هو الموضع الخامس لسورة الأحزاب، ويحوي القسمين السابع والثامن اللذين نزلا في =

وزينتها أو الله ورسوله والدار الآخرة[(١)]. ويتمُّ إعلامهنَّ بأنَّ العذاب على المعصية إن صدرت عنهنَّ مُضاعف كما أجورهنَّ على القنوت والعمل الصالح مضاعفة أيضًا. وتُوجِّههنَّ الآيات بعدم الخضوع بالقول [أي: النهي عن الإلانَة وترقيق الكلام عند مُخاطَبة الرجال]، وبالقرار في بيوتهنَّ، وعدم التبرُّج، وبالصلاة، والزكاة، وطاعة الله ورسوله، وبذكر الله. وتستعرض الآيات الصفات المطلوبة من إسلام، وإيمان، وقنوت، وصدق، وصبر، وخشوع، وتصدُّق، وصيام، وحِفظ فروج، وذكر الله كثيرًا، حتى تتحقَّق المغفرة والأجر العظيم.

وتنتقل الآيات لتوجيه المؤمنين بأن لا عِدَّة على المُطَلَّقة قبل مسِّها. ثمَّ تستعرض للنبيّ ﷺ ما أحلَّ الله له من زوجات وما ملكت يمينه، وتُعلِمه أنَّه لا يحلّ له أن يتزوَّج بعدهنَّ أو أن يتبدَّل بهنَّ من أزواج إلا ما ملكت يمينه (جزاء اختيارهنَّ الله ورسوله بدل الدنيا وزينتها)[(٢)].

= العام (٩هـ)، وفيهما الآيات (٢٨ ـ ٣٥) و(٤٩ ـ ٥٢). قال ابن حجر: «آية التخيير [أي: من سورة الأحزاب] نزلت سنة تسع اتفاقًا». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ٧: ٤٣٨.

(١) عن السيدة عائشة ﵂ قالت: لما أُمِر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: إنِّي ذاكر لك أمرًا، فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك. ثمَّ قال: إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]». قالت: إني أُريد الله ورسوله والدار الآخرة». **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، ٤: ١٧٩٦، ح: ٤٥٠٧، بتصرُّف.

(٢) عن الشعبي قال: نزل على رسول الله ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] إلى آخر الآيتين، فخيَّرهنّ رسول الله ﷺ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فشكر الله لهنّ ذلك وأنزل عليه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢]. البيهقي، **السنن الكبرى**، كتاب النكاح، باب لا يجوز له أن يُبدِّل من أزواجه أحدًا، ٧: ٨٥، ح: ١٣٣٤٦، بتصرُّف.

هذا، وضمن مظاهر الضعف أيضًا التي ظهرت في هذه المرحلة، ما حدث حين «أقبلت عيرٌ والمسلمون يُصلُّون مع النبيُ ﷺ الجمعة، فانفَضَّ الناسُ إلا اثنَي عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]»[١].

□ «**الجمعة**»[٢]: وفيها تنزيه الله سبحانه وتعالى، وكونه هو الذي بعث في الأُمِّيِّين الرسول ﷺ لتلاوة الآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة بعد ضلالهم. كما أنَّ الله بعثه لغيرهم من الأُمِّيِّين أيضًا سيلتحقون بهم لاحقًا[٣].

---

(١) وتمام الحديث: عن جابر رضي الله عنه قال: «أقبلت عير ونحن نصلي مع النبي ﷺ الجمعة، فانفَضَّ الناس إلا اثنَي عشر رجلاً»، فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]. **صحيح البخاري**، كتاب البيوع، باب ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، ٢: ٧٢٨، ح: ١٩٥٨، بتصرُّف.

(٢) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس) على كونها مدنية، خلافًا لأبي عبيد فقد جعلها مكية. وهي «مدنية في قول الجميع». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة الجمعة، ١٨: ٩١. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأوي عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وكونها نزلت قبل سورة التغابن (أي: قبل سورة الفتح أيضًا ٦هـ). لكن بالمقابل، تتَّفق الروايات الأربعة المعتمدة على أنَّ هذه السورة نزلت بعد الحجرات والتحريم (البيهقي وابن الضريس والزهري وأبي عمرو الداني) وكذلك روايتان من الروايات التي قُمنا بالاستئناس بها (ابن عبد الكافي والفهرست). وبذلك تكون نزلت بعد العام (٩هـ). والذي يُرجِّح مكانها في ترتيب النزول هو: كونها نزلت بعد خيبر (٧هـ) بسبب حضور الصحابي أبي هريرة رضي الله عنه لها في رواية البخاري (في الهامش القادم) من جهة، واعتمادنا على مؤشِّر مكانها في أغلبية روايات ترتيب النزول من جهة أُخرى. لذلك رجَّحنا أن تكون نزلت بين سورتَي التحريم وآيات سورة التوبة (التي نزلت عن غزوة تبوك).

(٣) وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا جلوسًا عند النبيّ ﷺ، فأُنزِلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] قال: قلت: مَن هم يا رسول الله؟ فلم يُراجعه حتى سأل ثلاثًا، وفينا سلمان الفارسي رضي الله عنه، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، =

وتضرب السورة مَثَلاً باليهود الذين حُمِّلوا التوراة ثمَّ لم يحملوها بالعمل بها كمَثل الحمار في عدم الانتفاع بما يحمل من أسفار، وهذا المَثل يتناسب مع تكذيبهم بآيات الله وظلمهم. ويتوجَّه الخطاب إليهم بالرَّدّ على زعمهم كونهم أولياء لله من دون الناس بتحدِّيهم أن يتمنَّوا الموت، وتُعلِم السورة أنَّهم لا يتمنَّونه أبدًا، ولكنَّ الموت مُلاقيهم وحساب القيامة بعده.

وتنتقل السورة لتوجيه المؤمنين في التعامل مع نداء يوم الجمعة بالسعي إلى ذكر الله وتَرْك البيع، ثمَّ الابتغاء من فضل الله تعالى بعد الصلاة مع استبقاء ذكره. وتلفت الآيات إلى التصرُّف المقابِل المرفوض بترك الصلاة وخطبة الرسول ﷺ ابتغاء التجارة أو اللهو، وتُختَم الآيات بأنَّ ما عند الله خير منهما، وأنَّه خير الرازقين.

غزوة تبوك:

في استجابة طبيعية لفريضة الجهاد «امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]»[(١)]، واستجابة لتحدِّي «شهر رجب (٩هـ)، [حين] بلغ رسول الله ﷺ أنَّ الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأنَّ هرقل قد رزق أصحابه لِسَنة وأجلبت معه [اجتمعوا وتألَّبوا] لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدِّماتهم إلى البلقاء، ندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم المكان الذي يُريد ليتأهَّبوا لذلك، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفِرهم، وذلك في حَرٍّ شديد، وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقات كثيرة وتقَوَّوا في سبيل الله»[(٢)].

= ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لَناله رجال ـ أو رجل ـ من هؤلاء». **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، سورة الجمعة، ٤: ١٨٥٨، ح: ٤٦١٥، بتصرُّف.

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، سورة الإسراء، ٥٨: ١٠١، بتصرُّف.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، غزوة رسول الله ﷺ تبوك، ٢: ١٦٥، بتصرُّف.

وقد «تثاقل بعض المسلمين عن الخروج فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، كما تخلَّف المنافقون فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]، وقوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]»[١] باتِّهام مُنفقي الأغنياء بالرياء، والسخرية من ما أنفقه الفقراء[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]»[٣].

وقد حضَّ النبيُّ ﷺ المسلمين على النفقة والحملان في سبيل الله (بأن يُجهِّز مَن يستطيع مَن لا يستطيع). وقد تسابق المسلمون في الإنفاق وبذل الصدقات. ومع ذلك، لم تكفِ تلك الصدقات لحملان جميع مَن أراد الخروج، فكان أن بكى بعض المسلمين؛ لتعذُّر خروجهم[٤].

بالمقابل، كثُرَت الاعتذارات من الأعراب عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الغزوة. كما تخلَّف ثلاثة من المسلمين من غير شكٍّ ولا ارتياب، بل أبطأت بهم النية. كما تخلَّف المنافقون ـ كعادتهم ـ عن اللحاق برسول الله ﷺ في غزواته[٥]، وعملوا على تخذيل المسلمين أيضًا[٦].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ما نزل في تبوك، ٢: ٥٤٩ ـ ٥٥٠، بتصرُّف. والآية الأخيرة سَبَق إيراد رواية الصحيح في نزولها عقب غزوة حنين، أي: قبل أشهر قليلة من التحضير لغزوة تبوك في شهر رجب (٩هـ).

(٢) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٥٢٦، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، غزوة تبوك، ٢: ٥١٧، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، غزوة تبوك، ٢: ٥١٧ ـ ٥١٨، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، غزوة تبوك، ٢: ٥١٨ ـ ٥١٩، بتصرُّف.

(٦) كان بعض المنافقين يُشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو مُنطَلِق إلى تبوك، فقالوا: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا، والله لكأنَّا بكم غدًا مقرنين في الحبال، إرجافًا =

وفي الطريق إلى تبوك، قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «إنَّ رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله. وإنَّ قِوام هذا الأمر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وإنَّ ذروة السَّنام منه الجهاد في سبيل الله. إنَّما أُمرت أن أُقاتل النَّاس حتى يُقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة ويشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله عز وجل»[1]. وهو ضابط قَبول التعدُّدية الدينية في التعامل مع المشرك[2].

= وترهيبًا للمؤمنين. فأرسل ﷺ إليهم فأتَوه يعتذرون، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، تخزيل المنافقين للمسلمين وما نزل فيهم، ٢: ٥٢٤ ـ ٥٢٥، بتصرُّف. وقد وردت رواية أُخرى قريبة منها تربط نزول الآية أيضًا بتبوك، كما في: مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة التوبة، ص١٠٨ ـ ١٠٩، وقال عن سندها: «رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد لم يُخرج له مسلم إلا في الشواهد، وللحديث شاهد بسند حسن».

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، ١: ١٤، ح: ٢٥. أخرجه مختصرًا، وتفصيله في: أحمد بن حنبل، **المسند**، تتمة مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل رضي الله عنهما، ٣٦: ٤٣٤، ح: ٢٢١٢٢، بتصرُّف، واللفظ لأحمد.

(٢) «المراد بالناس في قوله ﷺ: «أُقاتِل الناس» أي: المشركين من غير أهل الكتاب، ويدلُّ عليه رواية النسائي بلفظ: «أُمِرت أن أُقاتِل المشركين» [النسائي أحمد بن شعيب، **السنن الصغرى**، كتاب تحريم الدم، ٧: ٧٥، ح: ٣٩٦٦]... والمراد هو تعبير عن إعلاء كلمة الله وإذعان المخالفين، فيحصل في بعضٍ بالقتل، وفي بعضٍ بالجزية، وفي بعضٍ بالمعاهدة... فكأنَّه قال: حتى يُسلِموا أو يلتزموا ما يُؤدِّيهم إلى الإسلام كالجزية، وهذا أحسن». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب الإيمان، باب تفسير قوله تعالى ﴿فَإِن تَابُوا﴾ [التوبة: ٥ و١١]، ١: ٧٧، بتصرُّف. كذلك، «واستدلالاً بمنطوق الحديث، هناك فرق بين المقاتلة على الشيء والقتل عليه، فإن المقاتلة مفاعلة تقتضي الحصول من الجانبَين، فلا يلزم من إباحة المقاتلة على الصلاة إباحة قتل الممتنع من فعلها إذا لم يُقاتِل». ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، كتاب الديات، باب قول الله تعالى أنَّ النفس بالنفس والعين بالعين، ١٢: ٢٠٣، بتصرُّف.

هذا، وقد تنبَّه أحد المسلمين المتخلِّفين (من غير الثلاثة السابق ذكرهم) إلى ذَنْبِ تخلُّفه، فتجهَّز ولحق بالرسول ﷺ في تبوك وقال له: كدتُ يا نبي الله أن أهلك بتخلُّفي عنك، وتزيَّنت لي الدنيا، وتزيَّن لي مالي في عيني، وكدتُ أن أختاره على الجهاد، فعزم الله عليَّ بالخروج. فاستغفر له ودعا له بالبركة[١].

ولما وصل ﷺ إلى تبوك، جاءه الرَّدّ على رسالة كان قد أرسلها إلى قيصر يُخيِّرهم بين: اتِّباعهم على دينه، أو الإقرار بخَراج يجري له عليهم فيُقرُّهم على هيئتهم في بلادهم، أو أن يُلقوا إليه بالحرب. فاختار قيصر الحرب[٢]. كما أقام ﷺ معاهدات مع بعض القبائل الكتابية في المنطقة واتَّفق معهم على الجزية[٣].

وفي طريق العودة إلى المدينة، أوحى الله إليه خبر مسجد كان قد أسَّسه المنافقون ليكون مركزًا لتجمُّعهم ومكرهم والإعداد لحرب المؤمنين، فأمر النبيُّ ﷺ بهدمه وإحراقه[٤].

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة، أتاه المنافقون يعتذرون ويحلفون، فقَبِلَ النبيُّ ﷺ أعذارهم علانية ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، فيما أرجأ أمر المسلمين الثلاثة ـ الذين صَدَقوه في عدم وجود أعذار لهم في تخلُّفهم عنه ـ حتى أتت من الله توبتهم.

---

(١) البيهقي، **دلائل النبوة**، باب غزوة تبوك، ٥: ٢٢٦، بتصرُّف.

(٢) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المدنيين، حديث رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ، ٢٧: ٢٤٢، ح: ١٦٦٩٣، بتصرُّف. قال الهيثمي: رواه عبد الله ابن أحمد، وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبد الله بن أحمد كذلك. الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، كتاب علامات النبوة، باب ما كان عند أهل الكتاب من أمر نبوته ﷺ، ٨: ٢٣٤ـ ٢٣٦، ح: ١٣٨٩٤.

(٣) د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، ٢: ٥٣٤، بتصرُّف.

(٤) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر مسجد الضرار، ٢: ٥٢٩ ـ ٥٣٠، بتصرُّف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب رجوع النبي ﷺ من تبوك، ٥: ٢٦٢، بتصرُّف.

وخلال تلك المدّة، حضر وفد ثقيف في شهر رمضان (٩هـ)[1]، وتخلّل ذلك نزول حُكم تحريم الربا[2] **في آيات من سورة البقرة**[3].

وقد توفِّي عبد الله بنُ أُبَيّ ابنِ سلول (سيّد المنافقين) في ذي القَعدة (٩هـ) وتكفَّن في قميص النبيّ ﷺ وصلَّى عليه ﷺ بناء على وصيَّته، قبل أن تنزل آيات النهي عن ذلك من سورة التوبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[4] [التوبة: ٨٤].

هذا، وقد نزلت في كل ما سبق (غير أمر وفد ثقيف) آيات من سورة التوبة في الحديث عن مُلابسات غزوة تبوك:

❑ **آيات من سورة التوبة**[5]: وفيها التحذير من التلاعب بالأشهر الحُرُم بالتقديم والتأخير

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر وفد ثقيف وإسلامها، ٢: ٥٣٧، بتصرُّف.

(٢) قال القرطبي: «. . . وآيات الربا أيضًا [في سورة البقرة] من أواخر ما نزل من القرآن». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة البقرة، ١: ١٥٢.

(٣) هذا هو الموضع السابع لسورة البقرة، والذي يترجَّح نزوله بعد العودة من تبوك (٩هـ)، ويحوي الآيات (٢٧٥ ـ ٢٨١). فقد ورد أنَّ خالد بن الوليد ﷺ لما أتى النبي ﷺ مُطالِبًا بحقِّ أبيه في رِباه الذي كان في ثقيف بعد إسلام أهل الطائف، نزلت آيات تحريم ما بقي من الربا بأيدي الناس. ابن هشام، **السيرة النبوية**، مطالبة خالد بربا أبيه وما نزل في ذلك، ١: ٤١٤، بتصرُّف. وقد ذكر النبيّ ﷺ حكم تحريم الربا لوفد ثقيف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ، ٥: ٣٠١، بتصرُّف.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ٤: ١٧١٥، ح: ٤٣٩٣، بتصرُّف. وابن هشام، **السيرة النبوية**، ما نزل بسبب صلاة النبيّ ﷺ على ابن أُبيّ، ٢: ٥٥٢، بتصرُّف. والبيهقي، **دلائل النبوة**، باب ما جاء في مرض عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، ٥: ٢٨٥، بتصرُّف.

(٥) هذا هو الموضع الثالث لسورة التوبة، ويحوي الأقسام الثمانية بعد القسمَين الأوّلَين، وهي الآيات (٣٦ ـ ٣٧) و(٣٨ ـ ٤٨) و(٤٩ ـ ٦٣) قبل غزوة تبوك، ثمَّ الآيات (٦٤ ـ ٨٣) في تبوك، ثمَّ الآيات (٨٧ ـ ١١٠) و(٨٤ ـ ٨٦) و(١١١ ـ ١٢٢) بعد تبوك، ثمَّ الآيات (١٢٣ـ ١٢٩) مُلحَقة بها.

لتحليل ما حرَّم الله من كسب للمال وتشريع للقتال فيها، مع الأمر بقتال المشركين كافّة[١] كما هم يُقاتلون المؤمنين كافّة.

ثمَّ تنتقل الآيات للحديث عن غزوة تبوك وما وقع قبلها من تثاقل عن النَّفر في سبيل الله إلا لو كان مَغْنمًا سهلاً (كدافع مُحَرِّك) جوابًا على حثِّ النبيّ ﷺ على التجهُّز لها، وتمَّ الاستشهاد بحادثة الهجرة التي نصر الله فيها الرسول ﷺ وصاحبه وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وينتقل الحديث إلى أعذار المنافقين في التخلُّف عن الغزوة (بُعْد المسافة، وخَوف الفتنة)، وسلوكِيَّاتهم وأوصافهم (الحلف الكاذب، وريبة القلب، وبغي الفتنة، والتجسُّس، والتربُّص بالمصائب، والكسل عند الصلاة، والكره للإنفاق، واللمز في الصدقات والسُّخط من عدم الأخذ منها، وأذية النبيّ ﷺ، والحذر من فضح القرآن لهم، والاستهزاء بالله وآياته ورسوله، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف). وأعلَمَت الآيات بأنَّ مآل المنافقين نار جهنَّم. وتتعرَّض الآيات لذكر أصناف مَن تُنفَق عليهم الزكاة[٢] (الفقراء، والمساكين، والعاملين على الزكاة، والمؤلَّفة قلوبهم، والمكاتَب للتحرُّر من الرِّق، وأصحاب الغرامات، وفي سبيل الله، وابن السبيل).

ثمَّ تنتقل الآيات لذكر صفات المؤمنين والمؤمنات (في كَون بعضهم أولياء بعض، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله)، وتأهُّلهم لرحمة الله وما وعدهم الله من الجنات.

---

(١) هنا وصل تسلسل أحكام القتال إلى قتال المشركين كافة، بعد أن كان أمرًا بعد إذنٍ مخصوص بالمقاتلين (من قريش) لا يتعدَّاهم، وهم الموصوفون بأنَّهم الذين ظَلَموا وأخرجوا المسلمين من ديارهم بغير حقّ إلا بسبب عبادتهم لله. وسبب توسعة مَن يقع عليهم الحكم في هذه الآية يظهر جليًا من تتمّتها، وهي: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. فالعلة ذاتها، بقتال المُقاتلين، ولكنَّ الدائرة اتَّسعت بعد هذه السنوات، فاتَّسع مَن يقع عليه الحكم وفق العلة ذاتها.

(٢) سيأتي مزيد بيان عنهم عند نهاية الباب باستعراض منظومة الإنفاق في العهد المدني ص٦٠٩ وما بعدها.

وينتقل الخطاب إلى النبي ﷺ لمجاهدة الكفار والمنافقين، والغِلظة عليهم، وإعلامهم بأنَّ أمامهم خيار التوبة بالإسلام أو العذاب في الدنيا والآخرة عند التولِّي. وتعود الآيات لذكر نماذج من سلوكيَّات المنافقين بإخلاف وعد الله، ولَمز المُطَّوِّعين من المؤمنين في صدقات دعم جيش غزوة تبوك، وتُخاطِب الآيات النبيّ ﷺ لإعلامه بأنَّ الله لن يغفر لهم ولو استغفر لهم ﷺ بسبب كفرهم وفسقهم.

وتنتقل الآيات لذكر ما حدث في المدينة أثناء الغزوة من فرح المخلَّفين بعدم الخروج إلى تبوك (بأعذار الحَرّ ولأسباب الغنى). وتأمر النبيّ ﷺ بإعلامهم بأنَّ عاقبتهم الحرمان من الغزو والقتال مع النبي ﷺ للأعداء.

ومنعت الآيات ـ المُنزَلة بعد عودة النبيّ ﷺ إلى المدينة ـ من الصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم. بالمقابل، فإنَّ الرسول ﷺ والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، فلهم الخيرات والفلاح والجنات.

ثمَّ تنتقل الآيات لذكر ما حدث في المدينة بعد تلك العودة من تبوك، بمجيء المنافقين من الأعراب (حول المدينة) المتخلِّفين ليعتذروا، فيتمّ الإعلام بمعايير قَبول الاعتذارات (الضعف، والمرض، والفقر، وعدم قدرة النبيّ ﷺ التكفُّل بهم مع حرصهم على الخروج)، وبأنَّ الله قد فضحهم، وبأنَّ على المؤمنين الإعراض عنهم لرجسهم[(١)]. وتُخبر الآيات أنَّ

---

(١) عن كعب بن مالك رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك، جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المُخَلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقَبِل منهم رسول الله ﷺ علانِيَتهم وبايعهم واستغفر لهم ووَكل سرائرهم إلى الله، وصدَقتُه حديثي. فقال كعب: والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قطّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صِدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦]. مقبل بن هادي، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، سورة التوبة، ص١١٠ ـ ١١١، وقال: «الحديث رجاله رجال الصحيح. . . ونحوه في صحيح البخاري».

الأعراب أشدّ كفرًا ونفاقًا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ واختلاف مواقفهم بين متربِّصين عليهم دائرة السَّوء، ومؤمنين يدخلون رحمة الله. بالمقابل، يتجلّى مآل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان بالرضوان والجنات. أما الأعراب حول المدينة، فمنهم منافقون ـ ومن أهل المدينة كذلك ـ مردوا على النفاق وتمرَّنوا عليه ومآلهم العذاب مرَّتَين قبل عذاب الآخرة. إلى جانب هذه الاعتذارات، هناك مؤمنون اعترفوا بتقصيرهم عن اللحاق بالنبيّ ﷺ إلى تبوك، وخَلَطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، عسى الله أن يتوب عليهم، وعلى النبيّ ﷺ أن يأخذ من أموالهم صدقة لتطهيرهم وتزكيتهم بها مع صلاته عليهم[1]. وهناك أيضًا مؤمنون آخرون لم يخرجوا مع النبيّ ﷺ فتمَّ إرجاء الفصل فيهم إلى حين (وهم الثلاثة الذين تخلَّفوا بلا عذر ثمَّ صَدَقوا النبيّ ﷺ في ذلك بعد عودته).

وانتقلت الآيات للحديث عن مؤامرة تأسيس مسجد ضرار وكفر وتفريق بين المؤمنين وإعداد لمَن حارب الله ورسوله، وتمَّ توجيه النبيّ ﷺ بعدم الصلاة فيه[2]. ويتمّ الإعلام أنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة، وذكر أوصافهم بالتوبة، والعبادة، والحمد، والسياحة (الصيام)، والركوع، والسجود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحِفظ حدود الله.

---

(١) ورد في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢] وما بعدها أنَّها «نزلت في المعترِفين بخطأ فعلهم في تخلُّفهم عن رسول الله ﷺ، وتركهم الجهاد معه والخروج لغزو الروم حين شخص إلى تبوك». الطبري، **جامع البيان**، سورة التوبة، ١٤ : ٤٥٣، بتصرُّف.

(٢) «كان أصحاب مسجد الضرار قد أتَوا النبيّ ﷺ وهو يتجهَّز إلى تبوك، طالبين منه أن يُصلِّيَ فيه، فوعدهم عند عودته من تبوك. ولكن عند قفوله ﷺ منها نزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧]» وما بعدها. ابن هشام، **السيرة النبوية**، أمر مسجد الضرار، ٢ : ٥٢٩ ـ ٥٣٠، بتصرُّف.

وتنتقل الآيات لتوجيه النبيّ ﷺ والذين آمنوا بعدم الاستغفار للمشركين بل عليهم التبرؤ منهم. ويتمّ الإعلام بتوبة الله تعالى على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه في تبوك، كما تاب على المؤمنين الذين تمَّ إرجاء الفصل فيهم بعد أن ضاقت عليهم الأرض، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثمَّ وَجَّهت الآيات المؤمنين إلى التقوى والصدق[١]. كما خاطَبت الآيات أهل المدينة ومَن حولهم من الأعراب للحثِّ على القتال مع رسول الله ﷺ، ولكن عليهم بالمقابل أن لا يخرجوا جميعًا للقتال، بل أن تتوزَّع الاختصاصات بينهم بين الفقه والإنذار.

وتؤكِّد السورة التعامل بشدّة مع الكفار بغِلظة، وتصف حال الذين آمنوا مع نزول السورة بزيادة الإيمان، وحال الذين في قلوبهم مرض بزيادة النفاق.

وتُختَم السورة بأنَّ الرسول ﷺ ـ قد جاء من بينهم ـ حريص عليهم، بالمؤمنين رؤوف رحيم، وعليه أن يقول لمَن تولَّى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكَّلت، وهو ربّ العرش العظيم.

وبعد أن خرج أبو بكر رضي الله عنه للحجّ بالناس في شهر ذي الحِجَّة من العام (٩هـ)، لحقه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ، فقال له أبو بكر: استعملك رسول الله على الحجّ؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس[٢]. ذلك أنَّ صدر براءة نزل على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليُقيم للناس الحجّ، فدعا رسول الله ﷺ عليًّا وقال له: اخرج بهذه القَصَّة من صدر براءة، وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى،

---

(١) قال كعب بن مالك رضي الله عنه وهو «يُحَدِّث حين تخلَّف عن قصة تبوك: فوالله ما أعلم أحدًا أبلاه الله في صِدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تعمَّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ١١٩]». **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، سورة براءة، ٤: ١٧١٩، ح: ٤٤٠١، بتصرُّف.

(٢) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالناس، ٢: ١٦٨، بتصرُّف.

أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدَّته[١]. فكان ذلك إعلانًا لنقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه، أن لا يصدَّ عن البيت أحد جاءه، ولا يُخاف أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهدًا عامًّا بينه وبين الناس من أهل الشرك[٢]. وأرسل أبو بكر المؤذِّنين يوم النحر ليُعلِنوا: أن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان[٣]، وأنَّه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، وأنَّه مَن كان بينه وبين النبيّ ﷺ عهد فعهده إلى مدَّته، ومَن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر[٤].

□ **آيات من سورة التوبة**[٥]: وفيها إعطاء مهلة أربعة أشهر (تبدأ من يوم الحجّ الأكبر في ١٠ ذي الحجّة ٩هـ)[٦]، لإنهاء العهد بين الرسول ﷺ وبين مَن نقضوا العهد معه قبل انتهاء مدَّته[٧]، أو مَن كان له عهد إلى أجل غير محدود. أما مَن لم ينقض عهده معه ﷺ فقد

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، حجّ أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالناس سنة تسع، **٢: ٥٤٥**، بتصرُّف. «رواه ابن إسحاق بإسناد حسن، لكنَّه مُرسَل محمد بن علي الباقر، وله شواهد يتقوَّى بها». د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة، ٢: ٥٤٦**، بتصرُّف.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، حجّ أبي بكر رضي الله عنه بالناس سنة تسع، **٢: ٥٤٣ ـ ٥٤٥**، بتصرُّف.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب الصلاة، باب ما يستر من العورة، ١: **١٤٤**، ح: **٣٦٢**، بتصرُّف.

(٤) الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحَين**، كتاب المغازي والسرايا، **٣: ٥٤**، ح: **٤٣٧٦**، بتصرُّف، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٥) هذا هو الموضع الرابع لسورة التوبة، ويحوي القسم الحادي عشر منها، والذي نزل في حجة أبي بكر رضي الله عنه ١٢/ ٩هـ، وهي الآيات (١ ـ ٢٢).

(٦) الطبري، **جامع البيان**، سورة التوبة، **١٤: ١٢٧**، بتصرُّف.

(٧) كان هناك عهد عام بين رسول الله ﷺ وبين الناس من أهل الشرك: أن لا يصدَّ عن البيت أحد جاءه، ولا يُخاف أحد في الشهر الحرام. ابن هشام، **السيرة النبوية**، حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس سنة تسع، **٢: ٥٤٣**، بتصرُّف.

أمر الله نبيَّه في شأنه أن يُتمَّ إليه عهده إلى مدَّته. [وأما مَن لا عهد له فسيرد فيه حديث بكون أجله هو أربعة أشهر أيضًا]. وأمام المشركين خيار التوبة بالإسلام أو التولِّي ومآله العذاب. ويُمكن للمشرك طلب الجوار ليتعرَّف على الإسلام حتى يعود إلى دياره(١).

ثمَّ ذكرت الآيات المقاصد من إلغاء المعاهدات بأن ليس للمشركين بالله عهد عند الله ورسوله ﷺ يُوفَّى لهم به ويُتركوا من أجله آمنين يتصرَّفون في البلاد(٢)، وبأنَّ المشركين ـ «الذين نقضوا عهدهم أو لا عهد لهم من المؤمنين»(٣) ـ إن غلبوا المؤمنين فلن يُراعوا عهدًا أو عقدًا أو حِلفًا أو قرابة(٤)، فهم يُظهِرون خلاف ما يُبطِنون، وفضَّلوا الدنيا على الآيات البينات الدالات على الحقّ، ومنعوا النَّاس من الدخول في الإسلام(٥). وأمامهم خيار التوبة بالإيمان والصلاة والزكاة، فيُصبحوا إخوان المؤمنين في الدين، أو خيار مقاتلة رؤساء الكفر ـ الذين لا أيمان لهم ـ عند نكث الأيمان بعد العهد والطعن في الدين، حتى ينتهوا عن جميع ذلك. وهذا القتال هو عذاب الله بأيدي المؤمنين، وخِزيهم، وانتصارٌ عليهم، وشفاءٌ لصدور المؤمنين، وإذهابٌ لغَيظ قلوبهم، مع إمكانية توبة الله على مَن يشاء منهم. كما أنَّ هذا القتال هو أيضًا امتحان للمؤمنين في إخلاص وِلايتهم لله تعالى(٦).

ثمَّ تردّ الآيات على المشركين أعمالهم الصالحة في عمارة المساجد حال كفرهم أنَّها لا تُقبَل؛ لأنَّها مختصة بمَن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله، أما أعمال سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام فلا يستوي فاعلها مع مَن آمن بالله واليوم الآخر وهاجر وجاهد في سبيل الله بالأموال والأنفس، ولهم الرحمة والرضوان والنعيم والخلود في الجنات.

---

(١) الطبري، **جامع البيان**، سورة التوبة، ١٤: ١٣٨، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، سورة التوبة، ١٤: ١٤١، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، سورة التوبة، ١٤: ١٤٥، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، سورة التوبة، ١٤: ١٤٨، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، سورة التوبة، ١٤: ١٥٠ ـ ١٥١، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، سورة التوبة، ١٤: ١٦٣، بتصرُّف.

يُلاحَظ أنَّ الدعوة التي بدأت بإنذار في مهدها، تحوَّلت إلى تبشير في آخرها وقوَّتها. فقد وصَّى النبُّي ﷺ أبا موسى الأشعريَّ ومعاذاً رضي الله عنهما حين أرسلهما إلى اليمن بقوله: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[1]. وممكن منه استنباط روحية الدعوة في هذه المرحلة (المختلفة عن إنذار المراحل الأولى): بالتيسير ليُفهم الدين (استيعاب) ولا يُتعصَّب له كَرَدِّ فعلٍ أوّلي طبيعي، والتبشير ليتمّ الاستقطاب، والتطاوع (مطاوعة) لوحدة المرجعية.

في العام العاشر للهجرة، بعث النبيُّ ﷺ عليًّا رضي الله عنه إلى اليمن، وقد حدث أن بعث عليٌّ رضي الله عنه إلى النبيّ ﷺ من اليمن بذهبية. فقسمها ﷺ بين أربعة نفر من نجد ليتألَّفهم (كما تألَّف قريشًا في حنين). فأقبل رجل غائر العينين، مُشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كثّ اللحية محلوق، فقال: اتَّقِ الله يا محمد، فقال: «مَن يُطع الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني؟» فسأله رجل قَتْلَه فمنعه. فلما ولَّى قال: «إنَّ من ضئضئ هذا، ـ أو: في عقب هذا ـ قومًا يقرؤون القرآن لا يُجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميّة، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنَّهم قتل عادٍ»[2].

وفي هذه المرحلة نجد أحاديث نبوية تُشير إلى نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف[3]، وذلك «لحكمة التيسير على الأمة الإسلامية كلِّها خصوصًا الأمة العربية التي

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب ما يُكره من التنازع والاختلاف، ٣: ١١٠٤، ح: ٢٨٧٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾، ٣: ١٢١٩، ح: ٣١٦٦، بتصرُّف.

(٣) منها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام، يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، فكدتُ أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه، فجئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا

شوفهت بالقرآن، فإنها كانت قبائل كثيرة وكان بينها اختلاف [أي: تعدّدية ثقافية] في اللهجات ونبرات الأصوات وطريقة الأداء وشهرة بعض الألفاظ في بعض المدلولات على رغم أنها كانت تجمعها العروبة ويوحّد بينها اللسان العربي العام، فلو أخذت كلّها بقراءة القرآن على حرف واحد لشقَّ ذلك عليها»(١).

وجاء موسم الحجّ في العام العاشر، حيث حجّ فيه النبيُّ ﷺ بالناس وخطب فيهم يوم عرفة قائلاً: «إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمَيَّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة... وربا الجاهلية موضوع... فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنَّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضربًا غير مبرح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله»(٢)... «وإنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه أبدًا»(٣)... «أرقاءكم أرقاءكم أرقاءكم، أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم

= يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال رسول الله ﷺ: «أرسِله، اقرأ»، فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أُنزِلَت»، ثم قال لي: «اقرأ»، فقرأتُ، فقال: «هكذا أُنزلت، إن هذا القرآن أُنزِل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه». **صحيح مسلم**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أنَّ القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، ١: ٥٦٠، ح: ٨١٨. هذا، وإنَّ هشام بن حكيم قد «أسلم يوم الفتح» (٨هـ). ابن الأثير، **أُسد الغابة**، ٤: ٦٢٢، بتصرُّف.

والمقصود بالأحرف السبعة في أحد المذاهب المختارة سبعة وجوه هي: «اختلاف الأسماء، وتصريف الأفعال، ووجوه الإعراب، وبالنقص والزيادة، وبالتقديم والتأخير، وبالإبدال، واختلاف اللغات أي: اللهجات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام ونحو ذلك». محمد الزرقاني، **مناهل العرفان**، ١: ١٥٦ ـ ١٥٧، بتصرُّف.

(١) محمد الزرقاني، **مناهل العرفان**، ١: ١٤٧، بتصرُّف.

(٢) **صحيح مسلم**، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ٢: ٨٨٦، ح: ١٢١٨، بتصرُّف.

(٣) ابن هشام، **السيرة النبوية**، حجة الوداع، ٢: ٦٠٤، بتصرُّف.

مما تلبسون، فإن جاؤوا بذنب لا تُريدون أن تغفروه، فبيعوا عباد الله ولا تُعذِّبوهم»[١]. . .
وقال أيضًا في وسط أيام التشريق: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فَضْلَ لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى، أبلَّغت؟»، قالوا: بلَّغ رسول الله، ثم قال: «أيّ يوم هذا؟»، قالوا: يوم حرام، ثم قال: «أيّ شهر هذا؟، قالوا: شهر حرام، قال: ثم قال: «أي بلد هذا؟»، قالوا: بلد حرام، قال: «فإنَّ الله قد حرَّم بينكم دماءكم وأموالكم» ـ قال [الراوي]: ولا أدري قال: أو أعراضكم، أم لا ـ «كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، أبلَّغت؟»، قالوا: بلَّغ رسول الله، قال: «لِيُبلِّغ الشاهد الغائب»[٢].

□ ونزلت آخر سورة، **سورة النصر**[٣]: وفيها يتوجَّه الخطاب إلى رسول الله ﷺ ـ بدخول مرحلة نصر الله والفتح ورؤية أفواج الداخلين في دين الله ـ أن يقوم بتسبيح الله واستغفاره.

وقد وردت روايات أنَّه نزلت آيات: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ثمَّ نزل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

(١) أحمد بن حنبل، **المسند**، مسند المدنيين، حديث عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن النبي ﷺ، ٢٦: ٣٣٤، ح: ١٦٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه، أحاديث من أصحاب النبي ﷺ، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، ٣٨: ٤٧٤، ح: ٢٣٤٨٩.

(٣) هذه السورة اتُّفق في جميع لوائح تحديد المكي من المدني (أبي عمرو الداني وابن الأنباري والحارث المحاسبي وأبي جعفر النحاس وأبي عبيد) على كونها مدنية. وهي «مدنية بإجماع». القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، سورة النصر، ٢٠: ٢٢٩. وأما في لوائح ترتيب النزول فقد اتفقوا جميعًا (البيهقي وأبو عمرو الداني وابن الضريس والزهري) على مدنيَّتها وكونها نزلت بين سورتَي الحشر والنور. هذا، وفي روايتَي ابن عباس ومقاتل في ترتيب النزول جعلاها آخر ما نزل. وبالعودة إلى بعض الروايات، يتبيَّن أنَّها آخر سورة كاملة نزلت. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ آخر سورة نزلت من القرآن جميعًا هي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾. **صحيح مسلم**، كتاب التفسير، ٤: ٢٣١٨، ح: ٣٠٢٤، بتصرُّف.

عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ثمَّ نزل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١][(١)].

لقد استمرَّ تأكيد النبيّ ﷺ في العديد من المواقف على عدم اعتماد معيار اختلاف المنزلة الاجتماعية (بين شريف وضعيف/ وضيع) في تقييم الناس. وهذه الأحاديث تُعبِّر عن جميع أقسام التعدُّدية المجتمعية الداعية للتمايز، ومنها أنَّه مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال ﷺ لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكَح، وإن شفع أن يُشَفَّع. فسكت رسول الله ﷺ. ثم مرَّ رجل فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حَرِيٌّ إن خطب أن لا يُنكَح، وإن شفع أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسمَع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[(٢)]. وقال ﷺ: «مَن بطّأ به عمله، لم يُسرِع به نسبه»[(٣)].

كذلك، تخلَّل المرحلة الأخيرة من السيرة، ذكر النبي ﷺ لأحاديث الفتن بعد وفاته، وكان جوابه صريحًا واضحًا، يُعيد إلى الذهن الموقف في مكة من منع استخدام القوة والعنف في حسم الصراعات السياسية داخل المجتمع الواحد[(٤)]. مع التشديد على «تأكيد مبدأ المساواة بين المؤمنين، وترسيخ الطاعة للسلطة بغضِّ النظر عمَّن يتولَّى أمرها، قال ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعمِل عليكم عبد حبشي كأنَّ رأسه زبيبة»[(٥)]. وهذا

---

(١) الماوردي، **النكت والعيون**، سورة النصر، ٦: ٣٦٢، بتصرُّف.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، ٥: ٢٣٦٩، ح: ٦٠٨٢، بتصرُّف.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ٤: ٢٠٧٤، ح: ٢٦٩٩، بتصرُّف.

(٤) عبد الحميد أبو سليمان، **العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار رؤية إسلامية**، ص٢٥، بتصرُّف.

(٥) **صحيح البخاري**، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ٦: ٢٦١٢، ح: ٦٧٢٣، بتصرُّف.

يتناسب مع الظرف التاريخي والوضع الاجتماعي للعرب الذين كانوا يأنفون في جاهليَّتهم من الطاعة لبعضهم بعضًا بسبب الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب»[١]، قال ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنَّ: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[٢]. هذا، وقد تمَّ تقييد تلك الطاعة[٣] بأن تكون في معروف لقوله ﷺ: «لا طاعة في المعصية، إنَّما الطاعة في المعروف»[٤]، وفيما يستطيعه الإنسان لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ومن ولاة يُقيمون الكتاب والصلاة لقوله ﷺ: «ولو استُعمِل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا»[٥] وقوله ﷺ: «خيار أئمَّتكم الذين تُحبُّونهم ويُحبُّونكم، ويُصَلُّون عليكم وتُصَلُّون عليهم، وشرار أئمَّتكم الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، قيل: يا رسول الله، أفلا نُنابذهم بالسيف؟ فقال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدًا من طاعة»[٦]، وما لم يصدر منهم كفر ومعصية بواح؛ لحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: بايعنا رسول الله ﷺ على «السمع والطاعة في مَنشطنا ومَكرهنا، وعُسرنا ويُسرنا، وأثرة علينا [أي: استئثار الأمراء بحظوظهم واختصاصهم إياها بأنفسهم ولو مُنعنا حقوقنا]، وأن لا نُنازع الأمر أهله إلا أن تَرَوا كفرًا

---

(١) د. حاكم المطيري، **تحرير الإنسان وتجريد الطغيان دراسة في أصول الخطاب السياسي القرآني والنبوي والراشدي**، ص٢٠٧ ـ ٢١١، بتصرُّف.

(٢) **صحيح مسلم**، كتاب الكسوف، باب التشديد في النياحة، ٢: ٦٤٤، ح: ٩٣٤، بتصرُّف.

(٣) يُراجَع: د. حاكم المطيري، **تحرير الإنسان وتجريد الطغيان**، ص٢٢٨، بتصرُّف.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب التمنِّي، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم، ٦: ٢٦٤٩، ح: ٦٨٣٠، بتصرُّف.

(٥) **صحيح مسلم**، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣: ١٤٦٨، ح: ١٨٣٨، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، ٣: ١٤٨١، ح: ١٨٥٥، بتصرُّف.

بواحًا عندكم من الله فيه برهان»[١]. أما حين يقع التظالم في المجتمع بين فِئاته، فعلى السلطة الشرعية السعي بالإصلاح، وإحقاق الحقوق، وإخضاع البغاة والمعتدين ولو بالعنف[٢].

➢ وهكذا، أوصلتنا إدارة التعدُّدية المجتمعية في هذه المرحلة إلى النتائج التالية:

• **أما التعدُّدية العقَدية:** فتمَّ الإعلام بكفر مَن قال بأنَّ الله هو المسيح أو أنَّه ثالث ثلاثة، ولعن اليهود بافتراءاتهم على الله، وأمر اليهود والنصارى بإعمال التوراة والإنجيل (الكتاب) والاحتكام إليهما. وتمَّ تأكيد التبرؤ من الشرك. كما بدأ الحوار مع النصارى (وفد نجران) ثمَّ تطوَّر إلى استعداد لمباهَلة قبل المصالحة السياسية ببدل الجزية، وهو خيار أهل الكتاب والمجوس لتأمين الحرية الدينية وكسب الأمن والحماية السياسية من السلطة المركزية الجديدة للجزيرة العربية.

• **وأما التعدُّدية الثقافية:** فتمَّ انتهاج التأليف مع قريش بالزواج من بعض نسائهنَّ. ثمَّ بعد فتح مكة تمَّ التدرُّج في منع العرب المشركين من الدخول إلى الحرم والطواف عُراة كما اعتاد بعضهم. كما تمَّ الإعلام بتحليل طعام أهل الكتاب والزواج بنسائهنَّ أيضًا. وتمَّ التوجيه للإسهام في إحياء الأنفس. وتمَّ الإعلام بعدم النهي عن البِرّ والقسط مع مَن لم يتورَّط بقتال المؤمنين أو إخراجهم من ديارهم. وتمَّ في فتح مكة تطبيق رؤية التعددية العَقَدية بتحطيم الأصنام لكونها مرفوضة فيها (خاصة في الأماكن العامة)، والإبقاء على أعراف قريش وأحلافها القائمة على الخير والحقّ وصلة الرَّحِم. وتمَّ توجيه المسلمين الجدد لآداب التعامل مع النبيّ ﷺ وفيما بين المؤمنين بما يحفظ استقرار المجتمع. إضافة إلى ثبات النبيّ ﷺ على عدم التوسعة من عَرَض الدنيا على آل بيته نتيجة توسُّع الإدارة والدعوة في

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «ستَرَون بعدي أمورًا تُنكرونها»، ٦: ٢٥٨٨، ح: ٦٦٤٧، بتصرُّف.

(٢) عبد الحميد أبو سليمان، **العنف وإدارة الصراع السياسي**، ص٣٧، بتصرُّف. كما أشارت إليه سورة الحجرات، الآية: ٩.

الجزيرة العربية، مع اعتماد تخيير الزوجات بين الدنيا والآخرة، وأمر المؤمنين بعدم تقديم اللهو والتجارة على ما عند الله. ويتمّ عرض السلوكيات الخاطئة للمنافقين في غزوة تبوك للتنبُّه منها. كما أنَّ التعامل مع المارق الذي ظهر في حدثَي تقسيم غنائم حنين وذهبية اليمن، كان التعامل معهم بالتنبيه من سلوكهم، والمنع من قتلهم إلى حين تحوُّلهم إلى جماعة مُقاتِلة.

• **وأما التعدُّدية السياسية**: فتمَّ التأكيد المستمرّ على الوفاء بالعهود، والعدل مع الناس. مع اعتماد معيار الكفاءة ـ وليس الأقدميّة ـ في تعيين القادة على الجيوش. ثمَّ التحذير من الغلوّ في الدين الموصِل إلى معارضة سياسية هوجاء، دون التعرُّض للمظاهر الفردية لهذه المعارضة. أما مع أهل الكتاب، فبعد أن أصبحت السلطة المركزية في الجزيرة العربية في المدينة المنوَّرة، أصبح شكل العلاقة السياسية معهم مرتبط بأداء الجزية أيضًا بعد أن اقتصر على المشاركة القتالية. بالمقابل تمَّ التوجيه بمقاتلة المشركين، مع إتمام عهود الموفين منهم، وتمهيل ناقضيها منهم، وفتح الباب لتأمينهم عند طلبهم.

• **وأما التعدُّدية العرقية**: فتمَّ التأكيد العملي على فضل بعض المؤمنين وأهليَّتهم للمناصب القيادية مهما ضعُفَت منزلتهم الاجتماعية، وعلى مساواة الناس أمام تطبيق الأحكام مهما شرُفَت منزلتهم الاجتماعية. مع الاستفادة من شعور قريش برفعتها في الدعم المعنوي لمعركة ما بعد الفتح. ثمَّ التأكيد على أنَّ التفاضل بين الشعوب والقبائل هو بالتقوى.

• **وأما التعددية الطبقية**: فكان يتمّ استثمارها سلبًا من المنافقين المعارضين لسياسات النبيّ ﷺ، باتِّهامهم ـ في تجهيزات غزوة تبوك ـ الغني المنفِق بالرياء، وسُخرِيَّتهم من الفقير المُنفِق. كذلك، تمَّ تحريم ما بقِيَ من الربا بيد الناس في إنهاءٍ لظاهرة الاستغلال الطبقي في المجتمع.



خلاصات ونتائج

السيرة	المرحلة:	التاسعة	العاشرة
	السور:	٧ سور (من الممتحنة إلى النصر) وآيات من سور البقرة والنساء والنحل والرعد والأحزاب	
	الزمن:	٦ ـ ١٠ هجرة	
	الأحداث:	مستجدات ما بعد الصلح: الدعوة العالمية، وغزوة خيبر (٧هـ)، وفتح مكة، وغزوة حنين (٨هـ)، وغزوة تبوك (٩هـ)، ومعارك أُخرى	
	الهدف:	إيصال الرسالة إلى العالمين، وتحييد وتحجيم نفوذ اليهود، واستجماع إسلام العرب، وعلاج وضعيات ومواقف خاطئة	
الفعل	الموضوع / الإجراء	إرسال الرسل إلى ملوك العجم والعرب للدعوة إلى الإسلام (بعد الاعتراف الرسمي به بالمصالحة مع قريش)، والوفاء بصلح الحديبية على قاعدة العدل والتفاهم مع قريش عند المستجدات، وخطبة ابنة أبي سفيان سيد قريش. أحكام كفارة اليمين، وتحريم الخمر والميسر، وحُرمة صيد البَرّ حالة الإحرام، والنهي عن السؤال عن أمور تسوء معرفتها، وإلغاء تشريعات من عادات وثنية، والشهادة على الوصية عند الموت.	
	الأسلوب		
	الإطار		
	المخاطَب	العرب والعالم	
	الضمانة	منعة إيمانية ببيعة وموادعة مع اليهود وعهود مع أعراب خارج المدينة وصلح مع قريش ثمَّ إسلامها والطائف	
ردة فعل قريش	الاتجاه العام	الخضوع للبعض	عدم الخضوع للبعض الآخر
	الأسباب	الإيمان	انتقام
	الوسائل	الإسلام	اعتداء حلفاء لقريش على حلفاء للمسلمين
الاستجابة		تأمير الأكفاء ممَّن أسلم من قريش على سرايا قتالية	التجهُّز لفتح مكة (٨هـ)، ثمَّ إقامة المصالحة معهم بالعفو العام باستثناء أفراد عظُمَت جرائمهم، وبيان حُرمة مكة، والإعلاء من مكانة قريش، وتحطيم الأصنام، وإبقاء عُرف تقسيم المهمّات في مكة، وإلغاء الأعراف الباطلة من مآثر الجاهلية وثاراتها، وتأليف قلوب الطلقاء من قريش بإعطائهم من غنائم حنين دون الأنصار، وإقامة الحجّ في العامَين (٨و٩هـ) وفق عادة العرب

ردة فعل مرضى القلوب/ المنافقين	الاتجاه العام	اتخاذ اليهود والنصارى أولياء	ظهور المروق بعد حنين	غزوة تبوك: التثبيط عن اللحاق برسول الله ﷺ، والتجمُّع للمكر والحرب
	الأسباب	خشية الدوائر على أنفسهم	عدم التسليم لقسمة الأموال	الريبة والغيظ في القلب
	الوسائل	المسارعة إلى اتخاذهم أولياء	الاعتراض على أمر النبيّ ﷺ في قسمة الغنائم	بناء مسجد، والاعتذار عن عدم المشاركة في الغزوة
الاستجابة		الإعلام بندمهم على ذلك عند إتيان الفتح.	عدم التعرُّض إلى المارق، مع الإشارة إلى قتالهم عند تعدّيهم في زمن الفرقة بين الناس	الأمر بهدم المسجد، وفضح سلوكيات المنافقين
ردة فعل المؤمنين	الاتجاه العام	حنين: التولّي من المعركة	غنائم حنين: الوجد في أنفسهم	وجود مظاهر ضعف وتثاقل
	الأسباب	الاتّكال على كثرة عددهم	حرمان الأنصار من الغنائم	الدنيا
	الوسائل	الانسحاب الميداني	التعبير عن مشاعرهم	
الاستجابة		إعلان شعارات جاذبة لإيمان المؤمنين وعصبية المشركين المرافقين له	اجتماع النبيّ ﷺ بهم وإعلامهم بحكمة إعطاء الطلقاء من قريش من الغنائم دونهم لتأليفهم، والاعتماد بالمقابل على إيمانهم وتفضيل الإقامة معهم على غيرهم	

ردة فعل اليهود	الاتجاه العام	الخضوع لبعض القبائل	
	الأسباب		
	الوسائل		
الاستجابة		غزوة خيبر (للرّدّ على دعمهم لتحالف الأحزاب في الهجوم على المدينة)، ثمَّ المصالحة معهم. رَدّ القرآن على اليهود بكونهم نقضوا ميثاق الله عليهم وقاموا بتحريف الكَلِم ونسيانه والخيانة من أكثرهم، والمطلوب العفو عنهم والصفح. / الدعوة لاتّباع رضوان الله والإيمان بالرسول ﷺ، والرَّدّ على ادّعاء بنوَّتهم لله وكونهم أحبابه، والتذكير بتخاذلهم عن دخول الأرض المقدَّسة مع موسى عليه السلام، وتذكيرهم بتشريع حرمة قتل النفس بغير حقّ. وتَمَّ توجيه النبيّ ﷺ للحكم بينهم إن طلبوا ذلك، مع الإشارة إلى أن يحكموا بالتوراة التي عندهم وفيها حكم الله. والأمر بعدم اتخاذهم أولياء. والرَّدّ على نقمتهم على المؤمنين عبر تذكيرهم بنماذج سلبية من تاريخهم وحاضرهم. والإعلام بجزائهم عند إيمانهم، بمقابل إعلامهم بأنَّهم ليسوا على شيء حتى يُقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم. والإعلام بكون اليهود أشدّ عداوة للذين آمنوا	
ردة فعل النصارى	الاتجاه العام	الخضوع لوفد نجران	الحرب من الروم
	الأسباب	الإيمان	الرغبة في الحفاظ على السلطان
	الوسائل	الإسلام	القتال
الاستجابة		رَدّ القرآن على النصارى بكونهم نسوا جزءًا مما ذُكِّروا به من ميثاق الله عليهم. الدعوة لاتّباع رضوان الله والإيمان بالرسول ﷺ، وتنبيههم بكفر مقولة أنَّ الله هو المسيح ابن مريم أو أنَّ الله ثالث ثلاثة، والرَّدّ على ادّعاء بنوَّتهم لله وكونهم أحبابه. وتَمَّ توجيه النبيّ ﷺ للحكم بينهم إن طلبوا ذلك، مع الإشارة إلى أن يحكموا بالإنجيل (الذي عندهم وفيه حكم الله). والأمر بعدم اتخاذهم أولياء. والإعلام بجزائهم عند إيمانهم، بمقابل إعلامهم بأنَّهم ليسوا على شيء حتى يُقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم. والإعلام بكون النصارى أقرب مودّة للذين آمنوا. وعرض موقف المؤمنين من النصارى. وعرض قصة المسيح وعائلته ومعجزاته وبشريته عند الحوار مع وفد نجران.	

ردة فعل الأعراب/ العرب	الاتجاه العام		عدم خضوع هوازن وثقيف	الخضوع
	الأسباب			المسالمة
	الوسائل		القتال	إرسال الوفود (مع ظهور الضعف فيهم من جهة أخلاقية، مقابل محاولة اغتيال)
الاستجابة		غزوة وسرايا تأديبية (للرَّدّ على أعمال السلب والنهب التي يقومون بها واستعداداتهم للإغارة على المدينة)، وإقامة حدّ الحرابة بمَن ادَّعى الإسلام ثمَّ قتلوا وسرقوا	التجهُّز لغزوة حنين (٨هـ) ثمَّ حصار الطائف، وإضعاف شوكتهم، والحرص على إسلامهم، ثمَّ إعادة السبي إلى هوازن بعد إسلامها	التوجيه لأدب العلاقات ومكارم الأخلاق مع النبي ﷺ وبين المؤمنين. مقابل الإعلام بحفظ الله لنبيه ﷺ. ثمَّ الإعلام بنقض العهود مع مَن نقضها، وتأقيت العهود العامة، ومنع المشركين من دخول المسجد الحرام
تمييز مكوِّنات المجتمع	تصنيف التدافع الاجتماعي:	خارجي (تدافع عسكري ـ نفسي)		
	تنوُّع مكوِّنات المجتمع (باعتبار الدعوة):	المؤمنون، اليهود، النصارى، المنافقون		
	مظاهر الاختلاف فيها	انتمائي، مصدري، خُلُقي		
	التمييز في المواقف (تبعًا لتتابع الأحداث):	التمييز بين المؤمن والمسلم والمنافق وأهل الكتاب (خاضعين لسلطة أم محاربين) والمارق		
حالة الدعوة	قوة/ ضعفًا:	قوة		
	حركة/ جمودًا:	حركة		
	نوعًا/ عددًا:	نوع وعدد		

الفصل الخامس

تتمة في تعامل الخلفاء الراشدين مع المرتد والمارق

تمهيد

شرعية تتمة التأصيل من الخلافة الراشدة

إنَّ استكمال التأصيل من العهد الراشدي، بدراسة نموذجَين من إدارة الخلفاء الراشدين للتعدُّدية المجتمعية، هو من سنن الخلفاء الراشدين الواردة في حديث النبيّ ﷺ: «عليكم بسنتي وسُنَّة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ»[1] كتأصيل وتطبيق للتأصيل من العهد النبوي.

أما بخصوص اختيار الخلفاء الراشدين الذين سيتمّ التأصيل عن مواقفهم في إدارة التعدُّدية، فقد تمَّ تحديده بضابط حديث: «الخلافة في أمتي ثلاثون سَنَةً، ثمَّ مُلْكٌ بعد ذلك»[2]، وقد اكتملت هذه السنوات الثلاثون بتنازل أمير المؤمنين الحسن بن عليّ رضي الله عنهما عن الخلافة وإسنادها إلى أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في عام (٦٦١م / ٤١هـ). وهذا التقييد لضبط المرحلة التاريخية بسند ديني، دون أن يكون القصد اقتصار وجود خليفة راشد على تلك الحقبة الزمنية فحسب.

---

(١) **سنن أبي داود**، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ٤: ٢٠٠، ح: ٤٦٠٧، بتصرُّف، واللفظ له. وسنن **ابن ماجه**، باب اتباع سنة الراشدين المهديين، ١: ١٥، ح: ٤٢، بتصرُّف.

(٢) **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، أبواب الفتن، باب ما جاء في الخلافة، ٤: ٥٠٣، ح: ٢٢٢٦، بتصرُّف.

المبحث الأول: التعامل الراشدي مع المرتدّ

«بدأت الرِّدَّة منذ العام التاسع للهجرة، وهو العام الذي أسلمت فيه الجزيرة العربية قيادها للرسول ﷺ ممثَّلة بزعمائها الذين قدموا عليه من أصقاعها المختلفة. وكانت حركة الرِّدّة في هذه الأثناء لمَّا تستعلِن بشكل واسع. فلما توفِّيَ رسول الله ﷺ تجرَّأ الذين في قلوبهم مرض على الخروج»[1].

هذه الرِّدّة كانت «لها أسباب، منها: الصدمة بموت رسول الله ﷺ، ورِقَّة الدين، والسقم في فهم نصوصه، والحنين إلى الجاهلية وارتكاب موبقاتها، ورغبة التفلُّت من النظام والخروج على السلطة الشرعية، والعصبية القَبَلية، والطمع في المُلْك، والتكسُّب بالدِّين والشُّحّ بالمال، والتحاسد، وغيرها. كما كان للرِّدّة أصناف: ترك الإسلام جملة وتفصيلاً والعودة إلى الوثنية، أو الاعتراف بالإسلام مع الامتناع عن أداء الزكاة، أو ادِّعاء النبوّة»[2]. كما «لجأ كثير من القبائل المرتدّة إلى دولتَي الروم والفرس اللتَين استغلَّتا هذه القبائل بالحض والتشجيع والدعم لتقف ضدّ قيادة المدينة للجزيرة العربية»[3]. وكان كل ذلك مُلازمًا للتحضير للحرب والمواجهة مع المسلمين والانقضاض على مبادئ الإسلام. ولكن بالمقابل، «لم تكن ظاهرة الرِّدّة شاملة لكل الناس جغرافيًا، بل هناك قادة وقبائل وأفراد وجماعات تمسَّكوا بدينهم في كل منطقة من المناطق التي ظهرت فيها الرِّدّة»[4].

وقد حدث في بعض المناطق تضييق من المرتدين بحقّ الثابتين على الإسلام بالحصار

---

(١) د. علي الصلابي، **الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره**، ص١٧٣، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٢، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٦، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ص١٨٣، بتصرُّف.

وصولاً على منع الأقوات والجوع الشديد[١]. كما تمَّ تعذيب المسلمين في مناطقهم من غير المؤمنين بنبوَّة مدَّعي النبوّة[٢].

كان موقف الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه من المرتدين هو العزم على قتالهم. فأشار عليه بعض الصحابة بعدم قتال صنف مانعي الزكاة. فكان جوابه لهم حديثَ النبيّ ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله»[٣]، ثمَّ قال أبو بكر: إنَّ «الزكاةَ حقُّ المال»[٤]. وباعتماد الشورى وصل الصحابة بالحوار إلى الاقتناع بموقفه القاضي بلزوم اعتماد الخيار العسكري ومحاربة المرتدِّين. وقد تأجَّلت المواجهة مع وفود القبائل المرتدة إلى ما بعد الحوار معهم على أُسس عدم التنازل عن الثوابت. ثمَّ بدأت حروب الرِّدّة التي استمرَّت سنة كاملة داخل الجزيرة العربية.

بدأت خطّة مواجهة المرتدين بتحصين المدينة ـ مركز الخلافة ـ لحمايتها من الهجوم الذي قامت به قبائل هذه الوفود بعد أيام[٥]، وأرسل إلى القبائل التي ثبتت على الإسلام للجهاد معه فاستجابوا[٦]، ومَن كان منهم بعيدًا عن المدينة أرسل إلى ولاة الأقاليم يُحرِّضهم على النهوض لقتال المرتدين في مناطقهم[٧]، قبل إرسال الجيوش المنظَّمة لإنهاء وضع الرِّدّة[٨].

---

(١) د. علي الصلابي، **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه، ص٢٢٤، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٣، بتصرُّف.

(٣) **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١: ٥٢، ح: ٣٥، بتصرُّف.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ٢: ٥٠٧، ح: ١٣٣٥، بتصرُّف.

(٥) د. علي الصلابي، **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه، ص١٧٨، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، ص١٧٧، بتصرُّف.

(٧) المصدر نفسه، ص١٧٧، بتصرُّف.

(٨) المصدر نفسه، ص١٨٤، بتصرُّف.

وقد أظهر الصِّدّيق رضي الله عنه توازنًا بين الحزم عند حرب المرتدِّين، والعفو عنهم بعد كسر شوكتهم[(١)]، لتأليف القلوب وتوظيف نفوذ زعماء القبائل (المعفوّ عنهم) في قبائلهم لصالح الإسلام. ثمَّ لم يسمح لأهل الرِّدّة بعد القضاء على حركتهم أن يشتركوا في الفتوحات بالعراق والشام[(٢)] ـ التي هي استكمال لرسالة غزوة تبوك وخياراتها، وتوسعة لنطاق القتال، وردع للاعتداءات ـ إلا بعد أن ثبتت استقامتهم، لأنَّهم حال ردَّتهم كانوا طلّاب دنيا فسيُخلُّون بوحدة هدف الجيش الفاتح بالإخلاص لله تعالى[(٣)].



(١) د. علي الصلابي، **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه، ص٢١٤، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٤، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٨، بتصرُّف.

المبحث الثاني: التعامل الراشدي مع المعارِض والمارق

في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ظهرت «معارضة جماعية سياسية داخلية للسلطة، تتَّصف بالتنظيم والتسليح والرؤية والشروط»[١]. وكان من أسبابها التي تتعلَّق بالسلطة: «عدم قيام عثمان رضي الله عنه بإقصاء أقاربه الأمويين عن السلطة كما فعل الخليفتان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما قبله بإقصاء بني تيم وبني عدي عن الوِلاية. فاتُّهِم عثمان بمحاباة أقربائه وحملهم على رقاب الناس (وهو الأمر الذي حذَّر منه عمر مَن سيخلفه). كذلك وقع استئثار بالأموال من بعض بني أمية الذين كان يُعطيهم عثمان عطايا كبيرة من ماله الخاص، فأثار حفيظة الناس عليه لشدّة تطلُّع الناس إلى الأموال، خاصَّة أنَّه قد ظهر بين النَّاس الجيل الثاني الذي لم يشهد عصر النبوّة، ورأى الفتوح وعاش فترة الثراء والرفاه الاقتصادي[٢]، فلم يستوعب كامل التربية على يدَي رسول الله ﷺ، ولم يتفقَّه في كيفية القيام بردود الأفعال المتناسبة، وهذا السبب الموضوعي الاجتماعي. وقد رافق ذلك أيضًا متغيِّرات في نسيج المجتمع بالجهل، وقِلَّة الفقه في الدين، والعصبية، والأطماع. إضافة إلى حِدَّة طباع الأعراب، وتشدُّدهم في الدين من فهمهم الخاص للقرآن بغير علم من جهة[٣]، ووجود جهات تتآمر داخليًا على المجتمع من جهة أُخرى[٤]، ومعهم مرتدّون[٥].

---

(١) د. حاكم المطيري، **تحرير الإنسان وتجريد الطغيان**، ص٤٨٤، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٧٨ ـ ٤٨٠، بتصرُّف.

(٣) د. علي الصلابي، **سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شخصيته وعصره**، ص ٣٢٠ـ ٣٢٢، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٣٩ ـ ٣٤٢، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٢٢ ـ ٣٢٤، بتصرُّف.

قامت تلك المعارضة بتحرُّكات في مناطقهم، انتهت بقدومهم إلى المدينة من البصرة والكوفة ومصر.

ورغم أنَّ عثمان قام بافتضاح غايات بعض قادتهم من معارضتهم بكونها ترمي إلى تحقيق الفتنة وتحصيل السلطة، إلا أنَّه مَنَعَ الناس من قتالهم؛ وَرَعًا من تحمُّل دم مسلم[١] استكمالاً لحكم تأمينه كما مرّ في السيرة، وتحقيقًا لقوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، ولحديث النبيّ ﷺ: «إنَّ بين يدَي الساعة فتنًا كقِطَع الليل المظلم... فكسِّروا قِسِيَّكم، وقطِّعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دخل ـ يعني على أحد منكم ـ فليكن كخير ابنَي آدم»[٢]. أي: بكفّ اليد عن القتال، ولو أدَّى ذلك إلى قتله.

فقام عثمان رضي الله عنه بإرسال لجان التفتيش والتحقيق إلى المناطق[٣]، والاجتماع بالنَّاس من مختلف الأقاليم في موسم الحجّ، والسفر إلى الولايات، وسؤال القادمين منها عن أحوالها. ثمَّ لما جاءته الوفود المعارِضة من مناطقهم اجتمع معهم، وفنَّد حججهم حتى تمَّ توقيع اتفاقية معهم.

كان موقف عثمان رضي الله عنه في كلِّ ذلك استجابة للمطالب المحقَّة[٤] دون القيام بأيّ أمر يُسهِم في تحريك الفتنة، حتى لا يكون لأحد حجَّة عليه، قائلاً: «لن نجعل لأحد عذرًا،

---

(١) د. علي الصلابي، **عثمان بن عفان** رضي الله عنه، ص٣٦٥ ـ ٣٦٦، بتصرُّف.

(٢) **سنن أبي داود**، كتاب الفتن والملاحم، باب النهي عن السعي في الفتنة، ٤: ١٠٠، ح: ٤٢٥٩، بتصرُّف، واللفظ له. وسنن **ابن ماجه**، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة، ٢: ١٣١٠، ح: ٣٩٦١.

(٣) د. علي الصلابي، **عثمان بن عفان** رضي الله عنه، ص٣٦١، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٩، بتصرُّف.

ولن نترك لأحد حجّة، ولَنَصبرنَّ عليهم»[١]، ورفض رفضًا قاطعًا التعرُّض لحركة المعارضة أو قمعها[٢].

ولكنَّ الوضع تطوَّر عند اتِّهام الوفد المصري ـ العائد إلى بلده ـ لعثمان بإرسال كتاب إلى أمير مصر لأجل معاقبتهم، فعادت جميع الوفود مُطالِبة بعزل الخليفة، ثمَّ حصاره لدفعه إلى ذلك.

ورغم التضييق عليه، إلا أنَّه لم يتنازل عن الخلافة نزولاً عند مطالب أقليّة مكشوفة غايات بعضهم الدنيوية، فتمسَّك بالمحافظة على نظام الأمة، ونفوذ خلفائها وولاتها، بعيدًا عن سيطرة بغاة على هذا النظام بقوله في مخاطبة الجميع: «ولَأَدَعَنَّ هؤلاء الخوارج وراء بابي، ولا أُعطيهم شيئًا يتَّخذونه عليكم دَخلاً في دين أو دنيا، حتى يكون الله الصانع في ذلك ما أحبّ»[٣]. وبذلك أفشل أغراض البغاة في نفوذ على سلطة الحاكم بعده، وقال عثمان: «والله لئن أُقدَّم فتُضرَب عنقي، أحبّ إليَّ من أن أخلع أمر أمة محمد، يعدو بعضها على بعض»، لأنَّه كان يخشى الفوضى التي ستحدث جرَّاء خلع نفسه[٤]. فاختار رضي الله عنه بصبر تقديم مصلحة الأمة على مصلحته الشخصية، حتى يوم استشهاده الذي قال فيه ردًّا على طلب قِتالهم: «أعزم على كلِّ مَن رأى أنَّ عليه سمعًا وطاعة إلا كفَّ يده وسلاحه»[٥]. ثمَّ حدث الهجوم على داره من بعض المعارضين، فكان استشهاده، مع أنَّه لم يكن هناك سبب يقتضي قتله أو يُبرِّره، رغم كل ما ادَّعته المعارضة من مظالم. ولم يكن أكثر المعارضين له راضين بقتله.

---

(١) د. علي الصلابي، **عثمان بن عفان** رضي الله عنه، ص٣٥٩، بتصرُّف.

(٢) د. حاكم المطيري، **تحرير الإنسان وتجريد الطغيان**، ص٤٨١ ـ ٤٨٢، بتصرُّف.

(٣) د. علي الصلابي، **عثمان بن عفان** رضي الله عنه، ص٣٩٦، بتصرُّف.

(٤) د. حاكم المطيري، **تحرير الإنسان وتجريد الطغيان**، ص٤٨٧، بتصرُّف.

(٥) د. علي الصلابي، **عثمان بن عفان** رضي الله عنه، ص٣٩٧، بتصرُّف.

ولما استُخلِف الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الظَّرف العصيب، تعامل مع تلك الفتنة بالحكمة والرويَّة، فحَكَم أنَّه «ليس من العدل القضاء على الثقة بالظن»[١]، (أي أنَّه لا يجوز أخذ الناس بالشبهات والحكم عليهم بمجرَّد الظنون، ومنهم المتَّهمون ـ من وفود المعارضة ـ بقتل عثمان، فهم أبرياء حتى تثبت إدانتهم).

من هنا كان منشأ الخلاف في عهده، بين المطالِبين بالقِصاص الفوري (وكانوا مراكز قوى معنوية) ورفضوا بيعته، وبين مَن يرى التأجيل حتى استباب الأمر للتمكُّن من إقامة محاكمات عادلة. مع التفريق بين مَن عارضوا عثمان معارضة سلمية (وهم الأغلبية)، وبين مَن هجموا على داره وقتلوه. وقد كان ذلك واضحًا بالنسبة لعليّ رضي الله عنه، حتى قام بتعيين بعض قادة تلك المعارضة السلمية قادةً لجيوشه وولاةً لبعض الأمصار[٢].

وأُضيف إلى هذا التحوُّل في عهد عليّ رضي الله عنه أن حدثت معارضة أُخرى له داخل المدينة نفسها (مركز الخلافة)، بل وقادها نفر قليل من كبار الصحابة رضي الله عنهم المبايِعين له، فنَهَجَت نهجًا إصلاحيًا، بأن توجَّهوا خارج المدينة لتتبُّع المتورِّطين للقِصاص منهم بجيش صغير خارج إطار السلطة الناظمة، بمبرِّر إنهاء الخلاف القائم. ولما وصل عليّ رضي الله عنه إليهم بجيشه حاورهم فرَضوا بالمصالَحة، ولكن، الحرب ثارت فجأة بين أطراف الجيشَين. وقد حكم عليّ رضي الله عنه في نهاية المعركة أنَّه لا يتبع المهزوم، ولا يجهز على جريح، ولا يُسلَب القتيل، وعلى أنَّ القتال في الفتنة قتال دفاع عن النفس، وعلى ردِّ الأموال المسلوبة[٣].

---

(١) د. علي الصلابي، **سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شخصيته وعصره**، ص٢٢٩، بتصرُّف.

(٢) د. حاكم المطيري، **تحرير الإنسان وتجريد الطغيان**، ص٥٠٠، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٠٠ ـ ٥٠٥، بتصرُّف.

كذلك، سَنَّ هذه السُّنَّة مع الفريق المعارِض الأول (غير المبايع) في المعركة التي تلتها بعد حوار لم يُثمِر معهم، لأنَّهم مسلمون أيضًا لم يخرجوا من دائرة الأمة، فكان يُصلِّي على قتلى الجميع ويستغفر لهم[١]. ثمَّ عقد معهم وثيقة صلح.

ولكن، بعد تلك الحادثة، ظهر حزب معارِض ثالث، هم الخوارج المارقون، وحَكَموا بالكفر على مَن خالفهم. حاول عليّ رضي الله عنه محاجتهم فاقتنع بعضهم، وبَقِيَ البعض الآخر على موقفه متأوِّلاً القرآن على غير وجهه، ونزَّلوا الآيات الواردة في المشركين على المؤمنين، وكفَّروا عليًّا ومَن معه، فتحوَّلوا من حزب سياسي إلى طائفة عقدية متطرِّفة[٢].

وكان موقف عليّ رضي الله عنه منهم كموقف عثمان بعدم التعرُّض لهم، بل ووضع قاعدة التعامل مع الطوائف المخالِفة في الاعتقاد: ما كنتم معنا لن نمنعكم مساجد الله، ولا نمنعكم فَيئًا ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نُقاتلكم حتى تُقاتِلوا. واشترط عليهم بالمقابل: أن لا يسفكوا دمًا حرامًا، ولا يقطعوا سبيلاً، ولا يظلموا ذميًا. وقد ضمِنَ لهم عليّ رضي الله عنه الحرية العقدية والفكرية والسياسية، وحتى حقوقهم المالية بأن استمرَّ في تسليمهم مخصَّصاتهم المالية الواجبة لهم عليه[٣].

لكنَّهم بعدما تمايزوا عن عليّ رضي الله عنه في منطقة مستقلَّة وارتكبوا كلَّ ما نهاهم عنه، قاتلهم دفعًا لعدوانهم وبغيهم، مع شهادته لهم بأنَّهم مسلمون بغاة[٤].

---

(١) د. حاكم المطيري، **تحرير الإنسان وتجريد الطغيان**، ص٥٠٧، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، ص٥١٠ ـ ٥١١، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص٥١١ ـ ٥١٦، بتصرُّف.

(٤) المصدر نفسه، ص٥١٢ ـ ٥١٣، بتصرُّف.

وقد أدار عليّ رضي الله عنه أزمات الفتنة والاختلاف في المجتمع وفق مبادئ وآليات تضمن العدالة بإحسان، والحرص على الجماعة؛ لحفظ الدماء والحريات.



ملاحق الباب الثاني

موضوعات من السور المدنية

منظومة الإنفاق

تبيَّن أنَّ المرحلة الأولى ـ التي انتهت بغزوة بدر، والتي توجَّه الخطاب فيها إلى المجتمع المدني ـ أشارت إلى الاهتمام بسبع شرائح والإنفاق عليها، وهي: الوالدن، وذو القربى (وردت بالإفراد)/ الأقربون، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب. وقد تبيَّن ذلك فيما نزل حينها من سورة البقرة. ويُلحظ عودة ذكر اليتيم والرقبة (بالجمع بدل الإفراد)، كما تمَّ ذكر المسكين والسائل (بالجمع أيضًا بدل الإفراد عدا حُكم فدية الصائم) وذكر ذي القربى والأقربين (بالجمع مع بقاء الإفراد).

ومع أنَّ الخطابَين (في مكة والمدينة) توجَّها إلى مجتمع، إلا أنَّ الفارق بينهما قد يكون أنَّ أمر المؤمنين المخاطَبين في هذا المجتمع المدني هو بيدهم وليس عليهم سيطرة من أحد من الناس، ممَّا قد يُعتبر سببًا في ذكر هذه الشرائح بالجمع بدل الإفراد، ممَّا قد يُشير إلى التحوُّل من العمل الفردي إلى العمل الجماعي في التعامل معهم كمجموعات وعلى مستوى المجتمع.

بُعَيد غزوة بدر، نزل الأمر في سورة الأنفال بأنَّ تُخصَّص خُمس الغنائم لخمسة شرائح، وهي: الرسول ﷺ، وذو القربى (قرابة النبيّ ﷺ من بني هاشم والمطلب)،

واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. كما نزل الأمر بعد غزوة بني النضير في سورة الحشر بأنَّ يُخصَّص الفيء كاملاً لها كي لا يكون دُولةً بين الأغنياء. ثمَّ بيَّنت آيات سورة الحشر أنَّ هذه الأصناف خاصة بالفقراء المهاجرين دون الأنصار؛ لتعويضهم عن إخراجهم من ديارهم وأموالهم.

وعند الحديث عن مرحلة التأسيس الداخلي للمجتمع في سورة النساء لاستكمال حاجاته ودرء مكامن الضعف فيه، أشارت إلى الاهتمام بتسع شرائح، وهي: الوالدان، وذو القربى، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى (قريب المسكن)[(١)]، والجار الجُنُب (بعيد المسكن)[(٢)]، والصاحب بالجَنب (القريب)[(٣)]، وابن السبيل، وما ملكت الأيمان (الأرِقَّاء). إضافة إلى التوجيه فيها للإنفاق قبل قِسمة التركة رزقًا على غير الورثة من: أولي القربى، واليتامى، والمساكين. كما التوجيه في سورة النور للإنفاق على: أولي القربى، والمساكين، والمهاجرين في سبيل الله. وكما التوجيه فيها للإنفاق على المكاتَبين.

وقد تخلَّلت المرحلة المدنية تشريع الكفارات في سور البقرة والنساء والمجادلة

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب القاف، ص٦٦٤ ـ ٦٦٥، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، كتاب الجيم، ص٢٠٦، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، كتاب الجيم، ص٢٠٥، بتصرُّف.

والمائدة لتغطية الآثام[١] عند التقصير من خلال إطعام المساكين وكسوتهم وتحرير الرقاب والصيام والهَدْي (ما يُهدى إلى البيت)[٢] والنسك (الذبيحة)[٣].

وخُتِمَت المرحلة المدنية بتشريع الزكاة في سورة التوبة للأصناف الثمانية التالية: للفقراء (وهو المكسور فَقار الظهر من ذلَّته ومسكنته[٤] بسبب: العجز عن العمل. ويشمل: الشيوخ الهرمين والأرامل، والعجزة من المرضى والزَّمْنى والمكفوفين وذوي العاهات وذوي الضعف العقلي من المجانين البلهاء ونحوهم، ممَّن يتحققّ عدم غناهم)[٥]، والمساكين، والعاملين عليها (العاملين في الجهاز الإداري لشؤون الزكاة)[٦]، والمؤلَّفة قلوبهم (الذين يُراد تأليف قلوبهم بالاستمالة إلى الإسلام أو التثبيت عليه، أو بكفّ شرِّهم، أو رجاء نفعهم في الدفاع، أو نصرهم على عدوٍّ لهم)[٧]، وفي الرقاب، والغارمين (يشمل أصحاب الكوارث، ومَن استدانوا لأنفسهم في غير محرَّم، والغارمين لإصلاح ذات البَين، وما يُقاس عليه من ألوان البِرّ والخدمة الاجتماعية)[٨]، وفي سبيل الله

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الكاف، ص٧١٧، بتصرُّف.

(٢) المصدر نفسه، كتاب الهاء، ص٨٣٩، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، كتاب النون، ص٨٠٢، بتصرُّف.

(٤) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الفاء، ٤: ٤٤٣، بتصرُّف.

(٥) المصدر نفسه، ٢: ٤٠، بتصرُّف.

(٦) المصدر نفسه، ٢: ٣٧، بتصرُّف.

(٧) المصدر نفسه، ٢: ٥٢، بتصرُّف.

(٨) المصدر نفسه، ٢: ٤٠، بتصرُّف.

(في نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله في الأرض، بجهاد أيًا كان نوعه وسلاحه)[1]، وابن السبيل.



(١) ابن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، ٢: ١١٤، بتصرُّف.

خاتمة

رؤية فكرية تأصيلية في منهج التعدُّدية المجتمعية

رؤية وإدارة ـ ملامح وقواعد

بعد استعراض السيرة النبوية وما يُوازيها من خطاب القرآن طيلة الأطروحة، وبعد ما توصَّلنا إليه من خواتيم وخلاصات ونتائج في نهاية مباحثها وملاحِق بابَيها، تبيَّنت صحَّة الفرضية التي انطلقنا منها أنَّ في مرجعية الإسلام وموروثه العلمي والثقافي ـ أصولاً في رؤية التعدُّدية المجتمعية وسياسات إدارتها، اختلفت ترجيحات الاختيار من بينها حسب عوامل وظروف تمَّ رصد معاييرها وتمييزها بين مختلف مراحل السيرة التي مرَّت. كما ظهرت أهمية الدراسات السياقية في فهم النصوص الدينية ومتعلَّقاتها الحياتية، مع التنبُّه من استيراد مصطلحات غربية وتنزيلها على الأصول الدينية وتطبيقاتها المعيشية في الجيل الأول دون تحقيق مضامينها وفق الرؤية الدينية ذاتها لها.

لقد ارتبطت رؤية التعدُّدية وسياسات إدارتها في العهد النبوي بمشروع دعوي وقضية إيمانية قِيَميَّة إنسانية، ومع ثبات تلك الرؤية طيلة السيرة، إلا أنَّ آليات الإدارة هي التي بدأت تظهر تباعًا عند اختلاف معايير مراحل السيرة بتتابع أحداث القضية. فحقَّقت السنن في تتابع الأحداث في العهد المكي تمييزًا لأصناف المجتمع بين طرف يُصرُّ على قِيَمه وآخر يعتدي عليه، وكان التقدُّم والتطوُّر الموصِل إلى التمايز بسبب ممارسات المعتدي وثبات الطرف الأول. وشكَّلت في العهد المدني مبادرات متاحة وفق القِيَم لتغيير سياسات الاعتداء مع ما فيها من محاسبة. كما اعتمدت في كل مرحلة التدرُّج والتمهيد لِما يتطلَّبه المجتمع والمشروع في المرحلة القادمة، وأعرض حيثياتها كالتالي:

أولاً: مهمّات رسول الله ﷺ التي برزت في الأطروحة:

- تبليغ التوحيد بلا كونه وكيلاً أو مسيطرًا أو حفيظًا على المدعويين.
- استمرار تذكرة مَن يخشى من الناس.
- التبشير للمطيع والإنذار للعاصي والدعوة إلى الله في تلاوة الآيات.
- الحكم بين الناس؛ لتحقيق القسط في العلاقات فيما بينهم.
- القدوة الحسنة للمؤمنين.

ثانيًا: في مسار السيرة النبوية:

١ ـ في العهد المكي:

- بيَّنت الأطروحة من جانبها سبب رفض قريش للدعوة برفضها جميع أقسام التعدُّدية المجتمعية (العَقَدية، والثقافية، والسياسية، والعرقية، والطبقية) لتهديدها مصالحها القائمة على: الشرك والمُحافِظة على موروثه، والتبعية من بقية العرب، والتعالي بين القبائل والطبقات الاقتصادية. كما بيَّنت بالمقابل رفض الدعوة الاعتراف بالشرك (باعتباره هوًى غير قائم على كتاب مُنزَل).

- عدم القيام بخطوات في المجال العام إلا بتوافر ضمانات من عُرف المجتمع وعاداته المؤثِّرة والمتجذِّرة.

- بداية الدعوة في مكة بانتقاد ممارسات اجتماعية خاطئة ـ منبعها ثقافي وطبقي ـ بِحَقِّ الشرائح الضعيفة في المجتمع. ممَّا أظهر أنَّ الصراع الحقيقي لم يكن عقَديًّا بحتًا، كما أنَّه لم يكن هو أساس النزاع بالنسبة لقريش بل ستارًا لمصالحها.

□ اقتراب الخِطاب من موروث المخاطَب الحاضِر.

□ مصطلح ﴿سُنَّةُ﴾ القرآني كما أنَّه مؤشِّر للتغيُّر بين مراحل السيرة (تغيُّر حالة المخاطِب، أو المخاطَب، أو الخطاب)، كذلك يُعبِّر عن تمييز مجتمعي بين مكوِّناته، بسبب وجود مبادئ غير خاضعة للمساومة (على الإيمان بالتوحيد، أو اعتماد الوحي الكتابي في الاستدلال، أو الاهتمام بالشرائح الضعيفة في المجتمع)، فيُصبح الإيمان بها هو الرابطة الجامعة الجديدة، وهذه الرابطة الجامعة هي التي احتاجها جيل يثرب للخروج من آثار الحرب الداخلية فيها.

□ تخفيف التركيز على دعوة المصِرّ على موقفه ـ لحماية مصالحه ـ بعد بيان المبادئ له، مع استمرار فتح باب العودة (التوبة) له رغم ممارساته الخاطئة وتعدِّيه على الحريات. ويتلازم ذلك مع الإصرار على إظهار تلك المبادئ، وأهمُّها: حرية المعتقد، وحرية ممارسة الشعائر الدينية على قاعدة التوحيد.

□ ارتبط مفهوم العدوّ في الاستخدام القرآني بالاستهداف بالقتل والتعذيب والإيذاء المادي المباشر، وليس بمطلَق اختلاف فكري ديني.

□ عدم وجود تعصُّب أعمى في قضايا الإيمان، مقابل وجود التعصُّب للمُقلِّدين للشرك.

□ الهجرة إلى بلاد حكمها عادل هو البديل العملي المعتمَد عند عدم احترام المخالفين في الإيمان لحرية المعتقد. وإنَّ الاعتراف بحرية المعتقد وحرية ممارسة الشعائر الدينية هو عامل استقرار مجتمعي (من الأُسرة إلى الدولة).

□ انتهاج العفو عند تضييق قريش على قبيلة النبيّ ﷺ والمسلمين لتخفيف الخصومة وإنهاء مرحلة العداء مع قريش والمساعدة على تنمية دور مَن ليس في الحصار معهم، في الوقت الذي تُخاطب الآيات المشركين بقوّة المنطق وحزم الحجج فجعلتهم محاصَرين متأهِّلين للمعاقبة (عكس الظروف الظاهرة)، ثمَّ تُثبِّت في كلِّ ذلك المؤمنين.

❏ منع خيار القتال داخل المجتمع المكي من مجموعة المسلمين إلى قريش (سواء أكانت هذه المجموعة هي من أهل المجتمع أم مدعومة من مجتمع آخر كأهل يثرب قبل الهجرة إليها ثمَّ بعد الهجرة كذلك).

❏ **رؤية التعدُّدية المجتمعية:**

• **عقَديًّا**: الإيمان المشترَك بوحي الكتب السماوية (الداعية إلى التوحيد الخالِص (الإبراهيمي))، وإرجاء الفصل بين مختلف المعتقدات ـ من جانبها الاعتقادي ـ إلى الآخرة. واعتبار الإيمان بالبعث دافعًا لقَبول بالتعدُّدية المجتمعية، والإيمان بكتاب إلهي هو شرط قَبولها المباشر في المجتمع، وإلَّا تحوَّلت العلاقة إلى عقد أمان.

• **ثقافيًّا**: انتقاد ممارسات اجتماعية خاطئة بِحَقِّ الشرائح الضعيفة في المجتمع.

• **سياسيًّا**: العدل عند الحاكم (حماية الحريات وحقوق اللجوء).

• **عرقيًّا**: اعتبار المساواة بين الناس.

• **طبقيًّا**: التوجيه لدعم الشرائح الضعيفة.

٢ ـ في العهد المدني:

❏ اختلاف أحكام الاستجابة للتحديات بالانتقال إلى مجتمع ذات شوكة واستقلالية في الإدارة.

❏ الأمر بعد الإذن بمقاتلة المظلومين لظالميهم ومضطهديهم على الإيمان (حِراسة الدين)، والإصلاح في المجتمع (سياسة الدنيا). قبل أن تتوسَّع الدائرة لتشمل المشركين بعد بدر ثمَّ أهل الكتاب بعد حنين.

❏ بيان أنَّ الإمامة في الدِّين لا تكون للظالمين، ولكنَّ الاستفادة من متاع الدنيا هو للجميع.

❑ **إدارة التعدُّدية المجتمعية:**

• **عقَديًا**: عدم الاعتراف بالشرك، دون الإكراه على الإسلام التزامًا بالحرية الدينية (مطلَب منذ العهد المكي)، مع دعوة الآخر لعدم الغلوّ في الدين والقَول على الله غير الحقّ. ومع مفارقة مجالس الكفر والاستهزاء بالآيات.

• **ثقافيًا**: قَبول سلوكيات ورفض أُخرى بناء على المبادئ العَقَدية والمقاصد الشرعية. وإنشاء آليات التعارف من جهة والتلافي لمظاهر من الغلوّ من جهة أُخرى. وتصحيح أوضاع المستضعفين الحقوقية وانضباط العلاقات الاجتماعية تنظيمًا وإدارة.

• **سياسيًّا**: المشاركة في قضايا الشأن العام (كآلية صحيحة مهما كانت نتائجها)، وانتخاب النقباء لرفع اتجاهات الممثَّلين والتعبير عنها، والوفاء بكل العهود مع إمكانية إبطالها بعد إعلام أطرافها، والمساواة بين الجميع في الإجراءات التنفيذية، مع تقديم أصحاب الكفاءة في مهمَّاتهم. وإقامة الشرعات المُوَضِّحة لحقوق جميع الأطراف وواجباتهم التي لا يتمّ مُطالبتهم بزيادة عليها، والانطلاق من الدوافع الإيمانية لضمان الالتزام، في تنسيق لحرية الفرد مع مصلحة الجماعة. مع إخراج المحرِّض القتالي المباشر على المجتمع من دائرة الأمان، ووجود إعفاءات جماعية ترتبط بالإجلاء من المجتمع (وهو أمر منسجم مع رفض القتال في مكة ضمن المجتمع). وفتح المجال لوجود معارضة سياسية، والإعراض عن صنف المعارضة السياسية الخفية الممالِئة للمُحارِبين للمجتمع وناقضي العهود مع وعظها واستمرار فتح باب العودة (التوبة) لها والرفق بها وإحسان صُحبتها عند استمرار مكوثها في المجتمع، وتحديد معايير اعتزالها أو قتالها حالة كونها من خارج المجتمع. وتأكيد منع الانحياز في القضاء في مجتمع تعدّدي. وانتهاج موقف الدفاع في القتال الذي لا أُفق من وراء تحويله إلى هجوم (كما حدث في العهد المكي). والطلب من مسلمي مكة الهجرة. ثمَّ أصبحت الجزية هي بدل المصالحة السياسية لتأمين الحرية الدينية والحماية لأهل الكتاب من السلطة المركزية للجزيرة العربية. والتحذير من الغلوّ في

الدين الموصِل إلى معارضة سياسية هوجاء دون التعرُّض للمظاهر الفردية لها بالتضييق عليها عند عصبيَّتها من جهة وعدم تحوُّل ممارساتها إلى جماعة مقاتلة من جهة أُخرى.

• **عرقيًّا**: مقابلة الكيد الداخلي بدافع العرقية بالعفو والصفح. واعتماد الذاكرة الجماعية الإيجابية للاعتبار والبناء دون إعادة إحياء العصبيات القَبَلية المدمِّرة للمجتمع والداعية للانقسام. مع النبذ المستمرّ للعصبيات القَبَلية. وتأكيد فضل المؤمنين وأهليَّتهم للمناصب عند الكفاءة مهما ضعُفَت منزلتهم الاجتماعية، مقابل مساواة الناس أمام تطبيق الأحكام مهما شَرُفَت منزلتهم الاجتماعية. ومعيار التفاضل الحقيقي هو التقوى.

• **طبقيًّا**: تساند الطبقات دون تعزيز الطبقية ودون تفرقة على أساس عَقَدي. وتحرير الاقتصاد المحلي من الاحتكارات، والتضييق على الأنانيات والاستغلال بمنع الغلول والربا. وتأكيد منع الانحياز في القضاء عند اختلاف الطبقات بين المتخاصمَين.

وبتصنيف الوقائع المختلفة في السيرة، يُمكن تأصيل عدّة نماذج قابلة للقياس في الزمن الحاضر، باعتبار أنَّ التعامل مع الآخر اختلف باختلافه واختلاف الحالة التي يكون الأول عليها، فيلزم اختيار الأصل الأنسب لها بحسب كلّ حالة أو مكوِّن مجتمعي، واستبعاد غيره، وهي:

أولاً: بالنسبة إلى الحالات:

١. حالة **حوار مجموعة**:

أ. مع المجتمع: الإصلاح الاجتماعي.

ب. مع السلطة: عدم التنازل عن المبادئ.

٢. حالة **التدافع الداخلي** مع السلطة:

أ. عند ضعف المجموعة: الثبات والعفو عند الضغط.

ب. عند قوّة المجموعة: المواجهة السلمية.

٣. حالة **حوار سلطة**:

أ. مع المجتمع: تشريع الإصلاحات.

ب. مع المعارضة السلمية: العفو وعدم المواجهة.

ج. مع المعارضة العنفية: ردع الاعتداء دون إهدار الحقوق.

٤. حالة **التدافع الخارجي** بين سلطتَين (كيانَين متمايزَين):

أ. حربًا: الدفاع عند الضعف، والهجوم عند القوّة.

ب. سلمًا: التنازل لصالح المبادئ والأهداف.

٥. حالة **المصالحة بين المجتمعات** عبر:

أ. منظومة حقوقية بروابط مادية ومعنوية فردية واجتماعية عدلاً وتكافلاً.

ب. إدارة النزاعات الداخلية بضمانات وتماسك المجتمع وصبر عليه وتربيته، وإدارة النزاعات الخارجية حربًا وسلمًا.

ثانيًا: بالنسبة إلى المكوِّنات في المجتمع:

➢ تمَّ حصر ستَّة مكوِّنات في المجتمع إضافة إلى المسلم، هي: الكافر، ومريض القلب، وأهل الكتاب، والمرتدّ، والمنافق، والمارق. وسيتمّ تفصيلها كالتالي:

١. التعامل مع المشرك اختلف بين:

أ. كونه محايدًا (**مريض القلب**): يُطلَب تبصيره ودعوته للاستقامة.

ب. كونه **كافرًا** معتديًا: يُطلَب فضح ممارساته مع العفو عنه والإعراض عن مجازاته إذا كان شريكًا ضمن البلد وفي سلطتها، ومحاربته إذا كان الصراع بين بلدَين.

٢. التعامل مع **أهل الكتاب**: هو القريب والحليف الطبيعي عند الصراع مع الشرك، وتجمع المسلم به عددٌ من أصول الرسالات السماوية. وتتمّ دعوته إلى الإسلام عند تغيُّر حالة النظام إلى القوّة الدالّة على حقيقة النبوّة، شرط عدم الإكراه.

٣. التعامل مع **المرتدِّين**: لم يتمّ ذكر مجازاة لهم في مكة، وارتبط قتالهم بعد عهد القوّة والانتشار في النظام بسبب تحولهم إلى مجموعات محارِبة.

٤. التعامل مع **المنافقين**: يتمّ دَومًا في السيرة بالإعراض عنهم وعدم مجازاتهم على ما يرتكبونه، ويكون في ذلك تجفيفًا لمنابع تحرُّكاتهم.

٥. التعامل مع **المارقين**: لا يتمّ التعرُّض لهم، وتظلّ لهم حقوقهم ما كانوا مُشارِكين مع المجتمع. فإذا تمايزوا عن المجتمع واعتدَوا يتمّ قتالهم.

➢ **يُلاحَظ إضافة لِما سبق:**

❑ إنَّ غاية رؤية التعدُّدية المجتمعية والمرجوَّة من إدارتها هي: **العدل والتسوية بين القويّ والضعيف في الحقوق مع تمكين الضعيف من أخذ حقِّه**. وليس المرجوّ فقط هو مطلَق استقرار سياسي يتمّ فيه إجهاض حقوق الضعفاء. وظهر ذلك من خلال معايير: الإصلاح للضعف، والعدل في القضاء، والمشاركة في الشأن العام، والوفاء، وتنسيق حرية الفرد مع مصلحة الجماعة، وتشريع الحقوق لكل فئة وواجباتها، وتَساند الطبقات. . .،

❑ أسهَمت في تحقيق هذه الغاية مجموعة من العناصر والآليات: المشورة العامة في المسائل العامة، والتمثيل القَبَلي حسب عُرف القبيلة، والإدراة الذاتية للتكافل القَبَلي بالمعروف مع انضباط ممارسات القبيلة بالعدل، وتشجيع التوافق لا التنافس لزرع هذه الثقافة ونبذ العصبية الجاهلية، ووجود مرجعية عند الاختلاف تضبط القوى في المجتمع بالاحتكام إليها، والشعور بالتهديد من الخارج مع الرغبة بتفادي المآسي في الداخل، ووجود ولاء غالب بالاتفاق على معنى المجتمع وقِيَمه (الصحيفة)، وتحصين الاقتصاد المحلي (السوق). . .،

❑ ليست المصالحة والمسالمة والسماحة في الإسلام بوجود التنوُّع فحسب، بل هي مرتبطة بأساس يُبنى عليه هذا التنوّع تتصدَّره قِيَمٌ كالعلم ومبادئ كالإصلاح الاجتماعي

وحماية الحريات (معتقد، وممارسة شعائر، ورأي موضوعي) التي لا تُهدِّد النظام العام، والإيمان بأصول الرسالات السماوية، مع الدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح ومكارم الأخلاق.

- خيار القتال لم يكن في السيرة أو العهد الراشدي إلا بين مجتمعَين (كيانَين متمايزَين).

- خيار القتل قد يكون في المجتمع الواحد كحكم قضائي من المرجعية الحاكمة تجاه المسلم (حدود شرعية منضبطة)، أو المعاهِد (عند نقض العهد بالخيانة العظمى)، ويُشتَرط في كل الأحوال عدم استهداف الأبرياء.

- لا وجود لخيار جرِّ الأقليّات في الدول المعادِية لصالح دول أُخرى للقيام بأمر عسكري مُسانِد لها في الصراع، بل وحدة المجتمع مقدَّمة في داخله لأهله، والقتال لا يُصبح خيارًا إلا عند الانتقال من المجتمع إلى تلك الدولة الأُخرى.

- وجود ثبات في قِيَم: القسط (العدل)، والوفاء، والوحدة. وهي تظهر في كلِّ مراحل السيرة. وبذلك تمَّت إقامة الممارسات السياسية على الأخلاق، وإدخال القِيَم إلى إدارة الشأن العام.

- وجود استمرارية للعمل بآلية الشورى في مفاصل مراحل السيرة.

- اعتماد مبدأ الاتفاق على المبادئ مع الآخر في الخارج كمشترك قيمي، والاتفاق على العدوّ مع الآخر في الداخل كعامل تماسك.

إنَّه بذلك التأصيل تتمّ مواكبة واقع النقاش السياسي وممارسات العنف بملامح أولية لرؤية فكرية تأصيلية، تُقدِّم إطارًا نظريًّا للمصالح والمفاسد، فتضبط خيارات التعامل مع الصراعات السياسية والعنفية في المجتمعات، دون تجاوز الحدود بأخطاء وخطايا، مهما كانت التبريرات المسوِّغة للقيام بها بسند ايديولوجي أو براغماتي. وهذا التأصيل يُمكِّن من

ترسيخ قِيَم ومبادئ متَّفق عليها تحكم الحياة في المجتمع من كافَّة نواحيه ليحتكم النَّاس عند الاختلاف عبر قواعدها بشكل يُحقِّق لديهم رؤية في التعدُّدية أو سياسات لإدارتها بالشكل الذي لا يجعل لطرف استقواء على آخر، مع وجود ضمانات تكفل حماية حقوق النَّاس.

كذلك، إنَّ هذا التأصيل قد يُسهِم لشباب التغيير العربي في عدم إعادة إنتاج الأنظمة ذاتها ولو بلغة جديدة، تمهيدًا لتشكيل هوية جامعة تنهض بواقعها، برؤية مشتركة وروحية متماسكة، تُحدَّد بناء عليها الاختيارات البنَّاءة في المجتمع دون هدم للآخر أو ظلمه، وتُحدِّد حدود وأبعاد وضوابط التنازلات المتبادلة ومراعاة التوازنات في المجتمع، بلا خوف أو شعور بغبنٍ أو سوء ظنٍّ بالآخر، بل بتحمُّل للمسؤولية، مع شجاعة بطرح المبادرات الإيجابية.

❐ **ختامًا**، يلزم التأكيد على وعي المجتمع للمبادئ السابقة، وإدراكه لمسؤوليته المجتمعية الإصلاحية، والتزامه الشورى القائمة على التأصيل والمقاصد.



ملاحـــق

١ . روايات ترتيب النزول:

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي[١]	ترتيب ابن الضريس[٢]	ترتيب الزهري[٣]	ترتيب أبي عمرو الداني[٤]	ترتيب الأزهر[٥]
١,١ . العلق	العلق	العلق	العلق	العلق	العلق
١,٢ . المدثر	القلم	القلم	القلم	القلم	القلم

(*) ترقيم السور في الجداول وفق ترتيب النزول، وما بعد الفاصلة باعتبار تعدد مواضع نزول آيات السورة.

(١) البيهقي، **دلائل النبوة**، باب ذكر السور التي نزلت بمكة والتي نزلت بالمدينة، ٧: ١٤٢-١٤٣. وقد أورده بسندَين: الأول حسن وصحَّحه، والثاني ضعيف. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٨٢ ـ ٢٨٤، بتصرُّف.

(٢) ابن الضريس محمد بن أيوب، **فضائل القرآن وما أُنزل من القرآن بمكة وما أُنزل بالمدينة**، باب فيما نزل من القرآن بمكة وما نزل بالمدينة، ص٣٣، ح: ١٧. وقد أورده بسندَين: الأول ضعيف، والثاني مرسل. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، بتصرُّف.

(٣) الزهري محمد بن مسلم، **تنزيل القرآن بمكة والمدينة**، ص٢٩ ـ ٣٤. وقد أورده بسند ضعيف جدًا. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٥٥، بتصرُّف.

(٤) أورده أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد، **البيان في عدّ آي القرآن**، باب ذكر المكي والمدني من القرآن، ص١٣٥ ـ ١٣٧. وقد أورده بسند حسن. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٧٣، بتصرُّف.

(٥) هو الترتيب الذي أثبته علماء القراءات في المصاحف المعتمدة من شيخ المقارئ المصرية الشيخ محمد علي خلف الحسيني. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل**، ص١٧٨ ـ ١٨٤.

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
	المزمل	المزمل	المزمل	المزمل	المزمل
١,٣. القلم	المدثر	المدثر	المدثر	المدثر	المدثر
٤. **الفاتحة**	-	**الفاتحة**		-	الفاتحة
٥. المسد	المسد	المسد	المسد	المسد	المسد
٦. التكوير	التكوير	التكوير	التكوير	التكوير	التكوير
٧. الأعلى	الأعلى	الأعلى	الأعلى	الأعلى	الأعلى
٨. الليل	الليل	الليل	الليل	الليل	الليل
٩. الفجر	الفجر	الفجر	الفجر	الفجر	الفجر
١٠. الضحى	الضحى	الضحى	الضحى	الضحى	الضحى
١١. الشرح	الشرح	الشرح	الشرح	الشرح	الشرح
١٢. العصر	العصر	العصر	**العاديات**	العصر	العصر
١٣. العاديات	العاديات	العاديات	العصر	العاديات	العاديات
١٤. كوثر	الكوثر	الكوثر	الكوثر	الكوثر	الكوثر
١٥. التكاثر	التكاثر	التكاثر	التكاثر	التكاثر	التكاثر
١٦. الماعون	الماعون	الماعون	الماعون	الماعون	الماعون

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
١٧. الكافرون	الكافرون	الكافرون	الكافرون	الكافرون	الكافرون
١٨. الفيل	الفيل	الفيل	الفيل	الفيل	الفيل
١٩. الفلق	الفلق	الفلق	الفلق	الفلق	الفلق
٢٠. الناس	الناس	الناس	الناس	الناس	الناس
٢١. الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص
١,٢٢. النجم	النجم	النجم	النجم	النجم	النجم
٢٣. عبس	عبس	عبس	عبس	عبس	عبس
٢٤. القدر	القدر	القدر	القدر	القدر	القدر
٢٥. الشمس	الشمس	الشمس	الشمس	الشمس	الشمس
٢٦. البروج	البروج	البروج	البروج	البروج	البروج
٢٧. التين	التين	التين	التين	التين	التين
٢٨. قريش	قريش	قريش	قريش	قريش	قريش
٢,٢. المدثر					
٢٩. الرحمن					
٣٠. القارعة	القارعة	القارعة	القارعة	القارعة	القارعة

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
٣١. القيامة	القيامة	القيامة	القيامة	القيامة	القيامة
٣٢. الهمزة	الهمزة	الهمزة	**المرسلات**	الهمزة	الهمزة
٣٣. المرسلات	المرسلات	المرسلات	**ق**	المرسلات	المرسلات
٣٤. ق	ق	ق	الهمزة	ق	ق
			القمر		
٣٥. البلد	البلد	البلد	البلد	البلد	البلد
٣٦. الطارق	الطارق	الطارق	الطارق	الطارق	الطارق
٢,١. العلق					
٣٧. القمر	القمر	القمر		القمر	القمر
٣٨. ص	ص	ص	ص	ص	ص
٣٩. الأعراف	-	الأعراف	الأعراف	الأعراف	الأعراف
٤٠. الجن	الجن	الجن	الجن	الجن	الجن
٤١. يس	يس	يس	يس	يس	يس
٤٢. الفرقان	الفرقان	الفرقان	الفرقان	الفرقان	الفرقان
٤٣. فاطر	فاطر / الملائكة	فاطر / الملائكة	فاطر / الملائكة	فاطر / الملائكة	فاطر / الملائكة

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
٢,٣ . القلم					
٤٤ . مريم	-	مريم	مريم	مريم	مريم
٤٥ . طه	طه	طه	طه	طه	طه
٤٦ . الواقعة	الواقعة	الواقعة	الواقعة	الواقعة	الواقعة
٤٧ . الشعراء	الشعراء	الشعراء	الشعراء	الشعراء	الشعراء
٤٨ . النمل	النمل	النمل	النمل	النمل	النمل
٤٩ . القصص	القصص	القصص	القصص	القصص	القصص
	الإسراء / بني إسرائيل	الإسراء / بني إسرائيل	الإسراء / بني إسرائيل	الإسراء / بني إسرائيل	الإسراء / بني إسرائيل
٥٠ . يونس	يونس	يونس	يونس	يونس	يونس
٥١ . هود	هود	هود	هود	هود	هود
٥٢ . يوسف	يوسف	يوسف	يوسف	يوسف	يوسف
٥٣ . الحجر	الحجر	الحجر	الحجر	الحجر	الحجر
٥٤ . الأنعام	الأنعام	الأنعام	الأنعام	الأنعام	الأنعام
٥٥ . الصافات	الصافات	الصافات	الصافات	الصافات	الصافات

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
٥٦. لقمان	لقمان	لقمان	لقمان	لقمان	لقمان
٥٧. سبأ	سبأ	سبأ	سبأ	سبأ	سبأ
٥٨. الزمر	الزمر	الزمر	الزمر	الزمر	الزمر
٥٩. **غافر**	غافر	غافر	غافر	غافر	غافر
٦٠. فصلت	**الدخان**	فصلت / حم السجدة	فصلت / حم السجدة	فصلت / حم السجدة	فصلت / حم السجدة
٦١. الشورى	فصلت / السجدة	الشورى	الشورى		الشورى
٦٢. الزخرف	الشورى	الزخرف	الزخرف	الزخرف	الزخرف
٦٣. الدخان	الزخرف	الدخان	الدخان	الدخان	الدخان
٦٤. الجاثية	الجاثية	الجاثية	الجاثية	الجاثية	الجاثية
٦٥، ٢، ١. الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف
٦٦. الذاريات	الذاريات	الذاريات	الذاريات	الذاريات	الذاريات
٦٧. الغاشية	الغاشية	الغاشية	الغاشية	الغاشية	الغاشية
٦٨. **الكهف**	الكهف	الكهف	الكهف	الكهف	الكهف
				الشورى	
١,٦٩. النحل	النحل	النحل	النحل	إبراهيم	النحل

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
٧٠. نوح	نوح	نوح	نوح	الأنبياء	نوح
٧١. إبراهيم	إبراهيم	إبراهيم	إبراهيم	**النحل (٤٠ آية)**	إبراهيم
٧٢. الأنبياء	الأنبياء	الأنبياء	الأنبياء	السجدة	الأنبياء
٧٣. المؤمنون	المؤمنون	المؤمنون	المؤمنون	**نوح**	المؤمنون
١,٧٤ . الرعد					
٧٥. السجدة	السجدة	السجدة	السجدة	الطور	السجدة
٧٦. الطور	الطور	الطور	الطور	**المؤمنون**	الطور
١,٧٧ . المزمل					
٧٨. الملك	الملك	الملك	الملك	الملك	الملك
٧٩. الحاقة	الحاقة	الحاقة	الحاقة	الحاقة	الحاقة
٨٠. المعارج	المعارج	المعارج	المعارج	المعارج	المعارج
٨١. النبأ	النبأ	النبأ	النبأ	النبأ	النبأ
٨٢. النازعات	النازعات	النازعات	النازعات	النازعات	النازعات
٨٣. الانفطار	**الانشقاق**	الانفطار	الانفطار	الانفطار	الانفطار
٨٤. الانشقاق	الانفطار	الانشقاق	الانشقاق	الانشقاق	الانشقاق

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
٢,٧٧. المزمل					
٨٥. الإسراء					
٢,٢٢. النجم					
٨٦. الروم	الروم	الروم	الروم	الروم	الروم
١,٨٧. العنكبوت	العنكبوت	العنكبوت	العنكبوت	العنكبوت	العنكبوت
٨٨. الإنسان					
١,٨٩. الحج					
٩٠. المطفِّفين	المطففين/ مدنية	المطففين/ مكية	المطففين	المطففين/ مكية	المطففين
			الفاتحة/ الأولى في المدينة		
١,٩١. البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	البقرة
٢,٨٩. الحج					
٩٢. الأنفال		الأنفال	الأنفال		الأنفال
٢,٩١ البقرة					
٩٣، ١،٢. آل عمران	آل عمران	آل عمران	آل عمران	آل عمران	آل عمران

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
	الأنفال			الأنفال	
	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب
	المائدة			المائدة	
	الممتحنة	الممتحنة	الممتحنة	الممتحنة	الممتحنة
١,٩٤. النساء	النساء	النساء	النساء	النساء	النساء
	الزلزلة	الزلزلة	الزلزلة	الزلزلة	الزلزلة
	الحديد	الحديد	الحديد	الحديد	الحديد
	محمد / القتال	محمد / القتال	محمد / القتال	محمد / القتال	محمد / القتال
	الرعد	الرعد	الرعد	الرعد	الرعد
	الرحمن	الرحمن	الرحمن	الرحمن	الرحمن
	الإنسان	الإنسان	الإنسان	الإنسان	الإنسان
٩٥. الطلاق	الطلاق	الطلاق	الطلاق	الطلاق	الطلاق
٩٦. البينة	البينة	البينة	البينة	البينة	البينة
٣,٩١. البقرة					
٩٧. الحشر	الحشر	الحشر	الحشر	الحشر	الحشر

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
٤,٩١. البقرة					
٢,٩١. النساء					
٢,٨٧. العنكبوت					
٢,٦٩. النحل					
٩٨،٢،١.الأحزاب					
	النصر	النصر	النصر	النصر	
٩٩. المنافقون	النور	النور	النور	النور	النور
	الحج	الحج	الحج	الحج	الحج
١٠٠،٢،١.النور	المنافقون	المنافقون	المنافقون	المنافقون	المنافقون
٩٨،٤،٣.الأحزاب					
١٠١. الزلزلة					
١٠٢. الحديد					
١٠٣. محمد					
١٠٤.المجادلة	المجادلة	المجادلة	المجادلة	المجادلة	المجادلة
	الحجرات	الحجرات	الحجرات	الحجرات	الحجرات

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
	التحريم	التحريم	التحريم / المتحرم	التحريم	التحريم
١٠٥. التغابن					
١٠٦. الصف	الصف				الصف
٣,٩٤. النساء					
٥,٩١. البقرة					
١٠٧. **الفتح**					
١,١٠٨. الممتحنة					
٦,٩١. البقرة					
١٠٩. المائدة					
٢,١٠٨. الممتحنة					
٣,٦٩. النحل					
٤,٩٤. **النساء**					
١,١١٠. التوبة					
١١١. الحجرات					
٢,٧٤. الرعد					

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب البيهقي	ترتيب ابن الضريس	ترتيب الزهري	ترتيب أبي عمرو الداني	ترتيب الأزهر
٥,٩٤. النساء					
٢,١١٠. التوبة					
٣,٩٣. آل عمران					
١١٢. التحريم					
٥,٩٨. الأحزاب					
١١٣. الجمعة	الجمعة	الجمعة	الجمعة	الجمعة	الجمعة
	التغابن	التغابن	التغابن	التغابن	التغابن
		الصف	**الصف**	**الصف**	
	الفتح	الفتح	الفتح	الفتح	الفتح
		المائدة	<u>**المائدة**</u>		المائدة
٧,٩١. البقرة					
٣,١١٠. التوبة	التوبة / براءة	التوبة / براءة	التوبة / براءة	التوبة / براءة	التوبة / براءة
٤,١١٠. التوبة					
١١٤. النصر					النصر



الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي[١]	ترتيب ابن عباس[٢]	ترتيب مقاتل[٣]	ترتيب ابن النديم[٤]
١,١ . العلق	العلق	العلق	العلق	العلق
١,٢ . المدثر	القلم	القلم	القلم	القلم
		الضحى	**الضحى**	
	المزمل	المزمل	المزمل	المزمل
١,٣ . القلم	المدثر	المدثر	المدثر	المدثر
٤ . الفاتحة		الفاتحة		
٥ . المسد	المسد	المسد	المسد	المسد

---

(١) أورده ابن عبد الكافي عمر بن محمد في كتابه: «بيان عدد سور القرآن وآياته وكلماته ومكيه ومدنيه»، (مخطوط ***LudgÁ 674 Warn)À*** نقلاً عن: تيودور نولدكه، **تاريخ القرآن**، ترجمة جورج تامر، مؤسسة كونراد ـ ادناور، ط١، ٢٠٠٤م، ص٥٤ ـ ٥٥. وتنقص منه سورتا الفاتحة والتغابن. وقد أوردها بإسناد ضعيف. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٧١، بتصرُّف.

(٢) الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، **تفسير الشهرستاني المسمى مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار**، ص١٩ ـ ٢٣، بتصرُّف.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩ ـ ٢٣، بتصرُّف.

(٤) ابن النديم محمد بن إسحاق، **الفهرست**، باب نزول القرآن بمكة والمدينة وترتيب نزوله، ص٤٢ ـ ٤٣. وقد أورده نقلاً عن سند الواقدي عن معمر عن الزهري، ورواية عن مجاهد، وتنقص منه سورتا الفاتحة والأحزاب. وتزيد فيه سورة «المليكة» رغم ذكره لسورة فاطر التي تُسمَّى أيضًا «الملائكة».

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
٦. التكوير	التكوير	التكوير	التكوير	التكوير
٧. الأعلى	الأعلى	الأعلى	الأعلى	الأعلى
				الشرح
				العصر
				الفجر
				الضحى
٨. الليل	الليل	الليل	الليل	الليل
٩. الفجر	الفجر	الفجر	الفجر	
١٠. الضحى	الضحى			
١١. الشرح	الشرح	الشرح	الشرح	
١٢. العصر	العصر			
		الرحمن	**الرحمن**	
		العصر		
٣١. العاديات	العاديات			العاديات
١٤. كوثر	الكوثر	الكوثر	الكوثر	الكوثر

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
١٥ . التكاثر	التكاثر	التكاثر	التكاثر	التكاثر
١٦ . الماعون	الماعون	الماعون	الماعون	
			الفيل	
٧١ . الكافرون	الكافرون		الكافرون	الكافرون
١٨ . الفيل	الفيل	الفيل		الفيل
١٩ . الفلق	الفلق			
٢٠ . الناس	الناس			
٢١ . الإخلاص	الإخلاص		الإخلاص	الإخلاص
		الكافرون		
		الإخلاص		
				الفلق
				الناس
١,٢٢ . النجم	النجم	النجم	النجم	النجم
٢٣ . عبس	عبس	عبس	عبس	عبس
٢٤ . القدر	القدر	القدر		القدر

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
٢٥. الشمس	الشمس	الشمس	الشمس	الشمس
٢٦. البروج	البروج	البروج	البروج	البروج
٢٧. التين	التين	التين	التين	التين
٢٨. قريش	قريش	قريش	قريش	قريش
٢,٢. المدثر				
٢٩. الرحمن				
٣٠. القارعة	القارعة	القارعة	القارعة	القارعة
٣١. القيامة	القيامة	القيامة	القيامة	القيامة
٣٢. الهمزة	الهمزة	الهمزة	الهمزة	الهمزة
٣٣. المرسلات	المرسلات	المرسلات	المرسلات	المرسلات
٣٤. ق	ق	ق	ق	ق
٣٥. البلد	البلد	البلد	البلد	البلد
٣٦. الطارق	الطارق	الطارق	الطارق	
٢,١. العلق				الرحمن
٣٧. القمر	القمر	القمر	القمر	

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
٣٨. ص	ص	ص	ص	
٣٩. الأعراف	الأعراف	الأعراف	الأعراف	
٤٠. الجن	الجن	الجن	الجن	الجن
٤١. يس	يس	يس	يس	يس
				الأعراف
٤٢. الفرقان	الفرقان	الفرقان	الفرقان	الفرقان
٤٣. فاطر	فاطر / الملائكة	فاطر / الملائكة	فاطر / الملائكة	المليكة
				فاطر
٢,٣. القلم				
٤٤. مريم	مريم	مريم	مريم	مريم
٤٥. طه	طه	طه	طه	طه
٤٦. الواقعة	الواقعة			الواقعة
٤٧. الشعراء	الشعراء	الشعراء	الشعراء	الشعراء
٤٨. النمل	النمل	النمل	النمل	النمل
٤٩. القصص	القصص	القصص	القصص	القصص

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
	الإسراء / بني إسرائيل	الإسراء / بني إسرائيل	الإسراء / بني إسرائيل	الإسراء / بني إسرائيل
٥٠. يونس	يونس	يونس	يونس	
٥١. هود	هود	هود	هود	هود
٥٢. يوسف	يوسف	يوسف	يوسف	يوسف
				يونس
٥٣. الحجر	الحجر	الحجر	الحجر	الحجر
٥٤. الأنعام	الأنعام	الأنعام	الأنعام	
٥٥. الصافات	الصافات	الصافات	الصافات	الصافات
٥٦. لقمان	لقمان	لقمان	لقمان	لقمان
				المؤمنون
٥٧. سبأ	سبأ	سبأ	سبأ	سبأ
			السجدة	
				الأنبياء
٥٨. الزمر	الزمر	الزمر		الزمر

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
٥٩ . غافر	غافر	غافر	غافر	غافر
٦٠ . فصلت	فصلت / حم السجدة	فصلت / حم السجدة	فصلت / حم السجدة	فصلت / حم السجدة
٦١ . الشورى	الشورى	الشورى	الشورى	الشورى
٦٢ . الزخرف	الزخرف	الزخرف	الزخرف	الزخرف
٦٣ . الدخان	الدخان	الدخان	الدخان	الدخان
٦٤ . الجاثية	الجاثية	الجاثية	الجاثية	الجاثية
٦٥، ٢، ١ . الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف
٦٦ . الذاريات	الذاريات	الذاريات	الذاريات	الذاريات
٦٧ . الغاشية	الغاشية	الغاشية	الغاشية	الغاشية
٦٨ . الكهف	الكهف	الكهف	الكهف	الكهف
				الأنعام
١,٦٩ . النحل	النحل	النحل	النحل	النحل
٧٠ . نوح	نوح	نوح	نوح	نوح
٧١ . إبراهيم	إبراهيم	إبراهيم	إبراهيم	إبراهيم

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
٧٢. الأنبياء	الأنبياء	الأنبياء	الأنبياء	
٧٣. المؤمنون	المؤمنون	المؤمنون	المؤمنون	
١,٧٤. الرعد		**الرعد**	**الرعد**	
٧٥. السجدة	السجدة			السجدة
٧٦. الطور	الطور	الطور	الطور	الطور
١,٧٧. المزمل				
٧٨. الملك	الملك	الملك	الملك	الملك
٧٩. الحاقة	الحاقة	الحاقة	الحاقة	الحاقة
٨٠. المعارج	المعارج	المعارج	المعارج	المعارج
٨١. النبأ	النبأ	النبأ	النبأ	النبأ
٨٢. النازعات	النازعات	النازعات	النازعات	النازعات
٨٣. الانفطار	الانفطار	الانفطار	الانفطار	الانفطار
٨٤. الانشقاق	الانشقاق	الانشقاق	الانشقاق	الانشقاق
٢,٧٧. المزمل				
٨٥. الإسراء				

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
٢,٢٢ . النجم				
٨٦. الروم	الروم	الروم	الروم	الروم
١,٨٧ . العنكبوت	العنكبوت	العنكبوت	العنكبوت	العنكبوت
٨٨ . الإنسان			**الإنسان**	
١,٨٩ . الحج			**الزمر**	
			الواقعة	
٩٠ . المطفِّفين	المطففين / مكية	المطففين	المطففين	المطففين
			الفاتحة	
				القمر
				الطارق
١,٩١ . البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	البقرة
٢,٨٩ . الحج				
٩٢ . الأنفال	الأنفال	الأنفال	الأنفال	الأنفال
٢,٩١ البقرة				
				الأعراف

الترتيب المعتمد في الدراسة	**ترتيب ابن عبد الكافي**	**ترتيب ابن عباس**	**ترتيب مقاتل**	**ترتيب ابن النديم**
١,٩٣٢ .آل عمران	آل عمران	آل عمران	آل عمران	آل عمران
		الحشر	**الحشر**	
	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	
		النور	النور	
	الممتحنة	الممتحنة	**الصمد (كأنَّ الصواب: الممتحنة)**	الممتحنة
		الفتح	الفتح	
١,٩٤ . النساء	النساء	النساء	النساء	النساء
	الزلزلة	الزلزلة	الزلزلة	الزلزلة
			العصر	
		الحج	الحج	
	الحديد	الحديد	الحديد	الحديد
	محمد / القتال	محمد / القتال	محمد / القتال	محمد
	الرعد			الرعد

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
	الرحمن			
	الإنسان	الإنسان		الإنسان
٩٥. الطلاق	الطلاق	الطلاق	الطلاق	الطلاق
			القدر	
٩٦. البينة	البينة	البينة	البينة	البينة
٣,٩١. البقرة				
٩٧. الحشر	الحشر			الحشر
٤,٩١. البقرة				
٢,٩١. النساء				
٢,٨٧. العنكبوت				
٢,٦٩. النحل				
١،٩٨٢ الأحزاب				
		الجمعة	الجمعة	
	النصر			نصر
		السجدة		

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
٩٩. المنافقون				
١٠٠,٢،١. النور	النور			نور
	الحج			الحج
	المنافقون	المنافقون	المنافقون	المنافقون
٣،٤,٩٨. الأحزاب				
١٠١. الزلزلة				
١٠٢. الحديد				
١٠٣. محمد				
١٠٤.المجادلة	المجادلة	المجادلة	المجادلة	المجادلة
١٠٥. التغابن				
١٠٦. الصف				
٣,٩٤. النساء				
٥,٩١. البقرة				
١٠٧. الفتح				
١,١٠٨. الممتحنة				

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
٦,٩١. البقرة				
١٠٩. المائدة				
٢,١٠٨. الممتحنة				
٣,٦٩. النحل				
٤,٩٤. النساء				
١,١١٠. التوبة				
١١١. الحجرات	الحجرات	الحجرات	الحجرات	الحجرات
٢,٧٤. الرعد				
٥,٩٤. النساء				
٢,١١٠. التوبة				
٣,٩٣. آل عمران				
١١٢. التحريم	التحريم	التحريم	التحريم	التحريم
	الجمعة			الجمعة
		التغابن	التغابن	التغابن
	الصف	الصف	الصف	الصف

الترتيب المعتمد في الدراسة	ترتيب ابن عبد الكافي	ترتيب ابن عباس	ترتيب مقاتل	ترتيب ابن النديم
	الفتح			الفتح
	المائدة	المائدة	المائدة	المائدة
٥,٩٨. الأحزاب				
١١٣. الجمعة				
٧,٩١. البقرة				
٣,١١٠. التوبة	التوبة	التوبة / براءة	التوبة / براءة	التوبة
٤,١١٠. التوبة				
١١٤. النصر		النصر	النصر	
السور التي لم ترد في اللوائح :		[الواقعة]	[العاديات]	
		[العاديات]	[الفلق]	
		[الفلق]	[الناس]	
		[الناس]		

٢. روايات تحديد المكي من المدني:

ترتيب أبي عمرو الداني	أبو عمرو الداني[(١)]	اسم السورة[(٢)]	أبي عبيد[(٣)]	الحارث المحاسبي[(٤)]	ابن الأنباري[(٥)]	أبي جعفر النحاس[(٦)]	ترجيحات القرطبي[(٧)]
العلق	مكية	**العلق**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
القلم	مكية	**القلم**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية

---

(١) أبو عمرو الداني، **البيان في عدّ آي القرآن**، باب ذكر المكي والمدني من القرآن، ص ١٣٣ـ ١٣٤. وقد أورده بسند صحيح. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٧٦، بتصرُّف.

(٢) هذا هو ترتيب تقليدي مشهور، وليس هو المعتمد في الدراسة. ولكني عند بداية العمل انطلقت منه كفرضيَّة جامعة بين أغلب الروايات.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام، **فضائل القرآن**، باب منازل القرآن بمكة والمدينة وذكر أوائله وأواخره، ص٣٦٥. وقد أورده بسند صحيح. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٥٩، بتصرُّف.

(٤) المحاسبي الحارث بن أسد، **فهم القرآن ومعانيه**، ذكر الناسخ والمنسوخ في الأحكام، ص٣٩٥ ـ ٣٩٦. وقد أورد بسند صحيح ولكنَّه مرسل. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٦٢، بتصرُّف.

(٥) ابن الأنباري، **الرد على مَن خالف مصحف عثمان**، نقلاً عن: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته، ١: ٦١ ـ ٦٢. وقد أورده ابن الأنباري بسند صحيح ولكنَّه مرسل. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٦٥، بتصرُّف.

(٦) أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد، **الناسخ والمنسوخ في كتاب الله واختلاف العلماء في ذلك**. وقد أورده بسند ضعيف. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم**، ١: ٢٦٨، بتصرُّف.

(٧) هي التي أوردها الإمام القرطبي في تفسيره: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، وقد عرضتها في التعليق على السور المختلَف فيها في الأطروحة.

ترتيب أبي عمرو الداني	أبو عمرو الداني	اسم السورة	أبي عبيد	الحارث المحاسبي	ابن الأنباري	أبي جعفر النحاس	ترجيحات القرطبي
المزمل	مكية	**المزمل**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
المدثر	مكية	**المدثر**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
ـ	مكية	**الفاتحة**	مكية	مكية	مكية	ـ	مكية
المسد	مكية	**المسد**	مكية	مكية	مكية	**مدنية**	مكية
التكوير	مكية	**التكوير**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الأعلى	مكية	**الأعلى**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الليل	مكية	**الليل**	**مدنية**	مكية	مكية	مكية	مكية
الفجر	مكية	**الفجر**	**مدنية**	مكية	مكية	مكية	مكية
الضحى	مكية	**الضحى**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الشرح	مكية	**الشرح**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
العصر	مكية	**العصر**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
العاديات	مكية	**العاديات**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الكوثر	مكية	**الكوثر**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
التكاثر	مكية	**التكاثر**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الماعون	مكية	**الماعون**	مكية	**مدنية مع شك**	مكية	مكية	مكية
الكافرون	مكية	**الكافرون**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الفيل	مكية	**الفيل**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية

ترتيب أبي عمرو الداني	أبو عمرو الداني	اسم السورة	أبي عبيد	الحارث المحاسبي	ابن الأنباري	أبي جعفر النحاس	ترجيحات القرطبي
الفلق	مكية	**الفلق**	مكية	مكية	مكية	**مدنية**	مكية
الناس	مكية	**الناس**	مكية	مكية	مكية	**مدنية**	مكية
الإخلاص	مكية	**الإخلاص**	مكية	**مدنية**	مكية	**مدنية**	مكية
النجم	مكية	**النجم**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
عبس	مكية	**عبس**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
القدر	مكية	**القدر**	**مدنية**	مكية	مكية	**مدنية**	**مدنية**
الشمس	مكية	**الشمس**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
البروج	مكية	**البروج**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
التين	مكية	**التين**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
قريش	مكية	**قريش**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
القارعة	مكية	**القارعة**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
القيامة	مكية	**القيامة**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الهمزة	مكية	**الهمزة**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
المرسلات	مكية	**المرسلات**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
ق	مكية	**ق**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
البلد	مكية	**البلد**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الطارق	مكية	**الطارق**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية

ترتيب أبي عمرو الداني	أبو عمرو الداني	اسم السورة	أبي عبيد	الحارث المحاسبي	ابن الأنباري	أبي جعفر النحاس	ترجيحات القرطبي
القمر	مكية	**القمر**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
ص	مكية	**ص**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الأعراف	مكية	**الأعراف**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الجن	مكية	**الجن**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
يس	مكية	**يس**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الفرقان	مكية	**الفرقان**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
فاطر/ الملائكة	مكية	**فاطر/ الملائكة**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
مريم	مكية	**مريم**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
طه	مكية	**طه**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الواقعة	مكية	**الواقعة**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الشعراء	مكية	**الشعراء**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
النمل	مكية	**النمل**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
القصص	مكية	**القصص**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الإسراء	مكية	**الإسراء**	مكية	مكية	مكية		مكية
يونس	مكية	**يونس**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
هود	مكية	**هود**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
يوسف	مكية	**يوسف**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية

ترتيب أبي عمرو الداني	أبو عمرو الداني	اسم السورة	أبي عبيد	الحارث المحاسبي	ابن الأنباري	أبي جعفر النحاس	ترجيحات القرطبي
الحجر	مكية	**الحجر**	مكية	**مدنية**	مكية	مكية	مكية
الأنعام	مكية	**الأنعام**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الصافات	مكية	**الصافات**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
لقمان	مكية	**لقمان**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
سبأ	مكية	**سبأ**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الزمر	مكية	**الزمر**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
غافر	مكية	**غافر**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
فصلت	مكية	**فصلت**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الزخرف	مكية	**الشورى**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الدخان	مكية	**الزخرف**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الجاثية	مكية	**الدخان**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الأحقاف	مكية	**الجاثية**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الذاريات	مكية	**الأحقاف**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الغاشية	مكية	**الذاريات**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الكهف	مكية	**الغاشية**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الشورى	مكية	**الكهف**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
إبراهيم	مكية	**النحل**	مكية	**مدنية**	**مدنية**	مكية	مكية

ترتيب أبي عمرو الداني	أبو عمرو الداني	اسم السورة	أبي عبيد	الحارث المحاسبي	ابن الأنباري	أبي جعفر النحاس	ترجيحات القرطبي
الأنبياء	مكية	**نوح**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
النحل (٤٠ آية)	مكية	**إبراهيم**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
السجدة	مكية	**الأنبياء**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
نوح	مكية	**المؤمنون**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الطور	مكية	**السجدة**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
المؤمنون	مكية	**الطور**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الملك	مكية	**الملك**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الحاقة	مكية	**الحاقة**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
المعارج	مكية	**المعارج**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
النبأ	مكية	**النبأ**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
النازعات	مكية	**النازعات**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الانفطار	مكية	**الانفطار**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الانشقاق	مكية	**الانشقاق**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
الروم	مكية	**الروم**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
العنكبوت	مكية	**العنكبوت**	مكية	مكية	مكية	مكية	مكية
المطففين	**مكية**	**المطففين**	**مكية**	**مكية**	**مكية**	**مكية**	مدنية
البقرة	مدنية	**البقرة**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية

ترتيب أبي عمرو الداني	أبو عمرو الداني	اسم السورة	أبي عبيد	الحارث المحاسبي	ابن الأنباري	أبي جعفر النحاس	ترجيحات القرطبي
آل عمران	مدنية	**الأنفال**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الأنفال	مدنية	**آل عمران**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الأحزاب	مدنية	**الأحزاب**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
المائدة	مدنية	**الممتحنة**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الممتحنة	**مكية**	**النساء**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
النساء	مدنية	**الزلزلة**	مدنية	**مكية**	مدنية	**مكية**	مدنية
الزلزلة	مدنية	**الحديد**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الحديد	مدنية	**محمد / القتال**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
محمد / القتال	مدنية	**الرعد**	**مكية**	مدنية	مدنية	**مكية / سعيد عن قتادة: مدنية إلا آية القارعة**	**مكية / مدنية**
الرعد	مدنية	**الرحمن**	مكية	مكية	**مدنية**	مكية	مكية
الرحمن	**مكية**	**الإنسان**	**مكية**	**مكية**	**مكية**	**مكية**	**مكية / مدنية**
الإنسان	**مكية**	**الطلاق**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الطلاق	مدنية	**البينة**	مدنية	مدنية	**مكية**	مدنية	**مكية / مدنية**
البينة	مدنية	**الحشر**	مدنية	**مكية**	مدنية	مدنية	مدنية

ترتيب أبي عمرو الداني	أبو عمرو الداني	اسم السورة	أبي عبيد	الحارث المحاسبي	ابن الأنباري	أبي جعفر النحاس	ترجيحات القرطبي
الحشر	مدنية	**النور**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
النصر	مدنية	**الحج**	**مدنية**	مكية	**مدنية**	مكية	مكية / مدنية
النور	مدنية	**المنافقون**	**مكية**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الحج	**مدنية**	**المجادلة**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
المنافقون	**مكية**	**الحجرات**	**مكية**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
المجادلة	**مكية**	**التحريم**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الحجرات	مدنية	**الصف**	مدنية	مدنية	مدنية	**مكية / عن سعيد عن قتادة: مدنية**	مدنية
التحريم	مدنية	**الجمعة**	**مكية**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الجمعة	مدنية	**التغابن**	مدنية	مدنية	مدنية	**مكية / عن سعيد عن قتادة: مدنية**	مدنية
التغابن	مدنية	**الفتح**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الصف	مدنية	**المائدة**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية
الفتح	مدنية	**التوبة**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية **وآخر ما نزل بالمدينة**	مدنية
التوبة	مدنية	**النصر**	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية	مدنية

٣. نصّ صحيفة المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود:

«بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ هذا كتاب محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش و[أهل] يثرب ومَن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢ ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣ ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانِيَهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ ـ وبنو عَوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث [بن الخزرج] على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنو النَّجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو عَمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠ ـ وبنو النَّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١ ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢ ـ وأن المؤمنين لا يتركون مُفرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل.

(١٢ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣ ـ وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] مَن بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولدَ أحدهم.

١٤ ـ ولا يقتُل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن.

١٥ ـ وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٦ ـ وأنه مَن تبعنا من يهود فإنَّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم.

١٧ ـ وأن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨ ـ وأن كل غازية غَزَت معنا يَعقُب بعضُها بعضًا.

١٩ ـ وأن المؤمنين يُنبِئ بعضُهُم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠ ـ وأن المؤمنين المتقين على أحسن هَدْيٍ وأقوَمه.

(٢٠ ب) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

٢١ ـ وأنه مَن اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بيّنة فإنه قَوَد به، إلا أن يرضى ولّي المقتول [بالعقل]، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحلّ لهم إلا قيام عليه.

٢٢ ـ وأنه لا يحلّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدِثًا أو يُؤوِيه، وأنه مَن نصره أو آواه، فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٣ ـ وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنَّ مردّه إلى الله وإلى محمد.

٢٤ ـ وأن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين.

٢٥ ـ وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا مَن ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

٢٦ ـ وأن ليهود بني النّجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٧ ـ وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٢٨ ـ وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩ ـ وأن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠ ـ وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣١ ـ وأن ليهود بني ثَعلَبة مثل ما ليهود بني عوف إلا مَن ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣٢ ـ وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ ـ وأن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البرّ دون الإثم.

٣٤ ـ وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ ـ وأن بِطانة يهود كأنفسهم.

٣٦ ـ وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

(٣٦ ب) وأنه لا يَنحَجِز على ثأر جُرح، وأنه مَن فتك فبنفسه وأهل بيته، إلا مَن ظَلم، وأن الله على أبَرِّ هذا.

٣٧ ـ وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبِرّ دون الإثم.

(٣٧ ب) وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

٣٨ ـ وأن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا مُحاربين.

٣٩ ـ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠ ـ وأن الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم.

٤١ ـ وأنه لا تُجار حُرمة إلا بإذن أهلها.

٤٢ ـ وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدث، أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأَبَرِّه.

٤٣ ـ وأنه لا تُجار قريش ولا مَن نصرها.

٤٤ ـ وأن بينهم النصر على مَن دهم يثرب.

٤٥ ـ وإذا دُعوا إلى صلح يُصالحونه ويلبسونه، فإنهم يُصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دَعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا مَن حارب في الدين.

(٤٥ ب) على كل أناس حِصَّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.

٤٦ ـ وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البِرّ دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرِّه.

٤٧ ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه مَن خرج آمن ومَن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمَن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله»[(١)].



(١) محمد حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية**، ص٥٩ ـ ٦٢.

الفهارس العامة

فهرس السور القرآنية كما وردت في الكتاب

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

فهرس السور القرآنية كما وردت في الكتاب[1]

(*) ترقيم السور في الجداول وفق ترتيب النزول، وما بعد الفاصلة باعتبار تعدد مواضع نزول آيات السورة.

(١) هذا الفهرس يُعبِّر عن أماكن ورود هذه الآيات والسور في الكتاب، ولا يُعبِّر بالضرورة عن عرضٍ تفصيليٍّ محدَّدٍ لمسار نزولها، لأنَّ بعض آيات السور الكبرى مثلاً ـ كما أثبتُّ في مواضع عرضها ـ قد أوردتها في الكتاب بقولي: «وقد يترجَّح في هذه المرحلة المدنية نزول آيات. . .»، ممَّا يكون جوابًا على أسئلة عامة أو عرض حوارات واستدلالات لم يرتبِط نزولها بحادثة تاريخية أو بسبب نزول مستقِل.



فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المعاجم وعلوم اللغة:

١ . محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف**، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٢ . الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان الداوودي، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٣ . أ.د.أحمد فرحات، **معاجم مفردات القرآن موازنات ومقترحات**، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، دط، دت.

٤ . الحربي إبراهيم بن إسحاق، **غريب الحديث** ـ المجلدة الخامسة، تحقيق: د.سليمان العايد، دار المدني، جدة، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥ . ابن الأثير المبارك بن محمد، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناجي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٦ . الأب فاضل سيداروس اليسوعي وآخرون، **معجم اللاهوت الكتابي**، دار المشرق، بيروت، ط٣، ١٩٩١م.

٧. د. جورج بوست، **قاموس الكتاب المقدَّس**، المطبعة الأميركانية، بيروت، دط، ١٨٩٤م.

٨. د. القس صموئيل حبيب وآخرون، **دائرة المعارف الكتابية**، دار الثقافة، دط، دت.

٩ . الفراهيدي الخليل بن أحمد، **كتاب معجم العين**، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دط، دت.

١٠. ابن زكريا أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، دط، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١١. الزبيدي محمد بن محمد، **تاج العروس من جواهر القاموس**، دار الهداية، دط، دت.

١٢. ابن منظور محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٣. د. إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، دط، دت.

١٤. **مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز**، مصر، وزارة التربية والتعليم، دط، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٥. محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي، **معجم لغة الفقهاء**، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٦. د. فاضل السامرائي، **معاني النحو**، شركة العاتك، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

١٧. ابن هشام عبد الله بن يوسف، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت.

١٨. د. جميل ظفر، **النحو القرآني قواعد وشواهد**، مطابع الصفا، مكة المكرَّمة، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٩. د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، **موسوعة السياسة**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨١م.

٢٠. ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، دار الفكر، بيروت، دط، دت.

ثانيًا: التفاسير وعلوم القرآن:

٢١. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٢. د. محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم - التفسير الواضح حسب ترتيب النزول**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٣. د. مصطفى مسلم، **التفسير الموضوعي**، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، الشارقة، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٢٤. البقاعي إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دط، دت.

٢٥. الطبري محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٦. السمين الحلبي أحمد بن يوسف، **الدُّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون**، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، دط، دت.

٢٧. عمر بن علي، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٨. ابن كثير إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق سامي سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٩. الرازي محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٣٠. الثعلبي أحمد بن محمد، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق أبي محمد ابن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٣١. الماوردي علي بن محمد، **النكت والعيون**، تحقيق السيد ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.

٣٢. البغوي الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٣. الخازن علي بن محمد، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تحقيق محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٣٤. أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، تحقيق صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٣٥. إسماعيل حقي، **روح البيان**، دار الفكر، بيروت، دط، دت.

٣٦. ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، ١٩٨٤م.

٣٧. الزمخشري محمود بن عمرو، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٣٨. السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار الفكر، بيروت، دط، دت.

٣٩. الألوسي محمود بن عبد الله، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٤٠. القاسمي محمد جمال الدين بن محمد سعيد، **محاسن التأويل**، تحقيق محمد عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٤١. د. عمرو خالد، خواطر قرآنية ـ **نظرات في أهداف سور القرآن**، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٤٢ . القرطبي محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق هشام البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، دط، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٤٣ . الشعراوي محمد متولي، **تفسير الشعراوي**، دار أخبار اليوم، القاهرة، دط، دت.

٤٤ . الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، تحقيق محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.

٤٥ . ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي، **زاد المسير في علم التفسير**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.

٤٦ . ابن الضريس محمد بن أيوب، **فضائل القرآن وما أُنزل من القرآن بمكة وما أُنزل بالمدينة**، تحقيق غزوة بدير، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٤٧ . الزهري محمد بن مسلم، **تنزيل القرآن بمكة والمدينة**، تحقيق د. حاتم الضامن، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٤٨ . أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد، **البيان في عدّ آي القرآن**، تحقيق غانم الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٤٩ . ابن عبد الكافي، **بيان عدد سور القرآن وآياته وكلماته ومكيه ومدنيه**، (مخطوط ***Ludg. 674 Warn***) نقلاً عن: تيودور نولدكه، **تاريخ القرآن**، ترجمة جورج تامر، مؤسسة كونراد ـ ادناور، ط١، ٢٠٠٤م.

٥٠ . ابن النديم محمد بن إسحاق، **الفهرست**، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٥١ . الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، **تفسير الشهرستاني المسمى مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار**، تحقيق محمد علي آزر شب، مركز البحوث والدراسات للتراث المخطوط، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٥٢. أبو عبيد القاسم بن سلام، **فضائل القرآن**، تحقيق مروان العطية وآخرون، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٥٣. المحاسبي الحارث بن أسد، **فهم القرآن ومعانيه**، تحقيق حسين القوتلي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ.

٥٤. أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد، **الناسخ والمنسوخ في كتاب الله واختلاف العلماء في ذلك**، تحقيق د. محمد عبد السلام، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٥٥. السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٥٦. السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، **لباب النقول في أسباب النزول**، تحقيق أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.

٥٧. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، تحقيق كمال زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٥٨. الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، تحقيق عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٥٩. مقبل بن هادي الهمداني، **الصحيح المسند من أسباب النزول**، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٤، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٦٠. عبد الرزاق حسين أحمد، **المكي والمدني في القرآن الكريم دراسة تأصيلية نقدية للسور والآيات من أول القرآن الكريم إلى نهاية سورة الإسراء**، دار ابن عفان، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٦١. سامي العجلان، **الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنَين الثامن والتاسع الهجريَّين دراسة بلاغية في التراث العربي**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٦٢. محمد فتح الله كولن، **أضواء قرآنية في سماء الوجدان**، ترجمة أورخان محمد علي، دار النيل، اسطنبول، ط٥، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٦٣. د. محمد الذهبي، **التفسير والمفسِّرون**، مكتبة وهبة، القاهرة، دط، دت.

٦٤. د. فريد سليمان، **محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم**، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٦٥. د. محمد عابد الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم. الجزء الأول: في التعريف بالقرآن**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ٢٠٠٧م.

٦٦. أ.د. محمد عمارة، **رَدّ افتراءات الجابري على القرآن الكريم**، دار السلام، دط، ٢٠١٠م.

٦٧. محمد الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٦٨. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٦٩. د. خالد السبت، **قواعد التفسير جمعًا ودراسة**، دار ابن عفان، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٧٠. الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، تحقيق محمد الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.

٧١. عبد الرحمن الجزائري، **القواعد الحسان المتعلِّقة بتفسير القرآن**، دار الآثار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٧٢. الغزالي محمد بن محمد، **جواهر القرآن**، دار آزال، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧٣. مجد مكي، **التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٧٤. محمد عزة دروزة، **التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٢١ ـ ٢٠٠٠م.

٧٥. د. مصطفى زيد، **النسخ في القرآن الكريم دراسة تشريعية تاريخية نقدية**، دار الوفاء، المنصورة، ط٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٧٦. **التسهيل لقراءات التنزيل**. محمد فهد خاروف. ط١. دمشق: مكتبة دار البيروتي، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٧٧. **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقَي الشاطبية والدُّرّة**. عبد الفتاح القاضي. دط. مصر: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، دت.

٧٨. الكرماني محمد بن أبي المحاسن، **مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني**، تحقيق د. عبد الكريم مدلج، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٧٩. ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، **مقدِّمة في أصول التفسير**، تحقيق فؤاد زمرلي، دار ابن حزم، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

ثالثًا: الحديث الشريف وعلومه:

٨٠. البخاري محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٨١. مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت.

٨٢. أبو داود سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، دط، دت.

٨٣. الترمذي محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٨٤. النسائي أحمد بن شعيب، **السنن الصغرى**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨٥. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دط، دت.

٨٦. أحمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٨٧. البزار أحمد بن عمرو، **مسند البزار المسمَّى البحر الزخار**، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله وآخرون، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٩م.

٨٨. ابن حجر، **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**، دار العاصمة، السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

٨٩. البيهقي أحمد بن الحسين، **السنن الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٩٠. الطيالسي سليمان بن داود، **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق د. محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٩١. محمد بن حبان، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٩٢. الطبراني سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، دت.

٩٣. الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٩٤ . الهيثمي علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، دط، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٩٥ . الهيثمي علي بن أبي بكر، **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، دت.

٩٦ . ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، دط، ١٣٧٩هـ.

٩٧ . العيني محمود بن أحمد، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، دت.

٩٨ . ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، **تهذيب التهذيب**، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ.

٩٩ . النووي يحيى بن شرف، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

١٠٠ . الطحاوي أحمد بن محمد، **شرح مشكل الآثار**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٠١ . د. محمد عجاج الخطيب، **أصول الحديث علومه ومصطلحاته**، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٠٢ . د. يوسف العليوي، **رعاية حال المخاطَب في أحاديث الصحيحَين دراسة بلاغية تحليلية**، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

١٠٣ . الطبري محمد بن جرير، **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار**، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

١٠٤ . د. طارق الأسعد، **علم أسباب ورود الحديث وتطبيقاته عند المحدِّثين والأصوليين وجمع طائفة ممَّا لم يُصنَّف من أسباب الحديث**، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٠٥. ملا علي القاري، **شرح شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار الأرقم، بيروت.

١٠٦. ابن قيّم الجوزية محمد بن أبي بكر، **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، تحقيق د. محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة، دط، دت.

رابعًا: التاريخ والسِّيَر والتراجم:

١٠٧. محمد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

١٠٨. الطبري محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

١٠٩. ابن كثير إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١١٠. د. جواد علي، **المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار الساقي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١١١. عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

١١٢. السهيلي عبد الرحمن بن عبد الله، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

١١٣. البلاذري أحمد بن يحيى، **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١١٤. البيهقي أحمد بن الحسين، **دلائل النبوة**، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١١٥. ابن عبد البَرّ يوسف النميري، **الدرر في اختصار المغازي والسِّيَر**، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١١٦. أبو نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله، **دلائل النبوة**، تحقيق د. محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١١٧. الحلبي علي بن برهان الدين، **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، دار المعرفة، بيروت، دط، دت.

١١٨. الزرقاني محمد بن عبد الباقي، **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١١٩. صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٢٠. د. أكرم العمري، **السيرة النبوية الصحيحة**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٢١. الحلبي علي بن برهان الدين، **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، دار المعرفة، بيروت، دط، دت.

١٢٢. أ.د. محمد رواس قلعة جي، **دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (من خلال سيرته الشريفة)**، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٣. سامي حمدان أبو زهري، **يهود المدينة في العهد النبوي أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية**، دار التربية، دمشق، دط، دت.

١٢٤. إبراهيم قريبي، **مرويات غزوة بني المصطلق**، عمادة البحث العلمي، المدينة المنورة، دط، دت.

١٢٥ . سميرة الزايد، **الجامع في السيرة النبوية**، المطبعة العلمية، ط١، دت.

١٢٦ . ابن قيّم الجوزية محمد بن أبي بكر، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٢٧ . د. محمد أبو شهبة، **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٢٨ . أبو الحسن علي الندوي، **السيرة النبوية**، الدار الشامية، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٢٩ . د. علي الصلابي، **السيرة النبوية ـ عرض وقائع وتحليل أحداث**، دار المعرفة، بيروت، ط٧، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

١٣٠ . ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٣١ . د. علي الصلابي، **الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره**، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٣٢ . د. علي الصلابي، **سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شخصيته وعصره**، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٣٣ . د. علي الصلابي، **سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شخصيته وعصره**، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٣٤ . د. حاكم المطيري، **تحرير الإنسان وتجريد الطغيان دراسة في أصول الخطاب السياسي القرآني والنبوي والراشدي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١ ٢٠٠٩م.

١٣٥ . محمد حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣٦ . ابن الأثير علي بن محمد، **أُسْدُ الغابة**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٣٧ . الزركلي خير الدين بن محمود، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

١٣٨ . طه الولي، **المسجد في الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١٣٩ . محمد مختار باشا، **التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية**، تحقيق: د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٤٠ . د. محمد صالح البنداق، **التقويم الهادي**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٤١ . الشهرستاني محمد بن عبد الكريم، **الملل والنِّحل**، مؤسسة الحلبي، دط، دت.

١٤٢ . د. هاشم الملاح، **المفصَّل في فلسفة التاريخ دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٤٣ . أ.د. عبد الكريم بكار، **١٤٩ بصيرة في التراث والماضي والتاريخ والمستقبل وطبائع الأشياء**، دار الأعلام، الأردن، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٤٤ . د. أسد رستم، **مصطلح التاريخ**، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٤٥ . د.يوسف القرضاوي، **الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٤٦ . عبد الهادي بوطالب، **الصحوة الإسلامية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

خامسًا: الدراسات الفقهية والفكرية والعامة:

١٤٧ . **الموسوعة الفقهية**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٤٨ . الشافعي محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٨هـ - ١٩٤٠م.

١٤٩ . الشاطبي إبراهيم بن موسى، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٥٠ . عبد الحميد أبو سليمان، **العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار رؤية إسلامية**، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٥١ . بسام عبد الكريم الحمزاوي، **مدخل لطلب العلوم الشرعية «منح القيوم»**، مركز علوم الحديث الشريف، دمشق، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٥٢ . **مجلة إسلامية المعرفة** مجلة فكرية فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

١٥٣ . محمد زاهد الكوثري، **مقالات الكوثري**، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دط، دت.

١٥٤ . د. يوسف القرضاوي، **فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٦، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٥٥ . ابن تيمية، **الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ**، تحقيق محمد حلواني ومحمد شودري، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

١٥٦ . د. ماجد عرسان الكيلاني، **تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية**، جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن، دط، ١٩٧٨م.

١٥٧. د. معتز عبد الله، **الاتجاهات التعصبية**، (سلسلة عالم المعرفة: ١٣٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٥٨. د. عبد الستار الهيتي، **الحوار الذات والآخر**، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، (سلسلة كتاب الأمة، العدد: ٩٩).

١٥٩. أحمد الدَّمنهوري، **رسالة في المنطق ـ إيضاح المبهم من معاني السُّلَّم**، تحقيق: عمر فاروق الطبَّاع، بيروت، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٦٠. ابن قيّم الجوزية، **بدائع الفوائد**، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت.

١٦١. آرنت ليبهارت، **الديمقراطية التوافقية في مجتمع متعدِّد**، ترجمة حسني زينة، معهد الدراسات الاستراتيجية، بغداد، ط١، ٢٠٠٦م.

١٦٢. د. أنطوان مسرة وربيع قيس ود. طوني عطالله، **مرصد التعددية الدينية في لبنان والمجتمعات العربية**، وقائع الندوة التي عُقدت في كلية العلوم الدينية الماستر في العلاقات الإسلامية والمسيحية في (٢٤ و٢٥ تشرين الأول ٢٠٠٩م).

١٦٣. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، **تاريخ ابن خلدون**، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

١٦٤. بيخو باريخ، **إعادة النظر في التعددية الثقافية التنوع الثقافي والنظرية السياسية**، ترجمة مجاب إمام، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، دط، ٢٠٠٧م.

١٦٥. الأب فادي ضو ود. نايلا طبارة، **الرحابة الإلهية لاهوت الآخر في المسيحية والإسلام**، المكتبة البولسية، جونية، ط١، ٢٠١١م.

١٦٦. د. محمد عمارة، **الإسلام السياسي والتعددية السياسية من منظور إسلامي**، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي، ط١، ٢٠٠٣م.

سادسًا: الدراسات المنهجية:

١٦٧. د. مصطفى التير، **مساهمات في أُسس البحث الاجتماعي**، سلسلة الدراسات الاجتماعية، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٩م.

١٦٨. د. عبد الرَّحمن عبد الله ود. حلمي محمد فودة، **المرشد في كتابة البحوث التربوية**، مكتبة المنارة، مكة المكرَّمة، ط٥، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٦٩. جمعية متخرِّجي المقاصد الإسلامية، **كتابة تاريخ لبنان إلى أين؟**، مطابع المقاصد، بيروت، دط، دت.

١٧٠. د. جان شرف، «**الأبعاد المجتمعية للاستقلال**»، بحث مقدَّم لـ مؤتمر اليوبيل الذهبي لاستقلال لبنان، الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب ـ الفرع الثاني، إعداد: قسم التاريخ، ٢٤ ـ ٢٦ تشرين الثاني ١٩٩٣م، دائرة منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٩٦م.

١٧١. د. جودت عطوي، **أساليب البحث العلمي: مفاهيمه ـ أدواته ـ طرقه الإحصائية**، دار الثقافة، عمان، ط٢، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

سابعًا: المراجع الأجنبية

172. *Paul Foulquié, Raymond Saint-Jean, Dictionnaire De La Langue Philosophique, Paris, Presses Universitaires De France, 3e edition, 1978.*

173. *André Lalande, Vocabulaire Technique Et Critique De La Philosophie, Paris, Presses Universitaires De France, 10e édition, 1968.*

ثامنًا: المواقع الإلكترونية

174. *www.almaany.comardict*

175. *www.asharqalarabi.org.ukmarkazt-02052012.doc*

176. *http:fiqh.islammessage.comNewsDetails.aspx?id=1665*

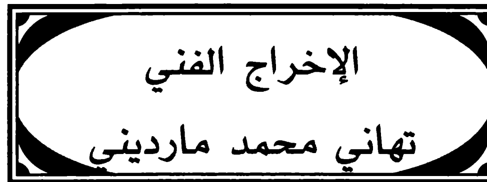
177 *www.aljazeera.netnews*

178. *www.wikipedia.com*



فهرس الموضوعات

إهداء وشكر


الإخراج الفني
تهاني محمد مارديني

